

جامعة حلب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

الاستدلال النحوي في كتاب سيبويه وأثره في تاريخ النحو

رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في الآداب

أعدّها

أمان الدين حتحات

بإشراف

الأستاذ الدكتور مصطفى جطل

١٤١٤هـ

١٩٩٣م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب في اختصاص النحو والصرف.

المرشّح

أمان الدّين حتحات

Cette these est presentee a la faculte des lettres et Sciences Humaines de l`Universite d`Alep en vue de l`obtention du titre de Doctor en grammaire arabe.

Le condidat

HATHAT AMANE EDDINE

الجمهورية العربية السورية

جامعة حلب

تصريح

أصرح بأن هذا البحث " الاستدلال النحوي في كتاب سيبويه، وأثره في تاريخ النحو " لم يسبق أن قُبل للحصول على أية شهادة وهو غيرُ مقدم حالياً للحصول على شهادة أخرى.

التاريخ / / ١٩٩٣م

المرشح

أمان الدين حتحات

Déclaration

Je déclare que la présente étude " L`Argumentation grammaticale dans Le Livre de Sibawayh et son influence sur L`histoire de la grammaire " n`a jamais été présentée en vue de l`obtention d`un titre quelconque et n`est pas simultanément présentée auprès d`un autre établissment.

Date

Le candidat

HATHAT AMANE EDDINE

الجمهورية العربية السورية

جامعة حلب

شـــــهادة

أشهد أن العمل الموصوف في هذه الرسالة، هو نتيجة بحث قام به المرشح أمان الدين حتحات تحت إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى جطل في قسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب.

وأي رجوع إلى بحث آخر في هذا الموضوع موثّق في النص.

حلب في / / ١٩٩٣

المرشـــح
أمان الدين حتحات

المشرف على الدراسة
الأستاذ الدكتور مصطفى جطل

ATTESTATION

Je certifie que la présente thèse est le résultat des travaux de recherche menés par Hathat Amane Eddine le candidat, sous la direction de M. Dr. JATAL MOUSTAFA Professeur au Département d`arabe de la Faculté des lettres et Sciences Humaines de l`Université d`Alep.

Toute référence faite à d`autres travaux de recherche est mentionnée dans le texte.

Date Le \ \ \ 1993

Le candidat
HATHAT AMANE EDDINE

Le Directeur de recherche
Dr. JATAL MOUSTAFA

الإهداء

إلى نبع العطاء الدائم وأصله ...... أمي

وإلى رفيقة الدرب حلوه ، ومره ...... زوجتي منى

وإلى إخوتي، وأخواتي، رمز الصفاء، والنقاء ، والمحبة في دربنا الطويل

وإلى من نَعمَلُ من أجلهم بعد الله، والوطن ..... أولادي:

الشائد ... يوسف ... رهف.

الاستدلال النحوي في كتاب سيبويه

الباب الثاني

الباب الثالث

مقدمـــة البحـــث

كنت قد قدّمت قبل سنوات خلت إلى مجلس كلية الآداب في جامعة حلب رسالة عن <<**الجهود النحوية في تفسير الطبري**>> عرضت خلالها لكثير من المسائل النحوية والصرفية في كتب التفسير منذ ابن عباس (رض) إلى الآلوسي.

وأردت آنذاك أن أبقى في دائرة النحو وما يحفّ به من صعوبة ومخاطر من خلال دراستي لقرآن النحو "**كتاب سيبويه**" لأكون قد لمست أطراف الشاطئ في هذا البحر: كتب التفسير وكتاب سيبويه. وأنا على ثقة بأنني كلما تقدمت خطوة تحسستَ عمقه وهزّتني الرهبة منه لكن عجزي أمامه لم يمنعني من المحاولة لما لقيته من تشجيع أستاذي الدكتور فخر الدين قباوة الذي أعانني على رسم حدوده وأبعاده، ثم كرّمني أستاذي الدكتور مصطفى جطل بملاحظاته القيمة على خطة البحث مما أعطاه بُعداً جديداً آخر حتى أخذ شكله النهائي.

وقد سعيت وراء سيبويه لأني وجدته كغيره من العلماء عاش مرحلة من الأخذ والعطاء، تأثّر بمن سبقه وأثّر فيمن جاء بعده. وهذان التأثر والتأثير جعلا لسيبويه طريقة خاصة ومذهباً محدّداً في تناولاته النحوية يَسّرا له أنْ ينفذ إلى هدفه في تقعيد اللغة العربية وتحديد أبعادها. ولم يكن المذهب الذي اعتمده سيبويه مخططاً له بل كان وليد عصره بما ضمّه من اتجاهات ومذاهب وأصول دينية أو فلسفية أو كلامية. وهذه الأصول رسمت ملامح التفكير عند سيبويه، وهذّبت نبوغَه حتى وصل إلى كتابه.

وقد تأثر سيبويه بعوامل متعددة، رسمت شخصيته في استدلاله النحوي، من ذلك تأثره بالنحاة والفقهاء، وهذا الأمر يجعل أهمية البحث <<**الاستدلال النحوي في كتاب سيبويه، وأثره في تاريخ النحو**>> تكمن في ربطه بين سيبويه من جهة، وعلماء الفقه من جهة أخرى، ويكشف عن تأثره بهم، وبطرق استدلالهم كما أنه ينظر إلى كتاب سيبويه نظرة جديدة تعتمد الكشف عن الاستدلال النحوي فيه، طرقه، وأنواعه وقواعده حيث عَمَدَ صاحب الكتاب إلى الاستدلال لما خالف أصول القواعد العربية، لأن الأصول البسيطة كرفع الفاعل ونصب المفعول به، ورفع المبتدأ والخبر لا تحتاج إلى دليل. كما بيّن البحث أثر استدلال سيبويه في تاريخ النحو، وفيمن عاصره، وفيمن جاء بعده من النحاة.

من أجل ذلك قسمتُ البحث على **ثلاثة أبواب**، درست في الباب الأول الاستدلال النحوي قبل سيبويه، وقسمته إلى فصلين، تناولت في الفصل الأول ضروبَ الاستدلال عند غير النحاة كالفقهاء، والمتكلمين والمناطقة. وتناولت في الفصل الثاني الاستدلال عند النحاة قبل سيبويه وفصّلت الحديث عن طرائق استدلالهم: السماع، والقياس، والعلّة، ومصادر هذا الاستدلال، القرآنِ الكريم، والحديث الشريف، وكلامَ العرب من شعر ونثر، وتحدثت عن تأثر النحاة بالفقهاء. ثم فصّلتُ الحديث عن قواعد الاستدلال عند النحاة: الزمانيةِ والمكانيةِ، وشروط مَن يُؤخَذ عنه، وما يؤخذ به.

أما الباب الثاني: فقد درست فيه الاستدلال النحوي في كتاب سيبويه، وقسمته إلى فصلين، تناولت في الفصل الأول الاستدلال بالنصوص كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب: شعرِهم وأمثالِهم، ولغة التخاطب بينهم، ثم الأمثلة التي يصنعها سيبويه وراعيتُ أن أقسمَ الفصل إلى أبحاث، والأبحاثَ إلى فقرات، ففي حديثي عن استدلاله

بالقرآن الكريم تكلّمتُ على موقفه من القراءات القرآنية والقرّاء ومنهجه في الاستدلال بهما ثم أسهبت في الحديث عن المسائل النحوية في استدلاله بالقرآن الكريم، ووصلتُ إلى نتائج تشير إلى أن سيبويه كان يستدلُّ في الغالبِ لما خرج على الأصول، ووضعت كلّ ذلك في فقرات كثيرة مختلفة رصدت الكتاب كلّه. وفي حديثي عن استدلاله بالحديث الشريف تكلّمت على توجيه الظواهر الإعرابية عنده، وعلّلت إقلال سيبويه من هذا النوع من الاستدلال.

وفي حديثي عن استدلاله بالشعر أسهبت كذلك في الحديث عن مشافهته للأعراب، ونقله عنهم، وأخذه برواية الشيوخ كالخليل، ويونس، والأخفش الأكبر، وعيسى بن عمر، والأصمعي، واستدلاله بالشعر والشعراء بدءاً من الشعر الجاهلي وانتهاءً بالشعر العباسي، وبشعراء مطعون عليهم، ثمّ تحدثتُ عن القبائل التي أخذ عن شعرائها، وعن شواهده وعزوها، وعن استدلاله بأبيات مصنوعة، وعن الضرورة الشعرية في كتابه. ووصلت إلى نتائج عن استدلاله بالشعر فرتبتها ترتيباً موازياً لما فعلته في حديثي عن استدلاله بالقرآن الكريم. وقد اتّبعتُ المنهج نفسه في حديثي عن استدلاله بالأمثال، وبلغة التخاطب، وبالأمثلة المصنوعة.

وتناولت في الفصل الثاني من الباب الثاني الحديث عن استدلاله بغير النصوص كالسماع، والقياس، والعلّة النحوية، ففي حديثي عن السماع عنده تكلّمتُ على اهتمامه به وتنوع أسلوبه في الإشارة إلى سماعه، واقتصار المساع عنده على ما خالف الأصول، وتأويله للمسموع.

وفي حديثي عن القياس تكلّمتُ على قياسه على الكثير، والقليل، والشاذ، وأنواع القياس عنده، كقياس الشبه، وقياس الاستئناس، والقياس التعليمي.

وفي حديثي عن العلّة النحوية تكلمتُ على العلة في الكتاب، ومزج العلّة بالقياس، والعلّة والعوامل، وأقسام العلّة في كتابه كالتخفيف وكثرة الاستعمال، والعلّة القياسية والمعنى، والاستغناء، والتوهّم، والعوض، وطول الكلام، والنيّة، والمشابهة.

أما في الباب الثالث فقد درستُ فيه أثر استدلال سيبويه في تاريخ النحو، وقسمته إلى فصلين موازيين لفَصْلَي الباب الثاني، تناولت في الفصل الأول الاستدلال بالنصوص عند من جاء بعد سيبويه ممّن عاصروه، أو جاؤوا بعده، وتكلمت على الاستدلال بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والأمثال، ولغة التخاطب. وتناولت في الفصل الثاني الاستدلال بغير النصوص فتكلّمتُ على السماع، والقياس، ثم تكلّمت على المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية، ومن سار على نهجهما من النحاة.

وختمتُ البحث بحديث بيّنت فيه أهمّ ما توصلتُ إليه من نتائج.

وسلكتُ في هذا البحث منهجاً جديداً في دراسة الموضوعات النحوية، وترتيبها، وتبويبها، وتصنيفها، فقد نظرت إلى المسائل النحوية من جهة معناها، وقارنتها بالقواعد النحوية البسيطة وقسمتها قسمين: منها ما طابق الأصول المعروفة، ومنها ما خالفها، وبدأت بالتوسع في هذا النهج حتى استوى لي أنّ ما خالف الأصول ينقسم إلى أقسام كثيرة، ومثله ما وافق الأصول له أقسام كثيرة أيضاً.

واهتمامي بالمعنى لم يصرفني عن بنية اللفظ كذلك، ولم يصرفني عن أسلوب سيبويه حيث اتّبعت المنهج الوصفي عندما وقفت على طريقة دخول سيبويه إلى المعالجة النحوية وإشارته إلى شيخه أو إلى أعرابي من الأعراب أو إلى أحدهم من دون أن يذكره.

واتّبعتُ المنهج التاريخي في ترتيب الأبواب النحوية، وما ضمّه كل باب من سردٍ للمعلومات، أو إشارة إلى المصادر والمراجع التي اتّبعتها، وأصحاب المصادر والمراجع متخذاً سنة الوفاة نقطة الارتكاز في ذلك.

ومن الطبيعي أن يكون كتاب سيبويه هو الأساس الذي اعتمدت عليه في هذا البحث، سواء أكان ذلك في تتبعي لسيبويه وآرائه وتناولاته النحوية، أم تتبّعي لمن سبقه من النحاة كالحضرمي، وعيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، وغيرهم.

واعتمدت في استنباط آراء كثير من النحاة على مؤلفاتهم كمعاني القرآن للفرّاء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للأخفش، والمقتضب للمبرّد، ومجالس ثعلب وغيرها.

واعتمدتُ على كتب المتأخرين في نسبة الآراء لأصحابها لاسيما أنّ كثيراً من النحاة ضاعت كتبهم أو بعضها، من ذلك الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري، ومغني اللبيب لابن هشام، وهمع الهوامع للسيوطي وغيرها.

وما من شكٍّ في أن بعض المراجع كان لها أثر بالغ في إنارة الطريق أمامي، وتوفير الجهد بما وصلت إليه من نتائج لا دخر في استمرار العمل، وأخصّ بالذكر نظام الجملة

للدكتور مصطفى جطل، والاحتجاج وأصوله في النحو العربي للدكتور محمد خير الحلواني وغيرها.

وفي الختام، لا أحبُّ أن أتحدث عن الصعوبات التي لاقيتها أثناء إعداد رسالتي، فكلّ ما أطمح إليه أن أكون قد وفّقتُ في إضافة جديدٍ ينتفع به المهتمّون بالدراسة النحويّة، ولبنةٍ في صرح هذا البناء الشامخ.

أما أستاذي **الدكتور مصطفى جطل** عميد كلية الآداب المشرف على رسالتي الذي لقيتُ من عنايته وكرمه، وعلمه ما أعجزُ عن البيان عنه، فقد شَمَلَ هذا البحث برعايته سنواتٍ طويلةً كان فيها أخاً كريماً، وأستاذاً هادياً، أفدتُ من سديد رأيه ودقّة ملاحظته، وسعة صدره الشيءَ الكثير، وقف جانبي في أوقات شطّتْ بي جوانبُ البحث وتفريعاته، ولقنني معاني الأناة والصبر، فما ألبثُ أن أجد نفسي مقتنعاً بصواب ما ارتأى، فأثوب إلى توجيهه، وأسلك السبيل التي أقنعني بسلوكها، وبهذا أرى من الواجب عليّ أن أشكرَ له جهوده العلمية الطيبة التي بَنَتْ من هذا البحث ما بنته فجزاه الله خيراً، وأبقاه ذخراً للعلم والعلماء.

أما أستاذي **الدكتور فخر الدين قباوة** فقد كان من توفيق هذا البحث أنْ وضع لي أساسه وأشرف عليه وهو يخطو خطواته الأولى فكان أن جنّبني -فيما أقدّر- كثيراً من عثرات الطريق، ووعورة مسلكها، أخذ الله بيده إلى تحقيق طموحه في خلْقِ جيلٍ نحويّ يحمل عن قلبه همومَ الهدم، وهمومَ البناء.

ولا أنسى فضلَ اثنين طواهما الثرى، الأستاذ **محمد الأنطاكي** الذي شجعني في كتابة بحث صغير عن الاستدلال النحوي في مرحلة الدبلوم آنذاك، والدكتور **محمد خير الحلواني** الذي عاش معي طيلة فترة كتابة البحث من خلال مؤلفاته المتعددة، وفضله القديم.

كما أشكر للأساتذة **الدكاترة أعضاء اللجنة المناقشة** صبرهم على قراءة البحث فضلهم عليَّ يعجز مثلي أن يُعَبِّرَ عنه أخذ الله بيد الجميع إلى ما فيه صلاحُ هذه الأمّة وسلامة لغتها ونحوها، والله ولي التوفيق.

حلب ٨/٤/ ١٩٩٣.

أمان الدين حتحات

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول:

الاستدلال النحوي قبل سيبويه

٢

الفصل الأول:

ضروب الاستدلال عند غير النحاة

- الاستدلال عند الفقهاء.
- الاستدلال عند علماء الكلام.
- الاستدلال عند المناطقة.

الاستدلال عند الفقهاء:

علم أصول الفقه:

هو العلم بالطرق والأصول التي تكشف للفقيه مناهج استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية وقواعدها، والقواسم المشتركة بينها في حال وجود تعارض في الظواهر، ذلك كي لايضل الفقيه طريقه في الاستنباط. وكان دور علم أصول الفقه بالنسبة إلى الفقيه سبيلاً تبين المسالك التي يسلكها الفقهاء المجتهدون في استنباطهم، واستخراج الأحكام الشرعية من النصوص، وكذلك استخراج العلل التي تُبنى عليها الأحكام للوصول إلى ما قصده الشرع الحكيم، وتضمّنه القرآن الكريم أو السنّة النبوية تصريحاً أو تلميحاً. (١)

والأصول لغة جمع أصل، والأصل هو الأساس الذي يقوم عليه، ومنشؤه الذي ينبت منه، وأصول العلوم قواعدها التي تبنى عليها الأحكام، والأصول في الشرع ما يبنى عليه غيره، ولايبنى هو على غيره، أو هو ما يثبت حكمه بنفسه، (٢)

---

(١)- انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده، ولايجوز الجهل به للقاضي الباقلاني ص ١٥ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة بلا تاريخ. وكتاب الحدود في الأصول لابن خلف الباجي ٤١ تح: نزيه حماد بيروت ١٩٧٣. وأصول الفقه لمحمد أبي زهرة ٣ دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٥٨، وأصول الفقه الإسلامي لإبراهيم سلقيني ٣ جامعة دمشق ١٩٨٤-١٩٨٥ . ومناهج البحث عند مفكري الإسلام لعلي سامي النشار ٦٤-٦٥ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٧.

(٢)- انظر إرشاد الفحول للإمام الشوكاني ٣ الطبعة الأولى ١٢٥٥ هـ. وانظر المعجم الوسيط (أصل) وانظر القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً لسعدي أبو جيب (أصل).

والأصل اصطلاحاً له معان عديدة منها: (١)

١- الدليل : من ذلك قوله تعالى: **وآتوا الزكاة** (٢) أصل في وجوب الزكاة، وهو الدليل الذي أخذ به الفقهاء .

٢- القاعدة: من ذلك قول الفقهاء: لنا أصول في هذا القول؛ أي لنا قواعد نبني عليها أحكامنا.

٣- الراجح: من ذلك قولنا: الكتاب أصل بالنسبة للقياس؛ أي هو راجح عليه ومتقدم (٣).

ولعل أهم المباحث الأساسية التي تناولها علماء أصول الفقه في كتبهم هي:

١- الأدلة : وتكون من القرآن الكريم والسنة، والإجماع والقياس (٤).

٢- الأحكام: من حيث الوجوب والإباحة، والحرمة والكراهة. (٥).

٣- التعارض والترجيح.

٤- الاستنباط: وما يتبعه من العموم والخصوص، الإطلاق والتقييد، والظهور والخفاء.

٥- المستنبط: وهو المجتهد، وصفاته، وأحكام الاجتهاد (٦).

---

(١)- انظر أصول الفقه لسلقيني ٤.

(٢)- البقرة ٢/٤٣

(٣)- هناك معان أخرى منها: المستصحب والمقابل للفرع، والمقيس عليه؛ فالمستصحب هو الأمر الثابت في الماضي يحكم عليه في الحاضر من ذلك أن الطهارة في الماء أصل. والمقابل للفرع كقولهم: الوالد أصل للولد. والمقيس عليه كقولهم: الخمر أصل للنبيذ. انظر أصول الفقه لسلقيني ٥.

(٤)- يتبع ذلك ويتعلق به الاستصحاب، والاستحسان، والاستصلاح، وقول الصحابي، وشرع من قبلنا.

(٥)- يتبع ذلك ويتعلق به الأهلية والحاكم والمحكوم فيه، والمحكوم عليه.

(٦)- انظر أصول الفقه لسلقيني ١٣ وما بعدها.

ولابد من الإشارة هنا إلى أنَّ علم أصول الفقه بموضوعاته المتعددة يرجع كل الأدلة في الشريعة الاسلامية إلى الله تعالى؛ لأنه هو الذي يقضي في هذه الأصول كلها، فالقرآن الكريم رسالة الله إلى خلقه، والسنة بدورها تمحورت حول القرآن الكريم؛ لتبين أحكامه شرحاً وتفصيلاً؛ قال تعالى: **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** (١). أما باقي الأدلة التي يستخدمها الفقهاء، فهي مستمَدة من هذين النبعين.

تــاريخ أصول الفقـــه:

فكَّر العلماء المسلمون في مسائل حياتهم العملية في وقت مبكّر سبق تفكيرهم في مسائل الاعتقاد، وما يحيط به، ويتفرع عنه، وهذا ماجعل مناهج البحث الاسلامي عند علماء أصول الفقه تسبق مناهج البحث لدى علماء أصول الدين(٢).

وفي المقابل فإنّه لايمكن الفصل بين أيّ من العلوم، وبين منهجه وأصوله، ومن ذلك الفقه؛ فقد نشأ علم أصول الفقه ومنهجه مع علم الفقه نفسه. ومن هذا المبدأ فإن عصر الصحابة هو بداية الاستنباط الفقهي منذ عمر بن الخطّاب، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فإذا علمنا أنَّ عليَّ بن أبي طالب (رض) يقول في عقوبة الشارب: إنه إذا شرب هذى، وإذا هذى قذف، فيجب حدّ القذف (٣). أدركنا أن علياً (رض) كان ينهج منهجاً يعرف بالحكم بالمآل، أو الحكم بالذرائع، وهو بدوره يستند إلى أسس منهجية كانت نواة لنشأة منهج أصول الفقه.

---

(١)- النجم ٥٣/٤

(٢)- انظر مناهج البحث للنشار ٦٤.

(٣)- انظر أصول الفقه لأبي زهرة ٩.

وجاء بعد ذلك عصر التابعين الذي اتضحت فيه مناهج الفقهاء أكثر من ذي قبل مع وجود بعض الفروق في مناهج الاستدلال لدى كل منهم تبعاً لاختلاف كل مدرسة من المدارس. وقد تصدّى بعض التابعين للفتوى نظراً لكثرة المستجدات، والحوادث التي تعترض شؤون الحياة آنذاك، منهم سعيد بن المسيب (١) بالمدينة، وعلقمة(٢)، وإبراهيم النخعي(٣) بالعراق الذين اعتمدوا القرآن الكريم، والسـنة الشريفة، وما عُرف عن الصحابة، أما إذا عدموا ما سبق فكانوا ينهجون نهج القياس أو المصلحة، وما يتفرّع عن ذلك بما يخدم الفتوى التي لاتتعارض ومستندات هذه الأصول، كالقرآن الكريم، والسنة الشريفة، وأقوال الصحابة.

بعد عصر التابعين جاء عصر الأئمة المجتهدين كأبي حنيفة (٤)، ومالك (٥) رضي الله عنهما، عندها نجد أن القواعد والأصول في هذه المناهج تتضح، وتتبلور بشكل

---

(١)- هو سعيد بن المسيّب بن حَزْن المخزومي القرشي (١٣-٩٤هـ) سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة جمع بين الحديث، والفقه، والزهد، والورع. انظر الطبقات الكبير لابن سعد ٥/٨٨، ليدن ١٣٢١هـ

(٢)- هو علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الهمداني (٠٠٠-٦٢هـ) تابعي، كان فقيه العراق، ولد في حياة النبي (ص) وتوفي في الكوفة. انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/٢٩٦ مصر ١٣٤٩ هـ.

(٣)- هو إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران النخعي (٤٩-٩٦هـ) من أكابر التابعين صلاحاً، وصدق رواية، وحفظاً للحديث. من أهل الكوفة. مات مختفياً من الحجاج. أنظر طبقات ابن سعد ٦/١٨٨-١٩٩.

(٤)- هو النعمان بن ثابت (٨٠-١٥٠هـ)، إمام الحنيفة الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. إنظر تاريخ بغداد ١٣/٣٢٣-٤٢٣.

(٥)- هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (٩٣-١٧٩هـ) أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. مولده ووفاته في المدينة. أنظر التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٠/٥ حيدر آباد الدكن ١٣٢٥-١٣٢٧هـ.

أكثر جلاء من ذي قبل من خلال ألفاظ صريحة دقيقة واضحة(١).

ضروب الاستدلال عند الفقهاء

الاستدلال لغة طلب الدليل؛ ويطلق في العرف على إقامة الدليل مطلقاً من نص أو إجماع، أو غيرهما، وقيل: هو في عرف أهل العلم تقرير الدليل لإثبات المدلول (٢).

والاستدلال عند الفقهاء مستمد من التشريع الإسلامي الذي يتجلى بالقرآن الكريم؛ لأنه الأساس الذي يعّول عليه في سائر طرق الاستدلال التي تدور حوله لتبينه، أو لتكشف أحكامه، ذلك أن الإنسان المسلم لايقبل إلا حكم الله تعالى: **إنِ الحكْمُ إلا للهِ** (٣).

أما الدواعي والدوافع التي كانت وراء توسع علم الاستدلال حتى تطور واستوى، فلم تكن وليدة بعض الظروف المرحلية التي مرّ بها المجتمع الإسلامي، ولم تكن نتيجة لأحداث معينة تخفي وراءها أهواء ومصالح، بل هي سماوية الأصول تتصل بالإنسان، وعلاقته بخالقه، وما يستتبع هذه

---

(١)- انظر فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال لابن رشد ٢٤ طبعة القاهرة. مقدمة ابن خلدون ٢١٨ القاهرة بلا تاريخ. مناهج البحث للنشار ٦٥-٦٦.

(٢)- انظر الكليات لأبي البقاء الكفوي ٤/١٧٤ دمشق ١٩٨١.

(٣)- الأنعام ٦/٥٧.

العلاقة من طاعة لأوامره، وتقيّد بمشيئته؛ قال تعالى: **فأقم وجهكَ للدين حنيفاً فِطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها**(١).

وطرق الاستدلال هي منهج البحث عند الفقهاء، بل هي منطق مسائله، أو بمعنى أكثر شمولية هي: ‹‹ قانون عاصم لذهن الفقيه من الخطأ في الاستدلال على الأحكام ››(٢). وأمام هذه الأصول والقواعد التي وضعها علماء المسلمين نرى أنها ترتكز بمجملها على القرآن الكريم، فهو أصل الأصول، وهو المقدم على سائر المصادر في استنباط الأحكام، فإن لم نجد فيه رجعنا إلى السنة، وإن لم نجد في السنة رجعنا إلى الإجماع، وإن لم نجد في الحكم إجماعاً رجعنا إلى القياس الذي هو آخر الأدلة الأصلية الأربعة؛ قال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيئ فردّوه إلى الله والرسول**(٣). أما طرق الاستدلال الفرعية فكثيرة(٤)، ولم يتفق جمهور العلماء على الاستدلال بها.

---

(١)- الروم ٣٠/٣٠.

(٢)- مناهج البحث للنشار ٦٥.

(٣)- النساء ٥٩/٤.

(٤)- منها: الاستحسان، والمصالح المرسلة، والعرف، ومذهب الصحابي، وشرع من قبلنا، وسد الذرائع، والاستصحاب، انظر أصول الفقه لسلقيني ١٣٥.

مصادر الاستدلال الأصلية

١- القرآن الكريم :

يبقى القرآن الكريم مصدرا للأحكام الشرعية ؛ لأنه كلام الله تعالى، ذلك أن قول الرسول (ص) -وهو مصدر من مصادر التشريع- إيحاء من عند الله، وخبر عنه (١)؛ قال تعالى : **وما ينطق عن الهوى * إنْ هو إلا وحي يوحى** (٢)، ثم إن الإجماع يكون مستنداً إلى القرآن أو السنة، فالحكم أولاً وأخيراً لله وحده، وكل الأدلة تعود إلى الله تعالى وحده.

ولعل من أبرز خواص القرآن لغته العربية التي امتاز بها من غيره من الكتب السماوية، وخروج لفظ القرآن عن هذه اللغة سواء أكان هذا الخروج تفسيراً أم ترجمة لايعد قرآناً مهما بلغ من سمو الكتابة أو الأسلوب، فلا تصح ممارسة العبادات بها، لأن ألفاظ القرآن ومعانيه من عند الله، وما الرسول إلا حامل لهذه الأمانة ليبلغها لبني البشر، ومفسّر لما يحتاج منها إلى تفسير وكلام الله هذا وصلنا بطريق التواتر، رواه جمع كثير عن جمعٍ كثير فلا يرقى إليه شك لأنه يستحيل أن يتفق الرواة كلهم على الكذب، وتواتر القرآن الكريم ثابت كتابة، ومشافهة منذ الوحي إلى يومنا هذا، فقد كتبه كتّاب الوحي، وقام الرسول(ص) بتحفيظه لجمع كبير من الصحابة، ثم تناقلته الجموع الكبيرة حفظاً في الصدور، وجمعاً في الكتب جيلاً وراء جيل إلى أن وصل إلينا دون أن يمسه تغيير، أو يرقى إليه شك؛ قال تعالى: **إنا نحن نزّلنا الذكْر، وإنّا له لحافظون**(٣).

---

(١)- انظر الأحكام في أصول الأحكام للآمدي ١/٢٢٨-٢٤٠ مطبعة المعارف ١٣٣٢هـ وإرشاد الفحول للشوكاني ٢٩-٣٢.

(٢)- النجم ٥٣/٣-٤.

(٣)- الحجر ١٥/٩.

وقد استوعب القرآن الكريم معظم شؤون الحياة، وأحاط بها إحاطة تامة، واشتمل على الأحكام التي ترتبط بالإنسان في حياته، واستدل الفقهاء بالقرآن الكريم للوصول إلى الأحكام المستمدة من روح الشريعة الإسلامية، وهي كثيرة منها:

أ- العقائد: وتشمل ما يجب على المسلم الاعتقاد به كالايمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الأخر، والايمان بالقضاء والقدر سواء أكان خيراً أم شراً.

ب- العبادات: وتشمل العلاقة بين العابد والمعبود، والخالق والمخلوق كالصوم والصلاة، والحج والزكاة، والصدقات، وغيرها. وكانت أوامر الله تعالى لخلقه أوامر إجمالية؛ فلم يبين مثلاً أركان الصلاة، وأوقاتها تفصيلاً، بل ترك تفصيل هذه الأوامر الإجمالية لرسوله (ص) الذي شرح كلَّ مجمل، وفصّل كلّ عموم، قال رسول الله (ص): ‹‹**صلّوا كما رأيتموني أصلي**›› وقال ‹‹**خذوا عني مناسككم**››.

جـ- الأخلاق: وتشمل ما يرسم الإطار العام لحياة الإنسان المسلم، وعلاقته بأخيه الإنسان، وما يجب عليه أن يتحلى به من خلق وفضيلة، وعلاقة اجتماعية وسلوك قويم.

د- أحكام المعاملات: وهي كثيرة شاملة لكل مناحي الحياة مستوعبة مشاكلها، وهمومها منظمة أبعادها في الحاضر والمستقبل سواء أكان هذا الاستيعاب للإنسان فرداً أم جماعات، فنظمت حياة الأسرة، وضبطت شؤونها من زواج، وطلاق، ونفقة وميراث، وغير ذلك من العلاقات القائمة بين أفراد الأسرة من الأبوين، والأولاد، والأقارب.

كما رسمت أحكامُ المعاملات هذه علاقةَ الناس فيما بينهم كالحقوق، والمنازعات، وما يتفرع عنها من أمور مدنية أخرى، إضافة إلى إحاطة هذه الأحكام بأمور الحق والعدل، والشهادة، وكذلك الأحكام الاقتصادية التي تنظم العلاقة بين الأغنياء والفقراء.

وقد تضمن القرآن الكريم تجاه بعض الشؤون أحكاماً عامة إجمالية، لم يتعرض لها بالتفصيل، وترك أحكامها الاستدلالية بين يدي المجتهدين ليفصلوا فيها، واضعين هذه الأحكام العامة نصب أعينهم في استدلالهم تبعاً للظروف، والمصالح، وهذا ما أكسب القرآن الكريم ميزة الخلود والشمول ليبقى دائماً ملبياً حاجات الأمة، والمجتمع.

وقد وقف الفقهاء أمام نوعين من الاستدلال :

١- استدلال قطعي: وذلك لورود آيات أعطت أحكاماً ثابتة لامجال فيها للاجتهاد، وإبداء الرأي، كما هو الحال في قوله تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**(١) وقوله: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ** (٢) فالقطع ثابت مما يدفع الاجتهاد، والاختلاف في الفهم، والتفسير.

---

(١)- النساء ١١/٤.

(٢)- النور ٢/٢٤.

ب- استدلال ظني: ذلك إذا كان النص القرآني يحتمل أكثر من معنى، وكل هذه المعاني لاتنافي والمعنى العام للنص، وروح الشريعة الإسلامية؛ من ذلك قوله تعالى: **والمطلقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهِنَّ ثلاثةَ قروءٍ** (١)

٢- السـنة (٢)

عد علماء الفقه السنة النبوية مصدراً تشريعياً أخذوا به إذا ثبت نقله بسند صحيح، واستدلوا بها في الوصول إلى أحكامهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى بيَّن أهمية الرسول(ص) في كثير من أحكام الدين الإسلامي، قال تعالى: **وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبيّنَ للناسِ مانُزّلَ إليهم** (٣)

---

(١)- البقرة٢/٢٢٨. والقَرء أو القُرء يراد به الحيض عند بعض الفقهاء، أو يراد به الطهر عند بعضهم الآخر، وهذا النوع من الاستدلال يفتح الباب أمام المجتهدين لتفسير النص القرآني الذي ورد بدلالة ظنية لاقطعية. انظر الكشاف عن الحقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري١/٣٦٥. دار المعرفة، بيروت. تفسير النسفي١/١٤٦ منشورات دار الكتاب العربي، تفسير القرآن العظيم لابن كثير١/٢٦٩ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩م.

(٢)- السنّة في اللغة هي الطريقة، سواء أكانت حميدة أم ذميمة، وهي العادة. والسنة من الله هي حكمه في خليقته، ومنه قوله تعالى: **سنةَ الله في الذين خلَوا من قبلُ ولن تجدَ لسنة الله تبديلا.** *الأحزاب ٣٣/٦٢. والسنة اصطلاحاً: ماشرعه الرسول (ص) قولاً وفعلاً، أو تقريراً كما تطلق على ماأمر به النبي (ص) ونهى عنه، وندب إليه مما لم ينطق به الكتاب العزيز. انظر المستصفى للإمام الغزالي ١/٨٣ ط١، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ١/٢٤١-٢٧٩ مطبعة المعارف ١٣٣٢هـ. روضة الناظر لابن قدامة المقدسي ٤٦، المطبعة السلفية ١٣٨٧هـ. القاموس الفقهي لأبي جيب ١٨٤.

(٣)- النحل ١٦/٤٤.

والأدلة على وجوب الاستدلال بالسنّة ثابتة واضحة:

أ- الدليل القرآني:

قال تعالى: **وما كان لمؤمنٍ ولامؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكون لهمُ الخيَرةُ من أمرهم**(١) وقوله تعالى: **يا أيها الرسول بلّغْ ما أنزل إليك من ربّك، وإنْ لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالتَهُ** (٢) فالسنّة النبوية هي تبليغ رسالة الخالق، وقد تلقى أمراً بتبليغ الرسالة إلى الخلق. إضافة إلى أن الله قد قرن الايمان بالرسول بالايمان بالله، قال تعالى: **فآمنوا بالله ورسولِهِ النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماتِهِ، واتّبعوهُ لعلّكم تهتدون**(٣).

ب- الدليل النبوي:

ذكر الرسول (ص) أن الأحكام تؤخذ من السنّة كما تؤخذ من القرآن الكريم، وأن الاستدلال بالسنّة النبوية مساوٍ للاستدلال بالقرآن بدليل قوله (ص): <<**تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما: كتابَ الله وسنّتي**>>(٤) وقوله: <<**يوشك رجل متّكئ على أريكته يحدّث بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإن ما حرّم رسولُ الله مثلُ الذي حرّم الله.**>>(٥)

---

(١)- الأحزاب ٣٦/٣٣.

(٢)- المائدة ٦٧/٥.

(٣)- الأعراف٧ /١٥٨.

(٤)- سنن المصطفى لابن ماجه، القزويني ٢٥٢/٢، ٢٥٣، ٢٥٤. ط١ المطبعة التازية بمصر، وسنن أبي داود ١٨٢/٢ راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٥)- سنن ابن ماجة ٩/١-١٠، صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي ٣٢/٩ ط١ ١٩٣٤م بمصر.

جـ- الدليل الصحابي: أجمع الصحابة على أنّ السنّة النبوية تكتسب ميزة تشريع الأحكام مثلها مثل القرآن الكريم في التحليل والتحريم، وعلى المسلمين واجب وهو اتّباع ما جاء عن النبي (ص) من غير تمييز بينه وبين الأحكام التي صدرت عن القرآن الكريم (١)

فالسنّة النبوية مكملة للقرآن الكريم في توضيح الفرائض، والأحكام الشرعية. حتى عدها الفقهاء مع الكتاب أصلاً واحداً لأنها نص، ويعوّل عليهما في الاستدلال تعويلاً تاماً. (٢)

٣- الإجـــماع : (٣)

هو مصدر تشريعي كبير يمدّ الأحكام بدم جديد يساير فيه الأزمان بما يتناسب مع مصلحة المجتمع في شتّى المجالات، وظهرت فكرة الاجماع أصلاً بعد وفاة الرسول(ص) حين اعترضت الصحابة مشـــكلاتُ المجتمع التي لم يتعرض لها القرآن الكريـــم ولم يروا لها أثراً في الســـــنة الشـريفة. فأبو بكر

---

(١)- وهناك الدليل المعقول، ذلك أن المسلمين لولا السُّنة لعسر عليهم الوصول إلى دقائق بعض الفرائض التي أوجبها الله، من ذلك الصلاة والزكاة كقوله تعالى: **أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** * البقرة ٢/٤٣، وقوله: **كتب عليكم الصيام** * البقرة ٢/١٨٣.

(٢)- من هؤلاء الفقهاء الشافعي. انظر أصول الفقه لأبي زهرة ٨٢-٨٣ وأصول الفقه الإسلامي لسلقيني ٦٣-٧٨.

(٣)- الإجماع لغة الاحكام، والعزيمة على الشيء، ومنه قوله تعالى: **فاجمعوا أمركم** * يونس ١٠/٧١ وهو الاتفاق ؛ يقال أجمع القوم على كذا إذا اتفقوا عليه. والاجماع عند الفقهاء: هو اتفاق رأي المجتهدين من أمة محمد (ص) بعد وفاته على أمر من أمور الدين. انظر الإحكام في أصول الاحكام للآمدي ٢٨٠/، وروضة الناظر لابن قدامة المقدسي ٦٧، وانظر إرشاد الفحول للشوكاني ٧١-٩٠، وانظر أصول الفقه الإسلامي لسلقيني ٨١ والقاموس الفقهي لأبي جيب ٦٦.

كان ينظر في القرآن الكريم والسنّة الشريفة- إذا ورد عليه الخصوم- فإن أعياه أن يجد فيهما شيئاً دعا رؤوس الناس، وخيارهم واستشارهم، فإن اجتمعوا على أمر قضى به. وكذلك كان عمر (رض) يستشير أصحابه على الرغم من تفقهه في الدين، فيأخذ آراء الصحابة، ويحكم بما اتفقوا عليه. ذلك أن القرآن الكريم أمر المسلمين بالمشاورة في تدبير شؤون المسلمين؛ قال تعالى: **وشاورهم في الأمر**. (١) وقال: **وأمرهم شورى بينهم**(٢).

وقد عدّ الفقهاء الحكم المستند إلى الاجماع حكماً قطعياً يجب اتباعه، وتحرم مخالفته ويبطل تجاهه كلّ نزاع أو اجتهاد، وهناك أدلة متعددة تبين قوة الاستدلال بالإجماع:

أ- الدليل القرآني :

استمد الإجماع حجّيته من القرآن الكريم: قال تعالى: **ومَن يشاقِقِ الرسولَ من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولّى، ونُصْلِه جهنمَ وساءت مصيراً**(٣) فما أجمع عليه أئمة الاجتهاد من المسلمين هو سبيل المؤمنين الوارد في الآية الكريمة، وهو الحق الذي يتعين اتّباعه، وهذا ما يدل على أن الإجماع هو الحق والصواب .

---

(١)- آل عمران ١٥٩/٣.

(٢)- الشورى ٣٨،٣٧/٤٢.

(٣)- النساء ١١٥/٤.

ب- الدليل النبوي:

قال الرسول (ص): <<إن أمتي لاتجتمع على ضلالة>>(١) من هذا الدليل، وماشابهه استمد الإجماعُ حجّيته من السنّة الشريفة، فمجتهدو الأمّة لايجمعون على الضلالة، واجتماعهم لايكون إلا على حق، ومنه قوله (ص): <<**مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن**>>(٢)

جـ- الدليل المعقول :

يلجأ الفقهاء في استنباط أحكامهم إلى مافيه نص، أو إلى الاستدلال بما قامت عليه الشريعة من دلائل أخرى(٣) واجماع المجتهدين على حكم، واتفاقهم عليه دليل على أنهم مستندون إلى مستند شرعي حتماً؛ ذلك أنهم لو تبعوا أدلة غير شرعية، وراحوا وراء أدلّة ظنية صرفة لما ظهر بينهم أي اتفاق لأن ما يتبع العقل، والهوى يكون مصيره الخلاف(٤).

٤ - القيـاس (٥)

هو إلحاق صورة مجهولة الحكم بصورة معلومة الحكم لأجل أمر جامع بينهما

---

(١)- سنن المصطفى لابن ماجه ٢/٤٦٤ ط١ مصر.

(٢)- مسند ابن حنبل ١/٣٧٩

(٣)- من ذلك الاستحسان، والاستصحاب، ومراعاة العرف.

(٤)- انظر أصول الفقه لخلاف ٥٢.

(٥)- القياس في اللغة هو التقدير، ومنه قاس فلان المسافة إذا قدّرها. وهو يستعمل في التشبيه أيضاً، وهو تشبيه الشيء بالشيء، يقال: هذا قياس ذاك إذا كان بينهما مشابهة. وهو ردّ الشيء إلى نظيره . والقياس اصطلاحاً هو حمل أحد المعلومين على الآخر في إثبات حكم أو إسقاطه بأمر يجمع بينهما. انظر المستصفى للإمام الغزالي ٢/٥٤-٧٠. روضة الناظر لابن قدامه المقدسي ١٤٥، ١٨٥ وانظر الكليات لأبي البقاء الكفوي ٤/٢٣، إرشاد الفحول للشوكاني ١٩٨-٢٣٣، القاموس الفقهي لأبي جيب ٣١٢.

يقتضي ذلك الحكم(١)، وأساس القياس هو تعليل النصوص سواء أكانت نصوصاً من القرآن الكريم، أم من السنّة الشريفة، والوقوف على علل هذه النصوص، وماتناولته من أحكام؛ وبهذا يتمكن الفقيه المجتهد من معرفة هذه العلل، ويبحث عنها في وقائع أخرى لم تتناولها النصوص(٢).

وهذا ما جعل الفقهاء من عصر الرسول (ص) إلى يومنا هذا يستعملون القياس في أحكامهم وقد أجمعوا على أن نظير الحقّ حق، ونظير الباطل باطل، ولم يجيزوا لأحد أن ينكر القياس لأنه تشبيه الأمور والتمثيل عليها. (٣)

والحكم المبني على القياس يكتسب حجيّةً كبيرة في الاستدلال به، وقد وضعه الفقهاء في المرتبة الرابعة بعد القرآن، والسنّة، والإجماع. وهو حكم ثابت، ومصدر من مصادر التشريع، ويجب الأخذ به، والعمل بموجبه. والأدلة على قوته كثيرة منتزعة من مصادر متعددة :

١- الدليل القرآني:

برزت حجية الاستدلال بالقياس من القرآن الكريم في مواضع كثيرة؛ من ذلك قوله تعالى: **ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**(٤)

(١)- انظر كتاب الحدود في الأصول للباجي ٦٩ تح: نزيه حماد بيروت ١٩٧٣م، مفتاح الوصول في ابتناء الفروع على الأصول للشريف التلمساني المالكي ١٥٨ دار الكتاب العربي مصر ١٩٦٢م.

(٢)- انظر أصول الفقه لأبي زهرة ١٨٨ وما بعدها.

(٣)- انظر أصول الفقه لأبي زهرة ١٧٤.

(٤)- النساء ٤/٥٩.

والواضح من الآية الكريمة أن الردّ إلى الله، والرسول يكون بفهم أحكامهما، والقياس عليهما في الاستدلال، وهو القياس عينه.

ب- الدليل النبوي:

في الحديث الشريف أمثلة كثيرة على أن القياس وجه من وجوه الاستدلال الذي يجب اتّباعه؛ من ذلك أن امرأة خثعميّة دخلت على رسول الله، وقالت له: يارسول الله إن أبي أدركته فريضة الحج شيخاً زمناً لايستطيع أن يحجّ، إن حججتُ عنه أينفعهُ ذلك ؟ فقال لها: ‹‹**أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته، أكان ينفعه ذلك؟** قالت: نعم، قال: **فَدَيْنُ الله أحقُّ بالقضاء**››(١) فقد استدل رسول الله (ص) على جواز حجّ المرأة بدل أبيها الذي أدركته فريضة الحج في وقت لايستطيع فيه الحج قياساً على جواز قضاء الدَّين بدلاً من أبيها وهو وجه من وجوه القياس الذي أخذ به الرسول (ص) في الوصول إلى حكمه.

ج- الدليل الصحابي:

ثبت عن الصحابة احتجاجهم بالقياس، وعملهم به في كثير من الأخبار التي نقلت عنهم، والقياس لايعدُّ تجاوزاً للنصوص، وتركاً لها، إنما هو فهم لمغزاها وتفسير لأبعادها بمدى أبعد مما هي عليه؛ من ذلك أن بعض الصحابة قد بايع أبا بكر لأن الرسول(ص) اختاره ليكون إماماً في الصلاة، فقاس الصحابة الخلافة -وهي إمامة- على

---

(١)- صحيح البخاري ١٣٢/٢ طبع عثمان خليفة، سنن النسائي ١١٧/٥ بشرح السيوطي.

إمامة الصلاة؛ وقال بعضهم:‹‹اختاره لأمر ديننا أفلا نختاره لأمر دنيانا››(١) ومنه ما كتبه عمر(رض) إلى أبي موسى الأشعري عندما كلّفه ليكون قاضياً للبصرة؛ قال عمر (رض): ‹‹الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنّة، اعرف الأشباه والنظائر، ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها عند الله، وأشبهها بالحقّ فيما ترى››(٢).

د- الدليل المعقول:

لو نظرنا إلى الحكمة من الأحكام التي شرعها الخالق لرأينا أنها تنصبُّ في مصلحة عباد الله. فإذا وقفنا أمام أمر لانص فيه، وأمر آخر فيه نص صريح يقضي فيه، وكان بين الأمرين علة حكم واحدة فإن الحكمة تقضي أن يتساوى الأمران في الحكم على الرغم من أنّ أحدهما فيه نص، والآخر لانص فيه.

فالله سبحانه وتعالى حرّم الخمر لضررها، فتحريم أنواع المخدرات يتفق مع العقل والمنطق؛ لأن فيه ضرراً يقضي بتحريمه قياساً على تحريم الخمر للعلة ذاتها. والشريعة الإسلامية عامّة شاملة لكلّ زمان ومكان محيطة بمصالح العباد وافية لحاجاتهم على مرّ العصور بينما نرى أن النصوص في الكتاب والسنّة محدودة مقيّدة، وهذا ما يدفع بالقياس ليكون ركناً هاماً لمسايرة روح العصر، وتطور الزمن.

---

(١)- أصول الفقه لأبي زهرة ١٧٧.

(٢)- كشف الأسرار للنسفي ٢/١٠٢، وانظر أصول الفقه الإسلامي لسلقيني ١٣٢.

والقياس مرادف للاجتهاد بالرأي، وهما أصل من أصول الأحكام الفقهية، وقد استند المسلمون على القرآن فالسنّة في استدلالهم، ثم استجدت معطيات كثيرة وضعتهم أمام مواقف تتطلب الحكم، إما بحسب العرف، وإما بحسب إدراكهم لمعنى الخير. عندها نشأ ما يسمى بالاجتهاد فيما لم يرد فيه نص؛ ذلك أن القرآن لم يتعرّض إلى الأمور الجزئية في الحياة اليومية مما جعل المسلمين يُلحقون هذه الأمور الجزئية بالأحكام العامة، فاتسعت دائرة البحث في الرأي، وقُعّد حتى سُمّي قياساً، وعلى الرغم من الفروق بينهما فالحرية العقلية في الرأي أوسع منها في القياس، وكذلك مهما كانت القيمة العقلية للقياس كبيرة فإنه يأتي في المرتبة الرابعة بعد القرآن، والسنّة، والإجماع. (١)

---

(١)- انظر تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لمحمد علي أبي ريّان ٤٩-٥٠.

أما طرق الاستدلال الفرعية فهي كثيرة، ولم يتفق الفقهاء على صحة الاستدلال بها، فمنهم من أجاز الاستدلال بها، ومنهم من أنكر ذلك، ومن أشهر هذه الطرق: الاستحسان، والعرف، والمصالح المرسلة، ومذهب الصحابي، وشرع مَن قبلنا، وسدُّ الذرائع، والاستصحاب(١).

الاستدلال عند علماء الكلام

ناقش علماء الكلام مسألة كلام الله، وأثاروا النقاش حوله حتى صار محوراً أساسياً لمجمل موضوعاته فأُطلق (الكلام) على مباحث كلام الله، ومسائل أصوله.

وتميّز علم الكلام بقوة حجّته، ووضوح أدلّته حتى صار هو الكلام دون غيره كما نقول في الأقوى من كلامين: هذا هو الكلام، ثم أصبح الكلام في عهد المأمون مصطلحاً مرادفاً للفظ الجدل(٢).

---

(١)- تعرّض ابن قيّم الجوزية (ت.٧٥١ هـ) إلى طرق أخرى في استدلال الفقهاء، ثبتت صحتها، وجرى الحكم بموجبها وهي: الاستدلال بالتواتر، والآحاد، والاستفاضة، والشهادة، والإقرار، والفراسة، والقرعة، والقافة. انظر في طرق الاستدلال الفرعية، وما تعرض إليه ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوازية ص ٥،٧،١٠،١١،٧٦،٨٥،٨٧،٨٨،٢٠٣،٢١٠،٢١٢،٢١٣ تح: محمد جميل غازي، جدة ١٩٨٥م. وانظر في تفصيل ذلك المستصفى للغزالي ١/١٣٥،١٣٧،١٣٩،١٤٠، وروضة الناظر لابن قدامة المقدسي ٨٢،٨٤،٨٦، والموافقات للشاطبي ٢/٣٥٨ والجامع الكبير للسيوطي ١/١٠٣٥، وانظر أصول الفقه الإسلامي لسلقيني ١٣٦، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٧،١٦٩،١٧٥، أصول الفقه لأبي زهرة ٢٤١،٢٨٨. القاموس الفقهي لأبي جيب ٨٩،٢٠٨،٢٤٩.

(٢)- اتخذ (الكلام) أيضاً معنى يدل على منهج عقلي خاص سمته الدفاع عن العقائد الإيمانية بأدلة عقلية. كما أطلق على كل ما يصاغ كتابة، أو مشافهة على نمط منطقي أو جدلي، ويتناول كلّ ما يقف عند المسائل التي تمس العقيدة. انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/٣٦، وانظر المواقف لعضد الدين الإيجي ١٦، وانظر الانتصار للخياط ٧٢ حيث يقول: «لتعلم أن الكلام لهم (أي للمعتزلة) دون سواهم». وانظر تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لأبي ريّان ١٢٩.

ضروب الاستدلال عند علماء الكلام:

ممّا لاشكّ فيه أن لكل علم من العلوم طرائق للاستدلال، ومناهج يسير العلماء على هديها، وقد تتفق بعض العلوم بطرق الاستدلال كما هو الحال عند الفقهاء، والنحاة، وقد تتّسع الهوّة أحياناً كما هو الحال عند علماء الكلام. وقد سلك علماء الكلام في استدلالهم ثلاثة أضرب هي:

١- البرهان الكلامي:

يصدر المتكلمون عن مقدمات تسلموها من خصومهم، وقد اضطرهم إلى تسليمها إمّا التقليد، أو الإجماع، أو مجرد القبول من القرآن أو الأخبار، وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلّماتهم(١) فالمتكلم لايعنيه أن يبدأ بمقدمات فنتائج، إنما يبدأ من أقوال خصمه إلى أن يصل إلى نتائج تبرهن تناقض أقوال الخصم فتبطلها، فإذا وصل المتكلم إلى إبطال نتائج خصمه، فإنّ مقدماته باطلة لامحالة(٢)

٢- التأويـل :

عندما يجد المتكلّم نفسه أمام نصوص تعارض رأيه الذي يتبناه يلجأ إلى تأويل هذا النص بما يناسبه، وكانت الآيات المتشابهات مجالاً خصباً لطريقة التأويل عند علماء الكلام، وكان لها الأثـر الكبير فـي ظهـور هذا العلـم(٣)؛ من ذلك قوله تعالى: **قل إنّ الفضل بيد اللـه**(٤)،

---

(١)- انظر المنقذ من الضلال للغزالي ص ١١٨.

(٢)- انظر تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لأبي ريّان ١٣٢.

(٣)- انظر مقدمة ابن خلدون ٣/١٠٥٠ وما بعدها طبعة لجنة البيان وفيه حديث عن مسألة الاختيار والجبر من خلال الآيات المتشابهات كقوله تعالى: **وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى** الأنفال ٨/١٧ وقوله: **ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك** النساء ٤/٧٩.

(٤)- آل عمران ٣/٧٣.

وقوله: يد الله فوق أيديهم (١) وقوله: الرحمن على العرش استوى (٢).

٣- التفويض:

وهو نوع من الإقرار بأن ما يتعرض له المتكلمون هو فوق إدراك العقل، وأن على الإنسان أن يترك الأمر لله، وهذا الأمر كان عند الأشاعرة على وجه الخصوص، ولم يكن شائعاً عند المعتزلة ذلك أن هناك أموراً يعجز العقل عن إدراكها، ولكن الايمان بها واجب، وعلى الإنسان ألاّ يظن بأنه قادر على الإحاطة بالكون، وتفاصيله، وهذا ما جعل الله سبحانه وتعالى ينهانا عن النظر في الأسباب؛ قال تعالى: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٣) لذا فإن الايمان المطلق بالله هو واجب، وتفويض الأمر إليه ضروري؛ لأنّ كثيراً من الأمور جاءت عن طريق الوحي بما يتضمّنه ذلك من أسرار إلهية يعجز العقل عن استيعابها، وإدراكها. (٤)

رأي في الاستدلال عند علماء الكلام:

حثّ عليّ (رض) على الجدال في الحق، إذ بعثَ ابنَ عباس (رض) إلى الخوارج فكلّمهم، فقال: لِمَ تنقمون على إمامكم؟ قالوا: قاتل ولم يسبِ، ولم يغنم. فقال: ذلك في قتال الكفار، أرأيتم لو سُبيت عائشة(رض) في يوم الجمل، فوقعت عائشة في سهم أحدكم، أكنتم تستحلّون منها ما تستحلّون من شلكِكم، وهي أمّكم في نصّ الكتاب ؟ فقالوا: لا، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان(٥)،

(١)- الفتح ٤٨/١٠.

(٢)- طه ٢٠/٥.

(٣)- الأنعام ٦/٩١

(٤)- انظر مقدمة ابن خلدون (فصل علم الكلام).

(٥)- انظر قواعد العقائد للغزالي ٢٩.

إن الفوز الذي لقيه ابن عباس في مجادلته للخوارج لايعني أنّ الحثّ عليه كان مطلقاً، وإنما كان في موقف معين رأت بصيرة علي (رض) أنه ضرورة .

وقد ذهب كثيرون إلى النهي عن الجدال حتى إن بعضهم ذهب إلى تحريمه (١) وكره بعض المسلمين البحث في أصول الدين وعقائده، ونشطوا في تشريعات الحياة العملية، وعلم الفقه الذي نظمها(٢)، ورأى بعضهم تشابها بين علم الكلام من جهة، والفلسفة من جهة أخرى، لكنّ الفرق كبير ذلك أنّ المتكلمين يختّصون بدين معيّن، ويتجادلون فيه، أمّا الفلاسفة فإنهم يبحثون عن الحقيقة على وجه العموم، والمتكلم يبدأ من مسلمات عقائدية، ثم يبحث عن طرق إثبات صحة هذه المسلمات، فهو يسلّم بوجود الله ووحدانيته، ثم ينطلق لإقامة الأدلة على ذلك ليقف معها أمام خصومه، أمّا الفيلسوف فإنه لايسلّم بأي شيء ، بل يحاول البرهنة على وجود الله ووحدانيته؛ لأنه في الأصل لايُسلّم بهذا الوجود.(٣)

الاستدلال عند المناطقة (٤)

احتلّ علم المنطق مكانة بارزة عند بعض المفكرين المسلمين، حتى قال بعضهم: إن مَنْ لايحيط بعلم المنطق، فلا ثقة بعلومه قطعاً، لذلك عُدّتْ معرفة منطق أرسطو أصلاً من أصول

---

(١)- انظر المصدر السابق ٢٤ وما بعده؛ حيث يورد الغزالي قول الإمام الشافعي: ‹‹لأن يلقى الله عز وجل العبد بكلّ ذنب، ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام››.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣٢،٣٤،٣٨، حيث يقول: ‹‹إن الفقه هو قوت القلوب المؤمنة، أما علم الكلام فهو دواء النفوس المريضة.›› وانظر تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لأبي ريّان ٤٧.

(٣)- انظر تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لأبي ريّان ١٣٢.

(٤)- المنطق لغة: الكلام، وهو للإنسان ولغيره، قال تعالى: **عُلّمنا منطق الطير** النمل ٢٧/١٦. والمنطق اصطلاحاً : علم يعصم الذهن من الخطأ في الفكر، ويقال: فلان منطقي: أي عالم بالمنطق، أو يفكر تفكيراً مستقيماً. انظر لسان العرب، والمعجم الوسيط (نطق).

الاجتهاد وهو فرض كفاية على المسلمين، وهذا ما دفع فقهاء المسلمين لتوجيه التهم للمناطقة، والاعتراض على أقوالهم وأفكارهم(١)

ضروب الاستدلال عند المناطقة:

تأثر المناطقة المسلمون بغيرهم تأثراً بالغاً، وظهر ذلك بوضوح في طرقهم التي اعتمدوها في استدلالهم؛ وهي:

١- القياس(٢)

وهو أبرز الأجزاء الجوهرية في منطق أرسطو من ذلك قولنا: محمد إنسان، وكل إنسان يموت، فمحمد يموت. أمّا المناطقة المسلمون فقد أفادوا ممّن سبقهم، وطوّروا القياس بأن قسموه إلى أقسام كثيرة لم يكن أرسطو قد ذكرها(٣)

---

(١)- انظر مناهج البحث للنشار ٧٧.

(٢)- وهو الاستنباط عند أصحاب المنطق الأرسطي. انظر الأسس المنطقية للاستقراء لمحمد باقر الصدر ٥-٦ الطبعة الرابعة بيروت ١٩٨٢.

(٣)- قسم المناطقة المسلمون القياس إلى قياس حملي، وقياس شرطي، وقسموا الشرطي إلى قياس اتّصالي، وآخر انفصالي. وتحدثوا عن القياس الجلي، والخفي، والبرهاني، والجدلي، والخطابي، والشعري، والمغالطي، والاستثنائي، وقياس المؤثر، وقياس الخلف، والسبر والتقسيم، وعكس القياس، والقياس الاقتراني. انظر مفتاح العلوم للسكاكي ٢٦٦-٢٦٧، وانظر شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٤٥ تح: فخر الدين قباوة. وانظر شرح الملوي على السلم ١٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية. وانظر الكليات للكفوي ٤/٢٣-٢٦.

إضافة إلى ذلك فقد استطاع المناطقة الإسلاميون إعادة ترتيب المقدّمات المتعلّقة بالقياس كوضع المقدّمة الصغرى أولاً، ثمّ المقدّمة الكبرى، وهذا الترتيب لم يُعِره أرسطو الاهتمام الكافي. وعَمَلُ المناطقة المسلمين هذا يتّسم بالبساطة والوضوح لأنه ينقل الفكرة من الخاص إلى العام فالنتيجة، ذلك كقولك: سقراط إنسان، وكلُّ إنسان فانٍ، إذاً سقراط فانٍ. (١)

٢- الاستقراء:

وهو الاستدلال الذي تجيء نتيجته أكبر من المقدمات التي أسهمت في الوصول إلى تلك النتيجة؛ وهو «انتزاع حكم كلّي عن جزئيات، وإنه إذا تيسّرت الإحاطة بجميع الجزئيات حتى لايشذّ عنها واحد، أفاد اليقين»(٢) وعلى سبيل المثال لو أخذنا قطعة من الحديد تتمدّد بالحرارة، وحديدة أخرى تمدّدت بالحرارة، وقطعة ثالثة، وقطعة رابعة حكمنا بأن كلّ حديد يتمدّد بالحرارة. فالنتيجة حَكَمَتْ بأنَّ كلَّ حديد يتمدد بالحرارة، والنتيجة أكبر من المقدمات لأنّ المقدمات بنيت على قطع من الحديد محدودة العدد، ولم تشمل كلَّ حديد كما أنه لم يجرِ الفحص على كلّ حديد. (٣)

---

(١)- انظر مناهج البحث عند مفكري الإسلام للنشار ٥٥-٥٩.

(٢)- مفتاح العلوم للسكاكي ٢٦٧.

(٣)- انظر الأسس المنطقية للاستقراء لمحمد باقر الصدر ٦ الطبعة الرابعة بيروت١٩٨٢

وفي ذلك نرى أنّ الاستقراء والقياس متعاكسان من حيث تعريفهما؛ فالقياس يسير من العام إلى الخاص، والاستقراء يسير من الخاص إلى العام حينما نرصد حالات عديدة قائمة، أو تجارب نقيمها نحن، ونبني على رصدنا هذا نتيجة عامّة أوحتْها إلينا الملاحظات أو التجارب(١).

٣- التمثيـــــل:

وهو الانتقال من جزئي إلى جزئي، وقد جعله بعضهم ملحقاً بالقياس لضعفه، وذكر بعضهم أنه لايفيد اليقين (٢) وقيل: <<التمثيل الملحق بالقياس: هو إثبات حكم في جزئي لوجوده في جزئي لمعنى مشترك بينهما، وهو ضعيف؛ لأن الدليل إذا قام في المستدلّ عليه أغنى عن النظر في جزء غيره، لكن يصلح لتطييب النفس وتحصيل الاعتقاد. وإذا لم يكن التشبيه عقلياً يقال: إنه يتضمّن التشبيه. ولايقال: إنّ فيه تمثيلاً. وضَرْبُ المثل وإن كان عقلياً جاز إطلاق اسم التمثيل عليه، وأن يقال: ضُرب الاسمُ مثلاً لكذا؛ يقال: ضُرِب النورُ مثلاً للقرآن، والحياة للعلم>>(٣).

---

(١)- المصدر السابق ١٣. ذكر أن الاستقراء قسمان: كامل، وناقص. انظر في ذلك منطق أرسطو، التحليلات الأولى، المقالة الثانية الفصل ٢٣ تح: عبد الرحمن بدوي، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨. وانظر منطق الإشارات لابن سينا ٢٣١، معيار العلم للغزالي ١٦٣، الأسس المنطقية للاستقراء للصدر ١٣-١٦-٢٩.

(٢)- انظر مفتاح العلوم للسكاكي ٢٦٧.

(٣)- الكليّات للكفوي ٢/٧٤.

الفصل الثاني

الاستدلال عند النحاة قبل سـيبويـه

- طرائق الاستدلال.
- مصادر الاستدلال.
- تأثر النحاة بالفقهاء.
- قواعد الاستدلال عند النحاة.

شاع في تاريخ النحو أنّ أبا الأسود الدؤلي (١) هو مؤسس علم النحو العربي، وواضع لبناته الأولى، على الرغم مما تذكره الأخبار التي ترى غير ذلك؛ فمنهم من يرى أن بدايات علم النحو تعود إلى ماقبل أبي الأسود(٢)، ومنهم من يرى أنّ العصر الذي عاش فيه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي هو العصر الذي وُضع فيه النحو، حيث استخدم الرأي في الدراسات بعيداً عن الأثر والرواية. (٣)

ولانستطيع أن نحكم على بدايات علم النحو وطرق استدلاله حكماً قاطعاً إلا من خلال الأخبار المتناثرة هنا وهناك، والتي تنير لنا بعض الملامح لرسم الصورة النحوية لذلك العصر.

---

(١)- ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني (١ ق هـ- ٦٩هـ). انظر وفيات الأعيان لابن خلّكان ١/٢٤٠، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ت ٤٣٢٢ وخزانة الأدب للبغدادي ١/١٣٦.

(٢)- انظر الفاضل للمبرد ٩٥ تح: الميمني، دار الكتب ١٩٥٦م، مراتب النحويين لأبي الطيب ٦،٢٢. أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي ١٣-١٤-٢٠، البصائر والذخائر لأبي حيّان ١/٨٣ القاهرة ١٩٥٣.

(٣)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلّام ١/١٤.

وقد وردت أخبار كثيرة تذكر أنّ عليّ بن أبي طالب (رض)(١) هو واضع الأصول النحوية التي بنى عليها أبو الأسود الدؤلي عمله؛ فقد ذكر المبرد أنّ <<ابنة أبي الأسود الدؤلي قالت: ما أشدُّ الحر، فقال لها: الحصباء بالرمضاء، قالت: إنما تعجبتُ من شدته. قال: أوَقَدْ لحن الناس؟ فأخبر بذلك علياً رحمة الله عليه، فأعطاه أصولاً بنى منها، وعَمِل بعده عليها>>(٢) فعلي (رض) وضع أصولاً، والأصول تعني أنّ هناك تفكيراً معقولاً لمفهوم الخطأ والصواب، وهو كفيل برسم الخطوط العريضة للعلم الذي يعصم العربي من الخطأ، والخبر نفسه ذكره أبو الطيب اللغوي بشكل أكثر تفصيلاً لمفهوم الأصول حين قال:<<ثم كان أوّلَ من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي... وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، لأنه سمع لحناً، فقال لأبي الأسود: اجعل للناس حروفاً، وأشار له إلى الرفع والنصب والجر، فكان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام>>(٣) وذكر أبو بكر الأنباري أخباراً كثيرة؛ منها أنّ عمر بن الخطاب أمر أبا الأسود فوضع النحو. وفي مكان آخر ذكر أنّ زياد بن أبيه هو الذي طلب من أبي الأسود أن يضع النحو، ثم نقل لنا أنه أخذه عن علي بن أبي طالب (رض) (٤). ونقلت لنا كتب المؤرخين أنّ أبا الأسود قال عندما سئل عمّن فتح له الطريق إلى الوضع في النحو، وعمّن أرشده إليه: <<تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله>> (٥). كما أشار أبو حيان التوحيدي إلى علي (رض) بأنه فتق لأبي الأسود حاشية النحو، ومهّد له مهاده، وضرب له قواعده>>(٦).

---

(١)- هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ٢٣ق هـ- ٤٠ هـ، رابع الخلفاء الراشدين. انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٨٣/٦ مصر ١٣٢٦ هـ، وانظر مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ١٤ مصر ١٩٤٩م. وانظر مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٢/٢-٣٩ مصر ١٢٨٣ هـ.

(٢)- الفاضل للمبرد ٩٥ تح: عبد العزيز الميمني. دار الكتب المصرية ١٩٥٦م.

(٣)- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٦ القاهرة ١٩٥٥م.

(٤)- انظر إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٣٩-٤٤، مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧١م.

(٥)- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢١ وما بعدها القاهرة ١٩٧٣م.

(٦)- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي ٨٣/١.

وغير ذلك من الأخبار الكثيرة. (١)

لم نجد في كل الأخبار التي مرّت مايحقق الهدف الذي نسعى إليه، وهو الاستدلال النحوي، بل وجدنا ما نقلته الأخبار من أثر علي بن أبي طالب(رض) في وضع القواعد النحوية وأصولها التي بدأها أبو الأسود الدؤلي، وعلى الرغم من الشك الذي يكتنف هذه الأخبار، وما يخفيه من دوافع سنتعرض لها لاحقا فإنها تكشف لنا عن طاقة ذهنية كبيرة بدأت بتوجيه علي (رض) لأبي الأسود، ووضعه في أول الطريق(٢)

أما ابن عباس(٣) فقد اهتم بلغة العرب ولهجاتها اهتماماً كبيراً، كما اهتم بشكل خاص بغريبها، وقد اتضح ذلك من خلال معالجته الظواهر الإعرابية، وربطه بين حركات الإعراب والمعنى المراد توضيحه؛ من ذلك قراءته لقوله تعالى: **فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلَكم إلى الكعبين**(٤) بنصب (أرجلكم) وقوله: ‹‹عاد الأمر إلى الغسل(٥) فابن عباس يلحظ دلالة نصب (أرجلكم) ويربطه بالمعنى المقصود من الآية الكريمة، وهذا إدراك كبير لأثر الحركة الإعرابية في توجيه المعنى.

---

(١)- انظر أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي ١٤،١٣ كرنكو، بيروت ١٩٣٩م. وانظر الفهرست لابن النديم ص ٤٥ طهران بلا تاريخ.

(٢)- انظر إنباه الرواة للقفطي ٥،٤/١، مصر ١٣٧٤هـ، وانظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات الأنباري ص ٥.

(٣)- عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ٣ ق.هـ-٦٨هـ أبو العباس، حَبْر الأمّة وأحد صحابة رسول الله (ص). انظر صفوة الصفوة لابن الجوزي ٣١٤/١ حيدر آباد ١٣٥٥ هـ. وانظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٣٣٤/٢، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٩٩/١، القاهرة ١٣٨٣هـ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ١٩٣/٣. مصر ١٢٨٠هـ.

(٤)- المائدة ٦/٥.

(٥)- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٥٥/١٠ تح: شاكر، مصر ١٩٦٩م.

لم تنبع اهتمامات ابن عباس من فراغ فقد لازم الرسول الكريم (ص)، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وقرأ القرآن على أبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعلي بن أبي طالب(١) هذا الجو العلمي الذي عاشه ابن عباس ارتقى به إلى مرتبة جعلته يقود حلقات العلم التي اختلف إليها علماء العربية، وأخذوا فيها تفسير غريب القرآن. ولعلّ ماألّفه أبو عمرو، ويونس، والكسائي من كتب في معاني القرآن إنما هي تطوير لمجالس ابن عباس، وحلقات علمه، مستفيدين من تفسيره لكثير من الحالات الإعرابية في قراءاته القرآنية(٢) لأنه ما من شكّ في أنهم أفادوا من اطّلاعهم على قراءاته تلك وتوجيهها بما يناسب المعنى.

واتسمت ملاحظات علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما وتوجيهاتهما بصبغة خاصة، سعيا من خلالها إلى الولوج إلى معاني القرآن الكريم، وتفسيره، وكانت البداية محاولات تقويم للّحن يظهر في قراءة أو كلام وعلى الرغم من أهمية هذه المرحلة التي سلّطت فيها الأضواء على الحركات الإعرابية، وبيّنت أهميتها في فهم معنى الآية، وما يؤول إليه المعنى إذا سُمح بالتساهل في صحة اللغة فإنها تبقى قاصرة ضئيلة أمام البنيان النحوي الشامخ الذي وصل إلى حدّ الكمال في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري(٣)، فقد ذكرت بعض الأخبار شيئا قليلاً عن رقعة علي بن أبي

---

(١)- انظر طبقات القراء لابن الجزري ١/٤٢٦

(٢)- انظر المفصّل في تاريخ النحو العربي للحلواني ٧٨.

(٣)- يرى كثير من العلماء، من العرب والمستشرقين، أن البداية النحوية الصحيحة بدأت عند عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت١١٧)، وأنّ ما نُسب إلى أبي الأسود الدؤلي لم يكن يمتّ إلى الواقع بشيء ، وأنه من قبيل الوهم والمبالغة. انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٢/١٢٣-١٢٤ ترجمة عبد الحليم النجار ط٤ دار المعارف بمصر، وانظر تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي حاشية ١/٣٣٦، وانظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢/٢٨٥ ط٣ مصر.

طالب(رض) وصحف أبي الأسود الدؤلي(١)، وأظن أن هذه الأخبار -وإن صحت- فإنها لاتشكل مايضفي على النحو العربي بدايات علمية، وركائز منهجية تزيل الغموض الذي يلفّ بدايات النحو العربي، إضافة إلى أننا لانملك دليلاً ملموساً يتسم بالدقة حول البدايات النحوية بمفهومها الحالي؛ وما ذكرناه سابقاً لايتعدى أن يكون بدايات تكشف الحاجة إلى خلق قواعد، وإيجاد ضوابط للّغة التي أكسبها الإسلام عزّة ومنعة، وأعطتها الفتوحات الإسلامية حاجة أكبر لتقعيدها.

وليس المهم في بحثنا هذا أن نصل إلى واضعي علم النحو، وبناة صرحه، فقد سبقنا إليه كثيرون؛ لكن الذي ننشده، ونرمي إليه هو طرائق الاستدلال عند النحاة، والطريقة التي بنوا عليها قواعدهم النحوية، ومدى تأثرهم بعلماء عصرهم من فقهاء وغيرهم. ولعل أقدم الأخبار التي وصلتنا تلك التي تشير إلى أن أبا الأسود أسّس علم العربية، ووضع قياسها؛ فقد ذكر ابن سلاّم الجمحي ت ٢٣٢هـ أن أبا الأسود ‹‹كان أولَ من أسس العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي››(٢) فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم، لكن عمله لم يتعدّ استنباط بعض القواسم المشتركة للغة العرب، وإدراك بعض الرموز والحركات التي تُراعى في الكلام كمراعاة المتكلم في رفع كل ما يدل على من قام بالفعل، ونصب من وقع عليه فعل الفاعل، إلخ.

---

(١)- انظر نزهة الألباء للأنباري (أبوالفضل) ص٥ وإنباه الرواة للقفطي ١/٤-٥.

(٢)- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم الجمحي ١/١٢ القاهرة ١٩٧٤م.

هذا الأمر على بساطته في معاييرنا النحوية اليوم يعدّ خطوة في وضع ركيزة النحو، وهو اللبنة الأولى لذلك. وعندما جاء ابن سلام ليعبر عن هذه الظواهر عبّر عنها بلغة عصره، لغة القرن الثالث الهجري بعد أن شاع كتاب سيبويه، وانتشرت مصطلحاته النحوية، وتداول الناس كتب النحاة، وحضروا مجالسهم النحوية، ومناظراتهم؛ ذلك أنه ليس معقولاً أن نأخذ كلام ابن سلّام بشكل دقيق لنعتبر أن أبا الأسود هو الذي أسس العربية، ووضع قياسها متجاهلين قانون الارتقاء في تطور الحياة وعلومها.

وعن هذه البدايات قال أبو الطيب اللغوي (٣٥١هـ) إن عليَّ بن أبي طالب (رض) قال لأبي الأسود: <<اجعل للناس حروفا، وأشار له إلى الرفع والنصب والجرّ>>(١) وهذا الخبر يدلّ على أن أبا الأسود قد وضع جلّ اهتمامه في القواعد الاعرابية التي فرضتها أخطاء العامة من الناس، إضافة إلى نقط المصحف الشريف، والملامح الاعرابية للكلمة. ومن غير شك فإن نص أبي الطيب، ونص ابن سلّام قبله واضحا الدلالة على الخطوات السليمة التي بدأت في ذلك العصر على يد الدؤلي. أما دلالة العبارات والمصطلحات التي وردت في نصّيهما فقد كانت مما شاع استعماله في القرنين الثالث والرابع الهجريين، عصر ابن سلام وأبي الطيب اللغوي، على الرغم من أن أبا الأسود فيما نظنّ لم يكن يعرف مثل هذه المصطلحات ولم يستخدمها.

إن ما وضعه أبو الأسود الدؤلي كان بداية الارتقاء في تقعيد لغة العرب، لأنه تحدث عن الرفع والنصب اللذين سماهما الرواة فيما بعد فاعلاً ومفعولاً في وقت أدرك فيه لحن العامة، وحاجتهم إلى وضع قوانين ضابطة للغتهم، قوانين تجنبهم الوقوع في الخطأ، وتيسر لهم سبل قراءة القرآن بعد تنقيطه، وضبطه.

---

(١)- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص٦ القاهرة ١٩٥٥م.

وبعد ذلك تعترضنا نصوص تتحدث عن علي بن أبي طالب (رض)، وأبي الأسود، وتنقل عنهما مصطلحات، وعبارات لها مدلولات أبعد من حقيقتها؛ من ذلك قول علي (رض) لأبي الأسود: <<واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولامضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر>> فقال أبو الأسود: <<فجمعت أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنَّ ، وأنَّ، وليت، ولعلَّ، وكأنَّ، ولم أذكر (لكنّ)، فقال: لِمَ تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بلى، هي منها، فزدها عليها>>(١) ومنه أيضاً قول أبي الأسود: <<دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام- فأخرج لي رقعة فيها: الكلام كلّه اسم ، وفعل، وحرف جاء لمعنى>>(٢). وغير ذلك من الأخبار(٣).

نرى في هذه الأخبار، وما شابهها عباراتٍ تكشف لنا عن نضج نحوي شائع، فالحديث عن المضمر والظاهر، وتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ثم عبارات حدّ بها الأسماء والأفعال، إضافة إلى حديثه عن بنية الكلمة، وهي تقسيمات هامة تدل على وعي بلغة العرب صادرة عمّن أفاد من علماء سبقوه إلى ذلك، ومهدوا له السبيل، وهذا ماأثبتنا أنه لم يحصل لأبي الأسود.لذا فإننا نضع تلك الأخبار في دائرة الشك، ونظنّ أنّ أناساً عاشوا في أيام سيبويه، أوبعد ذلك قد وضعوها؛ لأنّ أسلوب الأخبار المشار إليها لم يذكره أحد قبل سيبويه فكيف يتأتى لنا أن نقرّ بصحتها ونحن في بدايات الوعي اللغوي الذي اقتصر على الاستقراء، والمقارنة، والاستنباط، وإيجاد بعض القواسم المشتركة بين

---

(١)- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١/٤، وانظر نزهة الألباء للأنباري ص ٥.

(٢)- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١/٥.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٦،٩،١٧.

تراكيب العربية، مع مراعاة النطق، وحركة الفم، والحركات الإعرابية. وهذا ما يجعلنا نميل إلى القول: إن أبا الأسود يعود إليه الفضل في رسم بدايات تقعيد اللغة العربية، هذه البدايات التي انعدم فيها التنظيم والتبويب، لكنها كانت تصف الحالة، وتسجل الملاحظات حولها بدافع الحرص والغيرة على لغة العرب والإسلام، وحِرص أبي الأسود جعله يُعنى بقراءة القرآن، ورصد لحن الناس فيها، ودفعه عنها، ناهيك باستنباطه للضوابط الإعرابية التي تحدد الرفع والنصب والجر.

أما الاستدلال عند أبي الأسود فلم يكن ظاهراً بشكل جليّ على غرار من سبقه، لكنّه من خلال ماتكلمنا عليه يتبين لنا أنه استدل بالقرآن الكريم عندما اهتدى إلى القواعد البسيطة التي أبرز فيها الرفع والنصب، وغير ذلك، وأنه حين يشير إلى ضابط من ضوابطه فإنه يستدلّ بآيات من القرآن الكريم، أو بشعر عربي نقله عن الرواة من المحيط الفصيح الذي عاش فيه في الجزيرة العربية، أو البصرة التي مات فيها.

وما العلم الذي حمله أبو الأسود إلا جزء من علوم متعددة على غرار علماء عصره من غير تنظيم ولاتبويب، بل ملاحظات قيلتْ في مجالس العلم هنا وهناك، ودارت حول لغة العرب ولهجاتهم من غير تأثر ظاهر بالفقه، وأصول الدين، وعلم الكلام؛ وكان الهدف منها قراءة القرآن، وضبط آياته، وإحاطته بعناية لغوية خاصة، حبّا به، وخوفاً عليه.

وفيما بعد برزت القواعد الأساسية، والمبادئ الأولية التي بُنِيَتْ عليها أحكام النحو العربي، ثم تطورت مع الزمن وأصبحت علماً مستقلاً أطلق عليه علم أصول النحو، وهو يبحث عن أدلة النحو، من السماع، والقياس، والعلّة.

وخلاصة القول في هذه المرحلة أنّ النصوص التي تتكلم عليها قليلة، لاتكفي لرسم صورة واضحة المعالم بالإضافة إلى تعدد الروايات التي تتحدث عن أخبار هذه الفترة وما يكتنفها من شك. وعلى الرغم من ذلك فهي بداية عملية لنشأة النحو تعتمد على أمور بسيطة. وملاحظات أولية فرضتها سنّة الارتقاء في تكوّن أيّ علم من العلوم.

طرائق الاستدلال ومصادره

سلك النحاة في استدلالهم طرقاً عديدة وهي السماع والقياس والعلة، واعتمدوا على مصادر عديدة أيضاً وهي القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب بقسميه: الشعر والنثر. ولكل من الطرق والمصادر أصول وفروع تنقسم إلى شُعَبٍ وفقرات سلكها النحاة في سبيل الوصول إلى تقييد لغة العرب.

* طـرائق الاسـتدلال *

١- السـماع:

وهو أول أصول الاستدلال عند النحاة، وعليه بُنيت معظم قواعد النحو العربي وعرّفوه بقولهم: ‹‹هو الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنقل الصحيح، الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة، فخرج عنه إذاً ماجاء في كلام غير العرب من المولدين، وما شذّ من كلامهم كالجزم بـ لن والنصب بـ لم››(١) ثم عرفه السيوطي تعريفاً دقيقاً حيث قال: ‹‹وأعني به (يقصد السماع) ما ثبت في كلام مَن يُوثَق بفصاحته، فشمل كلامَ الله تعالى:

---

(١)- لمع الأدلة للأنباري ٨١ الجامعة السورية ١٩٥٧م

وهو القرآن، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين نظما أو نثراً عن مسلم، أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لابد في كلّ منها من الثبوت»(١)

أ- القرآن الكريم:

وهو قمة الفصاحة والبلاغة، الأمر الذي دفع بالنحاة للأخذ به وجعله مصدراً هاماً من مصادر السماع، وساعدهم في ذلك وجوده بين أيديهم، مما يغنيهم عن الرحلة كما كان الحال في تتبع الشعر وكلام العرب؛ فعليّ بن أبي طالب (رض) وابن عباس، وأبو الأسود الدؤلي كان القرآن الكريم وسيلتهم في كشف اللحن وإيجاد الضوابط اللغوية السليمة للغة العربية من خلال قراءة القرآن وفهم معانيه كما مر معنا، والأمر نفسه نجده عند عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي الذي استدل بالقرآن الكريم وتفرد ببعض القراءات، وحاول أن يجد لها تخريجاً نحوياً يتناسب ولغة فصحاء العرب(٢) ومثله عيسى بن عمر الذي جعل القرآن الكريم محور فهمه لكثير من المسائل والتناولات النحوية، ويبرز هذا جلياً في قراءته لآيات كثيرة(٣) أما أبو عمرو بن العلاء فقد كان سيد القراء السبعة بعلمه وأمانته حتى أمّ مذهبه كثير من القراء(٤) واختار كبار النحاة قراءته واستدلوا بها فيما بعد كسيبويه،

---

(١)- الاقتراح للسيوطي ١٤.

(٢)- انظر معاني القرآن للفرآء ٣٨٠/١ بيروت ١٩٨٠ وانظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ /٢٠ والمحتسب في شواذ القراءات لابن جنّي٢٥٢/١ تح: ناصف ورفاقه، القاهرة ١٣٨٦هـ.

(٣)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٦٣/٢ في سورة النور ٢٤/١-٢ والمائدة ٣٨/٥ والشعراء ٢٢٤/٢٦.

(٤)- انظر البيان والتبيين للجاحظ ١٢١/١، تح: هارون. والموشح للمرزباني ١٢٥ تح البجاوي. وانظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٦٠/١١ القاهرة، بلا تاريخ. وانظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ٨٢-٨٤-٨٥.

والمبرد، وابن جني وغيرهم(١) لذا فإننا نرى أن الشواهد القرآنية التي استدل بها سيبويه كانت في الغالب من قراءة أبي عمرو.

ب- الحديث الشريف:

وهو ما نطق به الرسول(ص)، وسُمع منه وهو جدير بأن تبنى عليه القواعد النحوية لأن الرسول (ص) أفصح قريش وأبينهم سليقة، وكلامه أولى أن يؤخذ به قبل سائر كلام العرب. لكنّ الذي حدث أن اللغويين والنحاة الأوائل أخذوا ما يزوّدهم به رواة الشعر مستبعدين الاستدلال بالحديث الشريف تحت علل متعددة عبّر عنها السيوطي تعبيراً واضحاً حين قال: <<إن غالب الأحاديث مرويّ بالمعنى، وقد تداولتها الأعاجم والمولّدون قبل تدوينها، فرووها بما أدت إليه عبارتهم فزادوا ونقصوا، وقدموا وأخروا، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مرويّاً على أوجه شتىّ بعبارات مختلفة>>(٢) من ذلك ماروي عن سهل بن سعد أنّ امرأة عرضت نفسها على النبي، فقال له رجل: <<يا رسول الله: زوجنيها>> فقال: <<ما عندك؟>> قال: <<ماعندي شيء>> قال: <<**اذهب والتمس ولو خاتماً من حديد**>> فذهب ثم رجع فقال: "لاوالله ماوجدت شيئاً، ولاخاتماً من حديد..." فقال له: "**ماذا معك من القرآن؟**" قال: "معي سورة كذا وسورة كذا وسورة كذا" لسور يعددها؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١)- انظر الكتاب ٤/١٨٦،٢٠٢،٣٣٨،٤٥٩، وانظر المقتضب للمبرد ١/٢٥٢، والخصائص لابن جني ١/٧٢.

(٢)- الاقتراح للسيوطي ١٦.

"أمكناكها بما معك من القرآن" وفي رواية: "اذهب فقد ملّكتكها بما معك من القرآن"(١)

ليس بمقدورنا أن نكشف مناهج النحاة الذين سبقوا سيبويه، وموقفهم تجاه الحديث الشريف والاستدلال به؛ لأننا لانملك مؤلفات نحوية خاصة بهم إضافة إلى أنّ كتاب سيبويه خالٍ مما يدل على استدلالهم بحديث شريف، إلا ما أورده في باب الأسماء التي تنصب على الحال بعد خبر المبتدأ حيث استدلّ بقوله عليه الصلاة والسلام: "إني عبد الله آكلاً كما يأكل العبد، وشارباً كما يشرب العبد"(٢).

جـ- كلام العـــــرب:

وهو ما سمع من أشعارهم، وأمثالهم، وحديثهم، ومنه استُقريت قواعد اللغة العربية؛ وقد عرّف ابن السرّاج النحو بقوله: إنه <<علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب>>(٣)

وقد عرف القدماء فضل كلام العرب لاسيما الشعر، وعلى الرغم من أنّ الاستدلال النحوي لم يكن قد تبلور بعد فإنّ ابن عباس أدرك قيمة الشعر في فهم اللغة، ومعرفة غريبها يدفعه إلى ذلك شرح المفردات القرآنية، ومما عمّق حرصه على لغة العرب اهتمامـــه

---

(١)- أحاديث الجامع الصحيح للامام البخاري ١٢٠/٢(كتاب النكاح) وانظر خزانة الأدب للبغدادي ٥/١.

(٢)- الكتاب ٨٠/٢.

(٣)- الاقتراح للسيوطي ٦.

الكبير بلهجاتهم المتعددة المختلفة التي ظهرت في القراءات القرآنية مستوعبة كثيراً من لهجات العرب. وقد غدا ابن عباس مثالاً للعناية بكلام العرب ولغتهم ممّا دفع الكثيرين لمتابعته ليغدوَ مرجعاً للناس، والقراء(١)

أما عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فقد تابع خطوات الجو العلمي السائد آنذاك فاهتمّ بلغة العرب وكلامهم شعراً ونثراً، واستدلّ بلغة العجّاج ورؤبة وغيرهم ساعياً تجاه النص القرآني، كما أخذ بلهجات القبائل العربية، مشيراً إلى اسم القبيلة ليضيف مزيداً من الدقة إلى منهجه(٢) واستطاع الحضرمي في نهجه هذا وضع أصول لبدايات الاستنباط بحديثه عن الجذراللفظي للكلمة العربية وأصلها مستدلاً بكلام العرب شعراً ونثراً إضافة إلى القرآن الكريم(٣)

ثم يأتي عيسى بن عمر في ظرف كانت البصرة فيه نقطة التقاء بين الأعراب القادمين من البادية، وعلماء اللغة مما فسح المجال أمامه ليأخذ عنهم الشيء الكثير وينقل كلامهم ولهجاتهم، ليمدّ بها طلابه ومريديه، لأنه من أبرز مقرئي البصرة في عصره. وقد أخذ عنه

---

(١)- انظر جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٤، ٣/٣١٤، إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر ابن الأنباري ١/٦٢-٧١.

(٢)- انظر الكتاب ٤/١٢١ والحاشية، وانظر المحتسب في شواذ القراءات لابن جني ١/٤٤،٢٦،٣٣٦.

(٣)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٧٦،٣٧٧.

أبو عبيدة في مجاز القرآن كثيراً من كلامه الذي نقله الأعراب(١)، وكُتب لأصوله البقاء على يد طلبته، وأبرزهم الخليل وسيبويه(٢)

وفي الوقت ذاته كانت اللغة الفصيحة عند أبي عمرو بن العلاء هي لغة البادية في نجد وتهامة وغيرها، لا لغة المدن والحواضر، فقد استدلّ بلغة الأعراب الذين أدركوا الجاهلية، أو لغة حرشة الضباب وجناة الكمأة(٣) وهذا الأمر نراه عند جميع النحاة الأوائل الذي نهلوا من معين البادية لأنها تمثل أصالة اللغة وسلامة اللسان.

وقد استقرى أبو عمرو لغة الشعر، وكذلك لغة الحديث المتداول، وأخذ بهما في الاستدلال على صحة تناولاته النحوية واللغوية، كما سعى إلى امتحان الأعراب القادمين من البادية ليتأكد من سلامة لغتهم وصحتها(٤) وهذا يكشف لنا عن العلم الغزير الذي أحاط به، فقد استوعب ما وصلنا من كلام العرب، على قلته، وأتقنه وعرف تفاصيل ذلك بكل ما يحويه من لهجات وفروق حتى إنه روى لنا بعض كلام أهل اليمن(٥).

---

(١)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٥٠، ٢/١٧٠ وانظر جمهرة اللغة لابن دريد ١/١٥٧، ٢/٢٠٤ -٢٥٠.

(٢)- انظر الكتاب ٣/١٦، ٣٤٣.

(٣)- انظر رسالة الغفران للمعري ١٦٩، وانظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٩،٢١٤.

(٤)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٢٣،٢٧٤، ٢/١١٩، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٩.

(٥)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١١، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٨، الخصائص لابن جني ١/٢٤٩، ٢/٤١٦.

ومن خلال ما مرّ معنا من أخبار النحاة الأوائل الذين اتصلوا بالأعراب ونقلوا عنهم نرى أنه قد اعتُمد السماعُ عن الأعراب بشكل أساسيّ عند النحاة، وقد أولوه العناية الكبيرة، وجعلوه ركناً أصيلاً من أركان الاستدلال؛ وقد شمل السماع القرآن الكريم بقراءاته المتعددة وأخذ به الأوائل دون استثناء على العكس من الحديث النبوي الشريف الذي وقفوا منه موقفاً مغايراً لاعتبارات تتعلّق بالمعنى، والرواية. أمّا كلام العرب فقد غطّى مساحة كبيرة من الاستدلال لاسيّما الشعر، وحرص النحاة على الأخذ بكلام العرب لما يمثله من دقة كبيرة لما يتكلمون به آخذين بعين الاعتبار التفاوت بين القبائل تبعاً لمعايير مكانية سنأتي على ذكرها لاحقاً.

٢-القياس:

ظهر المذهب القياسي أول ما ظهر عند عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، ذلك من خلال آرائه ومواقفه، فهو أول من بعج النحو، ومدّ القياس والعلل(١) وقد وجد في ذلك ضالته المنشودة؛ حتى إنه لايرى في غيره علماً. ويبرز هذا المذهب في قوله ليونس بن حبيب: <<وما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد، وينقاس>>(٢). وظنّ كثير من المعاصرين أنّ القياس عند الحضرمي هو القياس الذي عرفه النحاة المتأخرون من حمل فرع على الأصل لعلّة جامعة بينهما، والحق أنّ ابن سلام في حديثه عن قياس الحضرمي لم يكن يعني شيئاً من هذا التعريف الذي ذكره النحاة المتأخرون، إنما أراد من القياس القاعدةَ النحوية ليس غير؛ أي أن الحضرمي كان يمدّ حكم القاعدة، ويجعله مطّرداً، وكان أكثر استنباطاً للقواعد من أبي عمرو(٣)، أمّا ماورد على لسان ابن سلاّم من أن أبا الأسود الدؤلي << كان أول من أسس العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها>> (٤) فإنه لايعني أنّ أبا الأسود له قصب السبق في تقعيد هذا العلم؛ لأن (وضع القياس) يعني البدء به، وهو ما ينطبق على أبي الأسود. أمّا (تجريد القياس) وهو مانُعت به الحضرمي فالمقصود به الاستنباط، وهو ما يأتي في مرحلة تلي مرحلة الوضع، وبذلك لايكون ثمة تناقض في كلام ابن سلام(٥)

وعلى الرغم من الخلاف الواقع حول مصطلح (القياس) الذي أورده ابن سلاّم فإن معناه لاينصرف إلا إلى (القاعدة) أو (الضابط) النحوي، وهذا ما ورد على لسان عبد الله بن أبي إسحاق نفسه عندما قال للفرزدق : <<أسأت، إنما هي ريرٌ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع>>(٦)

---

(١)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ١٤ (شاكر) وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٥.

(٢)- طبقات ابن سلاّم ١٥ وطبقات الزبيدي ٢٦.

(٣)- فصل محمد خير الحلواني في ذلك، وردّ ما ذهب إليه مصطفى السقا، ومحمود شاكر. انظر مجلة مجمع اللغة العربية ٩٦/١٠، وطبقات فحول الشعراء لابن سلاّم، هامش ١٤/١، وانظر المفصل في تاريخ النحو ١٤٥ وما بعدها.

(٤)- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ١٢/١.

(٥)- المصدر السابق ١٤/١.

(٦)- المصدر السابق ١٧/١.

ولعلّ ماورد على لسان الحضرمي من أوزان الأفعال واشتقاقاتها، وجذورها يدلّ على ريادته في هذا المجال؛ من ذلك قوله: «« أصل الكلام بناؤه على (فَعَل) ثم يبنى آخره على عدد مَن له الفعل من المؤنث والمذكر من الواحد والاثنين والجميع كقولك: فعلتُ، وفعلنا، وفعلْنَ وفعلا، وفعلوا، ويزاد في أوله ما ليس من بنائه فيزيدون الألف، كقولك: أعطيتُ إنما أصلها عطوت، ثم يقولون (مُعطي) فيزيدون الميم بدلاً من الألف، وإنما أصلها (عاطي)، ويزيدون في أوساط فعَل، وافتعل، وانفعل واستفعل، ونحو هذا، والأصل فعل، وإنما أعادوا هذه الزوائد إلى الأصل فمن ذلك في القرآن: **وأرسلنا الرياح لواقح**(١) وإنما يريد الريح مُلقِحة فأعادوه إلى الأصل، ومنه قولهم طوّحتني الطوائح وإنما هي المطاوحُ لأنها المُطوِّحة... »» (٢)

وذكر سيبويه في كتابه مثالاً يبرز فيه مدّ القياس عند الحضرمي، ذلك حين قال: ««فإن سمّيت المؤنث بـ (عمرو) أو (زيد) لم يجز الصرف. هذا قول ابن أبي إسحاق، وأبي عمرو، فيما حدثنا يونس، وهو القياس»» (٣) فالاسم المؤنث إذا كانَ ثلاثياً ساكن الوسط نحو: هند، جاز فيه الصرف، ومنعه، والمنع أصحّ، وعلى ذلك قاس الاسم المؤنث عمرو وزيد(٤)

إن ما رأيناه لدى الحضرمي يكشف لنا ما أراده ابن سلاّم بقوله: ««وكان أول من بعج النحو، ومدّ القياس والعلل ... وكان ابن أبي إسحاق أشدّ تجريداً للقياس»»(٥) ذلك أنه سبق النحاة الذين عاصروه، وأمدّهم بأدوات جديدة للعمل، وأعطاهم مذهباً أصولياً جديداً تطوّر فيما بعد، وازداد نضجاً على يد تلامذته وتابعيه.

---

(١)- الحجر ٢٢/١٥.

(٢)- مجاز القرآن ٣٧٦/١-٣٧٧.

(٣)- الكتاب ٢٤٢/٢.

(٤)- انظر المفصل في تاريخ النحو للحلواني ١٥٣.

(٥)- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ١٤/١

ثم جاء عيسى بن عمر الذي أولى القياس عناية خاصة فاقت اهتمامه بالسماع وتبدو لنا عنايته هذه فيما ذكره سيبويه في قوله: ‹‹وكان عيسى بن عمر يقول: يامطرا، يشبهه بقوله: يارجلاً، يجعله إذا نوّن وطال كالنكرة، ولم نسمع عربياً يقوله، وله وجه من القياس إذا نون وطال كالنكرة››(١) ومن إيثاره القياس إنكاره النصب في: ادخلوا الأوّلَ فالأوّلَ؛ لأنه لايستقيم مع القياس، ويجعله مرفوعاً بفعل محذوف(٢)

ونرى جنوحه إلى القياس من خلال نظرتنا إلى قراءاته القرآنية؛ وذلك في اختياره النصب في كثير من الأحوال، فالعرب من عادتهم أن يفزعوا إليه في حال الخلاف(٣) وعيسى بن عمر لايختار إلا مايوافق قياس العربية، وأساليبها؛ (٤) من ذلك اختياره قراءة قوله تعالى: **ياجبالُ أوّبي معه والطيرَ**(٥) بنصب (الطيرَ) عطفاً على محل (جبالُ)(٦) وقراءة قوله تعالى: **فدعا ربّه إنّي مغلوب فانتصر**(٧) بكسر همزة (إني)، وقد قدّر فعل القول بعد فعل (دعا) قياساً على لغة العرب. (٨)

ويبرز القياس كذلك في اختياره للقراءات القرآنية التي عرف عنه أن له اختيارات فيها توافق قياس العربية(٩) فهو ينصب الاسم إذا دل على تعظيم، أو تحقير، الأمر الذي دفع أبا عبيدة ليقول: ‹‹وكان عيسى يقول: حمّالةَ الحطب. نصب. يقول: هو ذمّ لها›› (١٠).

---

(١)- الكتاب ٢/٢٠٣.

(٢)- انظر المصدر نفسه ١/٣٩٨.

(٣)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم (شاكر) ١٨، إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ٢/٣٧٥.

(٤)- انظر طبقات القراء لابن الجزري ١/٦١٣ تح: برجستراسر.

(٥)- سبأ ٣٤/١٠.

(٦)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم (شاكر) ١٩.

(٧)- القمر ٥٤/١٠.

(٨)- الكتاب ٣/١٤٣.

(٩)- انظر طبقات القراء لابن الجزري ١/٦١٣.

(١٠)- مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٣١٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/٢٩٨-٢٩٩.

ومن ذلك قراءته لقوله تعالى: **قل إنّ ربي يقذفُ بالحق علاّمَ الغيوب** (١) بنصب (علاّمَ) تعظيماً، وقوله تعالى: **هل أتاك حديث الغاشية، وجوه يومئذ خاشعةً، عاملةً ناصبةً**(٢) بنصب (خاشعة، عاملة، ناصبة) على التحقير والشتم(٣)، فابن عمر يختار قراءاته القرآنية بأوجه لاتجافي القياس أبداً، ويخرّجها بما يخدم المعنى.

أما أبو عمرو بن العلاء فعلى الرغم من تغليبه السماع فإنه لم يتجنب القياس في بعض تناولاته النحوية، وقد لجأ إليه مفسّراً حالات عديدة وفق أقيسة العربية. من ذلك ما فسّر به(خاضعين) من قوله تعالى: **فظلّتْ أعناقُهمْ لها خاضعين**(٤) فقد زعم «أن(خاضعين) ليس من صفة الأعناق، وإنما هي من صفة الكناية عن القوم التي في آخر الأعناق، فكأنه في التمثيل، فظلّت أعناق القوم في موضع (هم) والعرب قد تترك الخبر عن الأول، وتجعل الخبر للآخر منهما»(٥) وهو بذلك يشير إلى التباس المضاف بالمضاف إليه حين يكون الأول جزءاً من الثاني، أو كالجزء(٦) ومن قياسه أيضاً أنه أجاز نصب العلم المفرد في ضرورة الشعر إذا كان منادى منوّناً، نحو: ياعدياً، ويامطراً، ويقيسه على العلم الممنوع من الصرف إذا نوّن في ضرورة الشعر، مثل: بعثمانٍ، ومن مروانٍ(٧) ومن قياسه أنه يذهب إلى أن حذف التنوين جائزٌ في (هذه هندُ بنتُ عبد الله) فيمن صرف هنداً؛ لأنه لم يلتق

---

(١)- سبأ ٣٤/٤٨ وانظر معاني القرآن للفراء ٢/٣٦٤.

(٢)- الغاشية ٨٨/١-٣.

(٣)- انظر المحتسب لابن جنيّ ٢/٣٥٦.

(٤)- الشعراء ٢٦/٤.

(٥)- مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٨٣.

(٦)- قد يكتسب المضاف المذكر من المؤنث المضاف إليه التأنيث، بشرط أن يكون المضاف صالحاً للحذف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، ويُفهم منه ذلك المعنى، نحو: قُطعتْ بعضُ أصابعه، فصحّ تأنيث (بعض) لإضافته إلى أصابع، وهو مؤنث؛ لصحة الاستغناء بأصابع عنه ، فتقول: قُطعتْ أصابعُه. ومن ذلك قوله تعالى: **إنّ رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين** الأعراف ٧/٥٦. فـ (رحمة) مؤنث واكتسبت التذكير بإضافتها إلى (الله) تعالى، فإنْ لم يَصلُح المضاف للحذف، والاستغناء بالمضاف إليه عنه لم يجز التأنيث؛ فلا تقول: خرجتْ غلامُ هندٍ؛ إذ لايقال: خرجتْ هند، ويُفهم منه خروج الغلام؛ والكلام لابن عقيل. انظر ذلك في أضواء على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ٢/٢٤٠، وانظر في الموضوع ذاته الكتاب ١/١٤٤،٢٠٨،٢٥٣،٢٧٣، ٢/٧.

(٧)- انظر المقتضب للمبرد ٤/٢١٣

ساكنان، وقاسه على حذف التنوين في مثل: يازيدُ بن عبد الله(١).

وكان أبو عمرو بن العلاء يقيس على الكثير الشائع من لغة العرب، ونهجه هذا صار أصلاً من أصوله التي كتب لها البقاء والاستمرار، ويقول في ذلك عبد الملك بن نوفل المدني: ‹‹سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعت ممّا سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفتْك فيه العرب، وهم حجّة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات›› (٢).

وفي بعض الحالات نرى أبا عمرو بن العلاء يمزج القياس بالعلة، ولعلّه أوّل من بدأ بتفسير الظواهر اللغوية تفسيراً ذهنياً، وأشار إلى كثرة الاستعمال، وما يؤول إليه من اختصار العبارات، وحذف جزء منها، قال أبو عمرو: ‹‹هذه هندُ بنت عبدِ الله فيمن صرف.››. ويقول: ‹‹لمّا كثر في كلامهم حذفوه، كما حذفوا لا أدرِ، ولم يكُ، ولم أُبَلْ، وخذْ، وكُلْ، وأشباه ذلك وهو كثير››(٣).

أما إذا لم يكثر استعمال العبارة فإن الحذف لايدخلها، لذلك يجب تنوين اسم العلم في: هذا زيدُ بْنَيَّ عمروٍ لأنه ‹‹لايلتقي ساكنانوليس بالكثير في الكلام ككثرة (ابن) في هذا الموضع›› (٤) وغير ذلك من الأمثلة(٥)

---

(١)- انظر المصدر السابق ٢/٣١٤.

(٢)- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٤.

(٣)- الكتاب ٣/٥٠٦.

(٤)- المصدر نفسه ٣/٥٠٨.

(٥)- انظر المقتضب للمبّرد ٢/٢٦٢.

٣- العلّـة :

تكلم العرب بلغتهم العربية الفصيحة سليقةً، من غير تكلّف، بعيدين عن كلّ تلقين لقواعد، أو أحكام، أو أصول. ثم جاءت ظروف سياسية، ودينية أفرزت معطيات جديدة، كثر فيها اللحن وانتشر الخطأ، الأمر الذي دفع بالنحاة الأوائل إلى استقراء اللغة الفصيحة لمعرفة قواعدها الناظمة وقواسمها المشتركة.

وقد اتجهت عملية الاستقراء تلك إلى تصنيف الظواهر اللغوية، وجمع المتشابه وإظهار المتباين في لغة العرب، ووضع التسميات لها بغية التوضيح والتثبيت. ثم شرع النحاة في تعليل هذه الظواهر لترجمتها إلى قواعد ونُظُم.

وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي أوّل من وضّح العلل(١) وخرّج كثيراً من كلام العرب في وقت كان النحو فيه يحمل العمومية والاتساع بعيداً عن كلّ تعليل لهذه الأحكام، وقد حملت لنا كتب النحاة كثيراً من الأمثلة التي توضح هذا الاهتمام من ذلك ما أورده الفرّاء من أنّ الفرزدق مرّ بعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فأنشده:

وعضّ زمانٍ يابْنَ مروان لم يدع ... من المال إلاّ مسحتاً أو مُجَلَّفُ (٢)

فقال الحضرمي للفرزدق: علامَ رفعت؟ فهو يبحث عن تعليل لرفع (مجلّف) ويقول له: للرفع وجه(٣) وكان تعليل الحضرمي هذا أثر واضح في دفع قواعد اللغة العربية وإيضاح التلازم بين التعليل النحوي من جهة والتعليل الفقهي من جهة أخرى.

---

(١)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٥.

(٢)- أسحَتَ الشيء: استأصله، والسّحتُ: ما خبث وقبح من المكاسب فلزم عنه العار. والمُجَلَّف: الذي بقيت منه بقية. انظر المعجم الوسيط (جلف).

(٣)- أراد الحضرمي رفع (مجلف) على المعنى، لأنّ: لم يدع، فيه معنى: لم يبق. ثم جاء الخليل بن أحمد فتأوّل رفعه بفعل محذوف دلّ عليه (لم يدع) وتأوله الكسائي بأنه معطوف على الضمير المستتر في قوله: مُسحتاً وذكر الفرّاء أنه مبتدأ حذف خبره، وقدره: أو مجلف كذلك. وعدّه ثعلب خبراً لمبتدأ محذوف. ووقف عنده النحاة المتأخرون في القرن الرابع وما تلاه، فذكر أبو علي الفارسي أنه معطوف على (عضٌّ)، وهو مصدر جاء على صيغة المفعول، على تقدير: وعضّ زمان أو تجليف، وذهب ابن جني مذهب الخليل. انظر خزانة الأدب للبغدادي ٢/٣٤٧ وما بعدها. وذكر الزمخشري في هذا البيت أنه «بيت لاتزال الركب تصطك في تسوية إعرابه» الكشاف للزمخشري ٢/٥٤٣.

ثم يأتي عيسى بن عمر ليسلك الطريق نفسها ويبيّن العلة لبعض كلام العرب من ذلك رفعه (الأول) في قولهم: ادخلوا الأولُ فالأوّلُ، لأن المعنى: ليدخلْ، جاعلاً (الأول) بدلاً من الواو في (ادخلوا) في الوقت الذي يرى فيه النحاة أنّ نصب (الأولَ) هو الأولى، نصباً على الحالية بتقدير: ادخلوا مرتّبين أو ادخلوا واحداً بعد واحد، ولاسبيل إلى الرفع.(١)

وقد تبع الحضرميَّ وعيسى بنَ عمر في الاهتمام بالعلة نحاة آخرون، جعلوا من العلة واقعاً نحوياً مُعاشاً، إذ يروى أن أبا عمرو بن العلاء سمع أعرابياً يقول:«فلان لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها» فأخذ يردد قول الأعرابي: جاءته كتابي مستغرباً، وكأنه يبحث عن العلّة في تأنيث الفعل، والفاعل مذكر، لكن الأعرابي قطع عليه حيرته، وقال: أليس الكتاب بصحيفة؟ وأنثّ الفعل مع (الكتاب) حملاً على المعنى.(٢)

ومنه أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن قول الشاعر:

حتى تحاجَزْنَ عن الزوادِ

تحاجزَ الريِّ، ولم تكادي (٣)

لِمَ قال: (تكادي) ولم يقل: تكد جزماً بـ (لم) ؟ فأجاب: يقصد الشاعر: ولم تكادي أيّتها الإبل.(٤)

---

(١)- انظر الكتاب ١/٣٩٨ وانظر المقتضب للمبرد ٣/٢٧٢.

(٢)- انظر نزهة الألباء لابن الأنباري ٢٩.

(٣)- تحاجز القوم: تزايلوا، فانفصل بعضهم عن بعض. الذوّاد: الدفّاع والحامي. الريّ: ارتواء الشجر، وحسن حاله. انظر لسان العرب (حجز) و (ذود) و(روي).

(٤)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٢.

وبقيت العلّة التي لجأ إليها النحاة بسيطة تهدف إلى فهم المعنى والاحاطة بكلام العرب، وما يرمون إليه، وهي تعليلات قليلة إذا ما قيست بتعليلات الخليل ومن جاء بعده من النحاة.

* مصـــادر الاســتدلال *

١- القرآن الكريم:

اهتم النحاة بالقرآن الكريم اهتماما بالغاً نظراً لما يمثله من أساس في استنباط قواعد اللغة، وأصولها، ولما يحتويه من دقة في الرواية وعناية في النقل، على الرغم من تعدد قراءاته وقبول بعضها، ورفض بعضها الآخر ونعتها بالشاذة.

وصرح القرآن الكريم في مواضع كثيرة بأن اللغة التي نزل بها هي اللغة العربية الصافية السليمة؛ لذا لم يشكّ النحاة قط في أنّ القرآن يمثل قمة لغتهم التي يتداولونها، صحةً ونقاءً. قال تعالى: **إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**.(١) وقال: **نَزَلَ به الروح الأمين، على قلبك لتكونَ من المنذرين، بلسانٍ عربيٍّ مبين**.(٢) وقال: **وهذا كتاب مُصَدِّقٌ لساناً عربياً**. (٣)

وقد تجلت اللغة النقية في مجالين اثنين، القرآن الكريم، والشعر، وقد ارتفعت هذه اللغة فوق اللهجات المحلية بما فيها لهجة قريش، أما ما قيل من أن القرآن نزل بلغة قريش فهذا يعني أنه (ص) لقّن الناس حروف القرآن باللهجة القرشية، وأجازهم بقراءته وفق ألحانهم على تعددها، واختلافها. وليس المقصود أن القرآن نزل وفق كلامهم ولغتهم، والدليل على ذلك أن هناك فروقاً واضحة بين لغة

(١)- يوسف ١٢/٢.

(٢)- الشعراء ٢٦/١٩٥.

(٣)- الأحقاف ٤٦/١٢.

القرآن ولغة قريش؛ ففي القرآن كلمات كثيرة كان القرشيون يجهلونها، منها كلمة (أبّ) التي وردت في قوله تعالى: **وفاكهة وأبّا** (١) ومنها: فاطر، والرقيم، وغسلين، فقد جهل أبو بكر، وعمر، وابن عباس معناها، وهم من وجوه قريش(٢) يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم حوى كلمات أعجمية غير قليلة منها ما كان ساميَّ الأصل كالأرائكِ، واليمّ، وأوّاب، من الحبشية، وأخلد والبعير من العبرية ومنها ما كان غير ساميّ كأباريق، واستبرق، وجهنم من الفارسية، ودخول هذه الكلمات الغريبة لايؤثر في أصالة اللغة العربية، ولغة القرآن في هذا عربية أصيلة، لأن تراكيبها عربية لم يدخل عليها أيّ تعديل، ونظام الجملة لم يتأثر بلغة أخرى(٣)

ووصلت مرحلة جمع القرآن الكريم إلى درجة كبيرة من الدقة، أدرك من خلالها النحاة أن فصاحة القرآن هي موضع ثقة لاتصل إليها أية لغة حملها الشعراء والخطباء من الجاهلية، وما ردّ بعض النحاة لبعض القراءات إلا نتيجة لعدم الثقة بالناقل أو الرواية.

ومن دقة جمع القرآن قول رسول الله(ص): <<**لاتكتبوا عني شيئاغير القرآن**>>(٤)، وما نُقل عن

---

(١)- عبس ٣١/٨٠.

(٢)- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١١٣/١ ط٣ ١٩٥١.

(٣)- انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٣٤/١، ١٣٧ وما بعدها وانظر تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون ٢٠٧، القاهرة ١٩٢٩، وانظر الاحتجاج للحلواني ٣٤.

(٤)- انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ٣٣/٨، دار الفكر ١٩٨٣م.

زيد بن ثابت بقوله: ‹‹كنا عند رسول الله نؤلّف القرآن من الرقاع››(١) وهذان النصان فيهما دليل على أن القرآن الكريم كان يُكتب أمام رسول الله(ص)، بالاضافة إلى أنه (ص) كان يعرضه على جبريل، وأنّ صحابته أخذوه عنه وأسمعوه ما حفظوا حتى أتقنوا الحفظ، نهم على سبيل المثال أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وعائشة رضي الله عنهم(٢). غير أنّ كتابة القرآن وتدوينه لاتعني أنه جُمع بين دفتين، إنما جمعه موضوع آخر، تمّ في عهد أبي بكر (رض) أول الخلفاء الراشدين وقد أُخذ من مصدرين اثنين: ما كُتب على العُسُبِ واللخاف(٣) وما حُفِظَ في صدور المسلمين. إضافة إلى المقارنة بين الحفظة، وشهادة الشهود، مبالغة في الدقة والاحتياط. (٤)

وتعددت القراءات القرآنية وفق نصّ متواتر، لكن النحاة كانوا يشكّون في صحة الرواية المنقولة، وشكّهم هذا دفعهم إلى ردّ بعض القراءات المروية، ولو كانوا يملكون نصاً ثابتاً على صحة النقل لالتفوا حول النص تخريجاً وتأويلاً ليتناسب مع الأصل النحوي. وروي عن الرسول (ص) قوله:‹‹**أقرأني جبريل القرآن على حرف، فلم أزل أستزيده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف**››(٥)

---

(١)- الإتقان للسيوطي ١/٥٧.

(٢)- انظر المصدر نفسه ١/٧٢.

(٣)- العُسُب: مفردها عسيب وهي جريدة النخل المستقيمة، واللخاف: حجارة بيض رقاق. المعجم الوسيط (عسب) و(لخف).

(٤)- انظر الإتقان ١/٥٧-٥٨.

(٥)- التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح لأحمد بن احمد الزبيدي ٢/٣٥ دار الارشاد، وللحديث روايات متعددة.

وقال (ص): «« أنزل القرآن على سبعة أحرف كلّها شاف كاف»»(١) وقد أشار العلماء في مواضع كثيرة إلى أن الرسول (ص) لم يكن يحدد السبعة، بل هو عدد مجازي لاحقيقي وذهب آخرون إلى أن السبعة عدد حقيقي(٢) ومهما يكن من أمر فإن السبعة أو مافوق السبعة تشمل لهجات العرب المختلفة، مالم تختلط آيةُ رحمةٍ بعذاب، أو آية عذاب برحمة، وهذا ما عبر عنه أنس(رض) عندما قرأ: وحططنا عنك وزرك، فقيل له: ياأبا حمزة: إنما هي **ووضعنا عنك وزرك**(٣)؛ فقال: وضعنا، وحللن، وحططنا عنك وزرك سواء. إن جبريل أتى النبي (ص) فقال: اقرأ على سبعة أحرف، ما لم تخلط مغفرةً بعذاب، أو عذاباً بمغفرة. (٤)

ولم تكن الاختلافات بين القراءات جوهرية، إنما كانت تدور حول أمور صوتية نطقية، كإدغام أو إمالة أو تخفيف همز، وهذا ماوضع أمام القراء مجالاً واسعا لتعدد القراءات، كلّ منهم يعتمد الرواية التي تصل إليه إذا لم تكن مخالفة لرسم المصحف العثماني الذي كان خالياً من الإعجام والتشكيل آنذاك.

ومهما يكن من شأن الاختلاف في القراءة، فإن المقرئ كان حريصاً جداً على تلقّي قراءته عن ثقة، فإذا صح عندهم النقل فإنهم لايحكّمون فيها أوجه العربية إدراكاً منهم أن القراءة سنّة لاتخالف، وهذا ما دفع أبا عمرو بن العلاء للقول: «لولاأن ليس لي ان أقرأ إلا بما قرئ لقرأت كذا وكذا وكذا»(٥) فالقرّاء لايهتمون لقراءة ما، سواء أكانت فصيحة أم غيرها أفصح منها، إذا وافقت وجهاً من وجوه العربية، يجيزه القياس، أو ورد به السماع، وهم لايعملون في شيء «من حروف القرآن على

---

(١)- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢١/١ القاهرة بلا تاريخ.

(٢)- انظر المصدر نفسه ٢٦/١.

(٣)- الشرح ٢/٩٤.

(٤)- انظر المحتسب لابن جني ٣٦٧/٢، وانظر ٣٣٦/٢.

(٥)- طبقات القراء لابن الجزري ٢٩٠/١ تح: برجستراسر القاهرة ١٩٣٢.

الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردّها قياس عربية، ولافشوّ لغة، لأن القراءة سنة متّبعة، يلزم قبولها، والمصير إليها>>(١)

موقف النحاة من القراءات :

بقيت المرحلة الأولى من تاريخ النحو غامضة، لم توضح لنا مواقف النحاة ومناهجهم، فما خلّفوه لنا من كتب ضاع من غير أن نعرف عنه شيئا، كالإكمال والجامع لعيسى بن عمر، والقياس النحوي ليونس بن حبيب، ولم يصل إلينا ممّا خلفه الخليل إلاّ معجم العين. وبقيت آراء النحاة الأوائل لنطّلع عليها في كتاب سيبويه، وهي قليلة لاتفي بالغرض المطلوب لرسم صورة كاملة لمناهج النحاة آنذاك، لاسيما موقفهم من القراءات القرآنية.

فقد انطلق النحاة الأوائل في استنباطهم للقواعد والأصول من لغة القرآن الكريم وكانت لغة الشعر رديفاً للغة القرآن، هذا في مرحلة البداية على الأقل، كما هو الحال عند أبي الأسود الدؤلي، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن؛ بعد ذلك جاءت مرحلة أكثر تطوراً فتوسعت دائرة الاستنباط وتتبع المصادر الأصلية، فاهتم النحاة بلغة القرآن وقراءاته، ولغة فصحاء العرب شعراً ونثراً.

وشهدت مرحلة البداية نحويين كباراً، وضعوا لبنات البناء النحوي الأولى، وأشهر هؤلاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد.

---

(١)- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١/١٠، ١١.

أما الحضرمي فلا نملك مرجعاً عن نحوه غير كتاب سيبويه الذي نقل عنه مرات قليلة وذكر قراءة له(١) وإذا أردنا تتبع منهجه نراه في كتب الفراء، والجمحي، وابن جني من خلال تناولاته لبعض القراءات القرآنية، فهو يميل دائماً إلى النصب متفرداً في بعض الأحيان بتلك القراءة، ويدافع عن قراءته هذه، ويجد لها تخريجاً نحوياً مناسباً؛ من ذلك قراءته لقوله تعالى: **﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُردَّ فنعمل غير الذي كنّا نعمل﴾**(٢) بنصب (نُردَّ) عطفاً على (فيشفعوا)، ويرى الفراء أن (نردّ) «ليس بمعطوف على (فيشفعوا) إنما المعنى -والله أعلم- أو هل نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل، ولو نصبت (نُردَّ) على أن تجعل (أو) بمنزلة (حتى)، كأنه قال: فيشفعوا لنا أبداً حتى نردّ فنعمل، ولانعلم قارئاً قرأ به»(٣) ومثال آخر يُبرز لنا ميل الحضرمي إلى نصب مالم ينصبه غيره كقوله تعالى: **﴿ياليتنا نُردّ ولانكذّبَ بآيات ربّنا ونكونَ من المؤمنين﴾**(٤) فقد قرأها الحضرمي بنصب (نكذّبَ) ووجد لها وجهاً نحوياً وهو النصب بأنْ مضمرة بعد واو المعية، وقد أنكر هذا الوجه أبو عمرو ويونس وسيبويه؛ وفي ذلك يقول ابن سلاّم الجمحي: «قلت لسيبويه كيف الوجه عندك؟ قال: الرفع، قلت: فالذين قرؤوا بالنصب؟ قال: سمعوا ابن أبي إسحاق فاتّبعوه»(٥)

---

(١)- انظر الكتاب ١/٢٧٩، ٢/٧٧، ٣٤١، ٣/٤٤، ٢٤٢.

(٢)- الأعراف ٧/٥٣.

(٣)- قرأ به ابن أبي إسحاق. معاني القرآن للفراء ١/٣٨٠ والحاشية. وانظر المحتسب في شواذ القراءات لابن جني ١/٢٥٢.

(٤)- الأنعام ٦/٢٧.

(٥)- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١/٢٠. وقراءة النصب هي قراءة ابن عامر، وقرأ حفص، وحمزة، ويعقوب بنصب (نكذّبَ) و (نكونَ)، وفصّل سيبويه الرفع «على وجهين: فأحدهما أن يَشرَكَ الآخرُ الأولَ، والآخر على قولك: دعني ولا أعودُ؛ أي فإني ممن لايعود، فإنما يُسأل الترك، وقد أوجب على نفسه أن لاعودة له البتّة ترك أو لم يَترك، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك وأن لايعود، وأما عبد الله بن أبي إسحاق فكان ينصب هذه الآية»، الكتاب ٣/٤٤، وانظر جامع البيان للطبري ١١/٣٢١.

ومن ذلك قوله تعالى: **هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرَ لكم**(١) بنصب (أطهرَ) على أنها حال، وعدّ (هو) ضمير فصل، وزعم يونس أن أبا عمرو رأى ذلك لحناً(٢) ومن ذلك قراءته لقوله تعالى: **والمقيمي الصلاةَ**(٣) بنصب (الصلاة) على أنها مفعول به لاسم الفاعل على الرغم من حذف النون، <<وإنما جاز النصب مع حذف النون؛ لأن العرب لاتقول في الواحد إلاّ بالنصب، فبنوا الاثنين والجميع على الواحد، فنصبوا بحذف النون، والوجه في الاثنين والجمع الخفضُ؛ لأن نونهما قد تظهر إذا شئت، وتحذف إذا شئت، وهي في الواحد لاتظهر>>(٤)

وكان الحضرمي يلجأ إلى أقيسة العرب في بعض ما يُنقل إليه، وعُرِف عنه طعنُهُ على العرب، وتتبعه للشعراء يتسقّط أخطاءهم، ويعيب عليهم هفواتهم التي تضطرهم إليها قيود الشعر(٥)

أما عيسى بن عمر فإن منهجه النحوي نتلمسه في كتاب سيبويه، وما تناثر من أخبار في كتب النحو الأخرى كالمقتضب، وبعض كتب الطبقات، والقراءات. ومما يسَّر الإلمام بالمذهب النحوي لابن عمر هو أخذ النحاة المتأخرين عنه بفضل ما تركه لهم من آثار، فقد ترك كتابين هما (الجامع) و(الكامل)(٦) وضمّنهما جلّ الأبواب النحوية التي اتّضحت أصولها في مطلع القرن الثاني الهجري؛ وفي

---

(١)- هود ١١/٧٨.

(٢)- انظر الكتاب ٢/٣٩٦، وانظر المحتسب في شواذ القراءات ١/٣٢٦، وانظر مجالس ثعلب ٢/٣٥٩ مصر ١٩٥٦م.

(٣)- الحج ٢٢/٣٥.

(٤)- معاني القرآن للفراء ٢/٢٢٥-٢٢٦.

(٥)- انظر المصدر السابق ٢/١٨٢، طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ١٥، ونزهة الألباء للأنباري (أبو الفضل) ١٩.

(٦) ويُقال (الإكمال) انظر: مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٢٣، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣١، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٣، وطبقات القراء لابن الجزري ١/٦١٣، وبغية الوعاة للسيوطي ٢/٢٣٨.

ذلك يقول الخليل بن أحمد(١)

ذهب النحو جميعاً كلّه غير ما أحدثَ عيسى بنُ عمرْ

ذاك، إكمال، وهذا جامع فهما للناس شمسٌ، وقمـــر

وقد عُني سيبويه بآراء عيسى فذكر بعضاً منها في كتابه، وذكر له بعض قراءاته، منها جواز فتح همزة (أنّ) على تقدير قول محذوف، وأخذ بقراءة عيسى في قوله تعالى: **فدعا ربّه إني مغلوب**(٢) على تقدير: فدعا ربّه قائلاً: إني مغلوب(٣) ومن ذلك حديثه عن ضمير الفصل، حيث استدلّ بقراءته لقوله تعالى: **وما ظلمناهُمْ ولكنْ كانوا هُمُ الظالمونَ** (٤) فأجاز أن يكون (هم) اسماً مبتدأ، وما بعده خبراً له(٥) وعلى الرغم من الآراء المتناثرة فإننا لانستطيع أن نتلمس منهجا معيناً لاستدلاله، لكنه من المرجح أنه كان يختار القراءة التي تلائم القياس، ويردّ ما يجافيه، وما لا تثبت روايتها عن الرسول (ص) بدليل طعنه على العرب وعدم تسليمه بما يقولون، إضافة إلى أن له اختيارات في القراءة على ما يناسب مذاهب العربية. (٦)

ومن اختياراته في القراءة تبرز فكرة العامل النحوي لديه، فهو لم يصرّح بالعامل النحوي تصريحا مباشراً غير أن تناولاته النحوية تدلّ على أنه كان في ذهنه بصورة دائمة؛ من ذلك أنه ينصب الاسم الذي

---

(١)- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٧،١٥

(٢)- القمر ٥٤/١٠.

(٣)- انظر الكتاب ٣/١٤٣.

(٤)- الزخرف ٤٣/٧٦ و(الظالمون) قراءة عبد الله، وأبي زيد النحويّين، انظر البحر المحيط لأبي حيان ٨/٢٧، السعادة ١٣٢٨هـ.

(٥)- انظر الكتاب ٢/٣٩٢.

(٦)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلّام ١٥، وطبقات القراء لابن الجزري ١/٦١٣.

يقع قبل فعل مشغول بضميره كقراءته لقوله تعالى: **سورةً أنزلناها وفرضناها** (١)، وقوله: **والسارقَ والسارقةَ فاقطعوا أيديهما**(٢)، وقوله: **والزانيةَ والزاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مئة جلدةٍ**(٣) بنصب (سورة و السارق، والزانية).

ومن النحويين الذين عاصروا عيسى بن عمر أبو عمرو بن العلاء، وهو معروف بالرواية واللغة والقراءة أكثر منه في النحو. ومثله عيسى بن عمر لم يصل إلينا شيء من كتبه حتى نحكم على منهجه في الاستدلال إلا موقفاً واحداً ردّ فيه قراءة محمد بن مروان لقوله تعالى: **هؤلاءِ بناتي هنَّ أطهرَ لكم**(٤). لأنها تخالف قياس اللغة في ضمير الفصل الذي يقع بين المبتدأ والخبر(٥) وردّه لهذه القراءة يدلّ على أنه يشكّ في روايتها، ويتمسك بقياس اللغة؛ لأن في غير كتاب سيبويه ما يُظهر ذلك(٦).

---

(١)- النور ٢٤/ ١ انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٦٣، وانظر إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ٢/ ٤٣١ تح: زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٠م.

(٢)- المائدة ٥/ ٣٨، وانظر مجازالقرآن لأبي عبيدة ٢/ ٦٣، البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٤٧٦.

(٣)- النور ٢٤/ ٢، وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٦٣، البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٤٢٧.

(٤)- هود ١١/ ٧٨.

(٥)- انظر الكتاب ٢/ ٣٩٧.

(٦)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٣، والمحتسب لابن جني ١/ ٧٣، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ١٦٢، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، وانظر البحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٥٨.

وكان أبو عمرو بن العلاء سيّد القرّاء السبعة بفضل ما اجتمع له من علم غزير وتواضع جمّ، إضافة إلى الثقة والأمانة، <<فما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ما سمع>>(١)، وهذا ما جعل الناس يثقون به لاسيما طلابه(٢)، و<<لم تزل العلماء في زمانه تعرف له تقدمه، وتقرّ له بفضله، وتأتمّ في القراءة بمذهبه>>(٣) وقد فاق أبو عمرو معاصريه من القرّاء كعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر الثقفي وغيرهما، وتبع قراءته أكثر أهل البصرة بعد أن عرفوا فضله، وعلوّ مكانته(٤)، واختار كبار النحاة قراءته، واستدلوا بها كسيبويه، والمبرّد، وابن جني، وغيرهم؛ ومما ذكره سيبويه قوله: <<وقد قرأ أبو عمرو: **فيقول ربيَ أكرمَنْ**>>(٥) بدلاً من (أكرمَنِ) و **ربيَ أهانَنْ** (٦) بدلاً من (أهانَنِ)، <<ومن ثَمّ قال أبو عمرو **إلى بارئكم** (٧) بسكون الهمزة>> بدلاً من (بارئِكم)، <<وزعموا أنّ أبا عمرو قرأ: **ياصالحُيْتِنا**(٨) بدلاً من (ياصالحُ ائتنا)،>> وقرأ أبو عمرو: **هَثّوِّبَ الكفّار**(٩) يريد هل ثُوّب الكفّار فأدغم في الثاء>>(١٠) ومما ذكره المبرد في حديثه عن اجتماع الهمزتين، وتخفيف إحداهما قوله:<<فإذا كانتا في كلمتين، فإنّ أبا عمرو بن العلاء كان يرى تخفيف الأولى منهما، وعلى

---

(١)- الموشح للمرزباني ١٢٥.

(٢)- انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/١٢١، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١١/ ١٦٠.

(٣)- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ٨٢.

(٤)- انظر المصدر نفسه ٨٤-٨٥.

(٥)- الفجر ٨٩/١٥، والكتاب ٤/١٨٦.

(٦)- الفجر ٨٩/١٦، والكتاب ٤/١٨٦.

(٧)- البقرة ٢/٥٤، والكتاب ٤/٢٠٢، والخصائص لابن جنيّ ١/٧٢.

(٨)- الأعراف ٧/٧٧، والكتاب ٤/٣٣٨.

(٩)- المطففين ٨٣/٣٦.

(١٠)- الكتاب ٤/٤٥٩، وانظر المقتضب ١/٢٥٢.

ذلك قرأ في قوله عز وجل: **فقد جاء أشراطها**(١) إلا أن يبتدأ بها ضرورة كامتناع الساكن. وكان يحقق الأولى إذا قرأ **ءألد وأنا عجوز**(٢) ويخفف الثانية›› (٣). ونقل قراءة أبي عمرو **يتوشرون** (٤) بدلاً من قوله تعالى: **بل حوشرون** (٥)، وقوله تعالى: **وأنه أهلك عاد لُولى** (٦) بدلاً من **عاداً الأولى** (٧) وغير ذلك.

ولدى رجوعنا إلى مذهب أبي عمرو بن العلاء في القراءات القرآنية يتبين لنا أنه كان على علم واسع بالعربية، وأقيستها، وقواعدها؛ ومن خلال القراءات القرآنية التي سبقت يظهر لنا ذلك من إدراكه لاختلاس الحركات الإعرابية، وتليين الهمز، والإدغام، وغيرها، (٨) وإذا عرفنا أنّ الشواهد القرآنية التي استدلّ بها سيبويه كانت في الغالب من قراءة أبي عمرو عرفنا مكانته ، ومنزلته.

---

(١)- محمد ٤٧/١٨ ‹‹واعلم أن الهمزتين إذا التقتا، وكانت كلّ واحدة منهما من كلمة، فإن أهل التحقيق يخففون إحداهما ويستثقلون تحقيقهما... كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة، فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا. ومن كلام العرب تخفيف الأولى وتحقيق الأخرة، وهو قول أبي عمرو، وذلك قولك **فقد جا أشراطها.*** و **ويازكريا إنّا نبشّرك.*** ومنهم من يحقق الأولى، ويخفف الأخرة، سمعنا ذلك من العرب وهو قولك، **فقد جاء اشراطها، ويازكرياءُ انا.***.. وكان الخليل يستحب هذا القول، فقلت له لِمَ؟ فقال: إني رأيتهم حين أرادوا أن يبدلوا إحدى الهمزتين اللتين تلتقيان في كلمة واحدة أبدلوا الأخرة، وذلك جائٍ ، وآدم، ورأيت أبا عمرو أخذ بهنّ في قوله عز وجل **ياويلتا ءألد وأنا عجوز.*** وحقّق الأولىَ . وكُلّ عربيّ وقياس من خفف الأولى أن يقول: **ياويلتا ءالد.*** المقتضب ١/١٥٨(الحاشية) والكتاب ٣/٥٤٨، ٥٤٩.

(٢)- هود ١١/٧٢.

(٣)- المقتضب ١/١٥٨.

(٤)- الأعلى ٧٨/١٦.

(٥)- انظر المقتضب ١/٢١٤.

(٦)- النجم ٥٣/٥٠.

(٧)- انظر المقتضب ١/٢٥٤.

(٨)- انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ١٠٥،١١٦،١٢٢،١٥٤،١٥٦،١٧٠،١٧٤.

وقد وقف أبو عمرو بن العلاء موقفاً واضحاً من بعض المقرئيين، وقراءاتهم، ورأى أنه لايشترط في القراءة القرآنية أن تكون مطابقة لأقيسة العربية؛ لأن القراءة سنّة تُتّبع(١)، وقد اتهم بعضَ المقرئيين باللحن شكاً في النقل، وصحة الرواية؛ من ذلك ما أورده القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: **ليَجْزِيَ قوماً بما كانوا يكسبون** (٢) حيث يقول: <<قراءة العامة ليجزيَ بالياء، على معنى ليجزي الله .... وقرأ أبو جعفر، والأعرج، وشيبة: ليُجْزى، بياء مضمومة، وفتح الزاي على الفعل المجهول (قوماً) بالنصب. قال أبو عمرو: وهذا لحن ظاهر.>>(٣)

ومن ذلك ردّه لقراءة من قرأ : **ولاتقربا هذه الشِّجَرة** (٤) بكسر الشين، وقوله: <<يقرأ بها برابرة مكة وسوادها>>(٥) ومن ردّه لبعض القراءات، تخطئته لها قراءةُ أهل المدينة لقوله تعالى: **فَبِمَ تُبشّرونِ**(٦) والكسرة في(تبشرونِ) دلالة على ياء المتكلم، والصحيح أن ياء المتكلم لاتذكر هـهنا إلا مع نون الوقاية، وفي ذلك يقول أبو عمرو:<<لاتضاف(تبشّرونِ) إلاّ بنون الكناية كقولك تبشّرونني>>(٧)، ومنه ردّه لقراءة من قرأ(هِـئْتَ) بكسر الهاء، وهمز الياء بدلاً من **وقالتْ هَيْتَ لكَ**(٨).

(١)- انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ٨٣.

(٢)- الجاثية ١٤/٤٥.

(٣)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧٢/١٦.

(٤)- البقرة ٣٥/٢.

(٥)- المحتسب لابن جني ٧٣/١.

(٦)- الحجر ٥٤/١٥. وهي في مصحفنا اليوم **فَبِمَ تُبَشّرونَ**.

(٧)- مجاز القرآن لأبي عبيدة ١٣/١ وانظر معاني القرآن للفراء ٩٠/٢.

(٨)- يوسف ٢٣/١٢.

وقوله متهكماً: ‹‹استعرِضِ العرب، حتى تنتهي إلى اليمن، هل يعرف أحد: هِئت لكَ››(١)

هذه الأمثلة توضّح لنا مذهب أبي عمرو في القراءات القرآنية، وموقفه من القراءات التي تخالف أقيسة النحو، وهذا المذهب يدحض ما ينسب إليه من تسليم للعرب فيما يقولون.

أما يونس بن حبيب فهو على شاكلة من سبقه من النحاة، فآثاره قليلة مما يعيق إظهار منهجه، ونظرته إلى لغة القرآن، والاستدلال بها، ولعلّ ما ذكره سيبويه وأبو عبيدة عنه لايوضح مانريده.

وما ورد -على الرغم من قلّته- يظهر لنا تعليله لبعض القراءات التي يختارها من ذلك قوله تعالى: **أنَّ اللهَ بريء من المشركين ورسولُه** (٢) فقد اختار يونس الرفع في (رسولُه) (٣) ومنه قوله تعالى: **وأسَرّوا النَّجوى الذين ظلَموا**(٤) فقد اختار أن يكون الاسم الموصول (الذي) بدلاً من الضمير في (أسرّوا) ‹‹وكأنه قال: انطلقوا، فقيل له: مَنْ؟ فقال: بنو فلان، فقوله جلّ وعزّ: **وأسرّوا النجوى الذين ظلَموا** على هذا فيما زعم يونس››(٥) وقال في قوله تعالى **بلى قادرين**(٦) إنه قد نصب(قادرين) بفعل محذوف تقديره نجمعها قادرين (٧)، ومن تعليلاته لبعض القراءات ما أورده أبو

---

(١)- مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٠٦/١، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٤/٩.

(٢)- التوبة ٣/٩. وانظر المقتضب للمبرد ١١٢/٤، وقراءة النصب(رسولَه) قراءة شاذة، قرأ بها ابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وزيد بن علي عطفاً على لفظ اسم (أنّ)، وأجاز الزمخشري أن ينتصب على أنه مفعول معه. انظر البحر المحيط لأبي حيان ٦/٥.

(٣)- انظر الكتاب ٢٣٨/١.

(٤)- الأنبياء ٣/٢١.

(٥)- الكتاب ٤١/٢.

(٦)- القيامة ٤/٧٥.

(٧)- انظر الكتاب ٣٤٦/١.

عبيدة في مجاز القرآن لقوله تعالى: **إنّ هٰذان لساحران**(١) حيث قال يونس: إنّ الصواب: (إن هذين لساحران) لكنّه كتب بالألف «كما يزيدون وينقصون في الكتاب، واللفظ صواب»(٢)

إنّ نُقُول سيبويه عن يونس تدلّ على أهمية آراء يونس النحوية، لكنّ نقول سيبويه لقراءات يونس لاتتعدى الإطار الذي أشرتُ إليه والذي يظهر ثقته بالفصحاء، وقبوله معظم ما نُقل إليه عن العرب، وتعليل كلامهم على الكثير الشائع من لغة العرب.

---

(١)- طـــه ٢٠/٦٣.

(٢)- مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢١.

٢- الحديث الشــريف:

وهو ما قاله الرسول (ص)، وما نقلته الرواية، ودوّنته الكتب من محاورة الرسول لأصحابه، وما قاله الصحابة في وصف أعماله، وتميّز موقفُ النحاة الأوائل من الحديث الشريف بالإعراض عن الاستدلال به، إلا في مواضع قليلة جداً، على الرغم من فصاحته التي لايرقى إليها شــكّ. (١)

لم يُعْنَ الصحابة بإسناد الحديث في المراحل الأولى، وكان بعضهم يغضب إذا سئل عن الإسناد، كأنس بن مالك (رض) الذي يقول لسائليه: ‹‹ماكان بعضنا يكذب على بعض››(٢) وبعضهم الآخر ينقل عن الرسول كما سمع من صحابة آخرين قال البراء(٣): ‹‹ما كلّ ما نحدّثكم عن رسول الله (ص) سمعناه منه .... منه ماسمعناه منه، ومنه ما حدّثنا به أصحابنا، ونحن لانكذب››(٤) حتى إن المحدّثين لم يلتزموا إسناد ما ينقلونه إلا بعد فتنة عثمان(رض)، وهذا يظهر في قول محمد بن سيرين (٥): ‹‹لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلمّا وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنّة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم›› (٦).

---

(١)- انظر مجالس ثعلب ٤٥٤ ط٢، وصف المطر والسحاب لابن دريد ٥ تح: عز الدين التنوخي دمشق ١٩٦٣. المخصص لابن سيده ٩٦/٩. المطبعة الأميرية ١٣١٦-١٣٢٦هـ.

(٢)- مقدمة ابن الصلاح ٣٨ عن مجلة الشريعة. بغداد، عدد ٣، ٦٦-١٩٦٧، نقلاً عن الاحتجاج للحلواني ١٨٣.

(٣)- هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي (ت ٧١ هـ)، قائد صحابي، أسلم صغيراً، وغزا مع الرسول (ص) روى له البخاري ومسلم ٣٠٥ أحاديث. انظر الطبقات الكبير لابن سعد ٨٠/٤ ليدن ١٣٢١ هـ. ومعجم البلدان لياقوت الحموي مادة (زنجان) مصر ١٣٢٣-١٣٢٥ هـ.

(٤)- مقدمة ابن الصلاح ٨، مجلة الشريعة، نقلاً عن الاحتجاج للحلواني ١٨٣.

(٥)- محمد بن سيرين البصري (٣٣-١١٠ هـ) الأنصاري بالولاء، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة. تابعي من أشراف الكتّاب، مولده ووفاته في البصرة، تفقّه وروى الحديث، استكتبه أنس بن مالك، بفارس وكان أبوه مولى لأنس. انظر وفيات الأعيان ٤٥٣/١، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢١٤/٩ حيدر آباد الدكن ١٣٢٥-١٣٢٧ هـ.

(٦)- صحيح مسلم ١٥/١ القاهرة ١٣٤٩ هـ.

وكان رواة الحديث في الفترة التي أعقبت فتنة عثمان(رض) من سكان مكة والمدينة، أو ممن نزحوا إلى الحواضر كالكوفة والبصرة، وهذا ما جعل البيئة التي ترعرعت فيها رواية الحديث بعيدةً عن لغة البادية التي تكلّمنا عن فصاحتها، قريبةً من لغة الحاضرة التي أشرنا إلى ضعفها، والمؤثرات التي أدت إلى ذلك.

وقد أغفل النحاة الاستدلال بالحديث الشريف لأنّ كثيراً من المحدثين كانوا يجهلون العربية، ولاتقوى ألسنتهم على دفع اللحن في لفظِ الحديث، ونطقه. وبعضهم الآخر يهتمّ بالعربية وفصاحتها.

فمن أخطائهم أنّ يوسفَ السمتي قال لعمرو بن عبيد: ما تقول في دجاجة ذُبحتْ من قفائها، فراجعه عمرو، فقال: من قفاؤها، فراجعه، فقال من قفاها(١). والأمثلة الدالة على لحن المحدثين كثيرة جداً وأسبابها متنوعة، ولسنا في معرض الحديث عن ذلك(٢)

ولم يكن المحدثون جميعاً يلحنون، إنما هناك فريق عُرف بالعناية بعلوم اللغة العربية كحماد بن سلمة (٣)(ت ١٦٧ هـ) الذي كان يمر بحلقة الحسن البصري في المسجد الجامع، ويتخطّاها إلى أصحاب العربية يتعلم منهم، وأخذ عن أبي عمرو، والحضرمي(٤) والأمثلة كثيرة على حثّ المحدثين على الأخذ بعلوم العربية(٥)

---

(١)- انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/٢١٢، تح: الزاوي والطناحي، القاهرة ١٣٨٣هـ.

(٢)- انظر المصدر نفسه ٢/٢١١،٢١٧،٢١٩، معاني القرآن للفراء ٢/١٢٧، البيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٢٠. المحتسب لابن جني ١/٨٦. تح: ناصف وشلبي، القاهرة ١٣٨٦ هـ. والخصائص ٣/٢٨٩،٢٩٠،٢٩٢. والمزهر للسيوطي ٢/٣٥٤،٣٧٤. تح: جاد المولى وصاحبيه، القاهرة بلا تاريخ. وانظر العربية ليوهان فك ٦٦،٦٩،٧٠. ترجمة: النجار، القاهرة ١٩٥١م.

(٣)- حماد بن سلمة بن دينار البصري الربعي بالولاء (ت ١٦٧ هـ) مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث ومن النحاة، كان حافظاً ثقة مأموناً فصيحاً مفوهاً. انظر نزهة الألباء للأنباري ٥٠، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٣/١١.

(٤)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٤٨.

(٥)- انظر الخصائص لابن جني ٣/٢٩٩،٢٦٨، أمالي الزجاجي ٢٠،١٨٥-١٨٦، تح: هارون القاهرة ١٩٥٠، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٦٦، إنباه الرواة للقفطي ٢/٣٥٠، معجم الأدباء للحموي ١/٧٨،٨٣،٨٧،٨٩.

ومن المؤكد أن حثّ رجال الحديث على الأخذ بعلم النحو واللغة العربية يدلّ على أنّ كثيراً منهم لم يكونوا من الفصحاء، فهم يتكلمون عن تكلّف، ولو كانوا عرباً قد سلِمَ لسانُهم من الضعف لما احتاجوا إلى تعلّم النحو، على غرار بعض المحدّثين الذين عُرفت فصاحتهم لأنهم عرب في أنسابهم.

ولم يحافظ رواة الحديث على لفظ الحديث، كما سمعوه من الرسول (ص) أو من صحابته، وإنما نقلوا الحديث بمعناه، وانصبّ اهتمامهم على الفكرة التي تعنيها ألفاظ الحديث؛ قال سفيان الثوري(١) وهو من كبار المحدّثين: <<إن قلت لكم: إني أحدثكم كما سمعت، فلا تصدّقوني، إنما هو المعنى>>(٢) وتصرّف المحدّثين باللفظ دون المعنى لم يكن وليد مزاج خاصّ، وإنما كان بإذن من الرسول(ص)؛ فقد قال له أحدُ الصحابة: يارسول الله: إني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما سمع منك، يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً، فقال له الرسول: <<**إذا لم تحلّوا حراماً، ولم تحرّموا حلالاً، وأصبتم المعنى فلا بأس**>>(٣) وفي المعنى ذاته قال واثلة بن الأسقع(٤): <<فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم، لاتألونه حفظاً، وأنتم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله(ص) عسى ألاّ نكون سمعناها منه إلاّ مرّة واحدة، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى>>(٥).

---

(١)- سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧-١٦١هـ) أمير المؤمنين في الحديث، وسيّد عصره في علوم الدين والتقوى، مات في البصرة. انظر تاريخ بغداد ١٥١/٩، وفيات الأعيان ٢١٠/١، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٥٧/٦.

(٢)- خزانة الأدب للبغدادي ٥/١.

(٣)- نقلاً عن (الحديث والمحدثون) لأبي زهرة ٢٠٣، ٢٠٤. القاهرة ١٩٥٨.

(٤)- واثلة بن الأسقع بن عبد العزّى (٢٢ق هـ- ٨٣ هـ) صحابي من أهل الصُّفّة، شهد مع الرسول (ص) غزوة تبوك، وشهد فتح دمشق، وهو آخر من مات من الصحابة في دمشق. انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني ١٠١/١١. والإصابة: ترجمة ٩٠٨٩ للعسقلاني.

(٥)- الحديث والمحدثون لأبي زهرة ٢٠٣-٢٠٤.

وقال الحسن البصري(١): <<لو كنا لانحدثكم إلاّ كما سمعنا ما حدثناكم بحديثين، ولكن إذا جاء حلاله وحرامه فلا بأس>>(٢) وقال محمد بن سيرين: <<ربما سمعت الحديث من عشرة، كلهم يختلف في اللفظ، والمعنى واحد.>> (٣)

أمام هذا الكم من الأحاديث التي رويت بألفاظ مختلفة نرى أنفسنا أمام روايات مختلفة، لايستطيع النحوي أن يركنَ إلى رواية منها، يضاف إلى ذلك أنّ الراوي غيرُ فصيح، وغير متثبّت من صحة روايته؛ من ذلك قوله(ص): **زوجتكها بما معك من القرآن، أو ملّكتُكها بما معك من القرآن، أو خذها بما معك من القرآن**(٤)

هذا الواقع الذي أشرنا إليه لم يمنع وجود أحاديث رُويت بألفاظها وتواترت روايتها؛ من ذلك حديث المسح على الخفين، وأنزل القرآن على سبعة أحرف، ومن بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة(٥)

وفي عهد الرسول(ص) دُوّنت بعض الأحاديث، وجُمعت مكتوبة؛ لكنها لم تكن من الكثرة لنطلق على ذلك بأنه تدوين للحديث الشريف. وقد دوّن عبد الله بن عمرو بن العاص(٦) بعض الأحاديث

---

(١)- الحَسَن بن يسار البصري (٢١-١١٠ هـ) تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، عالم، فقيه، فصيح. شبّ في كنف علي(رض)، قال فيه الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء. انظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ١/٢٥٤ مصر ١٣٢٥، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ٢/١٣١ مصر ١٣٥١هـ.

(٢)- السنة قبل التدوين لمحب الدين الخطيب ١٣١ وما بعدها القاهرة، ١٩٦٣.

(٣)- المصدر نفسه ١٣١ ومابعدها.

(٤)- الخزانة ١/٥.

(٥)- انظر لمحات في أصول الحديث والبلاغة ا لنبوية لمحمد أديب الصالح ٨٩،٨٨دمشق ١٣٨٨هـ. وانظر الاحتجاج للحلواني١٩٠.

(٦)- عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق هـ- ٦٥ هـ) قرشيّ من الصحابة النساك، كان يكتب في الجاهلية ويحسن السريانية، واستأذن الرسولَ (ص) في أن يكتب ما يسمع منه، فاذن له. قال له الرسول (ص): <<**إن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً**،، شهد غزوات وحروباً، وحمل راية أبيه يوم اليرموك. له ٧٠٠ حديث. انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٣. والإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني الترجمة ٤٨٣٨.

النبوية في صحيفة "الصادقة"(١)، وكان عليّ بن أبي طالب(رض) يكتب بعضَ ما يسمع عنه(ص) إضافة إلى رسائله إلى قيصر، والنجاشي، وكسرى، وغيرهم مما حفظته لنا الكتب(٢) ولم يُعِر النحاة اهتماماً لما ورد من الأحاديث، ولم يأخذوا منها شواهدهم، ولم تقنعهم في استدلالهم، لأنهم في الأصل يعوّلون على الرواية المأخوذة شفاهاً من الأعراب، أو من شيخ ثقة، ويبتعدون عمّا دُوّن في صحيفة؛ لينأوا عن أيّ تحريف أو تصحيف، وإذا قنعوا بالأخذ عن رواية الشيوخ وجدوا أنفسهم أمام رواة للحديث مَن لايهتمّون بسلامة اللغة، فيلحنون(٣)

وعلى ذلك فإننا لانستطيع أن نتلمس مناهج النحاة قبل سيبويه، بسبب ضياع مصنفاتهم، ولانجد في الكتاب ما يدلّ على استدلالهم بالحديث الشريف.

ولعل خير مانلخّص به الفكرة العامة عن استدلال النحاة بالحديث الشريف، وسبب صدّهم عن ذلك قولُ السيوطي: ‹‹إن غالب الأحاديث مرويّ بالمعنى، وقد تداولها الأعاجم، والمولّدون قبل تدوينها، فرووها بما أدّت إليه عبارتهم، فزادوا ونقصوا، وقدّموا وأخّروا، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مرويّاً على أوجه شتى بعبارات مختلفة››(٤). وهو الذي جعل النحاة لايثقون أنّ ذلك لفظُ الرسول (ص)، ويرون أنّ الأعاجم يدخلون في رواية الحديث الشريف، واللحن غير مأمون منهم، والخطأ وارد في كلامهم.

---

(١)- انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/١٨٧-١٨٨.

(٢)- انظر المصدر نفسه ٢/٢٤، ٣٠، ٣٢، ٤٧، ٥٠. وانظر لمحات في أصول الفقه لمحمد أديب الصالح ٥٩، ٦٣، ٦٤.

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٩١.

(٤)- الاقتراح للسيوطي ١٦، وانظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ٤٦-٤٧ القاهرة ١٩٦٨م.

٢- كلام العرب:

آ- الشـــعر

اهتمّ النحاة واللغويون على حدّ سواء بالشعر اهتماماً بالغاً، واستدلّوا به على صحة ماجاء في القرآن الكريم من ظواهر نحويّة ولغويّة، لذلك فإنّنا نرى الشواهد الشعرية عند النحاة تزيد على الشواهد القرآنية، وتتفاوت زيادتها بين نحويّ وآخر.

مصادره:

الجزيرة العربية هي الموطن الذي نبع منه الشعر الأصيل، وكلّما كان موطن الشاعر موغلاً في البادية العربيـــة، بعيداً عـن أطرافها كان أقرب إلى الفصاحة، وسلامة اللسان، ومع توسّع العرب في فتوحاتهم الإسلامية صاروا أمام واقع لغوي جديد، دفع العلماء إلى تقعيد لغة العرب، ووضع ضوابط لها، فكان الأعراب خيرَ مصدر للشعر العربي الفصيح، وحكماً يُلجأ إليه إذا عَسُر فهم، أو غمضت رواية.

أمّا رواية الشعر فيها يقول ابن سلاّم: ((وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خيرَ فيه، ولا حجّة في عربيّته... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء)) (١) وكلُّ شعر لا يرويه أعراب البادية هو شعر لا يُركَن إليه، ولا يوثق بعربيّته. وردّ ابن سلاّم ما نسب إلى عاد وثمود من شعر لأنّه ((لم يروِ قط عربيّ منها بيتاً واحداً، ولا رواية للشعر)) (٢) ويرى الأصمعي أنّ قلة ما في أيدي الناس من شعر عدي بن زيـــد، وأبي دؤاد الإيـــادي يعود

---

(١)- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ٥-٦ .

(٢)- المصـدر السابق ١١.

إلى أنّ أعراب البادية لم يرووا لهما لانحراف لغتهما عن لغة نجد(١)

ظلّ الأعراب أصلاً يُرجع إليه إذا اختلف الرواة في أمر، من ذلك اختلاف المفضّل الضبيّ والأصمعي في قول أوس بن حَجَر:

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرُها تُصْمِتُ بالماء تَوْلَباً جَدِعـا

وهما عند سليمان بن علي الهاشمي بالبصرة، فقد أنشده المفضّل (جَدَعا) ففطن الأصمعي لخطئه، فقال له: إنما هو (تولبا جدِعا) وعلت أصواتهما، فقال سليمان بن علي: من تختاران أجعله بينكما؟ فاتّفقا على غلام من بني أسد حافظ للشعر فأُحضر، فعرضا عليه ما اختلفا فيه فصدّق الأصمعي، وصوّب قوله، فقال له المفضّل: وما الجَدِعُ؟ فقال: السيّء الغذاء (٢)

بدايات الاستدلال بالشعر:

زادت العناية بالشعر، وسعى اللغويون والنحاة إلى الأخذ به، في مواقفهم وتناولاتهم، ولم تنقطع روايته في صدر الإسلام، ونجد عمر بن الخطاب (رض) يقول على المنبر: ((عليكم بديوانكم لا تضلّوا. فقالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنّ فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم)) (٣) وكان عمر من أروى الناس(٤) وعَصْر كان فيه عمر (رض) يحضّ على الأخذ بالشعر، وابن عباس يجلس

---

(١)- انظر: الموشح للمرزباني ٧٣ تح: البجاوي القاهرة٦٥ ، والعربية ليوهان فك٥١ ترجمة النجار القاهرة٥١ ، وانظر الاحتجاج للحلواني٩١.

(٢)- انظر: مقدمة تهذيب اللغة للأزهري١١ تح: هارون القاهرة٦٤، وانظر: لسان العرب (جدع).

(٣)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٠/١٠-١١١.

(٤)- انظر الكامل للمبرد ٩٦٦، القاهرة بلا تاريخ.

((يوماً فلا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب)) (١) يدلّ على الاتجاه المبكر ليأخذ الشعر دوره البارز مادةً للاستدلال في اللغة والنحو.

فمنذ زمن بعيد عرف الناس الشعرَ مصدراً لغوياً هاماً، واستعانوا به لفهم غريب اللغة بشكل عام، والقرآن الكريم بشكل خاص، ورووا عن ابن عباس أنّ الرسول (ص) قال: **((إذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر))** (٢) هذا في عهده (ص)، حيث عرفت قيمة الشعر في فهم القرآن وتفسير معانيه.

وصحيح أنّ الاستدلال النحوي لم يكن قد ظهر، ولم تتّضح معالمه النظرية بعد، لكنّ ابن عباس (رض) كان يدرك أنّ الاستعانة بالشعر هي الباب الذي نصل من خلاله إلى فهم غريب القرآن، ذلك في قوله: ((إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، ديوان العرب)) (٣) وهو نوع من الاستدلال يكشف لنا مكانة الشعر، وأثره في فهم العربية، وترجمة معانيها، وفكّ معاني غريبها، وهو ما دفع حَبر الأمّة لابراز مكانة الشعر في هذا المجال. ومن استدلاله بالشعر أيضاً أنّ عليّ بن زيد بن جدعان قال: ((سمعت سعيد بن جبير، ويوسف بن مهران يقولان: سمعنا ابن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم قول الشاعر يقول فيه كذا وكذا)) (٤) ومن استدلاله لفهم غريب اللغة أنه شرح قوله تعالى: **(وثيابك فطهر)** (٥) بقوله: لاتلبس ثيابك على غَدْرَة أي نجاسة، ثمّ استدلّ بقول الشاعر:

---

(١)- الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ٣/١٩٣.

(٢)- مجالس ثعلب ٣١٧ تح: هارون، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.

(٣)- إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر ابن الأنباري ١/٦٢ دمشق ١٩٧١.

(٤)- ايضاح الوقف والابتداء ١/٦٢.

(٥)- المدثر٧٤/٤.

فإنّي بحمد الله لا ثوب غادر لبستُ ولا من سوءةٍ أتقنّعُ (١)

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) (٢) يقول ابن عباس: المريج هو المختلط، ألم تسمع إلى قول الشاعر:

فجالت والتمستُ به حشاها فَخَرَّ كأنّه خوط مَريجُ (٣)

ومن ذلك أنه شرح كلمة (الزنيم) بالدعيّ الفاحش اللئيم، واستدلّ بقول الشاعر:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عُرض الأديم أكارعه (٤)

واستدل في تفسيره لكلمة (السِّنة) بقول زهير بن أبي سلمى:

لا سِنَة في طوال الدهر تأخذه ولا ينام ولا في أمره فَنَدُ (٥)

وغير ذلك من الأمثلة التي توضّح أهمية الشعر في استدلال ابن عباس (رض). (٦)

بعد ذلك نشطت الحركة اللغوية أيام أبي الأسود الدؤلي وتلامذته كيحيى بن يعمر(٧)

---

(١)- انظر إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ٦٣/١.

(٢)- سورة ق ٥/٥٠.

(٣)- انظر إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ٦٤/١.

(٤)- انظر إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ٦٥/١. والعُرض: الجانب. الأديم: الجلد. والاكارع مفردها كُراع. وهو مستدق الساق العاري من اللحم.

(٥)- انظر المصدر نفسه ٧٧/١-٨٧. والفند: الكذب.

(٦)- انظر: الكامل للمبرد، تح: أبو الفضل ٢٢٨/٣-٢٢٩.

(٧)- هو يحيى بن يعمر الوشقي العدواني ت١٢٩هـ من العلماء التابعين، عارف بالحديث والفقه ولغات العرب، أخذ النحو عن أبي الأسود. تولّى قضاء البصرة حتى مات. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٦/٢، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي٢٢.

وعنبسة(١) وميمون (٢) الذين يعدّون من أكثر الناس عناية بالشعر، وروايته، ثم جاء النحاة الأوائل وعوّلوا على الشعر في استدلالهم، فعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي أجاز نصب الاسم بعد إياك كقولهم: إياك الأسدَ واستدل بقول الشاعر:

إياكَ إياكَ المِراءَ فإنّه　　　إلى الشرّ دعّاء وللشرّ جالبُ (٣)

ومن ذلك أنه استدلّ بقول العجّاج: (٤)

يكشف عن جمّاته دَلْوُ الدالْ (٥)

للاستدلال على جواز استخدام (الدالي) بمعنى (المُدلي).

واستدلاله بقول رؤبة: (٦)

---

(١)- هو عنبسة بن معدان مولى مهرة، وسُمّي بعنبسة الفيل لأن أباه معدان أخذ من زياد بن أبيه فيلة. كان راوية للأشعار ظريفاً فصيحاً. روى شعر جرير والفرزدق، وأخذ العلم عن أبي الأسود وهجاه الفرزدق. انظر طبقات النحويين واللغويين٢٤.

(٢)- هو أحد الذين أخذوا النحو عن أبي الأسود الدؤلي، وهو نظير لعنبسة الفيل في الأخذ عن الدؤلي، أخباره قليلة جداً، لكنّه ممّن يرجع إليه في اللغة، وقد خلف عنبسة، وصار صاحب الناس بعده. وأمّ الناسَ حلقته النحوية، وتخرّجوا فيها. انظر: مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي١٢، وإنباه الرواة للقفطي ٣٣٧/٣، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي١٩/٢٠٩-٢١٠.

(٣)- المِراء: المجادلة، والمخالفة في الكلام، والملاجّة فيه. والشاهد فيه نصب (المراء) بعد (إياك) مع حذف حرف العطف ضرورة، لكن قال المازني: ‹‹لما كرّر إياك مرتين كان أحدهما عوضاً من الواو›› الكتاب ١/٢٧٩.

(٤)- العجّاج هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد التميمي السعدي ت ٩٠هـ . راجز وشاعر من المشهورين، ولد في الجاهلية، ثم أسلم. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٣٠.

(٥)- الجمّات: مفردها جمّة، وجمّة البئر، ونحوها: ما تراجع من مائها بعد الأخذ منه. والدلو: معروفة، واحدة الدلاء التي يُستقى بها تذكّر وتؤنّث، والدالي بمعنى المُدلي. انظر: لسان العرب(دلا)، والمعجم الوسيط (جمّ)، وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٧٦-٣٧٧.

(٦)- هو رؤبة بن عبد الله العجّاج بن رؤبة التميمي السعدي ت١٤٥هـ . راجز من الفصحاء المشهورين، أقام في البصرة، وأخذ عنه اللغويون واحتجّوا بكلامه. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٣٠، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٨٧ وخزانة الأدب للبغدادي ١/٤٣.

يَخرجْن من أجواز ليلٍ غاضي (١)

للاستدلال على جواز استخدام (غاضي) بمعنى (مغضي).

فهو يبني أصوله وأحكامه من خلال رجز فصحاء العرب أمثال العجاج، ورؤبة. ومن ذلك أنّ الفرزدق حضر مجلس ابن أبي إسحاق، «فقال له: كيف تنشد هذا البيت: (٢)

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولانِ بالألباب ما تفعل الخمرُ (٣)

فقال الفرزدق: كذا أُنشِد، فقال: ابن أبي إسحاق: ما كان عليك لو قلت : فَعُولَين! فقال الفرزدق: لو شئت أن تسبّح لسبّحت. ونهض فلم يعرف أحد في المجلس ما أراد بقوله: لو شئتَ أن تسبّح لسبّحت؛ أي لو نصب لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك، وإنما أراد: أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر، (قال أبو الفتح: (كان) هنا تامّة غير محتاجة إلى الخبر)» من هذا الخبر نرى أن الحضرمي يمتحن الفرزدق ببيت ذي الرّمة ويقسو على نفسه ويحمّل البيت كثيراً من التأويلات. وقد أسعفته في ذلك ثقته بالشعر الفصيح، ذلك حين يشق بروايته ونقله. وعلى الرغم من قلّة ما وصلنا عن الحضرمي فإن هذه القلّة نرى أنها تعتمد الشعر أساساً في الاستدلال (٤).

أما عيسى بن عمر فإنه يستدلّ بالشعر الفصيح ويُوجِد له التأويل المناسب ويلتمس وجهاً يعلل به ما يسمعه من الشعر؛ من ذلك قول الشاعر:

---

(١)- غضا الليل غضوا، وأغضى: ألبس كلّ شيء. وأغضى الليل: أظلم، وليل مغض: لغة قليلة، وأكثر ما يقال: ليل غاضٍ. انظر لسان العرب (غضا). وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٧٦-٣٧٧.

(٢)- البيت لذي الرّمّة، وقد ورد في ديوانه، وذو الرّمة هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي (٧٧-١١٧هـ) شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٦ وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٠٤، خزانة الأدب للبغدادي ١/٥١-٥٣.

(٣)- انظر الخصائص لابن جني ٣/٣٠٢، والأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ٣/٢٠٠ تح: إبراهيم محمد عبد الله مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦م.

(٤)- انظر الكتاب ٢/٣٤٠-٣٤١، والموشح للمرزباني ١١٦، ومعاني القرآن للفرّاء ٢/١٨٢، وطبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ١/٢١.

هل أنتَ باعثُ دينارٍ لحاجتنا أو عبدَ ربٍّ أخاعَوْنٍ بن مخراق (١)

وعلى الرغم من أنّ ابن عمر كان أكثر ميلاً إلى القياس في تناولاته النحوية، وما يتفرع عنها، غير أنّه لم ينكر ما يسمعه من الشعر الذي صحّت روايته ووثق بسلامة لغة قائله.

وإذا وصلنا إلى أبي عمرو بن العلاء فإننا نجده قد أولى لغة الشعر عنايته، واستدلّ بها على صحة بعض آرائه النحوية واللغوية، ومنها استدلاله بقول الشاعر:

كم رأينا من مُسْحَبٍ مُسْلَحِبٍّ صار لحمَ النسور والعقبان

للوصول إلى فصاحة الأعرابي الذي أراد امتحانه والتأكد من أن فصاحته باقية(٢) ومن ذلك أنه استدلّ بقول المنشد الذي سمعه عندما كان متستراً من بطش الحَجّاج وعرف أنّ كلمة (فَرجة) هي بفتح الفاء لابضمها(٣) ومن ذلك ما نقله عنه أبو عبيدة غير مرة من أنّ أبا عمرو ينصب (قِيلَهم) في قول كعب بن زهير:

تسعى الوشاةُ جَنابَيْها وقِيْلَهمُ إنّك يا بنَ أبي سلمى لمقتولُ

ويستدل بنصب (قيلَهم) لأنها وقعت موقع الفعل(تقولون)، قال أبو عبيدة: «سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: معناها: ويقولون، وكذا كل شيء من هذا المنصوب كان في موضع: فَعَل، أو يفعَل، كقولك: صبراً، ومهلاً، وحلاً، أي اصبر، وأسهل، وتحلّل»(٤)

ويستدلّ أحياناً بالشعر ليردّ قولاً لشاعر، ويبيّن أنّه لايعرف له وجهاً؛ من ذلك موقفه من قول

---

(١)- «البيت من الخمسين، وقد نسب إلى جرير، وإلى تأبط شراً وغيرهما، وقيل إنه مصنوع، وباعث: موقظ، أو مرسل. ودينار، وعبد ربّ: رجلان، وأراد عبد ربّه، ولكنّه ترك الإضافة وهو يريدها وأخاعون: عطف بيان أو نعت، ويجوز أن يكون نصبه على النداء. والشاهد فيه: نصب (عبدَ ربّ) حملاً على موضع دينار» الكتاب و (حاشية) ١/١٧١. وانظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٨، والأمالي لأبي علي القالي ٣/٣٩. القاهرة ١٣٤٤هـ .

(٢)- انظر تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٢٥٤.

(٣)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٩.

(٤)- مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٢٣، ٢٧٤، ٢/١١٩.

الفرزدق:

وعضُّ زمان يا بن مروان لم يدع　　　من المال إلا مسحتاً أو مجلّف

وقوله: ‹‹ولا أعرف لها وجهاً، وكان يونس لا يعرف لها وجهاً››(١) يعني أنّه لا يعرف وجهاً لرفع (مسحتاً) من قول الفرزدق السابق.

مما تقدم يظهر لنا أنّ النحاة في المرحلة التي سبقت سيبويه اعتمدوا الشعر في استدلالهم، وأخذوه عن مصدر واحد وهو أعراب البادية، والشعراء، سواء أكان مشافهة في الحواضر، أم نتيجة رحلتهم إلى البادية، وسواء أكان نقلهم عن الشعراء مباشرة، أم عن شيوخهم الثقات.

١- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم الجمحي ١٩-٢٠ (شاكر)

ب- النثر

يشمل كلامُ العرب عدا الشعر، لغةَ الكلام التي يستخدمها العرب في لغتهم المتداولة في باديتهم، من غير أن يتكلّف فيها، ولغةَ الأمثال التي تصور تجربة الإنسان في حياته، وحكمته التي اكتسبها من خلال تاريخه الطويل، والأمثلةَ التي وضعها النحاة قياساً على كلام العرب، وتناقلتها كتب النحو، ولغةَ الخطب التي حملتها كتب الأدب(١)

وقد أخذ كلام العرب اتجاهين، الأول يشمل اللغة التي قاومت التطور، وحافظت على أصالتها على مرّ العصور. والثاني وهو الذي تأثرَ بالتطور الذي أحاط بها نتيجة للفتوحات الإسلامية ووصول العرب إلى المدن والأمصار. وقد أدرك النحاة واللغويون هذين الاتجاهين، نتيجة لمعرفتهم بلغات العرب ولهجاتهم فنصّبوا لغة البدو الذين لم يتأثروا بغيرهم لغة فصيحةً، أخذوا منها القواعد واستنبطوا الأصول، وفي ذلك يقول ابن جني: ‹‹ليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول إنه يحكي كلام أبيه وسلفه، يتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متَّبِع، وليس كذلك أهل الحضر، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة، غير أنّ كلام أهل الحضر مضاهٍ لكلام الفصحاء العرب في حروفهم، وتأليفهم، إلاّ أنهم أخلّوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح››(٢).

ويظهر أثر استدلال القدماء بكلام العرب أوّل ما يظهر عند من وضعوا اللبنات الأولى لقواعد العربية، ولعلّ الدوافع الأولى لذلك كانت دينية، الغاية منها تفسير آيات القرآن الكريم وبيان معانيه، لذلك نرى ابن عباس يستدلّ بكلام فصحاء العرب للوصول إلى غايته في شرح معنى المفردات الغريبة

---

(١)- في الفترة التي سبقت سيبويه - وهي ما نعنيه في هذا الفصل - اهتمّ النحاة بلغة الحديث، ولغة الأمثلة التي وضعوها قياساً على كلام العرب، وأهملوا لغة الأمثال التي يعدّ سيبويه أول من سلّط الأضواء عليها تقريباً، ولغة الخطب والرسائل التي يعدّ الجاحظ أول من جمعها ثم أخذ بها النحاة بعده. انظر الاحتجاج ١٦٦ وما بعدها.

(٢)- الخصائص ٢/٢٩.

في القرآن الكريم، من ذلك قوله: ‹‹كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال: أنا فطرتُها، أي أنا ابتدأتها››(١).

ومن ذلك قوله: ‹‹ما كنت أدري ما قوله عزّ وجلّ: (**ربّنا افتح بيننا وبين قومنا**) (٢) حتّى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك؛ أي أحاكمك››(٣) وممّا روي عنه مستدلاً بكلام العرب قوله: ‹‹لم أدرِ ما البَعل في القرآن، حتّى رأيت أعرابياً، فقلت له: لمن هذه الناقة؟ فقال: أنا بعلها، أي ربّها››(٤).

ولم يقتصر الاستدلال عند ابن عباس على الشعر، وكلام العرب، بل تعمّق بكلامهم بما أوتي من اهتمام باللغة، وغريبها، وإحاطة بلهجاتهم، ولغاتهم. فكثيراً ما كان يشير إلى لهجة من يستدلّ بكلامهم، ويُعنى باختلاف لهجاتهم، ولاسيّما أنّ لغة القرآن الكريم بقراءاتها المتعددة ضمّت لهجات العرب؛ من ذلك قوله في شرح كلمة (يَيْئَس) من قوله تعالى: (**أفلم ييئس الذين آمنوا**) (٥): ‹‹ييئس في معنى (يعلم) لغة للنّخع››. (٦) وقوله في شرح كلمة (لهواً) في قوله تعالى: (**لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنّا**)(٧) ‹‹اللهو: الولد بلغة حضرموت››(٨) وقوله في شرح كلمة (بوراً) في قوله تعالى: (**وكنتم قوماً بوراً**)(٩): ‹‹البور في لغة أزد عمان، الفاسد ››(١٠).

(١)- غريب الحديث للهروي ٤/٣٧٣ وانظر ٤/٤٠١، ٤٠٢ وانظر إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ١/٧١-٧٢.

(٢)- الأعراف ٧/٨٩.

(٣)- جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٤، إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ١/٧١ ولسان العرب (فتح).

(٤)- جمهرة اللغة لابن دريد ٣/٣١٤.

(٥)- الرعد ١٣/٣١.

(٦)- معاني القرآن للفراء ٢/٦٤ والنّخع: قبيلة من الأزد، وقيل: النخع قبيلة من اليمن رهط إبراهيم النخعي. لسان العرب (نخع).

(٧)- الأنبياء ٢١/١٧.

(٨)- معاني القرآن للفراء ٢/٢٠٠.

(٩)- الفتح ٤٨/١٢.

(١٠)- معاني القرآن للفراء ٣/٦٦. وانظر الوقف والابتداء ١/٧٣، وانظر المفصّل في تاريخ النحو للحلواني٨١.

واستدلاله باللهجات والإشارة إلى أصحابها لم يكن وليد اهتماماته اللغوية فحسب بل كان نتاجا لعلوم كثيرة، فقد أشاع ابن عباس في الحجاز العناية بغريب اللغة، والقرآن الكريم، واهتمّ بالدراسات الفقهية للّغة لأنه يهدف من ورائها فهم معاني القرآن الكريم، وتحديد دلالات الألفاظ، فنراه حيناً يُعنى ببيان جذر الكلمة، ووزنها، وحيناً آخر يُعنى بمعناها، ويسوق الأدلة الكثيرة على ذلك(١)، وقد يهتمّ في بعض المواضع بتفسير العبارة، وبيان مجازها، أو يوضّح دلالة التركيب اللغوي، وغير ذلك من الطرائق التي تعينه على فهم الجملة القرآنية لإيصالها إلى المسلمين، وخاصة من يجلسون في حلقاته(٢)

أما عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، فقد استدل بكلام العرب، وحاول الاستعانة بلهجات القبائل العربية، والإشارة إلى القبيلة التي تنطقها، من ذلك قوله تعالى: (**فمن اتّبع هُدَيَّ**)(٣) فقد قلب الألف في آخر الاسم المقصور عندما أضيف إلى ياء المتكلم، وكذلك قوله تعالى: (**قال يا بُشْرَيَّ**)(٤) وهذه لغة فاشية في هذيل، وغيرها أن يقلبوا الألف من آخر المقصور إذا أضيف إلى ياء المتكلم(٥) وقد يغفل الحضرميّ ذكر اسم القبيلة إذا كانت اللهجة عربية شائعة، من ذلك أنّه قرأ في سورة الفاتحة: (**غير المغضوب عليهمو**)(٦) بضمّ الهاء، وإشباع ضمّة الميم، وإشارته إلى أنها لهجة عربية معروفة(٧)

---

(١)- انظر معاني القرآن للفراء ٢/١٢٣، تفسير الطبري ١/١٢٩، إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ١/٦٥، ٧٧،٧٨.

(٢)- انظر معاني القرآن للفراء ٢/١٧، تفسير الطبري ١/١٦٠، إيضاح الوقف والابتداء ١/٦٣.

(٣)- البقرة ٢/٣٨.

(٤)- يوسف ١٢/٣٩.

(٥)- انظر المحتسب في شواذ القراءات لابن جنيّ ١/٧٦،٣٣٦.

(٦)- الفاتحة ١/٧.

(٧)- انظر المحتسب في شواذ القراءات لابن جنيّ ١/٤٤.

أمّا عيسى بن عمر فقد ترك كتابين (الجامع والكامل) ولأنّ سيبويه قد تلمذ لعيسى فهذا دليل على أنّه تأثّر به، ونقل عنه كثيراً من كلام العرب لاسيّما أنّه يذكر كثيراً من الآراء من غير أن يعزوها إلى أصحابها. وأثبت لنا سيبويه في الكتاب نصاً يوضّح أن عيسى ينقل عن العرب كلامهم وأحاديثهم، يقول:<<وزعم عيسى بن عمر أنّ ناساً من العرب يقولون: إذن أفعلَ ذاك، في الجواب، فأخبرتُ يونس بذلك فقال: لا تُبعِدَنَّ ذا، ولم يكن ليرويَ إلا ما سمع.>>(١)

أمّا أبو عمرو بن العلاء راوية البصرة فإنّ عنايته باللغة فاقت عنايته بالنحو، فالنقول عنه تكاد تنحصر في المجال اللغوي، عدا آراء نحوية نراها في كتاب سيبويه تدلّ على ما كان يستنبطه من كلام العرب، وإن كنّا لانجزم بأنّها من لغة الحديث والتخاطب، من ذلك أنه يجيز: لاتأتِنا فنشتُمَكَ(٢) ويذهب إلى أنّه إذا سمّي رجل بالفعل الذي لوزنه شبه بأوزان الأسماء ضُرِب، وهو رأي الخليل ويونس(٣) وينقل عن العرب قولهم: يا أخانا زيداً(٤) وأمّا أنتَ منطلقاً أنطلقُ معك، برفع (أنطلقُ)(٥)

وكان أبو عمرو قد أحاط بلغة العرب وحصّل ذخيرة وافرة من دون شكّ، على الرغم من أنّ ما انتهى إلينا من كلام العرب لا يشكّل إلا قلّة قليلة، فأبو عمرو استوعب هذا القليل وأتقنه. ولعلّ في أخباره ما يدلّ على أنّه عرف تفاصيل لغات العرب، ولهجاتهم، فهو يعرف لغة الحجاز، ولغة تميم، حين استدلّ بأبي المهدي الحجازي، والمنتجَع التميمي، (٦) وعرف لغة حِمْيَر، وأقاصي اليمن، وبيّن أنها

---

(١)- الكتاب ٣/١٦.

(٢)- الكتاب ٣/٤٠.

(٣)- انظر المصدر نفسه ٣/٢٠٦.

(٤)- انظر المصدر نفسه ٢/١٨٥.

(٥)-انظر المصدر نفسه ٣/١٠١، والاحتجاج للحلواني ١٤٥.

(٦)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٨.

تختلف عن عربيتنا آنذاك، وقد روى لنا بعضاً من كلام أهل اليمن(١).

ولم تسعفنا كتب النحاة للحديث عن عيسى، وأبي عمرو أكثر مما قدّمنا؛ لكن الأمر يختلف عند يونس بن حبيب، فما نملكه يوضح لنا صورة الاستدلال بكلام العرب النثري. فحلقته التي يؤمّها الأعراب الفصحاء معروفة، حتّى إنه لم يكن يتردد في سؤالهم أنى التقى بهم، مما جعل بعضهم يضيق ذرعاً بذلك؛ فرؤبة(٢) موثوق الفصاحة عند يونس، ويعدّه أفصح من معد بن عدنان(٣)، ورؤبة هذا ثار يوماً في وجه يونس، وقال له:<<حتامَ تسألني عن هذه البواطيل، وأزخرفها لك>>(٤) وإذا نظرنا في كتاب سيبويه وجدنا أنّ يونس ينقل عن رؤبة من ذلك قوله: <<زعم يونس أنّ رؤبة كان يقول: ما أحسَنَ رأسَيْهما(٥) ومنه قوله: <<وزعم يونس أنّ رؤبة كان يقول: يا زيدٌ زيداً الطويلَ>>(٦) وربّما يكون قد بنى ذلك على بيت رجز له هو:

لقائل: يا نصرُ نصراً نصرا (٧)

وأجاز إعمال حرف الجرّ المحذوف، واستدل على ذلك بأن رؤبة بن العجاج <<إذا قيل له: كيف أصبحت؟: يقول: خيرٍ عافاك الله؛ أي بخيرٍ>>(٨) ونقل سيبويه في مواضع كثيرة عن رؤبة دون أن

---

(١)- انظر الخصائص لابن جنيّ ١/٢٤٩، ٤١٦، وطبقات فحول الشعراء لابن سلّام ١١.

(٢)- رؤبة بن عبد الله العجّاج بن رؤبة التميمي السعدي (ت١٤٥هـ) راجز من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. أخذ عنه علماء اللغة، وكانوا يحتجّون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية وقد أسنّ. انظر الشعر والشعراء ٢٣٠، وفيات الأعيان ١/١٨٧، خزانة الأدب ١/٤٣.

(٣)- معد بن عدنان، من أحفاد إسماعيل،جدّ جاهليّ من سلسلة النسب النبوي، كان النبي(ص) إذا انتسب فبلغ عدنان أمسك وقال: <<كذب النسّابون>> انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٨ وما بعدها مصر ١٩٤٨، الاشتقاق لابن دريد ١١٩، تح: هارون، القاهرة ١٩٥٨.

(٤)- أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٥ (كرنكو).

(٥)- الكتاب ٢/٤٨.

(٦)- المصدر نفسه ٢/١٨٥.

(٧)- المصدر نفسه ٢/١٨٥-١٨٦.

(٨)- الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري المسألة ٥٧، ١/٣٩٤ مصر ١٩٦١.

يذكر اسمه أو اسم يونس، من ذلك: <<وزعموا أنّ بعض العرب يقول: <<شهر ثرى، وشهر ترى، وشهر مرعي، يريد: ترى فيه>>(١) وأظن أن سيبويه كان يقصد يونس بن حبيب حين يقول: <<وزعم من نثق به أنه سمع رؤبة يقول: هذا غلام لك مُقبلاً>>(٢).

ولم يكن اعتماد يونس على كلام رؤبة فحسب، بل كان ينقل عن الأعراب الآخرين إذا وثق بفصاحتهم، وقد برز ذلك في مواضع متعددة من الكتاب؛ كقوله: <<وزعم يونس أنها لغة كثيرة في العرب جيدة>>(٣) و<<حدثنا يونس أنّ قوماً يقولون>>(٤). و<<ومن ذلك قول العرب- فيما حدثنا يونس->>(٥)

---

(١)- الكتاب ٨٦/١، وانظر مغني اللبيب ٥٢٥ حيث نسبة الكلام إلى يونس ورؤبة.

(٢)- الكتاب ١١٣/٢، وانظر الاحتجاج للحلواني ١٤٥.

(٣)- الكتاب ٢٠٥/٢.

(٤)- المصدر نفسه ٤١٠/٢.

(٥)- المصدر نفسه ٤١٥/٢.

* تأثر النحاة بالفقهاء *

كتب للعراق بأن يكون مهداً للنحاة، ونقطة لالتقائهم بالأعراب القادمين من البادية العربية، وكان العراق آنذاك موئلاً للمؤثرات الثقافية من هندية، وفارسية ويونانية. وقد تأثر النحاة بهذه الثقافات في المراحل الزمنية المتأخرة، لاسيّما تأثرهم بالمنطق الصوري، وذلك عن طريق الترجمة.

إنّ التأثر بثقافةٍ لا يعني الأخذ بها مطلقا، وهذا ما جعل المتكلمين والفقهاء يهاجمون المنطق بعنفٍ، لأنهم لم يجدوا فيه وسيلة تؤدي إلى الحقيقة، لذلك وضعوا أصولاً لهم تختلف عنه. وفي ذلك يقول ابن تيمية في المنطق اليوناني: ‹‹ما زال نظّار المسلمين بعد أن عُرِّب، وعرفوه يعيبونه، ويذمّونه، ولا يلتفتون إليه، ولا إلى أهله في موازينهم العقلية والشرعية.››(١)

وفي جو كان الصراع فيه بين الثقافات محتدما، لم يكن للنحو من بدٍّ إلاّ أن يتأثر بغيره، على تباين بين الثقافات المؤثرة المحيطة به ولكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل تأثر النحو بالمنطق الصوري، أو لا؟

وقد رأى بعض المستشرقين(٢) أنّ بدايات النحو قد أُخذت عن المنطق اليوناني، لكنّ الأدلّة التي قُدّمت اعتمدت الظنّ، وضعف الاستقراء، وسرعة الحكم؛ وفي مجملها ترى أنّ السريان درسوا كتاب أرسطو (العبارة) وترجموه، وأنّ ابن المقفّع (ت١٤٢هـ) ربّما يكون قد ساعد على إطلاع العرب على ما في اللغة الفهلوية من آثار(٣). وأنّ الخليل بن أحمد كان صديقا لحنين بن إسحاق(١٩٤-٢٦٠هـ) وأنه

---

(١)- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للسيوطي ٣٣٣تح النشار ط١ نقلاً عن الاحتجاج للحلواني ٣٢٥.

(٢)- منهم: دي بور، وسارتون، وجويدي.

(٣)- انظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور ٥٥ ترجمة: محمد عبد الهادي ط٤، ١٣٧٤هـ.

قد تبادل معه بعض القواعد النحوية؛ وإذا عرفنا أنّ الخليل قد توفي في (١٧٥هـ) وحنين بن إسحاق قد ولد(١٩٤هـ) أدركنا الوهم الكبير في حجج هؤلاء المستشرقين إضافة إلى الخلط والمبالغة في استنتاجهم(١) والنحاة بدورهم كانوا يلازمون شيوخهم ويقرؤون الكتب عليهم، هذا شأن كلّ النحاة، ولانعرف نحوياً قد لازم عالمَ منطقٍ في المرحلة التي سبقت سيبويه. إضافة إلى أن النحاة الأوائل ينقلون كلام شيوخهم، ولو كان أحدهم على صلة بأحد المناطقة لكانت كُتُبُ النحو قد أشارت إلى ذلك بشكل صريح لا لبسَ فيه.

وهذا ما يدفعنا إلى القول: إنّ النحو العربي لم ينهل من المنطق اليوناني، في مراحله الأولى التي سبقت سيبويه على الأقل.

ولم تكن علاقة النحو بعلم الكلام، والفقه كعلاقته بالمنطق آنذاك، فعلم الكلام انتشرت حلقاته في وقت مبكّر في حياة المسلمين حتّى إنّ بعض الفقهاء الأئمة بدأوا حياتهم انطلاقاً من علم الكلام ثم تحوّلوا منه إلى الفقه، وعُرِض على بعضهم القضاء(٢). وعلماء الكلام وقفوا على آراء المناطقة مبكّراً واطّلعوا على طرائق استدلالهم التي رأوا فيها نقصاً وعيوباً، فخالفوها، حتّى استوت لهم أصولهم الخاصة بهم وهي تختلف عن أصول المناطقة في فهم القياس، والعلة(٣) فالتقارب كان بين علم الكلام والفقه، بعيداً عن التأثّر المباشر بالمنطق، لاسيّما في القرنين الأول والثاني الهجريّين.

---

(١)- انظر في ذلك: ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢٩١/١، في اللغة والأدب لإبراهيم مدكور ٤٤،٤٥ سلسلة اقرأ، مصر، النحو العربي ومنطق أرسطو لعبد الرحمن الحاج صالح٧٢.

(٢)- منهم الإمام أبو حنيفة (٨٠- ١٥٠هـ).

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ٣٣٩.

وقد تأثّر النحو بعلم الكلام تأثّراً مباشراً، لأنّ المتكلمين انتشرت حلقاتهم في كلّ المساجد، ومجالس الأمراء والحكّام، إضافة إلى أن بعض النحاة شاركوا في علم الكلام، فقد عرف عن الكثيرين منهم الاعتزالُ، والخوض في مناظراته، ومتابعة مسائله(١) وليس شرطاً أنْ يكون النحويّ من المعتزلة حتّى يتأثّر بطرق استدلال علماء الكلام، فالخليل بن أحمد تأثّر بالمتكلمين عن طريق الفقه ورجاله أمثال أبي حنيفة، وظهر هذا التأثر من خلال عنايته بالعلّة والقياس، وبالجدل أحياناً.

أما الفقه فقد كان أثره كبيراً في النحو، منذ بدايات نشأة النحو، لأن نظرة النحاة إليه كانت نظرة خاصة فقد وجدوا فيه تجسيداً لعلم أصيل في الحياة الإسلامية وعدّوا النحو علماً تابعاً للفقه، يخدمه ويوسّع دائرته، الأمر الذي دفعهم إلى الاهتمام به: فعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي نجده يأخذ بالافتراض طريقاً للاستدلال، على غرار افتراض الفقهاء، ليستخدمه في قياسه؛ من ذلك ما جاء في كتاب سيبويه: ‹‹فإن سمّيتَ المؤنّث بـ(عمرو) أو (زيد) لم يجز الصرف، هذا قول ابن أبي إسحاق، وأبي عمرو، فيما حدّثنا يونس، وهو القياس››(٢) فهو يفترض أن يطلق أحد من العرب على ابنته اسم زيد أو عمرو، وهذا مالم يحدث عند العرب فيما سمعنا، لكنّه عند الفقهاء جائز، فقد أخذ بهذا الافتراض وبنى عليه من خلال أقيسة اللغة متجاوزاً ما هو شائع في المحيط العربي.

أمّا عيسى بن عمر الثقفي فقد تأثّر بالجوّ الفكري الذي أحاط به، شأنه في ذلك شأن سائر علماء عصره، ولم يكنْ في معزل عن الدراسات الفقهية التي تطوّرت، وأخذت أبعادها الواسعة في ذلك العصر، وهذا ما أظهر ملامح فقهيّةً في تناولاته النحوية، الأمر الذي يدلّ على أنّ ابن عمر قد تابع مسيرة أستاذه الحضرمي في إبراز رأيه، والدفاع عنه محاطاً بنظرة قياسية نافذة. وأظنّ أنّ معاصرتـــه

---

(١)- منهم قطرب(ت٢٠٦هـ) والفراء(ت٢٠٧هـ) والسيرافي (٣٦٨هـ) والفارسي (ت٣٧٧هـ) والرماني (ت٣٨٤هـ) وابن جنّي (ت٣٩٢ هـ) والزمخشري (ت٥٣٨ هـ).

(٢)- الكتاب ٢٤٢/٣.

لأبي حنيفة صاحب مذهب الرأي، والتأويل، واستخدام القياس والجدل في فقهه، وفتاواه، إضافة إلى أنّ المناخ السائد في البصرة آنذاك، والصراع بين الفرق الإسلامية المتعددة من شيعة(١)، وخوارج(٢)، ومرجئة(٣)، ومعتزلة(٤)، وأهل السنّة(٥)، كان لهما الأثر الكبير في تكوّن شخصيته العلميّة التي نهلت من المنابع النحوية والفقهية.

ويظهر تأثّر عيسى بن عمر بالفقهاء، وطرق استدلالهم بما يفترضه من مسائل، وبما يبنيه على هذه الافتراضات من أحكام، وهذا شأن الفقهاء الذين يفترضون أشياء قد تكون بعيدة عن الواقع ليجيبوا عنها؛ من ذلك افتراضه أنك إذا سمّيت رجلاً بالفعل ضَرَبَ، أو ضارِبَ، أو ضارِبْ، ويجيب عن افتراضه هذا، ويعطي حكمه، ويقول: إنّ الاسم في هذه الحال يكون ممنوعاً من الصرف. وذهب أبو عمرو، ويونس، وسيبويه إلى صرف هذا الاسم؛ لأنّ وزنه غير مختصّ بالفعل(٦) وافترض افتراضاً آخر عندما سمّى امرأة بـ (عمرو)، وحكم بأنه ينصرف لأنه أخفّ الأبنية، فقد جاء ثلاثياً ساكن الوسط، وقد خالف بذلك أستاذه الحضرمي كما مرّ معنا(٧)، ومن مظاهر تأثره بالفقهاء كذلك ترجيح النص الصحيح على كل قياس، أو اجتهاد، وهذا أمر فقهي، إذ إن الفقهاء يبطلون كل قياس واجتهاد أمام

---

(١)- الشيعة لغة: الفرقة والجماعة، قال تعالى: **﴿ثم لننزعنّ من كلّ شيعةٍ أيّهم أشدُّ على الرحمن عتيّا﴾** مريم١٩/٦٩ والشيعة هم الأتباع والأنصار، والشيعة اصطلاحاً: فرقة كبيرة من المسلمين اجتمعوا على حبّ عليّ (رض) وآله، وأحقيتهم بالإمامة . انظر المعجم الوسيط ١/٥٠٣.

(٢)- الخوارج: فرقة من الفرق الإسلامية خرجوا على الإمام علي (رض) وخالفوا رأيه. انظر المعجم الوسيط ١/٢٢٥.

(٣)- المرجئة: فرقة إسلامية لا يحكمون على أحد من المسلمين بشيء، بل يرجئون الحكم إلى يوم القيامة، ومن أقوالهم: إنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، ولاينفع مع الكفر طاعة. انظر المعجم الوسيط ١/٣٢٩.

(٤)- المعتزلة: فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات، على رأسهم واصل بن عطاء الذي اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصري . انظر المعجم الوسيط ٢/٥٩٩.

(٥)- أهل السنة: هم القائلون بخلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن استحقاق ويقابلهم الشيعة. انظر المعجم الوسيط ١/٤٥٦.

(٦)- انظر الكتاب ٣/٢٠٦.

(٧)- انظر المصدر نفسه ٣/٢٤٢،٢٨١.

صحة نصّ من النصوص؛ من ذلك ما جاء في الكتاب من أنّ عيسى بن عمر زعم << أنّ ناساً من العرب يقولون: إذن أفعلُ ذاك في الجواب. فأخبرتُ يونس بذلك فقال: لا تُبعدنّ ذا. ولم يكن ليروِيَ إلا ما سمع، جعلوها بمنزلة هَلْ، وبَلْ>>(١) فقد رجّح ما نصّت عليه العرب على كل قياس.

أمّا أبو عمرو بن العلاء فقد كانت البصرة آنذاك ملتقى تيارات فكريّة عديدة، فالفقهاء لهم حلقاتهم، وأفكارهم، وأشياعهم، وكذلك علماء الكلام، والمناطقة، إضافة إلى خليط من الناس يتكوّن منه نسيج هذه المدينة. ولم يكن ابن العلاء بمنأى عن هذه التيارات، وهو العالم العارف الذي التفّ الناس حوله لما أوتي من علم، وفضل، وقد عاصر آنذاك أبا حنيفة النعمان(٢)، وعمرو بن عبيد المعتزلي(٣)، وحاورهما.

وقد مال أبو عمرو في مذهبه الديني إلى المرجئة(٤)، وتكلّم على القضاء، والقدر، والعدل، والتوحيد، وقال:<<أشهد أنّ الله يضلّ ويهدي، والله مع هذه الحجة على عباده>>(٥)

---

(١)- المصدر نفسه ٣/١٦، و٢/٣١٩.

(٢)- هو النعمان بن ثابت التيميّ بالولاء، الكوفي(٨٠- ١٥٠هـ) أبو حنيفة، إمام الحنفيّة، الفقيه، المجتهد، المحقّق، أحد الأئمة الأربعة عند السنّة، فارسي الأصل، ولد ونشأ بالكوفة، مات سجيناً لرفضه القضاء ورعاً، وقال فيه الإمام الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. انظر تاريخ بغداد للبغدادي ١٣/٣٢٣-٤٢٣، وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/١٦٣.

(٣)- هو عمرو بن عبيد بن باب التيميّ بالولاء، البصري (٨٠-١٤٤هـ) شيخ المعتزلة في عصره، كان فقيهاً، وأحد الزهاد المشهورين. انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/١٦٦-١٨٨، وفيات الأعيان لابن خلّكان ١/٣٨٤.

(٤)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي١٧.

(٥)- طبقات القرّاء لابن الجزري ١/٢٩١.

فمن خلال الحوار الذي دار بين أبي عمرو، وبين عمرو بن عبيد المعتزلي يظهر لنا مذهبه، وقوله بالإرجاء بشكل واضح، كما يظهر لنا احتكاكه بأعلام الفرق الإسلامية، ولابُدّ لهذا الاحتكاك من أن يخلق تأثراً بهذه التيارات؛ فقد ذكر أنّ عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء، وقال له: ‹‹يا أبا عمرو، أخلف الله وعده؟ قال: لا، قال: أفرأيت من وعَدَهُ الله على عمله عقاباً يخلف وعده فيه؟ فقال له أبو عمرو: أمِنَ العجمةِ أُتيت أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد، إنّ العرب لا تُعِدّ عاراً، ولا خُلفاً، والله عزّ وجلّ إذا وعد وفى، وإذا أوعد ثمّ لم يفعل كان ذلك كرماً وتفضّلاً››(١).

وكان الافتراض أحدَ الأصول النحوية عند أبي عمرو، وقد أخذ به متأثراً بالفقهاء، وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر قبله قد تأثرا بذلك في الدرس النحوي.

فقد كثر الافتراض في فقه أبي حنيفة، وتأثّر به أبو عمرو؛ ذلك أنّ الجواب على الافتراض لايعتمد نصّاً أو أثراً، بل يأخذ بالاجتهاد، والرأي أساساً أصيلاً؛ ومن افتراضه أنه سأل أبا حنيفة مرّة ‹‹عن رجلٍ ضرب رأس آخر بصخرة عظيمة، لا ينجو منها من ضُرب بها››(٢). وقد انعكس هذا المذهب الفكري على تناولاته النحوية، وظهر الافتراض في بحث الممنوع من الصرف بشكل خاصّ؛ من ذلك افتراضه أنك سمّيت رجلاً بفعل الأمر (ضارِبْ)، أو بالفعل الماضي (ضارَبَ أو ضرَبَ) فإنه ينصرف لأنه جاء على صيغةٍ مشتركة بين الأفعال، والأسماء، وليست خاصة بأوزان الأفعال. ‹‹وإن سمّيت المؤنث بـ(عمرو) أو (زيد) لم يجز الصرف››(٣).

---

(١)- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١٣٣/٤.

(٢)- المصدر السابق ١٣٢/٤.

(٣)- الكتاب ٢٤٢/٣ وانظر ٢٠٦.

رأينا أنّ الافتراض كان نتاجاً لتأثّر أبي عمرو بالمعتزلة، وبأبي حنيفة، ومعاصرته لكثير من الفرق الإسلامية، وتياراتها المتشعبة، وكذلك القياس؛ فقد كثر القياس النحوي عنده، وبرز تأثّره الواضح بالقياس الفقهي، والكلامي؛ من ذلك أنّه يوجب البناء في تابع المنادى المضاف إذا كان مفردا، نحو: يا أخانا زيدُ، قياساً على عكسه، وهو قولك: يا زيدُ أخانا، وفي ذلك يقول سيبويه:«وقال قوم: يا أخانا زيدُ. وقد زعم يونس أنّ أبا عمرو كان يقوله، وهو قول أهل المدينة، قال: هذا بمنزلة قولنا: يا زيدُ، كما كان قوله: يا زيدُ أخانا بمنزلة: يا أخانا، فيجعل وصف المضاف إذا كان مفرداً بمنزلته إذا كان منادى»(١) ومن ذلك أنّه يجيز في الضرورة الشعرية نصب العلم المفرد إذا كان منادى منوناً، نحو: يا عديّا، ويا مطراً قياساً على العلم الممنوع من الصرف إذا كان منوّناً في ضرورة الشعر، نحو: بعثمانٍ، ومن مروانٍ(٢) وهو بهذا النهج يُظهر تأثّره بطرق الاستدلال عند الفقهاء، وغيرهم؛ فالافتراض الذي يعتمد الرأي والاجتهاد، وكذلك القياس يكشفان أثر المذاهب الفكرية المختلفة في معالجات أبي عمرو بن العلاء النحويّة.

وظهر تأثّر النحاة باستدلال الفقهاء قبل سيبويه أكثر ما ظهر في القياس والعلّة، ثم تطوّر أخذهم عن الفقهاء عند سيبويه، ومن جاء بعده؛ فأخذوا عنهم الاستحسان، والقول بالموجب، وغيرهما(٣) من طرق الاستدلال الفقهيّة التي غزت أدلّة النحاة بشكل كبير. وقد مرّ معنا سابقاً في حديثنا عن القياس والعلّة في طرائق الاستدلال عند النحاة قبل سيبويه ما يغني عن التكرار.

---

(١)- الكتاب ١٨٥/٢.

(٢)- انظر المقتضب ٢١٣/٤.

(٣)- كالسبر والتقسيم، والاستدلال بالأولى، والأصل والفرع، ومراعاة النظير، واستصحاب الحال. انظر لمع الأدلّة لابن الأنباري١٢٧ وما بعدها والاحتجاج للحلواني٣٨٧.

* قواعــد الاســتدلال عند النحاة *

بحثت فيما سبق طرائق الاستدلال بشكل عام، ونظرت إلى الأمر نظرة شمولية سلطت فيها الضوء على طرائق الاستدلال، ومصادره، ومدى تأثر النحاة بالفقهاء، وعلماء الكلام؛ وقصدتُ من ذلك أن أمهد السبيل لبحثي لأصل إلى نقاط التقى فيها النحاة مع الفقهاء، أو المناطقة، أو علماء الكلام، وربما التقى الجميع في بعض النقاط، وأخذوا عن بعضهم، تأثراً وتأثيراً.

وقواعد الاستدلال خمسة بينها نوع من التكامل، وهي تصل بالنحوي إلى ما يريده من صحة الاستدلال ودقته، وهي: زمانية، ومكانية، وشخصية، ومَن يُؤخذ عنه، وما يؤخذ به.

١- النحاة والقواعد الزمانية:

لم يولِ النحاة القدماء القواعد الزمانية أهمية تساوي أهمية المكان، ويظهر ذلك في أنهم لم يحددوا الزمان تحديداً دقيقاً، ولم يتعرضوا للفترة التي يصح الاستدلال بلغتها.

وتبدأ مرحلة الاستدلال من القرن الرابع قبل الهجرة في عهد جذيمة الأبرش، والزبّاء وأعصر بن سعد(١) حيث استدل العلماء بلغة أهل البادية، حتى فسدت لغتهم؛ (٢) أي أن زمن

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٥١٧، والخصائص ٣/١٨٢، وأوضح المسالك ١/٣٣٧ مصر ١٩٥٦م.

(٢)- ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ، مادة (عكد) أنّ أهل عكاد باقون على فصاحتهم من الجاهلية إلى اليوم، ثم جاء صاحب القاموس المحيط ت ٨١٧هـ وأكد ذلك، ثم جاء المرتضى الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ في شرحه للقاموس مضيفاً كلمة (إلى الآن). انظر في ذلك المراجع الثلاثة المذكورة.

الاستدلال بلغ ثمانية قرون تقريباً تتراوح بين الغزارة، والقلّة؛ حيث نرى بعض المتأخرين كابن جنّي يأخذ بكلام أعرابي من عقيل هو الشجري محمد بن العساف(١) وفي الوقت الذي تقلّ فيه مادة الاستدلال في بداية الفترة الزمنية التي يُستدل بلغتها، ونهايتها، نرى أنها تكثر في وسطها، لاسيما في العصر الإسلامي، وما يرويه الأعراب آنذاك من أشعار القدماء.

ولم يختلف علماء العربية نحاة ولغويين على صحة الاستدلال بكلام العرب الجاهليين الذين لم يدركوا الإسلام، والمخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، أما الإسلاميون الذين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً فقد اختُلِف في صحة الاحتجاج بكلامهم، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب إلى جواز الاستشهاد به(٢)

وقد قبل علماء العربية الاستدلال بأقوال عرب الجاهلية، وفصحاء الإسلام، سواء أكانوا ممّن أقاموا في الحواضر أم البوادي، حتى منتصف القرن الثاني الهجري. أمّا لغة الشعر فقد قسم علماء العربية الشعراء أربعة أقسام: شعراء جاهليين، ومخضرمين، وإسلاميين، ومحدثين يبدؤون ببشار بن برد (ت١٦٧ هـ)(٣)

وقد ضمت فترة الجاهلية أربعة قرون كما أشرت، استدلّ فيها علماء العربية بلغة التخاطب والأمثال، والشعر في عهد جذيمة الأبرش (٤) والزبّاء(٥) وأعصر بن سعد(٦)

---

(١)- انظر الخصائص لابن جني ٢/٢٦.

(٢)- انظر خزانة الأدب للبغدادي ١/٢٠.

(٣)- انظر الاقتراح للسيوطي ٣٢.

(٤)- جذيمة الأبرش أو الوضّاح، ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق، قتلته الزبّاء بخدعة نحو ٣٦٦ ق.هـ تاريخ الإسلام ١/٣٢.

(٥)- الزبّاء بنت عمرو بن الظرب صاحبة تدمر، وملكة الشام والجزيرة ت ٣٥٨ ق.هـ انظر الأعلام ٣/٤١.

(٦)- منبه بن سعد بن قيس عيلان، ولقبه (أعصر) وهو أبو القبائل: باهلة، وغنيّ، والطفاوة. وهو القائل:

قالت عميرة ما لرأسك بعدما ... فقد الشباب أتى بلون منكر

أعمير إنّ أباك غيّر لونـــــه ... كرّ الليالي واختلاف الأعصر

فلهذا البيت سمّي أعصر، وقوم يقولون: يعصر وليس بشيء. انظر معجم الشعراء للمرزباني تح: عبد الستار فراج ٤٣٢، وانظر الخصائص ٢/٨٦، ٣/١٨٢، وانظر جمهرة الأنساب لابن حزم ٢٣٣.

وانتقل النحاة في استدلالهم بهذه الفترة الزمنية إلى فترة تعود إلى مئة وخمسين عاماً قبل الهجرة، وهي الفترة التي عاش فيها المهلهل (ت. نحو١٠٠ ق.هـ.)، وأمرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ.)، وطرفة بن العبد (ت. نحو٦٠ ق.هـ.)، وعبيد بن الأبرص(ت. نحو ٢٥ ق. هـ.) فاستدلوا بشعر هؤلاء على تفاوت بينهم، ولعل هذا التفاوت يعود إلى الرواة الذين نقلوا كثيراً من شعر امرئ القيس مثلاً، وأقلّوا من شعر المهلهل. ثم تأتي فترة لاحقة من شعر الجاهلية، حيث غزرت المادة المستدلّ بها لأنّها أقرب زمناً إلى عصر تقعيد النحو، ومن أعلام هذه الحقبة نرى النابغة (ت.نحو ١٨ ق.هـ.)، وزهيراً (ت١٣ ق.هـ.) والأعشى(ت ٧ هـ.) وهو من أكثر شعراء الجاهلية الذين استدلّ بشعرهم النحاة، ولبيداً (ت ٤١ هـ.) والحطيئة(ت٤٥ هـ.)، وغيرهم كثر.

وبعد ذلك تأتي حقبة زمنية أخرى هي المرحلة الإسلامية، بما فيها من شعراء كبار ففي هذه المرحلة، كان تركيز النحاة بشكل عام على شعراء العصر الأموي أكثر من غيرهم، ولعلّ شعراء تميم نالوا قسطاً أوفر مما ناله غيرهم من الشعراء، لاسيما العجّاج عبد الله بن رؤبة(ت٩٠ هـ.)، وجرير (ت ١١٠ هـ.)، والفرزدق(ت١١٠ هـ.)، ورؤبة بن العجاج (ت١٤٥ هـ.).

وقد أخذت المرحلة اللاحقة بالضعف تدريجياً، فالشعراء المخضرمون بين الدولتين، الأموية والعباسية لم يسعفوا النحاة بشعرهم، ولم يقدّموا ما يُذكر مقارنة مع غيرهم ، ولعلّ ابن هَرْمَة (ت ١٧٦ هـ.) ، والحسين بن مطير(ت ١٦٩ هـ.)، كانت لهم مساهمات في استدلال النحاة بشعرهم، إنما كانت المساهمات بسيطة، إذا ما قورنت مع مَنْ مرَّ ذكرهم فيما سبق أمثال الفرزدق وغيره.

ولم تكن مرحلة الحداثة واضحة بشكل جليّ لدى علماء العربية، نلمس ذلك من الاضطراب الذي نراه عند النحاة؛ فنحويّ يَستدِلّ ببيت من الشعر فيما يراه غيره من النحاة غيرَ صالح للاستدلال به،

وقد يخالف تلميذ أستاذه في استدلاله بشعر شاعر، حتى إنّ بعض النحاة يضطربون في آرائهم في حديثهم عن الاستدلال بشعر شاعر واحد.

فمن ذلك أنّ أبا عمرو بن العلاء أستاذ الأصمعي لم يعتدّ بشعر الفرزدق، وجرير، والأخطل، وعدّهم من المحدثين(١) واستدلّ أبو عمرو بن العلاء بشعر عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣ هـ.) الذي عاصر الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦ هـ.)، والطرتاح بن حكيم (ت ١٢٥ هـ.)، فيما عدّ الأصمعيُّ -وهو تلميذ أبي عمرو بن العلاء- الكميت، والطرتاحَ من المولدين الذين لايحتج بشعرهم(٢) وكذلك عدّ الأقيشرَ الأسديَّ المغيرة بن عبد الله(ت. نحو٨٠ هـ.)، والقُحَيف العامري مولدَيْن غيرَ فصيحَيْن(٣). وفي موضع آخر يقول الأصمعي: <<ختم الشعراء بابن هرمة، والحكم بن معمر الخضري (ت. نحو ١٥٠ هـ.) وابن ميّادة، وطفيل الكناني(ت. ٨٢ هـ.)>>(٤) وهؤلاء الشعراء كلُّهم جاؤوا بعد الأقيشر الأسدي، والقحيف العامري، فكيف يُحتج بشعر جاء أصحابه بعد شعراء لم يحتج بشعرهم؟

وقد حاول النحاة تحرّي الدقة قدر المستطاع، ولم يكن بمقدورهم أن يسمعوا من الشعراء القدماء، لذا لم يكن لهم بدّ من أن ينقلوا عن الرواة الأعراب قصائد الجاهليين، معتمدين مَن بقي من فصحاء العرب آنذاك ممن لم تفسد لغتهم، وقد لمسنا ذلك من خلال عناية النحاة قبل سيبويه بإنشاد الأعراب للشواهد.

---

(١)- انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٣٢١ تح: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٩م، وانظر الأغاني ٨/٢٨٥، مصور عن طبعة دار الكتب، مصر بلا تاريخ.

(٢)- انظر الموشح للمرزباني ٣٠٢، ٣١٥، تح: البجاوي، القاهرة ١٩٦٥.

(٣)- انظر المصدر نفسه ٣٤٥-٣٤٦.

(٤)- الأغاني ٤/٣٧٣ (دار الكتب)

وتضعنا هذه الظاهرة -ظاهرة الأخذ عن الرواة- أمام ملمح جديد من ملامح اللغة آنذاك، وهو أن القصائد والأشعار نُقلت عن الرواة، واعتمد إنشاد الرواة في عملية الاستقراء، وهذا يعني أنّ اللغة التي تمّ استقراؤها حينئذ هي لغة العرب في الإسلام.

وهذا لايفهم منه أنّ لغة العرب في العصر الإسلامي هي غير لغة الجاهلية، إنما يفهم منه أنّ ثمة تطوراً في الأصوات ، والدلالات لحِقَ اللغةَ آنذاك، أمّا بنية الجملة العربية وتركيبها فلم يطرأ عليها أيُّ تطور يُذكر، وانطلاقاً من مبدأ التطور الذي سبق ذكره، ربما يكون قد لحق بعض الأبيات تغيير ما، لأنّ الأعراب كانوا يتكلّمون ، وينشدون كما اعتادوا على لحن قبيلتهم، أو يبدلون لفظاً بلفظ، كما حدث في القراءات القرآنية حين يقرأ حافظُ القرآن بعضَ القرآن بلغة قبيلته من دون أن يُمسَّ المعنى، كمن قرأ: **إنّا أنطيناك الكوثر**(١) بلهجة من يبدلون النون بالعين. (٢) ومن ذلك ما ذُكر من أن ‹‹عيس بن عمر قال: سمعت ذا الرمّة ينشد:

وظاهِرْ لها من يابس الشَّخْت واستعِن عليها الصَّبا واجعل يديك لها سترا

فقلت: أنشدتني: من بائس. فقال: يابس وبائس واحد››(٣) وهنا نرى أنّ ذا الرمّة يبدل كلمة بكلمة على الرغم من قصر الزمن معلّلاً ذلك بأن المعنى واحد، فكيف الأمر في شعر نقله الرواة من قرون طويلة؟.

وعوّل النحاة في احتجاجهم -كما رأينا- على شعراء ماقبل الهجرة بقرن ونصف تقريباً، وشعراء العصر الإسلامي، والأموي، وبداية العصر العباسي بشكل عام، وجعلوا هذه الفترة ركيزة أساسية فيما أخذوه عن الرواة بعد أن رأينا قلّة ماوصلهم من القرنين الثالث والرابع اللذين سبقا الهجرة النبوية الشريفة.

---

(١)- الكوثر ١/١٠٨.

(٢)- هي قراءة الحسن وطلحة، وابن محيصن، والزعفراني، وهي على ماقال التبريزي لغة العرب العرباء من أول قريش وذكر غيره أنها لغة بني تميم، وأهل اليمن. انظر روح المعاني للآلوسي ٢٤٤/٣٠.

(٣)- الأغاني ٣٧٣/٤. (دار الكتب).

أما لغة المرحلة العبّاسية -إذا استثنينا منها بداية العصر العباسي- فقد كان موقف النحاة منها مضطربا؛ ذلك أنّ اللغة قد فسدت، ممّا أبعد النحاة عن الثقة بها بعد أن انفتحت الدولة الاسلامية على الأمم الأخرى، والثقافات المتعددة، وحصل التأثر والتأثير اللذين فرضتهما الظروف الجديدة التي أحاطت بالعرب والمسلمين(١)

ولعلّ الأسباب التي جعلت التقسيم الزماني أقل دقة من التقسيم المكاني تعود بمجملها إلى طبيعة هذا التقسيم، ذلك أن الزمان ليس لحظة واحدة يقاس عليها الشعر، بل قد يمتدّ الزمان في حياة شاعر مدّة قد تقارب القرن إلا قليلاً، كابن هرمة المولود سنة٩٠ هـ، والمتوفى سنة ١٧٦ هـ، فإذا كانت حدود الاستدلال الزمانية تقف عند حدود ١٥٠ هـ معنى ذلك أننا سنحتج بجزء من شعر ابن هرمة، ونردّ جزءاً آخر من شعره بدعوى عدم فصاحته، وهذا مالايقبله عقل ولا منطق، هذا الوضع خلق غموضاً في التقسيم الزماني، وتداخلاً دفع النحاة ليعيروا التقسيم المكاني أهمية أكبر(٢)

---

(١)- انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ٣/٣٨٠، وما بعدها.

(٢)- انظر الاحتجاج للحلواني ٢٤٣.

٢- النحاة والقواعد المكانية:

تشدد النحاة في القواعد المكانية؛ لأنها تقوم بمجملها على تحرّي الفصاحة العربية، وقد انصب اهتمامهم بشكل خاص على أواسط الجزيرة العربية، وباديتها التي تشمل نجداً، وتهامة، والحجاز، وما جاورها، ولم يعيروا مدن الدولة الإسلامية آنذاك أيّ اهتمام، هذا إذا كانت اللغة الفصيحة غاية لهم.

أما إذا كانوا يتقصّون لغة الشعر المثالية فإنهم يولون شعراء المدن أحياناً بعض الاهتمام كشعراء مكّة ويثرب، وهذا ما جعلهم يحتجّون بشعر عمر بن أبي ربيعة، وابن قيس الرقيّات، وغيرهما.

ولم ينظر النحاة إلى الشعراء نظرة واحدة على الرغم من أنهم عاشوا في عصر واحد. فهم لم يحتجوا بشعر من عاش في المدينة كالوليد بن يزيد، ومروان بن أبي حفصة، وبشار بن برد، إلا إذا كان وافداً من البادية، حيث تشفع له فصاحته التي لم يخالطها ضعف، ولافساد، لذلك فهم يستدلون بشعر جرير، والفرزدق، والأخطل، ورؤبة، والعجّاج، وهم من شعراء القرنين الأول والثاني.

وثمة أمر آخر يتسم به الاستدلال في تلك الفترة، وهو وقوف النحاة عند الشعر الذي يقوله شعراء المدن، وردُّهم للغة الخطابة، ولغة التخاطب بينهم. وتعليل ذلك أنّ رواية الشعر أكثر دقة من رواية النثر، وشعراء المدن في قصائدهم يحاولون النسج على منوال فحول الشعراء القدماء، وتقليد لغتهم المثالية، وهذا ما خلق لغة شعرية سليمة امتدت قروناً طويلة لم يخالطها ضعف، ولا وهن، كما خالط لغة النثر، وكلام الناس.

ومن جهة ثانية فقد نقلت لنا أخبار كثيرة اهتمامَ النحاةِ بلغة البادية؛ من ذلك أنّ عيسى بن عمر الثقفي ينكر على أبي عمرو بن العلاء أن يجيز: ليس الطيب إلاّ المسكُ، ويلجأ أبو عمرو إلى أعرابيَّيْنِ يحتكم إليهما ليقنع عيسى بن عمر(١). ومنه أنّ أبا عمرو بن العلاء سعى وراء الأعراب في البادية، فأخذ عن ‹‹أشياخ العرب، حرشةِ الضباب في البلاد الكلدات، وجناة الكمأة في مغاني البداة››(٢) وفي مكان آخر نرى أنه عندما سُئل عن اشتقاق اسم الخيل، وعجِزَ، مرَّ أعرابيٌ مُحرِم ‹‹فأراد السائل سؤال الأعرابي، فقال له أبو عمرو: دعني فأنا ألطف بسؤاله وأعرف، فسأله، فقال الأعرابي: اشتقاق الاسم من فعل المسمّى، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي، فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال: ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل، والعُجْب، ألا تراها تمشي العِرضْنة خيلاء وتكبّراً››(٣). فأبو عمرو يسأل أعربياً مُحرِماً، وهو في مكّة موطنِ قريش، وهذا يدلّ على أنه لايثق بكلام أهل مكة، وإنما يثق بكلام الأعراب دون غيرهم، وإذا عرفنا أنّ وفاة أبي عمرو كانت سنة ١٥٤ هـ أدركنا ملامح الصورة التي لايحتج فيها بكلام أهل المدن(٤).

وقد اعتمد النحاة لغة البداة تتبعاً للّغة السليمة، فيونس بن حبيب وهو كثير الرواية عن أبي عمرو معجب برؤبة والفرزدق، يعتمد لغة العرب في استدلاله وسوق حجّته(٥) ويتبعه في ذلك الخليل(٦)

---

(١)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٨.

(٢)- رسالة الغفران للمعري ١٩٩.

(٣)- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٣٩.

(٤)- انظر المصدر نفسه ٣٤.

(٥)- انظر الكتاب ٣٤٧/١، ٣٣٧،٣١٩،٢٠٥/٢، والاشتقاق لابن دريد ١١٩، تح: هارون ١٩٥٨م .

(٦)- انظر الكتاب ٣٣٥/٣، وانظر نزهة الألباء للأنباري ٤٦ تح: أبو الفضل، القاهرة ١٩٦٧م.

ولم يختلف علماء العربية، نحاة ولغويين في أنّ اللغة الفصيحة تؤخذ من أهل البادية، وكلما كان الأعرابي موغلاً في البداوة كان إلى سلامة اللغة أقرب، وهذا ما جعل أحدهم يفاخر بأنه يأخذ اللغة عن الأعراب البوالين على أعقابهم(١)، وغيره يفاخر نحاة الكوفة بقوله: <<إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضِّباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد، أكلةِ الكواميخ، والشواريز>>(٢)

كلّ ذلك لأن النحاة في قواعدهم المكانية التي وضعوها لاستدلالهم، قصروا أخذهم على لغة أهل البادية خلال قرون عديدة، وكان هذا الاستدلال كفيلاً بتكوين قاعدة للنحاة المتأخرين الذين لم يضيفوا شيئاً يذكر على ما وضعه أسلافهم.

وكان الدافع الذي ساق النحاة للاستدلال بكلام البداة هو انعزال هؤلاء الأعراب في صحرائهم، وبُعدهم عن الاختلاط بالأمم المجاورة. وممّا لاشكّ فيه أنّ البعد عن المؤثرات الوافدة من الأمم الأخرى يُبعد اللغة عن الفساد، ويجعلها أكثر محافظة على أصالتها، الأمر الذي دفع النحاة إلى الأخذ عمّن <<كان في أواسط بلادهم، ومن أشدهم توحشاً وجفاء، وأبعدهم إذعاناً وانقياداً، وهم قيس، وتميم، وأسد، وطيّئ، ثم هذيل. فإنّ هؤلاء هم معظم من نقل عنهم لسان العرب، وأما الباقون فلم يؤخذ عنهم شيء،

---

(١)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ١٩٤.

(٢)- الفهرست لابن النديم ٩٢، ولخّص ابن جنّي فكرة المقارنة بين لغة البادية، ولغة الحاضرة معللاً ضعف لغة أهل المدن بسبب ما عرض لها <<من الاختلال، والفساد والخطل، ولو عُلم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة، وانتشارها، لوجب رفض لغتهم، وترك تلقّي ما يرد عنها.>> ثم نراه يفرد باباً خاصاً عن (اختلاف اللغات وكلها حجّة) وقد وقف في ذلك عند لغة أهل الوبر قاصراً أمثلته عليها. ومن ذلك ما عرضه الجاحظ من أن النحاة إذا رأوا أعرابياً يعرف كلام الأعاجم <<بهرجوه، ولم يسمعوا كلامه، لأن ذلك يدلّ على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة، وتنقص البيان>> الخصائص ٢/١٠٥، وما بعدها وانظر البيان والتبيين للجاحظ ١/١٦٢-١٦٣.

لأنهم كانوا بأطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المحيطة بهم من الحبشة، والهند، والفرس، والسريانيين، وأهل الشام، وأهل مصر.>>(١)

وفي مجال آخر حدد النحاة المتقدمون دائرة عملهم، فأبرزوا القبائل التي استدلّوا بلغتها وما يتفرّع عنها من بطون وأفخاذ، وقد شملت هذه الدائرةُ القبائلَ التي عاشت وتنقلت في الحجاز، وتهامة، ونجد كقبيلة قيس عيلان التي تفرّعت إلى غطفان في وادي القرى، وهوازن قرب عكاظ وتتفرع إلى بني كلاب جهة المدينة، وبني عقيل جهة الطائف، ومنها عليا هوازن التي تضمّ بين ثناياها سعد بن بكر، وجشم، وثقيفاً، ومن قيس عيلان تفرعّت ايضاً سليم في شمال المدينة جهة خيبر، وعدوان التي رحلت من الطائف إلى تهامة.

وهناك قبائل كثيرة أخرى بسطت خيامها في أصقاع الجزيرة العربية كهذيل الحجازية، وتميم التي وصلت إلى جنوبيّ العراق، وأسد في نجد، ووائل في اليمامة شرق الجزيرة، ومنها بكر، وتغلب. ومن القبائل الحجازية إضافة إلى هذيل قبيلة كنانة التي استقرّت في تهامة قرب مكّة، وقبيلة قريش التي سكنت في مكّة وما جاورها، كما احتجّ النحاة بلغة عرب اليمن كزبيد، لكنّ ذلك قليل قياساً إلى غيرها من القبائل.

هذه حال القبائل العربية، فكلّ أقام في مكان، وتنقّل إلى آخر في حركة دائبة رصدها علماء اللغة، وعرفوا ما طرأ عليها من تغيير(٢)

---

(١)- كتاب الحروف لأبي نصر الفارابي ١٤٦،١٤٧. تح: محسن مهدي، بيروت ١٩٦٩م.

(٢)- انظر ذلك مفصلاً في معجم قبائل العرب لرضا كحالة، بيروت ١٩٦٨م.

وكان إهمال النحاة للاستدلال بلغة القبائل المتطرفة كتغلب، وقضاعة، ولخم، وجذام، مقتصراً على لغة التخاطب، أمّا شعرهم فقد استدلوا به لأنه منسوج بلغة مثالية يتقنها شعراء القبائل المتطرفة، وشعراء وسط الجزيرة على حدّ سواء، وهذا ما جعلهم يستدلّون بشعر الأخطل(١)، وعديّ بن زيد(٢)، وأشباههما من الشعراء، كما استدلّوا بلغة الشعراء الذين عاشوا في الحواضر التي تجاور بلاد العجم، كالأعشى، وطرفة، والنابغة، وامرئ القيس، وهذا الاستدلال لاينبع من فراغ، إنما ينبع من إدراكهم أنّ الشعراء ممّن تأصلت فيهم الفصاحة لاتُفسِدُ لغتَهم مؤثرات أجنبية، ولاينال من سلامة فصاحتهم شيء.

وخلاصة القول أن القواعد المكانية التي وضعها النحاة طُبِّقت على لغة التخاطُب المتداولة، وأُزيحت إلى حد ما الحدودُ الزمانية للاستدلال، وتمسَّكَ النحاةُ بالحدود المكانية، وهذا ما يفسّر احتجاجهم بلغة شاعر، وردّهم لغة آخر على الرغم من أنهما عاشا في عصر واحد، لكنّ الفارق بينهما أنّ من استدلوا بشعره عاش في البادية يرعى الإبل، ويبحث عن مواطن الكلأ، ومن ردّوا شعره عاش في الحاضرة. مثالنا على شعراء البادية نراه عند ابن ميّادة، فقد استدلّ النحاة بشعره على الرغم من أنّ أمه فارسية، وحكموا بفصاحته لأنه من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان(٣)، فهو بدويّ محافظ

---

(١)- غياث بن غوث بن الصلت (١٩-٩٠ هـ) من بني تغلب، شاعر مبدع اشتهر في عهد بني أمية بالشام ومدحهم، نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، وقد تناقل الرواة شعره. انظر الشعر والشعراء ١٨٩، والأغاني ٨/٢٨٠، وخزانة الأدب ١/٢١٩-٢٢١.

(٢)- عدي بن زيد بن حماد العبادي التميمي (ت ٣٥ ق.هـ) تقريباً، شاعر من أهل الحيرة، كان فصيحاً يحسن العربية والفارسية، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، وكان ترجماناً بينه وبين العرب، انظر طبقات ابن سلاّم ٣١، والشعر والشعراء ٦٣، والأغاني ٢/٩٧، وخزانة الأدب ١/١٨٤-١٨٦.

(٣)- انظر الأغاني ٢/٢٦٩، وخزانة الأدب ١/٧٧-٧٨.

على بداوته، إضافة إلى أنَّ الأعراب قد رووا شعره(١).

واحتج النحاة بأبي نخيلة (ت١٤٥ هـ)، والحسين بن مطير (ت ١٦٩ هـ)، وأبي حيّة النميري (ت ١٨٣ هـ)، وحجتهم في ذلك أنّ كلامهم كلام الأعراب، وأهل البادية، وهذا الأمر ظاهر بيّن في شعرهم(٢).

أما ابن هَرْمة فهو آخر الشعراء الذين احتج النحاة بشعرهم، وعلى الرغم من الخلاف في سنة وفاته(٣) فقد كان أكثر الشعراء المتأخرين حظاً لعناية النحاة لشعره، لأنه من بني فهر القرشيّين، وظل محافظاً على بداوته في شعره، وقد عاصره شعراء كثيرون لم يلقوا عناية النحاة بهم كبشار وغيره.

---

(١)- انظر الكتاب ١/٣١١، ٢/٢٠.

(٢)- انظر الكتاب ١/٤١٢،١٧٨، ٢/٣٧١، ٣/ ١٥٦، ٣٠٥، ٦٠٦، والأغاني ١٦/١٧، ومغني اللبيب ٣٤٤، وأوضح المسالك ١/١٦٩، والخزانة ٢/٤٨٣، ٤/٢٨٢.

(٣)- أورد السيوطي أن وفاته بعد ١٥٠ هـ وذكر ذلك البغدادي من دون تحديد للسنة، إلا أن كلامهما يوحي بأن وفاته كانت في الخمسينات، وهذا وهم؛ لأن وفاته كانت سنة ست وسبعين ومئة، ويؤيد هذا ماذكره ابن جنيّ نقلاً عن الأصمعي أنه سمع ابن هَرْمة ينشد هارون الرشيد:

أَعَنْ تغنَّتْ على ساقٍ مطوّقة ورقاءُ تدعو هديلاً فوق أعوادِ

وخلافة هارون الرشيد كانت بين عامي ١٧٠ و ١٩٣ هـ. انظر الأغاني ٤/٣٩٦، الخصائص ٢/١١، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/١٣١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢/٨٤ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، شرح شواهد المغني للسيوطي ٦٨٢ طبعة مصر ١٣٢٢هـ، خزانة الأدب ١/٢٠٤.

٣- شروط من يؤخذ عنه:

تطور المجتمع العربي تطورا كبيرا بعد الفتوحات الإسلامية التي امتدت في كلّ اتجاه، وبسطت الدولة الإسلامية الجديدة نفوذها على العالم القديم آنذاك، ولم يكن من مفرّ من الاختلاط، وما يتبعه من تأثير في كافة المجالات بين العرب الذين انطلقوا من جزيرتهم، وبين الأمم الأخرى من روم، وفرس، وغير ذلك من الشعوب.

ولعل اللغة هي أبرز ما يظهر عليه أثر الاختلاط، وما يتبعه من تسرّب الضعف والفساد إلى اللغة الأصلية. هذا شأن اللغة العربية الفصيحة التي حملها بداة الجزيرة، ولم يستطع العرب المحافظة على أصالتها لجملة من العوامل، والمؤثرات، لولا حملة لواء الفصاحة من علماء العربية، نحاة ولغويين.

وأمام هذا الواقع الجديد جاء النحاة ليبحثوا عن اللغة السليمة الأصلية بعد الضعف الذي ألمّ بها، فانطلقوا نحو البادية، وتجولوا في مواطن الكلأ حينا، والتقوا الأعراب الوافدين من البادية إلى المدينة حينا آخر، ووضعوا قيوداً كثيرة من شأنها تحقيق الغاية المنشودة، وهي الوصول إلى اللغة السليمة التي لم تشبها شائبة، لجمعها وتقعيدها، مهتمين بالمفردات والتراكيب على حدّ سواء وهو ماخدم علمَيْ اللغة والنحو وما بينهما من ترابط.

وقد دأب النحاة على أن يكون الأعرابي الذي يأخذون عنه فصيحا، لم يتسرب الضعف إلى لغته قط، واجتهدوا في تطبيق ذلك، لاسيما نحاة البصرة الأوائل. ولعل القواعد التي تحدثتُ عنها زمانية ومكانيةً كانت تهدف إلى توخي الفصاحة والسلامة فيمن يؤخذ عنه في وقت كان النحاة فيه يتّهم بعضُهم بعضا بالتهاون في تطبيق هذه القيود.

وانصبّت عناية النحاة الأوائل على فصاحة الأعرابي بالدرجة الأولى، فلم ينقلوا إلا عمّن يثقون به فعبد الله بن أبي إسحاق يهتمّ باللغة الفصيحة، وأصحابها، ويستدلّ بشعر الفصحاء، ولهجات قبائلهم(١) وعيسى بن عمر لم يكن يروي إلاّ ما سمع عن الفصحاء(٢) وأبو عمرو بن العلاء يبحث عن الفصيح، ويسخر ممّن لان جلده(٣) وكذلك سائر النحاة، وقد كان معيارهم للفصاحة أنها كانت تحاكي لغة العرب في باديتهم ضمن القيود الزمانية والمكانية.

ولم يأخذ النحاة عن العربي الذي نشأ، وترعرع في بطن الجزيرة العربية إلا إذا حافظ على هذا المناخ العربي الأصيل على الدوام؛ لأنّ من يخرج من بيئته إلى جوار غريب لابدّ له من التأثر، فتتبدل بعض ملامح لغته السليمة، وهذا ما يخشاه النحاة. الأمر الذي دفعهم إلى التأكد من استمرار فصاحة المأخوذ عنه، وهذا الحرص دفعهم إلى امتحان الأعرابي ليصلوا إلى قناعة كاملة من فصاحته ودوامها.

*- لم يرد في كتب القدماء ما يشير إلى أن للخليل، ويونس نهجا منهجا امتحانيا واضحا، أو لنَقُل: إن المنطق يفرض أنهم أخضعوا من أخذوا عنهم لهذا الامتحان، إلا أنّ ذلك لم يُدوّن، بدليل أنّ شيخهم أبا عمرو بن العلاء سلك هذا المسلك، وأخضع الأعراب للفحص الدقيق، وشرع في امتحان من يرتاب بفصاحته، وذلك من خلال قوله:«ارتبت بفصاحة أعرابي،

---

(١)- انظر الكتاب ١/٢٧٩، ٤/١٢١، المحتسب في شواذ القراءات لابن جني ١/٤٤،٧٦،٣٣٦.

(٢)- انظر الكتاب ٣/١٩،٣٤٣.

(٣)- انظر الخصائص ٢/١٣، ٣/٣٠٤. وتاريخ آداب العرب للرافعي ١/٢٥٤.

فأردت امتحانه، فقلت بيتاً، وألقيته عليه، وهو:

كم رأينا من مُسْحَبٍ مُسْلَحِبٍ صار لحم النسور والعقبانِ

فأنكر فيه، ثم قال: ردّ عليَّ ذكر المسحوب، حتى قالها مرات، فعلمتُ أنّ فصاحته باقية»(١)، ومن ذلك «قول أبي عمرو لأبي خَيرة، وقد قال: استأصل الله عرقاتهم -بنصب التاء-: هيهات، أبا خيرة لان جلدك»(٢). هذان الخبران يدلان على أنّ النحوي لم يكن يقنع بالأعرابي ليأخذ منه مالم يكن مستمراً على فصاحته باقيا على بداوته.

ولايعود ضعف اللغة الفصيحة إلى احتكاك الأعرابي بالأعاجم فحسب، بل يتعدى ذلك إلى احتكاك اللهجات بين القبائل العربية المتباينة من حيث السلامة والضعف؛ فسماعُ الأعرابي لغة غيره ممّن فسدت لغتهم يخلق تأثراً وتأثيراً بين اللهجتين، لكن ذلك لايمنع أنّ العربيّ الفصيح الذي جُبل على سلامة اللغة وعاش في محيط صافٍ نقيٍ لايتأثر بلغة أخرى ضعيفة، فإذا سمعها فإنه يتركها ولايأنس لها(٣)

*- وقد تنبه علماء تلك الحقبة إلى أن الفصاحة واستمرارها يقابلهما بعض الضعف أحيانا لأسباب متعددة، ولم يغفل النحاة عن الثغرات التي تعتري السماع عن الأعراب؛ لذلك فقد تعاملوا معهم بحذر؛ لأنهم قد يلحنون إذا لم يتقيدوا بقيودهم الصارمة التي أسلفت ذكرها.

---

(١)- تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٢٥٤.

(٢)- الخصائص ٣/٣٠٤، ١/٣٨٤.

(٣)- انظر المصدر نفسه ٢/٢٦.

هذا الحذر دفعهم إلى تخطئة بعض العرب حينا، وافتراض الخطأ أو السهو منهم حيناً آخر، فعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر كانا يطعنان على العرب، ويخطّئان الفحول منهم كالنابغة، والفرزدق؛ من ذلك أنّ أبا عمرو بن العلاء قال: مرّ الفرزدق بعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي النحوي فأنشده هذه القصيدة:

عَزَفْتَ بأعشاش وماكدت تعزف ...

حتى انتهى إلى هذا البيت:

وعضُّ زمانٍ يابن مروان لم يدَعْ   من المالِ إلاّ مُسْحَتَ أو مجلَّفُ(١).

فقال عبد الله للفرزدق: علام رفعت؟ فقال له الفرزدق: على ما يسوءك.››(٢)

ويبحث الخليل بن أحمد عن تعليل للخطأ يفصّله، ويبين الموقف الصحيح منه، يقول: ‹‹لايقولون إلا هذان جحرا ضبٍّ خربان، من قِبَلِ أنّ الضبَّ واحد، والجحر جحران، وإنما يغلطون إذا كان الآخرُ بعدّة الأول، وكان مذكراً مثله أو مؤنثاً، وقالوا: هذه جحرةُ ضبابٍ خربةٍ، لأن الضباب مؤنثة، ولأن الجِحرةَ مؤنثة، والعدة واحدة، فغلطوا››(٣).

هذان نموذجان للمنهج الذي اتبعه بعض النحاة، والطريق التي سلكوها للوقوف على اللغة الدقيقة، والشكّ الذي انطلقوا منه للوصول إلى اليقين معتمدين التخريج السليم مع الإشارة إلى الغلط، والخطأ، وما إلى ذلك مما وقع فيه العرب سواء أكانوا من الشعراء أم الرواة.

*- عاش النحاة في الكوفة والبصرة، بعيدين عن البادية، ومضارب الخيام، مما جعلهم لايشافهون الأعراب في كلّ ما ينقلونه عنهم، لذا فقد كان من الضروري أن ينقل النحاة اللغة، والشعر

---

(١)- المسْحَت: المستأصل. والمجلَّف: الذي بقيت منه بقية.

(٢)- معاني القرآن للفراء ٢/١٨٢، ١٨٣. وطبقات فحول الشعراء لابن سلاّم الجمحي ١٥، ١٦، ١٩.

(٣)- الكتاب ١/٤٣٧.

والأقوال عن شيوخهم. ولولا الثقة بين التلميذ وأستاذه لما حصل هذا التآخي في الفكر والمذهب بين الخلف والسلف. ومن باب الثقة القائمة بينهما نقل النحاة عن شيوخهم سائرين على هدي علماء الحديث مقتفين أثرهم في كثير من طرائق الاستدلال.

إن احتمال الكذب وارد في رواية الحديث، والتلفيق على لسان رسول الله(ص) أمر لجأ إليه أعداء الإسلام في ذلك العصر وهذا أمر متوقع أكثر مما هو عليه في رواية اللغة، ولذلك أسباب متعددة ودوافع كثيرة، ليس هذا مجال تفصيلها، ومع كلّ ذلك فإن إسناد المنقول من لغة العرب أمر ضروري لإظهار مدى الدقة، والأمانة فيما يدوّن.

وقد كان سيبويه دقيقاً في هذا الأمر فقد نقل عن الخليل مستخدماً عبارة: <<وروى الخليل رحمه الله>>، و <<قال الخليل>>، و <<زعم الخليل>>، و<<سألت الخليل>>(١) استخداماً مفرطاً جعل محقّق كتابه يسقط اسم الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب من فهرس الأعلام(٢) ونقل كذلك عن يونس(٣)، وعيسى بن عمر(٤)، وأبي زيد الأنصاري(٥)، وأبي الخطاب الأخفش الأكبر(٦). وعن هؤلاء الرواة الذين وثق بهم نقل عن أبي عمرو بن العلاء(٧)، والحضرمي(٨)، وكان يثق بهم ثقة كبيرة لايرقى إليها شكّ، وهذا ما جعله أحياناً يغفل اسم من ينقل عنه، و هو يكتفي

---

(١)- الكتاب ٢/١٣٤، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤.

(٢)- انظر المصدر نفسه ٥/١٨١.

(٣)- انظر المصدر نفسه ٢/١٤٣، ١٨٥، ٢٠٥، ٢١٣.

(٤)- انظر المصدر نفسه ١/١٦٩، ١٧١، ٢٧١، ٣٤٦.

(٥)- انظر المصدر نفسه ٣/٣٧٩، ٤/٢٢٦.

(٦)- انظر المصدر نفسه ٤/٢٠، ٢٣، ١٦٠، ١٦٧، ١٦٩.

(٧)- انظر المصدر نفسه ٣/٤٠، ٦٨، ٨٦، ١٠١، ٢٠٦.

(٨)- انظر المصدر نفسه ٣/٤٤، ٢٤٢، ٣١٣، ٣١٥.

بنعته، نحو قوله: ‹‹وحدثنا من نثق به››، و ‹‹زعم من نثق به››(١).

وكان حديثُ علماء اللغة، والنحو عن الرواية، والرواة حديثَ الفقهاء، وعلماء الحديث، والتشدد في رواية اللغة على غرار رواية الحديث تشدّد لامبرر له، ذلك لأنّ التشدد في رواية الحديث واجب، لاسيما أنّ دواعي الكذب والتلفيق في الحديث كثيرة، وقف علماء المسلمين منها موقفاً حازماً حماية للدين من الزنادقة، والمرتدين، والملحدين الذين حاولوا النيل من الدين الإسلامي. أما دوافع الكذب في اللغة فلم تكن موجودة بشكل واضح لتشكّل مقارنة سليمة بين اللغة من جهة، والحديث من جهة أخرى، إضافة إلى انقطاع الرواية منذ القرن الرابع، حيث صار النحو مودعاً في الكتب التي أضحت مخزناً كبيراً يضمّ النحو، والشعر، واللغة.

أما النحاة فقد قعّدوا النحو، وضبطوا لأنه حتى انتظم عقده، فقد كانوا على درجة كبيرة من العدل والثقة على الرغم من عدم إحاطة ما يروونه بالتواتر؛ لأنهم كانوا يخرجون إلى البادية، ويشافهون الأعراب، وينقلون عنهم، والنحوي في حال عودته إلى حاضرته يعكف على تسجيل ما سمع بكل دقة ، وأمانة وهنا لم يعد التواتر مطلوباً، لأنّ الرواية نابعة عن مصدر ثقة، وما تعرّضُ النحاة لكل ماذكرنا من تواتر في الإسناد، ونقل الآحاد، وغير ذلك إلا ضرب من ضروب التأثر بالفقهاء والمحدثين.

---

(١)- الكتاب ١/ ٢٣٠، ٢/ ١٤٠.

٤- شروط ما يؤخذ به:

حين شرع النحاة في تقصي القواسم المشتركة في لغة العرب، ولهجاتها، تمهيداً لتقعيد هذه اللغة وجدوا أنفسهم أمام كمّ كبير من المادة المرصودة، وهذا ما جعل عملية استقراء اللغة سهمّة عسيرة، وشاقّة؛ لأنها تبحث عن اللغة العربية في القرآن الكريم، والشعر، والنثر، والخطابة، والحديث اليومي.

ولو كان أمر الاستقراء يعتمد القرآن الكريم، وقراءاته الموثوقة فحسب لهانت رحلتهم، وقلّت مشقتُهم، إلا أن النحاة كان هدفهم الإحاطة باللغة من كلّ جوانبها اللغوية، ولهجاتها الكثيرة.

ومما زاد عناءهم رغبتهم في مشافهة الفصحاء، وهذا بدوره أضاف عليهم جهداً مضاعفاً. لاسيما إذا عرفنا أن الظواهر اللغوية كانت متعددة، منها ماشاع، وكثر ، ومنها ماقلّ وندر، فوضعوا قواعدهم على الكثير المنتشر، ولم يغفلوا الإشارة إلى القليل، النادر، والشاذ. حتى صارت من أصولهم الكبرى في الاستدلال.

شيوعه وتعدد مصادره:

برزت صورة اللغة العربية التي يبحث عنها النحاة من خلال استقرائهم منذ أيام أبي عمرو بن العلاء، وذكر الزبيدي في طبقاته أنّ ابن نوفل قال: ‹‹سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعت ممّا سميته عربية، أيدخل فيه كلام العرب كلّه؟ فقال: لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب، وهم حجّة ؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات››(١)، وتابعه عيسى ابن عمر في كتبه ورسائله النحوية التي زادت على سبعين مصنفاً، ووضع كتابه (الجامع) ‹‹على الأكثر، وبوّبه، وهذّبه، وسمى ما شذّ عن الأكثر لغات››(٢).

---

(١)- طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٣٤.

(٢)- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ٢/٣٧٥ تح: أبو الفضل إبراهيم. القاهرة بلا تاريخ.

وكثيرا ماترى النحاة يبيّنون موقف العرب من ظاهرة من الظواهر، من حيث القلّة، والكثرة، وعلى ذلك يستنبطون قواعدهم، وقد يرجّح النحوي وجهاً على وجه، إذا كان اختياره يستند إلى ما كثر استعماله عند العرب، وإذا عرفنا أنّ سيبويه قد أخذ المبدأ عن شيخه الخليل أدركنا أنّ ما ورد في الكتاب إنما يحاكي فيه منهج شيوخه في إظهار مبدأ الكثرة، والقلة في استدلاله(١)

وتعتمد رواية الشعر حفظ الأعراب له، في حين لم يكن هذا الأعرابي معنياً بالعودة إلى الشعر المدوّن، بل كان يعتمد الذاكرة، والفطرة في استيعاب شعر العرب، وهذا ما أوجد روايات متعددة للبيت الواحد، لاتخرج كلّها عن حدود الفصاحة، إنما تبقى في دائرة اللغة العربية، وأصولها. وكان النحاة الأوائل يهتمون بإنشاد الأعراب ومشافهتهم، فعيسى بن عمر، والخليل، ومن سبقهما من الأوائل رأينا كيف كانوا يأخذون برواية الأعراب في تأصيل قواعدهم.

والعناية بالرواية خلّفت تعدّداً في رواية البيت الواحد، لأنه يأتي من مصادر متعددة، وقد عبّر عن ذلك ابن هشام بقوله: ‹‹كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض، وكلّ يتكلّم على مقتضى سجيّته التي فطر عليها، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات››(٢).

ويظهر لنا من كلّ ما تقدم في شروط ما يؤخذ به أنّ النحاة لم يعيروا التقسيم الزماني أهمية كبيرة، في الوقت الذي كان للتقسيم المكاني أهمية أكبر لاعتباراتٍ اجتماعيةٍ، وطبيعةٍ جعلت النحاةَ يستدلّون بكلام أهل البادية حتى منتصف القرن الرابع، مستبعدين الأخذ بكلام أهل المدن إلا من عاش منهم في القرن الأول تقريباً، إضافة إلى قلّة قليلة حافظوا على بداوتهم التي ظهرت في مشافهتهم وامتحانهم، أمّا الأخذ بالشاهد المجهول القائل، والشاهدِ ذي الروايتين فلم يكن ثابتاً، ولم يطبقه جميع النحاة، في حين يتردد بعضهم بين الأخذ بمبدأ حيناً، وإنكاره حيناً آخر.

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٨٢، ١٨٥، ٣٥٦.

(٢)- المزهر للسيوطي ١/٢٦١، والخزانة للبغدادي ١/٢٢.

الفصل الأول:

الاستدلال بالنصوص

- القرآن الكريم
- الحديث الشريف
- كلام العرب
  - الشعر
  - الأمثال
  - ما نقله عن العرب (لغة التخاطب)
- الأمثلة المصنوعة

الاستدلال بالنصوص

تطور النحو تطوراً ملحوظاً بدءاً من القرن الأول الهجري وحتّى النصف الأول من القرن الثاني على يد أوائل النحاة كابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب. فعلى يد ابن أبي إسحاق (ت١١٧) هـ بدأت الآراء النحوية تظهر بشكل واضح، وبملامح بارزة بعد أن أخذ اللغة والقراءات عن ميمون، وابن يعمر، ونصر بن عاصم تلامذة أبي الأسود(١) وقد لاحظ أصحاب المصادر القديمة ذلك، وأعطوه حقّه من الثناء(٢)، وتبع ابنَ أبي إسحاق تلميذُه عيسى بن عمر (ت١٤٩) هـ وسار على خطاه.

وعاش في الفترة ذاتها أحدُ علماء العربية البارزين؛ وهو أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، فقد وضّح علماء العربية فيما بعد منهجه، وعقدوا بين النحاة مقارنات وضعت أسس المدارس النحوية آنذاك(٣) وتبلور اتجاه نحاة البصرة الذين تأثروابما مثّله ابن أبي إسحاق، وعيسى، وغيرهما من تجريد للقياس، وطعن على العرب، ووضع لمقاييس في النحو رأوا أن تُلتَزم؛ فكان أن خطّأ النحاة الشعراء ممّن

---

(١)- انظر أخبار النحويين البصريين للسيرافي١٩، ونزهة الألباء لابن الأنباري٢٠.

(٢)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلّام ١٥، ومراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي١٢تح: محمد أبو الفضل إبراهيم مصر١٩٥٥، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي٢٥.

(٣)- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلّام١٤-١٨.

يُستشهد بشعرهم لتصحيح قواعد النحو، فخطّأ ابن أبي إسحاق الفرزدقَ، وخطّأ عيسى بن عمر النابغة(١) وظهر كذلك اتجاه نحاة الكوفة كأبي عمرو بن العلاء ومَن تبعه، فقد كانوا أكثر تسامحا عندما قبلوا ما خالف مقاييس العربية. وقد لخّص أبو عمرو بن العلاء هذا الاتجاه عندما سُئل مرّة كيف يصنع فيما خالفته فيه العرب وهُمْ حجّة، فقال:«أعمل على الأكثر، وأسمّي ما خالفني لغات»(٢).

وقد شهد القرن الثاني الهجري ولادة عالم بارز من أعلام العربية، وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ فقد بهر العلماء الذين جاؤوا بعده بسعة علمه، وتنوعه مما جعلهم يغفلون فترة طفولته، وما أحاط بها من ظروف. وعلى الرغم من ضآلة أخباره في مرحلة الطفولة، فقد عرف عنه أنّه كان عربياً خالصاً ينتمي إلى قبيلة الأزد اليمانية، وأنّه ولد عام مائة للهجرة، وعاش أربعاً وسبعين سنة(٣).

عاش الخليل في البصرة، وأقام فيها، ولم يغادرها إلاّ مرات قليلة قاصداً الحج، أو الغزو، أو الذهاب إلى أعراب الجزيرة لمشافهتهم، وذُكر أنه سافر إلى خراسان مرّة لزيارة أحد تلاميذه(٤)

١- طبقات فحول الشعراء ١٥،١٦،١٨.

٢- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي٣٤.

٣- لم يُتّفق على تاريخ وفاته، فمنهم من قال: إنه توفيّ سنة ستين ومائة، وقيل: سنة سبعين ومئة، وقيل: سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل: سنة سبع وسبعين ومائة. وذكرت بعض المصادر أنّه توفيّ سنة ثلاثين ومائة، وهو غلط واضح. انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي٤٧، والفهرست لابن النديم ٦٤، وإنباه الرواة للقفطي ١/٣٤٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان٢/١٩، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٢/٨ المطبعة الحسينية المصرية، والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير ١٠/١٦٢ وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري١/٢٧٥ مطبعة السعادة بمصر، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١/٣١٢ مطبعة دار الكتب١٩٢٩.

٤- انظر طبقات الشعراء لابن المعتز٩٦ تح: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة دار المعارف ١٩٦٨م ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي٣٠ والفهرست لابن النديم٦٤.

إن حديثنا عن سيبويه، وعصره الذي استقرّ فيه النحو العربي يقودنا من غير شكّ إلى الحديث عن الخليل بن أحمد أستاذهِ الذي أخذ عنه العلم، والمعرفة، والتأمل في المسائل النحويّة مما كان له أبلغ الأثر في شخصيته النحوية. ونظرة إلى كتاب سيبويه، وآراء الخليل فيه تجعلنا ندرك أنّ الفصل بين الشخصيتين أمر بعيد المنال لما فيهما من تداخل، وتمازج من خلال استعراض المسائل، وبلورة قواعد العربية.

وقد لزم سيبويه الخليلَ مع ثلاثة طلاب آخرين هم علي بن نصر الجهضمي(١)، ومؤرّج السدوسي(٢)، والنضر بن شميل(٣)، لكنّ سيبويه فاقهم في النحو ومسائله في الوقت الذي برع فيه الجهضميّ في الحديث، ومؤرّج في الشعر واللغة، والنضر في اللغة، وتنقل لنا الأخبار اهتمام الخليل بسيبويه لأنّه توسّم فيه الطالب المجيد والمتلقّن المبدع. قال ابن النطّاح: كنت عند الخليل بن أحمد، فأقبل سيبويه، فقال الخليل:«مرحباً بزائر لا يُمَلّ» قال أبو عمرو المخزومي: «ما سمعت الخليل يقولها إلاّ لسيبويه»(٤).

ولم تكن العلاقة بين الخليل وسيبويه علاقة محبة وإعجاب من أستاذ إلى طالبه، بل تعدت هذه الحدود، ووصلت إلى مرحلة من التلاقح الفكري بينهما، فقد حمل سيبويه علم الخليل ونقله إلينا بأمانة كبيرة من دون تفريط؛ قال معاوية بن بكر العليمي:«عمرو بن عثمان قد رأيته، وكان حَدَثَ الســـن،

---

(١)- علي بن نصر بن علي الجهضمي، لزم الخليلَ طويلاً، وغلب عليه الحديث ت١٨٧هـ انظر مراتب النحويين لأبي الطيب٦٧، وبغية والوعاة للسيوطي٣٥٨.

(٢)- مؤرج بن عمرو السدوسي غلب عليه الشعر واللغة، وتعلّم القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري، وتوفي١٩٥ هـ انظر مراتب النحويين لأبي الطيب٦٧، تاريخ بغداد للبغدادي١٣/٢٥٨، وإنباه الرواة للقفطي ٣٢٧/٢.

(٣)- النضر بن شميل المازني التميمي، أخذ عن الخليل، وأقام في البادية أربعين سنة (ت٢٠٣هـ) انظر مراتب النحويين لأبي الطيب٦٨.

(٤)- طبقات النحويين للزبيدي٦٨.

كنت أسمع في ذلك العصر أنّه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد››(١) وقيل: إنّه ألف كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل(٢) حتّى إنّه عقد أبواب كتاب بلفظه ولفظ الخليل(٣)، وهذا التلازم بين العالِمَيْن اللذين أكمل أحدهما الآخر جعل أبا عثمان المازني يقول: ‹‹من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي››(٤)، ذلك لأن انصهار فكريهما في بوتقة واحدة تقريباً خلق أبعاداً متكاملة للنحو العربي، وأنه لولا الخليل وعلمه الذي أخذه عنه سيبويه لما كتب للأخير أن يصل إلى المكانة التي تبوأها في النحو العربي.

أمام هذا العمل المتكامل -أعني الكتاب- تجدني ملزماً بمتابعة العمل من غير فصل بين الشخصيتين إلاّ من خلال ما هو ظاهر ومنسوب، ومصرّح به في الكتاب، إضافة إلى أنّ سيبويه كلّما قال: (سألته) أو (قال) فإنما يعني أستاذه الخليل؛ فجملة ما روى عنه في الكتاب ٥٢٢ مرة، وهو قدر لم يرو مثله ولا قريباً منه عن أحد من أساتذته(٥)، هذا ما ذكر صراحة، أمّا عدد المرّات التي وردت فيها آراء الخليل من دون ذكر اسمه فهي أكثر من ذلك العدد بكثير، وهذا دليل تمازج فكرين في كتاب واحد، فمن يريد أن يبحث عن منهج الخليل النحوي ومذهبه فلن يجده إلاّ في الكتاب لأنّ كتبه ضاعت من يد الزمن ولم يبق منها سوى كتاب العين(٦)

---

(١)- المصدر السابق٦٧، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١١٨/١٦.

(٢)- انظر أخبار النحويين البصريين للسيرافي٤٨، طبقات النحويين للزبيدي٦٨، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١١٧/١٩.

(٣)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي٦٥.

(٤)- الفهرست لابن النديم٧٧، نزهة الألباء لابن الأنباري٧٥.

(٥)- انظر سيبويه إمام النحاة لعلي النجدي ناصف ٩٣ مصر ١٩٧٩.

(٦)- ذكرت المصادر أنّ للخليل كتباً كثيرة هي: النغم، والإيقاع، والعروض، والنقط والشكل، والشواهد، والجُمَل، وفائت العين، والمُعَمّى، وكتاب في العوامل، وهناك مقاطع متفرقة تنسب إلى الخليل، ولم تشر إليها المصادر القديمة. انظر الفهرست لابن النديم ٦٥، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١١/٧٤-٧٥ (طبعة دار المأمون) إنباه الرواة للقفطي ٣٤٦/١ وفيات الأعيان لابن خلكان ١٧/٢، بغية الوعاة للسيوطي٢٤٥.

شهدت البصرة زمن سيبويه حركة علمية كبيرة، حيث كانت الدراسات الإسلامية في تطور ونشاط، برزت خلالها علوم القرآن وتفسيره، والقراءات، والفقه، والحديث، وكذلك اللغة، والنحو، والصرف، ورواية الشعر.

ولم تكن هذه الدراسات تتبع منهجا واضحا في تطورها، بل اقتصرت على ما يعطيه العلماء في المساجد، أو في بيوت علّية القوم من خلفاء، وأمراء، وغيرهم من دون موضوع معين يحرص العالم على تتبعه، بل كان العالِم يعطي كلّ ما عنده، على ما في ذلك من تنوّع، وهذا ينعكس على الطلبة، حيث يخرج الطالب قارئاً مفسّراً فقيهاً نحوياً، راوية للشعر، ثم يُنسب إلى علم غلب عليه من هذه العلوم، أو أكثرَ فيه.

لم يشذّ الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه عن هذه القاعدة، فقد انصرفا إلى علوم كثيرة متنوعة، ويؤيد قولنا ما نُقل عن النضر بن شميل من أنه قال: ‹‹ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد››(١)، وقد أضاف الخليل إلى علمه بالسنّة ثقافة لغوية، ونحوية واسعة، فقد نهل اللغة والشعر من أساتذيه عيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، وكثير من الأعراب(٢) الذين يفدون إلى البصرة وكثيراً ما كان يشدّ الرحال إلى قلب جزيرة العرب يشافه أهلها في نجد وتهامة والحجاز(٣) ممّا جعل القدماء يقولون: إنّ الخليل حفظ نصف اللغة(٤) وكان أوّل من صنف في اللغة معجماً وهو

---

(١)- نزهة الألباء لابن الأنباري٤٨.

(٢)- منهم أبو مهدية، وأبو طفيلة، وأبو البيداء، وأبو خيرة إياد بن لقيط، وأبو مالك عمرو بن كركرة، وأبو الدقيش. انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي٣٩-٤٠.

(٣)- انظر نزهة الألباء لابن الأنباري٦٩.

(٤)- انظر أخبار النحويين البصريين للسيرافي٤١.

كتاب العين الذي أشرنا إليه، والذي عُدّ أوّل عمل لغوي معجمي عرفه العرب(١)

بعد ذلك يأتي سيبويه وكتابه الذي يعدّ نهاية مرحلة هامة في تاريخ النحو، بلغ فيها النحو الغاية في وضوح صورته وبيان ملامحه بعد مخاض طويل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نستطيع أن نجعل كتابه أيضاً مرحلة هامة من مراحل النحو؛ نهل منه كلٌّ من جاء بعده من النحاة على اختلاف عصورهم، وامتداد رقعة أوطانهم، وهو ما جعلهم يطلقون عليه اسم (قرآن النحو) ويقرؤونه جميعاً على اختلاف مشاربهم ويتأثرونه في تناولاتهم النحوية.

ويمكننا أن نقسم الاستدلال النحوي في كتاب سيبويه قسمين اثنين: أولهما الاستدلال بالنصوص، وثانيهما الاستدلال بغير النصوص؛ ويشمل الأولُ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب؛ شعراً وأمثالاً، ولغة تخاطب، ويشمل الأمثلة المصنوعة:

* القرآن الكريم *

أحيط القرآن الكريم بعناية بالغة في روايته من حيث الدقة، والتواتر؛ هذه العناية جعلت النحاة العرب يضعونه في مقدمة المصادر الموثوقة التي تُعتمد في وضع قواعد اللغة العربية.

لكنّ القراءات الكثيرة لكثير من آيات القرآن الكريم جعلت بعض النحاة يردّون بعضها وينسبونها إلى الشذوذ، هذا بشكل عام، أمّا موقف كتاب سيبويه من ذلك ، فلا بدّ لنا قبل ولوجه من أن نتعرض بإيجاز إلى علمه بالقرآن، والقراءات، والقرّاء ثم استدلاله به قبل أن نتحدث عن أساليب الكتاب في الاستدلال بلغة القرآن:

---

(١)- انظر المزهر للسيوطي ٧٦.

علمه بالقرآن، والقراءات، والقرّاء

كان سيبويه على علم جمّ بالقرآن الكريم وقراءاته وعلومه، يظهر ذلك بشكل كبير في كلّ مكان، ويظهر فيه أيضاً أثرُ الخليل بن أحمد في تلميذه فهو يلقنه كلَّ ماتخفيه الآيات الكريمة وقراءاتها من معانٍ يصعب على التلميذ إدراكها ما لم يتدخل أستاذه بها، وفي مواضع كثيرة من الكتاب نرى الحوار الذي يجري بين الاثنين عن بعض أساليب القرآن الكريم من ذلك أن سيبويه سأل الخليلَ <<عن قوله عزّ وجلّ: (**وما يُشعِرُكُم إنّها إذا جاءَتْ لا يُؤمِنون**)، (١) ما منعها أن تكون كقولك: مايُدريك أنّه لايفعلُ؟ فقال: لا يَحسن ذا في ذا الموضع، إنّما قال: ومايُشعِركم، ثم ابتدأ فأوجب، فقال: إنّهاإذا جاءت لا يؤمنون. ولو قال: وما يُشعركم أنّها إذا جاءت لايؤمنون، كان ذلك عُذْراً لهم وأهل المدينة يقولون: (أنّها). فقال الخليل: هي بمنزلة قول العرب: ائتِ السوقَ أنّك تشتري لنا شيئاً، أي: لعلّك، فكأنّه قال: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون>> (٢)

وكان لعلمه الكبير بالقرآن الكريم أخذاً عن شيوخه، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد أثر بالغ في تتبعه لقراءات القرّاء وإحاطته بتوجيهات كلّ قراءة قرآنية، ومذاهب القرّاء واتجاهاتهم، وأوجه قراءاتهم، وكتابه يكشف لنا كثيرا من ذلك، فهو يذكر أسماء القرّاء كأبي عمرو بن العلاء(٣) والأعرج(٤)

---

(١)- الأنعام ٦/١٠٩.

(٢)- الكتاب٣/١٢٣، وانظر البحر المحيط لأبي حيّان ٤/٢٠١-٢٠٣ (السعادة١٣٢٨هـ)، وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي ٢١٥ (مطبعة حنفي ١٣٥٩هـ).

(٣)- زبّان بن عمّار التميمي المازني البصري وفي ذلك خلاف (٧٠-١٥٤هـ) من أئمة اللغة والأدب، وهو أحد القرّاء السبعة، ولد في مكة ونشأ بالبصرة . ومات في الكوفة، كان ينقل أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. انظر غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري(مصر١٣٥١هـ) ١/٢٨٨، فوات الوفيات للكتبي ١/١٦٤ نزهة الألباء للأنباري٣١.

(٤)- عبد الرحمن بن هرمز ت١١٧ من موالي بني هاشم حافظ قارئ من أهل المدينة، أدرك أبا هريرة وأخذ عنه، مات في الاسكندرية، انظر نزهة الألباء للأنباري ١٨، تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٩١ حيدر آباد ١٣٣٣هـ، طبقات القرّاء لابن الجزري ١/٣٨١.

وأبيّ بن كعب (١)، وابن مسعود(٢)، وعيسى بن عمر(٣)، والحسن البصري(٤)، وغيرهم(٥). إذا كان في معرض الحديث عن المسائل النحوية وتوجيهاتها، ويذكر في مواضع أخرى موطن القراءة وأصحابها؛ كقوله:(أهل المدينة)(٦)، أو (أهل مكة)(٧)، أو (أهل الكوفة)(٨) وذلك من خلال وعي كامل لما تعنيه القراءة وأصحابها، وما تعكسه القراءة من توجيه لمعنى آي القرآن الكريم.

---

(١)- أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد (ت٢١هـ) صحابي أنصاري، من كتّاب الوحي، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، واشترك في جمع القرآن، روى ١٦٤حديثًا. انظر طبقات ابن سعد ٣/القسم الثاني٥٩ طبعة ليدن ١٣٢١هـ طبقات القرّاء لابن الجزري١/٣١ صفوة الصفوة لابن الجوزي ١/١٨٨ (حيدر آباد١٣٥٥هـ).

(٢)- عبد الله بن مسعود بن غافل الهذليّ (ت٣٢هـ) من أكابر الصحابة وأقربهم من رسول الله (ص)، وأول من جهر بقراءة القرآن، كان خادم رسول الله وصاحب سرّه، له ٨٤٨ حديثًا. انظر الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ت٤٩٥٥(مصر ١٣٤٠)، صفوة الصفوة لابن الجوزي ١/١٥٤ حيدر آباد ١٣٥٥، حلية الأولياء للأصفهاني ١/١٢٤ مصر ١٣٥١هـ.

(٣)- عيسى بن عمر الثقفي بالولاء (ت ١٤٩هـ) شيخ الخليل وسيبويه. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٣٩٣ وخزانة الأدب للبغدادي ١/٥٦، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي٣٥-٤١. نزهة الألباء للأنباري٢٥.

(٤)- الحسن بن يسار البصري (٢١-١١٠هـ) إمام أهل البصرة كان عالمًا فقيهًا ناسكًا شجاعًا. انظر حلية الأولياء للأصفهاني ٢/١٣١، أمالي المرتضى للشريف العلوي ١/١٠٦(مصر١٣٢٥هـ)، ميزان الاعتدال للذهبي ١/٢٥٤ (مصر ١٣٢٥هـ).

(٥)- انظر بعض ما أورده سيبويه من القرّاء. الكتاب ١/٩٥،١٤٨،١٧٢،٢/٤٣،٨٣،٢١٠،٣/١٣٤،١٤٣،١٦٦،٤/٨١،٥٩.

(٦)- الكتاب ٢/١٤٠،٣٩٧،٣/٥٠،٥١٩.

(٧)- المصدر نفسه ٤/١٩٦،٤٤٠،٤٤٤.

(٨)- المصدر نفسه ٢/٣٩٩، ٣/٥٤، ٤/٤٧٧.

استدلاله للغة القرآن، وقراءاتها، واستدلاله بها

هناك فارق واضح بين الاستدلال للغة القرآن، والاستدلال بها؛ فالاستدلال للغة القرآن تكون فيه لغة القراءة القرآنية مخالفة للشائع من لغة العرب، بعيدة عن قياس النحاة، غير ثابتة الأصول، وهذا ما يدفع بالنحوي لإيجاد النظائر في لغة العرب، ليبيّن أنّ القراءة ليست مجافية لأصول النحو، وأنّها مقبولة. أمّا الاستدلال بلغة القرآن فتكون فيه هذه اللغة الضابطَ للأصول، والمصححةَ للكلام، والمعيارَ الدقيق على صحة الاستنباط والقياس.

وفي كتاب سيبويه نجد الاستدلالين السابقين معاً، فقد وجد صاحب الكتاب أنّ بعض لغة القراءات القرآنية جاءت بعيدة عن قياس النحاة على غير ما شاع في لغة العرب، وهي بعيدة عن تلك الأصول الثابتة للغتهم، وهذا ما دفعه إلى أن يوجد لها التعليلات والنظائر في كلام العرب ليظهر أنّها لم تكن منافية لتلك الأصول، ولا مجافية لها، الأمر الذي دفعه ليستدلّ لصحتها؛ من ذلك حديثه عن قوله تعالى: (**وما ظلمناهم ولكنْ كانوا همُ الظالمون**) (١) وهي القراءة التي عدّها بعض القرّاء شاذة، فإننا نرى أنّه يستدلّ لصحتها من كلام العرب في قوله: ‹‹وقد جعل ناس كثير من العرب (هو) وأخواتها في هذا الباب بمنزلة اسم مبتدأ، ومابعده مبنيّ عليه، فكأنك تقول: أظنّ زيداً أبوه خير منه، ووجدتُ عمراً أخوه خير منه. فمن ذلك أنّه بلغنا أنّ رؤبة كان يقول: أظنّ زيداً هو خير منك. وحدّثنا عيسى أنّ ناساً كثيراً يقرؤونها: **وما ظلمناهم ولكنْ كانوا همُ الظالمون**) (٢). وقال الشاعر:

---

(١)- الزخرف ٤٣/٧٦.

(٢)- هي قراءة عبد الله، وأبي زيد النحويين. انظر البحر المحيط لأبي حيّان ٨/٢٧.

قيس بن ذَريح: (١)

تُبَكّي على لُبنى، وأنتَ تركتها وكنت عليها بالملا أنتَ أقدرُ›› (٢)

أمّا استدلاله بلغة القرآن ففيه يجعل لغة القرآن الكريم هي الأساس الذي ينطلق منه إلى تصحيح الأصول، والدلالة على صحة الاستنباط والقياس؛ فهو يتحدث عن حذف التاء من الأفعال، ومتى يجوز ذلك، فيقول: ‹‹ وهذا في الواحد من الحيوان قليل، وهو في الموات كثير، فرّقوا بين الموات والحيوان كما فرّقوا الآدميّين وغيرهم. تقول: هم ذاهبون، وهم في الدار، ولاتقول: جِمالُك ذاهبون، ولاتقول: هم في الدار، وأنت تعني الجِمال، ولكنّك تقول: هي وهُنّ ذاهبة وذاهبات. ومما جاء في القرآن من الموات قد حذفت فيه التاء قوله عز وجلّ: **فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى** (٣) وقوله: **مِنْ بعدِما جاءهُمُ البيّناتُ**(٤) وهذا النحو كثير في القرآن ››(٥)

ومما سبق يتضح لنا أن الاستدلال بلغة القرآن، أو الاستدلال بها إنما يهدف إلى تثبيت القاعدة النحوية ورسم أصول واضحة لها.

---

(١)- قيس بن ذَريح بن سنة الكناني (ت ٦٨هـ) شاعر عاشق، أحب لُبنى، كان رضيعا للحسين بن علي بن أبي طالب. انظر الأغاني ٨/١٠٧ وما بعدها، فوات الوفيات للكتبي ٢/١٣٤، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١/١٨٢، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٣٩.

(٢)- يذكر تتبع نفسه للُبنى بعد طلاقها والملا: ماتسع من الأرض. أي: كنتَ أكثر قدرة عليها وأنت مقيم معها بالملا قبل طلاقها؛ يأسى على ماكان منه في ذلك. والشاهد فيه استعمال (أنت) هنا مبتدأ، ورفع (أقدر) على الخبر. انظر الكتاب ٢/٣٩٢-٣٩٣، وابن يعيش ٣/١١٢، والبحر المحيط ٨/٢٧، ولسان العرب (ملا).

(٣)- البقرة ٢/٢٧٥.

(٤)- آل عمران ٣/١٠٥.

(٥)- الكتاب ٢/٣٨-٣٩.

منهجه في الاستدلال بلغة القرآن

من خلال الكتاب، ومعالجته للمسائل النحوية يظهر المنهج العام لاستدلال سيبويه بلغة القرآن الكريم، سواء أكان ذلك في آيات القرآن الكريم بشكل عام، أم في القراءات القرآنية، وسنحاول هنا أن نبيّن هذا المنهج من الزاويتين؛ الأولى عن الاستدلال بالقرآن، ومقارنة استدلاله هنا بلغة العرب، لاسيما الشعر، وتعليل سبب غلبة الشعر على القرآن الكريم، وجعله الشعر وكلام العرب في صدر كلامه، وتقعيده للغة العرب، وغزارة الآيات القرآنية في أبحاث معينة دون أخرى؛ والثانية عن القراءات القرآنية، وموقفه منها، وكثرة القراءات وتعددها في الموضوع الواحد، وغير ذلك ممّا يتعلّق بالقراءات.

١- مكانة لغة القرآن الكريم، في استدلاله:

صحيح أنّ القرآن الكريم في كتاب سيبويه لم يفُق الشعر من حيث العدد في الاستدلال النحوي، لكنّه احتلّ مكانة هامة، وكان مادة غنيّة جعلت حلقاتِ (الكِتابِ) تكتمل لتشكّل عقداً نحوياً مرصوصاً، فقد بلغ عدد الشواهد القرآنية سبعة وتسعين وثلاثمئة شاهد، منها ما تكرر غير مرة، ومنها ما ضمّ أكثر من آية في الشاهد الواحد، وكثيراً ما تضمّن الشاهد غير آية قرآنية كريمة. في الوقت الذي بلغت فيه الشواهد الشعرية ألفاً وستة وخمسين شاهداً، تختلف زيادة ونقصاً بحسب نسخ الكتاب المختلفة(١)

استدلّ سيبويه بالقرآن الكريم لتوضيح القواعد المستنبطة، وتقريرها، فهو يكتفي حيناً بالاستدلال بآية واحدة، أو آيتين، ويقول حيناً آخر بعد استدلاله: ‹‹وهذا النحو كثير في القرآن›› أو

---

(١)- اعتمدنا في معرفة الأعداد (فهرس شواهد سيبويه) للنفاخ، وفهارس (الكتاب) في الجزء الخامس، تح: هارون.

‹‹وهذا الضرب كثير في القرآن››(١)؛ ومن ذلك استدلاله بقوله تعالى: (**والمقيمينَ الصلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ**)(٢) على نصب (الصلاةَ) بـ (المقيمين)، وذلك بآية قرآنية واحدة، ومثله قوله تعالى: (**فإنْ طِبْنَ لكُمْ عن شيءٍ منه نفساً**)(٣). وقد يستدلّ بآيتين بشكل متتالٍ نحو:‹‹ومثل ذلك قوله عزّ وجلّ: (**لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أحْصى لما لَبِثُوا أمداً**)(٤) وقوله تعالى: (**فَلْيَنْظُرْ أيُّها أزْكى طعاماً**)(٥)››. ويحرص في مواضع أخرى على ذكر عدد كبير من الآيات في موضوع نحوي واحد، الهدفُ منه إثبات صحة ما تمّ استنباطه، وذلك باستدلاله بالشواهد الكثيرة من آيات القرآن الكريم، من ذلك حديثه عن (إلاّ) حينَ تأتي بمعنى(لكنّ)؛ يقول: ‹‹فمن ذلك قوله تعالى: (**لا عاصمَ اليوم من أمرِ اللهِ إلاّ مَنْ رَحِمَ**)(٦)؛ أي: ولكنّ من رَحِم، وقوله عزّ وجلّ: (**فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعَها إيمانُها إلاّ قومَ يونسَ لمّا آمنوا**)؛(٧) أي: قومَ يونس لمّا آمنوا، وقوله عزّ وجلّ: (**فلولا كانَ مِن القرونِ مِنْ قبلِكُم أولُوا بقيّةٍ ينهوْنَ عن الفسادِ في الأرضِ إلاّ قليلاً ممّن أنجينا منْهمْ**)(٨)؛ أي ولكنّ قليلاً ممّن أنجينا منهم. وقوله عزّ وجلّ: (**أُخرجُوا من ديارِهِمْ بغيرِ حقٍّ إلاّ أنْ يقولوا ربُّنا اللهُ**)(٩)؛ أي ولكنّهم يقولون: ربُّنا الله. وهذا الضربُ في القرآن كثير››(١٠).

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٣٩،٣٢٥،٣/١٦٢.

(٢)- النساء ٤/١٦٢، وانظر الكتاب ١/١٨٣.

(٣)- النساء ٤/٤ ، وانظر الكتاب ١/٢١٠.

(٤)- الكهف ١٨/١٢.

(٥)- الكهف ١٨/١٩، وانظر الكتاب ١/٢٣٦.

(٦)- هود ١١/٤٣.

(٧)- يونس ١٠/٩٨.

(٨)- هود ١١/١١٦.

(٩)- الحج ٢٢/٤٠.

(١٠)- الكتاب ٢/٣٢٥.

ويعمد سيبويه أحياناً إلى الاستدلال بآيات القرآن الكريم بغزارة كبيرة في أبحاث معينة؛ وهذا ما فعله في معرض حديثه عن الجزاء والقسم في مواضع متفرقة من الكتاب كقوله:‹‹ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: (**وَمَنْ عادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنه**)(١) ومثله: (**وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَليلاً**)(٢) ومثله: (**فَمَنْ يُؤمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً ولا رَهَقاً**)(٣)››، حتى إنه استدلّ بأربعٍ وخمسين آية قرآنية في الجزاء والقسم(٤).

ولم يقصد سيبويه الدخول في تفاصيل القراءات القرآنية، واختلاف القرّاء ما لم يكن هذا الدخول يخدم القضايا النحوية، ومحاولاته تقعيد النحو، و يتجلّى هذا الأمر عندما نراه يسرد الآيات مستدلاً بها على قاعدة نحوية مستنبطة، من غير إشارة إلى قراءة بعض القرّاء، إذا لم تكن قراءة هؤلاء تمسّ الأمر النحوي، أما إذا كان اهتمامه منصبا على آية كريمة بقراءةٍ غير ما نحن عليه في مصحفنا، فإنه يفصّل في وجوه القراءة ويوجه ظاهرتها الإعرابية مفصّلاً فيها ما يلزم، ولا نجد حاجة لتقديم أمثلة على ذلك، لكنّه يكفينا قولُنا: إنّ الآيات القرآنية التي بلغ عددها سبعةً وتسعين وثلاثمئة شاهد قرآني تضمّ أربعاً وخمسين آية منها تناول فيها سيبويه وجهاً من وجوه القراءات التي تخالف مصحفنا(٥).

ولم يكن سيبويه يطمئن إلى القراءات القرآنية التي يسمعها من الأعراب، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ الأعراب يغلّبون لهجاتهم في قراءاتهم القرآنية، ممّا جعله لا يثق بقراءاتهم، وهذا الأمر دفعه إلى الاستعانة بشيوخه وعلى رأسهم الخليل بن أحمد؛ فهو لا يتردّد في سؤالهم عن القراءات القرآنية وموقفهم منها. من ذلك أنّه سأل شيخه عن قوله تعالى:(**فَأَصَّدَّقَ وأكُنْ من الصالحين**)(٦) بقراءة من

---

(١)- المائدة ٥/ ٩٥.
(٢)- البقرة ٢/ ١٢٦.
(٣)- الجن ٧٢/ ١٣.
(٤)- انظر الكتاب ٣/ ٥٦-١١٤،٤٩٦-٥٠٤.
(٥)- انظر حواشي شواهد القرآن في (فهرس شواهد سيبويه) للنفاخ١٣-٥٤.
(٦)- المنافقون ٦٣/ ١٠.

جزم (أكنْ)(١) فأجابه بأنّ (أكنْ) عُطف على محلّ الفعل الذي قبله على توهّم جزمه، لأنه قد يكون في هذا الموضع مجزوماً ولا فاءَ فيه، وقاس ذلك على قول زهير:

بدا ليَ أني لستُ مدركَ ما مَضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا(٢)

الذي جرّ فيه (سابقٍ) على توهم جرّ (مدرك) وكأنه قال: لستُ بمدركٍ ولا سابقٍ(٣)

وسأله عن قوله تعالى: (**وما كانَ لِبَشرٍ أن يكلّمه اللهُ إلاّ وحْياً، أو من وراءِ حِجاب أو يُرسِلَ رسولاً، فيوحيَ بإذنه ما يشاءُ**)(٤) فأجابه الخليل: إنّ (يرسل) منصوب بـ (أنْ) مضمرة، لا عطفاً على (أن يكلّمهُ)؛ لأنّ المعنى يصبح فاسداً. وسبب الإضمار قبل (يرسلَ) أنه معطوف على (وحيا)، وهذا ما يقتضيه المعنى السليم؛ ولمّا كان (يرسل) فعلاً و (وحيا) اسماً جرى إضمار (أنْ) قبل (يرسل) ليسوغ عطف الفعل على الاسم(٥)

وسأل يونسَ بن حبيب عن قوله تعالى:(**الحمدُ للهِ ربِّ العالمين**)(٦) وأنه سمع بعض العرب يقرؤونها بنصب (ربَّ) فأجابه يونسُ زاعماً إنها عربية(٧) هذه العودة إلى الشيوخ والتي نراها في كتاب سيبويه تكشف لنا أنّ هؤلاء الأعراب لايركن إليهم في قراءة القرآن، وهو ما دفع سيبويه إلى اللجوء إلى أساتذته ليطمئن على سلامة المادة التي يستدل بها، ومطابقتها للغة العرب.

---

(١)- استدلّ بها سيبويه على قراءة (وأكنْ) بالجزم، وهي قراءة العشرة غير أبي عمرو فإنّه قرأها (وأكونَ) بالنصب. انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٧١/٢، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ٢١١ استنبول١٩٣٠م.

(٢)- الشاهد فيه جرّ (سابق) على تقدير الباء الزائدة في (مدرك) أي: لست بمدركٍ ولا سابقٍ. الكتاب ٢٩/٣، ١٠٠.

(٣)- انظر المصدر السابق ١٠١/٣.

(٤)- الشورى ٥١/٤٢.

(٥)- انظر الكتاب ٤٩/٣.

(٦)- الفاتحة ٢/١.

(٧)- انظر الكتاب ٦٣/٢.

لم يخلُ الكتاب من خلل في ذكر بعض آيات القرآن الكريم، وهي أوهام مرّت عليها السنون الكثيرة من دون أن ينتبه إليها أحد، من ذلك قوله تعالى:(**والحافظينَ فروجَهم والحافظاتِ والذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ**)(١) فقد وردت في أصول الكتاب محرّفةً: والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، والحافظين فروجهم والحافظات(٢)، ومن ذلك قوله تعالى: (**لولا نُزّلَ عليه آيةٌ من ربّهِ قُلْ إنّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُنَزّلَ آيةً**)(٣)، فقد جاء نص الآية في الكتاب: (لولا أُنزلَ عليه) بالهمزة في أول (أُنزلَ) مبيناً للمفعول وهو خطأ بحت لم يقرأ به أحد(٤)، ويظهر أن هذه الآية التبست على صاحب الكتاب ببعض الآيات التي فيها قوله تعالى: (**لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربّه، فقل إنما الغيبُ لله**)(٥)، وقوله: (**لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربّهِ إنّما أنتَ منذرٌ**)(٦) وقوله: (**لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربّهِ قُلْ إنّ الله يُضِلُّ مَنْ يشاءُ**)(٧).

وما من شكّ في أنّ الخلل الذي ورد لم يكن مردّه ضعفاً أو تقصيراً، أو عدم دراية، إنما السبب هو تزاحم الآيات وتشابهها في الموطن الواحد وجلَّ من لا يخطىء ولا يغفل.

من خلال ما تقدم من ملامح بارزة في استدلال سيبويه بالقرآن الكريم، يظهر لنا رجحان الاستدلال بالشعر عددا، على الاستدلال بالقرآن الكريم بشكل يقارب الضعفين، فالشعر يرويه الأعراب الفصحاء ويتناقلونه، وهم بدورهم عنصر هام من عناصر الاستدلال؛ لأن كلام هؤلاء الأعراب الفصحاء هو معيار اللغة السليمة، وهم أحياء ناطقون لهذه اللغة يحيطون بالبصرة، ويفدون إليها وقت حاجتهم،

---

(١)- الأحزاب ٣٣/٣٥.

(٢)- أول من تنبه إلى ذلك عبد السلام هارون. انظر الكتاب (حاشية) ١/٧٤.

(٣)- الأنعام ٦/٣٧.

(٤)- انظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ٢١.

(٥)- يونس ١٠/٢٠.

(٦)- الرعد ١٣/٧.

(٧)- الرعد ١٣/٢٧.

ويخرج النحاة إليهم إذا جدّوا في البحث والاجتهاد، وهم بالتالي الشهود الحقيقيون على ما يستنبطه سيبويه، وغيره من النحاة، فكيف يَضع قواعد للغة الأعراب وهم بالقرب منه، من دون أن يجعل لغتهم في المقام الأول، لاسيما أنه يعتمدهم في استنباط الأصول النحوية، ويعوّل عليهم في الاستقراء اللغوي آنذاك.

ولم يكن تقديم الاستدلال بالشعر عند سيبويه يعني أنه أهمُّ من لغة القرآن عنده، ولكنّه تنويع في أساليب الاستدلال؛ فهو يبدأ بكلام الأعراب حيناً، وبالشعر حيناً آخر، ونراه في مواضع كثيرة يبدأ بالقرآن الكريم، يستدل به ثم يعقبه بالشعر من ذلك قوله: ‹‹هذا باب ما تكون فيه (أنْ) بمنزلة (أي)، وذلك قوله عزّ وجلَّ:(**وانطلق الملأ منهمْ أن امشُوا واصبرُوا**)(١) زعم الخليل أنّه بمنزلة (أيْ)؛ لأنك إذا قلت: انطلق بنو فلان أنِ امشوا، فأنت لا تريد أن تُخبِر أنهم انطلقوا بالمشْي، ومثل ذلك: (**ما قلْتُ لَهمْ إلا ما أمرْتَني بهِ أنِ اعبدُوا الله**)(٢) وهذا تفسير الخليل. ومثل هذا في القرآن كثير››(٣)ومثله قوله‹‹فأمّا ثمودُ وسَبَأٌ، فهما مرةً للقبيلتين، ومرة للحيّين، وكثرتُهما سواء. وقال تعالى:(**وعاداً وثموداً**)(٤). وقال تعالى:(**ألا إنّ ثموداً كفروا ربَّهم**)(٥)، وقال:(**وآتينا ثمودَ الناقةَ مبصرةً**)(٦)وقال:(**وأمّا ثمودُ فهديناهُمْ**)(٧)، وقال:(**لقد كانَ لسبإٍ في مساكنهم**)(٨) وقال: (**من سبإٍ بنبإٍ يقينٍ**) (٩) وكان أبو عمرو لا يصرف سَبَأ، يجعله اسماً لقبيلة.

---

(١)- سورة ص ٣٨/٦.

(٢)- المائدة ٥/١١٧.

(٣)- الكتاب ٣/١٦٢.

(٤)- الآية ٣٨ من كل من سورتي الفرقان، والعنكبوت.

(٥)- هود ١١/٦٨.

(٦)- الإسراء ١٧/٥٩.

(٧)- فُصّلت ٤١/١٧.

(٨)- سبأ ٣٤/١٥.

(٩)- النمل ٢٧/٢٢.

وقال الشاعر:(١)

مِنْ سَبَأَ الحاضِرِينَ مأربَ إذ　　　يَبْنونَ مِنْ دُونِ سَيْله العَرِما(٢)

وقال في الصرف للنابغة الجعدي:

أَضْحَتْ يُنَفِّرُها الولدانُ من سَبَأٍ　　　كأنّهم تحت دَفَّيْها دَحاريجُ(٣)››

من الواضح أن سيبويه لا يقدم شعراً على أي القرآن الكريم بشكل مضطرد، وإنما يغير طريقة استدلاله دون أنْ يجعل للشعر المكانة الأولى، وفي الأمثلة السابقة رأيناه يبدأ بالقرآن الكريم ثم بالشعر فالمهم عنده أن يصل إلى استنباط قواعده ووضع أصولها.

نلحظ أمراً آخر من استقرائنا لاستدلال سيبويه بالقرآن الكريم، وهو أنه يقسم الآيات القرآنية قسمين؛ الأول منهما يضمّ آيات لاخلاف في قراءتها، ولا ظواهر إعرابيةً مختلفةً فيها، والثاني منهما ما تعددت وجوه القراءة فيها، واختلف القرّاء فيها كذلك.

ونراه في القسم الأول الذي لم يختلف القرّاء في قراءته، يضعه سيبويه في بداية كلامه ويقدّمه على الشعر، وكلام العرب بشكل عام؛ من ذلك ما بدأ به عن حذف التنوين، وإضافة الاسم بآيات من القرآن الكريم استدلّ بها أولاً ولم يشر إلى أي وجه من وجوه القراءات الأخرى؛ يقول سيبويه: ‹‹وليس يغيّر كفُّ التنوين، إذا حذفته مستخفّاً، شيئاً من المعنى، ولا يجعله معرفةً. فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: **(كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ)**(٤)، و**(إنّا مرسلو الناقةِ)**(٥)، و**(ولَوْ ترَى إذِ المجرمونَ ناكِسُو رؤوسِهِمْ)**(٦)

---

(١)- هو النابغة الجعدي. ديوانه ١٣٤ تح: عبد العزيز رباح دمشق ١٣٨٤هـ. والإنصاف ٥٠٢، لسان العرب (دحرج).

(٢)- هم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. الحاضرون: المقيمون على الماء، والمحاضر: مياه العرب التي يقيمون عليها. ومأرب: أرض باليمن، والعَرِم: جمع عرمة، وهي السدّ. والشاهد فيه: ترك صرف (سبأ) على معنى القبيلة والأم. ولو أمكنه الصرف على معنى: الحيّ والأب لجاز. وقد قرىء بهما في الكتاب الكريم: **(وجئتك من سبأ)**.

(٣)- وصف ناقة مرّ فوقها بحيّ سبأ، مجتازاً عليهم في زيّ الأعراب، فعرض له الصبيان منكرين له محيطين به تعجّباً، فجعلوا يُنَفِّرون ناقته عن يمين وشمال، فشبّههم بالدحاريج. والدفّان: الجنبان. والدحاريج: جمع دحروجة، بالضمّ، وهي ما يدحرجه الجُعَلُ من البنادق، أو ما تدحرج من القدر. والشاهد فيه: صرف (سبأ) على معنى الحي. الكتاب ٣/٢٥٢-٢٥٣.

(٤)- آل عمران ٣/١٨٥.

(٥)- القمر ٥٤/٢٧.

(٦)- السجدة ٣٢/١٢.

و (غيرَ مُحِلّي الصيدِ)(١). فالمعنى معنى: (ولا آمّينَ البيتَ الحرامَ)(٢).

ويزيد هذا عندك بياناً قوله تعالى جَدُّه: (هَدْياً بالِغَ الكعبةِ)(٣) و (عارِضٌ مُمطِرُنا)(٤) فلو لم يكن هذا في معنى النكرة والتنوين لم توصف به النكرة. وستراه مفصّلاً أيضاً في بابه مع غير هذا من الحجج إن شاء الله.

وقال الخليل: هو كائنُ أخيك، على الاستخفاف، والمعنى: هو كائنٌ أخاك. ومما جاء في الشعر غيرَ منوّن قول الفرزدق:

أتاني على القعساءِ عادِلَ وَطْبِهِ ... برِجْلَيْ لئيمٍ واسْتِ عبدٍ تُعادِلُهْ(٥)

يريد: وعادلاً وَطْبَهُ. وقال الزِّبْرِقان بن بدر:

مُسْتَحقِبي حَلَقِ الماذِيِّ يَحفِزُه ... بالمشرفيِّ وغاب فوقَه حَصِدُ(٦)

---

(١)- المائدة ٥/١.

(٢)- المائدة ٥/٢.

(٣)- المائدة ٥/٩٥.

(٤)- الأحقاف ٤٦/٢٤.

(٥)- ديوان الفرزدق ٧٣٧(نشر الصاوي ١٣٥٤هـ). القعساء: الناقة المحدودبة من الهزال. والوطب: سقاء اللبن. عَدَل وطبه برجليه واسته، اي جعلهما عدلاً له، أي جعل وطبه في ناحية من الراحلة معادلاً له. والعِدلان: ما يوضعان على جنبي البعير. وشاهده حذف التنوين من (عادل) وإضافته إلى ما بعده استخفافاً.

(٦)- وصف جيشاً وفرسانه. استحقبوا الحلق: جعلوه في حقائبهم، وهي مآخير الرحال، والمراد لبسهم للدروع، كأنه استحقاب. والحلق: جمع حلقة. والماذي: الدروع الصافية الحديد، اللينة الملمس، واحدته ماذية. يحفزه: أراد يحفز الماذي: يرفعه ويشمره. والضمير المستتر للجيش، ولذلك وحّد الضمير. بالمشرفيّ، أي بالسيف المنسوب إلى المشارف، وهي قرى بالشام تُطبع بها السيوف. وأراد يحفزه بحمائل المشرفيّ يرفع بها الدروع. والغاب: الرماح، شُبّهت بمنبتها، وهو الغاب: جمع غابة. والحصِد: الصلب الشديد المحكم. والشاهد فيه كنحو ما قبله، في (مستحقبي)حيث حذف النون كما حذف التنوين هناك. الكتاب ١/١٦٦-١٦٧.

ففي كلّ الآيات السابقة لم يثر سيبويه أي خلاف في القراءة لذلك جعلها في بداية كلامه، ثم أتبعها بكلام العرب نقلاً عن شيخه الخليل، ثم جاء بالشعر، ووضعه في المقام الأخير. ومثل ذلك النهج كثير في كتابه(١).

ونراه في القسم الثاني الذي ذكَرَ فيه سيبويه غير قراءة في الآية الواحدة، يؤخر الاستدلال بالقرآن الكريم إلى آخر الأمر، وكأنه يوحي لنا أنه يرجئ ما اختلفت قراءاتُه إلى موضع تكون القاعدة فيه قد ثبتت من خلال كلامِ العرب شعرِهم ونثرِهم؛ من ذلك حديثه في (باب ما ينتصب على إضمار الفِعْل المتروكِ إظهارُه من المصادر في غير الدعاء): «وقد جاء بعض هذا رفعاً يُبتدأ، ثم يُبْنى عليه. وزعم يونسُ أنّ رؤبةَ بنَ العجّاج كان يُنشِد هذا البيت رفعاً، وهو لبعض مَذْحِجٍ، وهو هُنَيٌّ بن أحمرَ الكناني:

عَجَبٌ لتلك قضيّةٌ وإقامتي　　　فيكمْ على تلك القضيّةِ أعجبُ(٢)

وسمعنا بعض العرب الموثوقَ به، يقال له: كيفَ أصبحتَ؟ فيقولُ: حمدُ اللهِ وثناء عليه، كأنّه يحمله على مضمرٍ في نيّته هو المظهَرُ، كأنّه يقول: أمري وشأني حمدُ الله وثناء عليه. ولو نَصَبَ لكان الذي في نفسه الفعلَ، ولم يكن مبتدأ ليبنى، ولا ليكون مبنياً على شيءٍ هو ما أظهَرَ. وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به يَرويه:

فقالت حنانٌ ما أتى بك ههنا　　　أذو نَسَبٍ أمْ أنتَ بالحيِّ عارفُ(٣)

---

(١)- انظر الكتاب ١/١٤٢-١٤٣، ٢/٣٢٥، ٣/١٦٢، ٢٥٢، ٤/١٥٥.

(٢)- اختلف في قائله، وكان الشاعر ممن يبرّ أمّه، ويخدمها، وكانت مع ذلك تؤثر أخاً له عليه، يقال له (جندب)، وقبله:

وإذا تكون كريهة أُدعى لها　　　وإذا يُحاس الحيسُ يدعى جندبُ

فعجب من ذلك، ومن صبره عليه. والشاهد فيه: رفع (عجب) على إضمار مبتدأ، أي أمري عجب. ويجوز أن يرفع على أنه مبتدأ، وإن كان نكرة لوقوعه موقع المنصوب، ويتضمن من الوقوع موقع الفعل ما يتضمن المنصوب، فيستغنى عن الخبر، لأنه كالفعل والفاعل، فكأنّه قال: أعجبُ. الكتاب ١/٣١٩ (حاشية) والخزانة ١/٢٤١.

(٣)- البيت للمنذر بن درهم الكلبي. والحنان: الرحمة. سألته عن علّة مجيئه، أله قرابة بها أم له معرفة بحيّها. قالت ذلك حين فاجأها فأنكرته أو تظاهرت بإنكاره. والشاهد فيه: رفع (حنان) بتقدير مبتدأ، أي أمرنا حنان، وهو نائب عن المصدر الواقع بدلاً من الفعل. الكتاب ١/٣٢٠ والخزانة ١/٢٧٧.

لم تُرِد: حِنّ، ولكنها قالت: أمرُنا حنان، أو ما يصيبنا حنان، وفي هذا المعنى كلّه معنى النصب.

ومثله في أنّه على الابتداء وليس على فعلٍ قوله عزّ وجلّ: «قالوا مَعْذِرَةٌ إلى ربّكم»(١)

فقد ترك الاستدلال بالآية الكريمة مختاراً قراءة(٢) من رفع (معذرة)، ومن ذلك أيضاً أنه في باب (أسماء السور) إذا اختار للاستدلال آياتٍ، واختار إحدى القراءات، وأشار إلى وجود قراءة أخرى، فإنه يقدّم الشعر على الآيات الكريمة نحو:

«وأمّا (حم) فلا ينصرف، جعلته اسماً للسورة، أو أضفته إليه، لأنهم أنزلوه بمنزلة اسم أعجميّ، نحو هابيل، وقابيل. وقال الشاعر، وهو الكُمَيْت(٣):

وجدْنا لكم في آل حاميمَ آيةً ... تأوّلَها منّا تقيٌّ ومُعْرِبُ(٤)

وقال الحِمّاني(٥)

أو كُتُباً بيّنَّ مِن حاميما ... قد عَلِمَتْ أبناءُ إبراهيما(٦)

وكذلك: طاسينُ، وياسينُ.

---

(١)- الأعراف ٧/١٦٤ والكتاب ١/٣١٩-٣٢٠.

(٢)- استدل بها على قراءة الرفع في (معذرة) وهي قراءة العشرة إلاّ حفصاً عن عاصم، فإنه قرأ بالنصب. انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٦٣ والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني١١٤.

(٣)- انظر المقتضب ١/٢٣٨، ٣/٣٥٦، وخزانة الأدب ٢/٢٠٩ واللسان (حمم).

(٤)- البيت في بني هاشم، وأراد بآل حاميم السور التي أوّلها حم، فجعل حاميم اسماً للكلمة، ثم أضاف السور إليها إضافة النسب إلى القرابة كما تقول: آل فلان . والشاهد فيه: ترك صرف (حاميم) لشبهه بما لاينصرف للعلمية والعجمة نحو: هابيل، وقابيل.

(٥)- انظر المقتضب ١/٢٣٨ والمخصص لابن سيده ١٧/٣٧.

(٦)- يذكر أنّ القرآن، وما اشتمل عليه من شأن رسالة الرسول معلوم عند أهل الكتاب. وخصّ سور حاميم لكثرة ما فيها من القصص والتبيين. وأراد بأبناء إبراهيم: أهل الكتاب من بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. والشاهد فيه: ترك صرف (حاميم). انظر الكتاب ٣/٢٥٧.

واعلم أنه لا يجيء في كلامهم على بناء: حاميمَ وياسينَ، وإن أردت في هذا الحكايةَ تركته وقفاً على حاله. وقد قرأ بعضُهم: (**ياسينَ والقرآنِ**)(١)، و(**قافَ والقرآنِ**)(٢). فمن قال هذا فكأنّه جعله اسماً أعجمياً، ثم قال: أذكُرْ ياسينَ››(٣). ومثل ذلك كثير في كتابه(٤)

لم يكن وضع الآية الكريمة، والاستدلال بها في آخر المعالجة النحوية يضعف من قيمتها كما بيّنت، ولكنه قد يأتي تأكيداً لما سبق، وإحاطة بعناصر الفكرة، ودعماً لها، وهو ما يعبّر عنه أحياناً بعبارة تشعرنا بأنّ للآية المقام الأول كقوله في (باب الجزاء) ‹‹فهكذا جرى هذا في كلامهم. ألا ترى أنه قال عزّ وجلّ: (**وإنْ لم تغفِرْ لنا وترْحمْنا لنكونَنَّ من الخاسِرين**)(٥) وقال عزّ وجلّ: (**وإلاّ تغفِرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين**)(٦)››

ونراه أحياناً يبتعد عن الاستدلال بآيات القرآن الكريم في أبحاث معينة تتعلّق بالألقاب، وما ينصرف وما لا ينصرف من بنات الياء والواو التي الياءات، والواوات منهنّ لامات، والإضافة إلى فَعِيل، وفُعَيل من بنات الياء، والواو، وغير ذلك حتى جاوز ابتعاده هذا ما يزيد على مئتي صفحة(٧)، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى غزارة كلام العرب شعراً ونثراً في الموضوعات، وبالمقابل فهو يكثر من الاستدلال بالقرآن الكريم في أبحاث معينة كالجزاء والقسم(٨) كما أشرنا سابقاً.

---

(١)- يس ٣٦/١-٢ وفتح النون في (ياسينَ) هي قراءة عيسى بن عمر، وعبد الله بن أبي إسحاق. المختصر لابن خالويه١٢٤ والبحر المحيط٧/٣٢٢.

(٢)- ق ٥٠/١-٢ وفتح الفاء في (قافَ) هي قراءة عيسى بن عمر. انظر المختصر لابن خالويه١٤٤، والبحر المحيط٨/١٢٠.

(٣)- الكتاب ٣/٢٥٧-٢٥٨.

(٤)- انظر الكتاب ١/١٥٣-١٥٤، ١٧٣-١٧٤، ٤٣١-٤٣٢، ٣/١٣٤ .

(٥)- الأعراف ٧/٢٣.

(٦)- هود ١١/٤٧، الكتاب ٣/٦٦.

(٧)- انظر المصدر السابق ٣/٢٩٤-٤٩٦.

(٨)- انظر المصدر السابق ٣/٥٦-١١٤، ٤٩٦-٥٠٤.

والسؤال الذي يفرض نفسه: ما السبب الذي جعل سيبويه لا يعوّل على الأعراب في قراءة القرآن، حتّى إنّه يأخذ قراءة الأعرابي، ويعرضها على شيوخه كما جرى بينه وبين الخليل، وبينه وبين يونس وغيرهم؟

وأظنّ أن الدافع وراء ذلك هو طبيعة الأعرابي، وتلقيه للقرآن الكريم، وقراءته له فهو يأخذ القرآن، لكنه يتلوه بين أهله بسليقته التي فُطر عليها، بما فيها من لهجات دون أن يعتمد أيَّ شيء من النقل، ورسم القرآن، وهذا ما يدفعه إلى شيء من التسمّح في استخدام لهجته. والقراءة عند سيبويه سنّة متّبعة لا تخالف، لذلك كان يسمع قراءة الأعراب، فيسأل عنها، ويستدل بها إذا اطمأنَّ إليها من حيث السلامة والصحة(١)

(١)- انظر المصدر السابق ٢/٦٣، وانظر القراءات القرآنية لعبد الهادي الفضلي ٦٠ دار القلم١٩٨٠

٢- القراءات القرآنية والقراء :

بعد أن وقفنا على موقف سيبويه في كتابه من لغة القرآن الكريم، وطريقة استدلاله بها، نرى أن للقراءات القرآنية وقرائها مكانة متممة لاستدلاله بالقرآن، فهو يرى أن القراءات القرآنية سنّة تُتّبع ولا تصحّ مخالفتها(١) وفي هذا إيضاح لرأيه في القراءات، على الرغم من أننا نراه في بعض المواضع يضعّف قراءة (٢)، ويردّ أخرى(٣)، والأمر نفسه نجده عند الخليل بن أحمد(٤).

ولم يكن في ذهن سيبويه حين يعالج القراءات القرآنية في تناولاته النحوية أيُّ تقسيم لهذه القراءات من حيث إنها قراءة سبعيّة أو عشريّة ، أو شاذة، أوغير ذلك من التقسيمات التي وجدت في وقتٍ متأخرٍ عن عصره، في القرن الرابع الهجري(٥) وهذا التباعد الزمني هو الذي خلق خلافاً بين نظرة سيبويه من جهة والنحاة المتأخرين من جهة أخرى.

ولم يصل استدلال سيبويه بالقرآن الكريم إلى الحدّ الذي وصل إليه استدلاله بالشواهد الشعرية؛ فقد بلغت شواهده القرآنية ثلاثمائة وسبعة وتسعين شاهداً في الوقت الذي بلغت شواهده الشعرية ألفاً وستة وخمسين بيتاً، وهذا الأمر لايعني أنّه اهتم بلغة الشعر أكثر من اهتمامه بلغة القرآن الكريم، لكنّ

---

(١)- انظر الكتاب ١/١٤٨.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٥٨.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٣٩٧.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٨٣. وانظر مكانة الخليل لعبابنة ٤٤.

(٥)- تمّ التصنيف الدقيق للقراءات على يد أبي بكر بن مجاهد (٢٤٥-٣٢٤ هـ)، وهو أحمد بن موسى التميمي كبير العلماء بالقراءات، له (كتاب القراءات الكبير)، و (قراءة ابن كثير)، و (قراءة أبي عمرو)، و (قراءة عاصم)، و (قراءة نافع)، و (قراءة حمزة)، و(قراءة الكسائي)، و(قراءة ابن عامر)، و (قراءة النبي"ص")، و(كتاب الياءات)، و(كتاب الهاءات). انظر الفهرست لابن النديم ١/٣١. وغاية النهاية لابن الجزري ١/١٣٩. وانظر الاحتجاج للحلواني ٤٩.

طبيعة الأعراب الذين نقل عنهم في استقرائه اللغوي وضعته أمام شاهد حيّ على ناطقي اللغة بسلائقهم، وهؤلاء الأعراب إنما يقرؤون القرآن متأثرين بلهجتهم الخاصة بقبائلهم غير آبهين بالنقل الدقيق للقراءة، أو بالرسم القرآني، وهذا مادفع سيبويه -وهو الذي لايخالف القراءة القرآنية لأنها عنده سنّة متبعة- لأن يسأل عن القراءة شيخَه يونسَ ليتأكد من صحتها وموافقتها لأساليب العرب؛ من ذلك قوله: ‹‹وسمعنا بعض العرب يقول: (**الحمدَ للهِ ربَّ العالمين**)(١) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية››(٢) نصباً على التعظيم والمدح.

طرائق الاستدلال بلغة القرآن :

سلك سيبويه في كتابه طرقاً عديدة في استدلاله بلغة القرآن، وقراءاته، وهذه الطرق وإنْ تعددت، فإنها تعتمد القراءة المتواترة، والشاذة بشكل عام، والقياس عليها، والإشارة إلى ضعف ماخالف الأصول اللغوية المستقراة.

١- أخذه بقراءة الجمهور دون إشارة إلى غيرها:

اهتم سيبويه بالقرآن الكريم، وحرص على الاستدلال بالقراءات القرآنية، وكثيراً ما كان يذكر قراءة الجمهور، ويورد آيات كثيرة تؤيد القراءة التي اختارها، ويقصر استدلاله هنا على القراءة التي اختارها دون أن يشير إلى قرّاء آخرين ممن لهم اختياراتهم في هذه القراءات.

من ذلك قوله(٣)‹‹وتقول ماكان أخاك إلاّ زيد، كقولك ما ضرب أخاك إلاّ زيد. ومثل ذلك قوله عزّ وجلّ: **ما كان حجَّتَهم إلاّ أنْ قالوا**(٤)، و **ما كان جوابَ قومه إلاّ أنْ قالوا**(٥)››. فقد أشار

---

(١)- الفاتحة ١/ ٢. وقراءة النصب لزيد بن علي. انظر البحر المحيط ١/ ١٩.

(٢)- الكتاب ٢/ ٦٣.

(٣)- المصدر السابق ١/ ٥٠.

(٤)- الجاثية ٤٥/ ٢٥.

(٥)- الأعراف ٧/ ٨٢.

سيبويه إلى قراءة الجمهور، واستدلّ بها في الآيتين للوصول إلى صحة تقديم خبر كان على اسمها، ولم يشر إلى قراءة الحسن (١) برفع (حجّتُهم)، وكذلك رفع (جوابُ) بقراءة حمّاد بن سلمة والحسن(٢) ومنه قوله تعالى: **الزّانيةُ والزّاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائةَ جلدةٍ** (٣) وقوله: **والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما** (٤) وقوله: **سورةٌ أنزلناها وفرضناها**(٥) فقد أخذ سيبويه بقراءة الجمهور (٦) من دون إشارة إلى قارئ يخالف قراءة الجمهور على الرغم من تعدّدهم؛ فقد قرأها(**الزانيةَ والزاني**) بالنصب عيسى بن عمر الثقفي، ويحيى بن يعمر ، وعمرو بن فائد، وأبو جعفر، وغيرهم (٧)، وقرأ (**والسارقَ والسارقةَ**) بالنصب أيضاً عيسى بن عمر، وابن أبي عبلة(٨) وقرأ(**سورةٌ**) عيسى بن عمر(٩).

فسيبويه يأخذ بقراءة الجمهور دون إشارة إلى أيّ قارئ، ووجه قراءته لهذه الآيات التي كان للنحاة رأي في توجيهها. ومثل ذلك كثير في كتابه(١٠)

---

(١)- انظر البحر المحيط ٨/٤٩، وانظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٣٩٠.

(٢)- انظر مختصر ابن خالويه ٢٣، ومشكل إعراب القرآن لمكي القيسي ٢/٢٩٧، وإعراب النحاس ٢/٥٢٩، والبحر المحيط ٤/٣٣٤.

(٣)- النور ٢٤/٢.

(٤)- المائدة ٥/٣٨.

(٥)- النور ٢٤/١.

(٦)- انظر الكتاب ١/٤٩،٥٠،١٤٢،١٤٣،١٤٤.

(٧)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٦٥-١٦٦. ومعاني القرآن للفراء ١/٣٠٦، وانظر ١/٢٤١، ٢/٢٤٤. وإعراب القرآن للنحاس ٢/٤٣١.

(٨)- انظر البحر المحيط ٣/٤٧٦، ٦/٤٢٧.

(٩)- انظر المحتسب لابن جني ٢/٩٩-١٠٠.

(١٠)- انظر الكتاب ٢/٣٩،٣٥٥، ٣/١٢٦،١٥٤.

٢- أخذه بقراءة الجمهور ثم الإشارة إلى غيرها:

أسلوب آخر من أساليب سيبويه نرى فيه أنه يورد القراءة القرآنية، ثم يشير إلى غيرها من القراءات بما يدعم القاعدة النحوية عنده، ويعلل اختياره لإحداها سواء أكان هذا الاختيار لقراءة الجمهور أم لغيرها؛ من ذلك قوله تعالى **أنْ تضِلَّ إحداهما فتُذكِّرَ إحداهُما الأخرى** (١) بنصب (فتذكّرَ) عطفاً على (تضلَّ)، وهي قراءة الجمهور، ثم يشير إلى قراءة أهل الكوفة (فتذكّرُ) رفعاً(٢)، وفي موضع آخر يقول:‹‹وقد قرئ هذا الحرف على وجهين: **قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة** (٣) بالرفع والنصب››(٤) في كلمة (خالصة)، ويقول ‹‹وقد قرأ الناس هذه الآية على وجهين: **قل إنّ ربي يقذف بالحق، علّامُ الغيوب**(٥)، و(**علّامَ الغيوب**)(٦) فقراءة الرفع هي قراءة الجمهور، وقراءة النصب لعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق، وزيد بن علي، وابن أبي عبلة وغيرهم(٧). ولم يكن الخليل بعيداً عن القراءة التي يختارها سيبويه، وكثيراً ماكان سيبويه يَسأل أستاذَه عن رأيه في هذه القراءة أو تلك ويتلقى إجابة معلّلة للوجه المختار؛ من ذلك قوله تعالى: **كلاّ إنّها لظى، نزّاعةً للشوى**(٨) و **هذا بعلي شيخٌ**(٩) في حديثه عمّا يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة(١٠).

---

(١)- البقرة ٢/٢٨٢.

(٢)- انظر الكتاب ٣/٥٣-٥٤، وقوله (أهل الكوفة) فيه إطلاق يفتقر إلى الدقة؛ لأن صاحب القراءة هو حمزة فقط من الكوفيين ووافقه الأعمش. انظر تفصيل ذلك في البحر المحيط ٢/٣٤٨-٣٤٩، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي ١٦٦.

(٣)- الأعراف ٧/٣٢.

(٤)- الكتاب ٢/٩١، وانظر معاني القرآن للفراء ١/٣٥٨، والمختصر لابن خالويه ٤١ والمحتسب لابن جني ١/٢٣٢، والبحر المحيط ٤/٢٣١.

(٥)- سبأ ٣٤/٤٨.

(٦)- الكتاب ٢/١٤٧.

(٧)- انظر البحر المحيط ٧/٢٩٢.

(٨)- المعارج ٧٠/١٥.

(٩)- هود ١١/٧٢.

(١٠)- رفع (نزاعةٌ)، و(شيخٌ) هي قراءة ابن مسعود . انظر الكتاب ٢/٨٣.

وقوله تعالى: **وما يشعركم إنّها إذا جاءت لايؤمنون** (١) بكَسر همزة (إنّ) وفتحها فقد سأل سيبويه شيخه عن هذه القراءة فأجابه معلّلاً فتح همزة (أنّ) (٢)، وهذا كثير في كتابه(٣).

٣- عنايتـــه بقراءة بعض القرّاء:

تنوّعت القراءات في كتاب سيبويه، ووافقت معظم قراءات الأمصار، وعلى الرغم من أنه يرى أنّ القراءة سنّة تُتّبع ولاتصح مخالفتها(٤) فإننا نرى أنه يأخذ بقراءات بعض القرّاء أكثر من غيرهم، ومن خلال متابعتنا لقراءاته المختارة نرى أنّه أخذ بقراءة أبي عمرو بن العلاء، فالكسائي، فنافع ، فابن كثير، وحمزة، فيعقوب، فعاصم، فأبي بكر، فحفص، فابن عامر، فمجاهد، إضافة إلى قراءات كثيرة اختارها أو ذكرها لعيسى بن عمر وعبد الله بن أبي إسحاق، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب(٥).

إن لأخذ سيبويه بقراءة أبي عمرو أكثر من غيره من القرّاء مدلولاً خاصاً يظهر لنا أثر الخليل بن أحمد في اختيارات سيبويه، ذلك لأن الخليل تتلمذ على يد أبي عمرو، ولاشكّ في أنّه تأثر باتجاهاته النحوية واختياراته لقراءات معينة، وسيبويه بدوره أخذها عن الخليل، إذاً فسيبويه لم يأخذ عن أبي عمرو إلاّ من طريق الرواية عمّن روى عنه، وقد بلغ ذلك أربعاً وأربعين مرّة (٦) بين قراءة ولغـــــة.

---

(١)- الأنعام ٦/١٠٩.

(٢)- انظر الكتاب ٣/١٢٣.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٣٤٩.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/١٤٨.

(٥)- انظر الكتاب ٥/١٨١ وما بعدها، وفهارس كتاب سيبويه لعضيمة ٨٨٣ وما بعدها الطبعة الأولى ١٩٧٥، حواشي (فهرس شواهد سيبويه) للنفاخ، بيروت ١٩٧٠، والاحتجاج للحلواني ٤٩.

(٦)- انظر سيبويه إمام النحاة لناصف ٩٨.

من ذلك أنه اختار قراءة أبي عمرو لقوله تعالى: **خاشعاً أبصارُهُم** (١) وقوله: **ياعبادي فاتَّقون**(٢) وقوله: **أولي أجنحةٍ مثْنى وثُلاثَ ورُباعَ** (٣).

ومهما يكن من أمر ذكره لأصحاب القراءات فإن المواضع التي أغفل فيها أسماءهم كثيرة جداً، فنراه أحياناً لايذكر شيئاً عن القراءة وصاحبها، ونراه في مكان آخر يشير إليها إشارة غير واضحة كقوله: <<وقد قرئ هذا الحرف على وجهين>>(٤) وما شابه هذه العبارة، وكقوله: <<وبلغنا أنّ بعضهم قرأ هذا الحرف نصباً: **وامرأتهُ حمّالةَ الحطب**>>(٥) فنصبُ (حمّالةَ) قراءة معروفة لعاصم، وافقه عليها ابن محيصن، لكنّ سيبويه لم يشر إلى ذلك(٦).

٤- أخذه بقراءات لغير العشرة:

لم يتبع سيبويه أو الخليل قارئاً معيناً أو قراءة معيّنة إلا سعياً وراء تثبيت قاعدة وإقرار لغة، لذلك فإننا لانرى في اختياراته أسماء لأكابر القرّاء، بل يأخذ بقراءة لغير العشرة المعروفين (٧)

---

(١)- القلم ٦٨/٤٣، والمعارج ٧٠/٤٤، وفي المصحف (خاشعةً)، الكتاب ٢/٤٣.

(٢)- الزمر ٣٩/١٦. وفي المصحف (ياعبادِ)، الكتاب ٢/٢١٠.

(٣)- فاطر ٣٥/١، وانظر الكتاب ٣/٢٢٥.

(٤)- الكتاب ٢/٩١.

(٥)- المسد ١١١/٤. والكتاب ٢/٧٠.

(٦)- انظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٤٤٥.

(٧)- القرّاء العشرة هم:

*- نافع المدني: هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، أصله من أصفهان، وتوفي بالمدينة سنة تسع وستين ومائة.

*- ابن كثير هو عبد الله بن كثير المكي. وهو من التابعين. وتوفي بمكة سنة عشرين ومائة.

*- أبوعمرو البصري: وهو زبّان بن العلاء بن عمّار المازني البصري، وقيل اسمه يحيى. وتوفي بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة.

*- ابن عامر الشامي: وهو عبد الله بن عامر الشامي اليحصبي، قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، ويكنّى أبا عمران، وهو من التابعين، وتوفي بدمشق سنة ثماني عشرة ومائة. = = =

كاستدلاله بقراءة من نصب (أطهرَ) في قوله تعالى: **هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرَ لكم**(١) وهي قراءة الحسن، وزيد بن علي، وعيسى بن عمر وسعيد بن جبير وغيرهم من القراء عدا القرّاء العشرة(٢)، وقوله تعالى: **إنّ هذه أمتَكم أمةٌ واحدة**(٣) بنصب (أمتَكم) ورفع (أمةٌ) وهي قراءة الحسن(٤) ، وقوله تعالى: **تماماً على الذي أحسنُ**(٥) وهي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، والحسن، والأعمش(٦) ومثل ذلك كثير جداً(٧).

= = = *- عاصم الكوفي: هو عاصم بن أبي النجود، ويقال له ابن بهدلة، ويكنى أبا بكر، وهو من التابعين، وتوفي بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة.

*- حمزة الكوفي: هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي، ويكنى أبا عمارة، وتوفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة.

*- الكسائي الكوفي: هو علي بن حمزة النحوي، ويكنى أبا الحسن، وقيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء، وتوفي برنبوية قرية من قرى الريّ حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة.

*- أبو جعفر المدني: هو يزيد بن القعقاع، وتوفي بالمدينة سنة ثمان وعشرين ومائة.

*- يعقوب البصري: هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي، وتوفي بالبصرة سنة خمس ومائتين.

*- خلف: هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي، وتوفيّ سنة تسع وعشرين ومائتين.

انظر: تحبير التيسير لابن الجزري نقلاً عن البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة لعبد الفتاح القاضي ص٧، وانظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٨٨، وحجة القراءات لأبي زرعة ٥١ وما بعدها.

(١)- هود ١١/٧٨ وفي مصحفنا (أطهرُ)

(٢)- انظر الكتاب ٢/٣٩٦-٣٩٧ (الحاشية)، والمحتسب لابن جني ١/٣٢٦.

(٣)- الأنبياء ٢١/٩٢ وفي مصحفنا (**إن هذه أمتكم أمةً واحدة**).

(٤)- انظر: البحر المحيط ٦/٣٣٧.

(٥)- الأنعام ٦/١٥٤ وفي مصحفنا (أحسنَ).

(٦)- انظر البحر المحيط ٤/٢٥٥، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٢٢٠.

(٧)- انظر الكتاب ١/١٤٨، ٢/٦٣، ١١٩، ٣/٩٠، ١٤٣.

٥- أخذه بقراءات عدتها المتأخرون شاذة:

من خلال ماتناوله سيبويه في كتابه يتبين لنا أنه يحذو حذو أستاذه الخليل باستدلاله بقراءة عدتها المتأخرون شاذة من ذلك أنه نقل عمّن يوثق به من العرب أنّه قال: هذا عبد الله منطلق، فزعم الخليل أنّ رفعه على وجهين: الأول أنّ (منطلق) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: (هذا) أو (هو)، والثاني: ‹‹أن تجعلهما جميعاً خبراً لهذا، كقولك: هذا حلو حامض، لاتريد أن تنقض الحلاوة، ولكنك تزعم أنّه جمع الطّعمين. وقال الله عزّ وجلّ: **كلاّ إنها لظَى* نزّاعةٌ للشّوى**(١) وزعموا أنها في قراءة أبي عبد الله(٢): **هذا بعلي شيخٌ**››(٣) بالرفع وهي قراءة شاذة(٤) وفي مكان آخر نرى سيبويه يستدل بقوله تعالى: **وحوراً عيناً**(٥) على جواز حذف الفعل إذا دلّ عليه دليل، وهي قراءة لأبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود(٦) ومثل ذلك استدلاله على إعمال (إذن) في قوله تعالى: **وإذن لا يلبثوا خلفك إلاّ قليلاً** (٧) وهي قراءة أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود(٨).

وقد عالج كتاب سيبويه القراءة الشاذة بطريقة أخرى، فهو يتخذها دليلاً لإثبات قاعدة، وقياس ظواهر في لغة العرب نحو قول الشاعر(٩):

---

(١)- المعارج ٧٠/١٥.

(٢)- هو عبد الله بن مسعود، وأبو عبد الله كنيته.

(٣)- هود ١١/٧٢، الكتاب ٢/٨٣.

(٤)- انظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/٢٤٤، فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٢٧.

(٥)- الواقعة ٥٦/٢٢ وفي مصحفنا (**وحورٌ عينٌ**)

(٦)- انظر الكتاب ١/٩٥، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/٢٠٦.

(٧)- الإسراء ١٧/٧٦. وفي مصحفنا (**لايلبثون**).

(٨)- انظر البحر المحيط ٦/٦٦.

(٩)- البيت للحارث بن نهيك، ونُسب إلى يزيد بن نهشل، وغيره. انظر الكتاب ١/٢٨٨، وخزانة الأدب ١/١٤٧، وشرح المفصل ١/٨٠.

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبِطٌ ممّا تُطيحُ الطوائحُ(١)

فقد رفع (ضارع) بفعل محذوف دلّ عليه ما قبله (لِيُبْكَ) بتقدير: ليبكِهِ ضارعٌ. واستدل سيبويه على صحة ذلك بقوله تعالى: **وكذلك زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلُ أولادِهم شركاؤُهم**(٢) <<رفع الشركاء على مثل ما رُفع عليه ضارع>>(٣). ومن ذلك حديثه عن إلغاء عمل الأحرف المشبهه بالفعل واستدلاله بقول النابغة الذبياني(٤):

قالت ألا ليْتَما هذا الحمامُ لنا إلى حمامتِنا ونصفُه فَقَدِ(٥)

وقياسه على قوله تعالى: **إنّ الله لايستحي أنْ يَضْرِبَ مثلاً ما بعوضةٌ فما فوقها**(٦). بقراءة من رفع (بعوضة)(٧)

ويجعل سيبويه نقلاً عن الخليل بن أحمد القراءة الشاذة أصلاً يقيس عليه القراءة القرآنية المتواترة كقوله:<< وأمّا(**هذا مالَديَّ عتيدٌ**) (٨) فرفعه على وجهين، على : شيءٌ لديَّ عتيدٌ وعلى

---

(١)- يزيد هو يزيد بن نهشل الذي رثاه الشاعر. والضارع: الذليل الخاضع. لخصومة: أي لأجل الخصومة، فهو ينصره ويؤيده. والمختبط: طالب العرف. تطيح: تذهب وتهلك. والطوائح، أراد المطاوح لأنه جمع مطيحة، فجمعه على حذف الزيادة، كقوله تعالى: (**لواقح**) واحدتها ملقحة. والشاهد فيه رفع (ضارع) بإضمار فعل دلّ عليه ماقبله، تقديره: ليبك يزيدَ ضارعٌ. الكتاب ٢٨٨/١ وشرح أبيات سيبويه للنحاس ١٣٢.

(٢)- الأنعام ١٣٧/٦. وهي قراءة الحسن البصري، والسلمي، وأبي عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر. انظر معاني القرآن للفراء ٣٥٧/١، والمحتسب لابن جني ٢٣١/١، مشكل إعراب القرآن لمكيّ القيسي ٢٩١/١، البحر المحيط لأبي حيان ٢٢٩/٤، النشرفي القراءات العشر لابن الجزري ٢٦٣/٢. وفي مصحفنا (**وكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلَ أولادِهم شركاؤُهم**) وهي قراءة ابن عامر. انظر المصادر السابقة.

(٣)- الكتاب ٢٩٠/١.

(٤)- الخصائص ٤٦٠/٢، شرح المفصل لابن يعيش ٥٨،٥٤/٨، همع الهوامع ١٤٣،٦٥/١.

(٥)- يذكر النابغة هنا زرقاء اليمامة وما كان من أمرها حين نظرت إلى سرب القطا طائراً، وكان عدده ستّا وستين، فإذا ضُمَّ إليه نصفه في العدد وأضيف إلى الحمامة تمّ الحمامُ مائة. الكتاب ١٣٧/٢.

(٦)- البقرة ٢٦/٢ وفي مصحفنا (**بعوضةً**).

(٧)- هي قراءة الضحاك، وإبراهيم بن أبي عبلة، ورؤبة بن العجاج، وقطرب، ولها وجوه إعرابية كثيرة منها أنّ (بعوضةٌ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) أو (هي). انظر الكتاب ١٣٨/٢، البحر المحيط ١٢٢/١-١٢٣، روح المعاني للآلوسي ٢٠٧/١، توجيه النحاة للقراءات الشاذة لمحمود الصغير ١٠٩،٦٤،٦٢، (رسالة ماجستير- جامعة حلب) ١٩٨٥.

(٨)- سورة ق٢٣/٥٠ وهي قراءة متواترة، أما قراءة (عتيداً) بالنصب فهي قراءة ابن مسعود؛ انظر مختصر ابن خالويه١٤٤.

هذا بَعْلِي شيخٌ(١)»

ويقيس قراءة متواترة ويستدلّ لها بقراءة شاذّة في قوله: «وكان عيسى يقرأ هذا الحرف: **فدَعَا ربَّهُ إنِّي مغلوبٌ فانتصِرْ**(٢) أراد أن يحكي، كما قال عزّ وجلّ: **والذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبُدُهُم**(٣) كأنّه قال، والله أعلم: قالوا: (ما نعبدهم). ويزعمون أنها في قراءة ابن مسعود كذا. ومثل ذلك كثير في القرآن.»(٤)

٦- نظرات في استدلاله بالقراءات:

إذا أردنا أن نعرف موقف سيبويه وأستاذه الخليل من القراءات القرآنية فلا بد لنا من الإشارة إلى أن موقف الاثنين هو موقف واحد، تأثراً وتأثيراً، وما الأحكام التي أطلقها التلميذُ إلاّ أحكامُ أستاذه، وكل مواقف الخليل تبنّاها سيبويه بدليل أنه في معرض حديثه عنها لانلمس ما يشير إلى مخالفة في الرأي أو تباين في معالجة أيّ من المسائل النحوية.

أما ما نُسب إلى الخليل من تهجّم على القرآن الكريم وقراءاته(٥)، لاسيما القراءات التي كان للعلماء فيها اتجاهاتٌ متعددة فهو غير صحيح، وإذا أردنا أن نكشف النقاب عن حقيقة موقفه من القراءات فإننا لانجد أمامنا إلاّ كتاب سيبويه، فهو المصدر الوحيد الذي نرى فيه موقف الاثنين من القراءات القرآنية.

---

(١)- هود ٧٢/١١، وهي قراءة ابن مسعود؛ انظر الكتاب ٨٣/٢، ١٠٦ والاحتجاج للحلواني٥١.

(٢)- القمر١٠/٥٤ وهي قراءة عيسى بن عمر، وهي في مصحفنا(**أنّي مغلوبٌ**) بفتح همزة (أنّ).

(٣)- الزمر ٣/٣٩.

(٤)- الكتاب ١٤٣/٣ وانظر سيبويه إمام النحاة لناصف ٨٥.

(٥)- انظر: أبو زكريا الفرّاء، ومذهبه في النحو واللغة لأحمد مكّي الأنصاري ٣٨٣ نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٩٦٢، وانظر مكانة الخليل لعبابنة ٤٤.

يرى سيبويه -وهو موقف الخليل- أنّ القراءة سنّة لاتخالف -كما مرّ بنا- فهو يستدل بالقرآن الكريم، وقراءاته، معلّلاً حيناً، ومجيزاً أكثر من قراءة حيناً آخر، أو ملتزماً الصمت أمام القراءات التي تخالف الشائع من لغة العرب، من دون أن يتعرض لها؛ من ذلك أنه لم يتعرض لقراءة ابن عامر لقوله تعالى: **وكذلك زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهم**(١) ولم يشر إلى عدم جواز الفصل بين المضاف إليه بشيء إلاّ في الضرورة الشعرية(٢) ولم يتعرض لقراءة حمزة الزيات لقوله تعالى: **واتقوا اللهَ الذي تساءلون بهِ والأرحامِ** (٣) في نقله عن العرب أنهم لايعطفون الاسم الظاهر على الضمير المجرور(٤)، وكذلك لم يتعرض لقراءة نافع لقوله تعالى: **وجعلْنا لكم فيها معائشَ** (٥) بالهمز في (معايش) على الرغم من أنّه لايجيز الهمز في هذا الموضع(٦). فإذا كان سيبويه، أو الخليل لايسلّم بقراءات القرآن لكان قد تعرض لهذه القراءات وظهر موقفه منها، لاسيما أنها تخالف لغة العرب.

ولم يكتف سيبويه بعدم تعرضه لما خالف لغة العرب من القراءات القرآنية، بل ذهب إلى حدّ الأخذ بالقراءات الشاذة -كما بيّنا- والقراءات التي تعتمد لغة قلّة من العرب إذ صحّ إسنادها؛ من ذلك قراءة أهل مكة لقوله تعالى: **فاستجاب لكم أنّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدَفين**(٧).

---

(١)- الأنعام ٦/١٣٧، وانظر حجة القراءات لأبي زرعة ٢٧٣ وفي مصحفنا (**وكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلَ أولادِهم شركاؤهم**).

(٢)- انظر الكتاب ١/١٧٦.

(٣)- النساء ٤/١، وانظر حجة القراءات لأبي زرعة ١٨٨ وفي مصحفنا (**والأرحامَ**).

(٤)- انظر الكتاب ٢/٣٨١-٣٨٢.

(٥)- الأعراف ٧/١٠، والحجر ١٥/٢٠ وانظر مختصر ابن خالويه ٤٢ وفي مصحفنا(**معايش**).

(٦)- انظر الكتاب ٤/٣٥٥.

(٧)- الأنفال ٨/٩ ، وانظر البحر المحيط ٤/٤٥٦، مختصر ابن خالويه ٤٩، والمحتسب لابن جنّي ١/٢٧٢.

أي مُرتَدِفين، ولم يعلّق عليها قبولاً، أو ردّاً على الرغم من أنها لغة قليلة، وهذا شأن الخليل أيضاً(١).

وفي مواضع كثيرة نجد سيبويه -وهو ينقل عن الخليل- يلجأ إلى التعليل المباشر الواضح في معرض تناوله لقراءة ما؛ من ذلك موقفه من قراءة أبي عمرو بن العلاء لقوله تعالى : **فقد جا أشراطها**(٢) وقوله: **يا زكريا إنّا نبشّرك**(٣) بتخفيف الهمزة في (جاء، وزكرياء)، وتحقيقها في (أشراطها، وإنا)؛ يقول الخليل مبرراً ميله إلى تحقيق الهمزة الأولى إذا التقت همزتان: «إنّي رأيتهم حين أرادوا أن يُبدلوا إحدى الهمزتين اللتين تلتقيان في كلمة واحدة أبدلوا الآخرة، وذلك: جائِ ، وآدم. ورأيت أبا عمرو أخذ بهنّ في قوله عزّ وجلّ: **ياويلتا ءألدُ وأنا عجوز**(٤) وحقق الأولى. وكلٌّ عربيّ. وقياس من خفَّف الأولى أن يقول: يا ويلتا األِدُ»(٥) وواضح من كلام سيبويه والخليل أنّ أبا عمرو قرأ على وجهين، وهما فضّلا إحداهما من غير أن يردّا الثانية أو ينكراها.

وأولى سيبويه المعنى أهمية خاصة، ووجّه تعليلاته صوبه، وقد يردّ قراءة ويقبل أخرى اهتماماً منه بمعنى أكثر صواباً من غيره؛ من ذلك أنّه سأل الخليلَ عن قوله تعالى: **وما كان لِبَشَرٍ أنْ يكلّمَهُ اللهُ إلاّ وحياً، أو من وراءِ حجابٍ، أو يرسِلَ رسولاً، فيوحِيَ بإذنه ما يشاء**(٦) فأجابه بأنّ (يرسلَ) منصوب بأن مضمرة، وعَطَفَتْ (أو) المصدرَ المؤولَ (إرسالاً) على (وحياً)، ولما كان (يرسل) فعلاً، و (وحياً) اسماً، أضمرتْ (أنْ) ليسوّغ عطف الفعل على الاسم، ولايجوز عطف (يرسلَ) على (أن

---

(١)- روي عن الخليل أيضاً (مُرِدّفين) بكسر الراء إتباعاً لكسرة الدال، وأصلها (مُرتَدِفين). انظر الكتاب ٤٤٤/٤.

(٢)- محمد ١٨/٤٧. وفي مصحفنا (جاء).

(٣)- مريم ٧/١٩.

(٤)- هود ٧٢/١١.

(٥)- الكتاب ٥٤٩/٣.

(٦)- الشورى ٥١/٤٢.

يكلّفه) لأنّ المعنى يصبح فاسداً حينذاك(١).

أما موقف سيبويه من القراءات التي أشار إلى وجه قراءتها، فإنه يسلك مسالك متنوعة، منها أنه يصف القراءة بالقلّة كقراءة من قرأ: **ولاتَ حينُ مناصٍ**(٢) ووصفها بأنها قليلة(٣) وقد يشير إشارة خفية إلى ضعفها ، وذلك من خلال كلام سابق لها، نحو قوله: «واعلم أنّ كفى بنا فضلاً على مَنْ غيرُنا أجود، وفيه ضعف إلاّ أن يكون فيه (هو)؛ لأنّ (هو) بعض الصلة، وهو نحو: مررت بأيُّهم أفضلُ، كما قرأ بعض الناس هذه الآية: **تماماً على الذي أحسنُ**»(٤).

وقد يشير إلى قراءة بأنها جيدة ثم يعلل سبب اختياره هذا، ويدافع عن حكمه عليها، نحو قوله: «وقال عزّ وجلّ: **وإن تُخفُوها وتُؤتُوهَا الفقراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُم، ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِن سَيِّئاتِكُمْ**(٥) والرفع ههنا وجه الكلام، وهو الجيد؛ لأنّ الكلام الذي بعد الفاء جرى مجراه في غير الجزاء، فجرى الفعلُ هنا كما كان يجري في غير الجزاء»(٦)

---

(١)- انظر الكتاب ٤٩/٣.

(٢)- سورة ص ٣/٣٨، وفي مصحفنا (**ولاتَ حينَ**)، أما (**ولاتَ حينُ**) فهي قراءة عيسى بن عمر، وروي عنه (**ولاتِ حينِ**) بكسر التاء وجرّ النون، و(**ولاتَ حينُ مناصَ**) برفع النون وفتح (مناصَ) بعده، و(**ولاتِ حينَ**) بكسر التاء، ونصب النون. انظر مختصر ابن خالويه ١٢٩، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٨٤/٧.

(٣)- انظر الكتاب ٤٤٨/١.

(٤)- الأنعام ١٥٤/٦ وهي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، والحسن، والأعمش. انظر الكتاب ١٠٨/٢ والبحر المحيط لأبي حيان ٢٥٥/٤، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٢٢٠. وفي مصحفنا (**على الذي أحسنَ**).

(٥)- البقرة ٢٧١/٢ وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وأبي بكر عن عاصم. انظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ١٦٥، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٢٥/٢.

(٦)- الكتاب ٩٠/٣.

وقد ينقل رأي غيره، ويستدل به ليرد قراءة يرى أنها لحن؛ فهو يتحدث عن ضمير الفصل فيقول: ‹‹وأما أهل المدينة فيُنْزِلون هُوَ ههنا بمنزلته بين المعرفتين، ويجعلونها فصلاً في هذا الموضع. فزعم يونس أنّ أبا عمرٍو رآه لحناً، وقال: احتبى ابنُ مروان في ذهِ في اللحن››(١)، والمقصود قوله تعالى: **هؤلاء بناتي هنّ أطهرَ لكم**(٢) بنصب (أطهرَ)(٣).

(١)- الكتاب ٢/٣٩٦-٣٩٧.

(٢)- هود ١١/٧٨ وفي مصحفنا (أطهرُ).

(٣)- هي قراءة محمد بن مروان السُّدي، ورويت كذلك عن الحسن، وزيد بن علي، وعيسى بن عمر، وسعيد بن جبير. انظر الكتاب ٢/٣٩٦، مختصر ابن خالويه ٦٠، والبحر المحيط لأبي حيان ٥/٢٤٧ وغاية النهاية لابن الجزري ٢/٢٦١.

المسائل النحوية في استدلال سيبويه بالقرآن الكريم

تداول العرب في جزيرتهم لغة عامة شائعة فيها كثير من لهجاتهم الخاصة بهم، فإذا أرادوا قول الشعر لجؤوا إلى لغة فنية، فيها من الأساليب الخاصة ما يجعلها تختلف عن اللغة الشائعة اختلافاً نوعياً.

لذلك فإننا نرى سيبويه في استدلاله بلغة القرآن يبتعد عن الاستدلال لما يواكب القواعد الأصلية بشكل عام؛ ويحاول الاستدلال لما خالف الأصول؛ لأنّ ما يواكب الشائع لاحاجة للاستدلال به سواء أكان ذلك شعراً أم نثراً. وهذا لايعني أنه لم يول القواعد الأصلية أية أهمية، بل نراه يقف عليها وقفة المتأمل المؤصّل المتتبع في مواضع غير قليلة.

وكان استدلاله لما خالف الأصول المحور الأهم لتناولاته النحوية، بكل ما يتضمنه هذا المحور من معالجات نحوية فرعية، ثم يأتي استدلاله للأصول لتظهر المقارنة بين الأصل وضده معاً يكسب الأمرين وضوحاً وبياناً، ثم يظهر لنا بعض السمات الخاصة في استدلاله كتتبعه للقاعدة وجزئياتها، أو استدلاله لجزء من القاعدة تاركاً الخطوط العرضية دون أن يستدل لها بالقرآن الكريم، وقد يستدل بما يوافق السماع الذي هو أبرز أصوله النحوية، وكذلك نراه يوجه بعض الآيات الكريمة توجيهات تختلف عمّا ينقله عن شيخه الخليل، وقد يقصر استدلاله في بعض التناولات النحوية على القرآن الكريم دون غيره، أو بعض القراءات القرآنية محاولاً الاستدلال للجيد من لغة العرب، مظهراً مقاييس الجودة عندهم من خلال إبراز الوجوه المتعددة المحتملة في معالجاته النحوية.

١- الخروج على الأصل:

استدلال سيبويه بالقرآن الكريم في الأعمّ الأغلب ماخلف القواعد الأصلية، والغاية من هذا الاستدلال قد يكون لأسباب كثيرة؛ منها الأمر المعنوي، أو الأسلوب الفنّي، أو بيان الاستخدام من حيث الكثرة والقلّة، أو نقل اللغة أو اللهجة، أو الاتساع في اللغة، أو التوهّم، إضافة إلى أنه قد يلمّح لما يريده من غير تصريح.

أ- الأمر المعنوي:

فقد يُبتعد عن الأصل من خلال أمر معنوي يطرأ على معنى الفعل، أو غيره؛ فقد نقل سيبويه عن الخليل أنّ الفعل المضارع ينجزم إذا كان جواباً لأمر أو نهي، أواستفهام، أو تمنٍ أو عرض. (١)

لكنّ جواب الطلب قد يأتي بعد ما لفظه الخبر، ومعناه الأمر ، نحو قوله تعالى: **هَلْ أدلُّكُمْ على تِجارةٍ تُنجيكُمْ من عذابٍ أليم، تؤمنون بالله ورسوله، وتُجاهدُون في سبيل الله بأموالِكُم وأنفُسِكُم**(٢)، فلمّا انقضت الآية الكريمة قال: **يغفرْ لكُم**(٣)، فمعنى الفعل(تؤمنون) هو آمنوا.(٤)

* وقد يأتي الفعل المضارع بمعنى الفعل الأمر المحذوف بدلالة (القول) قبله عليه؛ كقوله تعالى: **قُل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاةَ ويُنْفقوا ممّا رزقناهم** (٥) فالمعنى المقصود: قل لهم:

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٩٣، وانظر ٣/٦٢.

(٢)- الصف ٦١/١٠-١١.

(٣)- الصف ٦١/١٢.

(٤)- انظر الكتاب ٣/٩٤، ونظام الجملة ١/٥٦٧.

(٥)- إبراهيم ١٤/٣١.

أقيموا الصلاة. (١)

* ومنه أنّ الفعل المضارع ينتصب بأنّ المضمرة بعد الفاء السببيّة، إذا كان الارتباط بين الجملتين بالفاء، وكانت الثانية مسبّبة عن الأولى، وذلك إذا سبق بنفي أو طلب، (٢) ثم ينقل سيبويه عن الخليل أنّ المضارع لاينتصب إذا لم يُسبق بالنفي، أو الطلب وإنّ كانت الفاء سببيّة، عندها يعرض سيبويه على شيخه قوله تعالى: **ألمْ ترَ أنّ الله أنزلَ مِن السماء ماءً فَتُصْبِحُ الأرضُ مخضرة** (٣) حيث وقع المضارع (تصبحُ) بعد الفاء، وهو فعل (متسببٌ) عن الفعل الذي جاء قبله (أنزل) وقد سبق بنفي، وعلى الرغم من توفرّ شروط النصب بأن المضمرة فيما يظهر، فإنّ الفعل لم ينتصب. وينقل سيبويه جواب الخليل بأنّ النصب لم يقع؛ لأنّ المعنى في قوله تعالى: **ألم تر أنّ الله أنزل** * ليس نفياً، وإنما تنبيه بمعنى: ‹‹ أتسمع أنّ الله أنزل من السماء ماءً فكان كذا وكذا››(٤)، فقد استدلّ على ماخالف الأصل لأمر يتعلّق بتغيّر معنى (**ألم تر أنّ الله**) إلى: أتسمع أن الله.

* ومنه أن المستثنى حكمه النصب أو الإتباع على البدلية لأنّه مُخْرَج ممّا أدخلتَ فيه غيره(٥) لكنّ الأمر يختلف عن الأصل إذا كان ذلك يودي إلى فساد المعنى، من ذلك قوله تعالى: **لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا**(٦) فقد استدلّ على عدم جواز البدلية في الآية الكريمة لسبب يتلّق بالمعنى؛ لأنّنا لوقلنا: لو كان فيها الله لفسدتا، لفسد المعنى، وهو مايدفعنا لجعل (إلاّ) ومابعدها صفةٍ بمعنى (غير) (٧).

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٩٩، ونظام الجملة ١/٥٦٧.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣/٢٨.

(٣)- الحج ٢٢/٦٣.

(٤)- الكتاب ٣/٤٠.

(٥)- انظر المصدر السابق ٢/٣٣٠.

(٦)- الأنبياء ٢١/٢٢.

(٧)- انظر الكتاب ٢/٣٣١-٣٣٢، ونظام الجملة ١/٢٠٧.

* ومنه أنّ أفعال الشكّ، واليقين تخرج عن الأصل وهو نصب مفعولين، إلى معانٍ أخرى، ذلك إذا جاء بعد هذه الأفعال (أنْ) المصدرية التي ينتصب بعدها المضارع، فإنّ أفعال الشكّ تكون بمعنى خِفتُ وخشيتُ، وأفعال اليقين تكون بمعنى التمنّي والطمع(١)، واستدل سيبويه على ذلك بقوله تعالى: **تَظُنُّ أنْ يُفعَلَ بها فاقِرة**(٢) وقوله: **إنْ ظنّا أنْ يُقيما حدودَ الله**(٣) بمعنى(تخافُ)، و(إنْ خافا)(٤). واستدلّ على (علم) التي تكتفي بمفعول واحد إذا ضُمّنت معنى(عرف) (٥) بقوله تعالى: **لا تعلمونهمْ اللهَ يعلَمُهمْ** (٦) كقولك: لاتعرفونَهم الله يعرفُهم(٧).

إن استدلال سيبويه على ماخالف الأصول كثير في كتابه (٨) وأبرزه مايتعلق بتغيّر المعنى الذي يودي إلى تغيير في العمل، وهذا ما يودي إلى وضوح، وبيان في المعنى المراد من الآية الكريمة، أو غيرها من دلائل الاستدلال.

---

(١)- انظر الكتاب ٣/١٦٧.

(٢)- القيامة ٧٥/٢٥.

(٣)- البقرة ٢/٢٣٠.

(٤)- انظر الكتاب ٣/١٦٧، ونظام الجملة ١/٤٢٠.

(٥)- انظر الكتاب ١/٢٣٧.

(٦)- الأنفال ٨/٦٠.

(٧)- الكتاب ١/٢٣٧، ونظام الجملة ١/٤٢١.

(٨)- انظر الكتاب ١/٤٠، ٤١، ٥٠، ٩٢،٦٥، ١٢١، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٧، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٣، ١٩٨، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٥، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٩٠، ٤٣٥، ٤٤٠، ٢/١٢٦، ١٤٠، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣١٢، ٣٩١، ٣/٣٠، ٣٦، ٤٧، ٥٠، ٧٢، ١٠٣، ١٤٨، ١٦٢، ١٦٧، ١٨٨.

ب- الأسلوب الفني:

وهي الأساليب الفنية التي لا تنطوي تحت جناحي القاعدة (١)، إثباتا لها، أو خروجاً عليها، وتشمل كثيراً من الأساليب الخاصة في معظم المباحث النحوية، كإنزال غير العاقل منزلة العاقل في تطابق المبتدأ مع جملة الخبر، والفعل مع الفاعل، واسم الفاعل مع فاعله، أو فيما يتعلق بجملة الشرط، وجوابه، وغير ذلك من الأساليب التي اختصت بها لغة القرآن الكريم؛ من ذلك:

* يطابق المبتدأ في العدد والجنس والنوع الضميرَ الذي في جملة الخبر، والذي يربط جملة الخبر بالمبتدأ، فإذا كان المبتدأ مما لايعقل جاء الضمير الرابط مطابقاً له إلاّ إذا نُزّل غير العاقل منزلة مَن يعقل ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم، واستدل سيبويه منه بقوله تعالى: **لاالشمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القمرَ، ولاالليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون** (٢) فقد جاء الخبر - وهو جملة (يسبحون)- وفيه ضمير مختصّ بالذكور العقلاء مع أنّ المبتدأ (كلّ) مما لايعقل؛ لأنّه يعود على الشمس والقمر، والليل والنهار، وقد فسّر الخليل ذلك بأنّ مالايعقل نُزّل منزلة من يعقل لأنها تقوم بطاعة الله(٣)، ويرى المفسرون أنه غَلّبَ العقلاء لأنّه نزّل الشمسَ والقمر، والنجوم، والكواكب منزلتهم، والسرّ في ذلك أنه لمّا وصفهم بالسباحة وهي من أوصاف العقلاء ساغ له ذلك(٤).

* والأصل كذلك أن يتطابق الفعل مع فاعله في كثير من الأمور، ويجوز الخروج عليها كأنْ يُسند الفعل إلى ضمير من يعقل، وإنْ كان عائداً إلى مالا يعقل؛ يجوز ذلك إذا نُزّل مالا يعقل منزلة العاقل، واستدلّ سيبويه بقوله تعالى: **رأيتُهم لي ساجدين**(٥)، وقوله: **ياأيُّها النملُ ادخلوا مساكِنَكُم**(٦)

(١)- انظر نظام الجملة ٩/١.
(٢)- يس ٣٦/٤٠.
(٣)- انظر الكتاب ٤٧/٢، ونظام الجملة ٢٥/١.
(٤)- انظر تفسير النسفي ١٤٢/٣، وإعراب القرآن لدرويش، ٢٠٢/٢٣- ٢٠٣.
(٥)- يوسف ١٢/٤.
(٦)- النمل ٢٧/١٨.

ونقل عن الخليل زعمه أنّ ذلك بمنزلة مايعقل، ويسمع لمّا ذكّرهم بالسجود، وصار النمل بتلك المنزلة حين حدّثتَ عنه كما تحدّثُ عن الأناسي(١)، ويرى بعض المفسّرين أنه قال (ادخلوا) ولم يقل: ادخلن؛ <<لأنّه لما جعلها قائلة؛ (أي النملة)، و النمل مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل أجرى خطابهنّ مجرى خطابهم>>(٢).

* والأصل أن يتطابق اسم الفاعل مع فاعله في التذكير والتأنيث، وماخالف المطابقة هو خروج على الأصل، ويستدل سيبويه على مخالفة الأصل بقراءة أبي عمرو بقوله تعالى: **خاشعاً أبصارُهُم**(٣)، وقال: <<واعلم أنّه من قال: ذهب نساؤك، قال أذاهب نساؤك. ومن قال: **فمن جاءَهُ مَوْعِظةٌ من ربّه**(٤)، قال: أجائيٌ موعظة، تذهب الهاء هاهنا كما تذهب التاء في الفعل>>(٥)، وذكروا أنّ (موعظة) في الآية الكريمة بمعنى(وَعْظ)، وقالوا: إنماّ جاؤوا بالتاء - فيما يشبه ذلك- للتأنيث؛ لأنها ليست علامة إضمار كالواو والألف، وإنماّ هي كهاء التأنيث في طلحة، وليست باسم. وقال بعض العرب: (قال فلانةُ) وكلما طال الكلام فهو أحسن وأجمل نحو قولك: حضَرَ القاضيَ امرأةٌ(٦).

---

(١)- انظر الكتاب ٤٧/٢، ونظام الجملة ٥٤/١.

(٢)- تفسير النسفي ٦٠٢/٢.

(٣)- القلم ٤٣/٦٨، وفي مصحفنا اليوم **خاشعة أبصارهم** وانظر الكتاب ٤٣/٢.

(٤)- البقرة ٢٧٥/٢.

(٥)- الكتاب ٤٣/٢.

(٦)- انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٨٣/١، والمقتضب للمبرد ١٤٦/٢، ٣٤٩/٣، ٥٩/٤، والكشاف للزمخشري ٤٠٠/١.

* والأصل أن يتطابق فعل الشرط وجوابه، ويشرح سيبويه ذلك الأصل، فيقول: << فإذا قلت: إنْ تفعلْ، فأحسنُ الكلامِ أن يكون الجواب (أفعَلْ)؛ لأنّه نظيره من الفعل، وإذا قال: إنْ فعلتَ، فأحسنُ الكلامِ أن تقول(فعلتُ) لأنّه مثله>> (١)، ثم يستدل لما خرج عن الأصل بقوله تعالى: **مَنْ كانَ يُرِيدُ الحياةَ الدنيا وزينَتَها نُوَفِّ إليهِمْ أعمالَهم فيها**(٢) وهو أسلوب فني فريد حيث جاء فعل الشرط ماضياً وجوابه مضارعاً مجزوماً، ويرى بعضهم أنّ (كان) في حكم المزيدة، فكأنّ فعل الشرط (يريد)، فهو مضارع كالجواب، فقد توافقا من هذه الجهة. ومنها أنّ القائل يقول: إنْ كنت تعطيني سألتك، فيكون كقولك: إنْ أعطيتني سألتك(٣).

وقد استدل سيبويه لما خرج عن الأصل بأسلوب فني بآيات من القرآن الكريم في مواضع كثيرة من الكتاب (٤).

ج- بيان الكثرة والقلّة:

لجأ سيبويه في مواضع كثيرة إلى بيان موضع القاعدة المستنبطة في لغة العرب؛ لأن الكثرة والقلة معيار سليم يصور لنا تداول هذه اللغة، أو تلك، أمّا بيان الكثرة والقلة لما خالف الأصول في قواعد سيبويه فهذا أقل عدداً مقارنةً مع القواعد التي جاءت في كتابه بشكل عام. فقد استدل بالقرآن الكريم على ماخالف الأصول في حديثه عن (بُكرة وغدوة)، وقطع الصفة، وصلة الموصول.

* فقد أيّد سيبويه زعم يونس عن أبي عمرو أنهم - أي العرب - يمنعون (بُكرة وغدوة) من الصرف إذا كانتا معرفتين تدلاّن على زمن محدّد من يوم معيّن، وقال: وكذلك تقول العرب(٥)

---

(١)- الكتاب٣/٩١-٩٢.
(٢)- هود ١١/١٥.
(٣)- معاني القرآن للفراء ٢/٥-٦.
(٤)- انظر الكتاب ١/٥١، ٧٤، ١٤٢-١٤٣، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ٢١٢، ٢٥٧، ٢٨٢، ٢٩٠، ٣٣٦، ٣٤٥، ٣٤٦، ٤٣٢، ٢/٩، ١٤، ٤٣، ٤٧، ١١٥، ٣٣٢-٣٣٣، ٣٩١، ٣/٥٣، ٦٨، ١٠٣، ١١٠، ١٢٦، ١٥٣، ١٥٥، ٥٥٩، ٥٦٧، ٦٢١- ٦٢٢.
(٥)- انظر المصدر السابق ٣/٢٩٣.

ثم نقل لنا أنّ الخليل وأبا الخطاب أجازا صرفهما وإن كانتا معرفتين تدلان على زمن معيّن، وأنّ أبا الخطاب سمع مَن يوثق به من العرب - وهذه عبارة تعني القلّة- يقول: آتيك بكرةً، وهو يريد الإتيان في يومه أو في غده(١)، ثم استدل على ذلك بقوله تعالى: **ولهم رزقهمْ فيها بكرةً وعشياً**(٢).

* والأصل في القطع أنه لولا انقطاعه لكان صفة، أو بدلاً، أو معطوفاً، أو خبراً لما قبله (٣)، فهو يتبع ما قبله لكنّه لمّا قُطع خالف الأصل لمعان عدة، ويستدل سيبويه لما قُطع على معنى التعظيم والمدح، وكان أصله صفةً بالقرآن الكريم على لغة قلّة من العرب، بقوله: «وسمعنا بعض العرب يقول: الحمدُ للهِ ربَّ العالمين(٤) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية»(٥) والزعم بأنها عربية يَدلّ على القلة عند النحاة.

*- ولايكفي سيبويه بالاستدلال على القليل من لغة العرب، بل يستدل على النادر(٦) فالأصل في جملة الصلة إذا كانت اسميّة أن يُذكر ركناها المبتدأ والخبر، وإذا حُذف المبتدأ كان ذلك قبيحاً، واستدلّ بقراءة بعض الناس لقوله تعالى: **تماماً على الذي أحسنُ**(٧) بالرفع. ولعلّ استدلاله بالنادر

---

(١)- انظر الكتاب ٢٩٤/٣، ونظام الجملة ١٤٨/١.

(٢)- مريم ١٩/ ٦٢.

(٣)- انظر نظام الجملة ٥٨٣/١.

(٤)- الفاتحة ٢/١.

(٥)- الكتاب ٦٣/٢.

(٦)- انظر المصدر السابق ١٠٧/٢، ونظام الجملة ٦٣٦/١.

(٧)- الأنعام ١٥٤/٦ وهي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، والحسن، والأعمش وهي في مصحفنا (**على الذي أحسنَ**) انظر حاشية الكتاب ١٠٨/٢.

القبيح كان من باب الإحاطة والشمول لقواعد العربية بدليل أنه يأتي بعد القواعد الأصلية بما فيها كثرة وحُسن وثقة. ومثل ذلك كثير في الكتاب(١)

د- **نقل لغـــة** :

ما من شك أنّ الفَرقَ بين اللغة واللهجة ضئيل متداخل، لكنّه موجود بدليل أنه لاتتطابق كلمة مع مرادفها في المعنى تطابقاً كاملاً؛ لأنه لابدّ من فارق ما بين الكلمة ومرادفها.

فاللغة هي اللّسَنُ ، وحدُّها أنها أصوات يُعَبِّرُ بها كل قوم عن أغراضهم(٢)؛ واللهجة هي جَرْسُ الكلام، ويقال: فلان فصيح اللّهْجة واللّهَجَة، وهي لغة التي جُبل عليها فاعتادها ونشأ عليها ولهج بالأمر أولع به واعتاده(٣) فاللغة هي الأعمق والأشمل في لغة الأمة وهي التي تحتضن القواعد لأنه بوساطتها يعبّر الإنسان عن أغراضه، أمّا اللهجة فهي أضيق من سابقتها وهي جزء من اللغة وتشمل الفوارق التي بين الناس الذين ينطقون بلغة ما؛ فقولنا قواعد اللغة العربية يعني القواعد الناظمة لكلام أغلب العرب، أما اللهجة فلا قواعد لها لأنها تمثل لغة فئة من العرب لاتصل إلى حدّ الأغلب.

*- ويهدف سيبويه أحياناً من خروجه عن الأصل إلى نقل لغة من اللغات التي نطقها العرب، من ذلك أنّ بعضهم يحذف حرف الجر بعد بعض الأفعال(٤)، ويستدل سيبويه على ذلك بقوله تعالى: **واختار موسى قومه سبعين رجلاً(٥)** ويؤكد أنّ حذف حرف الجر، والنصب بنزع الخافض ليس قياسياً وإنما هو سماعي (٦).

---

(١)- انظر الكتاب ٢٥/١، ٢/ ٣٩-٤٠، ٦٣، ١٠٨، ١١٩، ٢١٠، ٢٩٨، ٣/ ١٦٣، ٢٨٩، ٢٩٤.

(٢)- اللسان (لغا)

(٣)- المصدر السابق (لهج).

(٤)- انظر الكتاب ٣٧/١.

(٥)- الأعراف ١٥٥/٧.

(٦)- انظر الكتاب ١٦٠/١. ونظام الجملة ١٣٦/١.

هـ- بيان لهجة من لهجات العرب:

يتكلم سيبويه على ما خالف الأصول النحوية، ومن خلال كلامه يستدلّ بالقرآن الكريم، ويؤوّل الآية بما يتناسب مع الأصول؛ من ذلك أنّه إذا كان الفاعل ظاهراً لزم الفعل حالة واحدة في الإفراد والتثنية والجمع إلاّ في واحدة من لهجات العرب وهي لغة (أكلوني البراغيث) ، وقد نفى يونس هذه اللغة عن القرآن الكريم وتأوّل قوله تعالى: **وأسرّوا النجوى الذين ظلموا**(١) على البدل من سؤال مقدّر، <<وكأنّه قال: انطلقوا، فقيل له: مَنْ ؟ فقال: بنو فلان. فقوله عزّ وجلّ **وأسروا النجوى الذين ظلموا**(٢) على هذا فيما زعم يونس>> (٣)

* ومنه استدلال بقوله تعالى: **مالهم بِهِ من عِلْمٍ إلاّ اتّباعَ الظنّ** (٤) على لغة أهل الحجاز الذين ينصبون المستثنى في الاستثناء المنقطع على معنى : ولكنّ. وكرهوا أن يبدلوا الآخر من الأول كما يفعل بنو تميم (٥).

والحديث عن اللهجات في الكتاب بارز بشكل واضح سواء أكان في استدلاله بالقرآن الكريم أم بغيره؛ والغاية من ذلك بيان الفوارق بين القواعد المستنبطة، واستخدام العرب لهذه القواعد، ولذلك أهمية كبيرة إذا عرفنا أنّ عملية استقراء اللغة لم تقتصر على فئة دون أخرى من لهجات العرب.

وقد أورد سيبويه آيات قرآنية أخرى في استدلاله بالقرآن الكريم لبيان لهجة عربية.(٦)

---

(١)- الأنبياء ٢١/٣.
(٢)- الأنبياء ٢١/٣.
(٣)- الكتاب ٢/٤١.
(٤)- النساء ٤/١٥٧.
(٥)- انظر الكتاب ٢/٣٢٢، ونظام الجملة ١/٢٠٨-٢١٠.
(٦)- انظر المصدر السابق ١/٥٩، ٢/٣٢٢، ٣/١٢٣.

و- الاتساع:

* الاتساع هو الخروج عن حدود العلاقات المنطقية العادية التي هي قوام النحو(١) والتي حرص سيبويه على تجسيدها في قواعده؛ وهو -أي الاتساع- ابتعاد عن الأصول كلاتساع في ظروف الزمان، بأنْ يخرج الظرفُ عن الظرفية لفظا، لامعنى فيضاف لما قبله في سَعَةِ الكلام نحو قوله تعالى: **بل مكْرُ الليلِ والنهار**.(٢) فالليل والنهار لايمكران، ولكنّ المكرَ فيهما. (٣) وغير ذلك من المواضع(٤) ويعلل سيبويه الاتساع ويعيده إلى الاختصار والاستخفاف، وكل ذلك يدخل في باب المجاز(٥).

ز- التلميح:

*- الأصل في المتضايفين ألاّ يفصل بينهما، ويتكلّم سيبويه على الفصل بينهما بـ(ما) الزائدة، ولم يذكر ذلك صراحة، ولكنّه جاء بأمثلة تشير إليه، واستدلّ بقوله تعالى: **إنّه لحقٌّ مثلُ ما أنّكم تنطقون**(٦)«فلولا أنّ (ما) لغو لم يرتفع مثلُ، وإن نصبت فـ(ما) أيضا لغو»(٧) وتلميح سيبويه هو أسلوب خاص من أساليب النحاة في الإيجاز، والاختصار آنذاك.

---

(١)- انظر اللغة والإبداع لشكري عيّاد ١١١، الطبعة الأولى ١٩٨٨ مصر.

(٢)- سبا ٣٣/٣٤.

(٣)- انظر الكتاب ١٧٦/١، ونظام الجملة ١٤٩/١.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢١٠/١-٣٣٧،٢١١.

(٥)- المصدر السابق ٢٢٢،١٧٦/١، واللغة والإبداع لعياد ١١١.

(٦)- الذاريات ٢٣/٥١.

(٧)- الكتاب ١٤٠/٣، ونظام الجملة ٣١١/١.

ح- التـوهّـم:

* الأصل أن يتبع المعطوفُ المعطوفَ عليه سواء أكان ذلك اسما أم فعلاً وكل مايخالف ذلك هو خروج على الأصل كعطف الفعل المضارع المجزوم على جواب الطلب المنصوب بأنْ المضمرة بعد الفاء السببية، وذلك على تقدير حذف هذه الفاء، وجزم الفعل الأول، وصاحب فكرة العطف على التوهم هو الخليل، وتبعه في ذلك سيبويه(١) واستدلّ بقوله تعالى: **لولا أخّرتني إلى أجلٍ قريب، فأصّدّقَ، وأكنْ من الصالحين**(٢). ومنه أيضاً استدلاله بقوله تعالى: **إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعمل صالحاً، فلا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون**(٣) وخرّج الآية نقلاً عن الخليل على التقديم والتأخير، وكأنه ابتدأ على قوله: (والصابئون) بعد مضيّ الخبر(٤).

٢- تتبع القاعدة والاستدلال عليها

لم يسعَ سيبويه إلى بيان ما خالف الأصول، أو وافقها فقط، بل نراه في مواضع كثيرة يتتبع القاعدة بكل دقائقها مستدلاً عليها بالقرآن الكريم، بآيات كثيرة متتابعة الغاية منها إظهار صحة ما يقعّده من كلام العرب، بدليلٍ مِن كلام الله.

*- من ذلك أنه في حديثه عن القسم، والمطابقة في ضمير الفاعل بين جملة القسم، وجملة الجواب، يذكر أنه لاتشترط المطابقة، فقد يُقسِم المتكلّم ويكون ضمير الجواب غائباً أو متكلما أو مخاطبا(٥)

(١)- انظر الكتاب ٣/١٠٠-١٠١، ونظام الجملة ١/٣٤٦-٣٤٧.

(٢)- المنافقون ٦٣/١٠.

(٣)- المائدة ٥/٦٩.

(٤)- انظر الكتاب ٢/١٥٥، ونظام الجملة ١/٣٨٣.

(٥)- انظر الكتاب ٣/١٠٦، ونظام الجملة ١/٣٧٩.

ويستدل بقوله تعالى: **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله** (١) وقوله: **أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه**(٢) ثم يتابع كلامه على الجملة الشرطية، فإذا كانت واقعة جواباً للقسم صُدّرت باللام، ويكون الجواب بعدها جواباً للقسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم، ويستدل بقوله تعالى: **لمن تبعك منهم لأملأن**(٣) فاللام في قوله (لمن) تدلّ على قسم مقدّر، وتُظهر أنّ الجواب إنما هو للقسم المقدر(٤) ثم يتكلم على جواب القسم إذا كان جملة فعلية، وينقل عن الخليل أنّ الماضي قد يكون بمعنى المضارع، والأحسن حينئذ أن يتصدّر باللام إذا كان جواباً للقسم(٥) ويستدلّ بقوله تعالى: **ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلّوا من بعده يكفرون**(٦) على أن معنى (لظلّوا) هو: ليظلُّنّ، وقد يكون الفعل الماضي في جواب القسم بمعنى اسم الفاعل(٧) نحو قوله تعالى: **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك**(٨) <<أي ماهم تابعين>>(٩) وقوله تعالى: **ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده**(١٠) أي: ما يُمسكهما من أحد(١١)

---

(١)- البقرة ٢/٨٣.

(٢)- آل عمران ٣/٨١، ثم الكتاب ٣/ ١٠٧.

(٣)- الأعراف ٧/١٨.

(٤)- انظر الكتاب ٣/١٠٨، ونظام الجملة ١/٣٧٨.

(٥)- انظر الكتاب ٣/١٠٨، ونظام الجملة ١/٣٧٨.

(٦)- الروم ٣٠/٥١.

(٧)- انظر الكتاب ٣/١٠٨.

(٨)- البقرة ٢/١٤٥.

(٩)- الكتاب ٣/١٠٩.

(١٠)- فاطر ٣٥/٤١

(١١)- انظر الكتاب ٣/١٠٩.

ويتابع قواعد القسم مستدلاً بالقرآن الكريم على اجتماع لام جواب القسم مع لام (إنّ)(١) فإذا اجتمعت هاتان اللامان فُصِل بينهما بالحرف (ما) كقوله تعالى: **وإنّ كلاً لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم**(٢)، ثم يتكلم على الجملة الاسمية التي تقع جواباً للقسم؛ فقد نقل عن الخليل أنّ الأحسن أن تؤكد باللام أو بـ(إنّ)، واللام (٣)، كقوله تعالى: **واللهُ يشهدُ إنّ المنافقين لكاذبون**(٤) وقوله: **ولقد عَلِموا لَمَنِ اشتراهُ ما لَهُ في الآخرةِ من خَلَاق** (٥)، وذكر الخليل، وسيبويه أنّه إذا كان الفعل ماضياً جاز أنْ يُصدَّرَ باللام، فإذا كان الفعل الماضي مسبوقاً بقد فالأحسن دخول اللام على (قد)، ويضعُفُ حذف هذه اللام إلاّ إذا طال الكلام فابتعدت جملة الجواب عن جملة القسم(٦) كما في قوله تعالى: **قد أفلحَ مَنْ زكّاها** (٧) فقد فُصِل بين القسم، وجوابه بجمل كثيرة.

هذا مثال عن تتبّع سيبويه لتفصيل كلّ قاعدة، فهو يستدلّ بآيات كريمة متتالية في الموضوع الواحد ليحيط بجوانبه. وهذا الأسلوب نراه في حديثه عن مواضع (إنّ) المكسورة الهمزة، و(أنْ) المخفّفة من الثقيلة، و(أمْ) وغير ذلك من الأبحاث(٨).

---

(١)- انظر الكتاب ١٠٩/٣.

(٢)- هود ١١/١١١.

(٣)- انظر الكتاب ١٤٧/٣، ونظام الجملة ٣٧٨/١.

(٤)- المنافقون ٦٣/١.

(٥)- البقرة ١٠٢/٢.

(٦)- انظر الكتاب ١٥١/٣، ونظام الجملة ٣٧٨/١.

(٧)- الشمس ٩١/٩.

(٨)- انظر الكتاب ١٥٤/١، ١٥٩/٢، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤١٧، ٤١٩، ٣٤/٣، ٣٦، ٣٨، ٦٠، ٧٢، ٧٩، ٩٠، ٩٨، ١٠٩، ١١٧، ١٤٠، ١٤٨، ١٥٢، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٩، ٥٠١.

٣- الاستدلال بقراءات قرآنية:

كان القرآن الكريم مصدرا هاما للاستدلال عند سيبويه فيما يتعلق بتركيب الجملة، وقد استخدم سيبويه الآيات التي قرئت بقراءات مختلفة استخداما أملته الرغبة في إيجاد الأدلة على ما يصل إليه من قواعد، وأكثر ما يُلاحظ من استدلاله بقراءات قرآنية حرصه على ما قلّ استخدامه في لغة العرب، وابتعاده عمّا يوافق قراءة الجمهور، وهذا أمر متوقع لأن سيبويه يحرص في استدلاله على الابتعاد عمّا يوافق الشائع، والكثير من لغة العرب، وقد يشير في الآية الواحدة إلى أكثر من قراءة ليُبيّن أكثر من وجه في القاعدة النحوية.

*- وذكر سيبويه أنّه يجوز حذف صدر صلة (أيّ) مطلقا، وفي حركة(أيّ) الإعرابية بعد ذلك لغتان: فقد ذكر الخليل أنّ القياس إعراب (أيّهم) إذا حذف صدر صلتها بحسب موقعها من الكلام، وذكر هارون أنّ ناسا وهم الكوفيّون(١) يقرؤون هذه الآية بنصب (أيّهم)، قال تعالى: **ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيَّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**(٢).

ثم استدل للّغة الثانية بقراءة من ضمّ (أيُّهُمْ) في كلّ الأحوال فجعلها مبنية على الضم كما بُنِيَتْ (خمسةَ عشرَ) على الفتح، وعلّل ذلك بأنها خالفت أخواتها حين جاز حذف صدر صلتها، ولم يُجِزْ تفسير الخليل، ويونس (٣)

*- ويستدل سيبويه أحيانا بقراءة قرآنية للاستدلال على النادر من لغة العرب(٤) كحذف المبتدأ من جملة الصلة إذا كانت جملة اسمية كقوله تعالى : **تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ**(٥) بضم (أحسنُ)(٦)

---

(١)- انظر الكتاب ٣٩٩/٢، ونظام الجملة ٦٤٠/١، والكوفيون هم عاصم، وحمزة ، والكسائي.

(٢)- مريم ٦٩/١٩.

(٣)- انظر الكتاب ٤٠٠/٢، ونظام الجملة ٦٤١/١.

(٤)- انظر الكتاب ١٠٧/٢، ونظام الجملة ٦٣٦/١.

(٥)- الأنعام ١٥٤/٦.

(٦)- هي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، والحسن، والأعمش. انظر البحر المحيط لأبي حيان ٢٥٥/٤، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٢٢٠.

*- ويشير إلى الشائع في لغة العرب ويستدل له بالقرآن الكريم، ثم يشير إلى القليل من لغة العرب ويستدل بقراءة للآية ذاتها؛ من ذلك أنّ الأكثر في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم أن يُحذفَ الضمير، وتبقى الكسرة دليلاً عليه(١) كقوله تعالى: **ياعبادِ فاتّقونِ**(٢) ثم يشير إلى قراءة أبي عمرو بن العلاء (ياعبادي فاتقونِ) بثبوت ياء المتكلم في المنادى(٣)

والاستدلال بالقراءات القرآنية كثير في الكتاب، منه مايشير إلى لغة الكثرة، أو القلّة، ومنه ما يشير إلى قرّاء مدينة بعينها كقراءة أهل الكوفة، أو أهل المدينة، ومنه ما يشار فيه إلى قرّاء الحجاز، وفي بعض المواضع يشير إلى لغة قوم من خلال حديثه عن قراءة؛ كأن يقول: (وهي لغة لبني تميم)(٤).

٤- الاستدلال للأصول:

لم يكن الاستدلال على ماخالف الأصول هدفاً وحيداً لسيبويه، بل كان هدفه رسم ملامح النحو بشكل عام، لذلك نراه في مواضع كثيرة يوضّح أصول النحو، ويستدل لها بالقرآن الكريم على الرغم من وضوحها وبساطتها.

*- من ذلك استدلاله بقوله تعالى: **تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بها فاقرة**(٥) وقوله: **إنْ ظنّا أنْ يقيما**

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٢٠٩.

(٢)- الزمر ٣٩/١٦.

(٣)- انظر حاشية الكتاب ٢/٢٠٩-٢١٠.

(٤)- انظر الكتاب ١/٧١،٨٢،١٤٤،١٧٢. ٢/٤٣،٦٣،٩١،١٠٨،١١٩،١٣٨،١٤٠،١٤٤، ١٤٧، ١٨٧، ٢٠٩، ٣٤٩،٣٩٣،٣٩٧،٣٩٩، ٣/٢٥،٣٦،٤٤،٥٠،٩٠،١٢٣،١٤٠.

(٥)- القيامة ٧٥/٢٥.

حدودَ اللـه (١) على (أنْ) الناصبة وعملها في الفعل المضارع (٢).

*- ومنه استدلاله بقوله تعالى: **وإلاّ تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أكُنْ من الخاسرين** (٣) على جملتي الشرط وجوابه، وأن الأصل فيهما على ماجرى في كلام العرب أن تكونا فعلَيْن مضارعَيْن مجزومَيْن (٤).

*- ومنه استدلاله بقوله تعالى: **مافَعَلوه إلاّ قليلاً مِنهم** (٥) على أنّ الأصل في الاستثناء التام المنفي النصبُ (٦). ومثل ذلك غير قليل في الكتاب.(٧)

٥- الاستدلال للضعيف:

استخدم سيبويه كلمة (الضعيف) كمصطلح في موضعين مختلفين؛ أولهما استخدامه لها في مواضع يستدلّ لها بالقرآن الكريم على لغة ضعيفة، ومامن شك في أنّ الضعف هنا لايراد به عكس القوة الذي يصل إلى حدّ اللحن، بل يراد به قلّة انتشاره في لسان العرب وحرص العربي على النطق بغيره . وثانيهما استخدامه لها في مواضع الحديث عن لغة التخاطب، واستدلاله لها بأمثلة موضوعة، أو كلام منقول عن بعض العرب الذين لايصلون إلى حد الفصاحة(٨).

*- وفي مواضع قليلة نراه يشير إلى لغة ضعيفة قبيحة، ويفصّل في ذكرها، ثم نراه يستدل لها بقراءة لآية من القرآن الكريم، ولعل استدلاله هذا هو نوع من الإحاطة بالقاعدة، وإشباعها بالشواهد؛ إضافة إلى تلميحه لبعض الأساليب الفنية في القرآن الكريم.

---

(١)- البقرة ٢/٢٣٠.
(٢)- انظر الكتاب ٣/١٦٧، ونظام الجملة ١/٣٩١.
(٣)- هود ١١/٤٧.
(٤)- انظر الكتاب ٣/٦٦، ونظام الجملة ١/٥٤٨.
(٥)- النساء ٤/٦٦.
(٦)- انظر الكتاب ٢/٣١١، ونظام الجملة ١/٢٠٣.
(٧)- انظر الكتاب ١/٩٠،١٥١،١٥٢،١٥٥،١٧٥،٢٠١، ٢/٨٧،١١٥،١١٦،١٣٩--١٤٠،١٤٧-١٤٨،١٧٠، ١٨٧،٢٠٩،٣١١، ٣٢٤، ٣٢٧ ،٣٨٧،٤١٥، ٣/٦٦،٩٠،٩٨،١٦٧،٤٩٦،٥٠٩-٥١٠.
(٨)- انظر المصدر السابق ٢/١٢٤، ٣١٨، ٤/١٠٦.

*- من ذلك حديثه عن المطابقة بين فعل الشرط وجواب الشرط، فهو يرى أن يكون فعل الشرط وجوابه مضارعين أو ماضيين، أو ماضياً ومضارعاً، أو مضارعًا وماضياً، والأحسنُ أن يطابق جواب الشرط فعلَ الشرط، ويضعف أن يكونا مختلفين، قال سيبويه: ‹‹فإذا قلت: (إنْ تفعلْ)، فأحسنُ الكلام أن يكون الجوابُ (أفعلْ)؛ لأنه نظيره من الفعل. وإذا قال: (إنْ فعلتَ) فأحسنُ الكلام أن تقول: (فعلتُ)، لأنه مثله. فكما ضعُفَ (فَعَلْتُ) مع (أفعَلْ)، و(أفعَلْ) مع (فعلتُ)، قُبِّحَ (لم أفعلْ) مع (يفعلْ)، لأنّ (لم أفعلْ) نفيُ(فعلتُ). وقَبُح (لاأفعلُ) مع (فعَلَ) لأنها نفي (أفعَلُ)›› (١) ثم نراه في موضع آخر يستدل بقوله تعالى: **من كانَ يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالَهم فيها**(٢) لمجيء فعل الشرط ماضياً، وجوابه مضارعاً مجزوماً(٣)

*- ومنه أيضاً حديثه عن العطف على جواب الشرط؛ فإذا كان جواب الشرط مجزوماً جُزِم الفعل المعطوف، تقول: إنْ تأتني آتِك فأحدِّثَكَ ، أو ثم أحدِّثك(٤) كقوله تعالى: **وإنْ تتولّوا يستبْدِلْ قوماً غيرَكُمْ ثم لايكونوا أمثالَكُم**(٥) ويجوز النصب على تقدير(أنْ) مضمرة بعد الفاء والواو(٦)، ثم يستدلّ بقراءة بعضهم لقوله تعالى: **وإنْ تبدوا ما في أنفسكُم أو تخفوه يحاسِبْكم به اللهُ فيغفرَ لمن يشاء ويعذِّبَ مَنْ يشاءَ والله على كلِّ شيء قدير**(٧) بنصب (يغفرَ) و(يعذّبَ)؛ وقد بين سيبويه أنّ نصبَ المضارع على تقدير(أنْ) بعد الجواب ضعيف(٨)

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٩١-٩٢، و ٣/٦٨، ونظام الجملة ١/٥٤٨-٥٤٩.

(٢)- هود ١١/١٥.

(٣)- انظر الكتاب ٣/٦٨، ونظام الجملة ١/٥٤٩.

(٤)- انظر الكتاب ٣/٨٧.

(٥)- محمد ٤٧/٣٨.

(٦)- انظر الكتاب ٣/٩٢، ونظام الجملة ١/٥٦٠.

(٧)- البقرة ٢/٢٨٤ ونصب (يغفرَ) و (يعذّبَ) هي قراءة ابن عباس. انظر روح المعاني للألوسي ٣/٦٥

(٨)- انظر الكتاب ٣/٩٢، ونظام الجملة ١/٥٦١.

٦- الاستدلال لأكثر من وجه:

يبين سيبويه في تناولاته النحوية الوجوه المحتملة، ويحاول أن يسوقَ الأدلة عليها، لذلك نراه في مواضع كثيرة يسهب في التفصيل، ويستدل بالقرآن الكريم مشيراً إلى أكثر من وجه في القراءة، إذا كانت القراءة تخدم القاعدة المستنبطة؛ ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى الرغبة في شمولية استنباط القواعد، والإحاطة التامة لما يريد الوصول إليه.

*- ففي المواضع التي يجوز فيها كسر همزة (إنّ) وفتحها بحسب المعنى والتقدير ذكر الخليل وسيبويه أنه إذا قُدِّرَ حرف الجرّ فُتِحَتْ همزتُها، وإن لم يقدّرْ كُسِرَتْ، تقول: لبّيك إنّ الحمدَ والنعمة لك، وإن شئت فتحت فقلت: (أنّ) على تقدير لأنّ(١)، واستدل بالقرآن الكريم بإجازة الوجهين في (إنّ) بكسر الهمزة وفتحها، وذلك بقوله تعالى: **وأنَّ هذه أمَّتُكُمْ أمّةً واحدةً وأنا ربُّكُمْ فاتّقون**(٢) ففسّر الخليل الفتح على تقدير حرف الجر (اللام) والكسر على الابتداء(٣).

*- ومن ذلك أيضاً مجيء (أنّ) بعد فعل يدلّ على القول دون حروفه(٤)، واستدل سيبويه بقراءة عيسى لقوله تعالى: **فدعا ربَّهُ إني مغلوبٌ فانتصرْ** (٥) وقال: <<أراد أن يحكي>>(٦)، ومن أراد (اللامَ فتح الهمزة(٧)

---

(١)- انظر الكتاب ٣/١٢٦، ونظام الجملة ١/٤٠٠.

(٢)- المؤمنون ٢٣/٥٢. قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو بفتح الهمزة وتشديد النون. وقرأ ابن عامر وحده (وأنْ) بفتح الهمزة مع تخفيف النون. وعاصم، وحمزة، والكسائي(وإنّ) بكسر الهمزة على الاستئناف. أوعطفاً على الآية السابقة: **إني بما تعملون عليم*** إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٣١٢.

(٣)- انظر الكتاب ٣/١٢٦-١٢٧.

(٤)- انظر المصدر السابق ٣/١٤٢، ونظام الجملة ١/٤٠٠.

(٥)- القمر ٥٤/١٠.

(٦)- الكتاب ٣/١٤٣.

(٧)- انظر نظام الجملة ١/٤٠٠.

*- واستدل سيبويه لأكثر من وجه في كسر همزة (إنّ)، وفتحها بقوله تعالى: **إنّ لَكَ ألاّ تَجُوعَ فِيهَا ولاتَعْرَى، وإنَّكَ لاتَظْمَأُ فِيهَا ولاتَضْحَى**(١) ومثل ذلك غير قليل(٢).

٧- الاستدلال بالقرآن الكريم وإضافة توجيهات على ما ذكره الخليل:

ليس سهلاً أن نحيط بكل ما أخذه سيبويه عن الخليل، وهو ما دفعنا إلى عدم الفصل بين الطالب، وأستاذه في حديثنا عن الاستدلال في الكتاب، لكننا رصدنا بعض المواضع التي لم يكن فيها سيبويه ناقلاً رأي شيخه فحسب، بل كان مضيفاً بعض الوجوه النحوية، ومستدلا لها بالقرآن الكريم.

*- نقل سيبويه أنّ الخليل قد ذهب في تفسير تعدّد الخبر مذهبين: أولهما أنّ المبتدأ يجمع هذه الأخبار، ويتصف بها، وأنّ المتحدث يريد أن يخبر بأكثر من خبر. وثانيهما أنّ المبتدأ لايأخذ أكثر من خبر واحد حينئذ يقدّر للخبر الآخر مبتدأ محذوف(٣) واستدل بقوله تعالى: **هذا بعلي شيخٌ**(٤) و **كلاّ إنها لظى نزّاعةٌ للشّوى**(٥) وأضاف سيبويه لما نقله عن الخليل وجهين آخرين وذلك بأن يكون الاسم الأول بعد المبتدأ عطف بيان من اسم الإشارة في قوله تعالى: **هذا بعلي شيخ**(٦) أو يكون الاسم الثاني بدلاً من الخبر كقولك: <<هذا زيد رجل منطلق على البدل، كما قال تعالى جدّه: **بالناصيةِ. ناصيةٍ كاذبةٍ**(٧) فهذه أربعة أوجه في الرفع>>(٨)

---

(١)- طه ٢٠/١١٨-١١٩، قرأ نافع وأبو بكر (وإنك) بكسر الهمزة، وقرأ الباقون (وأنكَ) بفتحها. إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٣٠٨.

(٢)- انظر في ذلك الكتاب ١/٥٧-٥٨،٥٩،٨١،٨٩،١٤٣-١٤٤،١٤٨، ٢/٣٣٣،٣٤٧،٣٩٩ ٣/١٣-١٤،٥٢،١٢٣،١٢٥،١٢٦، ١٣٣، ١٣٤،١٤٣.

(٣)- انظر الكتاب ٢/٨٣.

(٤)- هود ١١/٧٢ وقراءة الرفع (شيخ) هي قراءة ابن مسعود. وفي القرآن الكريم (وهذا) والاستشهاد بآيات الكتاب مع إغفال نحو(الواو) و(الفاء) جائز صحيح وقع في كتب العلماء. انظر حاشية الكتاب ٢/٨٣.

(٥)- المعارج ٧٠/١٥-١٦.

(٦)- هود ١١/٧٢.

(٧)- العلق ٩٦/١٥-١٦.

(٨)- الكتاب ٢/٨٣،٨٦، وانظر نظام الجملة ١/٢٢.

ومثل هذه الإضافات التي يزيدها سيبويه على الخليل مستدلاً بالقرآن الكريم كثيرة في الكتاب(١).

٨- تأكيـد السـماع:

*- بيّن سيبويه أنّ الدعاء بالمصادر رفعاً، ونصباً، و تعريفاً، وإضافة مقصور على السماع لايجوز فيها إلا ماورد مسموعاً؛ ويستدل على ماسُمع من المصادر المرفوعة نحو سلامٌ عليك، وويحٌ لك، وويسٌ لك، وويلةٌ لك وعولة لك، وخير لك، وشرّ لك(٢) بقوله تعالى: **طُوبى لهمْ وحُسْنُ مآبٍ**(٣) وقوله: **لعْنةُ اللهِ علـى الظالمين**(٤) وقوله: **ويلٌ للمطفّفين**(٥)

*- ويستدل أيضاً بقوله تعالى: **ياجبالُ أوّبي معَهُ والطيرَ**(٦) برفع (**والطيرُ**)(٧) على ما عُطف على المنادى إذا كان المعطوف معرّفاً بأل، ونقل عن الخليل أنه يرى رفعه لأنه سُمع عن العرب قولهم: يازيدُ والنَّضرُ (٨) فسيبويه يستدل بقراءة الأعرج على مايوافق ما سمع عن العرب؛ لأن لغة العرب هي الأصل الذي تستمد منه القواعد، والسماعُ هو أبرزها.

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٤٧، ٦٣، ٨٣، ١٩٦، ٣٧٣، ٣/٣٠، ٦٠، ٦٣-٦٤، ٨٧، ١٠٣، ١٢٧، ١٦٢.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٣٣٠.

(٣)- الرعد ١٣/٢٩.

(٤)- هود ١١/١٨.

(٥)- المطفّفون ٨٣/١.

(٦)- سبأ ٣٤/١٠.

(٧)- (والطيرُ) بالرفع قراءة الأعرج. الكتاب ٢/١٨٧.

(٨)- انظر الكتاب ٢/١٨٦-١٨٧. ونظام الجملة ١/٥٢١، وانظر في الموضوع نفسه الكتاب ٣٩/٢٤٥.

٩- استدلاله بالقرآن الكريم دون غيره:

حمل القرآن الكريم اللغة المثالية التي تداولها العرب، وهذا ما جعل سيبويه يأخذها أصلاً لقواعد اللغة العربية، حتى إنه في بعض المواضع لايستدلّ بغير القرآن.

*- فقد نقل سيبويه عن الخليل قوله: ‹‹اللهم نداء، والميم هاهنا بدل من (يا)، فهي هاهنا فيما زعم الخليل رحمه الله آخر الكلمة بمنزلة(يا) في أوّلها››(١) ثم استدلّ بقوله تعالى: **اللهمَّ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ**(٢).

*- وبالمقابل فقد لاحظنا أنّ سيبويه بشكل عام ينعت كلَّ لغة لايستدلّ لها بالقرآن الكريم بأنها قبيحة، أو نادرة، أو خبيثة، أو ضعيفة(٣).

١٠- الاستدلال للجيّد وبيان مقاييس الجودة:

*- يحاول سيبويه في مواضع متعددة، أن يستدل للّغة الجيدة، ويشير إلى مواطن الجودة تلك من خلال آيات القرآن الكريم التي يستدلّ بها، ثم يفصّل الآية الكريمة، ويكشف ما فيها من أحكام تناسب ما يقصده من قواعد؛ والغرض من استدلاله هذا هو أنْ يحيط بقواعد اللغة في تناولاته النحوية المتنوعة.

---

(١)- الكتاب ٢/١٩٦، وانظر في مثل ذلك ٣/١٣٢.

(٢)- الزمر ٣٩/٤٦.

(٣)- انظر الكتاب ١/٣٨٩، ٢/١١٤، ١١٨، ١٢٤، ٣١٧، ٣١٨، ٣٥٧، ٣/١٥١، ٤/١٠٦.

من ذلك حديثه عن (أنْ) المخفَّفة، ومجيء اسمها ضمير الشأن المحذوف، وخبرها جملة اسمية(١)، واستدلاله بقوله تعالى: **وآخرُ دعواهُمْ أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين**(٢) فهو يريد معنى الهاء، ولاتخفّف(أنّ) إلاّ وضميرُ الشأن محذوف، ويبين سيبويه أن الأحسن إذا كان خبرها جملة اسمية أنْ يُذكَرَ ضمير الشأن وألاّ تخفّف(٣). وقال: ‹‹ولو أنهم إذْ حذفوه جعلوها حرفَ ابتداء، وما بعدها جملة اسمية دون تقدير لاسمها المحذوف لكان وجهاً قوياً››(٤)

*- ومنه أيضاً حديثه عن العطف على الضمير المرفوع وقوله بعدم جواز العطف على الضمير المرفوع المتصل أو المقدّر إلاّ إذا فُصِل بين المتعاطفين بفاصل(٥) ويحسُنُ الفصل بالضمير المؤكّد(٦)، واستدل بقوله تعالى: **اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنّةَ**(٧) ففصل بالضمير المؤكّد، وقوله: **لو شاءَ اللهُ ما أشْرَكْنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا**(٨) ففصل بحرف النفي (لا). والإشارة إلى الجيّد والحسن مما سمع من العرب كثيراً جداً في كتابه(٩).

---

(١)- انظر الكتاب ١٦٣/٣، ١٦٥، ونظام الجملة ٣٨٩/١.

(٢)- يونس ١٠/١٠.

(٣)- انظر الكتاب ١٣٧/٢، ١٦٣، ونظام الجملة ٣٩٠/١.

(٤)- الكتاب (بولاق) ٤٨١/١ نقلاً عن نظام الجملة ٣٩٠/١.

(٥)- انظر الكتاب ٣٧٨/٢-٣٧٩.

(٦)- انظر المصدر السابق ٢٤٧/١، ونظام الجملة ٣٤٩/١.

(٧)- البقرة ٣٥/٢، والأعراف ١٩/٧.

(٨)- الأنعام ١٤٨/٦.

(٩)- انظر في ذلك الكتاب ٥٦/١، ٢٤٧، ٣٧٨/٢، ٣٧٩، ١٠٨/٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٦٣، وانظر فهارس كتاب سيبويه لعضيمة ٣٦-٤٢.

١١- الاستدلال لجزء من القاعدة

*- لم يتحدث سيبويه عن معنى الحصر في(إنما وأنما)، ولم ينقل لنا شيئاً عن الخليل، إنما تحدث عن الفرق بينهما وعن مواضعهما، ولم يستدل بالقرآن الكريم إلاّ بقوله تعالى: **قُلْ إنمّا أنا بَشَرٌ مثلُكُمْ يُوحى إليَّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ**(١) وقال: ‹‹اعلمْ أنّ كلّ موضع تقع فيه (أنّ) تقع فيه (أنما)، وما ابتُدئ بعدها صلة لها كما أنّ الذي ابتدِئ بعد (الذي) صلة له. ولاتكون هي عاملة فيما بعدها كما لايكون (الذي) عاملاً فيما بعده››(٢)

١٢- استدلاله بالقرآن في قواعد استنتاجية.

*- نرى في مواضع قليلة من الكتاب أنّ سيبويه يلجأ أحياناً إلى إيجاد قاعدة مبنية على كلام يردُ بعدَ موضع الشاهد المستدلّ به؛ ففي حديثه عن إعراب اسم الاستفهام (ماذا) يرى أن الأحسنَ أن يأخذ الاسمُ المجابُ به إعرابَ الاسم المستفهم عنه، يقول: كيف أصبحتَ ؟ فتجيب بقولك: صالحاً، قال سيبويه: ‹‹والنصبُ في هذا الوجه لأنه الجواب على كلام المخاطب، وهو أقرب إلى أن تأخذ به››(٣) واستدل بقوله تعالى: **ماذا أنزل ربُّكُمْ ؟ قالوا: خيراً** (٤) فإعراب اسم الاستفهام (ماذا) مفعول به، ولذلك جاء الجواب منصوباً على أنه مفعول به(٥)

---

(١)- الكهف ١٨/١١٠.

(٢)- الكتاب ٣/١٢٩، ونظام الجملة ١/٤٠٣.

(٣)- الكتاب ٢/٤١٨-٤١٩.

(٤)- النحل ١٦/٣٠.

(٥)- انظر الكتاب ٢/٤١٧، ونظام الجملة ١/٥٠٣ وقرأ زيد بن علي(خيرٌ) بالرفع؛ أي المنزل خير. فتُطابق هذه القراءة تأويلَ من جعل (ذا) موصولة، ولاتُطابق من جعل (ماذا) منصوبة لاختلافهما في الإعراب. انظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/٤٨٧-٤٨٨.

وأشار إلى مجيء (ذا) بمنزلة (الذي)، واستدل على ذلك بقوله تعالى: **ماذا أنزلَ ربُّكمْ قالوا أساطيرُ الأولينَ**(١) برفع (أساطير)(٢).

يظهر لنا مما تقدم أنّ سيبويه كان يحرص في كتابه على الاستدلال بالقرآن الكريم لما خالف الأصول بشكل عام؛ لأنّ الأصل الشائع لايحتاج إلى دليل. وخروجه على الأصل في الاستدلال لايعني أنه لم يُعر الأصول الأهمية التي تستحقها، فقد رأيناه في مواطن كثيرة يتحدث عن القواعد الأصلية البسيطة، ويستدل لها بآيات من القرآن الكريم، وهذا يدلّ على أنّ سيبويه أولى القواعد المستنبطة كلّ الأهمية سواء أكانت هذه القواعد مما يطابق الأصول أم مما يخرج عليها، وإن كان في الثانية أكثر وضوحاً، وأغزر مادة.

وأخذ الخروج على الأصل في استدلاله بالقرآن الكريم اتجاهات متعددة، منها ما يتعلق بأمر يخصّ المعنى، أو بأسلوب فنيّ. ومنها ما يرصد موقعه من حيث الكثرة أو القلة، وتداوُلُ ذلك على لسان العرب، ومقارنته من حيث الأسلوب بما ورد في القرآن الكريم، ومنها ما يحاول من خلاله أن ينقل لنا لغةً ، استخدمها بعض العرب، أو لهجةً من اللهجات، أو اتساعاً في استخدام بعض الأساليب. ومنها ماكان يشير إليه إشارة غير صريحة، ومنها ما يحاول أن يخرّجه بما يناسب لغة العرب، وهذا الأمر هو الذي دفعه مع شيخه إلى إبراز فكرة التوهّم في النحو العربي قبل غيرهما من أئمة النحو.

وكان سيبويه يتتبّع القاعدة بجزئيّاتها محاولاً الاستدلال لها قدر المستطاع بآيات من القرآن الكريم ما توفر له ذلك مقارناً بين مادته المستَدلّ بها، وما سُمع عن العرب مُتتبعاً خطوات شيخه الخليل حيناً، ومضيفاً إليه بعض التوجيهات في المسائل النحوية حيناً آخر.

---

(١)- النحل ١٦/٢٤.

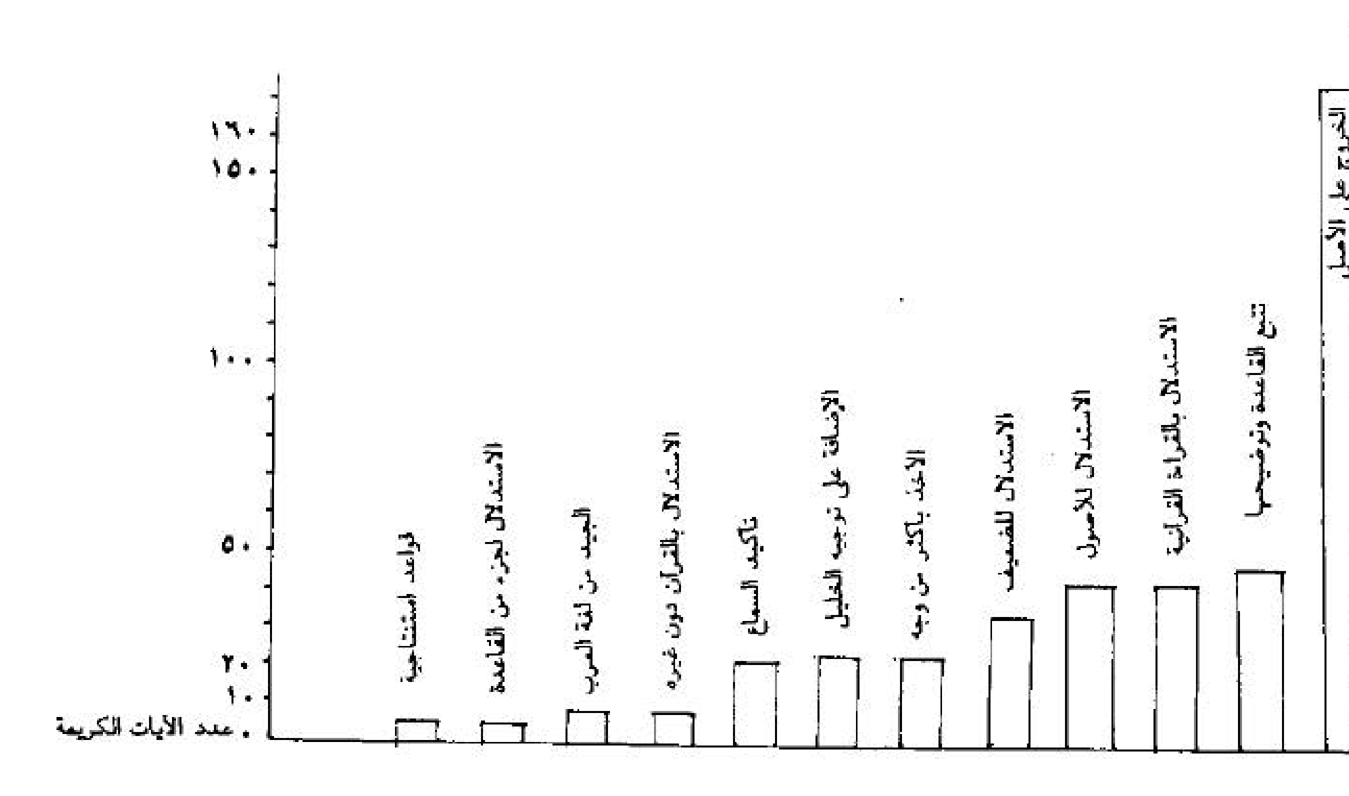
(٢)- رفع (أساطيرُ) هي قراءة الجمهور، وقرئ شاذاً (أساطيرَ) بالنصب بجعل (ذا) موصولة. انظر بحر المحيط لأبي حيان ٥/٤٨٤.

وقد حظي القرآن الكريم عند سيبويه بأهمية خاصة، حتى إنه في بعض المواضع لم يكن يستدلّ بغير القرآن الكريم، وقراءاته، واصفاً اللغة التي لايدعمها قول من القرآن الكريم بأنها ضعيفة قبيحة.

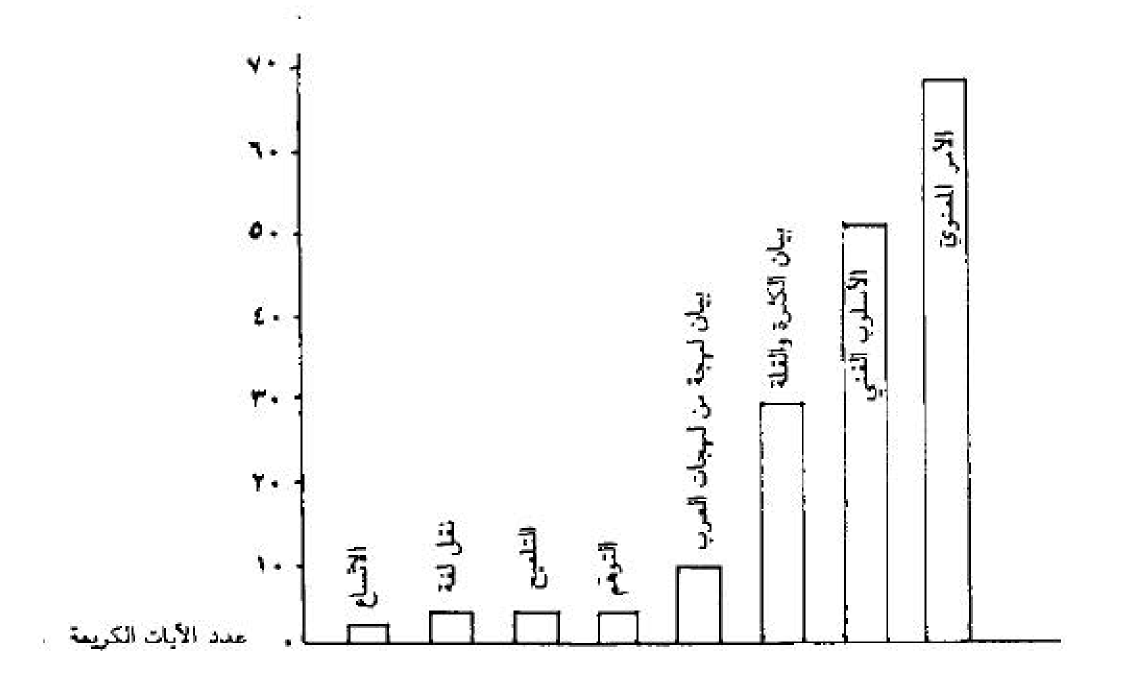
وصحيح أنه يستدلّ للجيّد من لغة العرب، مبرزاً مقاييس الجودة في لغتهم، لكنّه كان يستدل أحياناً بقراءة قرآنية للغة ضعيفة ليُلَمْلِمَ أطراف البحث، ويحيط بكل جوانبه، الأمر الذي يدفعه إلى ذكر أكثر من وجه للقاعدة الواحدة.

بيانان توضيحيان بالآيات القرآنية التي استخدمها سيبويه في تناولاته النحوية؛ وقد راعينا في ترتيبها الكثرة العددية فبدأنا بالأكثر، فالأقل وكنا قد عرضنا هذه الموضوعات خلال البحث بحسب تقارب العناوين، وما ترمي إليه؛ ولابد من الإشارة إلى أن بعض الآيات الكريمة التي وردت في البيانين قد استدلّ بها أكثر من مرة، وفي أكثر من قاعدة، أو أنه استدلّ في القاعدة الواحدة بأكثر من آية واحدة، أو أنه استدلّ للقاعدة الواحدة بآيات متتالية مرتبط بعضها ببعض في موضوع واحد، بالإضافة إلى أن بعض الآيات تتكرّر بقراءات مختلفة تناسب القاعدة النحوية.

١- الاستدلال بالقرآن الكريم



الاستدلال بالقرآن الكريم على ماخرج على الاصل



أما المواضع التي لم يستدل لها سيبويه بالقرآن الكريم فهي قليلة إذا قصدنا بها الأبواب النحوية الكبيرة، أما في القواعد الفرعية، فالمواضع التي لم يستدل فيها بالقرآن الكريم كثيرة.

*- من ذلك أنه لم يستدل بالقرآن على حذف الفعل الذي ينصب المصادر المثناة كـ (لبّيك)، و (سعديك)، و(حنانيك) (١)، وهو في الوقت نفسه يستدل بالقرآن على حذف الفعل كحديثه عن الاشتغال(٢)

*- ومن ذلك أنه لم يستدل بالقرآن الكريم في باب الندبة(٣) في حين أنه استدل بالقرآن الكريم في بحث النداء بشكل عام(٤).

ونراه في مواضع أخرى لايستدل بالقرآن الكريم في أبحاث كاملة كالنسبة(٥)، وتثنية المنقوص، والممدود(٦)، والتصغير(٧)، والمركب؛ وهو ‹‹باب الشيئين اللذين ضمّ أحدهما إلى الآخر فجعلا بمنزلة اسم واحد››(٨)، وباب (أفعل) إذا كان اسماً ‹‹وما أشبه الأفعال من الأسماء التي في أوائلها الزوائد››(٩) وحديثه عن بناء الأفعال(١٠).

---

(١)- انظر الكتاب ١/٣٠٧،٣٤٨.

(٢)- انظر المصدر السابق: ١/٨١،٨٩،٩٠،٩٢،٩٥،١٠٠،١٢٢،١٤٠،١٤١،١٤٢،١٤٣،١٤٨.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٢٢٠-٢٢٩، ٢٣١، ٤/١٦٥،٢٣٦.

(٤)- انظر المصدر السابق (بحث النداء) ٢/١٨٣-٢٣٣.

(٥)- انظر المصدر السابق ٣/٣٣٥-٣٨٨.

(٦)- انظر المصدر السابق ٣/٣٨٩-٤١٤.

(٧)- انظر المصدر السابق ٣/٤١٥-٤٩٤.

(٨)- انظر المصدر السابق ٣/٢٩٦-٣٣٤.

(٩)- انظر المصدر السابق ٣/١٩٤-٢٢٢.

(١٠)- انظر المصدر السابق ٤/٥،٩٦.

ولم يستدل سيبويه بالقرآن الكريم في تناولاته النحوية الواضحة البسيطة كأنواع الخبر، والخبر الظرفي، والرتبة، والضمير الرابط(١) ومن الطبيعي أنه لم يستدل بالقرآن الكريم في التناولات النحوية التي يشير فيها إلى لغة قبيحة، أو لغة استكرهها النحاة(٢).

ولعل القواعد النحوية البسيطة لم تكن تحتاج إلى استدلال، أو أن القرآن الكريم لم يحوِ ما يُستدل به على بعض القواعد، أو أنّ طبيعة بعض القواعد الصرفية، واللغوية، والأوزان تحتاج إلى كلام العرب ونطقهم لتكون دليلاً يُستدلّ به سيبويه على ما يريد.

وخلاصة القول أنّ آراء الخليل، و سيبويه التي اطّلعنا عليها من خلال الكتاب تظهر لنا أنّ منهج سيبويه في الاستدلال بالقرآن الكريم، وقراءاته هو نفسه منهج الخليل بن أحمد، ولو كنّا نملك مؤلفاً نحويا للخليل لاستطعنا أن نبيّن الفرق بينهما إن يكن ثمة فرق، ووقفنا على المنابع الأصلية التي وجّهت سيبويه، ومن جاء بعده من النحاة(٣)

---

(١)- انظر نظام الجملة ١/١٩-٢٦.

(٢)- انظر الكتاب ١/٣٠٧،٣٣٤.

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ٤٧.

* الحديث الشريف *

لم نعثر فيما وصل إلينا من كتب النحاة الذين سبقوا سيبويه على دليل يشير إلى اهتمامهم بالحديث الشريف، واستدلالهم به، كما أننا لم نكشف من خلال ما ذكره سيبويه في كتابه إلاّ على النذر اليسير الذي يبين لنا موقفه من الحديث النبوي الشريف والأسباب التي دفعته إلى هذا الموقف.

الاستدلال بالحديث الشريف وأهميته:

من خلال دراسة كتاب سيبويه نرى ظاهرة هامة، أشار إليها كثير من النحاة، وهي أن صاحب الكتاب سيبويه، وأستاذه الخليل لم يعيرا الحديث الشريف أيّ اهتمام يذكر، ولم يتعرّضا له في تأصيلهم لقواعد النحو العربي، وأنهما ثبّتا فكرة عدم الاستدلال به(١) وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن السبب الكامن وراء ذلك.

لقد أشارت نصوص النحويين بشكل واضح إلى أن النحويين المتقدمين لم يستدلّوا بالحديث النبوي الشريف، وهذا ما نراه عند البصريين، و الكوفيين على حدّ سواء، وما جاء في خزانة الأدب يوضّح الأمر كلّ الوضوح: ‹‹وقال أبو حيّان في شرح التسهيل: قد أكثر المصنف من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكليّة في لسان العرب، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلكَ هذه الطريقة غيره، على أنّ الواضعين الأولين لعلم النحو، المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء، وعيس بن عمر، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائي، الفرّاء، وعلي بن المبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك››(٢) وعلى وجه التحديد فإن ما ورد في كتاب سيبويه لم نجد فيه أي كلام مرفوع إلى النبيّ (ص)، سواء أ كان الكلام لسيبويه

(١)- انظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ٤٧.

(٢)- خزانة الأدب للبغدادي ١/٥، وانظر فهارس كتاب سيبويه لعضيمة ٧٦٢.

أم لمن نقل عنهم من النحاة الذين سبقوه؛ وهذا الأمر له دلالته لاسيّما أنّ كثيراً ممّا نقله سيبويه شعراً أو نثراً لم ينسبه إلى قائل معين بل يكتفي بقوله: وقال، أو كقوله، أو ما يشبه ذلك من عبارات.

إنّ الأحاديث التي ذكرها قليلة جداً، إضافة إلى عدم الإشارة إلى أنها من كلام رسول الله، وقد ساقها سيبويه إما للاستدلال بها، أو لتوجيه ظواهر إعرابية فيها. ومما ساقه للاستدلال به ما جاء في باب ماينتصب على الحال بعد خبر المبتدأ، ذلك في قوله: <<وقد يكون (هذا) وصواحبُه بمنزلة (هو)، ويُعرّف به، تقول: هذا عبد الله فاعرفْه؛ إلاّ أنّ (هذا) ليس علامةً للمضمر، ولكنك أردت أن تعرّف شيئاً بحضرتك. وقد تقول: هو عبد الله، وأنا عبد الله فاخراً أو مُوعِداً. أي اعرفْني بما كنتَ تَعرف، وبما كان بلغَك عنّي، ثم يفسر الحالَ التي كان يَعلمه عليها أو تُبلغه فيقول: أنا عبدُ الله كريماً جواداً، وهو عبد الله شجاعاً بطلاً. وتقول: (إني عبدُ الله)؛ مصغّراً نفسه لربّه، ثم تفسّر حال العبيد فتقول: **(آكلاً كما تأكل العبيد)**>>(١)، وورد في طبعة أخرى **(إني عبد الله آكلاً كما يأكل العبد، وشارباً كما يشرب العبد)**(٢)؛ فقد استدل بالحديث الشريف على جواز مجيء الحال بعد خبر المبتدأ بغضّ النظر عمّا اعترى الحديث من تغيير في لفظه دون معناه.

ومما ذكره أيضاً في باب التنازع، ورجح فيه عمل الفعل الثاني لقربه من المعمول قوله: <<وإنما كان الذي يليه أولى لقرب جواره، وأنه لاينقضُ معنىً، وأنّ المخاطَب قد عرف أنّ الأوّلَ قد وقع بزيدٍ، كما كان: خشّنتُ بصدره وصدرِ زيدٍ وجهَ الكلام، حيث كان الجر في الأوّل، وكانت الباءُ أقربَ إلى الاسم من الفعلِ ولاتنقض معنىً، سوّوا بينهما في الجرّ كما يستّويان في النصب.

---

(١)- الكتاب ٢/٨٠.

(٢)- المصدر السابق (بولاق) ١/٢٥٧، وما ورد في كتب السنن والآثار جاء بلفظ آخر، ويبدو أن ما ذكره سيبويه هو رواية الأدباء، وأصحاب العربية فيه، فقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٢/٣٠، بألفاظ قريبة ممّا نحن بصدده، وفيه: <<**إنما أنا عبد آكلُ ..... وأشربُ....**>>، والمعروف في كتب السنن: <<**آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**>>، انظر فهرس شواهد سيبويه لأحمد راتب النفاخ ٥٧.

ومما يقوي ترك نحو هذا لعلم المخاطب، قوله عزّ وجلّ : **والحافظينَ فروجَهمْ والحافظاتِ والذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ**(١) فلم يُعمِل الآخرَ فيما عمل فيه الأولُ استغناءً عنه، ومثل ذلك (**ونخلَعُ ونترك مَن يفجُرُكَ**)(٢) وهذا النص يظهر لنا منهج سيبويه في الاستدلال فهو يورد الظاهرة النحوية، ويستدل لها بكلام العرب، وأقوالهم، ثم يستدل بالقرآن الكريم، ثم يقول: (ومثل ذلك) فيورد الحديث الشريف؛ فهو إذاً من باب الاستئناس به لاغير.

وفي معرض حديثه عن اسم التفضيل نقل لنا سيبويه حديثاً آخر وهو قوله (ص): <<**مامن أيامٍ أحبُّ إلى الله عزّ وجلّ فيها الصوم منه في عشرِ ذي الحجّة**>>(٣) بعد أن أخذ من كلام العرب المثال الذي ذكره كل النحاة تقريباً، وهو: ما رأيت أحداً أحسنَ في عينيه الكحل منه في عينه. ثم تحدث بإسهاب كبير عن مسألة الكحل، وفصّل، وعلّل، ثم قال: (ومثل ذلك)، مشيراً إلى حديث الرسول (ص) وواضعاً إياه في مرتبة متأخرة من مراتب الاستدلال(٤) إضافة إلى التباين في اللفظ بينه وبين ماذكر في كتب الصحاح.

والطريقة الثانية التي ذكر فيها الأحاديث كانت توجيهاً للظواهر الإعرابية فيها كما أسلفت. من ذلك حديثه عن المفعول المطلق المنصوب بفعل محذوف، فبعد أن فصل في نصب (سلاماً) و(حمداً)، و (شكراً)، و (سبحان الله)، و أمثالها واستدل بكلام العرب، واشعارهم، وآي القرآن الكريم

---

(١)- الأحزاب ٣٣/٣٥.

(٢)- الكتاب ١/٧٤، وقوله (**ونخلع ونترك من يفجرك**) هو قطعة من دعاء القنوت المختار عند الحنفية. انظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٥٨.

(٣)- لم يرد في كتب السنن حديث بهذا اللفظ. والذي ورد حديثان يقرب لفظهما منه؛ أولهما عن أبي هريرة عن النبي (ص): (**مامن أيام أحب إلى الله أن يُتعبد له فيها من عشر ذي الحجة، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر**) وثانيهما عن ابن عباس قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):(**مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**، فقالوا: يارسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ !. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ولا الجهاد في سبيل الله إلاّ رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**). انظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ٥٨.

(٤)- انظر الكتاب ٢/٣١-٣٢.

قال: ‹‹وأما سُبُّوحا قُدّوسا ربَّ الملائكة والروحِ› فليس بمنزلة (سبحان الله)، لأن السُّبُّوحَ والقدّوسَ اسم، ولكنه على قوله: أذكر سبّوحا قدوسا. وذاك أنه خطر على باله أو ذكره ذاكر فقال: سبوحاً، أي ذكرتَ سبّوحا››(١)، ثم ذكر سيبويه رواية أخرى حين قال: ‹‹ومن العرب من يرفع فيقول: سُبّوح، قُدّوس ربُّ الملائكة والروح، كما قال: أهلُ ذاك، وصادق والله، وكلُّ هذا على ماسمعنا العربَ تتكلم به رفعاً ونصباً››(٢)

فرواية الرفع (سبّوح، قدّوس) نسبها إلى العرب في كلامهم، وأظنُّ أن سيبويه لم يسمع هذا الدعاء من أفواه العرب، ولكنه نوع من القياس الذي قاسه على كلامهم فأجاز فيه وجه الرفع(٣)

ومما وجّه أيضاً قول الرسول (ص)(كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه، وينصّرانه)(٤) ففي حديثه عن ضمير الفصل أورد كثيراً من كلام العرب وآيات القرآن الكريم(٥) ثم ذكر قوله(ص) ووجه قائلاً: ‹‹وأما قولهم: (كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبوه هما اللذان يهوّدانه ، وينصّرانه)؛ ففيه ثلاثة أوجهٍ: فالرفع وجهان(٦)، والنصب وجه واحد. فأحد وجهَي الرفع أن يكون المولود مضمراً في يكون، والأبوان مبتدآن، وما بعدهما مبني عليهما، كأنه

---

(١)- الكتاب ١/٣٢٧.

(٢)- هو من أدعية الركوع، كان الرسول (ص) يقوله في ركوعه وسجوده. وروايتهم جميعا (سُبّوح قدّوس) بالرفع. انظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٥٧. والكتاب ١/٣٢٧.

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٩٤.

(٤)- أخرجه من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة تختلف عن لفظ سيبويه البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود والترمذي، ومالك، وأحمد. انظر تفصيل ذلك في فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٥٧-٥٨.

(٥)- انظر الكتاب ٢/٣٨٩-٣٩٢.

(٦)- ذكر السيرافي وجهاً ثالثاً، وهو أن يكون في (يكون) ضميرُ الشأن، وما بعده مبتدأ وخبر مُفسر له. الكتاب ٢/٣٩٣(الحاشية).

قال: حتى يكون المولود أبواه اللذان يُهوّدانه وينصّرانِه. ومن ذلك قول الشاعر، رجل من بني عَبْس:(١)

إذا ما المرءُ كان أبوه عبسٌ فحسبكَ ما تريد إلى الكلام(٢)

وقول آخر:

متى ما يُفِدْ كسباً يكُنْ كلُّ كسبِهِ له مَطْعَمٌ من صدر يومٍ ومأكلُ(٣)

والوجه الآخر، أن تُعمِل (يكون) في الأبوين، ويكونَ (هما) مبتدأ، وما بعده خبراً له. والنصب على أن تجعل (هما) فصلاً››.(٤)

وفي حديثه عن الحكاية، وإبقاء المحكي على حاله قال: ‹‹فإن أردت حكاية هذه الحروف تركتها على حالها كما قال: (**إن الله ينهاكم عن قِيلَ وقالَ**)(٥) ومنهم من يقول : (عن قيلٍ وقالٍ، لمّا جعله اسماً.››(٦) فهو يورد الحديث من غير إشارة إلى قائله(ص) وهذا شأنه في حديثه عن أصل نِعْمَ وبئس، فقد ذكر أنهما على (فَعِلَ)، ثم استدل بعد أمثلة كثيرة بقول رسول الله: (فَبِها ونِعْمَتْ) (٧).

يتبين لنا أنّ كلّ الأحاديث الشريفة التي ذكرها سيبويه، ليست موافقة في الرواية لما روي في كتب السنن في المعنى ذاته، كما أنّ صاحب الكتاب لم يستشهد بها على أنها أحاديث شريفة، بل استخدم عبارات توهم بأنها كلام صادر عن العرب، والمكان الذي وضع فيه الحديث كان في مؤخرة

---

(١)- لسان العرب (نصر) ٥/٢١٢.

(٢)- نَسَبَ البلاغة والفصاحة إلى عبس لأنه منهم. و(إلى) بمعنى (من) في هذا البيت. انظر الكتاب ٢/٣٩٤(حاشية).

(٣)- البيت من الخمسين التي لم يعرف قائلها. الكتاب ٢/٣٩٤(حاشية).

(٤)- المصدر السابق ٢/٣٩٤.

(٥)- سقط هذا الحديث من فهارس كتاب سيبويه لعضيمة، وفهرس شواهد سيبويه للنفاخ، وقد ورد في لسان العرب بصيغة مشابهة. انظر الكتاب ٣/٢٦٨. ولسان العرب (قول) ١١/٥٧٣.

(٦)- الكتاب ٣/٢٦٨.

(٧)- المصدر نفسه ٤/١١٦، ٥/٣٢.

العرض النحوي المسهب الذي اشتمل على كلام العرب ولغاتهم، وشعرهم، وكثير من آيات القرآن الكريم، إضافة إلى أن بعض الأحاديث كان للاستدلال وبعضها الآخر كان توجيهاً للحديث(١)

الحديث النبوي الشريف وتوجيه الظواهر الإعرابية

تعرضنا في الفقرة السابقة للأحاديث الشريفة، وبينّا الطريقة التي أفاد فيها سيبويه من الأحاديث. فقد ذكر ثلاثة أحاديث، واستدلّ بها لإثبات قاعدة، ناهيك بالمكانة التي أولاها للحديث الشريف حيث قدّم عليه كلام العرب، والآيات القرآنية إضافة إلى التغيير في لفظه.

أما الأحاديث الباقية فقد وجّهها وأجاز فيها أكثر من وجه، نحو قوله(ص): (**سبّوحاً قدّوساً ربّ الملائكة والروح**) فقد نصبها بفعل (أذكر) مجيزاً فيها الرفع لأنه سمع العرب تتكلم به(٢). وقوله:<<سمعنا العرب تتكلم به رفعاً ونصباً>> يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه لم يسمع هذا الدعاء من أفواه العرب، لكنّه قاسه على كلامهم فأجاز فيه وجهاً آخر(٣) ومثل ذلك بقية الأحاديث التي وجّهها(٤)

ظاهرة أخرى تتعلق بأسلوب توجيهه الذي اعتمده نحو: (ويقول: **إني عبد الله... آكلاً كما يأكل العبد** ...)، أو (ومثل ذلك: **ونخلع ونترك مَن يفجرك**) أو(ومن ذلك : **مامن أيام أحبّ إلى الله**...) أو (وأما قولهم: **كل مولود** ...) فهي تُشعرنا أنه لم يولِ ما بعدها أيّ قيمة فهو يعطف هذه العبارات على نظيرٍ لها قبلها، وهذه طريقته في استخدام الحديث(٥) وهذا يدل على أن سيبويه ومَن

---

(١)- بقي الاستدلال بالحديث كما رسمه المتقدمون حتى جاء ابن مالك ت ٦٧٢هـ الذي أكثر من الاستدلال به، وقد واجه نقداً شديداً كنقد أبي حيان له في شرح التسهيل. انظر الاقتراح للسيوطي ١٧.

(٢)- انظر الكتاب ١/٣٢٦-٣٢٧.

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٩٤.

(٤)- انظر الكتاب ٢/٣٩٣-٣٩٤، ٣/٢٦٨، ٤/١١٦.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٧٤،٣٢٧، ٢/٣١-٣٢،٨٠،٣٩٣-٣٩٤، ٣/٢٦٨، ٤/١١٦.

سبقه كانوا قليلي العناية بالحديث الشريف، ولم يحاولوا أن يستقروا لغة الحديث إذا ماقورن مع استقرائهم لكلام العرب شعراً ونثراً.

عدم الدقة في نقل الأحاديث الشريفة

ليس صعباً أن ندرك الفرق بين الأحاديث التي ذكرها سيبويه، والأحاديث التي وردت في كتب الصحاح، فهو واضح بيّن ؛ فقد ذكر سيبويه قوله (ص): (**إني عبد الله آكلاً كما يأكل العبد، وشارباً كما يشرب العبد**)(١)، وهذه الصيغة لاوجود لها في كتب السنن والآثار إنما ورد المعنى بصيغة أخرى هي: (**إني عبد الله آكلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**)(٢)، وزِيْد على ذلك في موضع آخر قوله (ص): (**فإنما أنا عبد**)(٣)، وزِيد عليه في مكان ثالث قوله(ص): **فوالذي نفسي بيده لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً كأساً**)(٤)

وذكر أيضاً قوله (ص): **سبّوحاً قدوساً ربَّ الملائكة والروح** بنصب (سبّوحاً قدّوساً)(٥) في حين لم ترد رواية النصب هذه في أيّ من كتب الصحاح، بل ذكر وجه الرفع (سبّوحٌ قدّوسٌ) وهو الوجه الذي وجّه بـه الحديث ناسـباً إياه إلى العرب، لا إلى الرسـول الكريم؛ ذلك في قوله:›› ومن العرب من يـرفع

---

(١)- الكتاب ٢/٨٠.

(٢)- أخرجه ابن سعد في طبقاته ١/٣٨١. (بيروت) عن عائشة.

(٣)- المصدر السابق ١/٣٧١.

(٤)- انظر فيض القدير لمحمد المناوي ١/٥٥، (طبعة مصطفى محمد) مصر، وسير النبلاء للذهبي ٢/١٣٧، ونعته بأنه حديث حسن غريب، وانظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٥٧.

(٥)- الكتاب ١/٣٢٧.

فيقول: سُبّوحٌ قدّوسٌ..وكلّ هذا على ما سمعنا العرب تتكلّم به››، وهو الوجه الذي ذكرته كلُّ كتب الصحاح(١)، وذكر أيضاً قوله (ص): (مامن أيام أحبّ إلى الله فيها الصوم منه في عشر ذي الحجة)(٢)، وهذا الحديث لم يرد بهذا اللفظ في شيء، من كتب السنن، والذي ورد حديثان(٣) يختلف لفظاهما عمّا أورده سيبويه.

وذكر أيضاً قوله (ص): كلُّ مولود يُولَد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه، وينصّرانه)(٤)، وهذا النص على الرغم من أنّه أقرب الأحاديث التي ذكرها سيبويه إلى ما ذُكر في كتب السنن، فإنه لايخلو من اختلاف في لفظه(٥).

---

(١)- هو من أدعية الركوع، أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الصلاة - باب مايقال في الركوع والسجود) ٢/٥١(طبعة دار الخلافة)، وأبو داود في (كتاب الصلاة) من سننه ١/٣٢٥ من (عون المعبود)، والنسائي (كتا ب التطبيق - باب الذكر في الركوع ١/١٦٠-١٦١(طبعة مصر ١٣١٢ هـ) وأحمد في المسند ٦/٩٤،٢٣، ١١٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٧٦، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٤٤، ٢٦٦، كلهم عن عائشة. وفي رواية مسلم، وأبي داود، وبعض روايات أحمد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوله في ركوعه وسجوده. وروايتهم جميعاً (سبّوحٌ قدّوسٌ) بالرفع إلاّ أنّ صاحب (عون المعبود) نقل عن القاضي عياض أنّه قيل فيه (سبوحاً قدوساً) على تقدير: أسبّح سبّوحاً، أو أذكر، أوأعظم، أو أعبد. انظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٥٧.

(٢)- الكتاب ٢/٣١-٣٢.

(٣)- ورد ذكر الحديثين في كلامنا على (الاستدلال بالحديث الشريف وأهميته) وانظر في ذلك الجامع الصحيح للترمذي ٢/٥٨-٥٩، وفيض القدير للمناوي ٥/٤٧٤-٤٧٥، وميزان الاعتدال في نقد الرجال ٤/١٠٠مصر ١٣٢٥هـ.

(٤)- الكتاب ٢/٣٩٣.

(٥)- أخرجه من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة تختلف عن لفظ سيبويه: البخاري في الصحيح (كتاب الجنائز ٢/٩٥-١٠٠، وكتاب التفسير - سورة الروم ٦/١١٤، وكتاب القدر ٨/١٢٣، طبعة بولاق)، ومسلم في صحيحه (كتاب القدر ٨/٥٢-٥٤، طبعة دار الخلافة)، وأبو داود في سننه(كتاب السنة باب القدر ٤/٣٦٦ من عون المعبود)، والترمذي في جامعه (كتاب القدر ٣/١٩٧)، ومالك في الموطأ(كتاب الجنائز ٢٤١ تح: محمد فؤاد عبد الباقي)، وأحمد في المسند٢/٢٣٣، ٢٧٥، ٢٩٣، ٤١٠، ٤٨١ وانظر فيض القدير للمناوي ٥/٣٣، وانظر فهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٥٧-٥٨.

من خلال الأحاديث الشريفة التي ذكرت، يظهر لنا اختلاف اللفظ، وبقاء المعنى. ولعل تجويز الرواية بالمعنى هو الذي جعل سيبويه، والخليل وغيرهما من الأئمة يتركون الاستدلال بالحديث الشريف، ولايولونه العناية اللازمة(١). وإذا تعرضوا لبعض منه فإنهم يقولون: (قالت العرب)، أو (قالوا)، أو (مثل قولهم)، وغير ذلك من العبارات التي توحي بأن المستدل به كلام صادر عن العرب الذين يُستدل بكلامهم(٢).

إقلال سيبويه من الاستدلال بلغة الحديث الشريف:

بعد اطلاعنا على الأحاديث الشريفة التي ذكرها سيبويه ، وعلى الرغم من تباين اللفظ وتطابق المعنى بينها، وبين ماورد في كتب الصحاح، لايسعنا أن ننكر معرفته بأصل الكلام المنقول، فهو يدرك أنه لرسول الله (ص) بدليل تقارب الألفاظ الشديد في الأحاديث كلها، أما إغفاله لصاحب الكلام المنقول فهو نهج انتهجه في أماكن كثيرة من كتابه يصعب حصرها، لكنّ بعضاً منها يدلّ على ما نقول، من ذلك حديثه عن إعمال (لا) في النكرة، وما دار بينه وبين أستاذه الخليل؛ ‹‹وتقول: قضيةٌ ولا أبا حسنٍ) تجعله نكرة. قلت فكيف يكون هذا، وإنما أراد علياً رضي الله عنه، فقال: لأنه لايجوز لك أن تعمل لا في معرفة ، وإنما تعملها في النكرة››(٣) فهو لم يصرح باسم من قال: (قضيةٌ ولا أبا حسنٍ معتمداً في ذلك شهرة العبارة ومعرفة الناس لقائلها، وكذلك شأنه في كثير ممّا قاله شعراً ونثراً.

أما الاختلاف في رواية الحديث، فلا يمكننا أن نعتبره تحويراً، لعدم وجود دافع يدفع إمام النحاة إلى هذا الأمر، ولايعدو الأمر أن يكون رواية نقلت إليه ، أو أخذها عن شيخ من شيوخ الحديث(٤)

---

(١)- الفكرة لابن الضائع في شرح الجمل، نقلاً عن فهارس كتاب سيبويه لعضيمة ٧٦٢.

(٢)- المصدر السابق ٧٦٢.

(٣)- الكتاب ٢/٢٩٧

(٤)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٤٩،١٩٥.

وذهب بعض النحاة المحدثين وعلل قلّة الاستدلال بالحديث بأن النحاة لم يكونوا يجدون ما يكفيهم من حديث رسول الله (ص)(١)؛ ونحن لايمكننا أن نذهب مذهبه لأن سيبويه درس على كثير من أئمة الحديث، فقد أخذ علمه عن حمّاد بن سلمة بن دينار البصري(ت ١٦٧هـ) الذي روى له مسلم، والأربعة(٢). وأخذ عن أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) وكان ثقة مأموناً في رواية الحديث، وكان أبوه أوس بن ثابت من رجال الحديث(٣)، ومن أقرانه الذين درس معهم علي بن نصر الجهضمي الذي برع في الحديث (ت ١٨٧ هـ)(٤)، وكان مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) قد وضع كتابه: (الموطّأ) قبل وفاة سيبويه، وما من شكّ في أنه اطّلع على الموطّأ، لاسيما أنه -أعني سيبويه- من الذين تابعوا العلماء، ونهلوا من ثقافة العصر آنذاك مالا يخفى على أحد. يضاف إلى ذلك ما جمعه أبو عبيدة(٥)، والأصمعي(٦)، والنضربن شميل(٧) من كتب غريب الحديث آنذاك، ويضاف كذلك علم شيخه الخليل بن أحمد، وما ضمّه كتاب (العين) من أحاديث، بعد أن عرفنا الصلة الكبيرة بين سيبويه وأستاذه، وحتمية التأثر والتأثير بين الاثنين.

---

(١)- انظر في أصول النحو للأفغاني ٤٩.

(٢)- انظر إنباه الرواة للقفطي ٣٢٩/١، ومقدمة الكتاب ٨/١-٩، سيبويه إمام النحاة لناصف ٩٠.

(٣)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي ٤٢، وإنباه الرواة للقفطي ٣٠/٢، وبغية الوعاة للسيوطي ٢٥٤، ومقدمة الكتاب ١٢/١.

(٤)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٦٧، وبغية الوعاة للسيوطي ٣٥٨، ومقدمة الكتاب ١٤/١.

(٥)- معمر بن المثنى ١١٠-٢٠٩ هـ من أئمة العلم بالأدب واللغة، وكان من حفّاظ الحديث. انظر وفيات الأعيان لابن خلّكان ١٠٥/٢، ومعجم الأدباء للحموي ١٦٤/٧-١٧٠، بغية الوعاة للسيوطي ٣٩٥، وميزان الاعتدال للذهبي ١٨٩/٣.

(٦)- عبد الملك بن قُريب ١٢٢-٢١٦ هـ راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. انظر وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢٨٨/١، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤١٠/١٠، ونزهة الألباء للأنباري ١٥٠.

(٧)- النضر بن شُميل ١٢٢-٢٠٣ هـ أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب، ورواية الحديث، وفقه اللغة، له: (غريب الحديث)، وانظر وفيات الأعيان لابن خلّكان ١٦١/٢، وطبقات النحويين للزبيدي ٥٣-٦٠، والمزهر للسيوطي ٢٣٢/٢.

وخلاصة القول أن سيبويه لم يُعِر الحديث الشريف اهتماماً في استدلاله، وما أورده من ذلك لم يتعدّ الاستئناس على الرغم من معرفته بالحديث وإحاطته به، وهذا يعود إلى طبيعة الحديث الشريف وروايته، ورواته ؛ فالأحاديث أغلبها مرويّ بمعناه، وتداوله غيرُ العرب فبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا فإننا نرى صوراً شتى للحديث الواحد. وقد وضّح السيوطي ذلك في قوله: ‹‹إنّ غالب الأحاديث مرويّ بالمعنى، وقد تداولها الأعاجم والمولّدون قبل تدوينها، فرووها بما أدت إليه عبارتهم، فزادوا ونقصوا، وقدّموا وأخّروا، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفة››(١)

(١)- الاقتراح للسيوطي ١٦.

* كــلام العـــــــرب *

تحمل عبارة "كلام العرب" معنى واسعاً يشمل كثيراً من عناصر الاستدلال التي أخذ بها الخليل وسيبويه، ولابد لنا قبل الدخول في هذه العناصر من أن نبيّن أبعادها؛ فهي تشمل ثلاثة أقسام: الشعر، والأمثال، ولغة التخاطب.

- الشـــــعر -

استحوذ الشعر على اهتمام النحاة على مرّ العصور، وعدّوه دليلاً على صحة القواعد العربية، حتى إنهم استدلوا به على صحة الظواهر النحوية واللغوية التي جاءت في القرآن الكريم، فلا غرابة إذا زادت شواهد الشعر في كتب النحاة على شواهد القرآن الكريم . وسيبويه لايخرج عن هذه القاعدة شأنه شأن شيوخه الذين أخذ عنهم.

والملاحظ أنّ سيبويه لم يضمّن كتابه مقدمة يبين فيها منهجه الذي اعتمده في تأليف (قرآن النحو) كما أطلقوا عليه، وهذا الأمر اتصف به مؤلفو تلك الحقبة من الزمن في شتى المعارف والفنون، فكتابة المقدمات طريقة جاءت بعد عصر سيبويه؛ وهو ما يدفعنا إلى محاولة معرفة المصادر التي نهل منها سيبويه، ولاشكّ أنّ مصادره كانت شفويه في الغالب، أي أنها جاءت من طريق السماع، وهي :

١- مشافهة سيبويه للأعراب ونقله عنهم:

عاش سيبويه في عصر أدرك فيه العلماء الخطر الذي أحاط بلغة القرآن الكريم، لكنّ مدينة البصرة التي عاش فيها كانت حصناً منيعاً للغة، هي وبعض الحواضر الأخرى كالكوفة مثلاً، وقد ساعده وجوده في البصرة على أن يلتقي الأعراب في سوق المِربَد يسمع منهم الأبيات، بل القصائد ليستدل بها في استنباط قواعد اللغة العربية، أو ترسيخ أصل من أصولها.

وقد صرح سيبويه في كتابه كثيراً بأنه سمع من الأعراب مشافهة دون وسيط وهذا التأكيد على السماع يدلّ على رغبته في إشعارنا بدقة مايقول، وسلامته؛ فهو ينقل ما سمعه من الأعراب، أو ممّن يوثق بعربيته، أو من بعض العرب الموثوق به؛ وهو يعبّر عن ذلك بعبارات متنوعة صريحة؛ سواء أذكر اسم الشاعر الذي روى عنه الأعراب أم لم يذكر.

من ذلك استخدامه لعبارة (سمعناه ممن يوثق بعربيته) في قوله:

إذا مِتُّ كان الناسُ صِنفانِ: شامتٌ   وآخرُ مُثْنٍ بالذي كنتُ أصنَعُ››(١)

وقد يستخدم عبارة (سمعناه من بعض العرب الموثوق به) نحو قوله:

‹‹وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به يرويه:

فقالتْ حنانٌ ما أتى بك ههنا   أذو نَسَبٍ أم أنتَ بالحيّ عارفُ(٢)

لم تُرِدْ حِنّ، ولكنها قالت: أمرنا حنان، أو ما يصيبنا حنانٌ››(٣)

---

(١)- الكتاب ١/٣٦، (بولاق) وانظر ٧/٤٢٥.

(٢)- البيت للمنذر بن درهم الكلبي. والحنان: الرحمة. سألته عن علّة مجيئه، أله قرابة بها أم له معرفة بحيّها؟ قالت ذلك حين فاجأها فأنكرته، أو تظاهرت بإنكاره. والشاهد فيه: رفع (حنان) بتقدير مبتدأ، أي أمرنا حنان، وهو نائب عن المصدر الواقع بدلاً من الفعل .

(٣)- الكتاب ١/٣٢٠ وانظر كذلك ١/٤٢٣، ٢/٩٢،٣٤٥.

وقد يقول: (سمعناه ممن يرويه من العرب) كقوله:

<<وقال المرار الأسدي:

سَلَّ الهمومَ بكلِّ مُعْطي رأسِهِ ناجٍ مُخالِطِ صُهْبَةٍ مُتَعَيِّسِ(١)

مُغتالِ أحْبُلِهِ مُبينٍ عنْقُهُ في منكِبٍ زَبَنَ المطيَّ عَرَنْدَسِ(٢)

سمعناه ممن يرويه من العرب ينشده هكذا>>(٣)

وقد يعبر عن سماعه بقوله : <<سمعنا من ينشد هذا البيت من العرب، وهو لكعب الغَنَوي:

وما أنا للشيء الذي ليس نافِعي ويغضَبَ منه صاحبي بقَؤُولِ(٤)

والرفع أيضاً جائز حَسَن>>(٥) في (ويغضب).

ويستخدم أحياناً عبارة (سمعت رجلاً من العرب) في نحو قوله:

<<وسمعت رجلاً من العرب يُنشد هذا البيت كما أخبرك به:

---

(١)- معطي رأسه: ذلول منقاد؛ يعني البعير. ناج: سريع ، والنجاء: السرعة. والصهبة: البياض الضارب إلى الحمرة، والمتعيّس والأعيس: الأبيض تخالطه شقرة. يقول سلّ همك اللازم لك بفراق من تهوى، ونأيه عنك، بكل بعير ترتحله للسفر هذا نعته. وشاهده إضافة(معط) إلى الرأس مع نية التنوين والنصب، والدليل عليه إضافة (كل) إليه لأن (كلّ) هنا لاتضاف إلاّ إلى نكرة. الكتاب ١/٤٢٦.

(٢)- اغتال الشيء: ذهب به، والمراد استوفى الحبال التي يشد بها رحله لعظم جوفه. والمبين: البيّن الطول. زَبَنَ المطيّ زبناً: دفعها. والمطيّ: جمع مطيّة، وهي ما يُمتطى ظهرُه. والعرندس: الشديد. والشاهد فيه: (مغتال أحبُلِهِ) حيث وقع صفة للنكرة .

(٣)- الكتاب ١/٤٢٦، وانظر ٢/١٥١-١٥٢.

(٤)- تقديره: وما أنا بقؤول للشيء غير النافع، ولأن يغضب منه صاحبي، أي لستُ بقؤول لما يؤدي إلى غضبه، لأنه لايقول الغضب، وإنما يقول ما يؤدي إلى الغضب، ويجوز: ويغضبُ، عطفا على صلة الذي، وهو أظهر وأحسن.

(٥)- الكتاب ٣/٤٦.

وكنت أُرى زيداً كما قيل سيّداً   إذا إنّه عبدُ القفَا واللَّهازمِ ››(١)

أو يشير إلى أعرابي وينعته بالفصاحة كقوله:

‹‹ وأما حيَّهَلَ التي للأمر فمن شيئين، ...... والدليل على أنهما جُعلا اسماً واحداً قول الشاعر(٢):

وهيَّجَ الحَيَّ مِن دارٍ فظلَّ لهمْ   يومٌ كثيرٌ تناديه وحيَّهَلَهْ ››(٣)

وقد يشير إلى من سمع منهم بأنهم من فصحاء العرب، كقوله:

‹‹وسمعنا فصحاءَ العرب يقولون في بيت امرئ القيس:

فقلتُ يمينُ اللهِ أبرحُ قاعداً   ولو قطَّعوا رأسي لديك وأوصالي››(٤)

---

(١)- عبد القفا: أي عبد قفاه. كما يقال: لئيم القفا، وكريم الوجه. واللهازم: جمع لِهزِمة وهي عظم ناتئ في أول الحنك تحت الأذن. وذلك لأن القفا موضع الصفع، واللهزمة موضع اللكز. والشاهد فيه جواز فتح (أنّ) وكسرها بعد (إذا) فالفتح على تأويل المصدر المبتدأ، والإخبار عنه بإذا، والتقدير: فإذا العبودية، أو الخبر المحذوف، أي فإذا العبودية شأنه. والكسر على نية وقوع المبتدأ والخبر بعد (إذا). الكتاب ١٤٤/٣.

(٢)- هو رجل من بني أبي بكر بن كلاب، أو من بجيله. انظر المقتضب ٢٠٦/٣، وشرح المفصل ٤٦/٤، وخزانة الأدب ٤٢/٣.

(٣)- هيَّجَهم: فرّقهم. ودار: واد قريب من هجر. وصف جيشا سُمع به وخيف منه، فانتُقِل عن المحلّ من أجله، وبودر بالانتقال قبل لحاقه. والشاهد فيه: (حَيَّهَلَه) وإعرابه؛ لأنه جعله اسماً للصوت وإن كان مركبا من شيئين، فهو بمنزلةِ معديكرب في وقوعه اسما للشخص. الكتاب ٣٠٠/٣.

(٤)- ذكر أنه تعرض للرقباء الذين أمروه بالانصراف حين طرق محبوبته. أبرح، أي: لا أبرح. والأوصال أعضاء الجسم والشاهد في: (يمين الله) إذ رفع على الابتداء مع إضمار الخبر، اي لازمني. والنصب في كلامهم أكثر على إضمار فعل. الكتاب ٥٠٣/٣-٥٠٤، ديوان امرئ القيس ٣٢، والمقتضب ٣٢٦/٢، الخصائص ٣٨٤/٢، شرح المفصل ١١٠/٧.

وقد يعبّر بصيغة أكثر شمولية وفيها إشارة مبطنة إلى فصاحة من يشير إليه، نحو قوله:

‹‹ سمعنا أهل هذه اللغة يقولون، قال الحطيئة

وإذ قال مَوْلاهُمْ على جُلِّ حادثٍ   من الدهرِ رُدُّوا فضْلَ أحلامِكِمْ رَدُّوا››(١)

وإمعاناً في الدقة التي يتوخاها سيبويه، فإنه يبين أنه سمع بعض الشواهد عن بعض الثقات يروونها عن العرب، أو سمعها ممّن يرويها عن العرب، وهو بهذا العمل يفرّق بين نوعين من الشواهد، نوع سمعه من الأعراب مباشرة وضحناه سابقاً، ونوع سمعه من بعض الثقات يروونه عن العرب. والأمثلة كثيرة، منها قوله:

‹‹ وقال المرّار الأسدي:

أنا ابن التاركِ البكريِّ بشرٍ   عليه الطيرُ ترقُبُهُ وقوعا(٢)

سمعناه ممّن يرويه عن العرب››(٣) وقد يبين أنه سمعه من أهل الثقة الذين يروونه عن العرب، أو مايشابه ذلك من عبارات مطمئنة؛ من ذلك قوله: ‹‹ونظير: أحقاً أنك ذاهب من أشعار العرب قول العبدي: (٤)

أحقاً أن جيرتنا استقلّوا   فنيّتُنا ونيّتُهم فريقُ (٥)

---

(١) يمدح آل قريع، وهم حي من تميم. المولى هنا: ابن العم. جلّ حادث، أي: حادث جليل. أي إذا احتاج المولى إليهم عادوا عليه بفضل حلومهم، ولم يخذلوه. والشاهد فيه: كسر الكاف من (أحلامِكِمْ) تشبيهاً لها بهاء (أحلامِهِم) لأنها أختها في الإضمار، ومناسبة لها في الهمس. وهي لغة ضعيفة؛ لأن أصل الهاء الضم، والكسر عارض عليها بخلاف الكاف، فحمل الكاف عليها بعيد ضعيف ؛ لأنها أبين منها وأشد. الكتاب ٤/١٩٧.

(٢)- بشر: هو بشر بن عمرو بن مرثد، قتله رجل من بني أسد. ترقبه الطير: أي تنتظر موته بفارغ الصبر لتنقض عليه، لأنها لاتقع على القتيل وبه رمق. والوقوع: جمع واقع ضد الطائر. والشاهد فيه: إضافة (التارك) إلى (البكريّ) تشبيها بالحَسَنِ الوجه، لأنه مثله في الاقتران باللام. وللعلماء كلام في مذهب سيبويه هذا.

(٣)- الكتاب ١/١٨٢، وانظر في مثل ذلك ١/٢٨١-٢٨٢، ٢/٨٤،١٦٤،٣٣٦، ٣/٥٧-٥٨.

(٤)- هو المفضّل النكري، والعبدي نسبة إلى عبد القيس، والنكري نسبة إلى نكرة . همع الهوامع للسيوطي ٢/٧١، لسان العرب (فرق) .

(٥)- استقلّوا: ذهبوا وارتحلوا. والنية: الوجه الذي ينويه المسافر. والفريق: المفرّقة. والشاهد فيه: نصب (حقاً) على الظرف ، وفتح (أنّ) لأنها وما بعدها في تاويل مبتدأ خبره الظرف، والتقدير: أفي حقّ استقلال جيرتنا. ولايجوز كسر (إنّ) لأن الظرف لايتقدم على (إنّ) المكسورة لانقطاعها مما قبلها.

...... وقال عمر بن أبي ربيعة:

أألحقَّ أنْ دارُ الرباب تباعدَتْ　　　أو انْبَتَّ حبلٌ أنَّ قلبَكَ طائرُ(١)

وقال النابغة الجعدي:

ألا أبلغْ بني خَلَفٍ رسولاً　　　أحقّاً أنَّ أخْطَلَكُمْ هجاني(٢)

فكل هذه البيوت سمعناها من أهل الثقة هكذا››(٣)

وقد يكون مصدر سيبويه هو الشاعر نفسه كقوله: ‹‹وإنْ شئتَ حملتَهُ على الابتداء كما قال :

فتى الناس لايخفى عليهم مكانُه　　　وضِرغامةٌ إنْ هَمَّ بالحرب أوقَعا(٤)

وقال آخر :

إذا لقي الأعداءَ كان خَلاتَهُمْ　　　وكلب على الأدْنَيْنِ والجار نابِحُ(٥)

---

(١)- انبتّ انبتاتاً: انقطع، والحبل هنا حبل الوصل والاجتماع، وكنّى بطيران القلب، عن ذهاب العقل لشدة حزنه على فراقهم أو عبّر عن شدة خفقانه جزعاً للفراق فجعله كالطيران. والشاهد فيه: نصب (حقاً) على الظرف وفتح (أنَّ) بعده كما سبق.

(٢)- بنو خلف رهط الأخطل، من بني تغلب، وكان بين النابغة وبين الأخطل مهاجاة. والرسول: الرسالة، وهو مما جاء على (فعول) من الأسماء كالوضوء والطهور، وهي الرسالة أيضاً. والشاهد فيه: نصب(حقا) وفتح (أنَّ) كما تقدم.

(٣)- الكتاب ١٣٦/٣.

(٤)- الضرغامة: اسم من أسماء الأسد شبه به الممدوح في إقدامه وجراته. والشاهد فيه: ضرغامة، حيث حملت على الابتداء ، والتقدير : وهو ضرغامة. انظر اللسان (ضرغم).

(٥)- البيت من الخمسين التي لم يعرف لها قائل، والخلاة الرطبة من الحشيش، وهي واحدة الخلا. يصفه بضعفه عن مقاومة أعدائه، فهو سهل المآكل إذا لقوه، ولكنه إذا لقي أهله وعشيرته تنمّر، وصار كالكلب النابح.

كذلك سمعناهما من الشاعرين اللذين قالاهما.»»(١)

لم يخلُ كتاب سيبويه من أنواع أخرى من الشواهد التي استدل بها، كأن ينسب السماع إلى مجهولين كقوله: (هكذا سُمِعَ من العرب تنشده)(٢) أو (هذا كله سُمِعَ من العرب)(٣)، أو (وكذلك سمع هذا البيت من أفواه العرب)(٤)، أو (وأنشدنا لبعض العرب الموثوق بهم)(٥) ، وغير ذلك كثير.

هذا منهج الكتاب في مشافهة الأعراب، فهو يستخدم عبارات يشير فيها إلى سماعه عن الأعراب مباشرة من دون وسيط، واصفاً من يسمع عنه بالثقة والفصاحة، ويلجأ في بعض الأحايين إلى الاشارة إلى أنه سمع بعض الشواهد عن بعض الثقات يروونها عن العرب، وفي بعض المرات يغفل اسم من نقل عنه، ويعبّر عن ذلك بصيغة المبني للمجهول. وأساليب سيبويه هذه نراها عند كثير من النحاة، لكن الذي يميز أسلوبه هو أنه يُلحّ -كما رأينا- على نعت الأعرابي بالفصاحة، والثقة بطريقة أمينة دقيقة.

---

(١)- الكتاب ٦٨/٢.

(٢)- المصدر نفسه ١٣٩/١.

(٣)- المصدر نفسه ١٤٧/١.

(٤)- المصدر نفسه ٧٤/٢.

(٥)- المصدر نفسه ٩/٢.

٢- أخذه برواية الشيوخ:

من المصادر الهامة التي اعتمدها سيبويه أخذه عن شيوخه، وهو كثير جداً، ويتسم بالدقة والأمانة، ويدل على الأهمية البالغة التي أولاها لهذا الأمر، فهو ينقل عن شيخ حيناً، ويشير إلى روايات متعددة في الشاهد الواحد حيناً آخر، إذا ثبتت صحة هذه الروايات، ويتحرّى الدقة لقطع الشكّ عن أي بيت يرويه؛ فهو يعلّق على قول الشاعر:

أَلَمْ تَسألِ الربعَ القَواءَ فَينطِقُ ... وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بيداءُ سَمْلَقُ(١)

بقوله: <<وزعم يونس أنه سمع هذا البيت بـ (ألم). وإنّما كتبتُ ذا لئلاّ يقول إنسان: فلعلّ الشاعر قال: ألا>>(٢) ويلجأ في مواضع كثيرة حرصاً منه على صحة التمثيل والإنشاد إلى إيراد أمثلة متتالية دون أن يذكر اسم الشيخ؛ كحديثه عن أسماء الأفعال التي تأتي على وزن (فَعالِ)؛ فهو يقول: <<فأمّا ما جاء اسماً للفعل وصار بمنزلته فقول الشاعر:

مَناعِها مِن إبِلٍ مَناعِها ... ألا ترى الموت لدى أرباعِها(٣)

وقال أيضاً: (٤)

تَراكِها من إبِلٍ تَراكِها ... ألا ترى الموتَ لدى أَوْراكِها(٥)

---

(١)- البيت لجميل في ديوانه ١٤٤، والأغاني ٨/١٤٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/٦٣ وخزانة الأدب ٣/٦٠١، وهمع الهوامع للسيوطي ٢/١١،١٣١. والقواء: القفر. وقد تخيله ناطقا ليُعْتَبرَ بدروسه وتغيُّره، ثم نفى ذلك، وحقّق أنه لا يجيب سائله لعدم القاطنين به. والبيداء: القفر. والسملق: الأرض المستوية، أو الجرداء لا شجر فيها. والشاهد فيه رفع (ينطق) على الاستئناف والقطع، أي فهو ينطق. ولو أمكنه النصب على الجواب لكان أحسن. الكتاب ٣/٣٧ (الحاشية).

(٢)- الكتاب ٣/٣٧-٣٨.

(٣)- الأرباع: جمع رُبَع، وهو ولد الناقة الذي تلده في الربيع. الكتاب ٣/٢٧٠، خزانة الأدب ٢/٣٥٤ والإنصاف٣٠٨.

(٤)- البيت للطفيل بن يزيد الحارثي، انظر المقتضب للمبرد ٣/٣٦٩، ٤/٢٥٢، والكامل للمبرد ٢٦٩ ولسان العرب (ترك).

(٥)- الشاهد فيه، وفي البيت السابق: وقوع (مناعها) و (تراكها) اسمي فعل أمر. انظر الكتاب ٣/٢٧١ (الحاشية).

وقال أبو النجم(١):

حَذارِ من أرماحنا حَذارِ(٢)

وقال رؤبة:

نَظارِ كَيْ أرْكَبَها نَظارِ(٣)

ويقال نَزالِ، أي انزلْ. وقال زهير(٤):

ولَنِعْمَ حَشْوُ الدّرْعِ أنتَ إذا دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ>>(٥)

هذه طريقته في رواية الشعر عن شيوخه، وهي طريقة تتسم بالدقة، وغزارة الشواهد المستدلّ بها للوصول إلى تقعيد اللغة العربية.

أمّا شيوخه الذين سمع منهم فهم كثر، أفاد منهم في العلوم النحوية، والصرفية، واللغة، والقراءات، وغيرها(٦)، لكنّ الذي نحن بصدده، هو ما رواه عن شيوخه من الشعر، وهؤلاء هم: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ويونس بن حبيب، والأخفش الأكبر، وعيسى بن عمر، والأصمعي(٧) روى عنهم سيبويه الشعر على تفاوت بينهم.

---

(١)- انظر المقتضب للمبرد ٣/٣٧٠، مجالس ثعلب ٦٥١ أمالي ابن الشجري ٢/١١٠، الإنصاف في مسائل الخلاف للانباري ٣٥٩، شذور الذهب لابن هشام ٩٠ ولسان العرب (حذر).

(٢)- أي احذروا من رماحنا عند اللقاء.

(٣)- لم يرد الشطر في ديوانه رؤبة. انظر المقتضب للمبرد ٣/٣٧٠، وأمالي ابن الشجري ٢/١١٠، والإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري ٥٤٠. يريد: انتظر حتّى اركبها، معدول من قوله انظر، أي: انتظر. يقال: نظرته أنظره بمعنى انتظره.

(٤)- ديوان زهير بن أبي سلمى ٨٩ (دار الكتب ١٣٦٣هـ)، المقتضب للمبرد ٣/٣٧٠، أمالي ابن الشجري٢/١١١ الإنصاف ٥٣٥، شرح المفصل لابن يعيش ٤/٢٦،٥٠، ٥٢، خزانة الأدب للبغدادي ٣/٦١.

(٥)- يمدح هرم بن سنان المري. أي أنتَ مقدام شجاع إذا لبست الدرع فكنت حشوها، واشتدت الحرب فنادى الأقران: نزال نزال، ولجّ الناس في الذعر، أي تتابعوا في الفزع، وهو من اللجاج في الشيء والتمادي فيه. الكتاب٣/٢٧١.

(٦)- لنا حديث مفصّل عن شيوخه عامة في حديثنا عن السماع عند سيبويه.

(٧)- ذكرهم السيوطي في بغية الوعاة ٢٦٦ عدا الأصمعي. وقد آثرنا ترتيبهم بحسب كثرة أخذ سيبويه عنهم.

أ- الخليل:

وهو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري المتوفّى ١٦٠هـ(١) وهو الذي ابتكر العروض، وخرج به إلى الناس علماً كاملاً ضبط به الشعر، وحفظه من الاختلال(٢) تخرّج عليه جملة من شيوخ العربية حفظوا علمه، ونقلوه من بعده إلى الناس، وسيبويه هو أبرز هؤلاء(٣).

كانت صلة سيبويه بالخليل أساسها الحب الخالص والاحترام المتبادلان، ووصل حدّ احترام سيبويه له أنه إذا روى عنه بيتاً، وأراد أن يُبديَ رأياً بعد رأي شيخه، قال: (وقال غيره)، ولم يذكر اسمه إمعاناً في الاحترام والإجلال لشيخه(٤).

وأكثر ما رواه سيبويه في الكتاب كان عن الخليل بن أحمد. وفي كلّ مرّة يقول فيها: وسألته، أو قال، من غير أن يفصح عن اسم القائل، فإنما يقصد الخليلَ(٥)

ومما رواه عن الخليل، ونصّ فيه على سماعه قوله: <<وحدثنا الخليل أنّه سمع من العرب من يوثق بعربيته ينشد هذا البيت، وهو قول الشمّاخ(٦)

وكلُّ خليلٍ غيرُ هاضمِ نفسه   لوصلِ خليلٍ صارمٌ أو مُعَارِزُ(٧)

فجعله صفة لكلّ>>(٨) ومما رواه كذلك عن الخليل قوله:<<ويقول يونس للمرأة تسمّى بقاضٍ: مررت

---

(١)- نسبة إلى فراهيد بن مالك بن فهم. انظر بغية الوعاة للسيوطي٢٤٤.

(٢)- انظر سيبويه إمام النحاة لناصف٩١.

(٣)- انظر أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٨-٤٠، نزهة الألباء للأنباري ٥٤-٥٩، بغية الوعاة للسيوطي٢٤٣-٢٤٥.

(٤)- سيبويه إمام النحاة لناصف٩٢.

(٥)- المصدر نفسه٩٢.

(٦)- ديوان الشماخ بن ضرار ٤٣ (السعادة ١٣٢٧)، اللسان (عرز).

(٧)- الهضم: الظلم. والصارم: القاطع. وهو في البيت خبر (كل)، والمعارز: المنقبض. يقول: كلّ خليل لايهضم نفسه لخليله فهو قاطع لوصله، أو منقبض عنه. والشاهد فيه: مجيء (غير) صفة لـ (كلّ) لأنها مضافة إلى نكرة، ولو جاء صفة لـ (خليل) المجرورة لكان حسناً. انظر حاشية الكتاب ٢/١١٠.

(٨)- المصدر نفسه ٢/١١٠-١١١.

بقاضِيَ قبلُ، ومررتُ بأُعَيْمِيَ منك. فقال الخليل: لو قالوا هذا لكانوا خُلقاء أن يُلزموها الجرّ والرفع، كما قالوا حين اضطرّوا في الشعر فأجروه على الأصل، قال الشاعر الهذليّ:(١)

أَبِيتُ على مَعاريَ واضحاتٍ　　　بهنّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِباطِ(٢)

وقال الفرزدق:(٣)

فلو كانَ عبدُ الله مَوْلًى هجوتُه　　　ولكنّ عَبدَ الله مَوْلَى مواليا(٤)

فلما اضطرّوا إلى ذلك في موضع لابدّ لهم فيه من الحركة أخرجوه على الأصل››(٥)

ومما رواه عن الخليل ولم يصرح فيه باسمه قوله: ‹‹وسألته عن قوله: من دونٍ ومن فوقٍ، ومن تحتٍ، ومن قبلٍ، ومن بَعْدٍ، ومن دُبُرٍ، ومن خَلْفٍ. فقال أجْروا هذا مُجرى الأسماء المتمكنة، لأنها تُضاف

---

(١)- هو المتنخّل انظر ديوان الهذليين ٢/٢٠ (دار الكتب ١٣٦٩هـ)، الخصائص لابن جني١/٣٣٤، ٣/٦١ المنصف لابن جني ٢/٦٧، ٧٥، ٧٦، ٣/٦٧ تح: إبراهيم مصطفى ١٣٧٩هـ، ولسان العرب (عرا- لوب-عبط).

(٢)- المعاري: جمع معري، وهو الفراش. يعني فُرش الحور اللائي ذكرهنّ في بيت قبل هذا، كأنّه بن عَرَوْتُه أعروه، إذا أتيته، أو من العُري لأن المرء قد يتعرّى فيه. أو المعاري أجزاء الجسم التي تتعرّى، والواضحات: البيض. والمُلَوَّب: الذي أُجري عليه المُلاب، وهو ضرب من الطيب، فارسي. شبهه في حمرته بدم العِباط، جمع عبيط وعبيطة، وهي الناقة تُنحر لغير علّة. والشاهد فيه: إجراؤه (معاري) في حال الجرّ مجرى السالم. والوجه (معارٍ) بحذف الياء.

(٣)- البيت ليس في ديوانه. انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلّام ١٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٦ تح:شاكر(١٣٧٠هـ)، والمقتضب للمبّرد ١/١٤٣، شرح المفصّل لابن يعيش ١/٦٤، وخزانة الأدب للبغدادي ١/١١٤ وهمع الهوامع للسيوطي ١/٣٦، ولسان العرب (ولي).

(٤)- يقوله لعبد الله بن أبي إسحاق النحوي، وكان يلحّن الفرزدق في قوله:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع　　　من المال إلاّ مسحتاً أو مجلّف

وقوله: **مستقبلين شمال الشامِ تضربنا　　　على زواحف تزجي مخّها رير**

فهجاه بذلك. وكان عبد الله مولى لآل الحضرمي؛ والحضرمي كانوا حلفاء لبني عبد شمس بالولاء. يقول: لو كان ذليلاً لهجوته، ولكنّه أذلّ من الذليل. والشاهد فيه: إجراء (موالي) على الأصل للضرورة.

(٥)- الكتاب ٣/٣١٢-٣١٣.

وتُستعمل غيرَ ظرف. ومن العرب من يقول: مِنْ فوقُ ومن تحتُ، يشبّهه بقبلُ وبعدُ. وقال أبو النجم:(١)

أقبُّ مِنْ تحتُ عريضٌ مِنْ عَلُ (٢)

وقال آخر:

لا يحملُ الفارسَ إلاّ الملْبُونْ المَحْضُ من أمامِهِ ومِنْ دُونْ (٣)

وكذلك من أمامِ ومن قُدَامِ، ومن وراءِ، ومن قُبُلِ، ومن دُبُرِ. وزعم الخليل أنهنّ نكرات كقول أبي النجم:

يأتي لها من أيْمُنٍ وأشْمُلِ (٤)

وزعم أنهنّ نكرات إذا لم يُضَفْنَ إلى معرفة، كما يكون أيْمُن وأشْمُل نكرة.

وسألنا العربَ فوجدناهم يوافقونه››. (٥) والأمثلة كثيرة جداً. (٦)

ب- يونس بن حبيب:

وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصري المتوفى١٨٧هـ. كانت له بالبصرة حلقة يقصدها طلاب العربية، ومنهم سيبويه، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الخليل فيمن روى سيبويه عنهم(٧) الشعر، واللغة،ومما رواه عن يونس صراحة قوله:‹‹وحدثنا يونس أنّ العرب تنشد

---

(١)- من أرجوزته المنشورة بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٨/٤٧٢-٤٧٩ سنة ١٩٢٨وهي في ١٩١شطراً.

(٢)- وصف الفرس بأنه مطويّ الكشح منتفخ ما بين الجنبين. والأقبّ: الضامر. والشاهد فيه: بناء (تحت) على الضمّ، وجعلها غاية كقبل وبعد.

(٣)- الملبون: الذي ينمّى اللبن، ويؤثر به لكرمه وعتقه. والمحض: الخالص. والشاهد في قصر (دون) وبنائها على الضمّ في النية، لأن القافية لو كانت مطلقة الحركات لم تكن (دون) إلاّ مضمومة بمنزلة قبل وبعد.

(٤)- خزانة الأدب للبغدادي ١/١٠٤ وهو في صفة الراعي وإبله، يعرض لها يميناً وشمالاً، مزعجا لها.

(٥)- الكتاب ٣/٢٨٩-٢٩٠.

(٦)- انظر في ذلك الكتاب ٢/٢٦٥-٢٦٦،٣/٣٦-٣٧، ١٠٣-١٠٤،٣١٤-٣١٥،٤/١١٥،٢١٤.

(٧)- انظر سيبويه إمام النحاة لناصف٩٤.

هذا البيت وهو لعَبَدةَ بن الطبيب:

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّمَا››(١)

وقال أيضاً: ‹‹أنشدنا يونس لجرير:

إياك أنت وعبدَ المسيحِ أنْ تَقْرَبا قِبلَةَ المسجدِ(٢)

أنشدناه منصوباً، وزعم أنّ العرب كذا تنشدُهُ››(٣)

ونراه في بعض المواضع يروي من طريق يونس سماعه عن العرب بيتاً لشاعر، كقوله:‹‹زعم يونس أنه سمع العرب يقولون في بيت الأسود بن يعفر:

أحقًا بني أبناءِ سلمى بنِ جندلٍ تهدُّدُكم إيايَ وسْطَ المجالِسِ››(٤)

---

(١)- الأغاني لأبي الفرج ٩/٩٣، ١٢/١٤٨ وهو من أبيات يرثي بها قيس بن عاصم المنقري. يقول: مات بموته خلق كثير، وتقوّض بتقوّض بنيته، وعزّه بنيان رفيع. والشاهد فيه رفع (هُلْكُهُ) بدلاً من قيس. فعلى ذلك يكون (هلك) منصوباً على خبر كان. ويجوز رفعه على أنّه مبتدأ، و(هلك) خبره . الكتاب ١/١٥٥-١٥٦.

(٢)- القصيدة في الديوان ١٢٧ (الصاوي١٣٥٣هـ) وليس من بينها هذا البيت. ويعني بعبد المسيح الأخطلَ. يخاطب الفرزدق لميله مع الأخطل. والشاهد فيه: عطف (عبد المسيح) على (إياك). الكتاب ١/٢٧٨، والخصائص ٢/٤٣٤.

(٣)- الكتاب ١/٢٧٨-٢٧٩.

(٤)- يقول لقومه. والأسود بن يعفر أحد من توعّده قومه بالهجاء. والشاهد فيه: نصب (حقا) على الظرف، والتقدير: أفي حقّ تهددكم إياي؟ وجاز وقوعه ظرفاً، وهو مصدر في الأصل لما بين الفعل والزمان من المشابهة، وكأنّه على حذف الوقت وإقامة المصدر مقامه، كما تقول: أتيتكَ خفوقَ النجم، أي وقت خفوقه. فكان تقديره: أفي وقت حقٍّ توعدتموني. انظر الكتاب ٣/١٣٥، وخزانة الأدب ١/١٩٣.

ونراه أحياناً يعرض على شيخه الخليل بن أحمد بيتاً أنشده إياه يونُس، كقوله: <<وسألناه (يعني الخليل) عن بيت أنشدناه يونس(١)

قد عجبَتْ منيَ ومِن يُعَيْلِيا … لمّا رأتني خَلَقاً مُقْلَوْلِياً(٢)

فقال: هذا بمنزلة قوله:

ولكنَّ عبد الله مولى مواليا>>(٣)

وغير ذلك كثير(٤)

مما سبق نرى أن سيبويه اعتمد كثيراً رواية يونس بن حبيب، وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد الخليل بن أحمد فيما روى عنه سيبويه شعراً ونثراً(٥)، أمّا فيما رواه عنه شعراً فقط، وصرّح باسمه بشكل واضح فقد بلغ سبع عشرة مرّة، وهو يسبق بذلك الخليل الذي صرح سيبويه باسمه في رواية الشعر تسع مرّات(٦)

---

(١)- البيت للفرزدق وليس في ديوانه. انظر المقتضب ١/١٤٢، والخصائص ١/٦، ٣/٥٤، وهمع الهوامع ١/٣٦، واللسان (صلا، قلا).

(٢)- الخَلَق: البالي، والمقلولي: الذي يتقلّى على الفراش حزناً، أي يتململ. والشاهد فيه إجراء (يعيلى) على الأصل، ضرورة وهو تصغير (يَعلى) اسم رجل.

(٣)- الكتاب ٣/٣١٤-٣١٥.

(٤)- انظر في ذلك الكتاب ١/١٢٠، ١٥٦، ٢٥٩، ٢٧٨، ٣١٩، ٣٦٤، ٢/٦٧-٦٨، ٧٢، ١٥٣، ٣/٣٧، ٣٩، ٧٠-٧١، ١٣٥، ١٧٦، ٢٦٠، ٥٣٣.

(٥)- جملة ما روى عنه سيبويه في الكتاب مائتا مرة. انظر سيبويه إمام النحاة لناصف٩٤.

(٦)- كان سيبويه يُلمّح إلى الخليل بشكل كبير، كان يقول: (سألناه، وقال لنا، وغير ذلك) وهذه التلميحات لم تدخل في إحصائنا في هذا المكان؛ وما نعنيه هو ما نصّ سيبويه على سماعه من الخليل أو يونس.

ج- الأخفش الأكبر:

وهو أبو الخطّاب عبد الحميد بن عبد المجيد المتوفى ١٧٧هـ، مولى قيس بن ثعلبة وأحد الأخافشة الثلاثة المشهورين.(١) من كبار العلماء بالعربية، لقي الأعراب، وأخذ عنهم، وهو أول من أعقب كلَّ بيت بتفسيره، وكانوا قبله إذا فرغوا من القصيدة فسّروها. أخذ عنه كثيرون، ومنهم سيبويه.(٢)

أخذ سيبويه عن أبي الخطاب اللغة، وروى عنه النصوص والمفردات سبعاً وأربعين مرّة، أمّا الشعر فقد روى عنه ثماني مرات صرّح خلالها بكنيته أبي الخطاب؛ من ذلك قوله: <<وزعم أبو الخطّاب أنّه سمع بعضَ العرب الموثوق بهم ينشد هذا البيت نصباً:

أتوعِدُني بقومِك يابن حَجْلٍ ... أُشــابات يُخالونَ العِبادا(٣)

بما جمّعْتَ من حَضَنٍ وعمرٍو ... وما حَضَنٌ وعمرو والجيادا(٤)>>

وقوله في باب (ما لايكون الاسم فيه إلاّ نكرة):

<<وحدّثني أبو الخطّاب أنه سمع من يوثق بعربيته من العرب يُنشِد هذا البيت:

كأنّا يومَ قُرَّى إنّـــــما نقتلُ إيّانـــا

قتلنا منهم كلَّ ... فتىً أبيضَ حُسّانا(٥)

---

(١)- الأكبر: وهو ابو الخطاب المذكور، والأوسط: وهو سعيد بن مسعدة، والأصغر: وهو علي بن سليمان. انظر بغية الوعاة للسيوطي ٤٣٦، وسيبويه إمام النحاة لناصف٩٤.

(٢)- انظر بغية الوعاة ٢٩٦، وإنباه الرواة للقفطي ١٥٧/٢.

(٣)- الأشابات: الأخلاط من الناس هاهنا: جمع أشابة، والعباد: جمع عبد. قال ابن الشجري: يقولون: نحن عبادُ الله، لا يكادون يضيفونه إلى الناس، ولكنه جعل العباد هنا بمعنى العبيد. الكتاب ٣٠٤/١.

(٤)- حَضَن: بطن من بني القين، وعمرو: قبيلة. والجياد: جمع الجواد من الخيل. أي ليسا من الجياد، وركوبها في شيء، أي ليسوا فرسانا معروفين. والشاهد فيه نصب (الجياد) حملاً على معنى الفعل، أي: وملابستهما الجياد. الكتاب ٣٠٤/١.

(٥)- البيتان لذي الإصبع العدواني أو أبي بجيلة. قُرّى: موضع. والحُسّان: هو الحسن للمبالغة نحو: كُبّار في كبير وكُرّام في كريم. اراد أن قومه أوقعوا ببني عمّهم، فكأنهم قتلوا أنفسهم. والشاهد: هو إجراء (حسّان) على (كلّ) نعتاً له لأنه نكرة مثله. كما أنّ الوجه في نقتل إيانا (نقتلنا) ولكنه وضع الضمير المنفصل في موضع المتصل، وكان حقّه أن يقول: نقتل أنفسنا. فاستعمل الضمير المنفصل موضع النفس لأنهما مترادفان.

فجعله وصفاً لكلّ››(١) وغير ذلك من الأمثلة(٢)

د- عيسى بن عمر:

هو أبو سليمان عيسى بن عمر، مولى خالد بن الوليد، نزل في ثقيف فنُسب إليهم، أحد كبار الأئمة في العربية، والنحو، والقراءة. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق، وروى عن الحسن البصري، والعجّاج بن رؤبة، وغيره، توفي١٤٩هـ(٣). روى سيبويه عن عيسى اللغة والشعر اثنتين وعشرين مرة؛ منها أربع مرات روى عنه الشعر، من ذلك قوله:

‹‹وزعم عيسى أنّه سمع ذا الرمّة يُنشِد هذا البيت نصباً:

لقد حَمَلَتْ قيسُ بن عَيْلانَ حَرْبَها ... على مُستقِلٍّ للنوائبِ والحَرْبِ(٤)

أخاها إذا كانت عِضاضاً سما لَها ... على كلِّ حالٍ من ذلولٍ ومن صَعْبِ(٥)››

بنصب (أخاها) على التعظيم والمدح(٦)

ومنه أيضاً قوله:‹‹وزعم عيسى أنّهم يُنشدون هذا البيت:

هل أنتَ باعثُ دينارٍ لحاجتنا ... أو عبدَ ربٍّ أخا عَوْنِ بنِ مِخْراق›› (٧)

---

(١)- الكتاب ٢/١١١.

(٢)- انظر في ذلك الكتاب ١/٧٨-٧٩، ٢٠١، ٢/٣٢٩، ٣/١٢٣، ٢١٩، ٢٣١.

(٣)- أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣١-٣٣، نزهة الألباء للأنباري ٢٥-٣١، والفهرست لابن النديم٦٢، بغية الوعاة للسيوطي٣٧٠.

(٤)- المستقلّ: الناهض بما حُمِّل. والنوائب: ما ينوب الإنسان، أي ينزل به من المهمات والحوادث.

(٥)- أخاها: أي أخا الحرب. عِضاضاً: أي عاضّة يعني الحرب. سما لها: أي للحرب، ارتفع لها راكباًلذلولها ولصعبها، لا يتهيبه شيء.

(٦)- الكتاب ٢/٦٥.

(٧)- اختُلف في نسبة البيت، وقيل: إنه مصنوع. والاستفهام هنا للاستحثاث. وباعث: موقظ، أو مرسل، ودينار، وعبد ربّ: رجلان. وأراد عبد ربّه، ولكنه ترك الإضافة، وهو يريدها. وأخا عون: عطف بيان أو نعت، ويجوز نصبه على النداء. والشاهد فيه: نصب (عبدَ ربّ) حملاً على موضع (دينار).

في حديثه عن جواز نصب المعطوف حملاً على معنى المعطوف عليه(١) وغير ذلك من الأمثلة(٢)

ويلاحظ في الأبيات التي رواها سيبويه عن عيسى- وهي قليلة كما أشرنا- أنه يستخدم عبارة لا توحي صراحة بالسماع المباشر عنه فهو يقول (وزعم عيسى أنّ بعض العرب ينشد هذا البيت)، و (زعم عيسى أنهم ينشدون)، و (ويقوّي ذلك أنّ يونس وعيسى جميعاً زعما)، و (وزعم عيسى أنه سمع)، وهي عبارات لم نألفها في روايته عن غير عيسى من شيوخه فقد عوّدنا أن يقول: (حدثنا بذلك يونس، وحدثنا الخليل، وحدثنا بذلك أبو الخطاب)، وهي عبارات تنصّ صراحة على السماع مباشرة. ولما كانت كلّ روايات الشعر عن عيسى تشمل كلمة (زعم)؛ إضافة إلى أنّ المؤرخين اختلفوا في سنة ولادة سيبويه ورجحّ أكثرهم أن وفاته كانت سنة ١٤٨هـ(٣)، ولم يختلفوا في وفاة عيسى بن عمر سنة١٤٩هـ، ولضيق الشقة بين وفاة عيسى وولادة سيبويه، فإنّنا نشكّ في سماع سيبويه من عيسى مباشرة، وما ذكره هو نوع من إغفال أسماء الأعلام في نقل روايتهم، وهو نهج ألفناه في مواضع كثيرة من كتابه.

هـ- الأصمعي:

وهو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب بن علي بن أصمع الباهلي (١٢٢-٢١٦هـ) راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر، مولده ووفاته في البصرة، وكان كثير التطواف(٤)

---

(١)- الكتاب ١/١٧١.

(٢)- انظر الكتاب ١/١٦٩،٣٦٤.

(٣)- انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٦٩-٧٤، تاريخ بغداد للبغدادي ١٢/١٩٥-١٩٩، نزهة الألباء للأنباري٧١، معجم الأدباء للحموي٦/٨٠-٨١، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٣٨٥ (مصر ١٣١٠هـ)، البداية والنهاية لابن كثير ١٠/١٧٦(مصر ١٣٥١-١٣٥٨هـ)، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٠٠، بغية الوعاة للسيوطي٣٦٧.

(٤)- انظر تاريخ بغداد للبغدادي ١٠/٤١٠، نزهة الألباء للأنباري ١٥٠، إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ٢/١٩٧-٢٠٥.

روى سيبويه عن الأصمعي مرتين فقط، وكلتا المرتين كانتا في رواية الشعر، وقد نصّ سيبويه فيهما على سماعه عنه صراحة، لا بالصيغة التي استخدمها في روايته عن عيسى بن عمر؛ كانت الأولى في باب الجزاء حين قال:<<ومثل ذلك قوله(١)

هذا سُراقةُ للقرآنِ يدرُسُهُ والمرء عند الرُّشا إنْ يلقها ذِئْبٌ(٢)

أي المرء ذئب إن يَلقَ الرُّشا. قال الأصمعي: هو قديم أنشدنيه أبو عمرو>>(٣) والمرة الثانية كانت في باب ما يرتفع بين الجزمين وينجزم بينهما؛ في قوله: <<ومثل ذلك أيضاً قوله، أنشدنيهما الأصمعيّ عن أبي عمرو لبعض بني أسد:

إن يَبْخَلوا أو يَجْبُنوا أو يَغْدِروا لا يَحْفِلوا

يَغْدُوا عليك مرجَّلِيـــــــــــنَ كأنَّهم لم يَفْعَلُـوا>>(٤)

وفي غير ذلك لم يروِ سيبويه الشعر عن أحد.

٣- استدلاله بالشعر والشعراء:

اتضحّ لنا أنّ السماع كان على الأغلب الطريقَ الوحيدة التي سلكها سيبويه في أخذ معظم شواهده الشعرية، سواء أكان سماعه من طريق شيوخه الذين سمعوها بدورهم من العرب، أو أخذوها من دواوين الشعر العربي آنذاك، أم من طريق السماع المباشر من رواة الشعر، والأعراب. ولا يمكننا أنْ نغفل احتمال أن يكـون سـيبويه قد حمل دواوين الشعر روايـة عـن علماء العصر في تلك الحقبـة لأن

---

(١)- الشاهد من الخمسين، انظر همع الهوامع للسيوطي ٣٣/٢.

(٢)- سراقة: رجل من القراء، نسب إليه الرياء، وقبول الرُّشا، وحرصه عليها حرص الذئب على فريسته. والشاهد فيه أنّ (ذئب) ليست جواباً، بل هي خبر للمرء، والجواب مقدّر. والمبّرد يجعله جواباً على إرادة الفاء، أي فهو ذيب.

(٣)- الكتاب ٦٧/٣-٦٨.

(٤)- لا يحفلوا: لا يبالوا. والترجيل: تمشيط الشعر، وتليينه بالدهن، وغدوّهم مرجّلين دليل على أنهم لم يحفلوا بقبيح. والشاهد فيه جزم (يغدوا) على البدل من قوله: (لا يحفلوا) الكتاب ٨٦/٣-٨٧.

طالباً متابعاً لحلقات العلماء، في عصر كثرت فيه رواية الشعر عن طريق السماع لا بدّ له من التأثر، والأخذ، لاسيّما أنه يعرض على شيوخه ما يحمله من الشعر، ولا يمكن لعالمٍ طالبٍ أنْ يعرضَ شيئاً ما لم يكن حريصاً على الجمع والتصنيف. والعالِم في ذلك العصر لا يَركَن إلى الصحف، لأنّ الاطمئنان إلى الصحف وحدها كان مصدر شكّ في الدقة واتهامٍ في الرواية، وهذا ما دفع سيبويه، وغيره من طلاّب العلم إلى الحرص على الرواية، والأخذ عن مجالس العلم، ثم عرض ما يأخذونه على شيوخهم حرصاً منهم على الدقة والضبط والإتقان.

وكانت الشواهد الشعرية التي استدلّ بها سيبويه معروفة لدى شيوخه، وسائر علماء ذلك العصر في حاضرتَي النحو؛ فقد كانت متداولة بين طلاب العلم، وشيوخهم بدليل أن سيبويه كان يعرضها ـ كما أشرنا ـ على شيوخه الذين يثق بهم، وبخاصة الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب لذلك فنحن نرجّح أنّ الشواهد التي استدلّ بها سيبويه، ولم يشر إلى مصدرها الذي سمعها منه، كانت من الشواهد المعروفة، والمتداولة في مجالسهم آنذاك، بدليل أنّ عدداً كبيراً منها يخلو من النص صراحة على سماعه من العرب، أو من أحد العلماء، وأنه كان يعرض هذه الشواهد من خلال عرض آراء العلماء أو كلام شيخ من شيوخه بأسلوب يدلّ على أنّ شيخه كان على دراية تامة بهذه الشواهد التي يستدلّ بها، وبرواياتها، وبكل ما يحيط بها من أمور نحوية. من ذلك قوله: ‹‹ومثل ذلك فيما زعم الخليل:

إذا تغنّى الحَمامُ الوُرْقُ هيّجَني ... ولو تغرّبتُ عنها أمَّ عمّارِ(١)

قال الخليل رحمه الله: لمّا قال هيّجني، عُرف أنّه قد كان ثَمّ تذكُّر لتَذكرةِ الحمام، وتَهييجه، فالقى ذلك الذي قد عُرف منه على أمّ عمّارٍ، كأنّه قال: هيّجني فذكَّرني أمَّ عمّار››.(٢)

(١)- البيت للنابغة. جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي٥٢-٥٦(بولاق١٣٠٨) والورق: جمع أورق وورقاء. الورقة سواد وبياض كدخان الرمث. تغرّبتُ: صرت في دار غربة. والشاهد فيه نصب (أمّ عمار) بفعل دلّ عليه ما قبله، لأن هيّجني تدل على (فذكّرني).
(٢)- الكتاب ٢٨٦/١.

وقوله كذلك: ‹‹وأمّا قول الأخطل:

ولقد أَبِيتُ مِن الفتاةِ بمنزلٍ فأبيتُ لا حَرِج ولا مَحرومُ(١)

فزعم الخليل رحمه الله أنّ هذا ليس على إضمار (أنا). ولو جاز هذا على إضمار (أنا) لجاز: كان عبدُ الله لا مسلم ولا صالح على إضمار (هو). ولكنّه فيما زعم الخليل رحمه الله: فأبيتُ بمنزلة الذي يُقال له: لا حرِج ولا محروم››(٢) ومثل ذلك ليس بقليل(٣)

ولم يكن اهتمام النحاة بالشعر آنذاك نابعاً من ظروف ذلك العصر فقط بل كان اهتماماً متوارثاً تناقلوه عمّن سبقوهم، فقد كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه. حيث لا يرقى إليه شكّ ولا خطل، وهو سجل تاريخهم، ومآثرهم، وأنسابهم. فلكلّ أمّة ضرب من الضروب تعتمده في استبقاء مآثرها، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك الشعر الموزون والكلام المقفّى، وكان هو ديوانها.(٤)

وإنّ ما يهمّنا من ديوان العرب هو استخدامه في الاستدلال النحوي، غير أنّ هذا الأمر لم يُخلَق خلْقاً بل كان نتيجة لتطور تدريجيّ منذ عصر مبكّر، فقد كان المفسّرون يعتمدون الشعر الجاهلي في

---

(١)- لا حرِج: لا أتحرّج من لذة. لا محروم: لا أُحرم ما أشتهي. والشاهد فيه رفع (حرج) و(محروم) وهو في مذهب الخليل على الحمل على الحكاية، أي كالذي يقال له: لا حرج ولا محروم. ويجوز رفعه على إضمار خبر، أي: أبيتُ لا حرج ولا محروم في المكان الذي أبيتُ فيه. وكان وجه الكلام نصبهما على الخبر أو الحال.

(٢)- الكتاب ٢/٨٤.

(٣)- انظر في ذلك المصدر السابق ٢/٦٥،٦٦،٧٠-٧١،٧٣-٧٤،٢٠٢-٢٠٣،٢٩١-٢٩٢.

(٤)- انظر الحيوان للجاحظ ١/٧١ (هارون ط٢)، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد ١٠٩،١٨٧-٢٢١ (مصر ١٩٦٢م).

تفسير ألفاظ القرآن الكريم، فيروى أن عمر بن الخطاب (رض) سأل عن معنى قوله تعالى: (**أو يأخذهم على تخوّف**) (١) فقال شيخ من هُذَيل: هذه لغتنا، التخوّفُ التنقّصُ. فقال عمر: هل تعرف العربُ ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقته:

تخوّفَ الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِداً كما تخوّفَ عودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ (٢)

وهناك أمثلة كثيرة عن الصحابة والتابعين تظهر لنا اهتمامهم بالشعر في تفسير ألفاظ القرآن الكريم(٣) كابن عباس، وعكرمة(٤)، وسفيان الثوري(٥)، والسُّدّيّ(٦)

وازدادت أهمية الشعر على مرّ الأيام، وتعدى مرحلة تفسير ألفاظ القرآن الكريم، وصار مادّة هامة للاستدلال في الدراسات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، حتّى إنه غدا مصدراً من مصادر دراسة الحياة العربية في كلّ أبعادها.

وفي مرحلة لاحقة دخل القرآن الكريم، ونثر العرب مجالَ الاستدلال إلى جانب الشعر، ومع مرور الزمن جاء الحديث النبوي الشريف لتكتمل مادة اللغويين في تقعيد علوم العربية، ورسم صورتها.

---

(١)- النحل ١٦/٤٧.

(٢)- التامك: صفة للسنام المرتفع، والقرد: ما كثر قُراده، والقُراد: دويبة متطفلة ذات أرجل كثيرة تعيش على الدواب والطيور. والسَّفَن: كل ما يُنْحت به الشيء كالفأس والقدوم. انظر مصادر الشعر الجاهلي للأسد ١٥٢ ففيه أمثلة أخرى، وانظر شواهد الشعر لجمعة٢٦٩.

(٣)- انظر إيضاح الوقف والابتداء للأنباري ١/٦٣-٦٥ تح: محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م.

(٤)- هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني(٢٥-١٠٥هـ) أبو عبد الله، مولى ابن عباس، من أعلم الناس بالتفسير وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٣١٩، تهذيب التهذيب للعسقلاني ٧/٢٦٣-٢٧٣.

(٥)- هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري(٩٧-١٦١هـ) أمير المؤمنين في الحديث، وسيّد أهل زمانه في علوم الدين، والتقوى، مات في البصرة. الفهرست لابن النديم ١/٢٢٥، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢١٠.

(٦)- هو إسماعيل بن عبد الرحمن (ت١٢٨هـ) تابعي، من الأعلام في التفسير، والمغازي، والسِّيَر. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي١/٣٠٨.

كانت مجالس العلماء، وحلقاتهم هي المجال الأكثر خصوبة لتلقي هذه العلوم، فالطلاب يأخذون عن شيخهم ما يرويه لهم عن الأعراب، أو عن أساتذته الذي حملوا رواية هذا التراث لاسيّما الشعر. ويرجع الفضل الكبير إلى سيبويه في أنه أفاد ممّن أخذ عنهم، وجمع هذا الكمّ من الشواهد من تلك المجالس، ووضعها في دفّتي كتابه الذي كتب لها البقاء، حتّى إنّ أبا عليّ الفارسي (ت٣٧٧هـ) وصف الكتاب <<بأنّ التنزيل جاء على الذي استعمله سيبويه>>(١) وقد وصل عدد الشواهد التي استدلّ بها سيبويه في كتابه إلى ألف وخمسين شاهداً تنتمي إلى عصور مختلفة، فقد استدلّ بشواهد لشعراء جاهليين، ومخضرمين، وإسلاميين، وأمويين، وعباسيين معاصرين لسيبويه. وهؤلاء الشعراء من عدنانيين وقحطانيين ينتمون إلى قبائل كثيرة فضّل بعضها على بعض(٢).

آ- استدلاله بالشعر الجاهلي:

بلغ عدد الشعراء الذين استدلّ سيبويه بشعرهم في (الكتاب) مائتين وستة وثلاثين شاعراً من مختلف العصور حتى عصر سيبويه. وقد اهتمّ في شواهده بشعراء العصر الأموي أكثر من اهتمامه بشعراء العصر الجاهلي؛ وهو بهذا يخالف كثيراً من النحاة واللغويين الذين أولوا الشعر الجاهلي مكانة تفوق غيره من الشعر.

---

(١)- الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي ٣٢٢/١ (مواد ملا) نقلاً عن (أبو علي الفارسي) لعبد الفتاح شلبي ٢٥٠ القاهرة ١٩٥٤.

(٢)- سنأتي على ذكر استدلاله بالشعراء تبعاً لقبائلهم في حديثنا عن الاستدلال باللهجات.

وأخذ الأعشى(١) النصيب الأوفر بين شعراء الجاهلية؛ فقد ذكر له سبعة وثلاثين شاهداً تناول فيها بعض القضايا النحوية، في الوقت الذي ذكر لبعض الشعراء الجاهليين بيتاً، أو بيتين، أو أكثر من ذلك كما هو الحال عند طفيل بن كعب الغنوي(٢)، وعديّ بن زيد العِبادي(٣)، والمهلهل بن ربيعة(٤) فقد ذكر لكل منهم خمسة أبيات(٥) وإذا أردنا أن نلقي نظرة أوضح على استدلاله بالشعر الجاهلي فإننا نقول:

نال الأعشى القسط الأوفر -كما أسلفنا- بين الشعراء الجاهليين الذين استدلّ سيبويه بشعرهم، فقد ذكر سيبويه له سبعة وثلاثين شاهداً(٦)، بما فيها المكرر، واحداً وعشرين منها كانت شواهد على ظواهر نحوية، وكرر ستة شواهد منها في أماكن متفرقة من كتابه. من ذلك قوله:

---

(١)- هو ميمون بن قيس بن جندل (ت ٧هـ) من بني قيس، أبو بصير من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية كان يغنّي بشعره فسمّي (صناجة العرب). انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٩، الأغاني للأصبهاني ٩/١٠٨ خزانة الأدب ١/٨٤-٨٦.

(٢)- طفيل بن عوف بن كعب (ت ١٣ ق.هـ) من بني غنيّ من قيس عيلان: شاعر جاهلي فحل، وهو أوصف العرب للخيل حتّى سمّي (طفيل الخيل) وسمّي (المحبّر) لتحسينه شعره. انظر الشعر والشعراء، لابن قتيبة ١٧٣، وخزانة الأدب للبغدادي ٣/٦٤٣.

(٣)- عديّ بن زيد بن حمّاد العبادي التميمي (ت ٣٥ ق.هـ) شاعر جاهلي من الدهاة، أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، وصار ترجماناً بين كسرى وبين العرب، قتله النعمان بن المنذر بعد أن وشى به أعداؤه. الشعر والشعراء ٦٣، الأغاني ٢/٩٧، خزانة الأدب للبغدادي ١/١٨٤-١٨٦.

(٤)- عدي بن ربيعة بن مرّة (ت ١٠٠ ق.هـ) أبو ليلى، شاعر ولقّب بالمهلهل لأنّه أول من هلهل الشعر أي رقّقه، وهو خال امرئ القيس الشاعر. أخبار بطولاته في وقائع ثأره لأخيه كثيرة. انظر الشعر والشعراء ٩٩، خزانة الأدب ١/٣٠٠-٣١٤.

(٥)- قد يظهر تفاوت بسيط في عدد شواهد كلّ شاعر، وذلك تبعاً لنسبة الشواهد، واختلاف هذه النسبة بين مصدر وآخر.

(٦)- انظر في ذلك الكتاب ١/٢٨، ٣٠، ٣٢، ٥٢، ١٦١، ١٧٩، ١٨٣، ٣٢٤، ٤٠٦، ٤٠٨، ٢/٢٨، ٤٦، ٥٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٤١، ١٦٦، ١٧٥، ٣/٢٨، ٣٩، ٤٥، ٥١، ٧٢، ٩٣، ١١٨، ١٥٤، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٧٩، ٥١٠، ٥١٣، ٥٥٠، ٥٦٨، ٤/١٨٧، ٢٠٥.

‹‹ومن ذلك إنشاد بعض العرب قولَ الأعشى:

الواهبُ المائةِ الهجانِ وعبدِها   عُوذاً تُزَجِّي بينها أطفالَها››(١)

في جواز عطف (عبدِها) على (المائة) (٢).

وأورد منها تسعة شواهد على أنّ فيها ضرائر شعريّة، وكرّر واحداً منها، من ذلك قوله في (باب ما يحتمل الشعر): ‹‹وقال الأعشى:

وما قصدَتْ من أهلها لِسَوَائكاَ(٣)

.... فعلوا ذلك لأنّ معنى (سواء) معنى (غير)››(٤)

ثم يأتي النابغة الذبياني(٥) في المرتبة الثانية من الشعراء الجاهليين الذين استدلّ بشعرهم،

---

(١)- يقول: يهب المائة الهجان من الإبل ومعها عبدها، أي راعيها. والهجان: البيض، يستوي فيه الواحد والجمع، صفة للإبل الكريمة. والعوذ: جمع عائذ، وهو جمع نادر مثل حول وحائل، وهي الحديثات النتاج لأن ولدها يعوذ بها لصغره. تزجّي: تسوق سوقاً رفيقاً. والشاهد فيه عطف (عبدها) على (المائة) وفي موضع الشاهد أكثر من رأي. انظر الكتاب ١/١٨٣.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/١٨٣.

(٣)- عجز بيت، وصدره في ديوان الأعشى ٦٥.

تَجانَفُ عن جوّ اليمامة ناقتي

تجانف: تنحرف. والشاهد فيه: وضع (سواء) موضع (غير) وجرّها باللام، لأنها لا تستعمل في الكلام إلاّ ظرفاً.

(٤)- الكتاب ١/٣٢.

(٥)- هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني (ت نحو ١٨ ق.هـ) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان الشعراء يعرضون عليه شعرهم في سوق عكاظ. شبّب بالمتجردة زوجة النعمان، ثمّ فرّ ووفد على الغسانيين بالشام. انظر الأغاني١١/٣، وخزانة الأدب للبغدادي ١/٢٨٧،٤٢٧،٩٦.

حيث ذكر له أربعة وعشرين شاهداً(١) وهي في تعليل بعض الظواهر النحوية والضرورة الشعرية. من ذلك استدلاله على حذف الياء في الوقف بقول النابغة:

إذا حاولتَ في أسَدٍ فُجوراً ... فأنّي لستُ منكَ ولستَ مِنْ (٢)

يريد: منّي (٣)

ويأتي امرؤ القيس(٤) في المرتبة الثالثة بين لشعراء الجاهلية الذين استدلّ سيبويه بشعرهم، إذ ذكر له اثنين وعشرين شاهداً(٥) في تناولات نحوية متعددة؛ من ذلك استدلاله على جواز نعت النكرة بمضاف إلى معرفة بقول امرىء القيس:

بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ لاحَهُ ... طِرادُ الهوادِي كلَّ شأوٍ مُغَرِّبِ(٦)

---

(١)- انظر الكتاب ١/١٦٨، ١٩٦، ٢٦٢، ٢٨٦، ٣٥٥، ٣٦٨، ٢/٧٠-٧١، ٨٦، ٨٩، ١٣٧، ٢٠٧، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٤٥، ٣/٣٧، ٢٧٤، ٣٨٢، ٥١١، ٤/١٨٦.

(٢)- ديوان النابغة ٧٩. يقول هذا لعيينة بن حصن الفزاري؛ وكان بنو عبس قد قتلوا نضلة الأسدي، وقتلت بنو أسد منهم رجلين، فأراد عيينة عونَ بني عبس، وأن يخرج بني أسد من حلف ذبيان، فأبى عليه ذلك وتوعّده بهم. والشاهد فيه: حذف الياء من (منيّ).

(٣)- الكتاب ٤/١٨٦.

(٤)- امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي(١٣٠-٨٠ق.هـ) تقريباً. في اسمه خلاف؛ وكان أبوه ملكَ أسد، وغطفان، وخاله المهلهل، تنقل في أحياء العرب لاهياً، ثم هبّ للثأر لأبيه، ومات في أنقرة بعد أن ظهرت في جسمه قروح. انظر الشعر والشعراء ٣١، الأغاني ٩/٧٧، خزانة الأدب ١/١٦٠، ٣/٦٠٩-٦١٢.

(٥)- انظر الكتاب ١/٧٩، ٨٦، ٤٢٤، ٢/١٤٢، ١٦٣، ٢٥٢، ٢٥٤، ٣/٢٧، ٤٧، ٢٣٣، ٢٥٤، ٣٨٣، ٥٠٤، ٦٢٦، ٤/٣٩، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٥، ٢٢٨.

(٦)- ديوان امرىء القيس ٤٦. والشاعر ينعت فرسه بأنه منجرد قصير الشعر، وبذلك توصف الخيل العتاق. وقيد الأوابد، أي هو لها بمنزلة القيد، لأنه يسبقها فيمنعها من الفوت. والأوابد: الوحش. لاحه:ضمره وغيّره. والطراد: مطاردة الصيد، واتّباعه. والهوادي: المتقدمات السابقات. والشأو: الطلق. والمغرّب: البعيد. والشاهد فيه نعت (منجرد) النكرة بقيد الأوابد، وإن كان النعت مضافاً إلى ما فيه الألف واللام، لأنه في معنى الفعل: أي يقيد الأوابد. الكتاب ١/٤٢٤.

ثم يأتي لبيد بن ربيعة (١)، وله سبعة عشر شاهداً(٢)؛ من ذلك استدلاله على قطع همزة الوصل في قوله:

أو مُذْهَبٌ جُدَدٌ على ألواحِهِ   ألناطقُ المزبورُ والمختومُ(٣)

ويأتي زهير بن أبي سلمى(٤) في المرتبة الخامسة من شعراء الجاهلية فقد ذكر له سيبويه ستة عشر شاهداً؛ (٥) من ذلك ما أورده في عمل الصفة المشبهة باسم الفاعل وهو قوله:

أهوى لها أسْفَعُ الخدَّيْنِ مطَّرِقٌ   ريشَ القوادمِ لم تُنْصَبْ له الشَّبَكُ(٦)

---

(١)- لبيد بن ربيعة بن مالك العامري (ت٤١هـ) أبو عقيل، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أصحاب المعلقات. أدرك الإسلام، ووفد على النبي(ص) ويُعدّ من الصحابة. لم يقل في الإسلام إلاّ بيتاً واحداً لذلك وضعناه ضمن شعراء الجاهلية. الشعر والشعراء٢٣١-٢٤٣، خزانة الأدب ١/٣٣٧-٣٣٩،٤/١٧١-١٧٦.

(٢)- انظر الكتاب ١/٦٨،١٩٠،٣٧٢،٤٠٧،٢/٢٣٥،٢٥٨،٣٣٣،٣٥٣،٣٥٤،٤١٧،٣/٥٨،٧٥،١١٠،٣٥٨،٥١٢،٤/١٥١،١٨٨،٢٢٣.

(٣)- المُذْهَب: ما كتب بالذهب. والجُدَد: جمع جُدّة وهي الطريقة؛ أراد به أسطار الكتاب، والناطق: البين الظاهر، والمختوم: الخفي الدارس. والبيت في صفة الأطلال. والشاهد فيه: قطع ألف الوصل من (الناطق). الكتاب٤/١٥١.

(٤)- زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني (ت١٣ق.هـ) حكيم الشعراء في الجاهلية، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. من أصحاب المعلقات. انظر الشعر والشعراء٤٤، والأغاني ١٠/٢٨٨-٣٢٤، خزانة الأدب ١/٣٧٥.

(٥)- انظر الكتاب ١/١٤٥،١٩٥،٣٧١،٢/١٩٥،٢٧١،٣/٦٦،٨٥،١٧٧،٢٥١،٢٧١،٥٠٠،٥١٠،٤/١٨٥،٢٠٩،٤٦٨.

(٦)- ديوان زهير ١٧٢، أهوى: انقضّ. لها: للقطاة. الأسفع: الأسود، والمطَّرِق من الإطراق، وهو تراكب الريش. والقوادم: جمع قادمة، وهي ريش مقدم الجناح. والشَّبَك: مايصاد به. عنى أن ذلك الصقر وحشيّ لم يُصنَد، ولم يُذلّل، وذلك أشدّ له وأسرع لطيرانه. والشاهد فيه نصب (ريش) بمطّرق وهي الصفة المشبهة باسم الفاعل. الكتاب ١/١٩٥.

ثم أميّة بن أبي الصّلت (١) واستدلّ بتسعة شواهد من شعره (٢)، من ذلك قوله

رُبَّ ما تكرهُ النفوسُ من الأمـــــــــــــرِ له فَرْجَةٌ كحلِّ العِقالِ (٣)

وطرفة بن العبد(٤) وله تسعة شواهد(٥) أيضاً تناول فيها بعض الظواهر الإعرابية من ذلك قوله:

أبا مُنْذرٍ أفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بعضَنا   حنانَيْك بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ(٦)

ثم علقمه بن عبدة (٧) واستدل بثمانية شواهد من شعره (٨) نحو قوله:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمّا عظامُها   فبِيْضٌ وأمّا جلدها فصَلِيبُ (٩)

---

(١)- أميّة بن عبد الله أبي الصّلت بن أبي ربيعة الثقفي (ت٥ هـ) شاعر جاهلي حكيم، كان ممن نبذ عبادة الأوثان وشرب الخمر، لم يدخل الإسلام. الشعر والشعراء١٧٦، طبقات فحول الشعراء٦٦، الأغاني ٤/١٢٠، خزانة الأدب ١/١١٩.

(٢)- انظر الكتاب ١/٣٢٥،٣٢٦،٢/١٠٩،٣١٥،٣/٧٣،١٦١،٣١٥،٣٣٠،٤/٩٥.

(٣)- العِقال:حبل تشدّ به قوائم الإبل. يريد: إنّ بعد العسر يسراً. والشاهد فيه: دخول (ربّ) على (ما) دليل على قابليتها للتنكير لأنّ (ربّ)لا تدخل إلاّ على نكرة. الكتاب ٢/١٠٩.

(٤)- طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي (نحو ٨٦-٦٠ق.هـ)من شعراء الطبقة الجاهلية الأولى، أرسله الملك عمرو بن هند بكتاب إلى عامله على البحرين، وعُمان، ليقتله فقتله شاباً. انظر الشعر والشعراء ٤٩، خزانة الأدب ١/٤١٤-٤١٧.

(٥)- انظر الكتاب ١/١١٣،٣٤٨،٢/٢٥٥،٣/٤٠،٤٩،٧٨،٩٩،٣٩٦،٤/٢١٥،٤٤٠.

(٦)- ديوان طرفة ٤٨، وأبو منذر:كنية عمرو بن هند. يخاطبه حين أمر بقتله، وذكَرَ قتله لمن قُتل من قومه، تحريضاً لهم على المطالبة بثاره. والشاهد فيه: نصب (حنانيك) على المصدر النائب عن الفعل. وقد ثنّى (حنانيك) لإرادة التكثير لأنّ التثنية أوّل مراتب التكثير. الكتاب ١/٣٤٨.

(٧)- علقمة بن عَبدة بن ناشرة بن قيس التميمي (ت نحو ٢٠ ق. هـ) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. كان معاصراً لامرئ القيس، وله معه مساجلات. انظر الشعر والشعراء٥٨ وطبقات فحول الشعراء١١٥-١١٧، خزانة الأدب ١/٥٦٥-٥٦٦.

(٨)- انظر في ذلك الكتاب ١/٢٠٩،٣/١٩،٢٣،١٧٨،٣٤١،٤/٢٦٢،٤٧١.

(٩)- ديوان علقمة الفحل ١٣٢. والحسرى: جمع حسير، وهي المريضة يتركها أصحابها فتموت. وابيضّت عظامها لمّا أكلت السباع والطير ما عليها من لحم، فبدت وصارت بيضاً. صليب: يابس لم يُدبَغ. يصف أرضاً فلاة قطعها إلى الممدوح. والشاهد فيه أنّ (جلدها) مفرد أريد به الجمع، أي جلودها. الكتاب ١/٢٠٩.

ثم يأتي طفيل الغنوي، والمهلهل بن ربيعة، وعدي بن زيد العبادي، ولكلٍ منهم خمسة أبيات؛ ومما أورده لطفيل بن كعب الغنوي قوله:

إذْ هي أحوى من الرِّبْعيِّ حاجبُهُ　　والعينُ بالإثمِدِ الحاريِّ مكحولُ(١)

ومما استدلّ به للمهلهل بن ربيعة قوله:

يا حارِ لا تجهلْ على أشياخِنا　　إنّا ذوو السَّوْراتِ والأحلام(٢)

في ترخيم الأسماء لكثرة الاستعمال.

ومما استدلّ به لعَدي بن زيد العِبَادي

أكاشِره وأعلمُ أنْ كلانا　　على ما ساء صاحبَه حَريصُ(٣)

وفي بعض المواضع قد يستدل ببيت واحد نحو استدلاله ببيت لجذيمة الأبرش:(٤)

---

(١)- ديوان طفيل ٢٩، أحوى: يعني ظبياً. والرِّبعي: ما نتج في الربيع. والعين: أي وعينه، فألْ بدل من الضمير، والحاري: المنسوب إلى الحيرة، على غير قياس. والشاهد فيه: تذكير (مكحول) وهو خبر عن (العين) المؤنثة، ضرورة. وسوّغ ذلك أنّ العين بمعنى الطرف، وهو مذكّر وانظر الكتاب ٤٦/٢ وانظر في ذلك المصدر نفسه ٢٩٦،٧٧/١، ١٨٨/٤.

(٢)- الجهل: الحمق، والسَّورة: الحدة، والخفة عند الغضب، أي فينا إباء وحدة عند الغضب، وفينا الحلم والرزانة عند الرضا. والشاهد فيه ترخيم (حارث) لكثرة استعماله. انظر الكتاب ٢٥١/٢-٢٥٢، وانظر كذلك المصدر السابق ١٩/٢، ٢٧٤/٣،٢١٥.

(٣)- أكاشره: أضاحكه، ويقال كشر عن نابه، إذا كشف عنه. والشاهد فيه حذف الضمير من (أنْ) المخففة، وابتداء ما بعدها على نية إثبات الضمير. الكتاب ٧٤/٣ وانظره: ١٤٠/١، ١٥٦، ١٩٨، ٣١٢/٢، ١١٣/٣، ١٢١، ٣٥٩/٤.

(٤)- جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم التنوخي القضاعي (ت نحو ٣٦٦ ق. هـ) ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق. قتلته الزبّاء ثأراً لأبيها بعد أن خدعته. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٧٩/٣، وخزانة الأدب ٥٦٩/٤.

رُبّما أوفيْتُ في عَلَمٍ   ترفَعَنْ ثوبي شَمالاتُ (١)

وغيره من الشعراء، مغفلاً كثيراً من الشواهد، بدليل استخدامه لعبارة (وهذا كثير في لغة العرب)، أو (ومثل ذلك كثير). ولو ذكر كلَّ ما يعرفه لوصل إلينا سِفر كبير يصعب تقدير حجمه.

ب- استدلاله بشعر المخضرمين

أمّا المخضرمون فقد استدلّ بشعرٍ كثيرٍ منهم، فقد ذكر للنابغة الجعدي(٢) ثلاثة وعشرين شاهداً(٣) نحو قوله:

كأنَّ الغُبـــارَ الـذي غادَرَتْ   ضُحَيّاً دَواخِنُ مِن تَنْضُبِ (٤)

---

(١)- العلم: الجبل. والشمالات: جمع شمال بالفتح، وهي الريح التي تهب من هذه الناحية. يفخر بأنّه يحفظ أصحابه في رأس جبل إذا خافوا من العدوّ فيكون طليعة لهم. والشاهد فيه: توكيد (ترفَعَنْ) للضرورة. والتوكيد هنا بالنون الخفيفة. الكتاب ٣/٥١٨.

(٢)- النابغة الجعدي هو قيس بن عبد الله بن عُدس الجعدي العامري (ت ٥٠ هـ)، وفي اسمه خلاف صحابي من المعترين، هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، أدرك(صِفّين) مع عليّ (رض)، وجاوز المائة. انظر طبقات فحول الشعراء ١٠٣، والأغاني ٤/١٢٦-١٣٩ والإصابة للعسقلاني ٣ /٥٣٧.

(٣)- انظر الكتاب ١/٦٣، ٦٤، ١٢١، ١٦١، ٢١٤، ٢١٥، ٣٥٥، ٢/١٠، ٤٢، ٤٧، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣/١٣٧، ١٤١، ٢٥٣، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٩١، ٣٠١، ٤٨٥، ٥١٢، ٥١٣، ٥٦٣، ٤/٢٤٨.

(٤)- التَنْضُب: شجر كثير الدخان، واحدته تنضبة، والحرباء تألفها، فيقال: حرباء تنضبة. يصف غباراً أثارته حوافر فرسه، فجعله كدخان التنضب في سطوعه وتكاثفه. والشاهد فيه: تصغير (ضحى) على ضحيّ، وكان القياس ضحيّة لأنها مؤنثة، إلاّ أنهم صغروها بدون هاء لئلاّ تلتبس بمصغر ضحوة. الكتاب ٣/٤٨٥.

وأثبت لحسان بن ثابت(١) اثني عشر شاهداً(٢) منها قوله:

مَن يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يشكرها   والشرّ بالشرّ عند الله مثلانِ(٣)

ولعمرو بن معد يكرب(٤) ثمانية شواهد(٥) منها قوله:

تراه كالثَّغام يُعَـلُّ مِسْـكاً   يَسوءُ الفالياتِ إذا فَلَيْني(٦)

وللحطيئة(٧) ستة شواهد(٨) منها قوله:

---

(١)- حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري (ت ٥٤ هـ) أبو الوليد: صحابي، شاعر النبي(ص)، وأحد المخضرمين، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. الشعر والشعراء ١٠٤ طبقات فحول الشعراء ٥٢ الأغاني ١٣٤/٤، الإصابة للعسقلاني ٣٢٦/١، خزانة الأدب ١١١/١.

(٢)- انظر الكتاب ٤٩/١، ٣١٤، ٥١/٢، ٧٣-٧٤، ٣٠٦، ١٩/٣، ٦٥، ١١٤، ١٨١، ٤٦٨، ٥٥٤، ٥٧٨، ٢٤٤/٤.

(٣)- الشاهد فيه حذف الفاء من الجواب للضرورة، وتقديره: فالله يشكرها. الكتاب ٦٥/٣.

(٤)- عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي (ت ٢١ هـ) شاعر فارس، مشهور، أسلم ثمّ ارتدّ، ثمّ رجع إلى الإسلام، شهد اليرموك ثم القادسية. الشعر والشعراء ١٣٨ الإصابة للعسقلاني ت ٥٩٧٢، خزانة الأدب ٤٢٥/١-٤٢٦.

(٥)- انظر الكتاب: ٣٧/١، ٢٧٦، ٤٠١، ٣٢٣/٢، ٣٣٤، ٣٥٣، ٥٠/٣، ٥٢٠.

(٦)- الثَّغام: نبت. يُعَلُّ بالمسك: يطيب به؛ وأصل العلل الشرب. يصف شعره أنّ الشيب قد شمله. والشاهد فيه: حذف النون في (فليني) فقيل: نون النسوة، وهو مذهب سيبويه، لأنّ نون الوقاية أتي بها لصون الفعل. وقيل: المحذوف نون الوقاية لأنّ نون النسوة ضمير. الكتاب ٥٢٠/٣.

(٧)- هو جرول بن أوس بن مالك العبسي (ت ٤٥ هـ) أبو مُليكة. شاعر مخضرم كان هجّاء لم يسلم من لسانه أحد، وسجَنَهُ عمر (رض) لهجائه الزبرقان بن بدر ثم أخرجه. الشعر والشعراء١١٠، الأغاني ١٥٧/٢، خزانة الأدب ٤٠٩/١.

(٨)- انظر الكتاب ٢١٥/١، ٤٣/٣، ٨٦، ٣٠٦، ٣٨١، ٥٦٥، ١٩٧/٤.

وشرُّ المنايا مَيِّتٌ بين أهله　　　كهُلْكِ الفتى قد أسْلَمَ الحَيَّ حاضِرُهْ (١)

ولكعب بن زهير(٢) خمسة شواهد(٣) منها قوله:

وإذا ما تشـــاءُ تَبعثُ منها　　　مَغْرِبَ الشمسِ ناشطاً مذعوراً(٤)

وقد يذكر لبعض الشعراء شاهداً واحداً كاستدلاله بقول الزبرقان بن بدر:(٥)

مستحقبي حَلَقِ الماذيِّ يَحفِزُهُ　　　بالمشْرَفيِّ وغاب فوقَه حَصِدُ(٦)

ومثله أيضاً من الذين ذكر لهم سيبويه بيتاً شعرياً واحداً ضابئ بن الحارث البرجمي(٧)،

---

(١)- الشاهد فيه حذف المضاف، والأصل: منية ميّت. انظر الكتاب ٢١٥/١.

(٢)- كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني (ت ٢٦ هـ) عفا عنه النبي(ص) بعد أن أهدر دمه، وهو من أعرف الناس في الشعر. طبقات فحول الشعراء ٣٠، الشعر والشعراء٦١، خزانة الأدب ١١/٤، ١٢.

(٣)- انظر الكتاب ١٧٣/١، ٦٢/٣، ٨٩.

(٤)- يصف نشاط الناقة بنشاط الثور، والشاهد فيه: رفع ما بعد (إذا) على ما يجب فيها، وهو أجود من الجزم. الكتاب ٦٢/٣.

(٥)- الزبرقان بن بدر التميمي السعدي (ت نحو ٤٥ هـ)، صحابي من رؤساء قومه، ولاّه الرسول (ص) صدقات قومه. وتوفي في أيام معاوية. كان شاعراً فصيحاً، فيه جفاء الأعراب. الإصابة في تمييز الصحابة ٥٤٣/١، وخزانة الأدب ٥٣١/١.

(٦)- استحقبوا الحلق: جعلوه في حقائبهم، والماذي: الدروع الصافية. والغاب: الرماح، والحصد: الصلب الشديد المحكم. والشاهد فيه: (مستحقبي) حيث حذفت النون لإضافته إلى ما بعده. الكتاب ١٦٧/١.

(٧)- هو ضابئ بن الحارث بن أرطاة التميمي البرجمي (ت ٣٠ هـ) شاعر خبيث اللسان، سجنه عثمان(رض) لقتله صبياً بدابته، وأعيد إلى السجن لهجائه الناس، ثم لمحاولته أن يغتال عثمان (رض). انظر طبقات فحول الشعراء٤٠، الشعر والشعراء ٢٢٦، خزانة الأدب ٨٠/٤، وانظر في شعره الكتاب ٧٥/١.

وأبو محجن الثقفي(١) والنجاشي(٢) وغيرهم كثير(٣)

ج- استدلاله بالشعر الأموي:

حظي الشعر الأموي بمكانة كبيرة عند سيبويه، واهتمامه بشعر هذه الفترة فاق اهتمامه بالفترات التي سبقت، والتي تلت، ولم يكن شعراء هذه الفترة على سوية واحدة؛ فقد استدل بستة وخمسين بيتاً (٤) من شعر الفرزدق(٥) وهو أكثر شعراء العرب الذين ذكر لهم شعراً في كتابه؛ من ذلك قوله:

---

(١)- هو عمرو بن حبيب بن عمرو (ت ٣٠ هـ) أحد الأبطال الشعراء في الجاهلية والإسلام، طلب أن يُطلق سراحه ليقاتل في القادسية، ثم يعود إلى سجنه، ففعل. انظر الإصابة في تمييز الصحابة. ت ١٠١٧، خزانة الأدب٣/٥٥٣-٥٥٦.

(٢)- هو قيس بن عمرو بن مالك، من بني الحارث بن كعب، من كهلان(ت نحو ٤٠هـ) شاعر هجّاء كان من أشراف العرب، وعابه أنه كان فاسقاً، يشرب الخمر في رمضان. انظر الشعر والشعراء١١٥، خزانة الأدب للبغدادي ٢/١٠٥-١٠٧.

(٣)- منهم الأغلب العجلي ت ٢١هـ الكتاب ٣/٥٠٦، ضُفيبة الأسدي ت٥٠ هـ، ١/٦٧، صفية بنت عبد المطلب ت٢٠هـ، ٣/١٨٢ وعبد الله بن الحارث السهمي ت١١ هـ، ١/٣٤٢، خفاف بن ندبة ت ٢٠هـ، ١/٢٧، والخنساء ت ٢٤هـ، ١/٣٣٧، أنس بن مدرك ت ٣٥هـ، ١/٢٢٧.

(٤)- انظر الكتاب ١/٢٨، ٤٩، ٦٠، ٦٣، ٧٦، ٧٧، ١٦٧، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٩، ٣٤٦، ٢/١٠، ١٦، ١٦، ٤٠، ٤٤، ٧٢، ٩٨، ١٠٦، ١٣٦، ١٥١، ١٥٣، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ٢٣٤، ٢٥٧، ٣٢٧، ٣٤٠، ٤١٦، ٣/١٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٦٢، ٦٩، ٧٠، ٨٥، ١٢٨، ١٦١، ٢٤٣، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٥، ٣٦٥، ٣٩٦، ٤٧٠، ٥٠٦، ٥٥٤، ٦٢٣، ٦٣٣، ٤/٣٩، ٦٣، ١١٨.

(٥)- هو همّام بن غالب بن صعصعة التميمي (ت١١٠ هـ) شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، قيل في شعره: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. انظر طبقات فحول الشعراء ٧٥، البيان والتبيين: انظر فهرسته (الفرزدق) تح : هارون. الحيوان للجاحظ ٦/٢٢٦، الشعر والشعراء٤٤٢، خزانة الأدب ١/١٠٥-١٠٨.

كم في بني سعدِ بنِ بكرٍ سيّدٍ ضخم الدَّسيعةِ ماجدٍ نَفّاعِ(١)

في الفصل بالجار والمجرور بين (كم) وبين مجرورها (سيّد)(٢) وقوله:

ألم تَرَ أنّا بني دارمٍ زُرارةُ منّا أبو مَعْبَدِ(٣)

في نصب (بني دارمٍ) على الاختصاص.(٤)

ويأتي في المرتبة الثانية جرير(٥) فقد ذكر له خمسة وأربعين بيتاً(٦) منها قوله:

ما بالُ جَهْلِكَ بعد الحِلْمِ والدِّينِ وقد عَلاكَ مَشيبٌ حينَ لا حِينِ(٧)

---

(١)- الدسيعة: العطية، والماجد: الكريم، والشاهدفيه خفض (سيّد) بكم مع الفصل بينهما بالجار والمجرور وجواز ذلك للضرورة.

(٢)- الكتاب ١٦٨/٢.

(٣)- زرارة هـــذا، والد معبـــد بن زرارة، وكنيته أبو معبد، والشاهد فيه: نصب (بني دارم) على الاختصاص والفخر. الكتاب ٢٣٤/٢.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢٣٤/٢.

(٥) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي الكلبي اليربوعي (٢٨-١١٠هـ)من تميم، أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة. وكان هجّاء مرّاً، ومن أغزل الناس شعراً. انظر طبقات فحول الشعراء ٩٦، الشعر والشعراء ١٧٩، الأغاني٨/١ وما بعدها، وفيات الأعيان لابن خلكان ١٠٢/١ خزانة الأدب ٣٦/١.

(٦)- انظر الكتاب ٥٢/١، ٥٣، ٦٤، ٨٧، ٩٤، ١٠٢،١٣٠، ١٤٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٧٠، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٥٤، ٢٧٨، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤٤، ٤٢٥، ٤٢٧، ٩٧/٢، ١٤٥، ٢٧١، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٥، ٤٢/٣، ٦٢، ١٨٣، ٢٤٥، ٢٧٢، ٢٩٦، ٣١٤، ٣٥٠، ٣٩٨، ٤٨٤، ٥٣٣، ٢٠٥/٤، ٢٠٦، ٢٢٩.

(٧)- الجهل: نقيض الحلم، والعقل، والخبرة. حين لا حين: أي حين حدوثه ووجوبه، والشاهد فيه إضافة (حين) إلى (حين) مع اعتبار (لا) زائدة لفظاً ومعنى. الكتاب ٣٠٥/٢.

وقوله:

خلِّ الطريقَ لمن يبني المنارَ به   وابرزْ ببرْزةَ حيث اضطرَّكَ القَدَرُ(١)

ويأتي في المرتبة الثالثة من شعراء العصر الأموي رؤبة بن العجاج(٢) فقد ذكر له سيبويه أربعة وثلاثين شاهداً، كرّر ثلاثة من هذه الشواهد(٣) ومما أثبته له قوله:

ما بالُ عيني كالشَّعِيْبِ العَيِّنِ(٤)

وقوله:

مَنْ يَكُ ذا بتٍّ فهذا بَتّيَ   مقيَّظ مُصَيَّف مُشَتّي(٥)

---

(١)- المنار: جمع منارة، وهي أعلام الطريق، وبرزة: اسم امرأة. يريد: تنحّ عن سبيل الشرف والفخر، ودعه لمن هو أجدر به منك، وابرز بأمّك (برزة) هذه حيث اضطرك القدر من لوم وضعة، والشاهد فيه: إظهار الفعل (خلِّ) وكان يستطيع إضماره. الكتاب ١/٢٥٤.

(٢)- هو رؤبة بن عبد الله العجّاج بن رؤبة التميمي السعدي (ت ١٤٥هـ). أبو الجحّاف، راجز من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، أقام في البصرة، وأخذ عنه أعيان اللغةوقد وضعناه مع شعراء العصر الأموي لأن جلّ شعره قاله في ذلك العصر، ولأنه أقام في سنواته الأخيرة في البادية بعد أن أسنّ. انظر: الشعر والشعراء٢٣٠، وفيات الأعيان ١/١٨٧، خزانة الأدب ١/٤٣.

(٣)- انظر الكتاب ١/٢٩، ١١٣، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٠، ٢٨٩، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٨٢، ٢/٧٥، ٨٤، ١٤٥، ١٥٣، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٢، ٢٢٣،٢٣٤، ٢٤٧، ٣٧٥، ٣/٥٣، ١١٦، ١٦٠، ١٦٤، ٢٧١، ٣٠٦، ٣٩٦، ٤٨٦، ٥٧٨، ٤/٧٥، ٨٢، ٩٧، ١٧٠، ٢٠٧، ٢١٠، ٣٦٦.

(٤)- الشعيب: المزادة الصغيرة؛ أو القربة، والعيّن: الخلق البالية. شبّه عينه لسيلان دمعها بالقربة الخلق في سيلان مائها من بين خرزها، لبلاها وقدمها. والشاهد فيه بناء (العيّن) على فيعل. وهو شاذ في المعتل إذ لم يسمع إلا في هذه الكلمة، وكان قياسها (عيِّن) كما قيل سيِّد، وهيِّن، وليِّن. الكتاب ٤/٣٦٦.

(٥)- البتّ: كساء غليظ مربع أخضر، وقيل من وبر وصوف، مقيّظ: أي يكفيني لقيظي. يريد أنّه لا شيء له إلا كساؤه يستعمله في كلّ زمان. والشاهد فيه رفع (مقيّظ)، وما بعده على الخبر. والنصب على الحال أحسن وأكثر. ويجوز رفعه على البدل أيضاً. الكتاب ٢/٨٤.

ثم العجاج(١) وكان سيبويه قد استدل بثمانية وعشرين(٢) بيتاً من شعره كرّر منها ثلاثة أبيات. من ذلك قوله:

جاريَ لا تستنكري عذيري(٣)

وقوله في إدخال ترخيم على ترخيم:

فقد رأى الراؤون غيرَ البُطَّلِ　　　أنّكَ يا مُعاو يابنَ الأفضلِ(٤)

ثم يأتي ذو الرمّة(٥)، ويذكر له ستة وعشرين شاهداً(٦)، من ذلك قوله:

فيا لكِ من دارٍ تحمّلَ أهلُها　　　أيادِي سَبَأ بعدي وطال احتيالُها(٧)

---

(١)- عبد الله بن رؤبة بن لبيد السعدي التميمي (ت نحو ٩٠ هـ) راجز مجيد، من الشعراء. ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها ثم أسلم، وهو أوّل من رفع الرجز، وهو والد رؤبة الراجز المشهور. أنظر: الشعر والشعراء٢٣٠.

(٢)- انظر الكتاب ١/٢٦، ٣٣، ٥٣، ٦٩، ٩٤، ١١٠، ١٨٥، ١٩٦، ٣٣٨، ٣٥٠، ٣٥٩، ٣٦٩، ٤٣٢،٤٣٧؛ ٢/٢٠٤، ٢٣١، ٢٤١، ٢٥٠، ٣٠٤، ٣٤٧، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣/١٧٤، ٢٨٥، ٤٥٢، ٤٦٦، ٤٨٨، ٥٩٦، ٤/٥١، ٢٠٧، ٣١١، ٣٣٢، ٣٧٧.

(٣)- يخاطب امرأته، يريد: ياجارية. وعذير الرجل: عمله الذي يعذر عليه إذا فعله. والشاهد فيه: حذف حرف النداءضرورة من (جاري) وهو اسم نكرة قبل النداء لا يتعرّف إلاّ بحرف النداء، وإنّما يطرد حذفه في المعارف. انظر الكتاب ٢/٢٣١.

(٤)- أي: لقد رأى الراؤون رأياً صحيحاً لا باطلاً. والشاهد فيه: إدخال ترخيم على ترخيم في يا (يا معاو)، رخّم أولاً فصار (يا معاوي)، وثانياً فصار (يا معاو) وهي ضرورة قبيحة. انظر الكتاب ١/٢٥٠.

(٥)- هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي (٧٧-١١٧ هـ) من مضر، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره، كان مقيماً بالبادية، ويتردّد إلى البصرة كثيراً. انظر طبقات فحول الشعراء ١٢٥، الشعر والشعراء٢٠٦، الموشح للمرزباني ١٧٠-١٨٥ خزانة الأدب ١/٥١-٥٣.

(٦)- أنظر الكتاب: ١/١١، ٥٢، ٦٥، ٨٢، ١١٠، ١٧٩، ٢٨٠، ٤٢٦، ٢/١١، ٦٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٩، ١٢٣، ١٦٦، ١٩٣، ١٩٩، ٢٨٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٣٢، ٣/٤٨، ٦٠، ٦٨، ٣٠٤، ٣٨٢، ٤٩٨، ٥٥١، ٥٧١، ٤/٥٩.

(٧)- تحمّل أهلها: ارتحلوا، والمراد ارتحلوا متفرّقين في كلّ وجه. طال احتيالها: طال مرور الأحوال والسنين عليها فتغيرت. والشاهد فيه: (أيادي سبا) حيث أضاف أيادي إلى سبا ونوّنها، كما يقال في معد يكرب. وكان حقّ الياء أن تكون مفتوحة، لكنّهم سكنوها استخفافاً كما سكنت ياء معد يكرب. انظر الكتاب ٣/٣٠٤.

ثم الراعي النّميري(١)، ويثبت له ثمانية عشر بيتاً(٢)، منها قوله:

فلو أنّ حُقّ اليومَ منكُمْ إقامة　　　وإنْ كانَ سَرْحٌ قَدْ مَضى فتَسرَّعاً(٣)

وقوله كذلك:

بحيَ نُميريٍّ عليــهِ مهابــة　　　جميعٍ إذا كان اللئامُ جَنادِعا(٤)

في حمل لفظة (حيّ) على المفرد وإتباعه بصفةٍ على أنه مفرد(٥)، ثم الأخطل(٦) ويذكر له ستّة عشر بيتاً(٧) ويكرّر واحداً منها، من ذلك قوله:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ　　　عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ(٨)

---

(١)- هو عبيد بن حُصين بن معاوية بن جندل النميري (ت ٩٠ هـ) أبو جندل، شاعر من الفحول لُقّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. انظر طبقات فحول الشعراء ١١٧، الشعر والشعراء ١٥٦، الأغاني ٢٠/١٦٨، خزانة الأدب ١/٥٠٤.

(٢)- انظر في ذلك الكتاب ١/١٦١، ٢٣٢، ٣٠٥، ٣٨٣، ٢/١٨٠، ٢٩٥، ٣٨٠، ٣/٧٣، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٨٧، ٦١٩، ٦٤٣، ٤/٨٤، ٨٩، ٢١١.

(٣)- حُقّ: حُقّقَ. أي ليت إقامتكم حققت لنا، وإن كان سرحكم، أي مالُكُم الراعي، قد مضى وأسرع بكم. و(لو) هنا للتمني فلا جواب لها. والشاهد فيه: حذف الضمير من (أنّ) ضرورة، ولذلك وليها الفعل لفظاً لأنّ حرف التأكيد لا يليه إلاّ الاسم ظاهراً، أو مضمراً انظر الكتاب ٣/٧٣.

(٤)- المهابة: الهيبة. والجميع: المجتمعون. والجنادع: المتفرقون لا يجتمع رأيهم. والشاهد فيه: إفراد صفة (حيّ) حملاً على اللفظ، ولو جُمِعَ حملاً على المعنى فقيل: مجتمعين، لجاز. انظر الكتاب ٣/٢٥٢.

(٥)- انظر المصدر السابق ٣/٢٥٢.

(٦)- هو غياث بن غوث بن الصلت من بني تغلب، أبو مالك (١٩-٩٠ هـ) شاعر، في شعره إبداع، تهاجى مع جرير والفرزدق، وتناقل الرواة شعره، تنقل بين دمشق والبادية. انظر الشعر والشعراء ١٨٩، الأغاني ٨/٢٨٠، خزانة الأدب ١/٢١٩-٢٢١.

(٧)- انظر الكتاب: ١/١٧٧، ١٨٦، ٣١٧، ٢/٢١، ٦٢، ٨٤، ٢٣٨، ٣٩٩، ٣/٤٢، ٩٦، ٩٩، ١٧٤، ٢٤٨، ٤/٥٠، ١١٦، ٢٠٨.

(٨)- الشاهد فيه: نصب (وتأتي) بإضمار (أنْ)، والمعنى: لا يكن منك أن تنهى وتأتيَ. الكتاب ٣/٤٢.

وأبو النجم العِجلي(١) ويذكر له ستة عشر بيتاً أيضاً(٢) منها قوله:

تُكتّبانِ في الطريق لام آلِف(٣)

وعمر بن أبي ربيعة(٤)، ويذكر له ستة عشر بيتاً(٥)، منها قوله:

صددْتِ فأطولت الصدودَ وقلّما | وصالٌ على طُولِ الصدودِ يدومُ(٦)

ثمّ الأحوص الأنصاري(٧)، وذكر له ثمانية أبيات (٨)، منها قوله:

وإنَّ بني حَرْبٍ كما قد علمتُمُ | مَناطَ الثّريّا قد تعلّتْ نجومُها(٩)

---

(١)- هو الفضل بن قدامة العِجْلي، أبو النجم (ت ١٣٠ هـ) من بني بكر بن وائل: من الرجّاز الكبار ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر. الشعر والشعراء ٢٣٢، الأغاني ١٠/١٥٠، خزانة الأدب ١/٤٩، ٤٠٩.

(٢)- انظر الكتاب: ١/٨٥، ٢٢١، ٢/٢١٤، ٢٤٨، ٣/٣٥، ١١٦، ١٢٨، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٤٥٢، ٦٠٧، ٤/١١٤، ١٨٠، ٢١٤، ٢١٦.

(٣)- يذكر أنّه شرب عند صديقه زياد، فانصرف من عنده ثملاً لا يملك نفسه كما لا يملكها الخَرِفُ، وهو الذي فسد لكبره. وقبله:

أقبلْتُ من عند زياد كالخرف | تخطّ رجلاي بخطّ مختلف

ويعني بلام ألف: أنه تارة يمشي معوجاً فتخط رجلاه خطّاً شبيهاً باللام، ومرة مستقيماً فتخط رجلاه خطّاً شبيهاً بالألف. والشاهد فيه: إلقاء حركة الألف على ميم (لام) التي كانت ساكنة. الكتاب ٣/٢٦٦.

(٤)- هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب (٢٣-٩٣ هـ) من طبقة جرير، والفرزدق، وهو أشعر قريش في عصره، مات غرقاً بعد أن نفاه عمر بن عبد العزيز إلى جزيرة (دهلك) لتشبيبه بنساء الحج. انظر الشعر والشعراء ٢١٦، الأغاني ١/٦١، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٣٥٣، ٣٧٨، خزانة الأدب ١/٢٤٠.

(٥)- انظر الكتاب ١/٣١، ٧٨، ١٢٤، ١٦٥، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٣، ٣١١، ٢/٣٥٨، ٣٧٩، ٣/١١٥، ١٣٦، ١٧٥، ٥٦٦.

(٦)- الشاهد فيه تقديم الاسم (وصال) على رافعه (يدومُ) للضرورة.

(٧)- هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري (ت ١٠٥): شاعر هجّاء من سكان المدينة، أخباره مع الوليد بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك كثيرة. انظر الشعر والشعراء ٢٠٤، والأغاني ٤/٤٠-٥٨، وخزانة الأدب ١/٢٣٢.

(٨)- انظر في ذلك الكتاب ١/٣٢٣، ٣٨٠، ٤١٣، ٢/٢٠١، ٢٠٢، ٣/١٢٥، ١٢٦.

(٩)- مناط الثريّا: متعلّقها، من نطْتُ الشيء أنوطه، إذا علقته، وأراد (بني حرب) آل أبي سفيان بن حرب. يقول: هم في ارتفـــاع منزلتهم، وعلـو مرتبتهم كالثريّا إذا صارت على قمة الرأس. والشاهد فيه نصب (مناطَ الثريّا) على الظرف. الكتاب ١/٤١٣.

ثمّ كُثيّر عزّة (١)، وذكر له سبعة أبيات(٢)، منها قوله:

لئن عاد لي عبد العزيز بمثلها   وأمكنني منها إذن لا أُقِيلُها(٣)

ويتابع سيبويه استدلاله بالشعر الأموي على تفاوت بين الشعراء، إلى أن يصل إلى الاستدلال ببيتين من الشعر لبعض الشعراء كما هو الحال مع عمران بن حطّان(٤)، والحارثة بن بدر الغداني(٥)، وغيرهم من شعراء ذلك العصر، أو يستدل ببيت واحد كما هو الحال مع عبيد الله بن الحرّ الجُعْفي(٦)، وميسون بنت بحدل (٧)، وسويد بن كراع (٨)، وغيرهم.

---

(١)- هو كُثَيّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي (ت ١٠٥ هـ) أبو صخر شاعر متيّم من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر. طبقات فحول الشعراء ١٢١، الشعر والشعراء ١٩٨، الأغاني ٢٥/٨، الإصابة في تمييز الصحابة ت ٧٤٨١ خزانة الأدب ٣٨١/٢-٣٨٣.

(٢)- انظر في ذلك الكتاب ٤٣٣/١، ١٢٣/٢، ١٥/٣، ١٣١، ١٤٥، ١٧٤، ٤٦٧.

(٣)- كان عبد العزيز بن مروان قد جعل له أن يتمنّى عليه، وقد مدحه، فتمنّى أن يجعله عاملاً مكان عامل كان كاتبا له، وكان كثيرّ أميّا، فاستجهله عبد العزيز وأبعده فقال هذا. والضمير في (بمثلها) للأمنية، والإقالة في البيع فسخُهُ. والشاهد فيه إلغاء (إذن) لوقوعها بين القسم وجوابه وعدم تصدرها. الكتاب ١٥/٣.

(٤)- هو عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني الوائلي (ت ٨٤ هـ) شاعر، وخطيب من أهل البصرة، روى عن بعض الصحابة، وروى أصحاب الحديث عنه. انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ٩١ الإصابة في تمييز الصحابة ت ٦٨٧٧، خزانة الأدب ٤٣٦/٢-٤٤١، والكتاب ٣٧٥/٢، ٤٨٨/٣.

(٥)- هو حارثة بن بدر بن حصين التميمي (ت ٦٤هـ) من أهل البصرة له أخبار في الفتوح، أُمّر على قتال الخوارج في العراق فهزموه. انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣٧١/١ والكتاب ٣٤٠/٢.

(٦)- هو عبيد الله بن الحرّ بن عمرو الجعفي (ت ٦٨هـ) من بني سعد العشيرة: شاعر من أصحاب عثمان (رض) شهد (صفّين)، عصى مصعب بن الزبير، وأغرق نفسه خوفاً من أن يؤسر. انظر طبقات فحول الشعراء ٥٩، خزانة الأدب للبغدادي ٢٩٦/١-٢٩٩. وانظر الكتاب ٨٦/٣.

(٧)- هي ميسون بنت بحدل بن أُنيف (ت نحو ٨٠ هـ) من بني حارثة بن جناب الكلبي، أم يزيد بن معاوية شاعرة بدوية، سمعها زوجها معاوية وهي تقول: ولبس عباءة... فطلّقها وأعادها إلى باديتها. انظر كتاب الحيوان للجاحظ ١٧٧/١، الاشتقاق لابن دريد ٣١٦. خزانة الأدب ٥٩٣/٣، وانظر الكتاب ٤٥/٣.

(٨)- هو سُوَيد بن كراع العُكلي (ت نحو ١٠٥هـ) من بني الحارث بن عوف. شاعر فارس مقدم، كان في العصر الأموي صاحب الرأي والتقدم في بني عكل. انظر طبقات فحول الشعراء ١٤٣، ١٤٧-١٤٩، الشعر والشعراء ٢٤١، الأغاني ١٢٣/١١.

د- استدلاله بالشعر العباسي:

أمّا شعراء العصر العباسي فلم يكن نصيبهم وافرا، سواء أكان ذلك في عدد الشعراء أم عددِ الأبيات التي أستدلّ بها لكل شاعر، فقد احتجّ لابن ميّادة(١) بسبعة أبيات(٢) منها قوله:

ألا ليت شعري هل إلى أمّ مَعْمَرٍ سبيل فأمّا الصَّبْرَ عنها فلا صَبْرا(٣)

وأبي نخيلة السّعدي(٤)، فقد ذكر له ثلاثة أبيات(٥)، منها قوله:

كَنَهْوَر كان من أعقابِ السُّمِي(٦)

---

(١)- هو الرمّاح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني المضري (ت ١٤٩هـ) أبو شرحبيل، شاعر رقيق هجّاء بعضهم يرى أنه أشعر الغطفانيين في الجاهلية، والإسلام، وأنه كان لقرمه خيراً من النابغة. انظر الشعر والشعراء ٢٩٨، والأغاني ٨٥/٢-١١٦، وخزانة الأدب ٧٧/١.

(٢)- انظر الكتاب ٥٦/١، ٣٨٦،٣١١، ٤٣١، ٢٠/٢، ٢٣١/٣.

(٣)- الشاهد فيه: نصب (الصبرَ) على المفعول له، والتقدير: مهما ذكرت شيئاً للصبر ومن أجله، فلا صبر لي. الكتاب ٣٨٦/١.

(٤)- أبو نخيلة بن حزن بن زائدة بن لقيط السعدي التميمي (ت نحو ١٤٥هـ) شاعر راجز، كان عاقّاً لأبيه مدح بني أمية ثمّ بني العبّاس. انظر الحيوان للجاحظ ١٠٠/٢، والشعر والشعراء (شاكر) ٥٨٣، الأغاني ١٣٩/١٨-١٥٢، خزانة الأدب ٧٩/١-٨٠.

(٥)- انظر في ذلك الكتاب: ٣٠٥/٣، ٦٠٦، ٢٠٣/٤.

(٦)- الكَنَهْوَرُ: القطع العظام من متراكب السحاب، مفردة: كَنَهْوَرَة. والأعقاب: جمع عقب لآخر الشيء، عنى أنه سحاب ثقل بالماء فأتى لذلك آخر السحاب لثقله. وأراد بالسماء هنا السحاب. الشاهد فيه: جمع سماء على (سُمِي) بوزن فُعُول، اجتمعت واوان في آخره، فقلبت ثانيتهما ياء، ثم قُلبت أولاهما ياء لالتقائهما ساكنة بالياء المنقلبة، فقلبت لذلك ياء، وكُسر الحرف الصحيح لتثبت الياء بعد الكسرة. ونظيرها من السالم: عناق وعنوق، وهو جمع غريب. الكتاب ٦٠٦/٣.

وأبي حيّة النميري (١) الذي ذكر له ثلاثة أبيات (٢) أيضاً منها قوله:

كما خُطَّ الكتابُ بكفِّ يوماً يهـــوديٍّ يقارب أو يزيـــــلُ(٣)

كما استدل سيبويه ببيت واحدٍ لكثير من الشعراء في ذلك العصر؛ فقد استدل بقول أبي عَطاءِ السِّنْدي:(٤)

مفدّمـــةً قزّاً كأنّ رقابهـــا رقابُ بناتِ الماء أفْزَعها الرَّعْدُ(٥)

والفضل بن عبد الرحمن القرشي(٦) بقوله:

---

(١)- هو الهيثم بن الربيع بن زرارة، من بني نمير بن عامر، أبو حيّة (ت نحو ١٨٣هـ) شاعر مجيد، فصيح راجز من أهل البصرة. من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مدح خلفاء عصره فيهما. انظر الشعر والشعراء ٢٩٩ والأغاني(الساسي) ١٥/٦١، خزانة الأدب ٣/١٥٤، ٤/٢٨٣-٢٨٥.

(٢)- انظر في ذلك الكتاب ١/١٧٩، ٤١٢، ٣/١٥٦.

(٣)- شبّه رسوم الدار بالكتاب في دقتها أو في الاستدلال بها، وخصّ اليهود لأنهم أهل كتاب. وجعله يقارب بين كتابته ويفرّق، تمثيلاً لتلك الآثار، يتقارب بعضها ويتباعد بعضها الآخر. والشاهد فيه الفصل بالظرف (يوماً) بين المضاف والمضاف اليه. الكتاب ١/١٧٩.

(٤)- هو أفلح بن يسار السِّندي (ت بعد ١٨٠هـ) أبو عطاء، شاعر فحل من موالي بني أسد، نشأ بالكوفة. وتشيّع للأمويين، كانت في لسانه لثغة وعجمة، لم يكن يحسن إنشاد شعره، بل يطلب من غيره أن ينشده. انظر فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/٧٣، خزانة الأدب ٤/١٧٠ وفيه أنّ اسمه (مرزوق).

(٥)- يصف أباريق الخمر. قُدمتْ رؤوسها، أي شدّت بالقزّ، وهو الحرير، وشبه رقاب الأباريق برقاب بنات الماء، وهي الغرانيق: والغرنوق طائر مائي أبيض طويل الساق. إذا فزعت بصوت الرعد نصبت أعناقها. والشاهد فيه: تعريف المضاف اليه في (بنات الماء) بأل، وهذا دليل تنكيرها. انظر الكتاب ٢/٩٨.

(٦)- هو الفضل بن عبد الرحمن بن العباس (ت نحو ١٧٣هـ) شيخ بني هاشم في وقته وشاعرهم، وهو أوّل من لبس السواد على زيد بن علي بن الحسين. انظر نسب قريش لمصعب بن عبد الله الزبيري ٨٩ مصر ١٩٥٣م، مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ٢٥٤ مصر ١٩٤٩، معجم الشعراء للمرزباني ٣١٠ مصر ١٣٥٤هـ.

إيّاكَ إيّاكَ المِـــراءَ فإنـــــه ... إلى الشرِّ دعّاءٌ وللشرِّ جالبُ (١)

ومروان بن سعيد النحوي (٢) بقوله:

ألقى الصَّحِيفةَ كي يخفِّفَ رحلَهُ ... والزاد حتّى نعلِهِ ألقاها(٣)

وإبراهيم بن هَرْمَة (٤) بقوله:

أنُصْـــبٌ للمنيّـــةِ تَعْتَرِيهـــمْ ... رجالي أم هُمُ دَرَجَ السُّيولِ(٥)

وهكذا نرى من خلال استدلال سيبويه بشعر الشعراء العرب أنه قد عُني بالشعر الأموي، وما يليـه من العصر العباسي عناية تفوق استدلاله بالشعر الجاهلي، على الرغم من التداخل البيّن بين عصر وآخر، فكثير من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام ولم يُسلموا، كان معظم شعرهم قبل الإسلام، وهذا ما دفعنا إلى وضعهم ضمن شعراءالعصر الجاهلي كأميّة بن أبي الصلت، أو اعتنقوا الإسلام وقلّ

---

(١)- المِراء: المجادلة، والمخالفة في الكلام والملاجّة فيه. والشاهد فيه نصب (المِراءَ) بعد (إيّاكَ) مع حذف حرف العطف ضرورة. لكن قال المازني:«« لمّا كرّر (إيّاكَ) مرتين كان أحدهما عوضاً من الواو»». الكتاب ٢٧٩/١.

(٢)- هو مروان بن سعيد بن عبّاد بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة (ت نحو ١٩٠هـ) شاعر من أهل البصرة من أصحاب الخليل بن أحمد، وكان حاذقاً بالنحو. انظر معجم الشعراء للمرزباني٣٩٨، وبغية الوعاة للسيوطي٣٩٠.

(٣)- الشاهد فيه: (حتّى نعلِه) بالجر على أنّ (حتّى) حرف غاية وجر و(نعله) مجرور بحتّى. الكتاب ٩٧/١، أوضح المسالك ٤٥/٣-٤٦.

(٤)- هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هَرْمَة الكناني القرشي(ت ١٧٦هـ) شاعر من أهل المدينة مدح الأمويين ثم العباسيين. قال الأصمعي: ختم الشعر بابن هَرْمة. انظر الأغاني ١٠١/٤، ٤٩/٥ (الساسي) تاريخ بغداد للخطيب للبغدادي١٢٧/٦ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٨٤/٢، خزانة الأدب ٨٤/٢.

(٥)- النُّصُب: المنصوب. تعتريهم: تغشاهم: أي: أهُمْ نصب للموت يدور عليهم ولا يتخطّاهم ؟ دَرَج السيول: الموضع الذي ينحدر فيه السيل إلى آخره، حتى يستقرّ، والمعنى كأنّهم كانوا في ممرّ السيل فاجترفهم. والشاهد فيه: نصب (دَرَجَ السيول) على الظرفية تشبيها له بالمكان. الكتاب ٤١٥/١.

فيه كلبيد بن ربيعة العامري.

وهناك طائفة من الشعراء أدركت العصر الأموي بسنوات عديدة لكننا أبقيناها في تصنفينا مع الشعراء المخضرمين؛ لأنّ جلّ شعرها كان في الجاهلية والإسلامِ العصرِ الراشدي منه. كالنابغة الجعدي وحسّان بن ثابت، والحطيئة، وعُتَيْبة الأسدي.

وفئة أخرى من الشعراء الذين عاشوا في العصر الأموي، وأدركوا العصر العباسي إلاّ أنّ أغلب شعرهم كان قبل ١٣٢هـ فقد أبقيناهم في عداد الشعراء الأمويين كرؤبة بن العجاج، وصنفنا من شعراء العصر العباسي كلَّ من عاش في ذلك العصر وظهر في شعره مدحه لبني العباس وإن كان متقدمًا كأبي نخيلة المتوفى سنة ١٤٥هـ.

هـ- استدلاله بشعراء مطعون عليهم:

على الرغم من المكانة الكبيرة التي تفرّد بها كتاب سيبويه، والأهمية الرفيعة التي منحها النحاة الذين جاؤوا بعده للكتاب، فإنه لم يخلُ من ثغرات تداولها بعضهم، هذه الثغرات لم توجّه إلى بُنْيَة الكتاب، ونتائجه التي وَصل إليها في تأسيس قواعد اللغة العربية، بل توجّهت إلى المادة التي استدلّ بها سيبويه في كتابه وهي الشعر؛ فقد تحدثوا عن استدلاله بشعر شعراء وجُهّت إليهم سهام الطعن من قبل بعض العلماء، وتحدثوا عن استدلاله ببعض الأبيات المصنوعة، أو مجهولة القائل، وغير ذلك. وهذه الملاحظات، وإن كانت لا تنال من الكتاب وصاحبه شيئا، فإن من الواجب عرضها وتوضيحها، وبيان مراميها.

فقد استدلّ سيبويه بلغة شعراء ضعّفهم بعض اللغويين، والعلماء، كأبي دؤاد الإيادي(١) الذي حامت حول شعره شكوك جعلت أبا حاتم السجستاني(٢) يقول: ‹‹ولمّا قدم الأصمعي من بغداد دخلت إليه، فسألته عمّن بها من رواة الكوفة. قال: رواة غير منقّحين، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دؤاد الإيادي قالها خلف الأحمر(٣)››(٤) وقد استدلّ سيبويه ببيت له، (٥) وهو قوله:

أكُلَّ امرئٍ تَحسبين امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا(٦)

- واستدلّ لعديّ بن زيد العبادي ت ٣٥ق.هـ بخمسة أبيات(٧) وهو من أهل الحيرة، ويحسن الفارسية إلى جانب العربية، وكان ترجماناً بين كسرى وبين العرب، وأولُ من كتب بالعربية في ديوان كسرى، وبلغ تأثيره بالفرس حداً جعله يتقن ألعابهم ويحرص عليها كَلَعِبِهِ بالصوالجة على الخيل، وهي من

---

(١)- هو جارية بن الحجاج الإيادي، شاعر جاهلي لا تعرف سنة ولادته ولا وفاته. انظر اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري مصر ١٩٣٦م .

(٢)- هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (ت٢٤٨ هـ) من كبار العلماء باللغة والشعر. من أهل البصرة انظر الفهرست ١/٥٨، وإنباه الرواة للقفطي ٢/٥٨، بغية الوعاة للسيوطي ٢٥٦.

(٣)- هو خلف بن حيّان، أبو محرز المعروف بالأحمر (ت ١٨٠ هـ) راوية عالم بالأدب، شاعر من أهل البصرة كان أبواه مولَيين، كان يضع الشعر ، وينسبه إلى العرب، وقال كثيرون فيه: إنّه وضع على شعراء عبد القيس شعرا كثيراً، وعلى غيرهم عبثا به. فأخذ ذلك عنه أهل البصرة، وأهل الكوفة. انظر الشعر والشعراء ٣٠٨، مراتب النحويين واللغويين لأبي الطيب اللغوي ٤٦، بغية الوعاة للسيوطي ٢٤٢.

(٤)- الموشح للمرزباني ٢٥١-٢٥٢ المطبعة السلفية ١٣٤٣هـ وانظر في ذلك مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ٤٥٢، وما بعدها دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

(٥)- انظر الكتاب ١/٦٦.

(٦)- الشاهد فيه: (ونارٍ) فقد عطف (نار) على (امرئ)على تقدير مضاف. ويجوز أن يكون مجروراً بإضافة مفعول أول محذوف لفعل محذوف والتقدير: وتحسبين كل نارٍ. والأول أولى. انظر الكتاب ١/٦٦، والشاهد النحوي ووجه الاستشهاد ليحيى مصري ١١١. الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٩م.

(٧)- انظر الكتاب ١/١٤٠، ١٩٨، ٢/٣١٢، ٣/٧٤، ١١٣.

ألعاب العجم، ولمّا مات كسرى وولّي ابنه هرمز رفع منزلة عديّ فكانَ رسولَه إلى ملك الروم في القسطنطينية.(١)

هذه الأمور مجتمعة جعلت عدياً موضع شكّ في سلامة لغته، فقد قال ابن قتيبة:(٢) إنه كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه، وعلماء العربية لا يرون شعره حجّة، وقال فيه المفضّل: <<كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة، فكان عدي بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره>>(٣)

ـ واستدل للنعمان بن المنذر اللخمي(٤) ببيت واحد يقول فيه:

قد قِيل ذلك إن حقّاً وإنْ كذِباً فما اعتذارك من شيءٍ إذا قِيلا(٥)

وهو: أي النعمان من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية مَلَكَها إرثاً عن أبيه، وكانت تابعة للفرس فأقرّه عليها كسرى. وهذه الصلة الكبيرة بالفرس جعلته، وغيره من ملوك الحيرة موضع شكّ لانحراف لغتهم عن لغة العرب.(٦)

---

(١)- انظر الشعر والشعراء ٦٣، الأغاني للأصفهاني ٢/٩٧، خزانة الأدب ١/١٨٤-١٨٦.

(٢)- انظر الشعر والشعراء ٦٣.

(٣)- الموشح للمرزباني ١٠٣.

(٤)- هو النعمان بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي (ت ١٥ ق.هـ) وهو غير النعمان بن المنذر الغساني، فالأول منهما كان أبرش أحمر الشعر، وكان الشاهد الوحيد الذي ذكره سيبويه للنعمان ردّاً على مَن عاب عليه برصه. انظر الأغاني ٢٠/١٣٢ (طبعة الساسي)، خزانة الأدب ١/١٨٥.

(٥)- يخاطب بذلك الربيع بن زياد العبسي، وكان لبيد قد اتهمه في رجز قاله للنعمان بأنه أبرص، وذلك ليكف النعمان عن منادمة الربيع، فترك النعمان منادمته، وأمره بالعودة إلى قومه. والشاهد فيه: نصب (حقاً)، و(كذبا) بإضمار فعل يقتضيه الشرط، تقديره (كان). الكتاب ١/٢٦٠.

(٦)- انظر الموشح ١٠٣.

- واستدلّ لأمية بن أبي الصَّلْت الثقفي بتسعة شواهد(١) على الرغم من تجواله الدائم وقدومه دمشق قبل الإسلام، وهذا ما جعل علماء العربية لا يستدلون بشعره، إضافة إلى ورود ألفاظ في شعره لا تعرفها العرب(٢).

- واستدل ببيتين للشاعر سحيم عبد بني الحسحاس(٣) منهما قوله:

إذا شُقَّ بُرْد شُقَّ بالبُرْدِ مثلُهُ   دواليك حتّى ليس للبُردِ لابِسُ (٤)

وهو الذي لا يستقيم لسانه بمخارج حروف لغة العرب، وتخالط عربيته لكنه حبشية فيجعل الحاءَ هاءً، والشين سيناً، وتاء الضمير كافاً(٥)

- وأثبت ثلاثة أبيات(٦) لزياد الأعجم (٧) منها قوله:

---

(١)- انظر الكتاب ١/٣٢٥، ٣٢٦، ٢/١٠٩، ٣١٥، ٣/٧٣، ١٦١، ٣١٥، ٣٣٠، ٤/٩٥.

(٢)- انظر طبقات فحول الشعراء ٩٦، الشعر والشعراء ١٧٦، الأغاني ٤/١٢٠، خزانة الأدب ١/١١٩.

(٣)- سحيم عبد بني الحَسْحَاس (ت نحو ٤٠ هـ) شاعر رقيق الشعر، كان عبداً نوبيّاً أعجمي الأصل واللسان، اشتراه بنو الحسحاس فنشأ بينهم، قتله قومه لتشبيبه بنسائهم. انظر الشعر والشعراء ١٥٢، الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ت٣٦٥٩، خزانة الأدب ١/٢٧٢-٢٧٤.

(٤)- البُرد: الثوب، كان العرب يزعمون أنّ المتحابَّين إذا شقّ كلّ واحد منهما ثوب صاحبه دامت مودتهما، ولم تفسد. وفي البيت إقواء؛ لأنه من أبيات مكسورة الروي. والشاهد فيه: (دواليك) نصبت على المصدر الموضوع موضع الحال، وثنّي لأنّ المداولة من اثنين. والكاف للخطاب، لا يتصرف ما قبلها بها، فلذا يصحّ وقوعه حالاً. وفي ذلك كلام كثير. انظر الكتاب١/٣٥٠، أوضح المسالك لابن هشام ٢/١٨٨.

(٥)- انظر سحيم عبد بني الحسحاس شاعر الغزل والصبوة لمحمد خير الحلواني ٤٣ حلب ١٩٧٣.

(٦)- انظر الكتاب ١/٣٠١، ٣/٤٨، ٤/١٨٠.

(٧)- زياد بن سليمان الأعجم (ت نحو ١٠٠ هـ) مولى بني عبد القيس، كانت في لسانه عجمة فلُقّب بالأعجم. ولد، ونشأ في أصفهان، وانتقل إلى خراسان، فسكنها وطال عمره، ومات فيها. طبقات فحول الشعراء ٥٥١، ٥٥٧، الشعر والشعراء١٦٥، الأغاني١٤/٩٨-١٠٥، خزانة الأدب ٤/١٩٣.

تكلّفني سَويقَ الكرْمِ جَرْمٌ   وما جَرْمٌ، وما ذاكَ السويقُ (١)

وقد طُعن عليه، وهو الذي ولد ونشأ في أصفهان، ثم انتقل إلى خراسان إلى أنْ مات فيها، عدا جولات قام بها إلى أرض العرب، طالت، أو قصرت، إضافة إلى ثِقَل لسانه؛ فقد كان يجعل السين شيناً، والطاء تاء. وهذه الأمور مجتمعة دفعت بعض علماء اللغة يشكّكون في سلامة لغته. (٢)

- وكان ذو الرمّة وهو من شعراء العصر الأموي البارزين الذين استدل سيبويه بشعرهم (٣) موضع شكّ أيضاً، فعلى الرّغم من أنّ سيبويه قد استدل له بستة وعشرين شاهداً نرى الأصمعي يقول فيه: «إن ذا الرّمة أكل المالح والبقل في حوانيت البقالين» وهذا ما دفعه لرفض الأخذ ببيت له على صحة تأنيث (زوج) بالتاء. (٤)

- وطعن الأصمعي على الطرمّاح بن حكيم، (٥) وهو عنده ممن لا يجوز الاستدلال بشعرهم لأنه هو

---

(١)- السويق: طعام من الحنطة والشعير، وسويق الكرم هنا الخمر. والشاهد فيه إظهار (ما) قبل (ذاك) تقوية لرفع المعطوف، كما تقول في ما أنت وزيد: ما أنت وما زيد. وكان يستطيع أن يقول: وما جَرْم، وذاك السويق. انظر الكتاب ٣٠١/١.

(٢)- انظر طبقات فحول الشعراء ٥٥٧،٥٥١، الشعر والشعراء١٦٥، الأغاني ٩٨/١٤-١٠٥، خزانة الأدب ١٩٣/٤، وسحيم للحلواني ٢٢٥.

(٣)- انظر الكتاب: ١١/١، ٥٢، ٦٥، ٨٢، ١١٠، ١٧٩، ٢٨٠، ٤٢٦، ١١/٢، ٦٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٩، ١٢٣، ١٦٦، ١٩٣، ١٩٩، ٢٨٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٣٢، ٤٨/٣، ٦٠، ٦٨، ٣٠٤، ٣٨٢، ٤٩٨، ٥٥١، ٥٧١، ٥٩/٤.

(٤)- مجالس العلماء للزجاجي١٩٥، تح: هارون. الكويت ١٩٦٢، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي١٩٠، الموشح للمرزباني٣٠٣.

(٥)- هو الطرمّاح بن حكيم بن الحكم (ت نحو ١٢٥ هـ) الطائي. شاعر متعصب للقحطانيين، وُلد في الشام، وانتقل إلى الكوفة. انظر البيان والتبيين ٢٧/١، والشعر والشعراء ٢٢٨، والأغاني ١٤٨/١٠، وخزانة الأدب ٤١٨/٣، وانظر في شعره الكتاب ٢٠١/٢، ٤٣٠/٣، ٢٤٧/٤.

والكميت بن زيد (١)، كانا يقولان ما سمعاه، ولا يفهمانه(٢) ويصف الكميتَ بأنّه جُرْمُقاني من أهل الموصل، ليس بحجّة.

- ومثل ذلك ما وُجّه من طعن على أبي عطاء السّندي الذي يشبه سحيماً في لكنته، ولم يكن يقوى على إنشاد شعره لما في لسانه من عجمة ولثغة (٣).

- وجاء في كتاب سيبويه بيتان لم يُشَر إلى صاحبهما، لكنه ثبت أنهما موضوعان. الأول منهما:

حَذِرٌ أموراً لا تُخاف وآمِنٌ ما ليس مُنْجِيَهُ من الأقدار(٤)

وهو موضوع؛ لِمَا يروى عن أبان بن عبد الحميد اللاحقي(٥) أنه قال: سألني سيبويه عن شاهد في تعدّي (فَعِل) فعملت له هذا البيت (٦).

---

(١)- هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي (٦٠-١٢٦ هـ) شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب، ولغاتها، وأخبارها، وأنسابها. الشعر والشعراء ٥٦٢-٥٦٦ الأغاني ١٠٨/١٥، خزانة الأدب ٦٩/١-٧١، ٨٦-٨٧.

(٢)- انظر الموشح للمرزباني ٣٠٢،٣٢٥، والمزهر للسيوطي ٣٤٠/٢.

(٣)- انظر في شعره الكتاب ٩٨/٢، وانظر فوات الوفيات للكتبي ٧٣/١، وخزانة الأدب ١٧٠/٤، وسحيم للحلواني ٢٢٥.

(٤)- يصف إنساناً بالجهل وقلّة المعرفة، وأنه يحذر ما لا ينبغي أن يحذر، ويأمن ما لا يصح أن يؤمن، وإعمال (فَعِل) مذهب لسيبويه، لأنه عنده محوّل من (فاعل). انظر الكتاب ١١٣/١.

(٥)- هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي(ت ٢٠٠ هـ) شاعر من أهل البصرة، نُسِبَ إلى جدّه، اتصل بالبرامكة، ونظم(كليلة ودمنة) شعراً. انظر الفهرست لابن النديم ١٦/١، خزانة الأدب للبغدادي ٤٥٦/٣.

(٦)- انظر خزانة الأدب ٤٥٦/٣.

والثاني:

ومنهلٍ ليس لـه حـوازقُ ولضَفادِي جَمِّـهِ نَقانِـقُ(١)

وهو موضوع بدليل ما ذكره الشنتمري (٢) من أنه مصنوع لخلف الأحمر(٣)

ـ تداول القدماء قصة استدلال سيبويه بشعر بشار بن برد(٤)، بل ببيت واحد من شعره، وتناقلوا الخبر، وتبع هذا التناقل كثير من الوهم والاضطراب.

وأظن أنّ أبا العلاء المعرّي(٥) كان أوّل من أثار هذا الموضوع، وبيّن أنّ سيبويه كان يخاف من هجاء بشار له، وأنه كان يتداول بعض شعره، وذلك بقوله: ‹‹وحُكي عنه- أي عن سيبويه- أنه عاب عليه قوله:

على الغَزَلى منّي السلامُ فطال ما لهوتُ بها في ظلّ مخضرّةٍ زَهْرِ

---

(١)- المنهل: المورد، الحوازق: الجماعات، واحدتها حزيقة، فجمعها جمع فاعلة كأنّ واحدتها حازقة، والجمع قد يبنى على غير واحده. يقول: هو منهل قفْر لا ترده الجماعات والضفادي: الضفادع، بالإبدال. والجمّ: جمع جمة، وهي معظم الماء ومجتمعه. والنقانق، أصوات الضفادع، واحدتها نَقنَقة. والشاهد فيه: إبدال الياء من العين في الضفادع للضرورة؛ لأنّ الوزن يقتضي إسكان الياء. انظر الكتاب ٢٧٣/٢ وانظر البيت في شرح المفصل٢٨،٢٤/١٠ واللسان (حزق).

(٢)- هو يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي (٤١٠-٤٧٦ هـ) مات في إشبيلية. شهرته واسعة في النحو والأدب. انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ٣٠٧/٧، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥٣/٢.

(٣)- انظر حاشية كتاب سيبويه ٢٧٣/٢.

(٤)- هو بشار بنُ بُرد العقيلي بالولاء (٩٥-١٦٧ هـ) أشعر المولدين على الإطلاق أصله من طخارستان نشأ في البصرة، وقدم بغداد، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. انظر الشعر والشعراء ٢٩١ تاريخ بغداد ١١٢/٧، وفيات الأعيان ٨٨/١، خزانة الأدب ٥٤١/١.

(٥)- هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (٣٦٣-٤٤٩ هـ) شاعر فيلسوف، ولد ومات في معرّة النعمان، أقام في بغداد ما يزيد على السنة. انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٨١/١، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٣/١، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لراغب الطّبّاخ ٧٧/٤، ١٨٠، ٣٧٨ حلب ١٣٤٢ هـ.

فقال سيبويه: لم تستعمل العرب الغَزَلى، فقال بشار: هذا مثل قولهم: البَشَكى والجَمَزى، ونحو ذلك. وجاء بشار في شعره بالنِّينان، جمع نونٍ من السمك. فيقال إنه أنكره عليه»(١)

وأورد أبو الفرج الأصفهاني ما يشير إلى خوف سيبويه من بشار بقوله: «وكان إذا سُئل عن شيء فأجاب عنه، ووجد له شاهداً من شعر بشار احتجّ به استكفافاً لشرِّه»(٢)

وذكر أبو الفرج الأصفهاني أيضاً أنّ الأخفش سعيد بن مسعدة(٣) استدلّ بشعر بشار. قال: «فكان الأخفش بعد ذلك- أي بعد هجاء بشار له- يحتجّ بشعره في كتبه لِيَبْلُغَه، فكفّ عن ذكره بعد هذا»(٤)

هذا مجمل الخبر كما ورد في كتب القدماء، ومن خلال ذلك نستخلص الوهم والاضطراب في قضية استدلال سيبويه بشعر بشار بن برد.

- صحيح انّ صاحب الأغاني ذكر أنّ سيبويه طعن على بشار، وخطّأه! لكنه لم يذكر أن سيبويه استدل ببيت لبشار، ولا تتعدى إشارة الأصفهاني إلى القصة أن سيبويه « إذا سئل عن شيء فأجاب

---

(١)- رسالة الغفران للمعري ٤٣١، تح: عائشة عبد الرحمن ط٤، دار المعارف بمصر.

(٢)- الأغاني ٢١٠/٣.

(٣)- الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء (ت ٢١٥ هـ) نحوي، عالم باللغة والأدب من أهل بلخ. سكن البصرة، وأخذ عن سيبويه. زاد في العروض بحرا. انظر معجم الأدباء ٢٢٤/١١، طبعة دار المأمون، إنباه الرواة للقفطي ٣٦/٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٨/١، بغية الوعاة للسيوطي ٢٨٥.

(٤)- الأغاني ٢١٠/٣، وانظر الموشح للمرزباني ٣٨٥.

عنه، ووجد له شاهداً من شعر بشار احتج به››(١)؛ أي أنّ الأمر لم يتجاوز الحوار في المجالس، وما يتخلّله من أسئلة وأجوبة بين الأستاذ وطلبته. ولا نلمس في كلام الأصفهاني أيّ إشارة إلى كتاب سيبويه، واستدلاله بشعر بشار. ولو كان الأصفهاني مقتنعاً بأنّ سيبويه استدلّ بشعر بشار لذكر ذلك صراحة كما فعل في حديثه عن الأخفش حيث قال:‹‹فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه››(٢)

ـ الأمر نفسه نجده في الموشّح للمرزباني فقد ذكر خشية سيبويه من هجاء بشار لكنّه لم يذكر أنّه استدل بشعره في (الكتاب) (٣).

- أمّا ما جاء في رسالة الغفران للمعرّي -وهو أول مصدر يشير إلى قصة استدلال سيبويه بشعر بشار- فيدحضه كلام المعري ذاته عندما جوّز ‹‹ أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون في المجالس، ومجامع القوم››(٤).

- وأمّا ما أورده المعرّي من أنّ سيبويه قد عاب على بشار قوله في جمع (نون) على (نينان)؛ وكان ذلك بداية الخلاف بينهما؛ فإنّني أشكّ في صحة هذا الخبر بدليل أنّ سيبويه يجمع (نُون) على (نينان) في (الكتاب) (٥).

---

(١)- الأغاني ٣/٢١٠.

(٢)- المصدر نفسه ٣/٢١٠.

(٣)- انظر الموشح للمرزباني ٣٨٥.

(٤)- رسالة الغفران للمعرّي ٤٢٣ (الطبعة الثانية)

(٥)- انظر الكتاب ٣/٥٩٣.

- فكرة أخيرة تحسم هذا الأمر، فقد أورد سيبويه البيت التالي:

وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيك نُصْحَه   وما كلُّ مؤْتٍ نُصْحَه بِلَبيبِ(١)

من دون أن ينسبَه إلى أحد، وقد أشار المعري إلى أنّ أصحاب بشار يروونه له(٢)، وفي المقابل فقد وُجِد البيت منسوباً إلى أبي الأسود الدؤلي في الحيوان للجاحظ (٣)، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني(٤)، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافي(٥)، والعمدة لابن رشيق (٦)، والمؤتلف والمختلف للآمدي، (٧)، وشرح شواهد المغني للسيوطي(٨)، وخزانة الأدب للبغدادي (٩)، وديوان أبي الأسود الدؤلي(١٠).

---

(١)- الكتاب ٤٤١/٤.

(٢)- انظر رسالة الغفران ٤٣١ (الطبعة الرابعة)

(٣)- الحيوان للجاحظ ٦٠١/٥ تح: عبد السلام هارون ط٢.

(٤)- الأغاني للأصفهاني ٣٠٥/١٢.

(٥)- شرح أبيات سيبويه للسيرافي ٣٧٣/٢ تح: محمد علي الريّح هاشم القاهرة ١٩٧٤.

(٦)- العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده لابن رشيق ٤/٢ تح: محيي الدين عبد الحميد-بيروت.

(٧)- المؤتلف والمختلف للآمدي ٢٢٤ تح: عبد الستار فرّاج، القاهرة ١٩٦١.

(٨)- شرح شواهد المغني للسيوطي ٥٤٢ تصحيح الشنقيطي-بيروت. ويبدو أن السيوطي خلط بين رواية استدلال الأخفش بشعر بشار في كتبه، واستدلال سيبويه بشعر بشار حين يُسأل، فقال:«أول الشعراء المحدثين بشار بن برد، وقد احتج سيبويه في كتابه ببعض شعره تقرباً إليه، لأنّه هجاه لِترك الاحتجاج بشعره... ذكره المرزباني وغيره» انظر الاقتراح للسيوطي٧٠ وهذا وهْم واضح من السيوطي.

(٩)- خزانة الأدب للبغدادي ١٣٧/١ بولاق ١٢٩٩ (نسخة مصورة-بيروت)

(١٠)- ديوان أبي الأسود الدؤلي ٩٩ تح: محمد حسن آل ياسين. بغداد ١٣٨٤. وانظر في الموضوع ذاته سيبويه إمام النحاة لعلي ناصف ٢٣، ففيه ردّ لقصة استدلال سيبويه بشعر بشار وإبطال لها، وانظر لذلك شواهد الشعر في كتاب سيبويه لخالد جمعه ٢٩٦، وما بعدها. الكويت ١٩٨٠.

من خلال ما تقدم رأينا موقف سيبويه، وعرفنا منهجه في الاستدلال بالشعر، والشعراء؛ لكنّ السؤال الذي يستوقفنا هو: لماذا يستدل سيبويه بأبيات لشعراء رُفض الاحتجاج بشعرهم كأبي حيّة النميري (ت ١٨٣ هـ)، ومروان بن سعيد النحوي (ت ١٩٠ هـ)، وآخرون مطعون عليهم وهم كُثُر-كما رأينا؟

والحقيقة أنه لابُدّ من التفريق بين نوعين من الاستدلال؛ الأول منهما: الاستدلال لعلم النحو، والثاني: الاستدلال لعلم اللغة. فعلم النحو يُعنى بتركيب الكلام، وعلاقة عناصر الجملة مع بعضها، وهو علم قليل الاستجابة للتطوّر والتغيير. أمّا علم اللغة فهو يُعني باللفظة الواحدة، وتطوّر مدلولها عند العرب، وهو علم سريع الاستجابة لما يعتري اللغة من تطوّر وتغيير في مدلوها المعنوي، مع محافظتها على سلامة تركيبها ونظمها، وبقاء أصولها ثابتةً لا يطالها التغيير؛ لذلك نرى أنّ سيبويه لم يجد حرجاً في الاستدلال بشعر مَن ضعّفهم اللغويون، لأن ما يبحث عنه ليس عرضة للتغيير بشكل سريع، فالأعرابي مثلاً، وهو صاحب السليقة العربية إذا زار الحواضر، أو تخوم بلاد فارس فإنه قد يستخدم لفظة غير عربية أحياناً، لكنّه لا يغيّر قواعد تركيب الجملة التي فُطر عليها.

وأمر آخر على جانب من الأهمية، وهو أنّ معظم ما ذكره سيبويه كان نقلاً لما كان العلماء يتداولونه في مجالسهم، ويرددونه دائماً على مسامع طلابهم، أو نقلاً لما كان يتناشده الرواة الثقات، أو عن الأعراب بالفصحاء الذين يُستدلّ بإنشادهم؛ وهذه طريقة أستاذه الخليل بن أحمد الذي أخذ بدوره عن أساتذته معظم ما أورده سيبويه.

أما ما أورده الأصمعي حول ذي الرمّة، ورفضه الاستدلال ببيت له؛ لأنه آكل المالح والبقل في حوانيت البقالين(١) فهذا مردود عليه؛ لأن الأصمعي استدلّ بشعر ذي الرمّة غير مرة في أمور لغوية، فكيف يُلامُ سيبويه إذا استدلّ بشعره لأغراض نحوية؟ (٢).

٤- القبائل التي أخذ عن شعرائها

لا نجد لدى سيبويه منهجاً واضحاً ثابتاً في استدلاله بأبيات لشعراء من قبائل معينة، أو بيئة عربية محدّدة؛ فهو يستدل بأبيات لشعراء ينتمون إلى قبائل مختلفة في معرض حديثه عن ظاهرة نحوية واحدة، من ذلك قوله: <<واعلم أنّه من قال: ذَهَبَ نساؤك، قال: أذاهب نساؤك. ومن قال: (فمَنْ جاءَهُ موعظة من ربّهِ)(٣) قال: أجائيٌ موعظة، تذهب الهاء ههنا كما تذهب التاء في الفعل. وكان أبو عمرو يقرأ: (خاشعاً أبصارُهُم)(٤) قال الشاعر، وهو أبو ذؤيب الهُذَليّ:

بعيدُ الغَزاةِ فمــا إنْ يَــزَا م ل مُضْطَمراً طرّتاه طليحا(٥)

---

(١)- انظر مجالس العلماء للزجاجي ١٩٥، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ١٩٠، الموشح للمرزباني ٣٠٣.

(٢)- انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٢٥/١٦ (طبعة الرفاعي) القاهرة، شرح المقامات الحريرية للشريشي ١٨/٣ تح: عبد المنعم خفاجي القاهرة ١٩٥٢، الاحتجاج لمحمد خير الحلواني ٩٨.

(٣)- البقرة ٢٧٥/٢.

(٤)- القلم ٤٣/٦٨، والمعارج ٤٤/٧٠ وفي مصحفنا اليوم (**خاشعةً أبصارُهم**).

(٥)- بُعَيد الغَزاة: أي يبعد في غزو الأعداء. والغَزاة: الغزوة، والمضطمر: الضامر، والطرة: الكشح والجنب، والطليح: من أصابه عناء الغزو. والشاهد فيه: حذف الهاء من (مضطمرة)؛ لأنّ فاعله (طرّتاه) مؤنث مجازي. الكتاب ٤٤/٢.

وقال الفرزدق:

وكنّا ورثناه على عهد تُبّعٍ طويلاً سَواريه شديداً دعائِمُهْ (١)

وقال الفرزدق أيضاً:

قَرَنْبى يَحُكُّ قَفـــا مُقْرِفٍ لئيمٍ مآثِرُهُ قُعْـــدُدِ (٢)

وقال آخر، وهو أبو زبيد الطائي:

مستحِنّ بهـــا الرياحُ فما يَجْـ ـتابُها في الظلامِ كلُّ هَجُودِ (٣)

وقال آخر من بني أسد:

فلاقى ابنَ أنثى يبتغي مثلَ ما ابتغى من القومِ مَسْقِيَّ السّمامِ حدائدُهْ (٤)

وقال آخر، الكميتُ بن معروف:

ومازلتُ محمولاً علـــيَّ ضغينة ومُضْطَلعَ الأضغانِ مُذْ أنا يافع (٥)

---

(١)- يفخر بعزّ قومه، ومجدهم لأنهما قديمان قدم (تبّع) وهو من ملوك اليمن القدماء. والسواري: جمع سارية، والدعامة: عماد البيت الذي يقوم عليه. جعل المجد كالبناء المحكم. والشاهد فيه: حذف الهاء من (طويلة)، و(شديدة) على نحو ما تقدم. الكتاب ٢/٤٤.

(٢)- القرنبى: دويبة تشبه الخنفساء. جعل عطيةَ أبا جرير كالقرنبى. والمقرف: اللئيم الأب. والمآثر: الأفعال التي تُؤثر، والأخبار، الواحدة مأثرة. والقعدد: القريب النسب من الجدّ الأكبر، فهو قصير النسب. والشاهد فيه حذف الهاء من (لئيم) على نحو ما تقدم. الكتاب ٢/٤٤.

(٣)- ينعت فلاة واسعة يسمع للرياح بها حنين، وهي في ذلك موحشة يخافها الساري. يجتابها: يقطعها. والهجود: الساهر. والشاهد فيه: حذف الهاء من (مستحنّة) على نحو ما تقدم. الكتاب ٢/٤٥.

(٤)- يصف لصاً لقي لصاً مثله، ابن انثى: أسلوب تعظيم وتضخيم، كما يقال: ابن رجل. والسّمام: جمع السم وعنى بالحدائد نصال السهام. والشاهد فيه: حذف الهاء من (مسقية) على نحو ما سبق. الكتاب ٢/٤٥.

(٥)- يقول: إنه جُبل على عزّة النفس، وإنّه لايزال يقوى على حمل الأضغان بين أضلاعه، واليافع: الذي ناهز الحلم. والشاهد فيه حذف الهاء من (محمولة)؛ لأن الضغينة مؤنث مجازي.

وهذا في الشعر أكثر من أن أحصية لك››(١)

ولعل السبب الذي جعل سيبويه يستدل بشعر لشعراء اختلفت قبائلهم، وتباينت هو أنّ لغة الشعر لغة مثالية، وهي اللغة العربية الفصحى التي يبتعد فيها الشاعر عن الظواهر الخاصة التي تتميز بها لهجة قبيلته على سائر لهجات القبائل العربية الأخرى. لذلك فإن الشعراء على اختلاف قبائلهم يحاولون أن يتقنوا هذه اللغة المثالية، التي تتوحد فيها لغة القبائل جميعاً، وهي القاسم المشترك بينهما.

ولاشكّ في أنّ القبائل لم تكن عند سيبويه، أو شيخه الخليل في مرتبة واحدة. فقد **أولى** من العدنانيين **شعراء تميم** اهتماماًخاصاً واستدل بشعر أربعة وأربعين شاعراً منهم؛ وهم: (٢) أبو الأخزر الحِمّاني، والأزرق العنبري، والأسود بن يعفر، والأشهب بن رميلة، وأوس بن حجر، وبشير بن النُّكث، وجرير، والحارث بن نَهيك النهشلي، وحارثة بن بدر الغُداني، وحكيم بن مُعَيَّة الربعي، وحميد الأرقط، وخِطام المجاشعي، ورؤبة بن العجاج، والزبرقان بن بدر، وزهير السَّكَب، (٣) وسُحيم بن وثيل الرِّياحي، وأبو سِدرة الهُجَميّ، (٤) والسُّلَيك بن السُّلَكة السَّعدي، وسَوادة بن عَديّ بن زيد، وسويد بن

(١)- الكتاب ٢/٤٣-٤٥، وانظر في مثل ذلك الكتاب ٢/٤٥-٤٦، وفيه يستدل بشعر الأعشى القيسي، وعامر بن جوين الطائي، وطفيل الغنوي؛ و١/٤٢٤-٤٢٧ وفيه يستدل بشعر امرئ القيس الكندي، وجرير التميمي، والمرار الأسدي وذي الرمة التميمي كذلك، وأبي محجن الثقفي.

(٢)- نقلنا الترتيب الألفبائي لسهولة الاستفادة منه، وقد أفدنا في نسبة بعض الشعراء إلى قبائلهم وكذلك في نسبة بعض الأبيات التي لم تنسب في طبعة (هارون) من الكتاب، أفدنا من جهود خالد جمعة في شواهد الشعر في كتاب سيبويه.

(٣)- هو زهير بن عروة المازني، ووراء تسميته قصة. انظر الكتاب ٤/٢٤٦.

(٤)- انظر الكتاب ١/٣١٥.

الطويلة، والشّمردل بن شريك اليربوعي وضابئ بن الحارث البرجميّ وطريف بن تميم العنبري، وعبدة بن الطبيب، وعتر بن دجاجة، والعجّاج، وعدي بن زيد العبادي، وعلقمة بن عَبَدة، والعماني الراجز، وعمرو بن الأهتم المِنقري، وغيلان بن حُرَيث الرَّبعي، والفرزدق، والقُلاخ بن حَزن، والكَلْحَبَةُ اليربوعي، ولَقِيط بن زرارة، واللّعِينُ المنقريّ، ومالك بن الرَّيب المازني، ومتمم بن نويرة، والمخَبَّلُ السَّعدي، والمرّار بن مُنقِذ الحنظليّ، ومسكين الدارمي، والمُغلوط بن بَدل القُرَيعي، والمُغِيرة بن حَبْناء، وأبو نُخَيْلة السَّعدي.

ويأتي شعراء هوازن في المرتبة الثانية فقد استدلّ بشعر سبعة وعشرين شاعراً منهم، وهم: إمامُ بن أقرم النّميري، وأميّة بن أبي الصَّلت الثقفي، وتميم بن أُبَيّ بن مُقبل، وتوبة بن الحمُيَّرُ الخفاجي، والحارث بن كَلَدة الثقفي، وحُميد بن ثور الهلالي، وأبو حيّة النميري، وخِداش بن زهير العامري، ودُرَيد بن الصمّة العامري، والراعي النميري، وشريح بن الأحوص، وعبد العزيز الكلابي، وعبد الله بن همّام السّلولي، والعُجَير السلولي، والفارعة بنت معاوية بن قُشَير، والقتّال الكلابي، والقُحيف العقيلي، وقيس بن الملوّح العامري، ولبيد بن ربيعة العامري، وليلى الأخيلية، وأبو محجن الثقفي، ومُزاحِم العقيلي، ومعوّد الحكماء (١)، والنابغة الجعدي، ويزيد بن الحكم الثقفي، ويزيد بن عمرو الصَّعِق الكلابي، ويزيد بن الطثريّة القشيري.

ويأتي شعراء بكر وتغلب(٢) في المرتبة الثالثة فقد استدلّ بشعر أربعة وعشرين شاعراً منهم، وهم: الأخطل، والأعشى، والأغلب العِجْلي، وباعث بن صريم اليشكري، وجابر بن حُنَيّ التغلبي، والحارث بن عُبَاد، والحُطَم القيسي، وخِرنِق بنت هِفّان، والخُزَز بن لوذان السدوسي، ودُرّنا بنت عَبْعَبَة،

(١)- هو معاوية بن مالك بن جعفر.

(٢)- هما ولدا وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة.

وسعد بن مالك القيسي، وطرفة بن العبد، وعِمران بنِ حِطّان، وعمرو بن الأيهَم، وعمرو بن قميئة، وعمرو بن كلثوم، وأبو عوف (١)، والقطامي، وكعب بن جُعَيل، والمرّار بن سلامة العجْلي، والمُلبِد بن حَرْمَلة، والمهلهل، وأبو النجم العِجْلي، ونهار بن توسعة اليشكري.

ويأتي في المرتبة الرابعة شعراء بني أسد فقد استدلّ سيبويه بشعر اثنين وعشرين شاعراً منهم، وهم: بشر بن أبي خازم الأسدي، والحذلميّ، وحنظلة بن فاتك، والربيع الأسدي، وسحيم عبد بني الحسحاس، وسماعة النعاميّ، وضرار بن الأزور، وعبد الرحمن بن جُهَيم، وعبد الله بن الزبير الأسدي، وعبيد بن الأبرص، وأبو عطاء السّندي، وعُقَيبة الأسدي، وعمرو بن شأس، وقرّان الأسدي، والكميت بن زيد، والكميت بن معروف، والمرّار الأسدي، ومعروف الدُّبيري، ومُغلّس بن لقيط الأسدي، ومُلَيْح بن علاّق القُعَيني، ومنظور بن مَرْثد الأسدي، ونقادة الأسدي.

ثم يأتي شعراء غطفان في المرتبة الخامسة، واستدلّ سيبويه بشعر خمسة عشر شاعراً منهم؛ وهم: الحارث بن ظالم المرّي، والحصين بن الحُمام المرّي، والحطيئة، والربيع بن ضبُع الفزاري، وسالم بن دارة، وشدّاد بن معاوية العبسي، والشمّاخ بن ضرار الذبياني، وعبد بني عَبْس، وعروة بن الورد، وعنترة بن شدّاد، وقَعْنَب بن أمّ صاحب، وقيس بن زهير بن جذيمة، وابن ميّادة، والنابغة الذبياني، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة المرّي.

---

(١)- هو أحد بني سبدول بن تميم.

ثم يأتي **شعراء قريش** وعددهم أربعة عشر شاعراً، وهم: إبراهيم بن هَرْمة، وزيد بن عمرو بن نُفَيل، وصفيّة بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن الحكم، وعبد الله بن عبد الأعلى القرشي، وعبد الله بن الحارث السَّهميّ، وعبد الله بن قيس الرُّقَيّات، وعمر بن أبي ربيعة، والفضل بن عبد الرحمن القرشي، ومَقَّاس العائذي، هشام المَرْئيّ، وهند بنت عتبة.

ثم يأتي **شعراء هذيل**، وقد استدل سيبويه بشعر ثمانية منهم؛ وهم: أسامة بن الحارث، وأُميّة بن أبي عائذ، وأبو ذؤيب، وساعدة بن جُؤَيَّة، وعبد مَنافِ بن رَبْع، وأبو كبير(١)، ومالك بن خويلد الخناعي، والمُنَخَّل اليشكري.

ثم يأتي **شعراء الرِّباب** (٢) وقد ذكر منهم سيبويه ستة شعراء؛ وهم: ذو الرُّمَّة، وسويد بن كُراع العُكْلي، وعوف بن عطية بن الخَرِع التيمي، ومالك بن خَيّاط العُكْلي، والنَّمِر بن تولب، هشام بن عقبة(٣).

ثم يأتي **شعراء سُلَيم**، وقد استدلّ سيبويه بشعر خمسة منهم؛ وهم: أنس بن العبّاس، وخِفَاف بن نُدبة، والخنساء، وزياد بن واصل، والعباس بن مرداس.

ومثل ذلك **شعراء كنانة**، وذكر منهم خمسة؛ وهم: أبو الأسود الدؤلي، وأبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي، وقيس بن ذَريح، ونُصَيْب بن رباح، وهُنَيّ بن أحمر.

---

(١)- هو عامر بن الحليس الهذلي.

(٢)- هو الرِّباب بن طابخة بن إلياس بن مضر، ومنه تفرّع تَيْم، وعديّ، وعوف، وثور، وأشيب.

(٣)- هو أخو ذي الرمّة.

ثم يأتي شعراء **عبد القيس**، وقد ذكر منهم أربعة شعراء؛ وهم: الأعور الشنّي، وزياد الأعجم، والصَّلَتان العبدي، والمفضّل النُّكري.

ثم يأتي **شعراء باهلة** وقد استدلّ بشعر شاعرين منهم وهما: شقيق بن جزء، وعمرو بن أحمر، ومثل ذلك **شعراء ضُبَيْعَة** وهما: المتلمّس، والمسيّب بن عَلَس، ومثل ذلك **شعراء غَنِيّ**؛ وهما طُفَيل الغنويّ، وكعب بن سعد الغنويّ. ومثل ذلك **شعراء مُزَيْنة**؛ وهما زهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير. ثم يأتي **شعراء إياد، وضبّة، وعدوان**، وقد استدلّ بشعر شاعر واحد لكلّ منها، سهم على التوالي: أبو دؤاد الإيادي، وعبد الله بن عَنَمة الضبّيّ، وذو الإصبع العدواني.

أمّا **القحطانيون**، فقد ذكر **لشعراء الأزد**(١) شعراً لسبعة عشر شاعراً؛ وهم: الأحوص الأنصاري، وأحيحة بن الجُلاح، وجذيمة الأبرش، وحسّان بن ثابت الأنصاري، وخوّات بن جُبَير الأنصاري، وعبد الرحمن بن حسّان، وعمرو بن الإطنابة، وأبو الفطريف الهدادي، وفاختة بنت عدي، وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وقيس بن الخطيم، وكُثيّر عزّة، وكعب بن مالك الأنصاري، والميس الثُّمالي، ومالك بن أبي كعب، ومروان بن سعيد النحوي، والنعمان بن المنذر.

ويأتي في **المرتبة الثانية شعراء مَذْحِج** فقد استدلّ بشعر اثني عشر شاعراً منهم؛ وهم: طُفَيل بن يزيد الحارثي، وعبيد الله بن الحُرّ الجُعفي، وعبد يغوث بن وقّاص الحارثي، وعمرو الجَنْبي، وعمرو بن قِنعاس المرادي، وعمرو بن معد يكرب، وفروة بن مُسَيْك المرادي، والقناني، وبنت مرّة بن عاهان الحارثي(٢) والنّجاشي، ويزيد بن مُخَرّم، ويزيد بن عبد المدان.

---

(١)- شعراء الأزد هم: الأوس، والخزرج، وغسّان وخزاعة.

(٢)- الكتاب ٥١٦/٣.

ويأتي في **المرتبة الثالثة شعراء قُضاعة**، وقد استدلّ سيبويه بشعر تسعة منهم؛ وهم: الأعور بن بَراء الكلبي، وجرير الضِّنِّيّ، وجميل بن معمر العُذري، وزيادة بن زيد العذري، وعمرو بن عمّار النَّهدي، ومنذر بن درهم الكلبي، وميسون بنت بَحْدل الكلبيّة، وهُدبة بن خَشْرم العذري، ووَعْلة الجَرْمِيّ.

ويأتي في **المرتبة الرابعة شعراء طيّئ**، واستدلّ بشعر سبعة شعراء منهم؛ وهم: البُرْج بن مُسْهِر، وحاتم الطائي، وأبو زبيد الطائي، وزيد الخيل، والطرمّاح بن حكيم، وعامر بن جُوَيْن، وعمرو بن عمّار الطائي.

ثم يأتي **شعراء أنمار**، وقد استدلّ بشعر شاعرين منهم؛ وهما: أنس بن مدركة الخثعمي، وجرير ابن عبد الله البَجَليّ. ومثل ذلك **شعراء كندة**، وهما: امرؤ القيس، والمُقنّع الكندي.

ثم يأتي **شعراء عاملة، وهمْدان**، وقد استدلّ لكلّ منهما بشعر شاعر واحد وهما على التوالي: عديّ بن الرّقاع العاملي، ومالك بن حَرِيم الهمداني.

يتضّح لنا ممّا تقدم أنّ سيبويه قد استدلّ بشعر أغلب القبائل العربية التي يشملها ما أطلق عليه النحاة (عصر الاحتجاج)، وأنه استبعد بعض القبائل كبهراء، وجُذام، وأشعر، وخولان، وحِمْيَر، ومهرة. والسبب في ذلك يعود إلى ظروف القبيلة نفسها حيث لم تنجب شاعراً معروفاً ذائع الصيت.

ولابد لنا بعد أن وقفنا على شعراء سيبويه في كتابه من الوقوف عند نصّ هام أخذه كثير من النقاد دليلاً وأطلقوا من خلاله أحكاماً تتعلّق بالقبائل التي استدلّ النحاة بشعرها لنوازن بين الأحكام السائدة، والواقع المأخوذ من عملنا الإحصائي. فقد أورد السيوطي في الاقتراح نقلاً عن أبي نصر الفارابي(١) قوله: ‹‹كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنَها مسموعاً وإبانة عمّا في النفس.

والذين عنهم نُقلت اللغةُ العربيةُ، وبهم اقتُدِي، وعنهم أُخذ اللسانُ العربي من بين قبائل العرب وهم قَيْس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتُّكِلَ في الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هُذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيّين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنّه لم يؤخذ عن حضريّ قطّ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم. فإنّه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جُذام، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقِبط، ولا من قُضاعة، ولا من غسّان، ولا من إياد، فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى، يقرؤون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا من النَّمِر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بَكْر، لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس، لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أزْد عُمَان لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم. ولا من بني حنيفة، وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف، لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأنّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتُهم››(٢)

---

(١)- محمد بن محمد طَرْخان ت ٣٣٩هـ أكبر فلاسفة المسلمين عاش بين بغداد والشام ومصر متنقلاً، توفي في دمشق. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٦/٢.

(٢)- الاقتراح للسيوطي ٥٦، ٥٧(القاهرة ١٩٧٦م).

والدافع وراء هذه القيود هو الخوف من ابتعاد لغة العرب عن أصولها وضوابطها المعروفة التي جسّدها القرآن الكريم، لأنه إذا ابتعدت لغة العرب عن تلك الخصائص فإنها مع الأيام ستغدو لغة ثانية تضمّ كثيراً من كلام غير العرب وتنأى حتماً عن لغة القرآن الكريم وهذا ما لا يُراد.

وما من شكّ في أنّ كلام السيوطي المنقول عن الفارابي صحيح في أوّله؛ فقد بيّن أنّ الذين نُقِلت عنهم اللغة العربية هم: قيس (١)، وتميم، وأسد، وكذلك رأينا أهمية هذه القبائل عند سيبويه.

أمّا الذي كان موضع خلاف بين الفارابي من جهة، وما أورده سيبويه من جهة أخرى، فهو كثير؛ فقد أورد سيبويه شعراً لتسعة شعراء من قضاعة، والفارابي بيّن أنّ قضاعة لا يستدلّ بكلامها في الغريب، والإعراب، والتصريف؛ لأنها تجاور أهل الشام، وأورد سيبويه شعراً لشعراء من ثقيف، والفارابي قال: <<ولا من ثقيف، وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم>>. ويرى الفارابي أنه لم يُحتج بشعر بكر وتغلب في الوقت الذي استدل سيبويه بأربعة وعشرين شاعراً من بكر، وتغلب، ويرى الفارابي أنّهم لم يستدلّوا بشعرٍ من إياد، وسيبويه استدلّ بشعر أبي دؤاد الايادي.

إنّ الذي ذكرناه من أدلّة تكشف لنا أنّ موقف السيوطي الذي نقله عن الفارابي وأخذ به الكثيرون، لا يتفق مع موقف سيبويه أبداً.

---

(١)- هو قيس بن بكر بن وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة.

وأظنّ أنّ ما أراده الفارابي له تفسير آخر وهو أنّ النحاة واللغويين استدلّوا بكلام العرب شعراً ونثراً، وهذا الاستدلال ينطبق على قيس وتميم وأسد، أمّا القبائل التي ذكر أنّ النحاة، واللغويين لم يأخذوا عنها فإنه- أي الفارابي- يعني أنهم لم يأخذوا عنها النثر لا الشعر، والدليل على ذلك أنّ كتاب سيبويه يكاد يخلو من نصوص نثرية لتلك القبائل التي ذكر أن العلماء لم يأخذوا عنها.

أمّا قضية الكثرة والقلة في استدلال سيبويه فأمرها واضح، لأنه من الطبيعي أنْ يكثر الاستدلال بشعر قبيلة كثُر الشعراء فيها، ويقلّ في قبيلة قلّ الشعراء فيها، وينعدم في قبائل انعدم فيها شاعر مشهور.

عامل هام آخر له علاقة بالكثرة والقلة، وهو توزّع هذه القبائل في الجزيرة العربية وتنقّلها من مكان إلى آخر؛ لأنّه كلّما كانت القبيلة قريبة من البصرة كانت أكثر صلة بالرواة والنحاة واللغويين وهذا الأمر ينطبق على قبائل تميم، وأسد، وقيس التي عاشت شمال الجزيرة العربية. أمّا قريش فإنّ بُعدها عن البصرة، والكوفة لم يقلّل من أهميتها لما لها من مكانة؛ لأنّ محمداً (ص) منها ونزل القرآن بلغتها كما يرجّحون، فلا غرابة إذا حظي شعراؤها بالرعاية والاهتمام.

أمّا القبائل القحطانية فقد استدل سيبويه بشعرها على الرغم من بعدها عن البصرة والكوفة وهذا يعود إلى أنّ شعراء مشهورين منها كثرت صلتهم بالرواة، والعلماء آنذاك ممّا كان له أبعد الأثر في تدوال أشعارهم، وأبرز هذه القبائل التي أعنيها، الأوس والخزرج وطيّئ وكندة.

ولا أتصور أنّ سيبويه، وشيخه الخليل كانا يحيطان بشعر هذه القبائل جميعه، وبلغة العرب شعرها ونثرها، لكن الأرجح أنّ الأعراب نقلوا هذه المادة، وهي جزء من ديوان العرب نقلوها إلى علماء النحو واللغة منذ البدايات الأولى، منذ أيام الحضرمي حتى عهد سيبويه وتمّ هذا النقل بخروج

اللغويين والنحاة إلى البادية، أو بالتقائهم بالأعراب في البصرة، والكوفة. وتناقلها النحاة من شيوخهم، وهم بدَوْرِهم نقلوها إلى طلابهم وهكذا دواليك.

لم يكن سيبويه يأخذ الشعر إلاّ إذا وثق بروايته، وأهمية الرواية تكمن في أنه لم يلق الشعراء الذين استدلّ بشعرهم، بل أخذ شعرهم رواية عن شيوخه إضافة إلى أنه كان يتنخّل الشواهد بدليل قوله في مواضع كثيرة: (ومثل ذلك كثير)، معبّراً بطريقة ما أنّه يملك أكثر مما يثبت في الكتاب.

وكانت ثقته بشيوخه كبيرة، وما كانوا ينقلون إلاّ عن الأعراب الفصحاء، فإذا كانت سليقة الأعرابي سليمة وفصاحته لم تشبها شائبة فهو قادر على نقل اللغة السليمة والشعر الفصيح سواء أكان الشاعر من الحيرة كعدي بن زيد أو من اليمن كعبد يغوث، أم من مضر كالفرزدق. فإذا ارتضى الراوي الفصيح شعراً أو نثراً، فإنّ ذلك مدعاة لاطمئنان النحوي حتى يغدو إنشادهم هو الحجّة، لا نظمُ الشاعر نفسه. فإذا كان الشاعر، والراوي فصيحين فهذا لا منالَ بعده.(١)

ويلخص هذا الموقف ابن جني في الخصائص وهو موقف يتّسم بالموضوعية والدقة، وأقرب إلى الواقع إذا ما قيس بكلام الفارابي؛ يقول ابن جني في باب ترك الأخذ عن أهل المدَر كما أُخذ عن أهل الوبَر:«عِلّة امتناع ذلك ما عَرَض للغات الحاضرة، وأهل المدر من الاختلال والفساد والخَطَل. ولو عُلِم أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيءٌ من الفساد للغتهم لوَجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر. وكذلك أيضاً لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة

---

(١)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٠٥، وشواهد الشعر في كتاب سيبويه لجمعة ٢٧١ وما بعدها.

وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة، وانتشارها، لوجب رفضُ لغتها، وترك تلقّي ما يَرِدُ عنها. وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأنّا لا نكاد نرى بدويّاً فصيحاً. وإنْ نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نكدْ نعدَمُ ما يُفسدُ ذلك، ويقدحُ فيه، ويَغُضّ منه.>>(١)

٥- شواهده وعزْوها:

*- لم يكن سيبويه، وشيخه الخليل، والنحاة الأوائل يهتمون اهتماماً كافياً بنسبة الأبيات التي يستدلون بها، بل انصب اهتمامهم بقبول الراوي الفصيح لها، لأن قبوله لها دليل على فصاحتها ودقّتها، لذلك نراه في الكتاب ينشد بيتين ثم يقول بعد إنشادهما: (كذلك سمعناهما من الشاعرين اللذين قالاهما(٢) فهو يذكر ما سمعه من الرواة لأنهم الأصل، ثم يذكر أنه سمعهما من الشاعرين وهو بلا شك يعرف اسميهما، ولكنّه لم يذكرهما، لعدم اهتمامه بذلك.

ونراه في أسلوب آخر من أساليبه يتعمد إغفال اسم الشاعر؛ فهو يقول: <<والدليل على أنّهما جُعلا اسماً واحداً قولُ الشاعر:

وهَيَّجَ الحيَّ مِن دارٍ فظلَّ لهمْ ... يومٌ كثير تنادِيهِ وحَيَّهَلُهْ (٣)

---

(١)- الخصائص لابن جنيّ ٢/٥.

(٢)- الكتاب ٢/٦٨-٦٩.

(٣)- هيّجهم: فزّعهم. ودار: واد من هجر. وصف جيشاً سمع به وخيف منه، فانتقل عن المحل من أجله، وبودر بالانتقال قبل لحاقه. والشاهد فيه: (حيّهلُه) وإعرابه، لأنه جعله اسماً للصوت وإن كان مركباً من شيئين، فهو بمنزلة معد يكرب في وقوعه اسماً للشخص.

والقوافي مرفوعة. وأنشدناه هكذا أعرابيٌّ من أفصح الناس، وزعم أنّه شعرُ أبيه››(١) فإذا كان سيبويه راغباً في ذكر اسم الشاعر فسيبادر بسؤال الأعرابي عن اسم أبيه حرصاً منه على نسبته، لكنّه لا يهتم باسم الشاعر، لذلك لم يسأل الابنَ عن اسم أبيه.

وعلى الرغم من عناية سيبويه برؤبة بن العجاج نراه لا يصرح باسمه، بل يقول: قال الراجز ويسوق شاهداً معروفاً لرؤبة(٢). ومثل ذلك عدم ذكره لاسم امرئ القيس، على الرغم من شهرة الشاهد بشكل يستحيل معه أن يخفى على سيبويه؛ كقوله:‹‹سمعنا من العرب من يقول:

وهل ينعِمْنَ من كان في العُصُر الخالي››(٣)

هذه الأمثلة السابقة تدل على أنّ سيبويه كان على علم بأصحاب الأبيات التي يستدلّ بها، ولكنه يغفل ذكرهم تقليداً لشيوخه، وترسيخاً لمنهجه.

ولم يترك لنا سيبويه كتاباً بخطّه، ولا نسخة مكتوبة في عصره، وهذا ما يترك ظلالاً تحجب عنّا رؤية الشواهد التي ذكرها سيبويه لنميّز بين ما نسبه في كتابه، وما أغفل نسبته، لذلك فإننا لا نستطيع الجزم في هذا الموضوع بل يمكننا أن نتلمس بعض ملامح هذا الأمر من خلال عبارات سيبويه نفسه.

---

(١)- الكتاب ٣/٣٠٠.

(٢)- انظر الكتاب ١/٢٨٥ (بولاق).

(٣)- عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: **ألا عِمْ صباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي**. العُصُر: الدهر. الخالي: الماضي. والشاهد فيه بناء المضارع من (نعم) على ينعِم بالكسر وورود فعِل يفعِل نادر، وفتح العين في المضارع جائز. انظر الكتاب ٤/٣٩.

فكثيراً ما نرى صاحب الكتاب يستخدم عبارة صريحة فيها الدليل القاطع على أنه نسب هذه الأبيات بنفسه، كأن يقول: (قال جرير)، و(قال الفرزدق)، و(قال طرفة بن العبد)، و(قال رؤبة). وهذه الأبيات لا نشك في أنّ سيبويه عزاها بنفسه.

ونرى في مواضع أخرى عبارة: (قال الشاعر وهو أبو ذؤيب)، أو (وقال الآخر، توبة بن الحُمَيِّر)، أو (ومثل ذلك قول الشاعر وهو عبد بني الحسحاس)، وهي عبارات تدلّ على أنّ نسبة البيت إلى شاعر معين جاءت في مرحلة لاحقة، أضافها قرّاء الكتاب ورواته. لذلك فإننا نرى خلافاً في نسبة الشواهد بين نسخة، وأخرى(١) وقد تكون نسخة أفضل من غيرها تبعاً لصاحبها؛ وقد جاء في الكتاب ما يشير إلى ذلك، حيث حُكي «أنّ أبا العباس كان لا يكاد يقرئ أحداً كتابَ سيبويه حتى يقرأه على أبي إسحاق، لصحة نسخته، ولذكر أسماء الشعراء فيها»(٢)

* ونوع آخر من الشواهد نراه في كتاب سيبويه، وهو الشواهد التي اختُلِف في نسبتها، وهذا الاختلاف موجود، وقد دلّ عليه دلالة قاطعة النص السابق الذي بيّن أنّ أبا إسحاق كان ينسب الشعر إلى قائليه في نسخته الخاصة، وهي التي وُصِفت بالصحة، فإذا كانت نسخته موصوفة بالصحة فهذا يعني أن هناك نسخاً غير صحيحة، أو أقلُّ صحة. وهذه النعوت هي التي تخلق التباين بين النسخ، وهذا التباين هو الذي يخلق بدوره الاختلاف في نسبة الأبيات.

---

(١)- ذكر البغدادي أنّ سيبويه لم ينسب شيئاً من الشواهد في كتابه، وانّ ما نسب فيه إنما هي نسبة حادثة بعده، وانّ أبا عمر الجرمي هو الذي اعتنى بنسبتها، بدليل قوله: «نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً، فأمّا الألف فعرفت أسماء قائليها فأثبتّها، وأمّا خمسون فلم أعرف أسماء قائليها» وعلّل عدم نسبة سيبويه للأبيات في كتابه بقوله: «وإنّما امتنع سيبويه عن نسبة الشعراء لأنه كره أن يذكر الشاعر، وبعضُ الشعر يروى لشاعرين، وبعضه منحول لا يُعرف قائله لأنه قدم العهد به. وفي كتابه شيء ممّا يروى لشاعرين، فاعتمد على شيوخه، ونسب الإنشاد إليهم». وقد فنّد خالد جمعه في كتابه: شواهد الشعر في كتاب سيبويه ما زعمه البغدادي معتمداً على أدلّة عدة. انظر في ذلك: الكتاب ١/٩، خزانة الأدب للبغدادي ١/١٧٨، شواهد الشعر لجمعه ١٨٣ وما بعدها.

(٢)- الكتاب ١/٩.

ومن أسباب الاختلاف في النسبة استعارةُ الشعراء بعضهم من بعض؛ من ذلك قول عمرو بن كلثوم:

صَددْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عمرو   وكان الكأسُ مَجْراها اليمينا(١)

وقد نُسب هذا البيت لعمرو بن عدي ابن أخت جَذيمة الأبرش، وذكر أبو العلاء المعري ذلك في رسالة الغفران، ورجّح نسبته إلى عمرو بن عدي، وعلّق على هذا الاختلاف في النسبة قائلاً: «فلعلَّ عمرو بن كلثوم حسّن بهما كلامه، واستزادهما في أبياته». (٢) وفي الكتاب أكثر من مثال على هذا النحو(٣).

وقد يكون اختلاف الرواة في نسبة القصائد سبباً من الأسباب التي أدت إلى الخلاف في نسبة الشاهد، لاسيّما في الشعر الجاهلي(٤) من ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

بدا ليَ أنّي لستُ مُدركَ ما مضى   ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً(٥)

فقد نُسب هذا البيت إلى صِرمة بن أبي أنس الأنصاري في أكثر من مصدر، حتّى إنه في كتاب سيبويه

---

(١)- الكتاب ١/٢٢٢.

(٢)- رسالة الغفران للمعري ٢٧٨، وانظر في ذلك الأغاني ١٥/٣١٤، وخزانة الأدب للبغدادي ١/٥١٨.

(٣)- انظر في الكتاب بيتَ ذي الرمّة: (**أداراً بحُزْوى...**) فقد ورد منسوبا لزهير بن جناب في الأغاني ١٨/٣١٠ (دار الثقافة ببيروت)، وخزانة الأدب ١/٣١١، وكذلك الكتاب ٢/٣٢٤-٣٢٥ قوله: (**عشيّةَ لا تُغني...**) فقد نُسب إلى ضرار بن الأزور، والحصين بن الحمام المري. انظر شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ٢/١٢٨، والمفضليات ٦٤، وخزانة الأدب ٢/٧٠٥ (برواية منصوبة الروي).

(٤)- انظر تفصيل ذلك في كتاب ناصر الدين الأسد (مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) ٣٢١-٣٣٥.

(٥)- الشاهد فيه (**ولا سابقٍ**) بالكسر وهو معطوف على معنى مدرك، لأن المعنى: لست بمدركٍ ولا سابقٍ. الكتاب ١/٣٠٦.

نفسه نُسب إلى الاثنين معاً، وفي أماكن مختلفة منه.(١)

وقد يكون سبب اختلاف النسبة هو أنّ الشاعرين اللذين نُسب إليهما الشاهد من قبيلة واحدة كأن يُنسَب إلى المتنخّل الهذليّ، وإلى أبي ذؤيب الهذلي (٢).

وقد ينسب إلى خمسة شعراء من قبيلة واحدة، كما هو الحال في قوله الشاعر:

ويوماً تُوافينا بوجــــهٍ مُقَســَّمٍ كأنْ ظبيةٌ تَعْطو إلى وارقِ السَّلَمْ(٣)

فقد نُسب إلى باعث بن صريم اليشكري، وعِلْباء بن أرقم اليَشْكري، وزيد بن أرقم اليشكري، وكعب بن أرقم اليشكري، وراشد بن شهاب اليشكري، وكلّهم من يَشكُر.(٤)

وقد يكـــون سـبب الخلاف في نسبة بيت من الشعر عائداً إلى أنّ يكون الأبُ وابنه شاعرين، من

---

(١)- انظر الكتاب ١/١٦٥، ٣٠٦، ٢/١٥٥، ٣/٢٩، ٥١، ١٠٠، ٤/١٦٠، وانظر شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/٥٤ وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢٨٢، وخزانة الأدب ٣/٦٦٦، وديوان زهير بن أبي سلمى صنعة الأعلم الشنتمري ١٦٣ تح: فخر الدين قباوة حلب ١٩٧٠.

(٢)- انظر الكتاب ٢/٨٩، شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/٣٨٥، والحيوان للجاحظ ٥/٢٨٥، والبيان والتبين للجاحظ ١/١٧، ولسان العرب (برر).

(٣)- يذكر امرأته وينعتها بأنها حسنة الوجه. تُوافينا: تأتي وتزورنا، والمُقَسَّم: الجميل كلّه، كأن كلّ موضع منه حاز قسماً من الجمال. تعطو إليه: تتطاول إليه لتتناول منه. والوارق: المورق؛ والسَّلَم: شجر له زهرة صفراء طيبة الريح، تأكلها الظباء. والشاهد فيه رفع (**ظبيةٌ**) على الخبر لكأنْ المخففة، واسمها ضمير الشأن المحذوف. الكتاب ٢/١٣٤-١٣٥.

(٤)- انظر الإنصاف للأنباري ٢٠٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/٨٣، وشرح شواهد المغني للسيوطي ١١١، وهمع الهوامع ٢/١٨، وخزانة الأدب للبغدادي ٤/٣٦٤، ٤٨٩، واللسان (قسم).

ذلك قول سوادة بن عَدِيّ:

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيْءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا(١)

فقد نُسب البيت إلى الشاعر سواد بن عدي، وإلى أبيه عديّ بن زيد في عدة مصادر(٢)، أشار بعضها إلى الخلاف في النسبة، ولا يقتصر هذا السبب على مثال واحد في كتاب سيبويه، بل وردت أمثلة كثيرة، من ذلك ما نسب إلى زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وإلى ابنه سعيد بن زيد(٣)، وإلى فُضَالة بن شَريك وابنه عبد الله(٤)، وإلى حسّان بن ثابت، وابنه عبد الرحمن (٥)، وإلى العجّاج وابنه رؤبة(٦) وهناك أسباب أخرى كأن يكون البيت من الكلام السائر الذي تتداوله الألسن، أو بسبب العجلة، والخطأ، أو غيرها من الأسباب التي لا نجد هنا فائدة من ذكرها(٧).

---

(١)- الشاهد فيه إعادة الاسم الظاهر بدلاً من الضمير في (**لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيء**) وفيه قبح لوقوعه في جملة واحدة. الكتاب ١/٦٢.

(٢)- انظر شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/٨٧، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٨٧٦، وخزانة الأدب للبغدادي ١/١٨٣.

(٣)- انظر الكتاب ٢/١٥٥، ٣/٥٥٥، والبيان والتبيين للجاحظ ١/٢٣٥، وخزانة الأدب للبغدادي ٣/٩٧-١٠١.

(٤)- انظر الكتاب ٢/٢٩٦-٢٩٧ (حاشية)، والأغاني للأصفهاني ١/١٥-١٩، ١١/٧٢، ٧٧، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ٢/٣، وخزانة الأدب للبغدادي ٢/١٠٠.

(٥)- المقتضب للمبرد ٢/٧٢، ومغني اللبيب لابن هشام ٥٨، وخزانة الأدب للبغدادي ٣/٦٤٤، ديوان حسّان بن ثابت ١/٥١٦ تح وليد عرفات ١٩٧٤م.

(٦)- انظر الكتاب ٢/٣٠٣-٣٠٤ (حاشية)، وفهرس شواهد سيبويه للنفاخ ٧٨ وانظر الكتاب ٢/٣٧٤- ٣٧٥(حاشية)، وخزانة الأدب ٢/٤٤٢، ثم الكتاب ٢/٣٨٤ (حاشية)، ٣/٢٤٥(حاشية) وانظر أمثلة أخرى وردت في شواهد الشعر في كتاب سيبويه لخالد جمعة ٢٠٢-٢٠٣.

(٧)- انظر في ذلك المصدر السابق ٢٠٤-٢١٣.

ومما سبق نصل إلى بعض الملامح في شواهد سيبويه الشعرية، بعد استقراء لما أورده(١) فقد بلغ عدد الشواهد المنسوبة في كتابه نسبةً لا خلاف فيها خمسمائة وسبعة وستين شاهداً. وبلغ عدد الشواهد التي نسبها سيبويه، لكنّ العلماء بعده خالفوه في نسبتها مائة واثنين وسبعين شاهداً، وبلغ عدد الشواهد التي لم ينسبها سيبويه في كتابه لكنّها وجدت منسوبة في كتب(٢) أخرى على غير اختلاف في نسبتها مائة وأربعة وثلاثين شاهداً، وبلغ عدد الشواهد التي لم ينسبها سيبويه في كتابه ووجدت منسوبة في مصادر أخرى على اختلاف في نسبتها خمسة وسبعين شاهداً. وهناك مائة وثمانية شواهد مازالت مجهولة القائل.

ولابد من الإشارة إلى أنّ ما نُسب في متن (الكتاب) من الشواهد الشعرية لا يمكن الفصل فيه بين ما نسبه سيبويه نفسه، وبين ما نسبه العلماء الذين جاؤوا بعده وقرؤوا في (الكتاب) وأضافوا أسماء بعض الشعراء، وهذا ما خلق تداخلاً في نسبة هذه الطائفة من الشواهد، لا حيلةَ لنا في فصلها.

٦- استدلاله بأبيات مصنوعة:

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي لقيه الكتاب من كلّ نحوي جاء بعده، فإنه لم يخلُ من إشارات إلى أنّ بعض الأبيات التي استدلّ بها سيبويه كانت موضوعة؛ فقد ذكر ذلك السيوطي فقال:

---

(١)- إن الأرقام التي سنذكرها قد لا تكون دقيقة، وهذا يعود إلى نسخ الكتاب وطبعاته، والمخطوطات المعتمدة في كل طبعة، وما تحويه من خلاف مردّه إلى إضافات للقراء والطلبة.

(٢)- أهم الكتب التي اهتمت بنسبة الشواهد بشكل عام. الأغاني، شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، تحصيل عين الذهب للأعلم الشنتمري، لسان العرب لابن منظور، المقاصد النحوية للعيني، شرح شواهد المغني للسيوطي، خزانة الأدب للبغدادي وغيرها من الكتب انظر شواهد الشعر في كتاب سيبويه لخالد جمعة ٢١٥.

<<وقد وضع المولّدون أشعاراً، ودسّوها على الأئمة، فاحتجوا بها ظنّاً أنّها للعرب، وذكر أنّ في كتاب سيبويه منها. خمسين بيتاً>>(١)

وقد بلغ عدد الشواهد التي نُصّ على أنها موضوعة ستة أبيات(٢)، منها ما أشير إلى وضعه في متن الكتاب، ومنها ذكر أمره في الحاشية؛ وعلى ذلك فإن هذه الأبيات تقسم أربعة أقسام:

أ- ما نُسب وضعه إلى الشعراء سواء أذكر اسمه، أم اسمُ قبيلته، وهو قوله:

أَسْعْدَ بنَ مالٍ ألم تعلموا   وذو الرأي مهما يَقُلْ يَصْدُقِ(٣)

وجاء قبل هذا البيت: <<وقال، وهو مصنوع على طرفة، وهو لبعض العِباديّين>>(٤)

ب- ما نسب وضعه إلى النحويين بشكل عام، من دون تحديد اسم نحويّ، وهو قوله:

إذا ما الخبزُ تأدِمُهُ بلحمٍ   فذاك أمانةَ اللـــهِ الثريدُ (٥)

فقد قدّم على البيتِ قولَهُ: <<وقال الآخر، ويقال وضعه النحويّون>>(٦)

---

(١)- الاقتراح ٦٠ (القاهرة ١٩٧٦م).

(٢)- ورد في مصادر أخرى أنّ خمسة أبيات أخرى مصنوعة، لكنني ضربت عنها صفحاً، واكتفيت بما ورد في الكتاب وحواشيه من تحقيق هارون. انظر تلك الأبيات في شواهد الشعر في كتاب سيبويه لخالد جمعة ٢٢٦- ٢٣٧.

(٣)- سعدُ بن مالك حيٌّ من بكر بن وائل، وهم رهط طرفة، والشاهد فيه ترخيم (مالك)، الكتاب ٢/٢٥٥.

(٤)- المصدر السابق ٢/٢٥٥.

(٥)- تأدمه: تخلطه. ونصب (أمانة الله) بإسقاط حرف الجرّ. ومعناه أحلف بأمانة الله. والشاهد فيه: نصب (أمانةَ الله) على نزع الخافض وهو حرف القسم. انظر الكتاب ٣/٦١، ٤٩٨.

(٦)- المصدر السابق ٣/٦١.

ج- ما أشير إلى أنه مصنوع من غير تحديد، وهو قوله:

هُمُ القائلون الخيرَ والآمِرونَه ... إذا ما خَشُوا من مُحدثِ الأمرِ مُعْظَمَا(١)

فقد ذكر قبله <<وقد جاء في الشعر، وزعموا أنّه مصنوع>>.(٢)

د- ما أشير إلى أنه مصنوع في الحاشية لا المتن، وهي ثلاثة أبيات:

* الأول:

حَذِرٌ أموراً لا تُخافُ وآمِنٌ ... ما ليس منجيه من الأقدار(٣)

فقد أورد سيبويه هذا الشاهد من دون عزوٍ، لكنّه ذُكر في حاشيته أنّه <<يروى عن اللاحقي(٤) أنّه قال: سألني سيبويه عن شاهد في تعدّي (فَعِل) فعملت له هذا البيت>>.(٥)

وممّا يُضعِفُ الطعن على هذا الشاهد أنّ سيبويه أورد شاهداً آخر على إعمال (فَعِلٌ)(٦).

* والثاني:

هل أنتَ باعثُ دينارٍ لحاجتنا ... أو عبدَ ربِّ أخا عونِ بنِ مِخراقِ(٧)

---

(١)- مُحدث الأمر: حادثه، والمُعظم: الأمر يعظم دفعه. والشاهد فيه الجمع بين النون والضمير في (الآمرونه) الكتاب ١/١٨٨.

(٢)- المصدر السابق ١/١٨٨.

(٣)- يصف إنساناً بالجهل وقلّة المعرفة، وأنه يحذر ما لا ينبغي أن يحذر، ويأمن ما لا يصح أن يؤمن. وإعمال (فَعِلٌ) مذهب لسيبويه؛ لأنه عنده محوّل من (فاعل) المتعدّي فيعمل عمله قياساً على فعول، وفعّال. انظر الكتاب ١/١١٣.

(٤)- هو أبان بن عبد الحميد اللاحقي الرقاشي. كان أبو جدّه من موالي بني رقاش، وهم من بكر بن وائل. انظر خزانة الأدب ٣/٤٥٦-٤٥٨.

(٥)- الكتاب ١/١١٣، والمزهر للسيوطي١/١٨٠.

(٦)- انظر الكتاب ١/١١٢.

(٧)- الاستفهام هنا للحث، وباعث: موقظ، أو مرسل. ودينار، وعبد ربّ: رجلان. وأراد عبدَ ربّه ولكنّه ترك الإضافة، وهو يريدها. والشاهد فيه: نصب (عبد ربّ) حملاً على موضع (دينار). انظر الكتاب ١/١٧١.

وذكر أنه مصنوع بعد أن نُسب إلى أكثر من شاعر(١)

* والثالث:

ومنهلٍ ليس له حوازِقُ   ولضفادي جَمِّهِ نقانقُ(٢)

وذكر أنّه مصنوع لخلف الأحمر.(٣)

ولا يُستبعَد أن تكون الإشارات التي وردت في متن الكتاب، والتي تدلّ على صنع بعض الأبيات مكتوبةً من قِبل بعض قرّاء الكتاب آنذاك أو من زيادات بعض الأئمة، لكنّها وعلى الرغم ممّا قيل في هذا الأمر قليلة جداً إذا ما قورنت بما تضمنه الكتاب من شواهد، وهي نسبة لا تنال من قيمة الكتاب شيئاً.

ومن الأمور الملاحظة أنّ العبارات التي تدلّ على صنعة الأبيات لا يُركَن إليها بشكل كامل لما فيها من ضعف يدلّ على أنّ سيبويه لا يمكن أنْ يستدلّ بأبيات مصنوعة، لا سيّما أنه يأخذ شواهده عن شيوخه، وعن الرواة الذين لا يرقى إليهم شك في الأمانة والفصاحة.

---

(١)- انظر الكتاب ١٧١/١، وانظر المقاصد النحوية للعيني ٦٥٣/٣، خزانة الأدب للبغدادي ٤٧٧/٣.

(٢)- المنهل: المورد. والحوازق: الجماعات، واحدتها حزيقة، فجمعها جمع فاعلة كأنّ واحدتها حازقة، والجمع قد يُبنى على غير واحده. والضفادي: الضفادع، بالإبدال. والجم: جمع جمّة، وهي معظم الماء ومجتمعه. والنقانق: أصوات الضفادع، واحدتها نقنقة. والشاهد فيه إبدال الياء من العين في الضفادع للضرورة. لأن الوزن يقتضي إسكان الياء. الكتاب ٢٧٣/٢.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢٧٣/٢، وشرح المفصّل لابن يعيش ٢٤/١٠، ٢٨، ولسان العرب (حزق).

٧- الضرورة الشعرية في كتاب سيبويه:

ما من شكّ في أنّ القيود التي تحكم الشعر هي التي أوجدت ما يُعرف بـ (الضرورة) فالشعر محكوم بالوزن، والقافية وهذا ما يقيّد الشاعر بقيود لا نرى الناثر ملزَماً بها.

وزعم بعض العلماء (١) أنّه لا مبّرر للضرورة أبدا، لأنّه بالإمكان تغيير التركيب واللجوء إلى تركيب آخر يوافق لغة العرب وقواعدهم. وردّ على ذلك كثيرون وبيّنوا ‹‹أنّ العرب قد تلزم الضرورة في الشعر في حال السَّعَة، أُنساً بها، واعتياداً لها، وإعداداً لها لذلك عند وقت الحاجة إليها، ألا ترى إلى قوله:

قد أصبحتْ أمُّ الخِيار تَدَّعي   عليَّ ذنباً، كلُّهُ لم أصنعِ

فرفع للضرورة، ولو نصب لما كسر الوزن، وله نظائر، فكذلك قال: (فَيَدنْ منّي) وهو قادر على أن يقول: (فليدنُ منّي) لما ذكرت.››(٢)

أمّا سيبويه فإنه لم يُفرد باباً خاصاً للضرورة، لكنّه تحدّث عنها في مواضع مختلفة من الكتاب إضافة إلى بعض عناوين الأبواب التي تحوم حـول (الضرورة) نفسـها، فقد أفـرد باباً تحت عنـوان:

---

(١)- انظر خزانة الأدب للبغدادي ١/١٤، والضرائر لمحمود شكري الألوسي ٦ المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١هـ.

(٢)- الخصائص لابن جني ٣/٣٠٣، ويقصد نصب (كلّه) والبيت لأبي النجم، الكتاب ١/٨٥ أما (فيدنْ) فالمقصود قول الشاعر:

من كان لا يزعم أنّي شاعرُ   فَيَدْنُ منّي تَنْهَهُ المزاجِرُ

انظر شواهد الشعر في كتاب سيبويه لخالد جمعة ٤٣٦.

(هذا باب ما يحتمل الشعر)، وآخر تحت عنوان (هذا باب ما رخَّمت الشعراءُ في غير النداء اضطراراً)، وثالثاً تحت عنوان (هذا باب ما يجوز في الشعر من (إيَّا) ولا يجوز في الكلام)(١)

الضرورة عند سيبويه شيء خاص بالشعر، لأن كلّ الأمثلة التي أوردها، وتحدث فيها عن الضرورة، كانت شعراً، واستبعد في حديثه عن الشواهد تلك كلَّ الروايات التي تبعدها عن مجال الضرورة في حال ذِكْرِها، من ذلك أنّه أنشد قول عامر بن جوين الطائي:

فلا مُزْنةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها   ولا أرضَ أبقَلَ إبقالها(٢)

وقد روي هذا البيت برواية أخرى تُسعف الشاعر في الخروج من الضرورة إلى ما يجوز في الكلام، وهذه الرواية هي:

فلا مُزْنةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها   ولا أرضَ أبقَلتِ ابْقالها

بنقل حركة الهمزة إلى التاء التي قبلها وإسقاط الهمزة، عندها لا مجالَ للضرورة.(٣)

فهو يرى أنّ (ما يجوز في الشعر)، و(ما يجوز في الاضطرار) عبارتان تؤديان معنى واحداً، مستبعِداً بذلك الضرورة من النثر.

---

(١)- انظر الكتاب ١/٢٦، ٢/٢٦٩، ٣٦٢.

(٢)- يصف أرضاً مخصبة لكثرة الغيث، والمزنة: واحدة المزن، وهو السحاب يحمل الماء. والودق: المطر. وأبقلت: أخرجت البقل، وهو من النبات ما ليس بشجر. والشاهد فيه حذف التاء من (أبقلت) لضرورة الشعر، ويسوّغه أنّ الأرض بمعنى المكان. الكتاب ٢/٤٦.

(٣)- انظر ما يجوز للشاعر في الضرورة للقزاز القيرواني ١٢٣ تح: المنجي الكعبي، تونس ١٩٧١، وانظر خزانة الأدب للبغدادي ١/٢١، انظر الكتاب ٢/٤٦ (حاشية).

والظاهرة الواحدة عند سيبويه إذا كانت في الشعر فهي ضرورة كما بيّنا، وإذا كانت في النثر فهي قبح؛ يقول سيبويه: ‹‹وأمّا ما يَقْبح أن يَشركه المظهَرُ فهو المضمَر في الفعل المرفوعُ وذلك قولك: فعلتُ وعبدُ الله، وأفعلُ وعبدُ الله..... وقد يجوز في الشعر، قال الشاعر:

قُلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تهادى ... كنِعَاجِ المَلا تَعَسَّفْنَ رَمْلا››(١)

ومن ذلك الفصل بين المضاف والمضاف إليه، فإذا كان في النثر فهو قبح، وإذا كان في الشعر فهو ضرورة، وفي ذلك يقول سيبويه:‹‹وهذا يجوز في الشعر؛ لأنّ الشاعر إذا اضطُرّ فصَل بين المضاف والمضاف إليه. قال الشاعر، وهو ذو الرمّة:

كأنّ أصواتَ مِن إيغالِهنّ بنا ... أواخرِ المَيْسِ أصواتُ الفراريجِ››(٢)

ويرى سيبويه أنّ الشاعر في ابتعاده عن الشائع من لغة العرب، وبقائه في مجال الضرورة الشعرية، لا يصحّ كلامه ما لم يُقس على كلام العرب المنثور. أي أنه لا بُدّ من توجيه الضرورة توجيها قياسيا؛ وفي ذلك يقول سيبويــه: ‹‹اعلم أنّه يجوز في الشــعر ما لا يجوز في الكلام مـن صرْف ما لا ينصرف،

---

(١)- زهر: جمع زهراء، أي بيضاء مشرقة. تهادى: تتهادى، تمشي المشي الرويد الساكن. والنعاج: بقر الوحش، شبه النساء بها في سعة عيونها، وسكون مشيتها. تعسّفْن: سرن بغير هداية، ولا توخّي صواب. وإذا مشت في الرمل كان أسكن لمشيها لصعوبة ذلك. والملا: الفلاة الواسعة. والشاهد فيه عطف (زُهْرٌ) على الضمير المستتر ضرورة، والوجه أنْ يقال: أقبلت هي وزهرٌ، بتأكيد الضمير المستتر، ليقوى، ثم يعطف عليه. الكتاب ٣٧٩/٢.

(٢)- يقال: أوغل في الأرض، إذا أبعد فيها، يعني الإبل. والأواخر: جمع آخرة الرحل، وهي العود في آخره يستند إليه الراكب. والمَيْس: شجر تتخذ منه الرحال. والفراريج: صغار الدجاج. والشاهد فيه الفصل بالجار والمجرور بين المضاف والمضاف إليه، وهو (أصوات أواخرِ) فصل بينهما (من إيغالهنّ بنا) الكتاب ١٧٩/١ وانظر ١٥٤/٢، ٣٥٧ ففيه مسائل يجعلها في النثر قبيحة، وفي الشعر جائزة.

يُشبّهونه بما ينصرف من الأسماء لأنّها أسماء كما أنّها أسماء، وحذفِ ما لا يُحْذَف يشبّهونه بما قد حُذف، واستعمل محذوفاً››(١) ثم يقول: ‹‹وليس شيء يُضطرّون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجهاً››(٢).

فالضرورة عند سيبويه ليست مخالَفَةً مطلقة لما عُهد من كلام العرب؛ بل لابدّ من وجود حدود لا يمكن تجاوزها، لأن تجاوزها يُدخِل الشعر في مجال الخطأ. وهذه الحدود هي أنْ يكون للكلام وجه من وجوه العربية مطابق لما ذكره الشاعر، ويتّضح هذا في أمثلة كثيرة منها: ‹‹قد قال الشعراء: (ليتي) إذا اضطرّوا، كأنّهم شبّهوه بالاسم حيث قالوا: الضاربي، والمضمَرُ منصوبٌ. قال الشاعر زيد الخيل:

كمُنيــةِ جابــرٍ إذْ قالَ لَيْتي ... أصادفُـه وأفقـدُ جُـلَّ مالــــي››(٣)

ومن ذلك قوله: ‹‹وقد جاء في الشعر: قَطي وقَدِي. فأمّا الكلام فلابُدّ فيه من النون، وقد اضطُرّ الشاعر فقال قدِي، شبّهه بحَسْبي؛ لأن المعنى واحد. قال الشاعر:

قَدْني من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قدِي ... ليس الإمامُ بالشَّحيحِ الملْحِدِ››(٤)

---

(١)- الكتاب ٢٦/١.

(٢)- المصدر السابق ٣٢/١.

(٣)- المُنية: واحدة المنى، ما يتمناه المرء. وجابر: رجل من غطفان تمنّى أنْ يلقى زيداً ليقتله كما تمنى قبله مَزْيد أن يلقى زيداً، فتشابهت مناهما. والشاهد فيه حذف نون الوقاية مع ضمير المنصوب في (ليتي)، وكان الوجه ليتني، كما تقول: ضربني. فشبّه (ليت) في الحذف ضرورة بـ(إنّ)، و(لعلّ)، إذا قلت: إنّي ولعلّي. الكتاب ٣٧٠/٢.

(٤)- الخُبَيْبَان، بهيئة التصغير، هما عبد الله بن الزبير -وكنيته أبو خُبَيْب- ومصعب أخوه، غلبه عليه لشهرته. وقدني: أي حسبي وكفاني؛ والمعنى: حسبي من نصرة هذين الرجلين، أي لا أنصرهما بعد. وقدي الثانية توكيد، والإمام تعريض بعبد الله بن الزبير لأنّه كان شحيحاً بخيلاً. الملحد، يعني الذي استحلّ حرمة البيت وانتهكها. والشاهد فيه حذف النون من (قدي) تشبيها بحسبي، وإثباتها هو المستعمل لأنها في بنائها ومضارعة الحروف بمنزلة (من)، و(عن)، فتلزمها نون الوقاية لئلا يغير آخرها عن السكون. الكتاب ٣٧١/٢.

ولعل أوضحَ مثال يبيّن ما ذهبنا إليه من أنّ الضرورة عند سيبويه لابدّ أن يكون لها وجه تقاس عليه قولُه: ‹‹إلاّ أنّ الشعراء إذا اضطرّوا أضمروا في الكاف، فيجرونها على القياس. قال العجّاج:

وأمَّ أوْعالٍ كها أو أقربا(١)

وقال العجّاج:

فلا ترى بَعْلاً ولا حلائلا كَهُ ولا كَهُنَّ إلاّ حاظِلا(٢)

شبّهوه بقوله (لَهُ) و(لَهُنَّ)››(٣) ومثل ذلك يتكرّر في الكتاب(٤)

من خلال الأمثلة السابقة التي مرّت يظهر لنا أن الضرورة الشعرية عنده ترجع إلى المشابهة بين الضرورة وغيرها ممّا يجوز في الكلام المنثور، أو هي استخدام للأصل المهجور، وهذا ما جعله يصفها

---

(١)- يذكر حمار وحش يسرع إلى ورود الماء ويقطع البلاد، وقبله:

نحّى الذِّنَابات شَمالاً كَثَبا

وأم أوعال: هضبة، والذنابات: اسم موضع بعينه، و(شمالاً) أراد ناحية الشمال، و(كَثَبا) أي قريبا. يصف حمار وحش رأى صياداً ففرّ منه. والشاهد فيه دخول الكاف على الضمير ضرورة، تشبيها لها بلفظ (مثل) لأنها في معناها. الكتاب ٣٨٤/٢.

(٢)- يصف حماراً وأتُنه. والبعل: الزوج. والحليلة: الزوجة. والحاظل والعاضل سواء، وهو المانع من التزويج: لأنّ الحمار يمنع أتُنه من حمار آخر يريدهن. يعني أنّ تلك الأتُن جديرات بأن يمنعهنّ هذا الحمار. والشاهد فيه قوله (كه)، و(كهنّ)، ودخول الكاف على الضمير ضرورة. الكتاب ٣٨٤/٢.

(٣)- المصدر السابق ٣٨٤/٢.

(٤)- انظر المصدر السابق ٧/٣، ٦١.

بأنها من باب ردّ الأشياء إلى أصولها(١) وأنّ الكلام عنده يكون ثلاثة أقسام:

- فصيح يجوز في الشعر والنثر.
- غير فصيح يؤول بأصل من أصول كلام العرب، ويقاس عليه.
- لحن لا يصح في شعر أو نثر، لأنه لا مثيل له في كلام العرب.

---

(١)- انظر في ذلك كلامه على (بخٍ) ٣/٤٥٣، وعلى (الإضافة) ٣/٥٠٥، وعلى (جزم الفعل المضارع) ٣/٣١٦، وعلى (التصغير) ٣/٣١٤، وعلى (الاسم المنقوص) ٣/٣١٣ وعلى (الإدغام) ٣/٥٣٥ وانظر شواهد الشعر في كتاب سيبويه لخالد جمعة ٤٧٩.

- المسائل النحوية في استدلال سيبويه بالشعر-

إذا كان استدلال سيبويه قد أخذ أبعاداً نحوية من خلال استدلاله بالقرآن الكريم، فإنّ هذه الأبعاد تظهر بشكل جليّ من خلال استدلاله بالشعر؛ لأنّ الشعر هو المرآة الحقيقيّة للغة العرب، وهو الأقدم، والأقدر على تصوير لغة العرب قبل قرون عديدة من ظهور الإسلام، وهذه القدرة التي يتمتّع بها الشعر جعلت سيبويه وكثيراً من النحاة غيره يولونه المكانة الأولى من حيث الوفرة في الاستدلال به لذلك نرى في الكتاب أنّ الاستدلال بالشعر فاق الاستدلال بالقرآن ثلاث مرات تقريباً.

أما طبيعة المادة النحوية بين الاستدلال بالشعر من جهة وبالقرآن الكريم من جهة أخرى فهي لا تختلف اختلافاً كبيراً؛ لأنّ سيبويه في معظم تناولاته النحوية كان يعاقب بين الشعر والقرآن الكريم، وقليلاً ما نراه يستدل بالقرآن من دون الشعر، أو يستدل بالشعر من دون القرآن، وذلك في مواضع سنشير إليها في حينها.

وعلى غرار استدلاله بالقرآن الكريم فقد كان استدلاله بالشعر لما خالف الأصول بارزاً بوضوح من خلال تناولاته النحوية من غير إهمال لهذه الأصول؛ فهو في الأولى يتكلّم على ما خالف الأصول لأمر معنوي، أو لأسلوب فنّي، أو لأمر لفظي، أو بالحذف، أو بمخالفة السماع، وغيرها من التناولات النحوية، وفي الثانية يتكلّم على الأصول كعمل المصدر، ومبالغة اسم الفاعل، والاشتغال. إضافة إلى قضايا نحوية مختلفة كاستدلاله على الجيد من كلام العرب، وعلى القليل، وعلى الضعيف، وغير ذلك من الملامح البارزة في كتابه.

١- الخروج على الأصل:

استدلّ سيبويه بالشعر على ما خالف الأصول النحوية بأكثر من نصف الشواهد التي وردت في الكتاب ولعل ذلك دليل على أنّ الشعر أتى في المقام الأول من حيث استدلال النحاة به، ويظهر استدلاله لما خالف الأصول في مواضع كثيرة؛ فقد يكون ذلك لأمر معنوي، أو لأسلوب فني، أو لأمر لفظي، أو بالحذف، أو بمخالفة السماع، أو شذوذاً، أو للضرورة الشعرية، أو للاستخفاف، أو لبيان الأحسن من لغة العرب، أو لبيان القليل والنادر والغريب، أو لبيان القبيح، أو لعدم اللبس، أو لنيابة اللفظ، أو لنزع الخافض، أو لصرف الممنوع من الصرف، أو للإلغاء، أو للتوهّم، أو للمشابهة، أو للفصل، أو للقطع، أو للجوار، أو للاتّساع أو للنيّة، أو في اختلاف اللفظين، وقد يكون الخروج على الأصل فيما يتعلق ببنية الكلمة الصرفية.

أ- الأمر معنوي:

قد يأتي الخروج على الأصل من خلال المعنى المقصود من غير أنْ يُلتَفَتَ إلى اللفظ؛ من ذلك ما نقله سيبويه من قول الشاعر:

هلْ تَعرفُ الدارَ يُعَفّيها المُورْ والدَّجْنُ يوماً والعَجاجُ المَمهورْ

لكلِّ ريحٍ فيه ذَيْلٌ مَسْفُورْ(١)

---

(١)- يُعَفّيها: يطمس آثارها. والمُور، بالضم: الغبار بالريح. والدَّجْن، بالفتح: إلباس الغيم السماء. والعَجَاج: الغبار. والمهمور: المنسكب؛ تهمره الريح. مسفور: مكنوس، والمسفرة، المكنسة، وكان الوجه أن يقول ذيل سافر، لأنه يسفر التراب، ولكنه بناه على مفعول لأنه بمعنى مسفور به. والشاهد فيه: تذكير الضمير في (فيه) لأنّ (الدار) جاءت بمعنى (المنزل)، والمنزل مذكّر. الكتاب ٢/١٨٠.

فقد قال: (لكلٌ ريحٍ فيه)، والضمير في (فيه) يعود على (الدار)، وهو ضمير مذكر يعود على اسم مؤنث، وهذا خروج على الأصل في وجوب المطابقة بين الضمير وما يعود عليه، وقد استدل سيبويه على جواز الخروج على الأصل إذا كان ما يعود عليه الضمير يتضمّن معنىً آخر موافقاً لهذا الضمير، وقال سيبويه: ‹‹فقال (فيه) لأنّ الدار مكان، فحمله على ذلك.››(١)

ويذكر سيبويه أيضاً في باب ما يضاف إلى الأفعال من الأسماء أنّه يضاف إليها أسماءُ الدهر ويستدل لهذا الأصل بآيات كريمة وأمثلة(٢) ثم نراه يستدل لما خرج على هذا الأصل بقول الأعشى:(٣)

بآيةِ تُقْدِمون الخيلَ شُعْثاً　　　كأنَّ على سنابِكِها مُداماً(٤)

ويُجيز هذه المخالفة بإضافة (آية) إلى الجملة الفعلية -وهو ممّا يخرج على الأصل- لأنّ (آية) تضمّنتْ معنى الوقت، فكأنّه قال: بعلامة وقتِ تقدمون الخيل.(٥) وهـذا استدلال مـن سيبـويه على ما خالف

---

(١)- الكتاب ٢/١٨٠.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣/١١٧.

(٣)- لم يُنسب إلى الأعشى إلاّ في الكتاب. انظر الكتاب ٣/١١٨.

(٤)- أي ابلغهم عنّي كذا بعلامة إقدامهم الخيل للّقاء شعثا متغيّرة من السّفر والجهد. وشبّه ما يسيل من عرقها ممتزجا بالدماء على سنابكها بالمدام، وهي الخمر. والسنابك: جمع سنبك، وهو مقدم الحافر. والشاهد فيه: إضافة (آية) إلى الفعل (تُقدمون)، وكأنّ إضافتها على تأويل معناها بمعنى الوقت، فكأنّه قال: بعلامة وقت تقدمون الخيل. انظر الكتاب ٣/١١٨.

(٥)- المصدر السابق (حاشية) ٣/١١٨.

النحوية، وهو كثير في كتابه.(١)

ب- الضرورة:

كان سيبويه أوّلَ من شرح مفهوم الضرورة شرحاً وافياً، وبيّن حكمها بقوله: <<وهذا قليل في الكلام كثير في الشعر>>. وقوله:<<وهذا كلام أكثر ما يكون في الشعر، وأقلّ ما يكون في الكلام>>(٢) والغرض من عبارتيه وما شابههما من عبارات أنْ يوضّح أنّ الشاعر يكون مقيداً بوزن أو قافية، أمّا في الكلام المنثور فلا قيود تذكر، لذلك نرى سيبويه يجيزُ الضرورة الشعرية في مكان ثم ينعتها بالقبح في لغة النثر.(٣) ثم يصرح بوضوح قائلاً: <<وهذا فيه قبح، وهو ضعيف، وهو في الشعر جائز.>>(٤)

وأمثلة الضرورة كثيرة، ومتنوعة، وتتداخل لتشمل كثيراً من حالات الخروج على الأصل، فالحذف ومخالفة السماع مثلاً قد يكونان للضرورة.(٥) كحذف جزء من بنية الكلمة، أو حذف آخر العلم المعرّف بأل، أو حذف التاء الدالة على التأنيث من آخر الفعل، أو تغيير حركة بناء الكلمة.

---

(١)- انظر الكتاب ١/٤٧، ٥٢، ٩٤، ٩٧، ١٤٢، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٤٦، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٤، ٣٦٦، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٧، ٢/١٨٠، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢١٩، ٣٧٥، ٣/٢٤، ٥٣، ٦٠، ٩١، ٩٥، ١٠٤، ١٠٧، ١١٨، ١٥١، ٣٨٤، ٥٦٥، ٤/٨٢، ٩٦، ٩٧، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢)- المصدر السابق ٢/١٢٤، ١٢٥.

(٣)- انظر رأي سيبويه في عطف الظاهر على المضمر المرفوع، وكذلك الفصل بين المضاف والمضاف إليه. الكتاب ٢/٢٨٠، ٢٧٧-٢٧٨.

(٤)- المصدر السابق ٢/١٥٤.

(٥)- على الرغم من ذلك فقد افردنا لهما ولأمثالهما أقساماً خاصة تحدثنا عنها بشكل مستقل.

* فالأصل أن تحافظ الكلمة على حروفها، من غير حذف إلاّ إذا كان الحذف في مواضع محددة كالنداء مثلاً، ويستدل سيبويه على مخالفة هذا الأصل بقول أبي النجم:

فِي لَجَّةٍ أَمْسِكْ فلاناً عن فُلِ (١)

فقد وقع الحذف في (فلِ) للضرورة، والأصل أن يقول (عن فلانٍ) (٢)

* ومنه حذف الياء من آخر الاسم العلم المعرف بأل للضرورة الشعرية، ويستدلّ بقول لبيد:(٣)

وقَبِيلٌ مِن لُكَيْزٍ شاهدٌ رهْطُ مَرْجومٍ ورهْطُ ابن المُعَلّْ (٤)

فالأصل أن يقول (المعلّى) لكنه قال: المعلّ ضرورة.(٥)

---

(١)- اللَّجّة: اختلاط الأصوات في الحرب. أمسكْ فلاناً عن فل، أي خذ هذا بدم هذا، والشاهد فيه استعمال (فل) موضع (فلان) في غير النداء ضرورة؛ وفي ذلك تقديران: أحدهما أن يكون قد أراد: عن فلان، فحذف النون للترخيم في غير نداء، ثم حذف الألف لأنها زائدة. والآخر أن يكون نقلة محذوفاً من قولهم: يافلُ، للضرورة. انظر الكتاب ٢٤٨/٢-٢٤٩، وخزانة الأدب ٤٠١/١، وهمع الهوامع ١٧٧/١.

(٢)- انظر الكتاب ٢٤٨/٢.

(٣)- ديوان لبيد ١٩٩، الخصائص ٢٩٣/٢، همع الهوامع ٢٠٦/٢، لسان العرب (رجم).

(٤)- القبيل: القبيلة، ولُكَيْز: علَم، وشاهد بمعنى: حاضر، ومرجوم: نعت لرجل. وابن المعلّى: هو جدّ الجارود بن بشير بن عمرو بن المعلّى. والشاهد فيه: حذف ألف (المعلّى) في الوقف للضرورة تشبيهاً بما يحذف من الياءات في الأسماء المنقوصة نحو غازٍ وقاضٍ، وهذا من أقبح الضرورات؛ لأنّ الألف لا تستثقل كما تستثقل الياء والواو. الكتاب ١٨٨/٤-١٨٩.

(٥)- انظر المصدر السابق ١٨٨/٤.

* ومنه ما نقله من قول عامر بن جُوَيْن الطائي:

فلا مُزْنَةٌ ودقَتْ ودْقَها ولا أرضَ أبقَلَ إبقالهـا (١)

فقد حذف التاء من (أبقل) لضرورة الشعر والأصل قوله: (أبقلت إبقالها).

* ومنه أنّ الأصل في أسم (لا) النافية للجنس أن يكون مبنياً على ما يُنصب به ولا ينوّن، ويستدل سيبويه على ما خالف الأصل، بقول أنس بن العباس:

لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلّةً اتّسع الخرق على الراقع(٢)

وقد ذكر أنّ تنوين (خُلّة) جاء على الاضطرار(٣). ومثل ذلك كثير.(٤)

---

(١)- المُزْنة واحدةُ المزن وهو السحاب يحمل الماء، والودق: المطر، وأبقلت: أخرجت البقل، وهو من النبات ما ليس بشجر والشاهد فيه: حذف التاء من (أبقلت) لضرورة الشعر، ويسوّغه انّ الأرض بمعنى المكان. الكتاب ٢/٤٦ والخزانة ١/٢١، ٣/٣٣٠، وشرح المفصّل لابن يعيش ٥/٩٤، وهمع الهوامع ٢/١٧١.

(٢)- الخُلّة (بالضم): الصداقة؛ يقول: لا نسب ولا قرابة اليوم بيننا وقد تفاقم الأمر، فهو كالخرق الواسع في الثوب لا يقبل رقع الراقع. والشاهد فيه: نصب المعطوف وتنوينه على إلغاء (لا) الثانية، وزيادتها تأكيداً للنفي، وتقديره: لا نسبَ وخلةً اليوم. انظر الكتاب ٢/٢٨٥، ٣٠٩.

(٣)- المصدر السابق ٢/٣٠٩.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/١٧٨، ١٧٩، ٢٠٨، ٣٠٧، ٢/١٦٢، ١٦٥، ٢٠٧، ٢٣١، ٢٤٨،٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٨، ٣٠٩، ٣٦٢، ٣٧٩، ٣٨٤، ٣/٨، ٩، ٣٩، ٤٠، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٨، ١١٥، ١٤١، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٧٤، ١٧٥، ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٥١٦، ٥١٨، ٥٣٥، ٥٤٤، ٥٤٩، ٥٥٤، ٥٥٥، ٦٣٣، ٤/١٧٠، ١٨٨، ٣٥٩، ٣٧٠.

ج- الأسلوب الفني:

وهي الأساليب التي لا تنطوي تحت جناحي القاعدة(١) لأمر فنّي، وهي مواضع كثيرة في الكتاب حاول سيبويه من خلال استدلاله بها أنْ يكشف لنا أنّ الأساليب الفنية الخاصة في شعر العرب قد تكون هدفاً لترك الأصول بما يعود على لغتنا بخصائص جمالية تتفرّد بها من ذلك:

* نقل سيبويه عن خليل أنّ العرب يوجبون المطابقة بين المبتدأ والضمير الذي يعود عليه في جملة الخبر، وهذا التطابق يكون في العدد والجنس والنوع(٢) فإذا كان المبتدأ ممّا لا يعقل جاء الضمير الرابط مطابقاً له، إلاّ إذا نُزّل ما لا يَعقل منزلة العاقلين؛ ويستدل سيبويه على ذلك بقول النابغة الجعدي:

شرِبتُ بها والدّيكُ يدعو صَباحَهُ   إذا ما بنو نَعْشٍ دَنَوْا فتصوّبُوا (٣)

ثم يعلّل جواز مخالفة هذا الأصل بقوله: <<فجاز هذا حيث صارت هذه الأشياء عندهم تُؤْمَرُ وتُطيعُ، وتفهم الكلامَ، وتَعبُد، بمنزلة الآدميّين.>>(٤)

---

(١)- انظر نظام الجملة ٩/١.

(٢)- انظر الكتاب ٣٦/٢ وما بعدها.

(٣)- وصف خمراً باكرها بالشرب عند صياح الديك. وبنو نعش، أراد به بنات نعش، وهي من منازل القمر الثمانية والعشرين شبّهت بحملة النعش في تربيعها. تصوّبوا: دنوا من الأفق للغروب. والشاهد فيه تذكير (بنات نعش) لإخباره عنها بالدنوّ والتصوّب كما يخبر عن العقلاء. الكتاب ٤٧/٢.

(٤)- المصدر السابق ٤٨/٢

* ومنه ما بيّنه سيبويه نقلاً عن شيخه من أنّ كثرةَ مخالفة الأصل صار أصلاً، حتى غدت العودة إلى الأصل مخالَفةً، وخروجاً على الشائع من كلام العرب؛ وقال سيبويه: ‹‹وسألت خليل رحمه الله عن: ما أحسَنَ وجوهَهما! فقال: لأنّ الاثنين جميع، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذاك››(١) فذكر كلمة (وجوه) وهو يريد التثنية بدليل إضافة الكلمة إلى ضمير التثنية (وجوههما)، ولو أراد مراعاة الأصول والمطابقة لقال: ما أحسنَ وجهيهما! لكن المخالفة صارت أصلاً، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: (**وهل أتاك نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تسوّروا المحرابَ. إذْ دَخلوا على داودَ ففزِعَ منهمْ قالوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغَى بعضُنا على بعض**) (٢) ليبيّن أنّ ضمير الجماعة (نا) في قوله تعالى (بعضنا) دلّ على المثنى (خصمان)، وقد شاعت مخالفة الأصل هذه على لسان العرب، حتّى غدت المطابقة غيرَ مألوفة، وفي ذلك يقول سيبويه: ‹‹زعم يونس أنّ رؤبة كان يقول: ما أحسن رأسَيْهما. قال الراجز، وهو خطام:

ظَهْرَاهما مثلُ ظهور التُّرْسَيْنْ››(٣)

مشيراً إلى قول الشاعر (ظهراهما) بالتثنية على الأصل في التطابق بين (ظهران) والضمير (هما) من حيث الدلالة على المثنى.

* ومن ذلك أنّ الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى جزءاً من المستثنى منه، ومخالفاً له في الحكم، والاستثناء المنقطع هو خروج على هذا الأصل، وهو أحد الأساليب الفنية في شعر العرب؛ ويستدلّ

---

(١)- الكتاب ٢/٤٨.

(٢)- ص ٣٨/ ٢١-٢٢.

(٣)- يصف فلاتين بعيدتين لا نبت فيهما. وشبّههما بالترسين في الاستواء والاملاس. والترس بالضمّ: ما يُتّقى به الضرب من السلاح. والشاهد فيه تثنية (ظهراهما) على الأصل، والأكثر في كلامهم الخروج على الأصل إلى الجمع، كراهية لاجتماع تثنيتين في اسم واحد؛ لأن المضاف والمضاف إليه ككلمة واحدة. ولهذا قال فيما بعد: (مثلُ ظهورِ التّرسَيْن) الكتاب ٢/٤٨ (حاشية)

سيبويه على ما خالف الأصل بقول النابغة:

ولا عيبَ فيهمْ غيرَ أنّ سيوفَهم — بهنّ فلولٌ مِن قراعِ الكتائِبِ (١)

وفي الكتاب أمثلة كثيرة على الخروج على الأصل لأسباب فنية(٢)

د- بُنْيَةُ الكلمة:

لم يقتصر حديث سيبويه، واستدلاله على ما خالف الأصول على تركيب الجملة، وعلاقة عناصرها بعضها ببعض، بل تعدى ذلك إلى بنية الكلمة، كإشباع الحركة في الكلمة أورد الوزن إلى أصله، أو إبدال حرف بحرف، أو حذف حرف، أو أكثر من الحروف الأصلية.

إشباع الحركة:

لكل كلمة وزنها الذي جاءت عليه، وهو أصل لها، وقد يُخالَف الأصل بتغيير وزن الكلمة كأن يقولوا في مساجد مساجيد، ومنابر منابير، وقد عبّر سيبويه عن إشباع الحركة بقوله: <<وربما مدّوا مثل مساجد ومنابر فيقولون مساجيد ومنابير>>(٣)

---

(١)- يمدح آل جفنة ملوك الشام من غسان. الفلول: جمع فلّ، وهو الثَّلْم. والقراع، والمقارعة: المضاربة. والكتائب: جمع كتيبة، وهو القطعة العظيمة من الجيش، وقيل: من المئة إلى الألف. والشاهد فيه نصب (غير) على الاستثناء المنقطع. الكتاب ٣٢٦/٢.

(٢)- انظر الكتاب ٣١/١، ٣٢، ٥٠، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٦، ٤٧/٢، ٤٨، ٥١، ٥٥، ٥٦، ١٠٨، ١٠٩، ١٦٦، ١٧٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٥٣، ٤٩٧/٣.

(٣)- الكتاب ٢٨/١.

ثم يستدل على ذلك بقول الفرزدق:

تَنْفِي يداها الحصى في كلّ هاجِرةٍ نَفْيَ الدنانيرِ تَنْقادُ الصَّياريفِ (١)

فقد ذكر (الصياريف) جمعاً لصيرف، والأصل أن يقول (الصيارف) لكنه أشبع كسرة الراء وصيّرها ياءً خلافاً للأصل، ولعلّ ضرورة الوزن هي التي أحوجت الشاعر لإشباع الحركة.

رد اللفظ إلى أصله:

ويرى سيبويه أنّ الضرورة قد تسوق الشاعر إلى إعادة الكلمة إلى أصلها فينفكّ الإدغام؛ وقد عبّر عن ذلك بقوله: ‹‹وقد يبلغون بالمعتلّ الأصلَ (٢) فيقولون رادِدٌ في رادّ، وضننوا في ضنّوا››(٣)

واستدلّ بقول قَعْنَب بن أمّ صاحب:

مَهْلاً أعاذِلَ قد جَرَّبْتِ من خُلُقي أنيَ أجودُ لأقوامٍ وإنْ ضَنِنوا(٤)

حيث أعاد الفعل (ضنّ) إلى أصله (ضنن)، والصواب إدغام الحرفين المتماثلين؛ لكنّ الضرورة هي التي ساقته إلى فكّ التضعيف (٥).

---

(١)- تنفي: تبعد وتطرد، يداها: أراد يدي الناقة. الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحرّ. النَّفيَ مصدر نفى ينفي، إذا عرضها للنقد ونحّى زيوفها. تَنْقاد: مصدر نقد الدراهم ينقدها نقداً، إذا ميّز رديئها من جيّدها. والصياريف: مفردها صَيْرف وهو الخبير بالنقد وتبادله. والشاهد فيه قوله (الصياريف) فإنها جمع صَيْرف، والأصل لو قال صيارف من غير إشباع. انظر الكتاب ١/٢٩.

(٢)- أراد بالمعتل هنا ما يشمل المعتل والمضعف. انظر الكتاب (حاشية) ١/٢٩.

(٣)- المصدر السابق ١/٢٩.

(٤)- أراد أنه جواد لا يصرفه العذل عن الجود، وإنْ كان من يجود عليهم بخلاء، فليس يكفّه شيء عن سجيته. والشاهد فيه فكّ تضعيف (ضننوا) ضرورة، والأصل أن يدغم فيقول: (وإن ضنّوا). انظر الكتاب ١/٢٩.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٢٩.

إبدال حرف بحرف:

وذكر سيبويه أنّ الخروج على الأصل قد يقع بإبدال حرف بأحد الحروف الأصلية في بنية الكلمة، واستدلّ بقول أبي كاهل اليشكري:(١)

لها أشاريرُ من لحْمٍ تُتمِّرُهُ   من الثَّعالِي ووَخْزٌ مِن أرانيهَا (٢)

وصرّح بأنّ الشاعر ‹‹لمّا اضطُرّ إلى الياء أبدلها مكانَ الباء››(٣) فقالَ (الثعالي) مكان (الثعالب)، و(أرانيها) مكان (أرانبها)، ومثل ذلك كثير في الكتاب(٤)

حذف حرف أو أكثر من الحروف الأصلية:

وقد يرد الخروج على الأصل بحذف حرف من حروف الكلمة، أو أكثر من حرف، وهو ما يرد في ترخيم المنادى.

وممّا نقله سيبويه من حذف حرف واحد قول عنترة العبسي:

يَدعون عَنْترَ، والرماحُ كأنّها   أشطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ (٥)

---

(١)- لسان العرب (رنب) و (تمر).

(٢)- الأشارير جمع إشرارة وهي قطعة اللحم المجفّف. تتمّره: تجفّفه، وتيبّسه. الثعالي: الثعالب. والأراني: الأرانب. والوخز: الشيء القليل. والشاهد فيه إبدال الياء من الباء في (الثعالب و الأرانب) لضرورة الوزن. الكتاب ٢/٢٧٣.

(٣)- المصدر السابق ٢/٢٧٣.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٢٦٦، ٢٧٣، ٣/٣٠٦، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٨٥، ٥٤٤، ٥٤٩، ٥٥٤، ٥٥٥، ٤/٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٦٥.

(٥)- الأشطان: الحبال، جمع شَطَن. اللَّبان: الصدر. الأدهم: الأسود: وهو فرسه. والشاهد فيه ترخيم (عنترة) وبناؤه على الضم، تشبيهاً له باسم مفرد منادى لم يحذف منه شيء، وقد حذف حرف النداء قبل عنترة، لأن المنادى العلم يحسن معه الحذف لأنّه معرفة بنفسه ليس بمحتاج إلى تعريف حرف النداء له. الكتاب ٢/٢٤٦.

فقد حذف حرفاً من الاسم ترخيماً. (١)

* ومما نقله من حذف حرفين قول الفرزدق: (٢)

يامرْوَ إنّ مطيّتي محبوسةً ترجو الحِباءَ وربُّها لم ييْأسِ (٣)

والأصل (يامروان) لكنّه رخّم الاسم فاوقع ترخيماً على ترخيم. (٤)

هـ- الحذف:

والخروج على الأصل بالحذف كثير شائع في لغة العرب نثراً وشعراً، بل هو سمة من سمات هذه اللغة حيث تكتسب جمالاً واضحاً، وهذا ما دفع البلاغيين إلى العناية بهذه الناحية عناية كبيرة.

* فالأصل أن ينصب الفعل المتعدي مفعوله، ومجيء الاسم منصوباً على المفعولية بفعل محذوف هو خروج على هذا الأصل، وسبب الحذف يعود إلى كثرة التداول على لسان العرب (٥) وقد استدل سيبويه على ذلك بمواضع كثيرة منها قول ذي الرُّمّة:(٦)

ديارَ ميّةَ إذْ ميٌّ مساعِفةٌ ولا يرى مثلَها عُجْمٌ ولا عَرَبُ (٧)

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٢٤٩.

(٢)- ديوان الفرزدق ٤٨٢.

(٣)- الحِباء: العطاء، وقد أسند الرجاء إلى ناقته، وهو يعني نفسه مجازاً، والشاهد فيه ترخيم (مروان) وحذف الألف والنون لزيادتهما. انظر الكتاب ٢/٢٥٧.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٢٥٦ .

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٢٨٠.

(٦)- ديوان ذي الرُّمّة ٣ وخزانة الأدب ١/٣٧٨، والكامل للمبرد ٤٥٢.

(٧)- مساعِفة: مواتية، ورخّم (ميّة) فقال: (ميّ) في غير النداء ضرورة. والشاهد فيه نصب (ديارَ) بفعل مقدّر تقديره: أذكر ديارَ ميّة وأعنيها، ولا يذكر هذا الفعل لكثرته في كلامهم. الكتاب ١/٢٨٠.

فكأنّه قال: أذكُرُ ديارَ ميَّةَ، ولكنه لا يذكر (أذكر) لكثرة ذلك في كلامهم(١) .

* والأصل أنْ تدخل (إنّ) على الجملة الاسمية فتنصب الأول، وترفع الثاني، وحذف أحدهما هو خروج على الأصل؛ وإن كان يزيده جمالاً، واستدل سيبويه على ذلك بقول الأعشى: (٢)

إنّ مَحَـــلاً وإنّ مُرْتَحَـــلا وإنّ في السَّفْرِ ما مضى مَهَلا (٣)

والأصل: إنّ لنا محلاً، وإنّ لنا مرتحلاً(٤)

* وقد يكون الحذف على تشبيه كلمة بكلمة أخرى، فيأتي الخروج على الأصل بتشبيه (قدي) بحَسْبي، من ذلك ما نقله لنا سيبويه من قول الشاعر:(٥)

قَدْني مِن نَصر الخُبَيْبَيْنِ قَدِي ليس الإمامُ بالشَّحِيحِ المُلْحِدِ(٦)

---

(١)- انظر الكتاب ١/٢٨٠.

(٢)- ديوان الأعشى ١٥٥، الخصائص ٢/٢٧٣، همع الهوامع ١/١٣٦.

(٣)- أي إنّ لنا محلاً في الدنيا، أي حلولاً. والسَّفْر: المسافرون، أي من رحلوا عن الدنيا. والمهل: الإبطاء، والمراد عدم الرجوع. يقول: في رحيل هؤلاء إبطاء وعدم عودة، أي فيمن مَضَى مَثَل لمن بقي بعدهم، أي سيفنون كما فني هؤلاء. والشاهد فيه حذف خبر (إنّ) لقرينة علم السامع. الكتاب ٢/١٤١.

(٤)- انظر الكتاب ٢/١٤١.

(٥)- ينسب البيت لأبي نخيلة وغيره، الإنصاف ١٣١، خزانة الأدب ٢/٤٤٩.

(٦)- قدني، أي حسبي وكفاني. الخُبَيْبان، بهيئة التصغير، هما عبد الله بن الزبير، ومصعب أخوه والمعنى: حسبي من نصرة هذين الرجلين، أي لا أنصرهما بعد. والإمام تعريض بعبد الله بن الزبير لأنّه كان شحيحاً بخيلاً. والشاهد فيه حذف النون من (قدي) تشبيهاً بحسبي، وإثباتها هو المستعمل لأنها في بنائها ومضارعة الحروف بمنزلة (من) و(عن) فتلزمها نون الوقاية لئلاً يغيّر آخرها عن السكون. الكتاب ٢/٣٧١-٣٧٢.

فقد اضطرّ فشبّه (قدي) بحسبي، وأصل الكلام أنه لابّد من دخول النون فتصبح (قدني)(١)
والحذف في الكتاب خروجاً على الأصل كثير.(٢)

و- بيان القليل والنادر:

لجأ أوائل النحاة الذين قنّنوا لغة العرب إلى أخذها ممّا يناسب الشائع من لغتهم، وهذا ما دفع سيبويه إلى الإشارة كثيراً في كتابه إلى القليل، والنادر من لغتهم، وليس صعباً أن نستنتج أن القليل والنادر مخالف لأصول العربية بعد أن عرفنا أنّ هذه الأصول قد وضعت بما يناسب الكثير، بعيداً عن القلّة، والضعف، والندرة، والقبح، وغيرها من المصطلحات التي أكثرَ سيبويه من ذكرها.

*- من ذلك أنّ الأصل في خبر (ما) التي تعمل عمل ليس ألاّ يتقدم خبرها على اسمها، وما جاء على ذلك هو خلاف الأصل، واستدلّ سيبويه على هذا بقول الفرزدق:(٣)

فأصبحوا قد أعادَ اللهُ نِعمتَهُمْ   إذْ هُمْ قُرَيْشُ وإذ ما مِثلَهُمْ بَشَرُ (٤)

---

(١)- انظر الكتاب ٣٧١/٢.

(٢)- انظر المصدر السابق: ٢٦/١، ٣٠، ٦٦، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٠٣، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥٥، ١٤١/٢، ١٤٢، ٢٣٣، ٣٧٠، ٣٧١، ١٧٤/٣، ١٧٥.

(٣)- ديوان الفرزدق ٢٢٣، وخزانة الأدب ١٣٠/٢.

(٤)- أي أعاد لقريش ما كانوا فيه من الخير حين كان جدّه مروان والياً عليهم. والشاهد فيه تقديم خبر (ما) منصوباً، والفرزدق تميمي يرفعه مؤخّراً، فكيف إذا تقدم. وفي البيت أقوال كثيرة، وتخريجات متعددة. انظر الكتاب ٦٠/١، أوضح المسالك (حاشية) ١٩٩/١-٢٠٠.

فقد تقدم خبر (ما) وهو (مثلهم) على اسمها، وأشار سيبويه إلى ندرة ذلك بقوله: ‹‹وهذا لا يكاد يُعرف››(١)

* ومنه أنّ الألف لا تُمال إذا سُبقت بحرف القاف؛ لأنّ القاف من موانع الإمالة، ولم يعقب الألفَ راءٌ مكسورة، وغير ذلك مخالف للأصل، ويستدلّ سيبويه بقول هُدبة بن خَشْرَم(٢)

عسى اللهُ يغني عن بلادِ ابن قادِرٍ بمُنْهَمِرٍ جَوْنِ الرَّبابِ سَكُوبِ (٣)

ويشير إلى قلّة مَنْ يميل في (قادِر) بقوله: ‹‹وقال قوم تُرضَى عربيّتهم›› و‹‹سمعنا من نثق به من العرب››(٤) وهذه العبارات لها مدلولها من خلال معرفتنا لمصطلحات سيبويه التي يستخدمها في الكتاب.

* ومنه أنّ جمع السلامة لا يكون إلاّ في الأعلام، والصفات المشتقة، ولا يكون في الأسماء الجامدة، وأسماء الجنس. وينقل لنا سيبويه قول زياد بن واصل السلمي(٥)

فلمّا تَبيَّنَّ أصواتَنا بكَيْنَ وفدّيْنَنا بالأبينا (٦)

---

(١)- الكتاب ١/٦٠.

(٢)- شرح المفصل لابن يعيش ٧/١١٧، ٩/٦٢.

(٣)- المنهمر: السائل. والجون: الأسود. والرباب: ما تدلّى من السحاب دون سحاب فوقه. والسكوب، من السكب وهو الصبّ. والشاهد فيه إمالة الألف في (قادر) على الرغم من أنها مسبوقة بمانع وهو (القاف) ولم يأتِ بعد الألف راء مكسورة لتفقد المانع مفعوله. انظر الكتاب ٣/١٥٩، ٤/١٣٩ وانظر بحث الإمالة في أوضح المسالك ٣/٣٠١.

(٤)- الكتاب ٤/١٣٨-١٣٩.

(٥)- المقتضب ٢/١٧٤، الخصائص ١/٣٤٦، شرح المفصل ٣/٣٧.

(٦)- يفخر الشاعر بآباء قومه، وأمهاتهم من بني عامر، وأنهم قد أبلوا في حروبهم، والشاهد فيه: جمع (أب) جمع سلامة على (أبين)، وهو جمع غريب، لأنّ جمع السلامة يكون في الأعلام والصفات المشتقة. الكتاب ٣/٤٠٦.

حيث جمع (أب) على (أبين) وهو جمع غريب نادر(١) ومثل ذلك كثير في الكتاب(٢)

ز- بيان القبيح:

حاول سيبويه في الكتاب أن يكشف لنا درجات القوة، أو الضعف في كلام العرب، فتكلّم على الجيد، والحسن والقليل، والنادر، والشاذ، والقبيح؛ وهذه المستويات التي وضعها الغايةُ منها وضع معايير دقيقة تكمل صورة النحو التي يرسمها.

ومخالفة الأصل بالقبيح من الكلام أمثلته متعددة في الشعر كثيرة في النثر، وسيبويه كعادته يتكلّم على ما خالف الأصول من شعر العرب أكثر من كلامه على ما وافق الأصول.

من ذلك أنّ الاسم الظاهر لا يعطف على الضمير المتّصل بالفعل إلاّ إذا أكدّ بالضمير المنفصل، وما لم يؤكّد يكون مخالفاً للأصل؛ وسيبويه يستدلّ على ما خالف الأصل بقول الراعي:(٣)

فلمّا لحِقْنا والجيادُ عَشِيَّةً   دَعَوْا يالَكَلْبٍ واعتَزَيْنا لِعامِرِ (٤)

فقد عطف (الجياد) على الضمير المتصل بالفعل (نا) من غير أن يؤكد بضمير منفصل، والأصل أن

---

(١)- انظر الكتاب (حاشية) ٣/٤٠٦.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٦٠، ٣٣٣، ٢/٩، ١٠، ١٥، ٢١، ٤٠، ٤٢، ١١٠، ١١١، ٣٤٠، ٣٥٤، ٣٦٥، ٣/١٢١، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٥، ٤٠٢، ٤٠٦، ٦٠٩، ٤/١٣٩، ١٦١، ٢٣٤، ٢٥٨، ٢٥٩، ٣٦٦.

(٣)- لسان العرب (عزا)

(٤)- يقول: خرجنا في طلبهم فلحقناهم عشيّة. اعتزينا، من العزاء والعزوة؛ وهي دعوة المستغيث، يقول: يالفلان، أو يالالأنصار والمهاجرين. وكلب: قبيلة من قضاعة، وهو كلب بن وبرة. والشاهد فيه عطف (الجياد) على الضمير المتصل بالفعل، وهو قبيح حتّى يؤكّد بالضمير المنفصل. انظر الكتاب ٢/٣٨٠.

يقول: لحقنا نحن والجياد. وعدم الفصل قبيح.(١)

* ومنه أيضاً أنّ الاسم الظاهر لا يعطف على الضمير المتصل المجرور بحرف الجر إلاّ إذا أعيد حرف الجر، وغير ذلك هو مخالفة للأصول، ويستدلّ سيبويه على ما خالف الأصل بقول الشاعر(٢)

آبَكَ أيِّهْ بِيَ أو مُصَـــدَّرٍ ... من حُمُرِ الجِلَّةِ جأبٍ حَشْوَرِ (٣)

فقد عطف (مُصَدَّر) على الضمير المجرور في (بي)، ولم يكرّر حرف الجر، وهو قبيح.(٤)

* ومنه أيضاً أنّ العرب تستقبح وقوع ترخيم على اسم مرخّم، ويستدل سيبويه على ما قبح بقول العجّاج(٥):

فقد رأى الراؤون غيرَ البُطَّلِ ... أنَّكَ يا مُعاوِ يابن الأفضَلِ(٦)

حيث رخّم (معاوِ) من أصل مرخّم (معاوي) وأصلها معاوية، ووقوع ترخيمين قبيح عند العرب.(٧)

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٣٨٠.

(٢)- البيت لا يعرف قائله انظر اللسان (أوب).

(٣)- آبك: ويلكَ. وأيّه: من التأبيه، وأصل التأبيه دعاء الإبل، ويقال أيّهت بفلان تأييها، إذا دعوته وناديته كأنك قلت له: يا أيّها الرجل. والمُصَدَّر: الشديد الصدر. الجِلّة: العظام من الرجال مفردها جليل. والجأب: الغليظ. والحشور المنتفخ الجنبين. شبه نفسه به بالصلابة والشدة. يقال لمن تنصحه ولا يقبل، ثم يقع فيما حذرته منه. والشاهد فيه: عطف (مصدّر) على المضمر المجرور في (بي) دون إعادة الجار، وهو من أقبح الضرورات. انظر الكتاب (حاشية) ٢/٣٨٢.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٣٧٩-٣٨٠.

(٥)- ديوان العجّاج ٤٨، والخصائص ٣/٣١٦، همع الهوامع ١/١٨٤.

(٦)- البطل: جمع باطل. أي لقد رأى الراؤون رأيا صحيحا لا باطلاً. والشاهد فيه: إدخال ترخيم على ترخيم في (يا معاو)، رخّم أولاً فصار (يا معاوي)، وثانيا فصار (يا معاو) وهي ضرورة قبيحة. الكتاب ٢/٢٥٠.

(٧)- انظر المصدر السابق ٢/٢٤٩-٢٥٠.

لكن سيبويه في هذا المجال يحاول الاستدلال على ما خَرَج على الأصل في مواضع متعددة.(١)

ح- القطع:

الأصل في الصفة أن تتبع الموصوف في التعريف والتنكير، والإفراد، والتثنية، والجمع، وحركات الإعراب، وتركُ هذه المتابعة هو خروج على الأصل، والقطع هو إحدى حالات مخالفة الأصول، فقد تكلّم سيبويه على حالاته وأسهب في تخريجاته.

* من ذلك ما ذكره في باب ما ينتصب على التعظيم والمدح، واستدل بقول الأخطل: (٢)

نفسي فداءُ أميرِ المؤمنين إذا ... أبدى النواجِذَ يومٌ باسلٌ ذَكَرُ

الخائضُ الغَمْرَ والميمونُ طائرُهُ ... خليفةُ اللهِ يُسْتَسْقَى به المطَرُ(٣)

فقد قطع (الخائضُ) عمّا قبلها، وهي في الأصل صفة مجرورة لأمير المؤمنين، وجاء قطعها بالرفع خروجاً على الأصل.(٤)

---

(١)- انظر الكتاب ٦٢/١، ٦٣، ١٧٩، ١٨٠، ٣٠٨، ٢٥٠/٢، ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣، ٢١١/٤، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤.

(٢)- ديوان الخطل ١٠١.

(٣)- الناجذ: الضرس، أو أقصى الأضراس. وإبداء النواجذ كناية عن شدة اليوم وبسالته، كأنه يكلح فتبدو نواجذه. والباسل: الكريه المنظر. والذَّكَر: الشديد. الغَمْر: الماء الكثير. ويقول: هو ميمون الطائر، للكثير الخير الذي يتيمّن به. وكانوا يستسقون المطر بمن يأنسون فيه اليمن والخير. والشاهد فيه (الخائض) وما بعده، حيث قطعه من قوله (أمير المؤمنين) فرفعه، ولو نصبه على القطع لكان حسنا أيضا، ولو جرّه على النعت لجاز كذلك. انظر الكتاب ٦٢/٢.

(٤)- انظر المصدر السابق ٦٢/٢.

* ومنه أيضاً قول ابن خيّاط العكلي:

وكلُّ قومٍ أطاعوا أمرَ مُرشِدِهِمْ ... إلاّ نُمَيْراً أطاعَتْ أمْرَ غاويها

الظاعِنينَ ولمّا يُظْعِنوا أحـــداً ... والقائلونَ: لِمَــنْ دارٌ نُخَلِّيها (١)

فقد قطع (القائلون) بالرفع عن (الظاعنين)، والتقدير: هم القائلون، والأصل أن يكون معطوفاً على (الظاعِنِيْنَ)، وهي بدورها صفة لـ (نُميراً)؛ وفي هذا القطع خروج على الأصل(٢) ومثل ذلك كثير في الكتاب(٣).

ط- الاستخفاف:

قد يكون الخروج على الأصل للاستخفاف؛ وهذا في الأمور التي يفرضها الوزن الشعري، وقد تكون العودة إلى الأصول غير ممكنة في ظلّ الميزان الصرفي، وهو بذلك يكون نوعاً من أنواع الضرورة الشعرية التي أشرنا إليها فيما سبق، وقد يكون لطلب الخفّة في النطق ما يفسّر الاستخفاف في الخروج على الأصل.

* من ذلك حذف التنوين في قول الفرزدق: (٤)

---

(١)- نمير: قبيل من بني عامر. وغاويها؛ أي مغويها. أي يخافون عدوّهم لقلّتهم وذلّتهم فيحملهم ذلك على الظعن والهجرة. ولمّا يُظْعِنوا احداً، اي لا يخافهم عدوّهم فيظعن عن داره خوفاً. لمن دار نُخَلّيها، أي إذا حلّوا عن دار لم يعرفوا مَن يحلّها بعدهم. والشاهد فيه نصب (الظاعنين) بإضمار فعل، ورفع (القائلون) على إضمار مبتدأ، لما قصد من معنى الذم فيهما. ولو أراد الوصف لأجراه على ما قبله نعتاً له. الكتاب ٢/٦٤-٦٥.

(٢)- انظر الكتاب ٢/٦٤.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣

(٤)- ديوان الفرزدق ٧٣٧.

أتاني على القَسْاءِ عادلَ وَطْبِهِ　　　　برِجْلَيْ لئيمٍ واسْتِ عبدٍ تُعادِلُه (١)

والأصل أن يقول: عادلاً وطبه، لكنّه حذف التنوين من (عادلَ) وأضافه إلى (وَطْبه) على الاستخفاف.(٢)

* ومنه حذف حرفٍ كما في قول الشاعر:(٣)

فَطِرْتُ بِمُنْصُلِي في يَعْمَلاتٍ　　　　دوامي الأيْدِ يَخْبِطْنَ السَّرِيحا(٤)

فقد حذف ياء (الأيدي) استخفافاً(٥)، وقد ذكر سيبويه ذلك صراحةً في مواضع متعددة (٦).

ي- النيـــة:

وعقد سيبويه باباً سماه «باب ما يُجْعَلُ من الأسماء مصدراً كالمصدر الذي فيه الألفُ واللامُ نحو العراك»،(٧) وقصد بذلك قول لبيد بن ربيعة:

---

(١)- القعساء: الناقة المحدودبة من الهزال. والوطب: سقاء اللبن؛ عدلّ وطبه برجلبه واسته، أي جعلهما عِدلاً له، أي جعل وطبه في ناحية من الراحلة معادلاً له. والعِدلان: ما يوضعان على جنبي البعير. والشاهد فيه حذف التنوين من (عادل) وإضافته إلى ما بعده استخفافاً. الكتاب ١/١٦٧.

(٢)- انظر الكتاب ١/١٦٧.

(٣)- البيت لمضرس بن ربعي. اللسان (يدي).

(٤)- المنصل: السيف. واليعملة: الناقة القوية على العمل. والسريح: جلود أو خرق تشد على الناقة. والشاهد فيه حذف الياء من (الأيد) للاستخفاف. انظر الكتاب ١/٢٧، ٤/١٩٠.

(٥)- المصدر السابق ١/٢٧، ٤/١٩٠.

(٦)- انظر المصدر السابق ٢/٣٧،٣٤٥،٣٤٦،٣٤٧، ٣/٤٦٦،٤٦٧.

(٧)- المصدر السابق ١/٣٧٥.

فأرسلها العِراكَ ولم يَذُدْها ... ولم يُشفِقْ على نَغَصِ الدِّخالِ(١)

فقد نصب (العراك) وهو مصدر في موضع الحال، والحال لا تكون معرفة، وجاز هذا لأنّه مصدر، والفعل يعمل في المصدر معرفة ونكرة، فكأنه أظهر فعله ونصبه بـه ووضع ذلك الفعـل موضع الحـال فقال: أرسلها تعترك الاعتراك، ولو كان من أسماء الفاعل لم يجز تعريفه، نحو أرسلها المعتركة(٢)

ثم يشير إلى (النيّة) في الخروج على الأصل حين يقول: <<وهو قولك: مررتُ بهم الجمّاءَ الغفيرَ، والناسُ فيها الجمّاءَ الغفيرَ فهذا ينتصب كانتصاب (العِراك).

وزعم الخليل رحمه الله أنّهم أدخلوا الألف واللام في هذا الحرف، وتكلّموا به على نيّة ما لا تدخله الألف واللام.>>(٣)

* ومنه أيضاً ما استدلّ به من قول الفرزدق: (٤)

وما زُرْتُ سلمى أنْ تكونَ حبيبةً ... إليَّ، ولا دَيْنٍ بها أنا طالِبُهْ(٥)

فقد جرّ (دَيْن) عطفاً على موضع المصدر المجرور، وذلك على نية قوله: وما زرتُ سلمى لأنْ تكون حبيبة. وقد أشار سيبويه إلى النيّة قبل أسطر من استدلاله بقول الفرزدق(٦)

---

(١)- العراك: الازدحام . لم يذدها: لم يحبسها عن الماء. النغص: من نغص الرجل، إذا لم يتم شربه. الدّخال: أن يدخل الرجل بعيره الذي شرب مرةً مع الإبل التي لم تشرب من قبل ليشرب معها. والشاهد فيه نصب(العراك)على الحال وهو معرفة، وذلك على نية ما لا تدخله الألف واللام . الكتاب ١/٣٧٢، الإنصاف ٢/٨٢٢.

(٢)- انظر المصدر السابق ٢/٨٢٢- ٨٢٣.

(٣)- الكتاب ١/٣٧٥.

(٤)- ديوان الفرزدق ٩٣، همع الهوامع ٢/٨١.

(٥)- يقول: لم أزرها لمحبة فيها، ولا لدين أطالبها به، وإنما زرتها لغير ذلك. والشاهد فيه تقدير اللام في (أن تكون)، ولذلك جرّ (دَيْن) عطفا على موضع المصدر المجرور. الكتاب ٣/٢٩، الإنصاف ١/٣٩٥.

(٦)- انظر الكتاب ٣/٢٨، ٢٩.

* ومن الواضح أن سيبويه يذكر الشاهد الواحد في أكثر من موضع، ويعبّر عنه بأكثر من طريقة تبعاً لما ينوي الاستدلال له؛ من ذلك قول زهير:

بدا ليَ أنّي لستُ مُدرِكَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

فقد استدل به على النيّة، (١) وعلى التوهّم(٢) وعلى تأكيد الأصل(٣)، على الرغم من التشابه إلى حدّ ما بين هذه الحالات لأنها تدخل كلّها فيما خرج على الأصل.

ك- الاتّســـاع:

عقد سيبويه في كتابه باباً سمّاه ‹‹باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى، لاتّساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار››(٤)، وهو خروج على الأصل على الرغم من أنّ هذا الخروج بما فيه من إيجاز واختصار وحذف يكسب الأسلوب جمالاً بالغاً.

* من ذلك ما استدلّ به سيبويه من قول النابغة الجعدي:

كأنَّ عَذِيْرَهم بجنوب سِلّى نعامٌ قاقَ في بلدٍ قِفار(٥)

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٢٩.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٣٠٦، ٣/٥١، ١٠٠، ٤/١٦٠.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/١٦٥، ٢/١٥٥.

(٤)- المصدر السابق ١/٢١١.

(٥)- العذير: الصوت، أو الحال. سلّى: ماء لبني ضبّة. قاق: صوّت. يذكر قوماً قد انهزموا، وأخذ منهم السلاح فجعلوا يصيحون صياح النعام. والشاهد فيه حذف المضاف من (نعامٌ) على سعة الكلام والإيجاز أي : عذير نعام. انظر الكتاب ١/٢١٤.

فالخبر في هذه الجملة ليس عيـن المبتدأ، ولهـذا كان الكلام على تقدير مضاف يتم به كون الخبر هو المبتدأ، وأصل الكلام: كأنّ عذيرهم عذيرُ نعام(١)

* ومنه كذلك استدلاله بقول أنس بن مدركة الخثعمي: (٢)

عزَمْتُ على إقامةِ ذي صباحٍ ... لشيءٍ ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسودُ(٣)

فقد جرّ (ذي صباح) بالإضافة، على الاتساع، والأصل أن تُنصب على الظرفية لسلامة المعنى الذي يريده الشاعر.(٤)

ل- الأمـر اللفظـي:

وهو الخروج على الأصل لأمر لا علاقة له بالمعنى، وإنّما يكون لأمور لفظية يفرضها واقع الشعر كالوزن والقافية والنطق.

* مـن ذلك ما ذكره سيبويه مِن زعم عيسى أنّ بعض العرب يُنشد بيت أبي الأسود الدؤلي:

---

(١)- انظر الإنصاف ١/٦٣-٦٤.

(٢)- خزانة الأدب ١/٤٧٦.

(٣)- أي عزمت على أن أقيم صباحا، وأؤخر الغارة على العدو إلى أن يعلو النهار، ثقة منيّ بقوتي وظفري بهم. فإنّ الذي يسوّده قومه لا يسوّدونه إلاّ لأمر عظيم، وخصلة عالية يلمسونها فيه، وهو جدير بالسيادة لذلك. وكان العرب يختارون الصباح للغارة، التماسا لغفلة العدوّ، فخالفهم الشاعر لاعتزازه بشجاعته. والشاهد فيه جرّ (ذي صباح) بالإضافة، اتّساعا ومجازا، والأصل فيه الظرفية. انظر الكتاب ١/٢٢٧.

(٤)- انظر في مثل ذلك المصدر السابق ١/٥٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ٢١٤، ٢١٥، ٣٣٧.

فألفَيْتُهُ غيرَ مُستعتِبٍ   ولا ذاكرِ اللهَ إلاّ قليلا(١)

فالأصل أن يقول (ذاكرٍ اللهَ) لكنّه خالف هذا الأصل، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ونصب ما بعده؛ ولعلّ ذلك جاء بداعٍ لفظي فرضه التقاء الساكنين.

* ومنه أيضاً ما أورده من الخروج على الأصل بمدّ الصوت؛ واستدلّ على ذلك بقول امرئ القيس:

قِفا نَبكِ مِن ذكرى حَبيبٍ ومنزلي   بِسقْطِ اللوى بينَ الدخولِ فَحَوْمَلِ(٢)

وذكر أنّ مخالفة الأصل تكون بإبدال النون بالمدّة، كما يفعل أهل الحجاز الذين يقولون:

يا أبَتا علَّكَ أوعساكَنْ(٣)

والأصل (أوعساكا)

* ومنه أن يَخرجوا على الأصل فيعاملوا القوافي معاملة الكلام الذي لا ترنّم فيه؛ كما سمع بعض العرب ينشدون بيت جرير:

أقِلّي اللوْمَ عاذِلَ والعِتابْ (٤)

---

(١)- يروى أنّ أبا الأسود أغرته امرأة بجمالها، وزعمت أنها حسنة التدبير، فتزوجها، فألفاها على غير ما ظنّه بها فهجاها. مستعتِب: أي راجع بالعتاب عن قبيح ما يفعل، يعني امرأته. والشاهد فيه: حذف التنوين من (ذاكر) لالتقاء الساكنين، ونصب ما بعده، وإن كان الوجه الإضافة. قال الشنتمري: ‹‹وفي حذف تنوينه لالتقاء الساكنين وجهان: أحدهما أن يشبّه بحذف النون الخفيفة إذا لقيها ساكن كقولك اضربَ الرجل، تريد اضربَنْ. والوجه الثاني: أن يشبّه بما حذف تنوينه من الأسماء الأعلام إذا وصف بابن مضاف إلى علم، كقولك رأيت زيدَ بنَ عمرو. وأحسن ما يكون حذف التنوين للضرورة في مثل هذا قولك: هذا زيدُ الطويلُ؛ لأنّ النعت والمنعوت كالشيء الواحد، فيشبه بالمضاف والمضاف إليه.›› الكتاب (حاشية) ١/١٦٩.

(٢)- الشاهد فيه: وصل اللام في حال الكسر بالياء للترنم، ومدّ الصوت (منزلي) الكتاب ٤/٢٠٥.

(٣)- الشاهد فيه: إبدال النون بالمدّة في (عساكن) والأصل (عساكا) الكتاب ٢/٣٧٥، ٤/٢٠٧.

(٤)- الشاهد فيه حذف الألف من (العتابا) حيث لم يرد المنشد أن يترنّم فوقف في الشعر على هذا المنصوب غير المنوّن بالسكون كما يقف عليه في الكلام. الكتاب ٤/٢٠٨.

ويظهر لنا أنّ الخروج على الأصل في الشعر جاء لأمور لفظية؛ لأنّ الشعر وُضع للغناء والترنّم، فألحقوا بكلّ حركةٍ ما يناسبها في الحروف؛ ولمّا لم يريدوا الترنّم أبدلوا مكان المدة نوناً، أو جعلوا القوافي كما لو كانت كلاماً بعيداً عن الشعر. (١)

م- مخالفـة السـماع:

الأصل في قواعد اللغة أنْ تكون مطابقة للسماع؛ لأنها أُخذتْ منه، وكلّ مخالفة لما سُمع من الشائع في لغة العرب هي مخالفة للأصل.

* من ذلك ما استدلّ به سيبويه من مخالفة الأصل فقد نقل لنا قول الراجز:(٢)

أَهَدموا بيتَكَ لا أبا لَكا وحسِبوا أنَّك لا أخا لَكا

وأنا أمشي الدَّألَى حوالَكا (٣)

وبيّن أنّ بعضهم استخدم (حوالك) مفردة، والمسموع عن العرب قولهم (حواليك) بالتثنية.(٤)

* ومن ذلك أنّ المسموع عن العرب قولهم (لا أبالك) وهو الأصل، ونقل لنا سيبويه مخالفة لهذا السماع من خلال قول مِسكين الدرامي:

وقد ماتَ شَمَّاخٌ وماتَ مُزَرِّدٌ وأيُّ كريمٍ لا أباكَ يُمتَّعُ (٥)

---

(١)- انظر الكتاب ٤/٢٠٦-٢٠٨، وانظر في مثل ذلك المصدر السابق ١/١٩٠، ١٩١، ٤/٢٠٦.

(٢)- انظر الحيوان ٩/١٢٨، لسان العرب (حول، دأل) همع الهوامع ١/١٤٥.

(٣)- الدألى: مشية فيها تثاقل، يقال: مرّ يدأل بحِمْله. والشاهد فيه (حوالكا) حيث جاء مفرداً، والمسموع فيه التثنية. الكتاب ١/٣٥١.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/٣٥١.

(٥)- مزرّد: أخو الشماخ، والشاهد فيه حذف اللام في (لا أباك) شذوذاً. الكتاب ٢/٢٧٩.

فقد حذفَ اللام في (لا أباكَ) على غير المسموع.(١)

ومخالفة الأصول بمخالفة المسموع من لغة العرب مردّه إلى بعض اللهجات التي لم يُكتب لها الذيوع والانتشار، أو كثرة التداول، والاستعمال وما يتركه من تأثير في بعض الألفاظ.

ن- نـزع الخافـــض:

ومن الخروج على الأصل أنْ يحذف حرف القسم؛ لأنّ الأصل أن يذكر حرف القسم قبل المقسم به، وينقل سيبويه عن الخليل الأصلَ بقوله: ‹‹وقال الخليل: إنّما تجيء بهذه الحروف؛ لأنّك تضيف حِلفَكَ إلى المحلوف به كما تضيف مررتُ به بالباء، إلاّ أنّ الفعل يجيء مضمراً في هذا الباب، والحلف توكيد.››(٢) ثم يسوق لنا شواهد على ما خرج على هذا الأصل بحذف حرف القسم، ونصب المقسم به على نزع الخافض؛ من ذلك قول ذي الرّمّة (٣)

ألا رُبَّ مَنْ قلبي له اللهَ ناصحٌ ۝ ومَن قلبُه لي في الظِّباء السوانِحِ (٤)

فقد انتصب لفظ الجلالة (الله) على نزع حرف الجر قبله والأصل أن يقول (باللهِ).(٥)

* ومنه قول الفرزدق:(٦)

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٢٧٩، وانظر كذلك ٢/٣٣٦، ٣٧٥، ٣/١٢١، ٢٧٦، ٥٦٨، ٥٨٨.

(٢)- المصدر السابق ٣/٤٩٨.

(٣)- ملحقات ديوان ذي الرّمّة ٦٦٤، وشرح المفصل ٩/١٠٣.

(٤)- السانح من الظباء: ما أخذ عن يمين الرامي فلم يمكنه رميه حتّى ينحرف له؛ فيتشاءم به. ومن العرب مَن يتيمّن به لأخذه في المياسر. والمعنى: ألا رُبّ من قلبي له بالله ناصح، أي أحلف بالله. والشاهد فيه: حذف حرف القسم، وهوالباء قبل لفظ الجلالة. الكتاب ٢/١٠٩، ٣/٤٩٨.

(٥)- انظر الكتاب ٣/٤٩٨.

(٦)- ديوان الفرزدق ٥١٦، وخزانة الأدب ٣/٦٧٢.

منّا الذي اختِيرَ الرِّجالَ سماحةً   وجوداً إذا هبَّ الرياحُ الزّعازعُ (١)

فقد نصب (الرجالَ) على نزع حرف الجر، والأصل: اختير من الرجال. (٢) واستدلال سيبويه على ما خرج على الأصل هو تأكيد على اهتمامه بهذا الجانب، أي جانب مخالفة الأصول، وذلك في أكثر من موضع من كتابه(٣)

س- الجـــــوار:

كما أشرنا في الفقرة السابقة فإنّ الصفة تتبع الموصوف، وهذا أصل ثابت، وقد يُخرج على الأصل؛ لأنّ الصفة جاورت المضاف إليه فلحقته بحركتها على خلاف الأصل، ويستدلّ سيبويه على ذلك بقول العجّاج:

كأنّ نَسْجَ العنكبوتِ المُرْمَلِ (٤)

فقد جاء لفظ (المُرْمَل) مجروراً لمجاورته لـ (العنكبوتِ) والأصل فيه أنه صفة لـ (نسجَ) وهو مطابق لها في الإفراد والتذكير، لكنّه جاء مجرورا لمجاورتـــه لـ (العنكبوت) على الرغم من أنـه مذكـر

---

(١)- يصف أباه بالجود عند شدة الزمان، وهبوب الزعازع، وهي الرياح الشديدة، واحدتها زعزع، وذلك زمن الشتاء ووقت الجدب. والشاهد فيه نصب (الرجال) على نزع الخافض؛ والأصل: اختير من الرجال. الكتاب ١/٣٩.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٣٩.

(٣)- انظر المصدر السابق: ١/٣٧، ٣٨، ٣/٤٩٨.

(٤)- المُرْمَل: المنسوج. والشاهد فيه قوله (المرمَل) فقد جاء مجرورا وهو صفه لنسج العنكبوتِ المنصوب لأنه اسم كأنّ، وإذا كان النعت لابدّ له من مطابقة المنعوت في حركاته الإعراب فمن المؤكّد انّ الكسرة التي في (المرمل) ليست الحركة الأصلية، بل هي خروج على الأصل، وقد جاءت الكسرة لمجاورتها اسما حركته الكسرة، وهو العنكبوت. انظر الكتاب ١/٤٣٧، الإنصاف ٢/٦٠٦.

والعنكبوت مؤنث.(١)

ع- عدم اللبس:

قد يُوقع اتباعُ الأصل في اللبس أحياناً، والخروج على الأصل يكون ابتعاداً عن هذا اللبس، ويستدل سيبويه على ذلك بقول النابغة الجَعْدي:(٢)

كأنَّ الغبارَ الذي غادَرَتْ   ضُحَيّاً دواخِنُ من تَنْضُبِ (٣)

الذي ذكر فيه (ضُحَيّ) تصغيراً لـ (ضُحَى) على غير الأصل؛ لأنّ الأصل أنْ يُصغِّرَهَا على (ضحيّة)، وتصغير (ضَحْوَة) يأتي على (ضحيّة) كذلك، وكي لا يُوقِعَ في اللبس بين تصغير (ضُحى) و(ضَحْوَة)؛ لأنّ القياس في تصغيرهما أن يقال (ضحيّة) خرج الشاعر على الأصل، وهذا ما أشار إليه سيبويه في هذا الموضوع، وفي غيره.(٤)

ف- التوهّم:

الأصل في المعطوف أن يتبع المعطوف عليه، وهذا الأصل ينطبق على الجمل المعطوفة؛ فالفعل المعطوف على فعل مجزوم يكون مجزوماً، وعدم الجزم هو خروج على الأصل، وهذا الخروج قد يكون

---

(١)- انظر الكتاب ٤٣٧/١.

(٢)- ديوان النابغة الجعدي ١٦، لسان العرب (دخن).

(٣)- يصف غباراً أثارته حوافر فرسه، فجعله كدخان التنضب في سطوعه وتكاثفه. والتنضب: شجر كثير الدخان، مفرده تنضبة. غادرت: تركته خلفها. والدواخن: جمع دخان على غير قياس والشاهد فيه: تصغير (ضُحَىً) على (ضُحَيّ)، والقياس ضحيّة بالهاء لأنها مؤنثة، إلاّ أنهم صغروها بدون هاء لئلا تلتبس بمصغّر (ضحوة) انظر الكتاب (حاشية) ٤٨٥/٣.

(٤)- انظر المصدر السابق ٤٨٥/٣، ٤٨٧، ٤٨٨.

على التوهّم، ويستدلّ سيبويه على ذلك بما نقله عن الخليل صاحب فكرة التوهّم عندما سئل عن قول الأعشى:(١)

إنْ تَركبوا فركوبُ الخيلِ عادتُنا   أو تَنزلونَ فإنّا معشرٌ نُزُلُ (٢)

فقد ذكر أنّ (تنزلون) معطوف على معنى إن تركبوا؛ لأن معناه: أتركبون فذاك عادتنا وهذا ما سميّ بعطف التوهم، وهو خروج على الأصل.(٣)

* ومنه أيضاً ما ذكره من قول زهير:

بدا ليَ أنّي لستُ مُدْرِكَ ما مضى   ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً (٤)

فقد جاءت (سابقٍ) مجرورة بتوهم دخول الباء الزائدة على المعطوف عليه (مدرك) وهذا خروج على الأصل الذي صرح به سيبويه وقال عنه:‹‹وهذه لغة رديئة، وإنما هو غلط››(٥)

ص- صرف الممنوع من الصرف:

الأصل أن يُمنع من الصرف بعض الأعلام، والصفات، والجموع(٦) ضمن قواعد مستنبطة من

---

(١)- ديوان الأعشى ٤٨، خزانة الأدب ٣/٦١٢، همع الهوامع ٢/٦٠.

(٢)- نُزُل: جمع نازل. وكانوا ينزلون عن الخيل عند ضيق المعركة فيقاتلون على أقدامهم. وفي ذلك الوقت يتداعون: نَزالِ. والشاهد فيه رفع (تنزلون) عطفاً على (إن تركبوا)، وهو المسمى عطف التوهم، لأنّ معناه أتركبون فذاك عادتنا، أو تنزلون في معظم الحرب فنحن معروفون بذلك. انظر الكتاب ٣/٥١.

(٣)- انظر المصدر السابق ٣/٥٠-٥١.

(٤)- الشاهد فيه جر (سابق) خطأ، وهو معطوف على (مدرك) بتوهم دخول الباء الزائدة عليه. انظر الكتاب ٤/١٦٠، وانظر ١/١٦٥، ٣٠٦، ٢/١٥٥، ٣/٢٩، ٥١، ١٠٠.

(٥)- انظر المصدر السابق ٤/١٦٠ وانظر ٢/٦٧، ٦٨، ٣٠٦.

(٦)- انظر النحو الوافي لعباس حسن ٤/٢٠٠ وما بعدها.

كلام العرب، وكلّ صرف للممنوع من الصرف هو خروج على الأصل؛ ويتكلّم سيبويه على كلمة (أذرعات) التي تمنع من الصرف لأنها علم المؤنث، ثم يستدل على ما خالف الأصل بقول امرئ القيس:(١)

تنوّرتُها مِن أذرعاتٍ، وأهلُها　　　　يثرِبَ، أدنى دارها نَظَرٌ عالِ (٢)

فقد صرف (أذرعاتٍ) على الرغم من أنّها علم مؤنث.(٣) خروجاً على الأصل.

* ومن ذلك ما أورده سيبويه من غير أنْ يصرح بأنه صرفٌ للممنوع من الصرف، ولكنه ذكر بيت أبي كبير الهذلي:(٤)

ممّا حَمَلْنَ بِه وهُنَّ عواقِـــدٌ　　　　حُبُكَ النِّطاقِ فعاشَ غيرَ مُهَبَّلِ (٥)

بتنوين (عواقدٌ)، وهذه الكلمة على صيغة منتهى الجموع، والأصل منعها من الصرف، لكنّها صُرِفَتْ لضرورة الوزن. وسيبويه وإن لم يُشِر إلى ذلك فإن استدلاله بهذا البيت له مدلوله؛ لأنه على دراية بكل ما يحيط بالمادة المستدلّ بها، وما فيها من معالجات نحوية.

---

(١)- ديوان امرئ القيس ٣١، المقتضب ٣/٣٣٣، ٤/٣٨، شرح المفصل ١/٤٧، ٩/٣٤.

(٢)- تنوّرتها: نظرت إلى نارها من بعيد. أذرعات: بلد في أطراف الشام يجاور البلقاء. يثرب: المدينة المنورة، أدنى دارها: أقرب مكان من أماكن ديارها. نظر عالٍ: أراد أنه يحتاج إلى نظر بعيد. والشاهد فيه: صرف (أذرعاتٍ) مع أنها علم مؤنث. وفي هذا البيت كلام كثير ووجوه مختلفة اختلاف الرواية. انظر الكتاب ٣/٢٣٣، أوضح المسالك ١/٥١.

(٣)- انظر الكتاب ٣/٢٣٣، ٢٣٤.

(٤)- ديوان الهذليين ٢/٩٢، خزانة الأدب ٣/٤٦٦، والإنصاف ٢/٤٨٩.

(٥)- حُبُك النطاق: تشدّه، واحدها حِباك. والنطاق: إزارٌ تشدّه المرأة في وسطها. شبّ: قوي وترعرع. المُهبَّل: المدعو عليه بالهبل وهو الثكل، أو هو المعتوه. والشاهد في البيت قوله: (عواقدٌ) وهي على صيغة منتهى الجموع، والأصل منعها من الصرف؛ ولكنها جاءت منصرفة لضرورة الوزن. وفي البيت وجوه متعددة في موضع الشاهد. انظر الكتاب ١/١٠٩، الإنصاف ٢/٤٨٩.

ق- الإلغاء:

والأصل في الأفعال أن تعمل، ومنها الأفعال المتعدية إلى مفعولين، ومجيء هذه الأفعال وهي ملغاة هو خروج على الأصل، وذلك بإبطال عملها لفظاً ومحلاً لضعف العامل بتوسطه، أو تأخره.

* من ذلك ما ذكره سيبويه باستدلاله بقول اللّعين يهجو العجّاج:

أبِالأراجيزِ يا بنَ اللؤم توعِدُني وفي الأراجيزِ خِلتُ اللؤمُ والخَوَرُ(١)

حيث ألغي عمل الفعل (خِلتُ) فجاء ما بعدها مرفوعاً بحسب الرواية التي اختارها سيبويه وهي الرواية التي تخدم ما يُريده، وهو الخروج على الأصل.

* ومن ذلك (كان) الناقصة، فالأصل أنها تدخل على الجملة الأسمية فترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وورودها على غير هذه الحال هو خروج على الأصل. وينقل سيبويه عن الخليل ما يشير إلى مخالفة الأصل بقوله: ‹‹وقال الخليل: إنّ مِن أفضلهم كان زيداً، على إلغاء كانَ، وشبّهه بقول الشاعر،، وهو الفرزدق:(٢)

فكيفَ إذا رأيتَ ديارَ قومٍ وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ ›› (٣)

---

(١)- الأراجيز: جمع أرجوزة وهي ما كان من الشعر من بحر الرجز. ويقال لما لم يكن من هذا البحر قصيدة توعدني: تهددني. والشاهد فيه قوله (وفي الأراجيز خِلتُ اللؤم) حيث توسط (خال) مع فاعله بين المبتدأ والخبر (في الأراجيز اللؤم) فلما توسط بينهما ألغي عمله فيهما، ولولا هذا التوسط لنصبهما. انظر الكتاب ١/١٢٠، أوضح المسالك ١/٣١٤.

(٢)- ديوان الفرزدق ٨٣٥، وخزانة الأدب ٤/٣٧.

(٣)- الشاهد فيه (وجيران لنا كانوا كرامِ) بإلغاء عمل كان، فقد ذهب سيبويه إلى زيادتها بين الصفة (كرام) والموصوف (جيران). وللنحاة آراء متعددة. انظر الكتاب ٢/١٥٣، أوضح المسالك ١/١٨٢.

فقد أُلغي عمل (كان) الواقعة بين الصفة (كرامٍ) والموصوف (جيرانٍ)، وهذا الإلغاء هو مخالفة للأصل في عمل (كان).(١)

ر- المشـــابهة:

الأصل في النداء أنّ أداته (يا) لا تدخل على ما فيه (أل)، وإذا أردنا نداء ما فيه (أل) استخدمنا معه لفظة (أيّها) فنقول: يا أيها الرجل. إلاّ إذا كان المنادى لفظ الجلالة (الله)، فإنه ينادى بـ (يا) مباشرة.

* ويذكر سيبويه أنه قد سُمع دخول (يا) على (التي) في قول الشاعر:(٢)

من أجلكِ يا التي تيَمْتِ قلبي ... وأنتِ بخيلةٌ بالودّ عنّي(٣)

وذلك لمشابهة (التي) بـ (الله) حيث جمع بين حرف النداء و (أل) خلافاً للأصل (٤)

* ومنه أيضاً منع صرف اسمٍ لشبهه بما لا ينصرف، ويستدل سيبويه على الخروج على الأصل هذا بقول الكُميت:(٥)

---

(١)- انظر الكتاب ١٥٣/٢.

(٢)- البيت من الخمسين، انظر الكتاب ١٩٧/٢، والإنصاف ٣٣٦/١، وهمع الهوامع ١٧٤/١.

(٣)- الشاهد فيه قوله (يا التي) حيث جمع حرف النداء وأل تشبيها بقولهم: ياالله للزوم الألف واللام لها، ضرورة، ولا يجوز ذلك في الكلام. انظر الكتاب ١٩٧/٢.

(٤)- انظر المصدر السابق ١٩٧/٢.

(٥)- المقتضب ٢٣٨/١، ٣٥٦/٣، واللسان (حمم) و(عرب).

وجدنا لكم في آلِ حاميمَ آيةً ‌‌ ‌‌ ‌‌ تأوّلها منّا تقيٌّ ومُعْرِبُ (١)

فقد منع (حاميم) من الصرف، وأراد بها السور التي أولها حم، لمشابهتها بالممنوع من الصرف للعلميّة، والعجمة نحو قابيل وهابيل، وهو خروج على الأصل(٢)

ش- الفصـــل:

الأصل أنْ لا يُفصل بين الجار والمجرور بفاصل لقبحه، ومنه الفصل بين (كم) الخبرية ومجرورها، فإذا كانَ الخروجُ على الأصل، وفُصِل بينهما فالأحسنُ نصب مجرورها على التمييز، ويستدل سيبويه على ذلك بقول زهير(٣)

تَؤُمّ سِناناً وكَمْ دونَـــهُ ‌‌ ‌‌ ‌‌ مِن الأرضِ مُحْدَوْدِباً غارُها (٤)

«والتقدير: كم محدودبٍ غارها دونه من الأرض، إلاّ أنه لمّا فَصل بينهما نصب (محدودباً)، وإن لم يقصد الاستفهام؛ لئلاً يفصل بين الجار والمجرور، وإنّما عدل إلى النصب، لأنّ (كم) تكون بمنزلة عدد ينصب ما بعده، ولم يمتنع النصب بالفصل كما امتنع الجر؛ (٥) لأنّ الفصل بين الناصب والمنصوب له

---

(١)- أراد بآل حاميم السورَ التي أولها (حم). والمعرب: الذي يفصح بما في نفسه، وبما يذهب إليه. والشاهد فيه: ترك صرف (حاميم) لشبهه بما لا ينصرف للعلمية والعجمة، نحو: هابيل وقابيل. انظر الكتاب (حاشية) ٣/٢٥٧.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣/٢٥٧.

(٣)- البيت لم يرد في ديوان زهير، ونسب إلى كعب ولده، وليس في ديوانه. انظر الكتاب ٢/١٦٤ والإحالات التي فيه.

(٤)- تؤم: تقصد. والغار: الغائر المطمئن من الأرض، وجعله محدودباً لما يتّصل به من الآكام، ومتون الأرض. والشاهد فيه الفصل بين (كم) وتمييزها، وهو (محدودبا) لقبح الفصل بين الجار والمجرور. انظر الكتاب ٢/١٦٥

(٥)- أي: وقد أجيز النصب في المجرور لوجود نظير له، وامتنع الجرّ لعدم وجود نظير.

نظيرٌ في كلام العرب، بخلاف الفصل بين الجار والمجرور؛ فإنه ليس له نظير في كلام العرب››(١)

* ومنه أيضاً أنّ الأصل ألاّ يفصل بين اسم العدد وتمييزه، والفصل بينهما خروج على الأصل، ويستدلّ سيبويه على ذلك بقول العباس بن مرداس: (٢)

على أنّني بعد ما قد مضى ثلاثون للهَجْرِ حَـوْلاً كَمِيلا

يذكِّرُنيكِ حَنِينُ العَجُـــول ونَوْحُ الحمامةِ تدعو هديلا(٣)

فقد فصل بين اسم العدد (ثلاثون)، وتمييزه (حولاً)، وهذا يقوّي ما أجازه سيبويه في (كم) من الفصل بينها، وبين تمييزها عوضاً عمّا منعته من التصرف في الكلام بالتقديم والتأخير، بسبب كونها أشبهت (كم) الاستفهامية فألزمت التصدير لذلك. وإن كان بين (كم) وبين اسم العدد فرق، فإنّ الثلاثين ونحوها من أسماء الأعداد لا تمتنع من التقديم والتأخير؛ لأنها لم تتضمّن معنى يوجب لها التصدير، فكان عملها في التمييز أوسع من عمل (كم)، وفي كلا الحالتين خروج على الأصل.(٤)

---

(١)- الإنصاف ٣٠٦/١.

(٢)- انظر الكتاب (حاشية) ١٥٨/٢، والإحالات التي فيه.

(٣)- الكميل: الكامل، يريد في البيت الأول: لم أنس عهدك على تطاول الزمن. العَجُول: الوالِهُ التي فقدت ولدها، لعجلتها في ذهابها، وجيئتها جزَعاً ؛ تقال للنساء، وللإبل. والهديل: صوت الحمامة، أو هو الفرخ الذي تزعم الأعراب أنّ جارحاً قد صاده في سفينة نوح؛ فليست من حمامة إلاّ وهي تبكي عليه. يقول: إذا حنّت والِهٌ من الإبل، أو ناحت حمامة رقّت نفسي فكنتُ منكِ على تذكار. والشاهد في البيت الأول؛ وهو الفصل بين (ثلاثين) و (حولاً) بالمجرور ضرورة. وهذا تقوية لجواز الفصل بين (كم) وتمييزها عوضاً لما منعته من التصرّف في الكلام بالتقديم والتأخير، فهي واجبة التقديم، وأمّا الثلاثون ونحوها، فلما لها من التصرف بالتقديم، والتأخير، وفقدان الصدارة وجب اتصال التمييز بها إلاّ في الضرورة. انظر الكتاب ١٥٨/٢-١٥٩، والإنصاف ٣٠٨/١.

(٤)- انظر الكتاب ١٥٦/٢- ١٥٨، والإنصاف (حاشية) ٣٠٨/١.

ت- نيابـــة اللفـــظ:

الأصل في الصفة أن تكون مشتقة لفظاً، أو تأويلاً، والمراد بالمشتق هنا: ما أُخذ من المصدر للدلالة على معنى، وصاحبه: كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة باسم الفاعل، وأفعل التفضيل. والمؤول بالمشتق، كاسم الإشارة، و (ذو)، والمنتسب.(١)

* ويستدل سيبويه بما خرج على الأصل، فناب لفظ مناب معنى هو صفة لما قبله، ذلك من خلال قول الأعشى :(٢)

لئِنْ كُنتَ في جُبٍّ ثمانِينَ قامةً ورُقِّيْتَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ (٣)

فقد ذكر أنّ (ثمانين) وردت صفة لـ (جبّ) لأنها نابت عن لفظ آخر وهو طويل، أو عميق(٤)، وهذا ما يفرضه سياق المعنى الذي يريده الشاعر.

ث- اختـلاف اللفظيـن:

الأصل أنْ لا يتكرّر حرفان لهما معنى واحد، وتكرارهما هو خروج على الأصل. وقد استدل سيبويه على ذلك بقول حُمَيْدٍ الأرقط:

فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مأكول (٥)

(١)- انظر أضواء على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك (المتن) ٣/١٤.

(٢)- ديوان الأعشى ٩٤، وشرح المفصل ٢/٧٤٠، لسان العرب (سبب).

(٣)-الجبّ: البئر. والقامة: مقدار طول الرجل. وأسباب السماوات: مراقيها أو نواحيها. والواو فيه بمعنى (أو). يتوعّد الشاعرُ يزيدَ بن مسهر الشيباني بالهجاء القاتل ويريد أنّه لا يُنجيك منّي البعد. والشاهد فيه أنه جعل (ثمانين) وصفاً لـ (جبّ)، لأنها نائبة مناب طويل وعميق. الكتاب ٢/٢٨.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٢٨.

(٥)- العصف: التبن، أو الزرع الذي أُكِل حبّه. والشاهد فيه إدخال (مثل) على الكاف لأنّ الكاف بمعنى مثل، والتقدير: مثل مثل عصف، وجاز التكرار لاختلاف اللفظين. الكتاب ١/٤٠٨.

فقد جاءت (مثل)، وتلتها (الكاف)، والكاف بمعنى مثل، فيكون قد تكرّر لفظان بمعنى واحد وجاز التكرار لاختلاف لفظيهما. (١)

٢- الاستدلال للأصول:

شغل الخروج على الأصل حيّزاً كبيراً في كتاب سيبويه، حتّى غدا اهتمامه هذا بارزاً في المحاور المتعددة لذلك الخروج. وهذا لا يعني أنه لم يتكلّم على الأصول، ويبيّن مناحيها. فقد شمل كتابه أصول النحو حتى صار قرآنه بما حواه من قواعد تفصيلية للغة العرب وكلامهم. وقد وظّف سيبويه حديثه عن الخروج على الأصول لخدمة الأصل نفسه، لأنّ الأصول لا تحتاج إلى تفصيل كبير، بل العكس صحيح، فهو يسهب في الكلام على ما خالف القواعد العربية وأصولها ليوضّح تلك القواعد ويزيدها بياناً.

* من الأصول أنّ الصفة تتبع الموصوف، ولا يصحّ أن تتقدم الصفة على موصوفها، وإذا تقدمت حَسُنَ نصبها على الحالية ، واستدلّ سيبويه على ذلك بقول ذي الرّمّة:(٢)

وتحت العوالي في القنا مستظِلّةً … ظِباءٌ أعارتْها العُيونَ الجآذِرُ (٣)

---

(١)- انظر الكتاب ١/٤٠٨.

(٢)- ديوان ذي الرّمّة ٢٥٤، شرح المفصل ٢/٦٤.

(٣)- عوالي القنا: صدورها. والقنا: الرماح، جمع قناة، والعرب تشبه النساء بالظّباء في طول الأعناق. والجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية. والشاعر يصف نسوة متبيّنٍ، قصِرنَ تحت عوالي الرماح وفي حوزتها. والشاهد فيه نصب (مستظِلّة) على الحال بعد أن كانت صفة للظباء متأخّرة، فلما صارت متقدمة امتنع أن تكون نعتاً، لأنّ النعت لا يتقدم على منعوته انظر الكتاب ٢/١٢٣.

وأصل الكلام: في القنا ظباء مستظِلَّة، على أنّ (مستظلّة) صفة للاظباء) ولما كانت الصفة تتبع الموصوف، ولا تتقدمه، فقد نصب (مستظلّةً) على أنها حال، وهو بذلك يؤكّد أصلاً نحويا ويستدلّ له(١)

* ومن الأصول أن المفعول له هو <<ما ينتصب من المصادر لأنّه عذر لوقوع الأمرِ، فانتصب لأنه موقوع له، ولأنه تفسير لما قبله لِمَ كان؟ وليس بصفةٍ لما قبله، ولا منه>>(٢) فبعد أن سرد صاحب الكتاب هذا الأصل أكدّه بأبيات وفيرة، منها قول الحارث بن هشام:

فصفحْتُ عنهُمْ والأحبّةُ فيهم ... طمَعاً لهم بعقابِ يومٍ مُفْسِدِ (٣)

فقد نصب (طمعاً) على المفعول له، <<كأنه قيل له: لِمَ فعلتَ كذا وكذا، فقال: لِكذا وكذا>>(٤)

* ومنه أنّ ضمير النصب المنفصل يوضع في الموضع الذي لا يُستطاع فيه استخدام الضمير المتصل، وقد ذكر سيبويه هذا الأصل بقوله: <<اعلم أنّ علامة المضمرِين المنصوبينَ (إيّا)، ما لم تقدر على (الكاف) التي في رأيتُكَ، و(كُما) التي في رأيتُكما، و(كُمْ) التي في رأيتكم، و(كُنَّ) التي في رأيتُكُنَّ، و(الهاء) التي في رأيتُه، و(الهاء) التي رأيتُها، و(هُما) التي في رأيتُهما، و(هُمْ) التي في رأيتُهم، و(هُنَّ) التي في رأيتُهنّ، و(ني) التي في رأيتَني، و(نا) التي في رأيتنا. فإنْ قدرتَ على شيء من هذه الحروف في موضع لم توقع (إيّا) ذلك الموضع لأنّهم استغنوا بها عن (إيّا)، كما استغنوا بالتاء وأخواتها في الرفع عن

---

(١)- انظر الكتاب ٢/١٢٢.

(٢)- المصدر السابق ١/٣٦٧.

(٣)- يعتذر من فراره يوم بدر، بعد أنْ قُتِلَ أخوه أبو جهل، ولم يأخذ بثأره. وقوله: عنهم، أي عن اعدائه. يقول: لم يترك القتالَ جُبناً، ولم يعفُ عنهم ويصفح إلاّ طمعاً في أن يعدّ لهم، ويعاقبهم بيوم يوقع بهم فيه فيفسد أحوالهم. والشاهد فيه نصب (طمعاً) على المفعول له. الكتاب ١/٣٦٩.

(٤)- المصدر السابق ١/٣٦٩.

(أنتَ) وأخواتها.›› (١) ثم يستدلّ على الأصل بقول الشاعر: (٢)

مُبَرَّأً مِن عُيوبِ الناسِ كلِّهِمِ   فاللهُ يَرْعى أبا حَرْبٍ وإيَّانا(٣)

فقد استخدم الضمير المنفصل (إيّانا) في موضع لا يقدر فيه على استخدام الضمير المتصل (نا) في نحو (رأيتنا) (٤) ومثل ذلك؛ أي الاستدلال للأصول كثير في الكتاب.(٥)

٣- الاستـــدلال لأكثر من وجـــه:

كان غاية سيبويه إتمام ما رسمه النحاة الذين سبقوه من قواعد لِلُغَةِ العرب، لذلك فهو يعطي البيت الشعري كلَّ الوجوه المحتملة لتخريجه. فإذا رُوي البيت بأوجه مختلفة فإنّه يبيّن وجوهها، وإن لم يكن له إلا رواية واحدة فإنه يشير إلى احتمالات أخرى لو كان الشاعر قد ذكرها لجاز له ذلك.

* من ذلك ما نقله لنا عن قول عمرو بن معدِ يكرب:

الحربُ أوّلُ ما تكون فُتَيَّةٌ   تَسْعى ببزَّتِها لكلِّ جَهول (٦)

---

(١)- الكتاب ٢/٣٥٥-٣٥٦.

(٢)- الشاهد من الخمسين. انظر شرح المفصل ٣/٧٥، وهمع الهوامع ١/٦٣.

(٣)- الشاهد فيه استعمال (إيّانا) الضمير المنفصل حيث لم يقدر على المتصل. الكتاب ٢/٣٥٦.

(٤)- أنظر المصدر السابق ٢/٣٥٦.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٥٦، ٧٨، ٧٩، ١٢٩، ١٥١، ١٥٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٨٩، ١٩٠، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٢/١٦، ١٢٣، ١٦٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٨٥، ٢٩٩، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣/١٨، ٣٢، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٥٧، ١٣١، ٣٦٠، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥٨٩، ٤/٢٢٥.

(٦)- فُتَيّة: تصغير فتاة، والبِزّة: اللباس، وأصلها من بززت الرجل بزّاً: سلبته، ثم سمّيت بما تؤول إليه من السلب في الحرب ونحوها. يعني أنّ الحرب تغرُّ من لم يُجرّبْها حتّى يدخل فيها فتهلكه، فهي تبدأ صغيرة ثم تذكو، ويشتدّ ضرامها. والشاهد فيه: رفع (أوّلُ)، ونصب (فُتَيّة)، والعكس، ورفعهما جميعاً، ونصبهما على تقديرات مختلفة. فتقدير الأول: الحرب أوّل أحوالها إذا كانت فُتيّة، ففُتيّة فيه حالٌ ناب مناب الخبر للمبتدأ الثاني. وتقدير الثاني: الحربُ في أوّل أحوالها فُتَيّةٌ، فـ(أوّلَ) نصب على الظرفية. وتقدير الثالث والرابع أوضحهما سيبويه. انظر الكتاب (حاشية) ١/٤٠١-٤٠٢.

ثم شرع يبيّن الوجوه المحتملة، موضّحا كلّ وجه منها بقوله: ‹‹وبعضُهم يقول:

الحربُ أوّلَ ما تكون فَتِيّةً

أي إذا كانت في ذلك الحين. وبعضهم يقول:

الحربُ أولُ ما تكون فَتِيّةً

كأنه قال: الحرب أوّلُ أحوالها إذا كانت فتيّةً، كما تقول: عبد الله أحسنُ ما يكون قائماً. ومن رفع (الفَتِيَّةَ) ونصب الأوّل على الحال قال: البُرُّ أرخصَ ما يكون قفيزان. ومن نصَبَ (الفَتِيَّةَ) ورفع الأوّل قال: البُرُّ أرخصُ ما يكون قفيزين.››(١)

* ومنه ما ذكره في باب (كَمْ) وجوازات الاسم الواقع بعدها، واستدل بقول أنس بن زنيم:(٢)

كم بجودٍ مقرفٌ نال العلا وكريمٌ بُخْلُه قد وضَعَهْ (٣)

---

(١)- في قوله (البُرُّ أرخصُ ما يكون قفيزين) إشارة إلى مثال نثري سابق تناوله بالمقارنة مع قول عمرو بن معد يكرب. انظر الكتاب ٤٠١/١-٤٠٢.

(٢)- ويُنسب لعبد الله بن كريز، وأبي الأسود. انظر الكتاب (حاشية) ١٦٧/٢.

(٣)- المقرف: النذل اللئيم الأب، أي أنّه قد يرتفع اللئيم بجوده، ويتّضع الكريم الأب بسبب بخله. والشاهد فيه قوله: كم بجود مقرف نال العلا. ذ (كم) في هذا البيت خبرية تدلّ على التكثير، كأنّك قلت: كثير من المقرفين نالوا العلا بسبب جودهم، وكثير من الذين لهم آباء كرماء قد اتّضع حالهم بسبب بخلهم. والبيت يروى بثلاثة أوجه: الرفع والنصب والجرّ، فرواية الرفع(مقرفٌ) تكون فيها (كم) ظرفاً متعلقاً بقول (نال)، ويكون (مقرف) مبتدأ، وجملة (نال العلا) في محل رفع خبر المبتدأ، وكأنّه قال: مقرف نال العلا في أزمن كثيرة بسبب جوده. وأمّا رواية النصب فعلى أن تكون (مقرفاً) تمييزاً لـ (كم) الخبرية، وإنّما نصب للفصل بينه وبينها. وأمّا رواية الجرّ فعلى أن تجعل (مقرفٍ) بالجر تمييزاً لـ(كم) الخبرية على أصله، ولا تعتدّ بالفاصل بينهما، وكم على وجهي الجر والنصب مبتدأ، وجملة (نال العلا) في محل رفع خبره. انظر الكتاب (حاشية) ١٦٧/٢، الإنصاف ٣٠٣/١- ٣٠٤، النحو الوافي ٥٦٩/٤- ٥٧٠.

وأشار إلى جواز ثلاثة أوجه في (مقرف)، الأول منها الرفع على أن تكون مبتدأ، وتكون (كم) ظرفاً متعلقاً بـ(نال)، وخبر (مقرف) هو نال العُلا، والثاني النصب على التمييز لـ (كم) الخبرية، والثالث الجرُّ بالإضافة على الرغم من وجود الفاصل (بجود)(١)

هذان المثالان يوضّحان غاية سيبويه من استدلاله بأكثر من وجه، فهو كثيراً ما يحيط بالقاعدة النحويـة، ويحاول إشباعها درسـاً وتمحيصاً ليبيّن كلَّ الوجوه المحتملة. ومثل ذلك كثير جـداً في الكتاب. (٢)

٤- بيان اللهجات :

حاول سيبويه في كتابه إضافة إلى تقعيد اللغة أن يرسم خارطة لغوية للهجات العرب، فهو يشير في مواضع متعددة إلى القبائل العربية ولهجاتها، ومرات كثيرة يشير إلى أسماء البلدان والمواضع ونحوها سواء أكان استدلاله بالشعر، أم بالنثر، أم بالقرآن الكريم، وقراءاته؛ فقد أشار إلى (أسد) ستّ عشرة مرّة(٣) وإلى أهل الحجاز أربعاً وخمسين مرّة، (٤) ومثل ذلك كثير في الكتاب.

---

(١)- انظر الكتاب ٢/١٦٦-١٦٧، والإنصاف ١/٣٠٣- ٣٠٤ المسألة ٤١.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٧٢، ١٤٦، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٨٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٣٢، ٤٣٣، ٢/٦٢، ٦٤، ٧٠، ٧٣، ٧٥، ٨٤، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٥، ١٦٧، ٢٩١، ٢٩٢، ٣١٢، ٣٥٨، ٣/١٤، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٧، ٤٨، ٥٤، ٧٠، ٨٥، ٨٦، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤، ٢٤١، ٢٦٠، ٢٧٩، ٢٩٦، ٣٦٠، ٣٦٥.

(٣)- انظر الكتاب:١/٤٧، ٣٤٣، ٢/٤٥، ١٤٩، ٣/٦٥، ٨٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٥٣٣، ٤/١٢٥، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٦، ١٩٩، ٢١١، ٢١٤.

(٤)- انظر المصدر السابق: ١/٥٧، ٥٩، ٧١، ٨٣، ١٢٢، ١٤٦، ٣٧٣، ٣٨٥، ٢/٢٧٦، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢١، ٤١٣، ٣/٢٥، ٢٦، ٢٧٨، ٢٨٣، ٣٧٣، ٣٨٧، ٥٢٦، ٥٣٠، ٥٣٢، ٥٣٥، ٥٤٢، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٥، ٥٥٧، ٥٥٩، ٤/٩٠، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٥٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٢٠، ٢٥٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤٣٢، ٤٥٧، ٤٧٣.

* من استدلاله بالشعر لبيان لهجة ما ذكره لهجة ما ذكره في الاستثناء المنقطع، وأطلق عليه «هذا بابٌ يُختار فيه النصبُ لأنَّ الآخِر ليس من نوع الأول»(١) وذكر أنّ أهل الحجاز يقولون: ما فيها أحدٌ إلاّ حماراً، على معنى (ولكنّ حماراً) كراهةَ أنْ يبدلوا الآخِرَ من الأول، فيصيرَ كأنّه من نوعه، فحُمِل على معنى (ولكنّ)، ثم ذكر أنّ بني تميم يقولون: لا أحدَ فيها إلاّ حمارٌ، أرادوا ليس فيها إلاّ حمارٌ، ولكنه ذكر أحداً توكيداً؛ لأنْ يعلم أنْ ليس فيها آدميٌّ، ثم أبدل فكأنه قال: ليس فيها إلاّ حمارٌ(٢)، ويتابع سيبويه حديثه موضحا رأي أهل الحجاز تارة، ورأي بني تميم تارة أخرى ويستدلّ على آرائهم بالشعر كقول أبي ذؤيب الهذلي:

فإنْ تُمْسِ في قَبْرٍ بِرَهْوَةَ ثاوياً ... أنِيسُكَ أصداءُ القُبورِ تَصيحُ (٣)

وبإنشاد بني تميم كقول النابغة الذبياني:

يا دار ميّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأبَدِ(٤)

وَقفتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْعِ مِنْ أحَدِ(٥)

---

(١)- الكتاب ٣١٩/٢.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣١٩/٢-٣٢٠.

(٣)- يرثي الشاعر رجلاً يدعى (نشيبة). ثاويا: مقيما. والأصداء: جمع صدى، وهو طائر يقال له الهامة، تزعم الأعراب أنّه يخرج من رأس القتيل إذا لم يدرك بثأره فيصيح: اسقوني اسقوني! حتّى يثأر به. والشاهد في جعله الأصداء أنيس المرثي، اتّساعاً ومجازاً، لأنها تقوم في استقرارها بالمكان وعمارتها له مقام الأناسي. وهو تقوية لمذهب تميم في إبدال ما لا يعقل ممّن يعقل، فيجعلون (ما في الدار أحدٌ إلاّ حمارٌ) بمنزلة (ما في الدار أحدٌ إلاّ فلان). والنصب في مثل هذا أجود لأنه استثناء منقطع، وهو لغة الحجازيين . انظر الكتاب (حاشية) ٣٢٠/٢.

(٤)- العلياء والسند: موضعان. أقوت: خلتْ من أهلها. انظر الكتاب ٣٢١/٢.

(٥)- أصيلان: مصغّر أصيل شذوذاً، أو هو مصغّر أُصلان بالضم، وهذا جمع أصيل، أو هو مفرد كرُتان، وقُربان. والأصيل: العشيّ. عيّت: عجزت ولم تستطع الجواب، و(جوابا) تمييزٌ منقول من عيَّ جوابُها على المجاز. انظر الكتاب (حاشية) ٣١٢/٢.

إلاّ أواريُّ لأياً ما أُبيِّنُها   والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ(١)

وإظهار لغة أهل الحجاز الذين ينصبون (إلاّ أواريَّ)، ومنه قول النابغة الذبياني أيضاً:

حَلفتَ يميناً غيرَ ذي مَثْنوِيَّةٍ   ولا عِلْمَ إلاّ حُسْنَ ظنٍّ بصاحبِ(٢)

الذي أظهر من خلاله لغة بني تميم الذين يرفعون (حُسْنُ) على البدلية من موضع (علم) . ومنه قول ابن الأيهم التغلبي:

ليس بيني وبينَ قَيْسٍ عتابُ   غيرُ طَعْنِ الكُلَى وضَرْبِ الرِّقابِ(٣)

وقول عمرو بن معد يكرب:

وخيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ   تحيّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجيْعُ(٤)

(١)- الأواريّ: محابس الخيل، واحدها آري، وهو من تأرّيتُ بالمكان : تحبستُ به. لأياً: بطئاً،ومعناه: أبينها بعد لأي لتغيّرها. والنؤي: حاجز حول الخباء يدفع عنه الماء، من نأى: بَعُدَ. وشبّهه في استدارته بالحوض. والمظلومة: أرض حفر فيها الحوض لغير إقامة، لأنها في فلاة، فظلمت لذلك، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على أنّ حفر الحوض لم يُعمَّق، فذلك أشبه للنؤي به. والجَلَد: الصلبة، ولذا لم يتيسّر تعميق الحفر. والشاهد فيه رفع (أواريّ) على البدل من الموضع، والتقدير: ما بالربع أحد إلاّ أواري، على اعتبارها من جنس الأحدين اتّساعاً ومجازاً. انظر الكتاب (حاشية)٢/٣٢١.

(٢)- المثنوية: الاستثناء في اليمين، اي يميناً قاطعة لا يقول الحالف فيها: إلاّ أن يشاء الله غيره، أو نحو ذلك . يقول: حُسْنُ ظنيّ بصاحبي وثقتي به يقوم مقام العلم. والشاهد فيه نصب (حُسْنَ) على الاستثناء المنقطع، لأن حُسنَ الظنّ ليس من العلم. ورفع (حسن ظنّ) على البدل من موضع (عِلْم) جائز كأنه أقام الظنّ مقام العلم اتّساعاً ومجازاً. انظر الكتاب (حاشية) ٢/٣٢٢.

(٣)- قيل هذا البيت لما كان بين تغلب وقيس من عداوة وحرب. والشاهد فيه رفع (غيرُ) على البدل من (عتاب) وجعل الطعن والضرب من العتاب اتساعاً ومجازاً، وأهل الحجاز ينصبون (غيرَ) انظر الكتاب ٢/٣٢٣ والحاشية.

(٤)- الخيل: الفرسان. دلفتُ: زحفتُ. وجيع: موجع. يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الوجيع بدلاً من تحية بعضهم لبعض. والشاهد فيه جعل الضرب تحيةً على الاتّساع والمجاز. وذكر سيبويه هذا تقوية لجواز البدل فيما لم يكن من جنس الأول حقيقة. انظر الكتاب حاشية ٢/٣٢٣.

وقول الحارث بن عبّاد:

والحرْبُ لا يبقى لِجَا م حِمِها التخيُّلُ والمِراحُ (١)

إلاّ الفتى الصبّارُ في النَّـــــجَدَاتِ والفَـرَسُ الوَقاحُ (٢)

فقد استدل بلغة بني تميم في جواز إبدال (الفتى) من (التخيُّلُ). ومنه قول الحارث أيضاً:

لم يغْذُها الرِّسْلُ ولا أيْسارُها إلاّ طرِيُّ اللحْمِ واستجزارُها (٣)

ومنه استدلاله بقول جران العود:

وبلدةٍ ليس بهــــا أنيسُ إلاّ اليعافيــرُ وإلا العيسُ (٤)

فقد رفع (اليعافير، والعيس) على أنّها بدلٌ من (الأنيس) وهي لهجة بني تميم.

* ومنه ما ذكره في ‹‹باب بدل المعرفة من النكرة، والمعرفة من المعرفة، وقطع المعرفة من المعرفة مبتداةً››(٥)

---

(١)- جاحِم الحرب: معظمها وأشدّها. لجاحِمِها: أي بسبب جاحمها أو عند جاحمها. التخيّل: الخيلاء والتكبّر. والمِراح بالكسر: المرح واللعب.

(٢)- الصبّار: الشديد الصبر. والنجدات: جمع نجدة، وهي الشدة. الوقاح، كسَحَاب: الصلب الحافر، وإذا صلُب حافره صلُب سائره. والشاهد فيه إبدال (الفتى) من (التخيّل والمِراح) على الاتساع والمجاز وهي لغة لبني تميم. انظر الكتاب ٣٢٤/٢ والحاشية.

(٣)- يصف الشاعر امرأة منعمة تتغذّى طريّ اللحم ممّا تستجْزِرُ لنفسها من مالها. ونفى عنها التغذّي بالرِّسْل، وهو اللبن؛ لأنه غذاء من لا يقدر على اللحم من المحتاجين، كما نفى أنْ يكون غذاؤها لحمَ الأيسار، وهو جمع يَسَرٌ بالتحريك، وياسر، وهو الضارب بقداح الميسر. ولحم الميسر كانوا يطعمونه ضعفاء الحيّ ومساكين الجيران. والشاهد فيه إبدال (طريّ) من (الرِّسْل) وإنْ لم يكن من جنسه اتّساعاً ومجازاً. انظر الكتاب (الحاشية) ٣٢٤/٢.

(٤)- اليعافير: جمع يُعْفور، وهو الظبي الذي لونه لون العفر، وهو التراب، والعيس: جمع أعيس، وعيساء، وأصلها الإبل لكنّه أراد بقر الوحش، والشاهد فيه قوله: إلا اليعافيرُ وإلاّ العيسُ، حيث رفع ما بعد إلاّ على البدل ممّا قبلها مع أنّ (اليعافير والعيس) ليسا من جنس الأنيس في الأصل ولكنّه توسّع فجعلهما من جنسه. انظر الكتاب ٣٢٢/٢، والإنصاف ٢٧١/١.

(٥)- الكتاب ١٤/٢.

فقد أشار إلى لهجة الهذليّين من خلال استدلاله بقول مالك بن خُويلد الخُناعي:

يامَيَّ إنْ تفقدِي قومــاً وَلدتِهِم ... أو تُخْلَسِيهِمْ فإنَّ الدَّهْرَ خلاَّسُ

عمروٌ وعبدُ مَنافٍ والذي عَهِدَتْ ... بِبَطْنِ عَرْعَرَ آبِي الضَّيْمِ عَبَّاسُ (١)

فقد قطع (عمرو)، وما عُطف عليه ممّا قبله، ورفعه على الابتداء، ولو نصب (عمرو) على أنها بدل من (قوماً) لجاز(٢)

وتعرّض سيبويه لبيان اللهجات في كتابه كلّه واضح بيّنٌ، سواء أكان ذلك في القرآن الكريم والقراءات، أم الشعر، أم النثر(٣)

٥- الاستدلال للجيّد:

كان الهدف من تقعيد اللغة العربية إيجادَ الأسس التي تربط عناصرها، لذلك بحث سيبويه وغيره من النحاة عن الشائع من لغة العرب، والقليل، والنادر، والقبيح، والحسن، وغير ذلك من المصطلحات، ولعلّ الجيّد عند النحاة هو ما وافق لغة الكثرة، وشاع، وانتشر على لسانهم، والقبيح ما نطقت به قلّةٌ من العرب، إذن فالاستدلال للجيّد هو معيار سليم للغة العرب وبيان لِمَا شاع منها حتّى صار أصلاً استُمدّتْ منه قواعد اللغة العربية.

---

(١)- تُخلسيهم: أي يؤخذون منك بغتة، فإنّ الدهر من دأبه أنْ يؤخذ فيه الشيء بغتةً وفجاة. وعمرو: هو عمرو بن عبد مناف بن قصي. الذي عهدتْ، أي الذي عهدتِه، فهو من قبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. وعرعر: جبل في بلاد هذيل. والعباس هو ابن عبد المطلب القرشي. وبين هذيل وقريش قرابة في النسب، والدار. والشاهد فيه قطع (عمرو) وما بعده مما قبله،ورفعه على الابتداء. ولو نصب على البدلية من (قوما) لجاز. انظر الكتاب (حاشية) ٢/١٥.

(٢)- انظر المصدر السابق ٢/١٥-١٦.

(٣)- انظر استدلال سيبويه بالشعر لبيان اللهجات، الكتاب ١/٣١٩، ٣٢٠، ٢/١٥، ٢٠، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣/٦٢، ٨٧، ٣٠٦، ٣٤١، ٥٠٣، ٤/١١٤، ١١٦، ١٤٦،١٤٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٨٠،١٨٢، ١٨٨.

* من ذلك ما ذكره في <<باب ما يُضمَر فيه الفعلُ المستعمَل إظهارُه بعد حرفٍ>> (١) من نصب الاسم بإضمار فعل يقتضيه الشرط تقديره (كان)، واستدلّ على ذلك بقول ابن همّام السّلولي:

وأحضرتُ عُذْري، عليه الشهو   دُ ، إنْ عاذراً لي، وإنْ تاركاً (٢)

على تقدير: إنْ كان عاذراً لي، وإن كان تاركاً. وعدّ النصب جيداً(٣) وقد قارن ذلك بلغة من يرفع الاسم بدلاً من نصبه مضعّفاً لغة من رفع بقوله: <<وزعم يونس أنّ العرب تُنشِدُ هذا البيت لِهُدْبَة بنِ خَشْرَمٍ:

فإنْ تَكُ في أموالنا لا نَضِقْ بها   ذراعاً، وإنْ صَبْرٌ فنَصْبِرُ للصَّبْرِ (٤)

والنصب فيه جيّد>> (٥) أي أنه لو نصب (صبرٌ) لكان أجود.

* ومنه أنّ الأصل في اسم (إنّ) أن يكون معرفة، وخبرها قد يكون معرفة أو نكرة، فإذا جاء اسمها نكرة فالجيّد أنْ يكون خبرها نكرة أيضاً، وقد استدل سيبويه على ذلك بقول امرئ القيس:

---

(١)- الكتاب ١/٢٥٨.

(٢)- يخاطب الأمير مستشهداً على براءته. والشاهد فيه نصب (عاذراً) بعد (إنْ) بكان المحذوفة مع اسمها. الكتاب ١/٢٦٢.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٢٦٠.

(٤)- يقول: إنْ طولبنا بديته لم نضق بها ذراعاً، ولم تعجز أموالنا عنها، وإنْ أوجبوا علينا الثأر والقتل صبرنا لذلك والشاهد فيه رفع (صبرٌ) بعد إنْ بتقدير: وإن وقع صبرٌ، أو إنْ كان فينا صبرٌ فإنّا نصبر. والنصب أجود. الكتاب ١/٢٥٩-٢٦٠.

(٥)- المصدر السابق ١/٢٦٠.

وإنّ شـفاءً عَبـْرَةٌ مُهـَرَاقَـةٌ   فهل عند رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ (١)

وتنكير اسم إنّ (شفاءً) حَسَنٌ لأنّ خبرها (عبرةٌ) نكرة (٢) ومثل ذلك كثير في الكتاب (٣)

٦- الاستدلال للقليل:

لعلّ حرصَ سيبويه على الاستدلال للقليل هو دليل على رغبته بالإحاطة بلغة العرب ما قلّ منها وما كثر، وما حسن وما قبح؛ لذلك نراه يستدل للقليل، ويشير إلى قلّة تداوله بين قبائل العرب.

* من ذلك أنّ بعض العرب يجعلون (ليس) غير عاملة مثل (ما) حين يتقدم معمول الفعل كقول حُمَيْد الأرقَط:

فأصبحوا والنَّوى عالي مُعَرَّسِهِمْ   وليس كلَّ النوى تُلْقِي المساكينُ (٤)

بنصب (كلَّ) على أنّها مفعول به لـ (يلقي)، ولا يجوز أن تعمل (ليس) على أنها فعل ناقص إذا كانت

---

(١)- العبرة: الدمعة. والمُهَراقة: المصبوبة. والرسم: ما بقي من آثار الدار لاصقاً بالأرض. والدارس: البالي. والمعوّل: التعويل والاتكال؛ أو هو من العويل بمعنى البكاء. يقول: بكاؤه يشفي من لوعة الأسى، ولكنه قليل النفع والجدوى، ولن يردّ ما فاته من فقد الأحبّة. والشاهد فيه نصب (شفاء) اسماً لأنّ، مع تنكيرها؛ لأنّ الخبر نكرة مثلها. وهو أحسن من أن يكون الاسم نكرة، والخبر معرفة في نحو : إنّ قريباً منك زيد. انظر الكتاب (حاشية) ٢/١٤٢-١٤٣.

(٢)- انظر المصدر السابق ٢/١٤٣.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/١٨٥، ١٩٥، ١٩٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٦، ٢٧٨، ٣٢١، ٣٩٩، ٢/١٧، ٣٧، ٦٤، ١٤٢، ٣٠٤، ٣/٦٢، ٨٩، ٤/٦٣، ٦٥.

(٤)- يصف أضيافاً جياعاً نزلوا به. المعرَّس: المنزل الذي ينزل فيه المسافر آخر الليل. يقول: أكلوا كثيراً من التمر، وألقوا قليلاً من النوى؛ لأنّهم لجوعهم لم يلقوا إلاّ بعضه. والشاهد فيه أنّ (ليس) مثل (ما). انظر الكتاب ١/٧٠، ١٤٧.

(كلاً) منصوبة. ووصف سيبويه هذه اللغة بقوله: <<وقد زعم بعضهم أنّ ليس تُجعَل كـ (ما)، وذلك قليل لا يكاد يُعرف، فهذا يجوز أن يكون منه: ليس خَلَقَ اللهُ أشعَرَ منه، وليس قالها زيدٌ.>>(١) وقال: <<فلو كان (كلّ) على ليس ولا إضمار فيه لم يكن إلاّ الرفع في (كلّ)، ولكنّه انتصبَ على تُلْقى.>>(٢)

* ومن ذلك أن بعض بني تميم يمنعون (أمس) من الصرف، وقد ذكر سيبويه ذلك واستدلّ بقول الشاعر :

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أمْسَا عجائزاً مثلَ السعالي خَمْسَاً (٣)

وبيّن أنّه قليل، لأنّ من خصائص (مُذْ) أنها ترفع وتجرّ، وأمس جاءت مجرورة بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف.(٤)

* ومنه أنّ علامةَ جزم الفعل المضارع المعتل الآخر حذفُ حرف العلة، ويرى سيبويه أنّ قلّة من العرب يجعلون علامة جزم المعتل السكونَ، ويستدل على ذلك ببيت لقيس بن زهير:(٥)

ألم يأتيْكَ والأنباءُ تَنْمي بما لاقَتْ لَبُونُ بني زيادِ (٦)

---

(١)- الكتاب ١٤٧/١.

(٢)- المصدر السابق ٧٠/١.

(٣)- العجائز: جمع عجوز، والسعلاة: أنثى الغول ، أو ساحرة الجن. والشاهد فيه (مذ أمسا) حيث جاء مجروراً بالفتحة نيابة عن الكسرة، فدلّ على ان قلّة من العرب يعاملون هذا اللفظ معاملة الاسم الممنوع من الصرف. وهناك آراء أخرى مردود عليها. انظر الكتاب ٢٨٤/٣-٢٨٥، وأوضح المسالك ١٥٤/٣.

(٤)- انظر الكتاب ٢٨٥/٣.

(٥)- انظر الخصائص ٣٣٣/١، والمحتسب ٦٧/١، ١٩٦، ٢١٥، والإنصاف ٣٠/١.

(٦)- اللبون من الشاء والإبل: ذات اللبن. وبنو زياد هم أولاد سفيان العبسي، وأمّهم فاطمة بنت الخرشب وللبيت ومناسبته قصة مذكورة. والشاهد فيه: إسكان الياء، وعدم حذفها في (يأتيك) في الجزم. حملاً لها على الصحيح. وهي لغة لبعض العرب يجرون المعتل مجرى السالم في جميع أحواله، فاستعملها هنا للضرورة. انظر الكتاب ٣١٦/٣، والإنصاف ٣٠/١.

بإثبات الياء في (ألم يأتيك)، وقد نسب سيبويه إنشاد البيت إلى من يثق بعربيته.(١) والاستدلال للقليل في كتاب سيبويه كثير، حرص سيبويه على إبرازه في كثير من طرق استدلاله. لاسيما الشعر(٢)

٧- الاستدلال للضعيف :

كرّر سيبويه مصطلح الضعف في مواضع كثيرة من الكتاب، وكان ينعت الضعيف أحياناً بالخبيث والقبيح. ومهما كان مظهر الضعف عنده فإنه في النهاية يدلّ على قلّة اتساع رقعة الناطقين به، بل ندرتهم.

* الأصل في الشرط ألاّ يفصل بين أداة الشرط والفعل الذي بعدها، سواء أكانت هذه الأداة اسماً أم حرفاً، ولا يجوز أن يتقدّم فاعل فعلِ الشرط المجزوم على الأداة، فلا يقال: متى زيدٌ يأتِك أكرمْه. أمّا إذا كانت الأداة (إنْ) فقد أجازوا تقدّم الاسم ووقوعه بين (إنْ) وفعل الشرط، لأنّ <<(إنْ) أصل الجزاء ولا تفارقه، فجاز هذا كما جاز إضمار الفعل فيها حين قالوا: إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ.

وأمّا سائر حروف الجزاء فهذا فيه ضعفٌ في الكلام، لأنها ليست كإنْ.>>(٣) وبعد إشارته إلى ما ضعف في كلامهم يستدل سيبويه له بقول عديّ بن زيد:(٤)

فمتى واغِلٌ يَنُبْهُمْ يُحَيّو م ه وتُعطَفْ عليه كأسُ الساقي (٥)

(١)- انظر الكتاب ٣١٥/٣.

(٢)- انظر في ذلك الكتاب ١٤٧/١، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ١٣٤/٢، ٢٩٥، ٩٩/٣، ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٠٠، ٣١٦، ٣٩٦، ٤٨٦، ٥٠٤، ٥١٥، ٣٩/٤، ٧٥ وانظر فهارس كتاب سيبويه لعضيمه ٣٠-٤٢.

(٣)- الكتاب ١١٢/٣، ١١٣.

(٤)- ديوان عدي بن زيد ١٥٦، شرح المفصل ١٠/٩، همع الهوامع ٥٩/٢.

(٥)- الواغل: الداخل في الشرب ولم يُدعَ. يَنُبْهم: ينزل بهم. وتُعطف: تُمال. والشاهد فيه تقديم الاسم على الفعل في (متى) مع جزمها للفعل في الضرورة، ورفع الاسم بعد (متى) بإضمار فعل يفسّره الظاهر. انظر الكتاب (حاشية) ١١٣/٣.

فقد تقدّم (واغلٌ) على الفعل المجزوم (يَنُبْهُم) وهذا فيه ضعف لأنّ الجزم واقع بغير (إنْ)(١)

* ومنه أنّ (لا) النافية لا تفصل بين المتلازمين إلاّ إذا تكررت فيقبح قولك: مررت برجلٍ لا فارس، حتّى تقول: مررت برجلٍ لا فارسٍ، ولا شجاعٍ، ومثل ذلك: هذا زيدٌ لا فارساً، لا يحسن حتى تقول: هذا زيدٌ لا فارساً، ولا شجاعاً.(٢) ويذكر سيبويه أنّه يجوز على ضعفٍ أنْ ترد (لا) دون تكرار، ويستدل لذلك بقول رجل من بني سلول:

وأنتَ امرؤٌ منّا خُلِقْتَ لغيرِنا حياتُك لا نَفْعٌ وموتُك فاجِعُ (٣)

فقد رفع (نفع) بعد (لا) على الرغم من عدم تكرارها وهذا جائز على ضعفه في الشعر(٤) والاستدلال للضعيف غير قليل في كتابه(٥)

٨- تأكيد السماع:

يبقى السماع أبرز الأصول النحوية التي اعتمدها النحاة في استدلالهم؛ لأنه أدقّ طرائقها وأهمها، وهذا ما جعل سيبويه يشير في كتابه في مواضع لا تحصى إلى السماع عن العرب، أو الموثوق بهم، أو بعض العرب، أو غير ذلك من العبارات.

* من ذلك نقلُه في ‹‹بابٌ من الفعل سمّي الفعلُ بأسماء لم تؤخذ من أمثلة الفعل الحادث›› (٦)

---

(١)- انظر الكتاب ١١٣/٣ وانظر بتوسّع الإنصاف ٦١٥/٢-٦٢٠.

(٢)- انظر الكتاب ٣٠٥/٢.

(٣)- يقول: أنت منّا في النسب، إلاّ أنّ نفعك لغيرنا، فحياتك لا تنفعنا لعدم مشاركتك لنا، ولكنّ موتك يفجعنا لأنّك أحدنا. والشاهد فيه رفع ما بعد (لا) مع عدم تكرارها، وهو قبيح. انظر الكتاب (حاشية) ٣٠٥/٢-٣٠٦.

(٤)- انظر المصدر السابق ٣٠٥/٢.

(٥)- انظر في ذلك المصدر السابق: ٤٨/١، ٤٩، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٣٠٥/٢، ٣٣٧، ٣٩/٣، ٩٢، ١١٣، ١١٤.

(٦)- المصدر السابق ٢٤١/١.

من أنّ بعض العرب يقول: رويدَ وهَلُمَّ وحَيَّهَلَ وهي أسماء أفعال لـ : أرودْ، وهاتِ، وائتِ، وهي تدلّ على الأمر، ثم استدلاله على ما سُمع من بعض العرب بقول طُفَيْل بن يزيد الحارثي:

تراكِها من إبلٍ تراكها (١)

<<فهذا اسم لقوله له: اتْرُكْها.>>(٢)

* ومنه نقْلُه عن العرب من قولهم: رُوَيْدَ بمعنى أرْودْ واستدلاله بقول معطّل الهذلي: (٣)

رويدَ عَلِيّاً جُدَّ ما ثدْيُ أُمِّهِمْ   إلينا ولكنْ بُغْضُهُمْ متمايِنُ (٤)

ثم توكيده لمعنى (رويدَ) بقوله: <<فقد تبيَّنَ لك أنّ رُوَيْدَ في موضع الفعل>>(٥)

* ومنه ما ذكره في <<باب ما يجيء من المصادر مثنّى منتصباً على إضمار الفعل المتروكِ إظهارُه.>>(٦) فقد تكلّم على ما سمعه من العرب من المصادر المثنّاة نحو: حنانيك، ولبّيك، وسعديك، وحذاريك، ودواليك وغيرها.(٧) ثم استدل لما سمع من العرب بقول طرفة بن العبد:

أبا منذرٍ أفنَيْتَ فاستَبْقِ بعضَنا   حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ (٨)

---

(١)- موضع الاستشهاد به (تراكها) حيث استعمل (فَعَالِ) من مصدر الفعل الثلاثي المتصرف اسم فعل أمر، وبناه على الكسر. انظر الكتاب ٢٤١/١، والإنصاف ٥٣٧/٢.

(٢)- الكتاب ٢٤٢/١.

(٣)- ديوان الهذليين ٤٦/٣.

(٤)- علي: قبيلة من كنانة. وجُدّ ثدي أمّهم إلينا. أي بيننا وبينهم خؤولة رحم، وقرابة من قبل أمهم، وهم منقطعون إلينا بها، وإن كان في ودّهم لنا مَيْنٌ، أي كذب وملَق. فهو يذكر قطيعة كانت بينهم وبين هؤلاء، على ما بينهم من قرابة وأخوة. والشاهد فيه (رويد) وهو اسم فعل أمر عمل فيما بعده فنصب (عليا). الكتاب ٢٤٣/١.

(٥)- المصدر السابق ٢٤٣/١.

(٦)- الكتاب ٣٤٨/١.

(٧)- انظر المصدر السابق ١٤٨-٣٥١.

(٨)- أبو منذر: كنية عمرو بن هند. يخاطبه حين أمر بقتله. والشاهد فيه نصب (حنانيك) على المصدر النائب عن الفعل. انظر المصدر السابق ٣٤٨/١.

ونقل ما زعمه الخليل من أنّ معنى التثنية أنّه أراد تحنُّنا بعد تحنُّن. (١)

وذكر قولَ عبد بني الحَسْحاس:

إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ مثلُهُ دواليْكَ حتّى ليس للبُرْدِ لابِسُ (٢)

ليؤكد ما سمع عن العرب مبرزا أقوال شيوخه، لا سيما الخليل.(٣)

وكان سيبويه ينوع في صيغة الاستدلال بالسماع فهو يستخدم عبارة: ‹‹وزعم أبو الخطاب أنه سمع بعض العرب الموثوق بهم ينشد هذا البيت نصباً››(٤) أو ‹‹سمعناه ممّن يرويه من العرب››.(٥) أو ‹‹سمعناهما ممن يرويهما عن العرب››(٦) أو ‹‹زعم أبو الخطاب: أنه سمع هذا البيت من أهله››(٧) أو ‹‹سمعنا من العرب من يقول››(٨) أو ‹‹سمعت رجلاً من العرب ينشد هذا البيت››(٩)

---

(١)- انظر الكتاب ٣٤٨/١.

(٢)- يظنّ العرب انّ المتحابّين إذا شقّ كلّ واحد منهما ثوبَ صاحبه دامت مودتهما ولم تفسد. والبُرد: الثوب. وفي البيت إقواء لأنه من أبيات مكسورة الروي. وهناك رواية أخرى (حتّى كلنا غيرُ لابس) وعلى هذا فلا إقواء. والشاهد فيه (دواليك)، نُصبت على المصدر الموضوع موضع الحال، وثنّي لأن المداولة من اثنين. والكاف للخطاب، لا يتعرّف ما قبلها بها، فلذا يصحّ وقوعه حالاً. انظر الكتاب (حاشية) ٣٥٠/١.

(٣)- انظر المصدر السابق ٣٥١/١-٣٥٤.

(٤)- المصدر السابق ٣٠٤/١.

(٥)- المصدر السابق ٤٢٦/١.

(٦)- المصدر السابق ٥٨/٣.

(٧)- المصدر السابق ١٢٣/٣.

(٨)- المصدر السابق ١٢٨/٣.

(٩)- المصدر السابق ١٤٤/٣.

* لم يهتمّ سيبويه بالمسموع الشائع مِن لغة العرب فحسب، بل نراه في بعض المواضع ينقل ما سمعه من الغريب، فهو يشير إلى ذلك أحياناً بقوله: (بعض العرب) من خلال قوله: «ونظيرُ عُنوقٍ قول بعض العرب في السماء: سُمِيّ»(١) ثم يستدل على ذلك بقول أبي نُخَيْلَة:

كَنَهْوَرٌ كان مِن أعقابِ السُّمِي (٢)

فذكر (سُمِيّ) جمع سماء وهو جمع غريب(٣) ومثل ذلك كثير جداً في الكتاب(٤)

٩- تتبع القاعدة والاستدلال لها:

لم يهدف سيبويه في كتابه إلى الحديث عمّا خالف الأصول، أو عمّا أكّدها فقط، بل هو يتّجه اتجاهات متعددة تخدم النحو، وتقعيده. فهو يتتبع القاعدة بتفاصيلها، ويستدلّ لها بالشعر بأبيات كثيرة متتالية يبغي من ورائها إثبات صحة ما يتناوله بدلائل من كلام العرب.

* من ذلك أنه في حديثه عن اسم الفاعل، وعمله نجده يفصّل فيه، ويتكلّم عليه إذا كان منوّناً، أو غير منّونٍ تخفيفاً، ومضافاً، أو غير مضاف، ويتحدث عن معمول اسم الفاعل، وأحواله، والعطف على هذا المعمول. وخلال هذا التتبع الدقيق يستدلّ للقواعد، ودقائقها بواحدٍ وعشرين بيتاً، (٥) ويصرح خلال

---

(١)- الكتاب ٦٠٦/٣.

(٢)- الكَنَهْوَر: القطع العظام من متراكب السحاب، واحدته كنهورة. والأعقاب: جمع عقب وهو آخر الشيء، عنى أنه سحاب ثقل بالماء، فأتى لذلك آخر السحاب لثقله. وأراد بالسماء هنا السحاب. والشاهد فيه: جمع سماء على (سُمِيّ) بوزن فُعُول، اجتمعت واوان في آخره فقُلبت ثانيتهما ياء، ثم قُلبت أولاهما ياء لالتقائها ساكنة بالياء المنقلبة، فقُلبت كذلك ياء، وكسر الحرف الصحيح لتثبت الياء بعد الكسرة. ونظيرها من السالم: عناق، وعنوق، وهو جمع غريب. انظر الكتاب (حاشية) ٦٠٦/٣.

(٣)- انظر المصدر السابق ٦٠٦/٣.

(٤)- انظر فهارس كتاب سيبويه لعضيمه ٣٦-٤٢.

(٥)- انظر الكتاب ١٦٤/١- ١٧٥.

هذه المتابعة برغبته في التوضيح حين يقول:

‹‹ومما يزيد هذا الباب إيضاحاً أنه...››(١)

ومما استدلّ به على تنوين اسم الفاعل قول امرئ القيس(٢)

إني بحبلِكَ واصلٌ حَبْلي   وبريشِ نَبْلِكَ رائشٌ نَبْلي (٣)

ثم يستدلّ بقول عمر بن أبي ربيعة:

ومِن ماليءٍ عينيْهِ من شيءِ غيرِهِ   إذا راحَ نحو الجمرةِ البِيْضُ كالدُّمى (٤)

ثم يستدل ببيت زهير بن أبي سلمى، فالأحوص الرياحي(٥) في الموضوع نفسه، ثم يستدل على اسم الفاعل إذا كان غير منّون بقول الفرزدق:

أتاني على القَعْساءِ عادِلَ وطْبِهِ   برجْلَيْ لئيمٍ واسْتِ عبدٍ تعادلُهْ (٦)

---

(١)- الكتاب ١/١٦٨.

(٢)- ديوان امرئ القيس ١٣٩.

(٣)- راش السهم بريشه: ركّب فيه الريش. والنّبل: السهام، لا واحد له من لفظه. يقول لها: أمري من أمرك، وهواي من هواك. وهذان مثلان ضربهما للمودة والمواصلة. والشاهد فيه تنوين (واصل) و(رائش) ونصب ما بعدها تشبيهاً بالفعل المضارع، لأنهما في معناه، ومن لفظه، فجريا مجراه في العمل، كما جرى مجراهما في الإعراب. انظر الكتاب ١/١٦٤.

(٤)- من شيء غيره؛ أي من نساء غيره. والجمرة: موضع رمي الجمار بمنى. والبِيْض: النساء البيض والدُّمى: صور الرخام، شبه النساء بها لأن الصانع لا يدخر جهداً في تحسينها، وتلطيفها، لما لهنّ من السكينة والوقار. والشاهد فيه إعمال (مالئ) ونصب ما بعدها تشبيهاً بالفعل المضارع، لأنهما في معناه، ومن لفظه. الكتاب ١/١٦٥.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/١٦٥.

(٦)- القعساء: الناقة المحدودبة من الهزال. والوطب: سقاء اللبن. عدل وطبه برجليه واسته، أي جعلهما عدلاً له، أي جعل وطبه في ناحية من الراحلة معادلاً له. والعدلان: ما يوضعان على جنبي البعير. والشاهد فيه حذف التنوين من (عادِلَ) وإضافته إلى ما بعده استخفافاً. الكتاب ١/١٦٧.

ثم يقول الزِّبْرِقان بن بدر:

مُسْتَحْقِبي حلَقِ الماذِيِّ يحفِزُهُ　　　بالمشْرَفيِّ وغابٌ فوقَه حَصِدُ (١)

ثم يستدل بقول السُّلَيْكِ بن السُّلَكَة، إلى أن يقول: ‹‹ومما يزيد هذا الباب إيضاحاً أنّه على معنى المنوّن قول النابغة:

احكُمْ كحُكْمِ فتاةِ الحيِّ إذْ نظرتْ　　　إلى حَمَامٍ شِراعٍ واردِ الثَّمَدِ ››(٢)

ثم يتابع استدلاله بقولٍ للمرّار الأسدي، ثم أبي الأسود الدُّؤلي، ثم جرير، ثم كعب بن جعيل التغلبي، ثم رجل من قيس عيلان، ثم بيتٍ من الخمسين، وهكذا يستمر سيبويه باستدلاله متتبعاً القواعد الجزئية لاسم الفاعل وعمله (٣) وهذه سمة من سمات طريقة استدلاله نقرؤها في أكثر من مكان.(٤)

١٠- عدم استدلاله بالشعر:

يلاحظ أن الفارق بين عدم استدلال سيبويه بالقرآن الكريم أحياناً، وعدم استدلاله بالشعر، واضح؛ فهو لم يستدلّ بالقرآن الكريم في مواضع لغة العرب القبيحة، لأنّ القرآن في الأصل كان بلغة مثالية لا يرقى إليها شكّ. أمّا الاستدلال بالشعر على تلك اللغة فهو موجود، لأن الشعر ديوان العرب

(١)- وصف جيشا وفرسانه. استحقبوا الحلق: جعلوه في حقائبهم. والحلَق: جمع حلقة، والمراد لبسهم للدروع. والماذيّ: مفردها ماذية، وهي الدروع الصافية الحديد، اللينة الملمس. يحفزه: أراد يحفز الماذي: يرفعه ويشمره. والضمير المستتر للجيش. والمشرفي: سيف منسوب إلى المشارف بالشام. والغاب: الرماح. والحصد: الصلب الشديد المحكم. والشاهد فيه (مستحقبي) حيث حذفت النون، كما حذف التنوين في البيت السابق. الكتاب ١/١٦٧.

(٢)- يخاطب النعمان بن المنذر، يقول له: كن حكيماً في أمري مصيباً للحقّ والعدل، كما أصابت فتاة الحيّ، وهي زرقاء اليمامة في تقدير عدد الحمام. والشراع: المورد. والثمد: الماء القليل. والشاهد فيه إضافة (وارد) إلى الثمد إضافة غير محضة ولم تكتسب تعريفاً، فوصفت بها النكرة قبلها وهي (حمام) انظر الكتاب ١/١٦٨.

(٣)- انظر الكتاب ١/١٦٨-١٧٤.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/١٦٠- ١٦٣، ٢/٤٤- ٤٨، ٦٢- ٦٨، ٧٠-٧٥، ١٣٣-١٤٠، ٣/٣١-٤٠، ٤١- ٤٦.

وهو الوعاء الذي ضمّ ملامح لغتهم، فمن الطبيعي أن يحوي الشعر أحياناً لغة قبيحة، أو ضعيفة، أو غير ذلك من النعوت، لأنه؛ أي الشعر، ترجمة صادقة للسان هذه الأمة.

ويلاحظ أن سيبويه لم يستدل بالشعر العربي في استنباطه للقواعد البسيطة الواضحة التي تدخل في بعض الأبحاث ‹‹كالابتداء››(١)، ‹‹وباب الابتداء يضمر فيه ما يبنى على الابتداء››(٢) و‹‹باب ألف الندبة فيه تابعة لما قبلها››(٣) و ‹‹باب ما لا تلحقه الألف التي تلحق المندوب››(٤) و ‹‹باب ما لايجوز أن يندب››(٥) و ‹‹باب الحروف التي ينبّه بها المدعو››(٦) و‹‹أسماء الأفعال المنقولة عن ظرف أو جار وجرور››(٧) و ‹‹باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي››(٨) و ‹‹باب ما يختار فيه الرفعُ ويكون فيه الوجه في جميع اللغات››(٩) و ‹‹باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفةٍ ولا مصادرَ لأنّه حالٌ يقع فيه الأمر فيتنصبُ لأنه مفعول به››(١٠) فهي إذن تتعلق بالابتداء، والندبة، وأسماء الأفعال، وبعض أنواع المفعول به. ولا حاجة للوقوف عليها لأنّها من الأصول، وسيبويه وضع جلّ اهتمامه في غير الأصول لأنّ الأصل لا يبغي دليلاً، إضافة إلى أنّ

---

(١)- الكتاب ٢/١٢٨.

(٢)- المصدر السابق ٢/١٢٩.

(٣)- المصدر السابق ٢/٢٢٤.

(٤)- المصدر السابق ٢/٢٢٥-٢٢٧.

(٥)- المصدر السابق ٢/٢٢٧-٢٢٨.

(٦)- المصدر السابق ٢/٢٢٩-٢٣١.

(٧)- المصدر السابق ١/٢٤٨-٢٥٣.

(٨)- المصدر السابق ١/٢٥٧-٢٥٩.

(٩)- المصدر السابق ١/٣٨٧-٣٩٠.

(١٠)- المصدر السابق ١/٣٩١-٣٩٧.

القواعد البسيطة الواضحة تحتاج إلى أمثلة من كلام العرب، ونطقهم، وأوزانهم لتكون خير دليل على هذا الكلام. ولغة الكلام هي لغة الواقع، أمّا لغة الشعر فهي اللغة المثالية للعرب، وهي تضطره أحياناً إلى الابتعاد عن لغة الحديث اليومي، لينظم قصيدة باللغة المثالية التي لا تحوي لهجةً محلية، أو لكنةً قبليّة، أو استعمالاً يخصّ جماعة دون أخرى.

* هذه الأبحاث النحويّة نستطيع أن نقسمها إلى أنواع متعدّدة: منها ما نأي به عن الشعر فقد استدلّ فيه بالقرآن الكريم، وكلام العرب، والأمثلة الموضوعة، لكنّه لم يستدلّ بالشعر، ذلك في <<باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي>>(١) و <<باب ما يختار فيه الرفع، ويكون فيه الوجه في جميع اللغات>> (٢) و<<باب ما ينتصب خبره لأنه معرفة لا توصف، ولا تكون وصفاً>>(٣).

* ومنها ما لم يستدلّ فيه سيبويه بالشعر إضافة إلى عدم استدلاله بالقرآن الكريم، ذلك في <<أسماء الأفعال المنقولة عن ظرف أو جار ومجرور>>(٤) و<<باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة، ولا مصادر، لأنّه حالٌ يقع فيه الأمر فينتصبُ لأنه مفعول به>>(٥) و <<باب ألف الندبة فيه تابعة لما قبلها>>(٦) و<<باب ما لا تلحقه الألف التي تلحق المندوب>>(٧) و <<باب ما لا يجوز أن يندب>>(٨)

---

(١)- الكتاب ١/٢٥٧- ٢٥٩.

(٢)- المصدر السابق ١/٣٨٧-٣٩٠.

(٣)- المصدر السابق ٢/١١٤- ١١٧.

(٤)- المصدر السابق ١/٢٤٨-٢٥٣.

(٥)- المصدر السابق ١/٣٩١-٣٩٧.

(٦)- المصدر السابق ٢/٢٢٤.

(٧)- المصدر السابق ٢/٢٢٥-٢٢٧.

(٨)- المصدر السابق ٢/٢٢٧-٢٢٨.

و <<باب ما ينتصب لأنه ليس من اسم ما قبله ولا هو هو>>(١) و<<باب ما ينتصب لأنه قبيح أن يكون صفة>>(٢) ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ هذه الأبحاث تدخل في الأبحاث النحوية البسيطة.

* ومنها ما لم يستدل فيه بالشعر إلاّ في آخر الباب، فقد استدل ببيت شعري واحد، كان ذلك في حديثه عن أدوات النداء، فعددها، ومثّل لها، وبيّن خصائص كلٍّ منها، ثم جاء في آخر الباب ليستدل على حذف (يا) من النكرة في الشعر من خلال قول العجّاج:

جاريَ لا تستنكري عَذيرِي (٣)

يريد: يا جاريةُ. ولعلّ استدلاله بهذا البيت الوحيد في هذا الباب جاء في سياق استدلاله ببعض الأمثلة المتداولة نحو: <<افتدِ مخنوقُ>>، و<<أصبِحْ ليلُ>>، و<<أطرِقْ كرا>>(٤) على ما فيها كلّها من خفة في اللفظ، ومدلول لغوي يمتاز بهما الرجز، والأمثال.

* ومنها ما يبدأ به الكلام مستدلاً ببعض الشعر، ثم يبتعد عنه صفحات طويلة من دون أن يستدلّ ببيت واحد. نحو ما ذكره في <<باب ما لا يكون الاسم فيه إلاّ نكرة>>(٥) فقد بدأه بقوله: <<وذلك قولك هذا أوّلُ فارس مُقبِلٌ، وهذا كلّ متاعٍ عندك موضوع، وهذا خيرٌ منك مقبلٌ>> ثم نقل لنا عن الخليل وأبي الخطاب استدلالهما بأبيات الشمّاخ، وذي الإصبع العدواني، وابن أحمر، بعدَ ذلك نراه

---

(١)- الكتاب ٢/١١٨-١٢١.

(٢)- المصدر السابق ٢/١١٧-١١٨.

(٣)- يخاطب امرأته، يريد: ياجارية. وعذير الرجل: ما يروم، وما يحاول مما يعذر عليه إذا فعله. والشاهد فيه حذف حرف النداء ضرورة من (جاري) وهو اسم نكرة قبل النداء لا يتعرف إلاّ بحرف النداء، وإنّما يطّرد حذفه في المعارف. وسيبويه يقصد بالنكرة هنا ما كان نكرة قبل النداء فصار معرفة بعده. انظر الكتاب (حاشية) ٢/٢٣١.

(٤)- المصدر السابق ٢/٢٣١.

(٥)- المصدر السابق ٢/١١٠.

يبتعد عن الشعر، والاستدلال به، وينتهي من الباب المذكور، ثم يدخل في ‹‹باب ما ينتصب خبره لأنه معرفة، وهي معرفة لا توصف ولا تكون وصفا››(١)، ثم يمتدّ حديثه إلى ثلاثة أبواب أخرى تالية لم يذكر فيها بيتاً شعرياً واحداً(٢)

الأمر ذاته نراه في كلامه على ‹‹ما ينتصب لأنه قبيح أن يوصف بما بعده، ويُبنى على ما قبله››(٣) فقد بدأ كلامه بذكر الأمثلة نحو: هذا قائماً رجلٌ، وفيها قائماً رجلٌ ثم أتبعها بثلاثة أبيات لذي الرّمّة، وكثيّر، وآخر غيرهما، ثم ابتعد عن الاستدلال بالشعر إلى آخر الباب، ثم دخل بالباب الذي يليه ‹‹باب ما يثنّى فيه المستقرّ توكيدا››(٤)، ثم ‹‹باب الابتداء››(٥)، ثم ‹‹باب ما يقع موقع الاسم المبتدأ، ويسدّ مسدّه››(٦)، ثم ‹‹باب من الابتداء يضمر فيه ما يُبنى على الابتداء››(٧)، ثم ‹‹باب يكون المبتدأ فيه مضمراً، ويكون المبنيّ عليه مُظْهَراً››(٨)، من غير أن يستدلّ ببيت شعريّ واحد.

ولعل هذه الطريقة في استدلاله ترجع إلى أنه حاول في البداية أنْ يثبّت أصول الباب فحشد لها الأمثلة والشعر والأمثال، وبعد أن استقرّت القاعدة، شرع بذكر الأمثلة التي وضعها هو نفسه، ليشير إلى قواعد جزئية بسيطة، أو ليعالج بعض القواعد التي لا يملك لها شيئاً من شعر العرب.

---

(١)- الكتاب ١١٤/٢.

(٢)- الأبواب المقصودة هي: ‹‹باب ما ينتصب لأنه قبيح أن يكون صفة››، و‹‹باب ما ينتصب لأنه ليس من اسم ما قبله، ولا هو هو››، و‹‹هذا شيء ينتصب على أنه ليس من اسم الأول، ولا هو هو››. المصدر السابق ١١٧/٢، ١١٨، ١٢٠.

(٣)- المصدر السابق ١٢٢/٢.

(٤)- المصدر السابق ١٢٥/٢.

(٥)- المصدر السابق ١٢٦/٢.

(٦)- المصدر السابق ١٢٨/٢.

(٧)- المصدر السابق ١٢٩/٢.

(٨)- المصدر السابق ١٣٠/٢.

١١- أسلوب فني (الحكاية):

ذكر سيبويه كثيراً من المعالجات النحوية التي رأينا أنها تنضوي تحت نوع من الأساليب الفنية التي تمتاز بها اللغة العربية، لذلك فقد رأينا أيضاً أنّ هذه الأساليب جلّها جاء فيما خالف الأصول النحوية، وقواعدها المستنبطة، وقلّة منها لم تخرج على هذه الأصول، ولعلّ الحكاية هي إحدى الأساليب الفنية التي لا تخرج على الأصول، والتي أشار إليها سيبويه، واستدل لها بالشعر.

* من ذلك ما نقله عن الخليل في الحكاية واستدلّ له بقول الشاعر:(١)

كذبتُمْ وبيتِ اللهِ لا تنكِحُونَها　　　بني شابَ قَرْناها تَصُرُّ وتَحْلُبُ (٢)

حيث أراد: يابني مَنْ يقال لها شاب قرناها(٣) وهذا المثال ليس الوحيد في هذا الأسلوب(٤)

١٢- تكرار البيت في أكثر من موضع:

يُلاحظ في تناولات سيبويه النحوية من خلال الكتاب أنه يكرّر كثيراً من الشعر، أو الرجز بأكثر من طريقة؛ فهو يذكر البيت في موضع، ثم يذكره مرة ثانية في موضع آخر مشيراً إلى ذلك بشكل صريح. وقد يكرر البيت من غير إشارة إلى أنه قد ورد ذكره سابقاً، وقد يذكر جملة من البيت، أو طرفاً منه مذكّراً بوروده فيما سبق، وكلّ موضع منها يخصّ قاعدة نحويّة تختلف عن الأخرى.

---

(١)- البيت لرجل من بني أسد. انظر الخصائص ٢/٣٦٧.

(٢)- أراد لن تتمكّنوا من نكاحها يا بني المرأة التي يقال لها: شاب قرناها، والتي تصرّ الماشية، أي تشدّ ضروعها ليجتمع الدرّ فتحلب. والقرن: الفود من الشعر في جانب الرأس، يعني العجوز الراعية. والشاهد فيه حمل (بني شاب قرناها) على الحكاية. انظر الكتاب (حاشية) ٢/٨٥-٨٦.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٨٦.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٨٤، ٣/٢٠٧، ٣٢٦، ٣٢٧.

* من ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

بَدا ليَ لستُ مُدْرِكَ ما مضى　　　　ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائياً (١)

فقد استدلّ به سيبويه على عمل اسم الفاعل (سابقاً) عمل فعله فيما بعده(٢) ثم استدل به على عطف المجرور على منصوب على توهّم جره، وذلك بعطف (سابقٍ) على (مُدرِكَ) على توهم جرها بحرف جرّ زائد، فكأنه قال: لست بُمدرِكٍ، ولا سابقٍ (٣) ثم استدلّ به على إضمار اسم كان في قوله: إذا كان جائياً(٤) ثم استدلّ به على أمرٍ سبق ذكره، وهو جر(سابق) على تقدير الباء الزائدة في (مدرك)، أي: لستُ بمدركٍ ولا سابقٍ(٥) ثم كرّر فكرة التوهم من خلال استدلاله به مرتين في صفحة واحدة(٦)، ثم استدلّ به حول القاعدة ذاتها لمّا كان يتكلم على قوله تعالى: (**فأصَّدَّقَ وأكُنْ منَ الصالحين**) (٧)، وعقد بينهما مقارنة بقوله: ‹‹فإنّما جرّوا هذا، (أي: سابق) لأنّ الأول قد يدخله الباءُ (أي: مدرك)، فجاؤوا بالثاني، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا لمّا كان الفعلُ الذي قبله (أي: أصدّق) قد يكون جزماً، ولا فاء فيه تكلّموا بالثاني (أي: أكن)، وكأنّهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهّموا هذا››(٨)، ثم استدل به مرّة أخرى مشيراً إلى فكرة التوهم ناعتاً إيّاها بأنها لغة رديئة(٩)

---

(١)- للبيت روايات متعددة في (ولا سابقاً)، و(ولا سابقٍ) ذكرها سيبويه بما يخدم تناولاته النحوية. الكتاب ١/١٦٥.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/١٦٥.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٣٠٦.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/١٥٥.

(٥)- انظر المصدر السابق ٣/٢٩.

(٦)- انظر المصدر السابق ٣/٥١.

(٧)- المنافقون ٦٣/١٠.

(٨)- الكتاب ٣/١٠٠-١٠١.

(٩)- انظر المصدر السابق ٤/١٦٠.

* ومنه استدلاله بقول الشاعر:

إذا رأتْني سقطتْ أبصارُها   دأْبَ بِكارٍ شايَحَتْ بِكارُها (١)

فسيبويه استدلّ بقول الشاعر ثم أشار إلى هذا الاستدلال فيما بعد؛ فقد جاء الاستدلال في بحث المفعول المطلق ثم وردت الإشارة إلى البيت ذاته في بحث المفعول لأجله(٢) ومثل ذلك كثير في كتابه.(٣)

---

(١)- سقطت أبصارها: خشعت هيبةً لي. والدأب: العادة. البِكار: جمع البَكر والبَكرة من الإبل، وهو الفتّي. شايحتْ : جدّتْ ومضت. وقد أضاف(بكارها) إلى ضمير (بكار) الأولى، وذلك على سبيل التوكيد، لاختلاف معنى اللفظين، لأنّ البكار الأولى جمع بَكرة بمعنى الإناث، والثانية جمع بكر بمعنى الذكور. والشاهد فيه نصب (دأبَ بِكارٍ) ونصْبُهُ على المصدر المشبه به، وعامله معنى قوله (إذا رأتني سقطت ابصارها) لأنه دال على دؤوبها في ذلك. انظر الكتاب (حاشية) ٣٥٧/١.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣٦٩/١.

(٣)- انظر المصدر السابق، وتكرار استدلاله بقول الربيع بن ضبع ٢٠٨/١، ١٦٢/٢، وجرير ١٠٢/١، ١٨٣/٣. وقوله ٢٣٣/١، ٣٣٦، وقوله ٣٣٩/١، ٣٤٤، وقوله ٢٠٥/٤، ٢٠٨، والنابغة الجعدي ٨٥/٢،٢٠٧/٣، ٣٢٧، وعلقمة بن عبدة ١٩/٣، ٢٣والأخوص الرياحي ١٦٥/١، ٣٠٦، ٢٩/٣، والعنبري ١٦٣/٢، ٤٩٨/٣، وذي الرمّة ٢٨٠/١، ٢٤٧/٢، وامرئ القيس ١٤٧/١، ٢٩٤/٢، والحارث بن كلدة ٨٨/١، ١٣٠، وساعدة بن جؤية ٣٦/١، ٢١٤، وعدي بن زيد ٣١٢/٢، ٣١٨، والنابغة الذبياني ٢٠٧/٢، ٣٨٢/٣، وقوله ٢٧٧/٢، ٣٢٢، وهدبة بن خشرم ١٥٩/٣، ١٣٩/٤، وحيتان بن ثابت ٤٩٨/٣، ٥٥٤، وذي الرمة أيضا ١٧٩/١، ١٦٦/٢، ٢٨٠، ومضرس بن ربعي ٢٧/١، ١٩٠/٤، والمغيرة بن حبناء ٣٩/٣، ٩٢، والحارث بن نهيك ٢٨٨/١، ٣٦٦، ٣٩٨، وذي الرمة أيضا ١٠٩/٢، ٣٩٨/٣، وجرير أيضا ٨٧/١، ١٣٠، وكعب بن جعيل ١٧٣/٢، ٢٩٤، وعقيبة الأسدي ٦٧/١، ٢٩٢/٢، ٩١/٣، والطرماح ٤٣٠/٣، ٢٤٧/٤، وطرفة بن العبد ٤٩/٣، ٥١، وقوله ٩٩/٣، ١٠٠، وعامر بن الطفيل ١٦٣/١، ٢١٤، والأعشى ١٧٩/١، ١٦٦/٢، وجرير أيضا ٥٣/١، ٢٠٥/٢، ونصيب ٥٠٣/٣،١٤٨/٤، وجرير أيضا ٩٤/١، ١٧٠، والفرزدق ٦٣/٤، ٦٥، والقتال الكلابي ٤٠٢/٣، ٦٠١، ودريد بن الصمة ٢٦٦/١، ٣٣٢، والخرنق بنت هفان ٢٠٢/١، ٥٧/٢، ٦٤، وقولها ٢٠٢/١، ٥٨/٢، ٦٤، والفرزدق كذلك ٧٢/٢،١٦٢،١٦٦، وزيد بن عمرو بن نفيل ١٥٥/٢، ٥٥٥/٣، والشماخ ١١٠/٢،٣٣٥، والمرار الأسدي١١٦/١،==

== ١٦٨، ٢/١٣٩، وزيد الخيل ١/١٢٩، ٤/١٨٨، وذي الإصبع العدواني ١/٢٤٦، ٢٧٧، وعمرو بن معد يكرب ٢/٣٢٣، ٣/٥٠، وقيس بن ذريح ٢/٢١٦، ٢١٩، وأنس بن العباس السلمي ٢/٢٨٥، ٣٠٩، ومزاحم العقيلي ١/٧٢، ١٤٦، والمنذر ابن درهم ١/٣٢٠،٣٤٩، وقيس بن الخطيم ١/١٨٦،٢٠٢، وأبي الأخزر الحماني ٣/٢٥٦،٤١١، وأبي محجن الثقفي ١/٤٢٧، ٢/٢٨٦، والأعشى ١/٣٢،٤٠٨، وزهير ٣/٥٠٠،٥١٠، وتميم بن مقبل ٣/٦٤٣، ٤/٤٦٣، وعمر بن أبي ربيعة ٣/٣١،٣٣، والأعشى أيضاً ٢/١٣٧،٣/٧٤،٤٥٤، وقوله ٣/٥١،١٦٤، وقوله ٣/١٥٤،٥٥٠، وهشام أخي ذي الرمة ١/٧١،١٤٧، وامرئ القيس أيضاً ٢/٢٤٦،٣/٦٩، والمرار ١/١١٦،١٩٠، وابن هرمة ١/٤١٥،٤١٦، وأمية بن أبي الصلت ٢/١٠٩،٣١٥، وأمية بن أبي عائذ ١/٣٩٩، ٢/٦٦، وباعث بن صريم ٢/١٣٤،٣/١٦٥، وحاتم الطائي ١/٣٦٨، ٣/١٢٦، وعمرو بن قميئة ١/١٧٨،١٩٤، والنمر بن تولب ١/٢٩٧، ٣/١٤١، وعمر بن أبي ربيعة أيضاً ١/٣١، ٣/١١٥، وطريف بن تميم ٣/٤٦٦، ٤/٣٧٨، والأخطل ٢/٨٤،٣٩٩، وعنترة ٢/٢٦٩، ٤/٢١٣، والمهلهل ٢/١٦،٦٣، وقوله ٢/١٩١،٢٥١، والأعشى أيضاً ٣/٥١٣، ٤/١٨٧، والمرار بن سلامة العجلي ١/٣١،٤٠٨، وجرير أيضاً ١/٢٢٢، ٤٠٤، وعمرو بن كلثوم ١/٢٢٢، ٢/٤٠٥، وفروة بن مسيك ٣/١٥٣، ٤/٢٢١، وابن قيس الرقيات ٣/١٥١، ٤/١٦٢، وذي الإصبع ٢/١١١، ٣٦٢، وقعنب بن أم صاحب ١/٢٩، ٣/٣١٦، ٥٣٥، وحميد الأرقط ١/٧٠،١٤٧، وامرئ القيس أيضاً ٣/٢٧،٦٢٦، ورجل من أزد السراة ٢/٢٦٦، ٤/١١٥، ١٥٤، وحسان بن ثابت ٣/٦٥،١١٤، والفرزدق أيضاً ٣/٣١٣،٣١٥، ومن الرجز قول رؤبة ٣/١٦٤،١٦٥، والعجاج ٢/٣٤٧، ٣/٤٨٨، وأبي النجم ١/ ١٧٥، ١٧٧، ١٩٣، ورؤبة أيضاً ٢/١٨٥، ١٨٦، والأعور بن براء الكلبي ١/٢٠٨، ٢/١٦٢، والعجّاج ٢/٢٣١، ٢٤١ وجران العود ١/٢٦٣، ٢/٣٢٢، وأبي النجم أيضاً ١/٨٥،١٢٧، ١٣٧، ١٤٦، ورؤبة أيضاً ٢/٢٧٥، ٤/٢٠٧، وطفيل بن يزيد الحارثي ١/٢٤١، ٣/٢٧١، وذي الرمة ٣/٢٢٥، ٤/١٤٧، وخطام المجاشعي ٣/٥٦٩، ٦٢٤، وأبي النجم أيضاً ١/٢٢١، ٣/٢٩٠، ٦٠٧، وقوله ٢/٢٤٨، ٣/٤٥٢، ورؤبة أيضاً ١/٢٩، ٤/١٧٠، والعجّاج أيضاً ١/٢٦، ١١٠، وخطام المجاشعي أيضاً ١/٣٢، ٤٠٨، ٤/٢٧٩، وقوله ٢/٤٨، ٣/٦٢٢، ورؤبة أيضاً ٢/١٥٣، ٣/٣٩٦، والعجّاج أيضاً ١/٣٣٨،٣/١٧٦، وقوله ٣/٤٦٦، ٤/٣٧٧.

١٣- إضافة توجيهات على ماذكره الخليل:

كانت الصلة بين سيبويه، وشيخه الخليل قوية متداخلة بشكل يصعب معه الفصل بين آراء كلٍّ منهما، هذا ظاهر الكتاب؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه بإمكاننا أن نتلمس في مواضع ليست بقليلة أنّ سيبويه كان يسرد رأي شيخه ويفصّل فيه ويوضحه، بل ويضيف إليه كثيراً من الآراء، والعديد من الشواهد التي من شأنها أن توصل القارئ إلى الإحاطة بالقاعدة إحاطة تامة.

*- من ذلك ما نقله عن الخليل في النداء بقوله: ‹‹وقال الخليل رحمه الله: إذا أردت النكرة فوصفتَ، أو لم تَصِفْ فهذه منصوبة؛ لأن التنوين لحقها فطالتْ، فجُعلت بمنزلة المضاف لما طال نُصِبَ، ورُدَّ إلى الأصل››(١). ثم يفصّل سيبويه ما أراده الخليل، ويبين أن نداء النكرة لمّا لحقها التنوين وطالت، صارت بمنزلة المضاف، وعلى ذلك فإنه يجيز نقلاً عن الخليل نصب المنادى إذا كان نكرة مقصودة منوّنةً سواء أكان موصوفاً أوغير موصوف، ثم يستدل على ما نُقل عن الخليل بقول ذي الرّمّة (٢):

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ للعين عَبْرةً ... فماءُ الهَوَى يَرْفَضُّ أو يَتَرَقْرَقُ (٣)

فقد نصب (داراً) وهي نكرة مقصودة، لكنها لما وصفت بالجار والمجرور صارت بمنزلة المضاف.(٤)

ثم يذكر سيبويه، إضافة إلى ما قاله الخليل أن المنادى النكرة إذا لم يوصف فحكمه الرفع، وهو بذلك يخالف رأي شيخه الذي ذكر أن الحكم هو النصب سواء أوُصِف المنادى أم لم يوصف، ثم يستدل على ذلك بأبيات كثيرة منها قول الطِّرِمّاح: (٥)

---

(١)- الكتاب ٢/١٩٩.

(٢)- ديوان ذي الرّمّة ٣٨٩، وشرح المفصل ٧/٦٣، وهمع الهوامع ٢/ ١٣١،١١.

(٣)- حُزْوَى: اسم موضع. هِجْتِ: أثرتِ وحرّكْتِ. العبرة: الدمعة. ماء الهوى: هو الدمع لأنّ الهوى يبعثه. يرفضّ: ينصبّ متفرقاً. والترقرق: أن يجيء، ويذهب فترى له حركة وتلألؤاً. والشاهد فيه نصب (داراً)، ولفظها نكرة، ولكنّها طالت بما بعدها من الصفة، وهي الجار والمجرور، فصارت بمنزلة المضاف. انظر الكتاب ٢/١٩٩-٢٠٠(حاشية).

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/١٩٩.

(٥)- ديوان الطرماح ١٦٢، لسان العرب (صرم).

يادارُ أقوَتْ بعدَ أصْرامِها   عاماً وما يَعْنِيكَ من عامِها (١)

‹‹فإنما ترك التنوين فيه لأنه لم يجعل أقوَتْ من صفة الدار، ولكنه قال: يادارُ، ثم أقبل بعدُ يحدِّثُ عن شأنها، فكأنه لما قال: يادارُ، أقبلَ على إنسان فقال: أقوَتْ، وتغيّرتْ، وكأنه لما ناداها قال: إنها أقوتْ يافلانُ، وإنّما أردتُ بهذا أن تعلمَ أنّ أقوتْ ليس بصفة››(٢).

١٤- التصريح بموضع الشاهد بشكل مفصّل:

من يدرس كتاب سيبويه يدركْ أنه يلجأ إلى الإيجاز، والإشارة إلى مايريده من تناولاته النحوية، حتى إننا نكاد نحكم بأنه لم يصرح بموضع الشاهد في أي بيت استدل به في كتابه، بل كان يترك لنا الدور لنستنبط، ونستنتج، وهذا ما فتح المجال أمام المحقّقين؛ ليعيروا كلّ شاهد اهتمامهم، ويشبعونه تحليلاً وتقعيداً.

*- مرّة واحدة فصّل سيبويه في موضع الشاهد، وبين وجهه بما يتناسب مع الأصول النحوية ذلك في استدلاله بقول دريد بن الصمّة:

لقد كَذَبَتْكَ نفسُكَ فاكذِبَنْها   فإنْ جَزَعاً وإنْ إجمالَ صَبْرِ (٣)

---

(١)- أقوَتْ: أقفرت. والأصرام: جمع صِرم، وهو الفرقة من الناس ليسوا بالكثير. ينكر على نفسه أن يتشاغل بالدار لتغيّرها، إذ لايجدي ذلك عليه شيئاً. والشاهد فيه رفع (دار) لأنها لم توصف بما بعدها، وإنّما ما بعدها استئناف، وإخبار بعد النداء. انظر الكتاب (حاشية) ٢٠١/٢.

(٢)- المصدر السابق ٢٠١/٢، وانظر في مثل ذلك ٢٠٧/٢.

(٣)- أورد المحقّق أن البغدادي قد نبّه على أن الصواب (فاكذبيها)، والخطاب للمؤنث، لأنه يقول لعاذلته، أو امرأته العاذلة: كذبتكِ نفسُكِ فيما تزعمين من محاولة تخفيف ما أجد من الحزن عليه، فاكذبي نفسك فإما أنْ أجزع عليه جزعاً فلي العذر في ذلك، وإما أن أُجمل الصبر إجمالاً فأُمدح بذلك. وإجمال الصبر: أن يصبر الصبرَ الجميلَ، وهو الذي لاشكوى فيه إلى الخَلْق. الكتاب (حاشية) ٢٦٦/١.

وفصّل سيبويه في موضع الشاهد، ووجه الاستشهاد بقوله: <<فهذا على (إمّا)، وليس على (إنْ) الجزاء، كقولك: إنْ حقّاً، وإن كذباً، فهذا على (إمّا) محمولٌ. ألا ترى أنّكَ تُدخلُ الفاءَ،ولوكانت على (إنْ) الجزاء، وقد استقبلتَ الكلامَ، لاحتجتَ إلى الجواب. فليس قوله:

فإنْ جزعاً كقوله: إنْ حقاً وإن كذباً، ولكنه على قوله تعالى (١): **فإمّا منّاً بعدُ وإمّا فِداءً**>>(٢)

من خلال ماتقدّم لاحظنا أن سيبويه يولي الشعر اهتماماً خاصاً لينفذَ منه إلى قواعد اللغة العربية مضيفاً إلى مصادر استدلاله نظرةَ عالمٍ وذِهْنَ مبدع.

وعلى غرار ما رأيناه في استدلاله بالقرآن الكريم كان سيبويه يستدل بالشعر لما خرج على الأصل بشكل عام؛ ولأنّ الأصول لديه لاتحتاج إلى أدلة كثيرة ، فإنه يسوق الأدلة الكثيرة على ما خرج على هذه الأصول.

لذلك فقد أخذ خروجه على الأصل ملامح متعددة، منها ما يتعلق بالمعنى، وهو الأكثر، ومنها مايتعلّق بأسلوب فني امتازت به لغة العرب، ومنها ماله صلة باللفظ، لا المعنى، وقد يكون حديثه عن الخروج على الأصل بأمر يتعلق بالحذف، أو مخالفة السماع، أو الضرورة، أو الاستخفاف، أو القليل والنادر، والقبيح في لغة العرب، أو نزع الخافض، أو صرف الممنوع من الصرف، أو الإلغاء، أو التوهّم، أو الفصل ، أو القطع، أو الجوار، أو الاتّساع، أو النيّة، أو ما يتعلّق في بُنْيَةِ الكلمة، وصرفها.

---

(١)- محمد ٤٧/٤.

(٢)- أي لو جعلنا (إنْ) ههنا للجزاء لاحتجنا إلى جواب، لأن جواب(إنْ) يكون فيما بعدها، وقد يكون ما قبلها مغنياً عن الجواب، إذا لم يدخل عليها شيء من حروف العطف، كقولك: أكرمُك إن جئتني. فإنْ أدخلت عليها فاءً، أو ثمّ بطُلَ أن يكون ما قبلها مغنياً ، فلذلك بطل أن يكون البيت على المجازاة. عن السيرافي. انظر الكتاب ١/٢٦٦(حاشية).

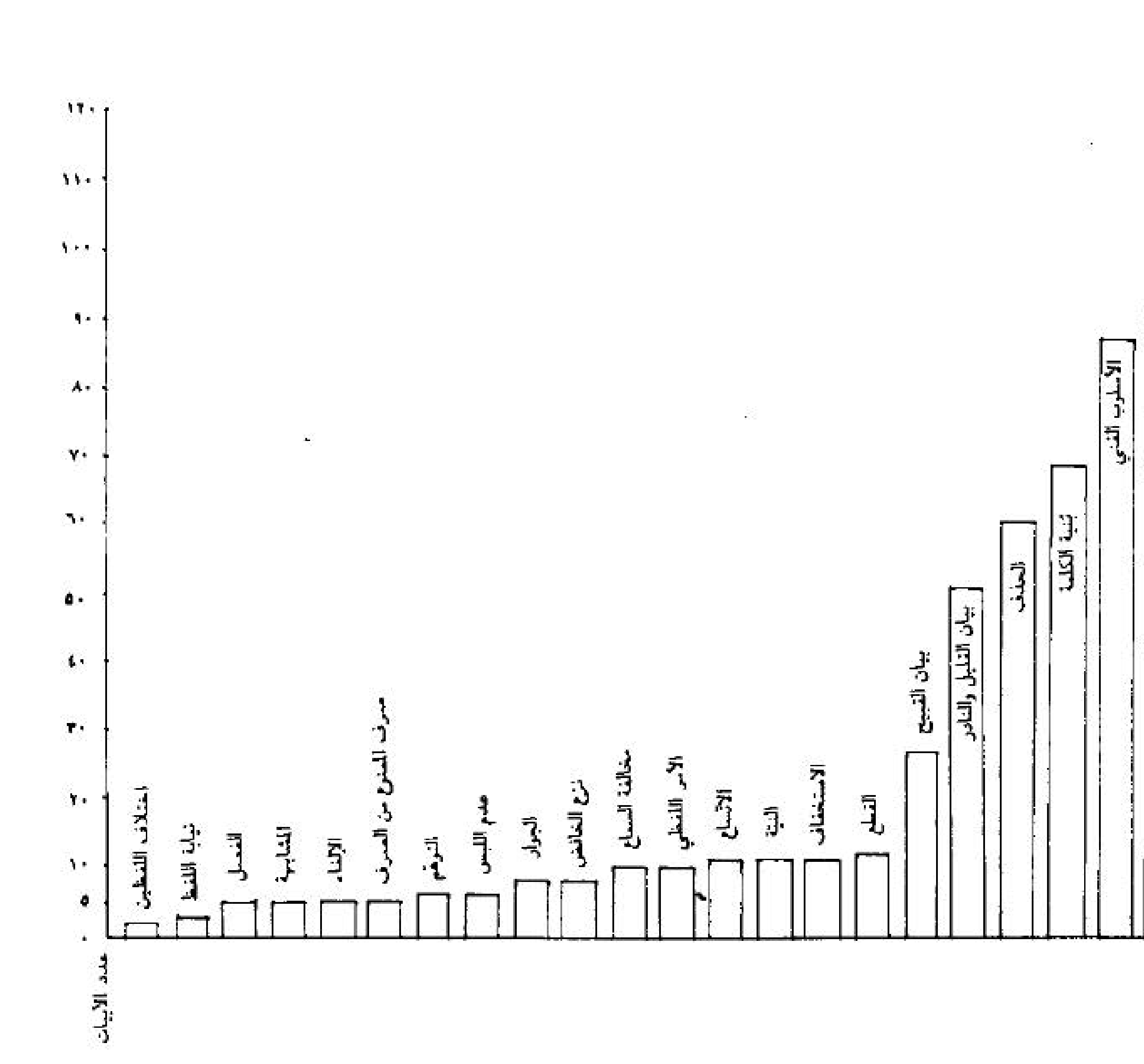
وبالمقابل فإن اهتمامه الكبير بما خالف الأصول لم يصرف جهده عن الحديث عن الأصول، بل استدلّ لها من خلال الاشتغال، وعمل المصدر، وعمل مبالغة اسم الفاعل، وحرص سيبويه على متابعة القواعد التي رسمها فاستدلّ لها بالشعر بشكل متتابع قدر المستطاع ناقلاً كلام شيوخه ، ومضيفاً على كلامهم في مواضع كثيرة، ضمن مقارنات، وتناولات نحوية بديعة، يثبت أدلته بما سمعه عن العرب أو ما سمعه منهم.

وزيادة في دقّته، فهو في كثير من المواضع يشير من خلال كلامه إلى أن هذا البيت أو ذاك قد ورد ذكره فيما سبق، ناقلاً لنا الجيّد من لغة العرب مستدلاً له بالشعر، وكذلك القليل والضعيف من لغتهم أو لهجاتهم، ذاكراً أكثر من وجه إن لزم الأمر هادفاً من وراء ذلك إلى الإحاطة بالبحث، وعرض جزئياته.

أما المواضع النحويّة التي لم يستدل لها بالشعر فهي قليلة نسبياً، واقتصرت على جزء من المباحث النحوية البسيطة كالابتداء، والنداء، والندبة، وأسماء الأفعال لأنها من الأصول التي لاتحتاج إلى دليل بحسب الخط العام لاستدلال سيبويه في كتابه.

بيان توضيحي بالأبيات الشعرية التي استدلّ بها سيبويه في تناولاته النحوية على ما خرج على الأصل مع الإشارة إلى أنّ بعض هذه الأبيات استُدِلّ به أكثر من مرة، ولأكثر من قاعدة، وبأكثر من رواية، إذا كانت المعنية تخدم هدفه النحوي.

الاستدلال بالشعر على ما خرج على الأصل



بيان توضيحي بالأبيات الشعرية التي استدلّ بها سيبويه في تناولاته النحوية، مع الإشارة إلى أن بعضها استدلّ به أكثر من مرّة ، ولأكثر من قاعدة ، وبأكثر من رواية، إذا كانت الرواية المعنية تخدم هدفه النحوي.

الاستدلال بالشعر

عدد الأبيات

٥٥٠
٥٢٥
٥٠٠
٤٧٥
٤٥٠
٤٢٥
٤٠٠
٣٧٥
٣٥٠
٣٢٥
٣٠٠
٢٧٥
٢٥٠
٢٢٥
٢٠٠
١٧٥
١٥٠
١٢٥
١٠٠
٧٥
٥٠
٢٥
٢٠
١٥
١٠
٥

الاستدلال للأصول
الاستدلال لأكثر من وجه
بيان اللهجات
الاستدلال للعيد
الاستدلال للقليل
الاستدلال للضعيف
تأكيد السماع
شرح القاعدة والاستدلال لها
عدم الاستدلال بالشعر
أسلوب فني
تكرار البيت في أكثر من موضع
إضافة توجيهات على ما ذكره الخليل
التصريح بموضع الشاهد بشكل مفصل

- الأمـثـال

تميزت لغة الأمثال بأنها تمثل اللغة بدقتها، وبساطتها، وإيجازها؛ وهذا ما جعلها مصدراً هاماً من مصادر كلام العرب. لكنّ النحاة في بداية نشأة النحو العربي لم يعيروا لغة الأمثال اهتماماً مناسباً، ولعل السبب في ذلك هو حرصهم على لغة الشعر الذي أخذوه عن الرواة والأعراب خوفَ ضياعه، مطمئنين إلى أنّ القرآن الكريم باقٍ من غير شكّ.

ولم يحرص العلماء على لغة الأمثال لأنها تمثل لغة العرب فحسب، بل لأنها تصور تاريخهم؛ ولأن لكل مثل تقريباً قصة، ومناسبة نتعرّف من خلالها تاريخَ العرب، وفكرهم إضافة إلى لغتهم، متمثلين منها العظات والعبر لما فيها من حوادث ومفارقات.

أما سيبويه فقد سبق غيره بالاهتمام بالأمثال التي كانت دائرة على ألسنة العرب، تصور لغتهم التي يتداولونها، وترصد تركيب الجملة عندهم على غرار ما رأيناه في لغة الشعر، وكلام العرب، وإذا كان سيبويه قد أولى لغة القرآن الكريم، والشعر اهتماماً أكبر، فإن ذلك لايعني أنه أهمل لغة الأمثال، لكنه جعلها عنصراً متمّماً في استدلاله، واستخدمها للاستدلال على ماخالف الأصول بشكل عام شأنها شأنَ سائر مصادر الاستدلال، وقد أوردَ سيبويه في كتابه مايزيد على أربعين مثلاً جعلها شواهد يستدل بها في معالجاته النحوية، وقد استخدمها استخدامات مختلفة.

وقد قرن سيبويه استدلاله بالقرآن الكريم باستدلاله بالأمثال؛ فهو يقدم القرآن الكريم أولاً، ثم يتبعه بمثلٍ من أمثال العرب، ثم يشرحه بشكل واضح لالبس فيه؛ من ذلك قوله : <<ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: **وإن كان ذو عُسْرةٍ فنظِرَةٌ إلى ميْسَـرَةٍ** (١). ومثـل ذلك قـول العرب فـي مَثَـلٍ من أمثالها:

---

(١)- البقرة ٢/٢٨٠.

(إنْ لاحظِيَّةٌ فلا أَلِيَّةٌ) (١)؛ أي إن لاتكن له في الناس حظيّةٌ فإني غير أليَّةٍ، كأنها قالت في المعنى: إن كنت ممّن لايُحظى عنده فإني غير أليّةٍ. ولو عنتْ بالحظيّة نفسَها لم يكن إلاّ نصباً إذا جعلتَ الحظيّة على التفسير الأول>>(٢) ومثل ذلك أمثلة أخرى(٣)

وفي مواضع مختلفة نرى سيبويه يقدم الأمثال على الشعر مبرزاً دور المثل في الاستدلال النحوي، من ذلك قوله: << (لم يُحْرَمْ مَنْ فُصْدَ له) (٤) وقال أبو النجم:

لوعُصْرْ منه البانُ والمسكُ انعَصَرْ (٥)

يريد:عُصِر>>(٦) ومنه قوله :<<كما جعلوا (عسى) بمنزلة كان في قولهم: **(عسى الغُوَيْرُ أبؤساً)**>>(٧)

---

(١)- الحظيّة : هي المرأة تحظى عند زوجها، وتصير ذات مكانة وإعزاز. غير أليّة: أي غير مقصرة فيما يلزمها لزوجها. وقيل معناه: إن اخطأتك الحظوة فيما تطلب فلا تألُ أنْ تتودد إلى الناس لعلّك تدرك بعض ما تريد. الكتاب ٢٦١/١ واللسان(حظا).

(٢)- الكتاب ٢٦١/١.

(٣)- انظر المصدر نفسه ٢٨٢/١، ٣٩١/٢.

(٤)- يريد: فُصِد. الفَصِيْد: دم كان يجعل فيه مِعيٌ من فَصْد عِرق البعير، ثم يسخّن إلى أن يجمد، ويقوى وتأويل ذلك أن الرجل كان يضيف في شدة الزمان، فلا يكون عنده ما يقريه، ويشح أن ينحر راحلته، فيفصدها، ويطعم الضيف؛ أي لم يُحرم القرى من فُصدت له الراحلة فحظي بدمها. يضرب لمن طلب امرا فنال بعضه. الكتاب ١١٤/٤، ومجمع الأمثال للميداني ١٩٢/٢.

(٥)- يصف شعراً يتعهد بالبان والمسك، ويكثر فيه منهما حتى لو عصرا منه لسالا. والشاهد في تسكين ثاني الفعل (عُصْر) طلباً للاستخفاف؛ وهي لغة في بكر بن وائل قوم أبي النجم. الكتاب ١١٤/٤.

(٦)- المصدر السابق ١١٤/٤.

(٧)- الغُوَير: تصغير غار، والأبؤس: جمع بؤس، وهو الشدة. وأصل هذا المثل- فيما يقال- من قول الزبّاء حين قالت لقومها عند رجوع (قصير) من العراق، ومعه الرجال، وبات بالغُوَير على طريقه. عسى الغوير أبؤسا؛ أي لعل الشرّ يأتيكم من قبل الغار . وجاء رجل إلى عمر (رض) يحمل لقيطاً، فقال عمر: عسى الغوير أبؤسا. قال ابن الأعرابي: إنما عرّض بالرجل؛ أي لعلك صاحب هذا اللقيط، ونصب (أبؤسا) على معنى عسى الغوير يصير أبؤسا، ويجوز أن يقدّر: عسى الغوير أن يكون أبؤسا ، وقيل : جعل عسى بمعنى كان ، ونزّله منزلته. يضرب للرجل يقال له لعلّ الشرّ جاء من قبلك. الكتاب ٥١/١، ومجمع الأمثال ١٧/٢.

ثم استدلاله بأبيات للأعشى، وجرير، وذي الرّمّة، والعجّاج(١) ومثل ذلك كثير(٢)

ويلجأ في مواضع أخرى إلى الاستدلال بالأمثال بين الشواهد الشعرية، ففي حديثه عن نصب المصدر بفعل محذوف يقول: ‹‹وقال الراجز، وهو العجاج:

أَطَرَباً وأنتَ قِنَّسْرِيّ (٣)

وإنما أراد: أتطرَبُ، أي أنت في حال طَرَبٍ ؟ ولم يرد أن يُخبر عمّا مضى، ولاعمّا يُستقبل.

ومن ذلك قول بعض العرب: (**أَغُدَّةً كغدّة البعير، وموتاً في بيت سلوليّة**) (٤) ... وقال جرير:

أعبداً حَلَّ في شُعَبَى غريباً ... ألؤماً لا أبالك واغترابا(٥)

يقول : أتلؤم لؤماً، وأتغترب اغترابا››(٦) ومثل ذلك حديثه عن الأعلام، وصرفها، واستدلاله قائلاً: ‹‹وكذلك هَجَرَ، يؤنث ويذكر. قال الفرزدق:

منهنّ أيامُ صدقٍ قد عُرِفْتُ بها ... أيامُ فارسَ والأيّامُ من هَجَرا (٧)

---

(١)- انظر الكتاب ١/٥١،٥٢،٥٣.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٢٨٠،٢٨١،٢٤٣.

(٣)- القنّسري: الشيخ الكبير المسن، يقول أتطرب وأنت شيخ. والطرب: خفة الشوق هنا، وخفة السرور. والشاهد نصب (طرباً) على المصدر الموضوع موضع الفعل، أي أتطرب طرباً. الكتاب ١/٣٣٨.

(٤)- مثل يضرب في خصلتين إحداهما شرّ من الأخرى. وسلول عند العرب قليلة ذليلة: وكان عامر بن الطفيل يريد قتل النبي(ص) فاتفق مع اربد بن قيس على ذلك، لكنّ النبي أحسّ بذلك، وولى عامر هاربا فنزل بيت امرأة سلولية، ثم خرجت على ركبته غُدة عظيمة، وخاف الموت وهو في بيت السلولية. مجمع الأمثال ٢/٥٧-٥٨.

(٥)- يُعيّر العباس بن يزيد الكندي بحلوله في شُعَبَى، لأنه كان حليفاً لبني فزارة (وشعبى) من بلادهم، والحلف عار عند العرب. جعله عبداً لئيماً نازلاً في غير أهله، فأنكر عليه أن يجمع بين اللؤم والغربة. والشاهد نصب (لؤماً، واغترابا) بفعل محذوف. الكتاب ١/٣٣٩.

(٦)- المصدر السابق ١/٣٣٨-٣٣٩.

(٧)- فارس: بلاد الفرس. وهَجَر: بلد في البحرين. والشاهد فيه منع صرف (هجر) لتأنيثه على إرادة البقعة والبلدة. الكتاب ٣/٢٤٣.

فهنا أنث. وسمعنا من يقول: (كَجالبِ التمر إلى هَجَرَ) يافتى>>(١) ثم إتباعه ببيت لمسكين الدارمي(٢) ومثل ذلك غير قليل. (٣)

ونرى سيبويه أحياناً يضع الأمثال في المقام الأول في استدلاله، ويقدمها على غيرها من مصادر الاستدلال؛ من ذلك ماأورده في بداية حديثه عن (باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل)، يقول في صدر كلامه: <<وذلك قولك: (أتميميّاً مرة وقيسيّاً أخرى) (٤) وإنما هذا أنك رأيت رجلاً في حال تلوّن وتنقّل، فقلت: أتميماً مَرةً، وقيسياً أخرى>>(٥)، وفي الكتاب غيرُ مثالٍ على ذلك (٦).

ومن الطرق التي يستخدمها سيبويه في الاستدلال بالأمثال أنه في كثير من الأحيان يأتي بالمثل في ثنايا كلام العرب، وألفاظهم بعيداً عن آيات القرآن الكريم، أو الشعر؛ من ذلك استدلاله بقوله: (تسمع بالمعيديّ لا أن تراه) (٧) فهو يورد المثل بين كمّ من الأمثلة التي صنعها حتى إنه في

---

(١)- جاء في مجمع الأمثال للميداني (كمستبضعِ التمرِ إلى هَجَرَ) ومؤدى المعنيين واحد، ذلك أن (هجَر) مشهورة بالتمر، وجالب التمر إليها مخطئ . انظر الكتاب ٣/٢٤٤، ومجمع الأمثال للميداني ٢/١٥٢-١٥٣.

(٢)- انظر الكتاب ٣/٢٤٤.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٢٨٠، ٢٨١، ٢/٢٩٧.

(٤)- مثل يضرب في التلوّن والتنقّل من حال إلى حال.

(٥)- الكتاب ١/٣٤٣.

(٦)- انظر المصدر السابق ١/٢٥٨،٢٨٠.

(٧)- للمثل روايات أخرى، وهو يُضرب لمن خبرُه خيرٌ من مرآه. وقد أورد الميداني قصة المثل مفصلة. انظر الكتاب ٤/٤٤، ومجمع الأمثال للميداني ١/١٢٩-١٣١.

(باب ماتجيء فيه (الفِعلة) تريد بها ضرباً من الفعل) كلّه لم يورد آية كريمةً واحدة، أو بيتاً من الشعر، ولم يذكر في ذلك الباب إلا ذلك المَثَل (١). وقد أكثر سيبويه في كتابه من هذه الطريقة (٢).

وقد يرجئ الاستدلالَ بالأمثال إلى آخر المعالجة النحوية بعد أن يفرغ من ذكر الشعر والأمثلة، وكلام العرب النثري؛ من ذلك استدلاله بمَثَلَيْن متتاليين في ختام حديثه في (باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفِعل المستعمَل إظهارُه إذا علمتَ أنّ الرجل مستغنٍ عن لفظِك بالفعل) فهو يقول: << ومنه قول العرب: **أمْرَ مُبكياتِك لاأمر مضحكاتك** (٣)، و(**الظّباءَ على البقر**) (٤). يقول: عليكَ أمرَ مبكياتِك، وخلِّ الظباءَ على البقر>>(٥). ولم أجد في الكتاب إلاّ هذين المَثَلَيْن استدلّ بهما على هذه الطريقة المذكورة.

---

(١)- أي : تسمع بالمعيديّ لا أن تراه. انظر الكتاب ٤/٤٤.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٩٢، ٢/٢٣١، ٣/٢٦٩، ٣٠٧، ٦٤٨، ٤/٧١.

(٣)- يروى أنّ فتاة من بنات العرب كانت لها خالات، وعمّات، فكانت إذا زارت خالاتها ألهينَها، وأضحكْنَها، وإذا زارت عماتها أدّبنها وأخذن عليها، فقالت لأبيها: إنّ خالاتي يلطفنني، وإن عمّاتي يبكينني. فأجابها أبوها بهذا المثل؛ ومعناه اتّبع أمر من ينصح لك فيرشدك، وإن كان شرّاً عليك صعب الاستعمال، ولاتتبع أمر من يشير عليك بهواك؛ لأن ذلك ربّما أدّى إلى العطب. انظر الكتاب ١/٢٥٦، مجمع الأمثال للميداني ١/٣٠.

(٤)- يُضرب عند انقطاع مابين الرجلين من القرابة والصداقة. وكان الرجل في الجاهلية إذا قال لامرأته (**الظّباء على البقر**) بانتْ منه، وكان عندهم طلاقاً، ونصب (الظباء) على معنى اخترتُ أو أختار الظباء على البقر، والبقر كناية عن النساء، ومنه قولهم: (جاء يجرّ بقره) أي عياله وأهله. انظر الكتاب ١/٢٥٦، ومجمع الأمثال للميداني ١/٤٤٤.

(٥)- الكتاب ١/٢٥٦.

اعتمد سيبويه لغة الأمثال لدقتها، والتصاقها بحياة الأعراب، وتداولها على ألسنتهم، لذلك فإننا نراه في مواضع متعددة لايكتفي بإيراد مَثَلٍ واحد، بل يذكر مَثَلين، أو ثلاثة أمثال في الفكرة الواحدة؛ من ذلك قوله: «« ومن ذلك أيضا أن ترى رجلاً قد أوقع أمراً، أو تعرّض له فتقول: (متعرّضاً لِعَنَنٍ لم يَعْنِه) (١)، أي دنا من هذا الأمر متعرّضا لعَنَنٍ لم يعنه. وترك ذكْر الفعل لما يرى من الحال. ومثله: (بَيْعَ المَلَطَى لا عهدَ ولاعقدَ) (٢)، وذلك إن كنت في حال مساومةٍ، وحال بيعٍ، فتدعُ أبايعُك استغناءً لما فيه من الحال. ومثله: (مواعيدَ عرقوبٍ أخاه بيثرب) (٣) كأنه قال: واعدتّني مواعيدَ عرقوب أخاه، ولكنّه ترك (واعدتّني) استغناء بما هو فيه من ذكر الخُلف»»(٤) وقد تكرر ذكرُ سيبويه لمَثَلين، أو ثلاثة أمثال في المسألة الواحدة في مواضع متعددة (٥).

ويجعل أحياناً الشطر من بيت شاع وانتشر، وذهب مَثَلاً بين الناس مادةً للاستدلال، يدفعه إلى ذلك شهرة البيتِ بل شطره؛ من ذلك قوله: «« وتصديق ذلك قولهم في مَثَل: (في عَضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شكيرُها)»» (٦) ولم يشر سيبويه إلى أنّ هذا المثل هو صدر لبيت باختلاف بسيط(٧)، وهو بتمامه:

---

(١)- العَنَن: الأمر. مَثَل يُضرب للمعترض فيما ليس من شأنه. الكتاب ٢٧٢/١، مجمع الأمثال للميداني ٣٢٠/٢.

(٢)- المَلَطى: البيع بغير رجوع، وهو مثل يُضرب لمن يقدم على أمر لارجوع فيه.

(٣)- عرقوب رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطلعتْ هذه النخلة فَلَكَ طلعها، فلما أطلعتْ أتاه للعِدة، فقال:دعها حتى تصير بَلَحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتّى تصير زَهْواً، فلما زهت قال: دعها حتّى تصير رُطَباً،فلما أرطبت قال: دعها حتّى تصير تمراً، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدّها، ولم يعطِ أخاه شيئاً، فصار مثلاً في الخُلف، وفيه يقول الأشجعي:

وعدتَ وكان الخُلفُ منكَ سجيّةً ... مواعيدَ عرقوبٍ أخاهُ بيَثربِ

انظر الكتاب ٢٧٢/١، ومجمع أمثال ٣١١/٢.

(٤)- الكتاب ٢٧٢/١.

(٥)- انظر الكتاب ٢٥٦/١، ٢٧٣، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٢٩، ٥١٧/٣.

(٦)- العضة واحدة العضاة وهو شجر عظام، والشّكير: صغار الورق، والشوك؛ أي إنّ الصغار إنّما تنبت من الكبار، يضرب مثلاً في مشابهة الرجل أباه. والشاهد زيادة (ما). الكتاب ٥١٧/٣.

(٧)- خزانة الأدب ٨٣/١، ٤٨٩/٤، ٥٦٦، ولسان العرب (شكر).

ومن عَضَةٍ مَا ينبُتَنَّ شكيرُها قديماً ويقتطّ الزِناذَ من الزندِ (١)

نلاحظ مما تقدم أنّ الأمثال التي ذكرها سيبويه في كتابه جاءت تحتل مكانها الهامّ في الاستدلال إلى جانب الشعر والنثر، فهي تتقدمهما حيناً، ويتقدّمانها حينا آخر، لافرق عنده بين مَثَلٍ أوغير مَثَلٍ، إلاّ إذا كان الأمر يتعلّق بغزارة المادة؛ فما من شكّ أنّ الأمثال تعجز عن اللحاق بالشعر والقرآن الكريم من حيث العدد، ففي الوقت الذي استدلّ فيه بأكثر من ألف بيت، وبما يقرب من أربعمائة آيةٍ كريمة نجده قد استدلّ بأربعين مثَلاً تقريباً في كتابه كلّه.

ولم تكن الأمثال التي تناولها سيبويه في كتابه مطابقة لما أوردته كتب الأمثال، فهي قد تختلف أحياناً اختلافاً بسيطاً لايغيّر في الأمر النحوي شيئاً، وهذا الاختلاف ليس من اختلاق سيبويه، أوشيوخه الذين نقل عنهم فهم بعيدون عن الشكّ في دقّتهم في النقل، وأمانتهم فيما يروونه عن الأعراب، وأمثالهم، ولعلّ السبب في اختلاف رواية الأمثال بين الكتاب من جهة ، وكتب الأمثال من جهة أخرى يعود إلى اختلاف الأعراب في ذكر المثل تبعاً لما يتداولونه في باديتهم، فإذا كان الشعر على مافيه من وزن، وقافية، وإيقاع عرضة لتعدّد الروايات، وكذلك القرآن الكريم بقراءاته المتعددة، فمن البدهيّ أن يحمل المَثَلُ رواياتٍ متعددةً أيضاً تتسم كلها بالفصاحة بدليل أنّ كلّ النحاة الذين عاصروا سيبويه، أو نَقَلَ عنهم تداولوا هذه الأمثال، ونقلوها في زمن عرفت فيه حدود الاحتجاج الزمانية، والمكانية.

---

(١)- انظر الكتاب (حاشية) ٣/٥١٧.

- المسائل النحوية في استدلال سيبويه بالأمثال

لم يكن استدلال سيبويه بالأمثال يغطي الجوانب النحوية كافة على نحو مارأيناه في استدلاله بالشعر، والقرآن الكريم، ولعلّ السبب يعود إلى قلّة الأمثال في كتابه. وهي على قلّتها عالجت بعض القضايا، أو أسهمت في بعض التناولات النحوية، سواء أكانت فيما خالف الأصول أم فيما وافقها.

١- الخروج على الأصل:

استدل سيبويه لما خرج على الأصل في عدة حالات تتعلّق بأسلوب فني، أو بالحذف، أو الضرورة، أو ببيان لغة، أو ببنية الكلمة.

* من ذلك أنّ (لا) النافية للجنس لاتعمل في المعرفة، بل تعمل في النكرة، (١) وقد نقل لنا سيبويه ما خالف هذا الأصل، وبيّن أن بعض الأساليب الفنية جاءت على خِلافِ الأصل، واستدل بالشعر ثم استدل بقول عمر بن الخطاب (رض) الذي ذهب مثلاً بين الناس: «قَضِيَّةٌ ولاأبا حَسَن» (٢) فأعمل (لا) في المعرفة (أبا حَسَن) خلافاً للأصل. ونقل لنا عن الخليل قوله في ذلك: «لأنه لايجوز لك أنْ تُعمِل (لا) في معرفة، وإنما تعملها في النكرة»(٣).

* واستدل على جواز حذف الفعل العامل فيما بعده، وبقاء المعمول، بقولهم «أوَ فَرَقاً خيراً من حُبٍّ»(٤) بتقدير أوَ أفْرَقُكَ فَرَقاً خيراً من حبٍّ، ومن ذلك ماستدلّ به من قولهم:

---

(١)- الكتاب ٢/٢٩٦.

(٢)- المصدر السابق ٢/٢٩٧.

(٣)- المصدر السابق ٢/٢٩٧، انظر في ذلك ١/٢٧٢-٢٧٣، ٢٨٠-٢٨١، ٢/٣٠٦، ٣٩١.

(٤)- الفَرَقُ: الخوف والمَثَلُ كلام تكلّم به عند الحجاج رجل قد فعل له فعلاً فاستجاده، فقال الحجّاج: أكلُّ هذا حبّاً؟ أي فعلت كل هذا حبّاً لي ؟ فقال الرجل مجيباً له: أوَ فَرَقاً خيراً من حبٍّ ؟ أي: إن فعلتُ هذا خوفاً فهو أنبل لك وأجلُّ ؟! انظر الكتاب (حاشية) ١/٢٦٨.

‹‹اللهُمَّ ضَبُعاً وذئباً››(١) إذا كان يدعو بذلك على غنم رجُل. وإذا سألتهم مايعنون قالوا: اللهمَّ اجْمع، أو اجعل فيها ضبُعاً وذئباً.

* واستدل سيبويه بالأمثال على ماخالف الأصول كالحذف الذي يكون للضرورة؛ ولا تكون الضرورة إلاّ في الشعر، لما في الشعر من قيود تقيّده، ومن خلال حديث سيبويه عن حذف (يا) قبل المنادى النكرة، أجاز حذفها في الشعر، واستدلّ بقول العجّاج:

جاريَ لاتستنكري عذيري (٢)

وفي غير الشعر يكون الحذف ضعيفاً، واستدلّ على ذلك بالأمثال :‹‹ افتَدِ مخنوقُ›› و‹‹ أصبِحْ ليلُ›› و ‹‹ أطرِقْ كَرا››، ثم أشار إلى أن هذا ليس بكثير، ولابقويّ (٣).

* وهو يعرض لبعض القضايا الصرفية التي تتعلّق ببُنية الكلمة مستدلاً للغة بكر بن وائل، و كثير من بني تميم على تسكين ماهو متحرك في الأصل استخفافاً(٤)، ونقل لنا قولهم: ‹‹ لَم يُحْرَم مَن فُصْدَ له››(٥) والأصل قولهم (فُصِدَ) بكسر عين الكلمة، لكنّه استدلّ على ماخالف الأصل في بنية الكلمة.

---

(١)- قيل: إنّ الذئب والضبع إذا اجتمعا لم يؤذيا، وشَغَلَ كلُّ واحد منهما الآخر، وإذا تفرّقا آذيا. وقيل : إنّ معناه في الدعاء عليها؛ قَتلَ الذئبُ الأحياءَ، وأكلت الضبعُ الأمواتَ فلم يبق منها بقية. الكتاب (حاشية) ١/٢٥٥، وانظر في مثل ذلك ١/٣٤٣.

(٢)- يخاطب العجّاج امرأته: يريد: ياجاريةُ. وعذير الرجل: مايروم، ومايحاول مما يعذر عليه إذا فعله. ذلك أنّه وذلك أنّه كان عزم السفر فكان يرمّ رحل ناقته لسفره، فقالت له: ماهذا الذي ترمّ ؟! والشاهد فيه حذف حرف النداء، ضرورة من (جاري) وهو اسم نكرة قبل النداء، لايتعرّف إلا بحرف النداء، وإنما يطّرد حذفه في المعارف. وسيبويه يقصد بالنكرة هنا ماكان نكرة قبل النداء، فصار معرفة بعده، لا كما اعترض عليه المبرّد. انظر الكتاب (حاشية) ٢/٢٣١.

(٣)- المصدر السابق ٢/٢٣١.

(٤)- المصدر السابق ٤/١١٣.

(٥)- انظر المصدر السابق ٤/١١٤.

* ومن ذلك حديثه عن وزن (مَفْعَلَة) وهو الأصل واستدلّ بقول بعضهم: «إنّ الفُكاهة لَمَقْوَدَةٌ إلى الأذى»(١) حيث جاءت (مَقْوَدة) مطابقة للأصول فيما لوكان الاسم غير معتل العين، لأنّ ماكان معتل عين الكلمة بالواو، أو الياء، وكانت عينه متحركة، وماقبلها صحيح ساكن، وجب نقل حركة الواو، أو الياء إلى الساكن قبلهما، والصواب وقوع الإعلال بالتسكين وقوله (مَقَادة)؛ لكنه جاء على ماخالف قواعد العرب الصرفية، واستدلّ لها بالمَثَلِ السابق.

ولعل سيبويه كان يهدف إلى بيان ماخالف الأصول من خلال لغة بعض العرب.

---

(١)- انظر الكتاب ٤/٣٥٠.

٢- الاستدلال للأصول

لم يذكر سيبويه شيئاً من الأصول في استدلاله بالأمثال، إلاّ في مَثَلَين جاءا في كلامه على إضمار الفعل المستعمَل إظهارُه (١). فالأصل أن الفعل أو مايقوم مقامه يعمل في مفعوله فينصبه، وقد استدل سيبويه على ذلك حين يكون العامل محذوفاً بقولهم:‹‹ أمرَ مبكياتِك لا أمرَ مضحِكاتك›› (٢) وقولهم ‹‹ الظباءَ على البقرِ›› على تقدير: عليك أمرَ مبكياتِك، وخلِّ الظباءَ على البقرِ (٣).

ولعلّ القلّة في استدلال سيبويه للأصول تعود إلى ماصار ملمحاً من ملامح الكتاب،وهو أنّ سيبويه أولى اهتمامه لما خالف الأصول أكثر من اهتمامه بالأصول ذاتها، لأن الأصول لاتبغي دليلاً.

٣- الأسلوب الفنيّ (الحكاية):

* لم يحظَ بحث الحكاية بأمثالٍ كثيرة، أو آيات قرآنية كريمة، أو شعر، بل أنه لم يذكر من الأمثال في هذا المجال إلاّ مَثَلاً واحداً في حديثه عن الأفعال التي تجري مجرى الأسماء، واستدلّ بقولهم: ‹‹ مُذ شُبَّ إلى دُبَّ›› أو ‹‹مُذْ شُبٍّ إلى دُبٍّ›› (٤) فقد استدلّ بالمَثَل السابق على إعراب (شبّ ودبّ) وجرّهما حملاً على إجرائهما مجرى الأسماء، وذلك ضمن حديثه عن قوله (ص) ‹‹ إنّ

---

(١)- انظر الكتاب ٢٥٦/١.

(٢)- أي اتبع أمرَ مَن ينصح لك فيرشدك وإن كان مرّاً عليك صعب الاستعمال، ولا تتبع أمر من يشير عليك بهواك، لأن ذلك ربما أدى إلى العطب. انظر الكتاب ٢٥٦/١، ومجمع الأمثال ٣٠/١ فقد ورد ‹‹ويروى أمرُ بالرفع، أي أمرُ مبكياتك أولى بالقبول والاتباع من غيره››.

(٣)- انظر الكتاب ٢٥٦/١.

(٤)- ويقال: أعييتني من شُبَّ إلى دُبَّ، ومن شُبٍّ إلى دُبٍّ؛ أي من لدن شببتَ إلى أن دببتَ على العصا؛ يجعل ذلك بمنزلة الاسم، بإدخال (من) عليه، وإن كان في الأصل فعلاً. الكتاب ٢٦٩/٣، واللسان (شبب).

الله ينهاكم عن قِيلَ وقالَ›› (١) وقول ابن مُقبل (٢):

أصبحَ الدهرُ وقد ألْوَى بهمْ   غير تَقْوالِكَ مِن قيلٍ وقالِ (٣)

وغير ذلك (٤).

٤- الاستدلال لأكثر من وجه:

* يحاول سيبويه أن يحيط بالجوانب النحوية المحتملة لما يطرحه من مادة يستدلّ بها، وهو في الأمثال كشأنه في الشعر، والقرآن الكريم؛ من ذلك استدلاله بقولهم:‹‹ غَضَبَ الخيلِ على اللُّجُمِ›› (٥)، فقد ذكر أكثر من وجه منقول عن العرب؛ يقول سيبويه:‹‹ كأنه قال: غضبتَ، أو رآه غضبانَ فقال: غَضَبَ الخيلِ، فكأنّه بمنزلة قوله: غَضِبْتَ غضبَ الخيلِ على اللجُم. ومن العرب من يَرفع فيقول: غَضَبُ الخيل على اللُّجُم، فرفَعه كما رفع بعضُهم: الظّباءُ على البقَرِ›› (٦).

---

(١)- انظر الكلام على هذا الحديث في اللسان (قول) حيث أجاز الحكاية والإجراء مجرى الأسماء.

(٢)- ملحقات الديوان ٣٩٢، انظر الكتاب (الحاشية) ٢٦٨/٣.

(٣)- ألوى بهم: ذهب بهم، فلم يبق منهم غير الخبر والحديث، قيل عنهم: كذا، وقال فلان: كذا والشاهد فيه: إعراب (قيل وقال) وجرّهما حملاً على إجرائهما مجرى الأسماء، ولو أمكنه ألا يصرفهما حملاً على معنى الكلمة واللفظة لجاز. الكتاب (حاشية) ٢٦٩/٣.

(٤)- كاستدلاله بقول الشاعر: ولم أسمع به قيلاً وقالا. المصدر السابق ٢٦٩/٣.

(٥)- الكتاب ٢٧٣/١ وهو مَثَل يُضرب لمن يغضب غَضَبًا لاينتفع به، ولا موضع له،ونصب (غَضَبَ) على المصدر، أي غَضِبَ غَضَبَ الخيل. مجمع الأمثال للميداني ٥٩/٢.

(٦)- يُضرب المثل عند انقطاع مابين الرجلين من القرابة والصداقة. وأنّ (الظباء) منصوب على معنى اخترت، أو أختار الظباء على البقر. والبقر كناية عن النساء. وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته بانت منه، وكان طلاقًا. الكتاب ٢٥٦/١ ومجمع الأمثال ٤٤٤/١ ورواية أخرى في المصدر السابق ١٤٢/٢.

وكان سيبويه قد استدلّ قبل ذلك بعدة أمثال متتابعة تقريباً، فنقل قولهم: ‹‹ادفع الشرَّ ولو إصبعاً›› (١) وقولهم: ‹‹متعرّضاً لعَنَنٍ لم يَعنِه›› (٢)، وقولهم: ‹‹بَيْعَ الملَطَى لاعهدَ ولاعقْدَ›› (٣) وقولهم ‹‹ مواعيدَ عُرقوبٍ أخاه بيَثْرِبِ›› (٤) ومافيها من وجوه نحوية محتملة. وقد أورد سيبويه أمثالاً أخرى في الموضوع نفسه (٥).

٥- بُنيَـــةُ الكلمـــة:

تكلّم سيبويه على بنية الكلمة سواء أكان ذلك فيما خالف الأصول كما أسلفت، أم في حديثه عن معاني بعض الأوزان كحديثه في باب (استفعلت) عن معنى التحوّل الذي يضمّه هذا الوزن فهو ينقل المعنى من حال إلى حال، ويستدل على ذلك بقولهم:‹‹ استَنْوَقَ الجملُ (٦)، واستَتْيَسَت الشاةُ››(٧).

---

(١)- الكتاب ١/٢٧٠.

(٢)- العَنَنُ: الأمر، يُضرب المثل للمعترض فيما ليس من شأنه، وقد أورده الميداني كما هو في الكتاب وأورده صاحب اللسان (معرض لعَنَنٍ لم يعنه). انظر الكتاب ١/٢٧٢، مجمع الأمثال ٢/٣٢٠، اللسان (عنن).

(٣)- الملطَى: البيع بغير رجوع وقد أورده الميداني، وصاحب اللسان برواية مختلفة قليلاً. انظر الكتاب ١/٢٧٢ ومجمع الأمثال ٢/٢٨٣ واللسان (ملس، ملط، عهد).

(٤)- هو عجز لبيتٍ صدرُه: (وعدتَ وكان الخلف منك سجيّة)، وعرقوب رجل من العماليق يضرب به المثل في خلف الوعد، وله قصة مشهورة. انظر الكتاب ١/٢٧٢، ومجمع الأمثال ٢/٣١١، واللسان (ثرب).

(٥)- انظر الكتاب ١/٢٥٨، ٣/٢٤٤.

(٦)- أي: صار كالناقة في ذلّها، ولايستعمل الفعل (استنوق) إلا مزيداً. اللسان(نوق).

(٧)- استتيست الشاة، أو استتيست العنز، مثَلٌ يُضرب في الرجل الذليل يتعزّز. انظر الكتاب ٤/٧١، وانظر ٤/٤٤، واللسان (تيس).

من خلال ماتقدم نرى أنّ استدلال سيبويه بالأمثال، لم يكن ركناً هاماً من أركان استدلاله، بل كان متمماً لغيره من طرق الاستدلال من قرآن كريم، وشعر، وهو من باب الإحاطة بكلّ مادة تصور واقع لغة العرب التي رسم سيبويه ملامحها من خلال القواعد الشاملة المذكورة في كتابه، وهو فيما تقدّم لم يحرص على الاستدلال للأصول النحوية، وقواعدها البسيطة، بل كان استدلاله لما خالف الأصول، وخرج عليها بشكل عام على غرار مافعله في استدلاله بالقرآن الكريم، والشعر.

ما نقله عن العـــــرب (لغة التخاطب)

أدرك النحاة القدماء منذ بدايات نشأة النحو، بل قبل ذلك أيضاً، الفرقَ بين لغة الأعراب في البادية، ولغة العرب الذين جاوروا المدن، وسكنوها، أو الذين ترددوا على الحواضر بشكل عام فجعلوا لغة البداة هي الأصل الذي تُستنبط منه قواعد العربية؛ لأنها اللغة الفصيحة التي تمثّلُ لغةُ الشعر والقرآن الكريم أعلى درجاتها.(١)

لم يَنَلْ سيبويه السبق في مشافهة الأعراب، فقد كان متتبعاً لسنّة من سبقه من النحاة الذين اعتنوا بالبدو عناية بالغة فعاشوا في مضاربهم، وتنقّلوا معهم، وشافهوهم في بوادي نجد، والحجاز وتهامة، وكذلك في مواسم الحج.(٢) وقد أولى سيبويه لغة التخاطب عناية كبيرة تشابه عنايته بالشعر، والقرآنَ الكريم، وقارَبَ استدلالُه بكلام العرب من لغةٍ، أو أساليبَ تركيبيةٍ، أو عباراتٍ مسموعةٍ الشعرَ، والقرآن في الاستدلال على ما خالف الأصول وهذا يدلّ على أهمية لغة العرب التي يتخاطب بها من حيث دقتُها ومطابقتها للواقع الذي تؤخذ من خلاله قواعد العربية.

---

(١)- في ذلك يقول ابن جنّي: <<وليس أحد من الفصحاء إلاّ يقول: إنه يحكي كلام أبيه وسلفه، يتوارثونه آخرٌ عن أول، وتابع عن متّبع. وليس كذلك أهل الحضر، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة. غير أن كلام أهل الحضر مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم، وتأليفهم، إلا أنهم أخلّوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح.>> الخصائص ٢/٢٩.

(٢)- انظر الاشتقاق لابن دريد ١١٩ تح : هارون، القاهرة ١٩٥٨، وطبقات الزبيدي ٢٩-٣٨ تح: أبو الفضل القاهرة ١٩٥٤، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٣/١٩٩ القاهرة بلا تاريخ.

ومن المظاهر الهامة التي تبيّن أهميةَ الأعراب في كتاب سيبويه أنّه يعتمد انشادهم للشعر ويتّخذ منه حجّةً للدلالة على صحة الرواية تماماً كما اعتمد كلامهم في لغة التخاطب(١) شأنه شأن مَن سبقه من النحاة الذين نقل عنهم كأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد وغيرهم.

١- **النقل عن شيوخه:**

كانت بداية النحو بصرية، ومن البصرة انتقلت إلى الكوفة فغيرها من الأمصار فيما بعد، لذلك فقد كان أئمة النحو الأوائل فيها السبّاقين في الأخذ عن الأعراب، ومشافهتهم.

* ولمّا كان النحاة الأوائل لم يتركوا لنا أثراً مكتوباً نركن إليه فقد أضحى كتاب سيبويه هو المرجع الأهم لآرائهم المستنبطة من كلام الأعراب. فقد أورد رأي عيسى بن عمر، ونقل عنه في مواضع متعددة كلامَ العرب في لغة تخاطبهم، كقوله: <<وكان عيسى يقول: ادخلوا الأوّلَ فالأوّلَ؛ لأن معناه ليَدخل، فحمَلَه على المعنى>>(٢) وقوله: <<وإن شئت نصبت فقلت: مبروراً مأجوراً، ومصاحَباً مُعَاناً. حدثنا بذلك عن العرب عيسى، ويونس وغيرُهما، كأنه قال: رجعتَ مبروراً، واذهبْ مصاحَباً>>(٣) ويقول في <<باب ما لايكون الاسم فيه إلاّ نكرة>>(٤) نقلاً عن عيسى بن عمر: <<وقد يجوز نصبُه على نصب: هذا رجلٌ منطلقاً، وهو قول عيسى>>(٥)، وقوله: <<حدثنا بذلك يونس، وعيسى جميعاً أنّ بعض العرب الموثوقَ بعربيّته يقول: ما مررتُ بأحدٍ إلاّ زيداً، وما أتاني أحدٌ إلا زيداً>>(٦)

(١)- انظر في ذلك الكتاب ١/٢٤٣، ٢٤٩، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٤٣، ٣٤٧، ٢/١١٢، ١١٩، ١٣٤، وغيره كثير جداً.

(٢)- المصدر السابق ١/٣٩٨.

(٣)- المصدر السابق ١/٢٧١.

(٤)- المصدر السابق ٢/١١٠.

(٥)- المصدر السابق ٢/١١٢.

(٦)- المصدر السابق ٢/٣١٩، وانظر كذلك ٣/١٦.

فسيبويه يستدل بكلام العرب، ولغة تخاطبهم نقلاً عن عيسى بن عمر إضافة إلى ما نقله عنه في مجال الاستدلال بالشعر، والقراءات كما بيّنّا(١)

* أما أبو عمرو بن العلاء فقد استدلّ سيبويه بما نقله لنا عن أبي عمرو من طريق يونس بكثير من كلام العرب، وحديثهم سواء أكان ذلك أساليب كلامية أم مفردات لغوية، يظهر من خلالها عناية أبي عمرو باللغة عناية بالغة؛ ومن استدلاله بما ذكره أبو عمرو من لغة التخاطب قوله: <<ومثل ذلك في القبح: هذا زيد أسودَ الناسِ ، وهذا زيدٌ سيّدَ الناس، حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو>>(٢)، وقوله: <<وزعم يونس عن أبي عمرو، وهو قوله وهو القياس، أنّكَ إذا قلت: لقيته العامَ الأوّلَ، أو يوماً من الأيّام، ثم قلت: غدوةً أو بُكرةً ، وأنت تريد المعرفة لم تنوّن. وكذلك إذا لم تذكر العام الأوّل، ولم تذكر إلاّ المعرفة، ولم تقل يوماً من الأيامِ، كأنك قلت: هذا الحينُ في جميع هذه الأشياء. فإذا جعلتها اسماً لهذا المعنى لم تنوّن. وكذلك تقول العرب>>. (٣) ومثل ذلك كثير في الكتاب(٤).

ويختلف الأمر عند يونس بن حبيب عمّا ذكرناه عن عيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، لأن سيبويه نقل عنه نقلاً يصعب حصره، وأخذ عنه كثيراً من كلام العرب في لغة تخاطبهم، حيث كانت له، أي ليونس حلقة ينتابها الأعراب الفصحاء، ويسألهم أنى يراهم حتى ضاق رؤبة بكثرة الأسئلة، فقال ليونس:<<حتامَ تسألني عن هذه البواطيل، وأزخرفها لك>>(٥). وهذه الطريقة التي كان يأخذ بها

---

(١)- الكتاب ١/١٦٩،١٧١،٣٤٦،٣٦٤، ٢/٢١،٦٥،٢٠٣، ٣٩٢، ٣/١٤٣،٢٠٦،٢٠٧،٢٤٢،٢٨١،٣٤٣،٤٧٢،٥٤٥، ٤/١٥٩.

(٢)- المصدر السابق ٢/١١٣.

(٣)- المصدر السابق ٣/٢٩٣.

(٤)- انظر المصدر السابق: ١/٢٨٦،٣٨٧،٤١٧، ٢/٢٨٢،٣١١،٣٩٣، ٣/٤٠،٢٠٦،٢١٧،٢٤٢،٢٥٣،٢٩٤،٢٩٥.

(٥)- انظر المصدر السابق ٢/٢٠٥،٤١٠،٤١١،٤١٥، وانظر أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٥.

عن الأعراب تفسّر ثقة سيبويه بيونس، وبما ينقله عنه، فلا غرابة إذا وجدنا أنّ سيبويه كان يقصد يونسَ في قوله: ‹‹وزعم من نثق به أنه سمع رؤبة يقول: هذا غلامٌ لك مقبلاً›› (١) وفي غيرها من العبارات التي ينقل فيها عن رؤبة دون أن يذكر اسمه واسم يونس(٢).

أما الخليل فإنه يصعب الفصل بينه، وبين سيبويه فصلاً دقيقاً، لأن كثيراً من آراء سيبويه قد تكون مأخوذة عن الخليل من غير إشارة إلى ذلك، وهو نوع من تأثر التلميذ بأستاذه تأثراً يصل إلى حدّ الانصهار الفكري في كثير من المواضع.

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد سيبويه يشير في مواضع كثيرة إلى الخليل وينقل لنا تعليلاته، وأقيسته، وتوجيهاته المبنية على فِطرةٍ وسلامةٍ في اللغة، اكتسبها من بوادي الحجاز، ونجد، وتهامة، وهو أمر لانرى داعياً لذكره وتكراره.

وإذا كان سيبويه قد نقل لنا لغة التخاطب عند العرب عن الخليل فإنه لم يصل إلى القدر الذي أخذه عن يونس فقد فاق نقله عن يونس كلّ نقل عن شيوخه.

ولعلّ التداول الذي نراه في كتب النحو التي تلت مرحلة النشأة، والتأسيس للأمثلة وكلام العرب مردّه إلى أن الخليل ويونس قد تلمذ لهما نحاةُ العصر آنذاك من بصريين وكوفيين، فأخذوا منهما، ودوّنوا عنهما فكُتب لهذا المتداوَل الانتشارُ والبقاء .

---

(١)- الكتاب ٢/١١٣، ٣٩٢.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٨٦.

٢- مشافهته للأعراب:

احتلت مشافهةُ سيبويه للأعراب حيّزاً كبيراً من استدلاله في الكتاب، وقاربت القرآن الكريم والشعرَ من حيث الكثرة، وضاهتهما من حيث الأهميةُ التي أولاها سيبويه لما سمعه من كلامهم، أو ما نقل إليه عنهم.

ولقي سيبويه الأعرابَ في البصرة وسمع منهم كثيراً ، وجعل كلامهم دليلاً في استنباطه للأصول، وركناً هاماً من أركان الاستدلال النحوي، أمّا إذا كان هذا المسموع يخرج على الشائع من الأصول المسموعة فإنه لايثير استنكاره، لأنه أخذه بنفسه عن أعرابي فصيح؛ من ذلك قوله: <<وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول: مررت برجلٍ هَدّك من رجلٍ، ومررتُ بامرأةٍ هدّتْكَ من امرأة؛ فجعله فعلاً مفتوحاً>>(١).

والعبارات التي يستخدمها سيبويه وتدلّ على مشافهته للأعراب كثيرة ومتنوعة؛ منها: سمعت من أثق به من العرب(٢)، وسمعنا من نثق به من العرب(٣)، وسمعناه ممّن ترضى عربيته(٤)، وسمعنا العرب الفصحاء يقولون(٥) ، وسمعنا فصحاء العرب يقولون(٦)، وسمعنا ذلك من فصحاء العرب(٧).

---

(١)- الكتاب ٤٢٣/١.

(٢)- المصدر السابق ٢٣٠/١، ٥٤٩/٣.

(٣)- المصدر السابق ١٣٩/٤.

(٤)- المصدر السابق ٥٣٣/٣.

(٥)- المصدر السابق ٢١٩/١، ٢٨٥/٣.

(٦)- المصدر السابق ١٥٧/٣، ٥٠٥.

(٧)- المصدر السابق ٢٢٨/٣.

وسمعتهم يقولون (١) ، وسمعناهم يقولون(٢)، وذلك قول العرب سمعناه منهم (٣)، وسمعت عربياً(٤)، وسمعت عربياً موثوقاً بعربيته يقول(٥)، وسمعت رجلاً من أهل البادية(٦)، وغير ذلك من العبارات الكثيرة التي تكشف ثقة سيبويه بكلام العرب الذي يتداولونه ويتخاطبون به.

وقد يكون سيبويه أكثر دقة في الأخذ عن الأعراب حين يحدد اسم الأعرابي في نقل لغته؛ يقول سيبويه: <<وسمعتُ أعرابياً وهو أبو مُرْهِبٍ، يقول: كَرَماً وطولَ انفٍ، أي أكرمْ بك وأطولْ بأنفِكَ>>(٧)

وفي بعض المواضع يشير سيبويه في نقله، واستدلاله بلغة التخاطب إلى القبيلة، أو موطنها، دون أن يحدد اسم قائلٍ بعينه كقوله: <<وسألنا الهُلْوِيِّينَ، والتميميين، فرأيناهم يقولون : من قُدَيْدِيمةٍ ومن وُرَيِّئةٍ، لايجعلون ذلك إلاّ نكرة، كقولك: صباحاً، ومساءً، وعشيةً ، وضحوةً. فهذا سمعناه من العرب.>>(٨) ومثل ذلك ما نقله من لغة تميم وأسد، وبعض تميم من بني عدي، وطيِّئ، والحجاز(٩)

---

(١)- الكتاب ١/١٦٠، ٢/١٥٠، ٣/١١٦.

(٢)- المصدر السابق ٣/١٣٣،١٦٨،٢٠٦، ٤/٣٥،١٣١،١٣٣،١٣٤،٢١٦.

(٣)- المصدر السابق ١/٤١٢، ٢/١٥٢.

(٤)- المصدر السابق ٢/٤١٣.

(٥)- المصدر السابق ٣/٩٨.

(٦)- المصدر السابق ٢/٤٢٠.

(٧)- المصدر السابق ١/٣٢٨.

(٨)- المصدر السابق ٣/٢٩١.

(٩)- انظر المصدر السابق ٢/١٩٢، ٣/٥٥٥، ٤/١٧٧،١٨٠.

وقد يستدل بلغة التخاطب دون أن يذكر قائلها أو قبيلته، معتمداً شهرة الكلمة، ومعرفة الناس لقائلها، كاستدلاله بما قاله عمر بن الخطاب(رض) في علي بن أبي طالب (رض) <<قضيّة ولاأبا حَسَنٍ لها>> في حديثه عن عدم جواز إعمال (لا) في المعرفة(١)

وقد مَلَكَ سيبويه عقليّة نحوية اتّسمت بعدم التعصب للموضوع الذي هو بصدده؛ أي تقعيد لغة العرب، شانه شأن شيوخه.، لذلك فهو لايأخذ كلام الأعرابي بشكل مطلق، بل نراه يشير إليه بعبارة تبيّن مدى ثقته به، أو عدم ثقته، ولعلّ هذا النهج الذي اختطّه سيبويه لنفسه متأثراً بشيوخه يجعلنا نأمن للأحكام التي يصل إليها؛ لأن القواعد التي وصلت إلينا من لغة العرب مرّت عبر مجموعة من النحاة أمثال الخليل وسيبويه ومن سبقهما من أئمة النحو.

وكان صاحب الكتاب ينوّع في أسلوب نعته للأعرابي، فهو يشير إلى أنه ثقة(٢) أو إلى أنه ممن لانتّهم (٣)، أو إلى أنّه من الفصحاء (٤)، وجميعها عبارات يمكن الاطمئنان إليها من حيث الثقة أو الاستنباط.

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٢٩٧.

(٢)- من هذه العبارات: سمعنا من نثق به من العرب، وسمعنا العرب الموثوق بهم، سمعنا من يوثق به، وسمعنا الثقة من العرب، وبلغني عن العرب الموثوق بهم يقولون، وهذا قول من نثق بعلمه، وقال ناس يوثق بعربيتهم، وغيرها كثير. انظر في ذلك الكتاب: ١/٧١، ٢٣٠، ٢٥٥، ٣١٩، ٣٩٦، ٤٢٣، ٢/٩٢، ١٤٠، ٣٤٥، ٣٥٩، ٣/٩٨، ٢٦٥، ٢٦٢، ٥٤٩، ٤/١٢٨، ١٣٩.

(٣)- انظر المصدر السابق : ١/٢٤٥، ٣/١٥٢، ٤/٤٧٢.

(٤)- انظر المصدر السابق: ١/٢١٩، ٣/١٥٧، ٢٣٨، ٢٨٥، ٥٠٥.

أمّا إذا لم يكن يطمئنّ إلى سلامة المسموع من لغة التخاطب فإنه يصرّح كذلك بعدم أطمئنانه كقوله: ‹‹وهو قليل خبيث›› (١)، أو ‹‹وهذا كلام خبيث موضوع في غير موضعه››(٢)، أو ‹‹وهوضعيف خبيث››(٣)، أو ‹‹والعرب قد تتكلّم بهذا وليس بالكثير››(٤)، مستخدما عبارات صريحة بعدم ثقته كالخبث والضعف، أو بعدم تقويته للّغة التي ينقلها كقوله: والعرب قد تتكلّم بهذا، وليس بالكثير، وما شابهها من العبارات.

هذه سبيلُ سيبويه في الاستدلال بلغة التخاطب التي يتداولها العرب، وهذه طريقته في استنباط القواعد، وهي لاتفترق عن استدلاله بالشعر، والقرآن الكريم؛ ذلك لأنها تصوّر واقع العرب بشكل دقيق دون قيود لفظية، أو موسيقية مفروضة؛ لهذا السبب كان يحرص على فصاحة الأعرابي الذي يسمعه، وأمانة الراوي الذي ينقل عنه، فإذا اطمأنّ إلى هذه الأركان كاملة، استطاع تقعيد اللغة، واستخراج القواسم المشتركة مِن بين كمّ كبير من الأساليب العربية، ولهجاتها التي تتباعد حينا، وتتقارب أحيانا.

ولم تكن أدلّته في الاستدلال بلغة التخاطب ذات أبعاد مستقلة من حيث الخروج على الأصل، أو مطابقتها له، بل كانت تحوم حول لغة القرآن الكريم، والشعر، وتسير سيرهما لأنه لم يكن يستدل بأحدهما إلاّ مرفقا بأمثلة كثيرة متنوعة من لغة التخاطب.

---

(١)- الكتاب ١/٣٨٩.

(٢)- المصدر السابق ٢/١١٢.

(٣)- المصدر السابق ٢/٣١٨.

(٤)- المصدر السابق ٢/٣٥٧.

•الأمثلة المصنوعة•

سعى سيبويه لتوضيح قواعده المستنبطة إلى وضع أمثلة من عنده، مبنية على كلام العرب، الهدف منها شرح صورة القاعدة النحوية بشكل مبسط لتكون تمهيداً لاستدلاله بالقرآن الكريم، والشعر، والأمثال، لذلك نراه يضع أمثلته على الأغلب في بداية البحث، ثم يُثبِتُها بأدلته الأخرى.

وكان لمحاكاة سيبويه لكلام العرب بأمثلته المصنوعة أثر كبير فيمن جاء بعده من النحاة؛ حتى إننا نراهم يأخذون أمثلته دون تبديل، أو تطور بشكل عام، ولعلّ السبب في ذلك ثقتهم الكبيرة فيما وصل إليه، أو فيما وضعه أستاذهم.

وليس التفريق بين الأمثلة المصنوعة من جهة، وما جاء قبل ذلك في لغة التخاطب يسيراً؛ لأن صاحب الكتاب قصد التمثيلَ لما هو متداولٌ على ألسنة العرب، فاجتهد بوضع أمثلته على غرار ما نطقوا به(١) وقد حاول سيبويه في أمثلته أن تكون مطابقة للمقاييس النحوية التي استنبطها ، وهذه المقاييس مطابقة أصلاً لما سمعه من العرب، أو نُقل إليهم عنهم.

من ذلك ما أخذه عن الخليل من قول العرب: ‹‹مُطِرْنا الزَّرعَ والضَّرعَ››(٢) ثم شَرَعَ بسرد أمثلة متعددة تتناوب بين جواز الرفع، أو النصب فقال: ضُرِبَ زيدٌ اليدُ و الرجلُ، و مَطَرْتُهُمْ ظهراً وبطناً، ومُطِرَ قومُك الليلَ والنهارَ، وصِيْدَ عليه الليلُ والنهارُ(٣) وضُرِبَ عبد الله ظهرُه، ومُطِرَ قومُك سهلُهم(٤)، وضُرِب عبدُ الله ظهرُه وبطنُه، وضُرِب زيدٌ الظهرُ والبطنُ، وقُلِب عمرو ظهرُه وبطنُه،

---

(١) - انظر ما جاء في الاحتجاج للحلواني ١٧٣ وما بعدها.
(٢)- انظر الكتاب ١/١٥٩.
(٣)- المصدر السابق ١/١٦٠.
(٤)- المصدر السابق ١/١٦١.

ومُطِرنا سَهْلَنا وجَبَلَنا، ومُطرنا السهلُ والجبلُ(١)، وضُرِبَ زيدٌ الظهرَ والبطنَ، ومُطرنا السهلَ والجبلَ، و قُلِبَ زيدٌ ظهرَه وبطنَه(٢). وهذه الأمثلة كلّها تدور في فلكٍ واحد نسجها سيبويه وصنعها من وحي قياسه على ما أخذه من الخليل من قول العرب: مُطِرنا الزرعَ والضَّرعَ، ومثل ذلك كثير(٣)

ويحاول في بعض المواضع أن يحاكي لغة الشعر، فيقدم المثال المصنوع على غرار لغة الشعر، ثم يتبعه بقول الشاعر؛ كقوله: ‹‹أمّا أنتَ منطلقاً انطلقتُ معك، وأمّا زيدٌ ذاهباً ذهبتُ معه.

وقال الشاعر،وهو عبّاس بن مرداس:

أبا خراشة أمّا أنتَ ذا نَفَرٍ ۝ فإنّ قوميَ لم تأكُـلْهُمُ الضَّبُعُ›› (٤)

هذا نهج سيبويه في الاستدلال بالأمثلة المصنوعة، غايته أنْ يقرّب الفكرة النحوية من خلال أمثلة بسيطة قريبة إلى اللغة التي يتداولها العرب بينهم، حتى إذا استوى له ما يريد بدأ بسرد الآيات الكريمة، والشعر، وغير ذلك من طرق الاستدلال؛ ليحيط بالقواعد النحوية المستنبطة إحاطةً تامّةً.

ولم يكن حال الأمثلة المصنوعة مختلفاً عن حال لغة التخاطب من حيث استدلال سيبويه بها، فهي تابع للاستدلال بالقرآن الكريم والشعر، ومتمّمة لهما للوصول إلى فهم القواعد المستنبطة. لذلك لانستطيع أن نحكم بأبعاد القضايا النحوية في لغة التخاطب، والأمثلة المصنوعة حكماً مستقلاً؛ لأن أحكامهما تُستمدّ من أحكام القرآن الكريم، والشعر من حيث خروجهما على الأصل وما يتفرع عنه، وكذلك مطابقتهما له.

---

(١)- الكتاب ١/١٥٨.

(٢)- المصدر السابق ١/١٥٩.

(٣)- انظر مثلاً الكتاب ١/٢٥٨،٢٩٧،٣٣٥،٣٤٠، ٢/٢٣٢،٣٠٧.

(٤)- أبوخراشة : كنية خفاف بن ندبة. والنفر: رهط الرجل. والضبع: السنة المجدبة. وإذا أجدبوا ضعفوا، وسقطت قواهم فعاثت فيهم الضباع والذئاب. أي إن كنت عزيزاً كثير القوم فإني مثلك، وقومي موفورون لم تطح بهم السنون. والشاهد فيه نصب(ذا نفر) خبرا لكان المحذوفة التي عوّض عنها (ما) تعويضاً لازماً. الكتاب (حاشية) ١/٢٩٣.

الفصل الثاني

الاستدلال بغير النصوص

- السـماع
- القيـاس
- العلّـة النحوية

* الســـماع * (١)

إذا كان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر قد اعتمدا القياس دون مجافاة للسماع؛ وإذا كان أبو عمرو بن العلاء، ويونس قد اعتمدا السماع دون مجافاة للقياس، فإن سيبويه قد أخذ بالمنهجين معاً، وجمع بينهما جمعاً دقيقاً بارعاً، فيه أمانة السماع، وفنّ القياس، وفي ظنّي أنّ ما نهجه هو تأثّر كبير واضح بأستاذه الخليل يُظهره لنا من خلال تناولاته النحوية في كتابه.

ولم تنقل لنا كتب الطبقات، أو التراجم شيئاً عن رحلة سيبويه إلى بادية العرب، أو سعيه وراء الأعراب في البوادي، ليأخذ عنهم كما سعى غيره من النحاة؛ وما أورده في كتابه مشيراً إلى السماع لايتعدّى أن يكون أحدَ أمرين؛ أولهما أنّ ماذكره هو نقل عن شيوخه الذين سمعوا عن الأعراب، وثانيهما أنّ ما ذكره بقوله: سمعنا من العرب الفصحاء يقولون، وسمعنا فصحاء العرب يقولون، قد جاء نتيجة لمشافهته لهم في البصرة من خلال ترددهم عليها بشكل عام(٢) وعدم سماعِه المباشر، ومعايشتِهِ للأعراب هو الذي جعله يقصر في بعض المسائل التي سنأتي على ذكرها فيما بعد.

وحديثنا عن السماع يبعدنا عن المادة المسموعة التي ذكرها سيبويه، واستدلّ بها وهي تشمل القرآن الكريم، وقراءاته المتعددة، والحديث الشريف، وكلام العرب؛ شعره، ونثره، وما يشمله النثر من أمثال وغيرها ممّا يتداوله العرب من عبارات، وتراكيب؛ فقد أتينا على ذكرها فيما ورد سابقاً.

---

(١)- هو الأصل الأول من أصول الاستدلال النحوية وقد عرّفه ابن الأنباري المسموعَ بقوله: <<هو الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنقل الصحيح، الخارج عن حدّ القلة إلى حدّ الكثرة، فخرج عنه -إذاً- ما جاء في كلام غير العرب من المولّدين، وما شذّ من كلامهم كالجزم بـ(لن)، والنصب بـ(لم) .... إلخ>> لمع الأدلة لابن الأنباري ٨١، وعرّفه السيوطي تعريفاً أشمل فقال:<<وأعني به (أي السماع) ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيّه(ص)، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين نظماً أو نثراً، عن مسلم او كافر. فهذه ثلاثة أنواع لابدّ في كلّ منها من الثبوت>> الاقتراح للسيوطي ١٤.

(٢)- انظر الكتاب ١/٢١٩، ٣/١٥٧، ٢٨٥، ٥٠٥.

*- وعلى الرغم من أنّ سيبويه قد اعتمد القياس، والسماع في كتابه لكنّه كان أكثرَ اهتماماً بالسماع، فهو يوليه الأهمية الأولى، إن وجد، ويقدمه على القياس، وهو لاينكر تفضيله له فقد صرّح بذلك في قوله: <<ولو قالت العربُ اضرب أيُّ أفضلُ، لقلتُه، ولم يكن بُدٌّ من متابعتهم. ولاينبغي لكَ أن تقيسَ على الشاذِّ المنكر في القياس، كما أنّك لاتقيس على أمْسِ أمسكَ، ولا على أتقول، أيقول، ولاسائرَ أمثلةِ القول، ولاعلى الآنَ، آنكَ، وأشباه هذا كثير>>(١)

*- ولم يكن لسيبويه أسلوب واحد في سماعه عن العرب، بل كان يلوّن الحديث عن ذلك بطرق كثيرة، ومتنوعة، فهو يشير إلى ثقته بمن سمع منه(٢) أو يشير إلى فصاحته(٣) دون تحديد لاسمه أو قبيلته، وقد يذكر أنه سمع رجلين من العرب عربيّين يقولان (٤)، وقد ينقل اسم الأعرابي الذي سمع منه(٥)، وقد يشير إلى أنه سمع ذلك من تميم وأسد(٦)، أو من بعض تميم من بني عدي(٧) وقد يكون سماعه مبنيا على بحث وتقصٍّ منه كقوله: سألنا العرب فوجدناهم يوافقونه(٨)، أو سألنا العلويين والتميميين فرأيناهم يقولون(٩)، أو وسألنا من يرفع(١٠)

---

(١)- الكتاب ٢/٤٠٢.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٧١، ٢٣٠، ٢٥٥، ٣١٩، ٣٩٦، ٢/٩٢، ١٤٠، ٣٤٥، ٣٥٩، ٣/٢٦٥، ٤٦٢، ٥٤٩، ٤/١٣٩.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٢١٩، ٣/١٥٧، ٢٣٨، ٢٨٥، ٥٠٥.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٢٦، ٢٧.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٣٢٨.

(٦)- انظر المصدر السابق ٤/١٧٧.

(٧)- انظر المصدر السابق ٤/١٨٠.

(٨)- انظر المصدرالسابق ٣/٢٩٠.

(٩)- انظر المصدر السابق ٣/٢٩١.

(١٠)- انظر المصدر السابق ٣/٢٢.

*- ويدعم سيبويه أحياناً سماعه عن العرب بما أخذه عن شيوخه، قاصداً تقوية القاعدة النحوية وتدعيمها، كقوله: حدثنا بذلك يونس عن العرب (١)، أو حدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون (٢) أو حدثني يونس أنه سمع من العرب من يقول (٣)، أو وكذا قول العرب، ويونس(٤)، أو وحدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمّن يوثق به من العرب (٥)، أو حدثنا بذلك عن العرب عيسى، ويونس، وغيرهما(٦).

*- ويرى سيبويه أنّ الكثير المسموع أولى بأن يقاس عليه لأنه الأصل، من ذلك أنه تكلّم على المنادى الذي اتّصلت به ياء المتكلّم، وذكر أن حذف الياء منه هو الكثير، وهو أولى بأن يقاس عليه(٧) واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: **ياعبادِ فاتَّقونِ** (٨) ثم بيّن أنّ القليلَ المسموعَ لغةٌ لايقاس عليها من خلال حديثه عمّا غلبت فيه المعرفةُ النكرةَ؛ يقول <<هذه ناقةٌ وفصيلُها راتعَيْن، لأن هذا أكثرُ في كلامهم، وهو القياس. والوجه الآخر قاله بعضُ العرب>>(٩)

---

(١)- أنظر الكتاب ٢/٣١٥.

(٢)- انظر المصدر السابق ٢/٣٣٧.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٣٦١.

(٤)- انظر المصدر السابق ٣/٤٥٩.

(٥)- وانظر المصدر السابق ٢/٨٣.

(٦)- انظر المصدر السابق ١/٢٧١.

(٧)- انظر المصدر السابق ٢/٢٠٩.

(٨)- الزمر: ٣٩/١٦.

(٩)- الكتاب ٢/٨٢.

*- وفي بعض المواضع من الكتاب يشير سيبويه إلى ما يُتوقّف فيه على السماع، ولا يصلح فيه القياس كقوله في باب المقصور والممدود: <<رضِيَ يرضَى وهو راضٍ، وهو الرِّضا، ونظيره سَخِطَ يسخَطُ سَخَطاً وهو ساخِطٌ، وكسروا الراء كما قالوا: الشِّبَع فلم يجيئوا به على نظائره، وذا لايُجْسَر عليه إلاّ بسماع>>(١) وقوله: <<وقالوا: بدا له يبدُو له بَدَاً، ونظيره حَلَبَ يحلُبُ حلَباً. وهذا يُسمَع ولايُجْسَر عليه، ولكن يُجاءُ بنظائره بعد السمْع>>(٢) . وفي الكتاب غير مثال على ذلك(٣).

*- واقتصر السماع عند سيبويه على ما خالف الأصول، لأن ما وافق الأصول كان على القياس وهذا مذهب الخليل الذي نقله لنا سيبويه بشكل واضح بقوله في باب النسبة: <<قال الخليل: كلُّ شيء من ذلك عدلَتْه العربُ تركته على ما عدلَتْه عليه ، وما جاء تاماً لم تُحدِث العربُ فيه شيئاً فهو على القياس>>(٤) وهذا القول يبيّن لنا بشكل لا لبس فيه أنّ السماعَ -وهو ما يميل إليه سيبويه- كان نقلاً لما خرج على أصول القواعد العربية.

*- ويظهر اهتمامه بالسماع مرة أخرى من خلال ردّه للرأي النحوي، إنْ لم يكن له نظير من كلام العرب؛ من ذلك ما نقله عن يونس، وناس من النحويين في حديثه عن الفعل المسند إلى ألف الاثنين، أو نون النسوة، واتصلتْ به نون التوكيد الثقيلة، أو الخفيفة، يقول سيبويه: <<وأما يونس، وناس من النحويين فيقولون: اضْرِبانْ زيداً، واضرِبنانْ زيداً، فهذا لم تقله العرب، وليس له نظير في كلامها، لايقع بعد الألف ساكنٌ إلا أن يُدْغَم>>(٥)

---

(١)- الكتاب ٣/٥٣٨.

(٢)- المصدر السابق ٣/٥٣٩.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٢٥٢، ٢/٢٠٣، ٣/٣٠٤، ٥٦٨، ٤/١٥، ٩.

(٤)- المصدر السابق ٣/٣٣٥.

(٥)- الكتاب ٣/٥٢٧.

*- وكان سيبويه قد استدلّ بالسماع لما خالف الأصول وخرج عليها، لكنه حاول من خلال نقله للمسموع أن يتأوّله ليتّفق مع الكثير، ذلك أنّ النحاة الذين سبقوه بنوا على الأكثر، وجعلوا القليل لغة، وهذا مادفعه لتعليل الظواهر القليلة المسموعة، وتأويلها لتناسب الأصل المستقرى من الكثير.

من ذلك ما نقله سيبويه عن رأي الخليل في قول الأعشى:

إنْ تركبوا فركوبُ الخيلِ عادتُنا أو تَنْزلونَ فإنّا معشرٌ نُزُلُ (١)

فقد ذكر تأويل الخليل بأنّ الفعل (تنزلون) معطوف على (تركبوا)، ولكنّ الشاعر رفعه على التوهّم، ظنّاً منه أنّ الفعل (تركبوا) لم يُجزَم ، ثم نقل لنا رأي يونس بأن الكلام (تنزلون) هو استئناف لامجال لجزمه، وقد أيّد سيبويه راي يونس قائلاً: ‹‹وقول يونس أسهل››(٢). فهو يحاول تأويل المسموع ممّا خرج على الأصل ليجد له تخريجا مناسباً يتفق والأصول.

*- لم يكن تأويل المسموع عند سيبويه مناسباً للأصول بشكل مطّرد، فهو يجنح ببعض تأويلاته بعيداً عن الأصول؛ من ذلك انّ الأصل في الاسم المرفوع بعد (لولا) أن يكون مرفوعاً على الابتداء، أما إذا جاء الضمير بعدها فالواجب أن يكون في محل رفع، وقد عرض سيبويه ما سُمع من قول يزيد بن الحكم:

(١)- نُزُل: جمع نازل. وكانوا ينزلون من الخيل عند ضيق المعركة فيقاتلون على اقدامهم، وفي ذلك الوقت يتداعون: نزالِ. والشاهد فيه رفع(تنزلون) عطفاً على معنى (إنْ تركبوا)، وهو المسمى عطف التوهم، لأن معناه: أتركبون فتلك عادتنا، أو تنزلون في معظم الحرب فنحن معروفون بذلك. وهذا مذهب الخليل. وحمله يونس على القطع، والتقدير عنده: أو أنتم تنزلون. الكتاب (حاشية) ٣/٥١.

(٢)- المصدر السابق ٣/٥٠-٥١.

وكمْ موطنٍ لولاي طحْتَ كما هوى　　　بأجرامِهِ من قُلَّةِ النيَقِ مُنْهَوي (١)

وأوّل الضمير الواقع بعد (لولا) تأويلاً بعيداً عن الكثير الشائع الذي تؤخذ منه الأصول، وذهب إلى أن (لولا) حرف جر، والضمير بعدها مجرور المحل، وهذا تأويل لايخلو من تكلّف واضح؛ لأنّ ما يعجز عن جرّ الاسم الظاهر لايقوى على جرّ الضمير، كما أنّ معناها في هذا التركيب لم يطرأ عليه تغيير حتى تتبدل وظيفتها الإعرابية في نظم الجملة(٢)

وقد أدّت هذه التأويلات النحوية للمسموع ممّا خالف الأصول إلى تحكيم القياس، وصادفت من النحاة جنوحاً للتعليلات الذهنية، حتى تخضع لما شاع استعماله في لغة العرب، ولو كان النحاة قد تركوا هذه التأويلات، وعدّوا هذا المسموع من الظواهر الشاذة التي فرضتها ضرائر الشعر لكان أفضل(٣).

---

(١)- يعاتب أخاه، أو ابن عمّه. وكم لإنشاء التكثير، خبرها تقديره: لي. والموطن: الموقف من مواقف الحرب. طاح يطوح ويطيح: هلك. والجملة وصف لموطن، وقد سدّت مسدّ جواب لولا، أو الجملة الشرطية كلّها في موقع الصفة. هوى: سقط. والأجرام: جمع جرم، بالكسر، وهو الجسد. والقُلّة: ما استدار من رأس الجبل. والنيق: أعلى الجبل. والشاهد فيه الإتيان بضمير الخفض بعد (لولا) وهي من حروف الابتداء.. ووجه ذلك أن المبتدأ بعد (لولا) لايذكر خبره، فأشبه المجرور في انفراده. والأكثر أن يقال: لولا أنت. الكتاب (حاشية) ٢/٣٧٤، وانظر الإنصاف ٢/٦٩٠-٦٩٢.

(٢)- انظر الكتاب ٢/٣٧٤.

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ٣٢١.

• القياس •

إذا كان علم اللغة يعتمد على السماع (١) فإن علم النحو يعتمد على القياس للإحاطة بكل قوانين الكلام، وما يتفرع عنها لمواكبة التطور الذي يفرضه الواقع، لذلك عرّفوا النحو فقالوا: ‹‹النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو، ولانعلم أحداً من العلماء أنكره لثبوته بالدلائل القاطعة.››(٢)

*- لم يَتَبَنَّ النحاة في استدلالهم لتقعيد اللغة المنهجَ الوصفي من خلال اعتماد السماع من الأعراب والرواة فحسب، بل قرنوا به منهجاً قياسياً مستفيدين بطريقة ما من قياس الفقهاء، وقد ظهرت ملامح القياس قبل سيبويه عند عبد الله بن أبي إسحاق، ثم تلميذه عيسى بن عمر. فالحضرمي أوّل من بعج النحو، ومدّ القياس والعلل(٣) وابن عمر الذي عُني بالقياس أكثر من عنايته بالسماع سواء أكان

---

(١)- يقول ابن الأنباري: ‹‹ألا ترى أنّ اللغة لما وُضِعت وضعا نقليا، لاعقليا لم يجز إجراء القياس فيها، واقتصر فيها على ما ورد به النقل؟ ألاترى أنّ القارورة إنما سُمّيت قارورة لاستقرار الشيء فيها، ولايُسمى كلّ ما يُستقَرّ فيه: قارورة، وكذا سُمّيت الدار دارا لاستدارتها، ولا يسمى كل شيء مستديرا دارا ؟›› لمع الأدلة ٩٩-١٠٠.

(٢)- في مثل ذلك قال الكسائي: ‹‹إنما النحو قياس يُتّبع›› وقال ابن الأنباري: ‹‹وهو في عرف العلماء عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل، وقيل: هو حمل فرع على أصل بعلّة ، وإجراء حكم الأصل على الفرع، وقيل: هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع، وقيل: هو اعتبار الشيء بالشيء بجامع. وهذه الحدود كلّها متقاربة›› لمع الأدلة ٩٣، في أصول النحو للأفغاني ٧٨.

(٣)- مرّ الحديث عن قياس النحاة قبل سيبويه فوجب الإيجاز. انظر طبقات ابن سلّام ١٤،١٥،١٩، والكتاب ١/٢٧٩، ٢/٧٧،٣٤١ ومعاني القرآن للفراء ٢/١٨٢.

ذلك في النحو أم في قراءاته(١) ثم جاء يونس، والخليل -كما بيّنا- ليأخذوا به. ولعل كتاب سيبويه هو المستَقَرّ الذي رسم للقياس حدوده التي أفاد منها النحاة فيما بعد من غير أن يضيفوا إليه شيئاً يذكر إذا استثنينا بعض النحاة الذين تأثروا بالمنطق الصوري، وعلم الكلام بشكل زاد على الحد الطبيعي (٢).

*- لم يكنِ القياس عند هؤلاء النحاة وليد مصادفة، بل كان نتيجة طبيعية تُحَكِّمُ فطرةَ العربي في جزيرته، فالعربي إذا صفت سليقته، وقويت فصاحته، تصرّف، وارتجل مالم يسبقه إليه أحد قبله(٣)، فالعجاج، وابنه رؤبة‹‹قاسا اللغة، وتصرّفا فيها، وأقدما على مالم يأت به مَن قبلهما››(٤) وكانا يرتجلان كلماتٍ، وألفاظاً لم يسمعاها، ولاسُبِقا إليها. (٥) لذلك فقد جاء النحاة الأوائل ليترجموا في قواعدهم المستنبطة نتاج سليقة العربي، فأضاف كلّ نحويّ لبنةً في صرح القياس إلى أن وصل الأمر إلى الخليل الذي لم يكن أوّل القيّاسين، بل كان ‹‹سيد قومه وكاشف قناع القياس في علمه››(٦)

---

(١)- من ذلك ما نقله سيبويه ‹‹وكان عيسى بن عمر يقول: يامطرا، يشبّهه بقوله: يارجلاً، يجعله إذا نُوّن وطال كالنكرة، ولم نسمع عربياً يقوله، وله وجه من القياس ›› الكتاب ٢٠٣/٢، ومنه أنه كان يختار النصب ما وجد إليه سبيلاً، وإليه يفزع إذا اختلفت العرب، انظر طبقات ابن سلام ١٨، إنباه الرواة للقفطي ٣٧٥/٢ومنه أنه يقرأ أحيانا على قياس العربية وأساليبها، طبقات القراء لابن الجزري ٦١٣/١ القاهرة ١٩٣٢. والأمثلة كثيرة. أنظر الكتاب ١٧١/١، ٣٩٨، ١٤٣/٣، وانظر الاحتجاج للحلواني ٢٨٣.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣٧١.

(٣)- انظر الخصائص ٢٥/٢.

(٤)- الاقتراح للسيوطي ٥٣.

(٥)- انظر الخصائص ٢٥/٢.

(٦) المصدر السابق ٣٦١/١.



وإذا ذكرنا الخليل فمن الصعب أن نفصل عنه سيبويه في أحكامنا، وعلى الرغم من كلّ إشارات سيبويه إلى آراء الخليل يبقى الكتاب بوتقةً انصهرت فيها آراؤهما انصهاراً يعسر فصمه، وفصله.

القياس عند سيبويه:

*- من الطبيعي أنّ اهتمام سيبويه بالسماع أكثر من اهتمامه بالقياس لايمنعه من ترجيح القياس في بعض المواضع على السماع. فهو لايلتفت إلى ظاهرة قدّم لها كثيراً من كلام العرب شعراً، ونثراً، بل يستدل بالقياس مخالفاً لما سُمع عن العرب، ففي كلامه على رفع الاسم الذي يتقدم على عامل يصحّ أن يعمل فيه يستدل بقول أبي النجم العِجلي:

قد أصبحَتْ أمُّ الخِيارِ تدَّعي　　　عليَّ ذنباً كلُّهُ لم أصْنَعِ(١)

ويشير إلى ضعفه، وأنّ النصب في (كلّه) لايكسر البيت(٢)، ثم يستدل ببيت امرئ القيس:

فأقبلْتُ زحْفاً على الركبتَيْنِ　　　فثوْبٌ لبسْتُ وثوبٌ أجُرّْ(٣)

ثم ببيت النَّمِرِ بن تولب:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا　　　ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرّْ(٤)

---

(١)- أم الخيار: زوجته. ويعني بالذنب الشيب والصلع والشيخوخة. والبيت حجّة لمن قال: زيدٌ ضربتُ، ولم يأتِ بالهاء، ولكنه أضمرها، يريد: ضربته، فكذلك: كلُّه لم أصنع، أراد لم أصنعه، فأضمر الهاء. انظر الكتاب ٨٥/١، شرح أبيات سيبويه للنحاس ١٠٣ خزانة الأدب للبغدادي ١٧٣/١.

(٢)- انظر الكتاب ٨٥/١.

(٣)- للبيت رواية أخرى:

فلما دنوتُ تَسَدَّيتُها　　　فثوباً نسيتُ وثوباً أجرّ

وصف أنه طرق محبوبته في ذهول على خيفة من الرقباء فجعل يزحف، أي يمشي رويداً لئلا يُشعر به، وأنشد الخليل برفع (ثوب) يريد به الهاء، فثوبٌ نسيتُه، وثوبٌ أجره، وبعض الكنديين يروي البيت بالنصب: فثوباً نسيتُ، وثوباً أجرّ. انظر الكتاب ٨٦/١، وديوان امرئ القيس ١٥٩، وشرح أبيات سيبويه للنحاس٤٠، وخزانة الأدب ١٨٠/١.

(٤)- يريد الشاعر: نُساء فيه، ونُسرُّ فيه، ولو لم ينوِ الهاء لقال: ويوماً نُساءُ ويوماً نُسَرّ. انظر الكتاب ٨٦/١، وشرح أبيات سيبويه للنحاس ٤٠.

ثم يستدل بقول بعض العرب: <<شهرٌ ثرى، وشهرٌ ترى، وشهرٌ مرعى>>(١) يريد: ترى فيه. ثم يستدل ببيت لأحدهم:

ثلاثٌ كلُّهنَّ قَتلْتُ عمداً   فأخزى اللهُ رابعةً تعودُ (٢)

ويعد هذا السرد لما سُمِعَ عن العرب شعراً، ونثراً يذكر سيبويه أنّ الرفع ضعيف، <<والوجه الأكثر الأعرف النصبُ، وإنما شبّهوه بقولهم: الذي رأيتُ فلانٌ، حيثُ لم يذكروا الهاء. وهو في هذا أحسن>>. (٣) فسيبويه لم يضع اعتباراً لما سمعه، ولم يُقِمْ عليه أصلاً نحوياً؛ لأنه يخالف القياس.

ويتضح لنا أن القياس الذي لجأ إليه سيبويه كان الدافع إليه أنه لم ترد عن العرب كلّ صور التراكيب، والصيغ، والجمل التي تعبّر عن المعاني المختلفة، وهو بذلك يشابه إلى حدّ بعيد القياس عند الفقهاء حيث أنّ نصوص الكتاب، والسنة لم تقف عند الأحكام الشرعية جميعها لما حدث في الماضي، ولما يمكن أن يحدث في المستقبل، وبناء على ذلك فقد وضُحَتْ ضرورة القياس لتواكب هذا التطور، وتسدّ تلك الفجوة.

ونحن لاندّعي أنّ نشأة القياس عند النحاة والفقهاء كانت واحدة، بل نرجّح أن النشأة كانت منفصلة أملتها الحاجة والضرورة عند كليهما، لأنه لو اقتُصِرت الأحكام النحوية، والفقهية على ما ورد

---

(١)- ذكر ابن الشجري في أماليه ٣٢٦/١(حيدر اباد) ١٣٤٩: <<أي: شهر ذو ثرى. والثرى: التراب الندي. والثاني حذفوا منه العائد إلى الموصوف، وحذفوا معه المفعول، أي شهر ترى فيه أطراف العشب. والثالث كالأول حذفوا منه المضاف، أي شهر ذو مرعى>>. الكتاب (حاشية) ٨٦/١.

(٢)- البيت من الخمسين التي لايعرف قائلها. يريد الشاعر بالثلاث ثلاث نسوة تزوّجهن. ويجوز أن يريد ثلاث نسوة هوينه فقتلهنّ هواه. أو يعني غير ذلك مما يحتمله المعنى. وهذا لأنه لايعرف للبيت سابق ولا لاحق. انظر الكتاب (حاشية) ٨٦/١، وشرح أبيات سيبويه للنحاس ٤٠.

(٣)- الكتاب ٨٦/١.

في النقل، لوقفنا عاجزين أمام كثير من المسائل التي لم يَرِد النقل فيها، لذلك وجد النحاةُ والفقهاءُ أنفسهم مضطرين لقياس ما لم يرد النقل فيه على ماورد، وفي هذه الخطوة من غير شكّ تحقّقَ الكثير من ضبط الأحكام وتقعيد الأصول في كلا العِلْمَيْنِ (١).

*- وفي مواضع كثيرة نرى سيبويه يحضّ على القياس، إذا لم يكن ثمة سماع؛ فهو يقول بعد كلام استدل فيه بكلام العرب: <<فاعتبر ما أشكل عليك من هذا بذا>>(٢) ويقول في موضع آخر: <<قد يوجّه الشيء على الشيء البعيد إذا لم يوجد غيره. وربّما وقع ذلك في كلامهم>>(٣) وحجّته في لجوئه إلى القياس أنّ العرب أنفسهم فعلوا ذلك، فقد شبّهوا الشيء بالشيء في كلامهم(٤). وفي كلامه على ما يُنصَبُ من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمَل إظهاره(٥) يسرد سيبويه كثيراً من كلام العرب شعراً ونثراً، ويقيس ما تشابه منه، ويعلّل ما فيه من مشابهة وقياس(٦)؛ نحو قول ابن ميادة:

تفاقَدَ قومي إذ يَبيعون مُهْجَتي ... بجاريةٍ بَهْراً لهمْ بعدها بَهْراً(٧)

فقد قاس (بهراً) على (تبّاً)، وفي موضع آخر قاس (بهراً) على (جهداً) (٨).

---

(١)- بعد ذلك جاء تأثر النحاة المتأخرين بالفقهاء في ترتيب قضايا قياسهم، عندما اتّجهوا إلى بناء أصول النحو على غرار أصول الفقه، انظر: مكانة الخليل لعبابنة ٦٠.

(٢)- الكتاب ١/١٠٤.

(٣)- المصدر السابق ٢/٣٧٦، ٣/٢٧٨، ٣٠٢، ٤١٣.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/١٨٢، ٢٥٩.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٣١١.

(٦)- انظر المصدر السابق ١/٣١١-٣١٣.

(٧)- قوله بعدها: أي بعد الفعلة التي فعلوا. يقول: فَقَد قومي بعضهم بعضاً إذ لم يعينوني على جارية شغفتْ بحبها، فكأنهم باعوا مهجتي. دعا عليهم بالتفاقد، وبالغلبة، والقهر. انظر الكتاب ١/٣١١، لسان العرب (فقد، بهر).

(٨)- ذلك في قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا: تحبّها، قلتُ: بَهْراً ... عددَ النّجْمِ والحصى والترابِ

انظر الكتاب ١/٣١١-٣١٢.

*- ونراه يقيس كلام العرب في باب ما تُخْبِرُ فيه عن النكرة بنكرةٍ على القرآن الكريم، ليزيده وضوحاً، وفي ذلك يقول(١): <<والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً، في العناية والاهتمام، مثله فيما ذكرتُ لك في باب الفاعل والمفعول. وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير، والإلغاء والاستقرار عربيّ، جيد، كثير، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: **ولم يكنّ له كفواً أحدٌ** (٢)>>

وينّوع سيبويه في عباراته التي تشير إلى القياس، ويلوّن في أساليبه، من ذلك قوله: <<وقالوا: الشكور، كما قالوا: الجحود، فإنما هذا الأقلّ نوادر تحفظ من العرب، ولايقاس عليها، ولكنّ الأكثر يقاس عليه>>(٣)، وقوله:<<والوجه كلّ شاةٍ وسخلتّها بدرهم، وهذه ناقة وفصيلها راتعين: لأنّ هذا أكثر في كلامهم، وهو القياس. والوجه الآخر قد قاله بعض العرب>>(٤)، وقوله: <<قالوا: الحِجار، فجاؤوا به على الأكثر والأقيس، وهو في الكلام قليل>>(٥) وقوله: <<وليس في كلّ شيء يقال إلا أن تقيس شيئاً، وتعلم أن العرب لم تتكلّم به>>(٦) وقوله:<<وأمّا يونس فقوله على الكثير: هذا أحَيٌّ، كما ترى، وهو القياس، والصواب>>(٧).

---

(١)- انظر الكتاب ٥٦/١.

(٢)- الإخلاص ٤/١١٢.

(٣)- الكتاب ٨/٤

(٤)- قصد سيبويه بالوجه الآخر (كلّ شاةٍ وسخلتِها بدرهم) بمعنى كلّ شاةٍ وسخلةٍ لها بدرهم: انظر الكتاب ٨٢/٢.

(٥)- وقصد بالحِجار جمع حَجَر، والقياس أحجار. المصدر السابق ٥٧٢/٣.

(٦)- المصدر السابق ٩٤/٤، وانظر ٩٣/٤.

(٧)- قصد تصغير (أحوى). انظر المصدر السابق ٤٧٢/٣.

قياسه على الكثير:

*- من الواضح أنّ قياس سيبويه يعتمد الكثير الشائع من لغة العرب، أمّا القليل، والنادر، فيحفظ، ولايقاس عليه(١). فقد سأل الخليلَ مرّة عن صرف كلمة (رمّان) فأجابه:‹‹ لاأصرفُه، وأحملُه على الأكثر إذا لم يكن له معنى يُعرَف››(٢) فسيبويه ينقل كلام الخليل من دون تعليق أو تعليل وهذا دليل لقبوله لمبدأ القياس الذي أخذه عن شيخه الخليل.

وهو يصرّ على مبدأ القياس بشكل واضح في قوله:‹‹فاستحسنْ من هذا مااستحسنَ العربُ، وأجزْهُ كما أجازته››(٣) فقوله (العرب) يعني من غير شكّ ماشاع، وانتشر من كلامهم، ويقصد به الكثرة، ومثل هذا الأسلوب كثير في الكتاب (٤).

ويبدو من خلال الكتاب أنّ سيبويه، ومن سبقه من النحاة لم يعرّفوا الكثرة، ومدلولها عند من تكلّم عليها، وبقي الباب مفتوحاً لاجتهادات المحدثين (٥).

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٦٩، ٤٠١، ٣/٤٠٤، ٤/٨.

(٢)- المصدر السابق ٣/٢١٨.

(٣)- المصدر السابق ٢/٦٩.

(٤)- انظر في ذلك المصدر السابق: ٢/٨٢، ٣/٢٨٠، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٦٢، ٤٧٢، ٥٧٢، ٤/٨، ٩٤، وانظر فهارس كتاب سيبويه لعضيمة ٣٤.

(٥)- ذكر عباس حسن في كتابه اللغة والنحو بين القديم والحديث٤٠، دار المعارف ١٩٦٦م أنّ المقصود بالكثرة، الكثرة العددية لاريب. ولكنه لاحظ أنّ النحاة ولم يبيّنوا لنا: أهي الكثرة العددية بين أفراد القبيلة الواحدة دون نظر لغيرها أم هي الكثرة بين القبائل، بأن تشيع خصائص لغوية في مجموعةٍ قبائلُها أكثرُ من قبائل مجموعة أخرى، من غير نظر لأفراد كل قبيلة وعددها. ولم يبيّنوا كذلك: هل تجري الموازنة من حيث القلة والكثرة بين القبائل الست التي اختيرت اللغة عنها أو تتجاوزها إلى غيرها. وانظر مكانة الخليل بن أحمد لعبابنة ٦٣.

*- لم يُجز سيبويه القياس على ماقلّ من المسموع الفصيح، فهو ينقل عن العرب قولهم: مُطِرنا سهلُنا وجبلنا، وضُرِب عبد الله ظهرُه وبطنُه، ثم يجيز النصب في قوله:<< وإن شئت نصبت- أي على نزع الخافض- تقول: ضُربَ زيد الظهرَ والبطنَ، ومطِرنا السهلَ والجبلَ، وقُلِب زيدٌ ظهرَه وبطنَه. فالمعنى أنّهم مطروا في السّهل والجبل، وقُلِب على الظهرِ والبطنِ>>(١) ثم يشير إلى أنّ النصب على نزع الخافض، لاعلى الظرفية في قوله:<< ولكنّهم أجازوا هذا، كما أجازوا قولهم: دخلتُ البيت، وإنّما معناه دخلتُ في البيت. والعامل فيه الفعلُ، وليس المنتصب ههنا بمنزلة الظرف>>(٢)، ثم يصرح بأن هذا الاستعمال لايقاس عليه، وأنهم لم يجيزوا حذف الجر في غير السهل والجبل، والظهر والبطن(٣) ثم يسوق أمثلة لايجوز القياس عليها، بل تُستعمل فيما اختصت به، فيقول: <<فجازا هذا (٤) في ذا وحده(٥)، كما لم يجز حذف حرف الجر إلاّ في الأماكن، في مثل: دخلتُ البيتَ. واختُصّت بهذا، كما أنّ لدُنْ مع غُدوةَ لها حال ليست في غيرها من الأسماء، وكما أنّ(عسى) لها في قولهم: عسى الغُوَيْرُ أبؤسا، حال لاتكون في سائر الأشياء>>(٦).

*- وقد يحكّم القياس في ردّ بعض الآراء النحوية التي لاتستند إلى سماع، من ذلك مانقله من أنّ يونس يجيز: مررتُ به المسكينَ على قوله: مررتُ به مسكيناً بنصبها على أنّها حال. ويردّ عليه سيبويه مباشرة مستعيناً بالقياس في قوله:<<وهذا لايجوز، لأنه لاينبغي أن يجعله حالاً، ويدخل فيه الألفُ واللام، ولو جاز هذا لجاز مررتُ بعبدِ الله الظريفَ، تريد ظريفاً>>(٧).

---

(١)- الكتاب ١/١٥٩.

(٢)- المصدر السابق ١/١٥٩.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/١٥٩.

(٤)- أي النصب في (الظهرَ والبطنَ، والسهلَ والجبلَ).

(٥)- أي في (ضُرِبَ ومُطِر).

(٦)- الكتاب ١/١٥٩.

(٧)- المصدر السابق ٢/٧٦.

* وتصريح سيبويه بعدم القياس على القليل كثير في كتابه (١)، ومردّه إلى أنّ الكثير هو الذي يمثل لغة العرب، والقليل يمثّل لغةً من لغاتهم، ولايمكن بناء الأحكام النحوية التي تُقَعِّدُ كلام العرب مستمدةً من لغة القليل منهم.

قياسه على القليل:

*- على الرغم من أنّ سيبويه يقيس على ما كثر من كلام العرب، ويتحاشى القياس على ماقلّ سماعه فإننا نراه في بعض المواضع من كتابه يقيس على القليل، ويبني الأحكام النحوية على هذه القلّة وهو القائل: <<فإنما هذا الأقلّ نوادر تُحفَظ عن العرب، ولايقاس عليها، ولكنّ الأكثر يقاس عليه>>(٢)

من ذلك ما ذكره في حديثه عن التصغير، فالتصغير خاصّ بالأسماء وحدها، فلا تُصغَّر الأفعال، ولا الحروف، وهذا ما نصّ عليه سيبويه في كتابه حين نقل ذلك عن الخليل؛ يقول سيبويه: <<وسألت الخليل عن قول العرب: ما أُمَيْلِحَهُ. فقال: لم يكن ينبغي أن يكون في القياس؛ لأن الفعل لايُحَقَّر، وإنما تحقَّر الأسماء لأنها توصف بما يعظم ويَهُون، والأفعال لاتوصَف، فكرهوا أن تكون الأفعال كالأسماء لمخالفتها إياها في أشياء كثيرة>>(٣). والعرب لم يصغّروا من الأفعال إلاّ صيغة (ما أفعله)، وفي ألفاظ قليلة تحديداً، وهذا ما عبّر عنه سيبويه بقوله: <<ولكنهم حقّروا هذا اللفظ، وإنما يعنون الذي تصفه بالمِلح، كأنّكَ قلت: مُلَيْحٌ، شبهوه بالشيء الذي تلفظ به وأنت تعني شيئاً آخر نحو قولك: يَطَؤُهم الطريق، وصِيدَ عليه يومان (٤). ونحو هذا كثير في الكلام>>(٥) ثم يصرّح بما لايدع

---

(١)- انظر في ذلك الكتاب: ١/٣١٨، ٤١٤، ٢/ ٦٩، ٣/ ٢٨٠، ٤١٠، ٥٩٤، ٤/ ٨.

(٢)- الكتاب ٤/ ٨، وانظر مثل ذلك في ٢/ ٦٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٣/ ٤٠٤.

(٣)- المصدر السابق ٣/ ٤٧٧-٤٧٨.

(٤)- يريدون: يطؤهم أهل الطريق الذي يمرون فيه، فحذف أهلاً، وأقام الطريق مقامهم. ومعنى يطؤهم الطريق أنّ بيوتهم على الطريق، فمن جاز فيه رآهم. وقوله: صيد عليه يومان، معنى صيد عليه الصيد في يومين، فحذف الصيد، وأقام اليومين مقامه. الكتاب (حاشية) ٣/ ٤٧٨.

(٥)- المصدر السابق ٣/ ٤٧٨.

مجالاً للشكّ في جواز القياس على (أمَيلح و أحَيْسِن) في قوله: ‹‹وليس شيء من الفعل، ولاشيء ممّا سُمّي به الفعل يُحَقَّر إلا هذا وحده، وما أشبهه من قولك: ما أفعله››(١)

ونخلص إلى أنّ تصغير (أفعل) لغة لم تكن فاشية بين العرب، بل هي لغة قليلة، ولم يسمع منها إلاّ (ما أميلح)، و (ما أحيسن)، وعلى الرغم من ذلك فقد أجاز سيبويه القياس عليها، وقصد بقوله: ‹‹وليس شيء من الفعل، ولا شيء ممّا سمّي به الفعل يُحَقَّر إلاّ هذا وحده، وما أشبهه من قولك: ما أفعله›› أنّ الأفعال لا تُصغّر، وإنما الذي يُصغّر هو (ما أمَيلح، وما أحيسن)، وما شابهه من الأفعال في صيغة التعجب، لا في سائر الأفعال؛ وهذه إجازة للقياس على لغة قليلة، وهي تصغير صيغة فعل التعجب (ما أفعله).

القياس على الشاذ:

*- وقف سيبويه من الشاذ من لغة العرب موقفاً واضحاً، فهو يقول: ‹‹ولاينبغي لك أن تقيس على الشاذ المنكر في القياس››(٢) رافضاً إجراء القياس على ما شذّ من كلامهم، وقد يردّ قول النحويين غيره إذا أدرك أنّ العرب لم تتكلم به؛ كقوله: ‹‹وأما قول النحويين: قد أعطاهوكَ، وأعطاهوني، فإنما هو شيء قاسوه لم تكلّمْ به العرب، ووضعوا الكلام في غير موضعه››(٣) وقوله: ‹‹ وهذا من الشواذ، وليس ممّا يقاس عليه ويطّرد››(٤) وقوله: ‹‹ قد أعطاهوني، فهو قبيح لاتكلّم به العرب، ولكنّ النحويين قاسوه››(٥)

---

(١)- الكتاب ٣/٤٧٨، وانظر في الموضوع ذاته خزانة الأدب ١/٤٧، ولعباس حسن اللغة والنحو بين القديم والحديث ٨٩، والنحو الوافي ٤/٦٨٦.

(٢)- الكتاب ٢/٤٠٢.

(٣)- المصدر السابق ٢/٣٦٤.

(٤)- المصدر السابق ٤/٤٠٥.

(٥)- المصدر السابق ٢/٣٦٣-٣٦٤.

ومجمل القول ان سيبويه في قياسه حاول أن يوجد القواسم المشتركة للغات العرب، فإذا وجد حكماً شاع وانتشر على لسانهم قعّده، وأطّره بإطار نحوي مستفيداً من آراء النحاة الذين سبقوه، مضيفاً إليهم كثيراً من نظراته الثاقبة.

المقارنة بين ظاهرتين:

*- قد يقارن سيبويه بين ظاهرتين في لغة العرب، ولكل منهما حظّها من الكثرة والفشو، ولهما وجه من القياس، فهو يشير إلى صحة الظاهرتين، ثم يبيّن أنّ إحدى هاتين اللغتين أقيس من الأخرى؛ من ذلك قوله: <<اعلم أنّ أهل الحجاز يقولون إذا قال الرجلُ: رأيتُ زيداً: مَنْ زيداً ؟ وإذا قال: مررت بزيدٍ قالوا: مَنْ زيدٍ ؟ وإذا قال: هذا عبدُ الله، قالوا مَنْ عبدُ الله ؟. وأما بنو تميم فيرفعون على كلّ حال . وهو أقيس القولين>>(١). فهو يجيز الحكاية في قوله: مَنْ زيداً ؟ ومَنْ زيدٍ، ويذكر أن الرفع هو أقيس الظاهرتين.

*- بعد الذي رأيناه من قياس سيبويه من خلال الأمثلة المتنوعة السابقة نلاحظ أنه في مواضع قليلة من كتابه ينكر على العرب بعض لغاتهم، ولايجيز القياس عليها، وفي الوقت ذاته نرى قراءة قرآنية، وشعراً لهذه اللغة التي أنكرها سيبويه. من ذلك أنه خطّأ العطف بالرفع على اسم (إنَّ) قبل استكمال الخبر، وقال: <<واعلم أنّ ناساً من العرب يغلطون فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون، وإنك وزيدٌ ذاهبان>>(٢)، والقياس أن المعطوف يشارك المعطوف عليه في الحكم لأنه تابع له. لكنّ الصحيح أنّ العطف على المحلّ

---

(١)- الكتاب ٢/٤١٣، وانظر ٢/١٨١.

(٢)- المصدر السابق ٢/١٥٥.

قبل استكمال الخبر جائز وتؤيده كثير من الشواهد كقوله تعالى: **إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمن بالله واليومِ الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهِمْ ولاهُمْ يَحزَنون**(١) برفع (الصابئون) عطفاً على محل (الذين)، وبها قرأ القرّاء السبعة، وعليه مصاحف الأمصار والجمهور(٢)

ومنها قوله تعالى: **إنّ اللهَ وملائكتُه يصلّون على النبيّ** (٣) برفع (ملائكتُه) وهي قراءة ثابتة صحيحة (٤)، ومن الشعر قول ضابئ البرجميّ:

فمن يكُ أمسى بالمدينة رَحْلُهُ فإني وقَيّارٌ بها لَغريبُ (٥)

برفع (قيارٌ) عطفاً على اسم إنّ وهو في الأصل مبتدأ. هذه الشواهد من شعر، وقراءة قرآنية، والقراءات القرآنية كلها في الأصل لغات، إضافة إلى أنها سنّة، والسنة لاتخالَف كفيلةٌ بإثبات ما أنكره سيبويه وغلّطه.

*- وتكلّم الكثيرون بعد سيبويه عن القياس وأركانه، ووضعوا أصوله التي نظمت قواعده، ورسمت ملامحه المستنبطة من الكتاب(٦) ونحن لن نقف عند أركانه، وأقسامه إلا إذا كان سيبويه قد قاس في كتابه بما ينطبق على المسميات التي وضعها المتأخرون.

---

(١)- المائدة ٥/ ٦٩.

(٢)- انظر البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٥٣١.

(٣)- الأحزاب ٣٣/ ٥٦.

(٤)- رواية عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر في شواذ القرآن لابن خالويه١٢٠، وإعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ٢/ ٦٤٥.

(٥)- رفع (قيارٌ) وردت في أكثر من مصدر. وفي المسألة آراء مختلفة متباينة. انظر الكتاب ١/ ٧٥، وخزانة الأدب ٤/ ٣٢٣،٨١، والإنصاف ٩٥، ولسان العرب (قير)، وسيبويه جامع النحو العربي لفوزي مسعود٥٤-٥٦. والبيت قاله في السجن حينما حبسه عثمان(رض) لهجائه قوماً من بني جرول بن نهشل . وقيار: اسم فرسه، والرحل: المنزل.

(٦)- انظر لمع الأدلة لابن الأنباري ٩٣ فما بعدها ، والاقتراح للسيوطي ٤٩ فما بعدها.

أنواع القياس في كتاب سيبويه: (١)

١- قياس الشبه:

وهو أبرز أنواع القياس في كتاب سيبويه؛ ويقوم على المشابهة بين المقيس والمقيس عليه من جهة المعنى، أو من جهة اللفظ؛ من ذلك ماذكره في <<باب الترخيم في الأسماء التي كلّ اسم منها من شيئين كانا بائنين فضمّ أحدهما إلى صاحبه فجُعلا اسماً واحداً بمنزلة عنتريسٍ وحَلْكُوك>>(٢) فهو يقيس المركّب تركيباً مزجياً في حال ترخيمه على الاسم المختوم بتاء التأنيث المربوطة؛ نحو: حضرموت، ومعد يكرب من جهة، وتمرة، والبصرة من جهة أخرى، ويعدّد أوجه المشابهة بينهما؛ يقول سيبويه:<<وذلك مثل حَضْرَمَوْت، ومَعْدي كَرِب، وبُخْتَ نَصَّرَ، ومارَ سَرْجِسَ، ومثل رجل اسمه خمسةَ عشرَ، ومثل عَمْرَوَيْه. فزعم الخليل رحمه الله أنه تحذف الكلمة التي ضُمّت إلى الصدر رأساً، وقال: أراه بمنزلة الهاء>>(٣) ثم يشير إلى أوجه المشابهة بين المقيس، والمقيس عليه وهي ثلاثة:

أولها: التصغير، فهو يلحق صدر الاسم المركب، ثم يؤتى بالاسم الثاني بعد التصغير، كذلك يلحق التصغير ما قبل التاء المربوطة؛ يقول سيبويه:<< الاترى أني إذا حقّرته لم أغير الحرف الذي يليه، كما لم أغير الذي يلي الهاء في التحقير عن حاله التي كان عليها قبل أن يحقّر، وذلك قولك في تمرةٍ تُمَيْرة، فحال الراء واحدة، وكذلك التحقير في حضرموتَ تقول حُضَيْرَمَوْت>>(٤)

---

(١)- مسميات أنواع القياس لم يذكرها سيبويه نصّاً، وإنّما هي أسماء ذكرها المتأخرون فأخذناها للتوضيح. انظر لمع الأدلة ٩٣ فما بعدها، الاقتراح ٤٦ فما بعدها، في أصول النحو للأفغاني ١٠٨ فما بعدها، القياس في اللغة العربية محمد الخضر حسين ٧٤ فما بعدها، مكانة الخليل بن أحمد لعبابنة ٧٠ فما بعدها.

(٢)- الكتاب ٢/٢٦٧.

(٣)- المصدر السابق ٢/٢٦٧.

(٤)- المصدر السابق ٢/٢٦٧.

والثاني: النسبة، فإننا ننسب إلى الجزء الأول من الاسم المركب، كما ننسب الاسم المختوم بالتاء بعد حذفها؛ فنقول في النسبة إلى معدي كرب: معديّ، وفي أربعة عشر: أربعيّ كقولنا في النسبة إلى البصرة: بصريّ.

والثالث: يتعلق ببنية الكلمة فالتاء المربوطة المتصلة بالاسم الثلاثي مثل البصرة، لاتلحقه بالرباعي، والمتصلة بالرباعي لاتلحقه بالخماسي، ومثله في المركب، فالاسم الثاني من المركب لايدخل الاسم الأول بشيء من الأبنية ولايلحقه بها.

لذلك فإنّ سيبويه قاس حذف الاسم الثاني في المركب عند ترخيمه، على حذف التاء المربوطة في الترخيم، فقال في ترخيم رجل اسمه خمسةَ عشرَ: ياخَمْسَةَ(١)، وغير ذلك من الأمثلة(٢)

٢- قياس الاستئناس:

ويلجأ إليه سيبويه في شرح ظاهرة نحوية، وذلك بسرد أمثلة مشابهة لها من وجه من الوجوه من غير أن يكتسب المقيس من المقيس عليه حكماً، كما هو الحال في قياس الشبه.

من ذلك جواز تقديم خبر كان على اسمها، فنقول: كان أخاك زيدٌ، ولايجوز ذلك في كأنّ، فلا نقول: كأنّ أخوك عبدَ الله. وذكر أنّ (كانّ)، وأخواتها محمولة في عملها على كان، فـ (كان) هي الأصل، وكان وأخواتها هي الفرع، فلم يجز في الفرع ما جاز في الأصل، وقاس سيبويه ذلك كلّه على (ليس) التي ترفع وتنصب، و (ما) الحجازية التي تعمل عمل ليس، فإنه يجوز تقديم خبر (ليس) على اسمها، ولايجوز ذلك في (ما) لأنها فرع على ليس في عملها(٣)

---

(١)- انظر الكتاب ٢/٢٦٧-٢٦٨، وشرح السيرافي ٣/٧٩.

(٢)- انظر الكتاب ٢/٧٦-٧٧ وشرح السيرافي ٢/١٩٣، والكتاب ١/٣٧٨، ٣/١٨٥، وشرح السيرافي ٤/٦٨.

(٣)- انظر الكتاب ٢/١٣١.

ومنه كذلك أنه قاس جزم (أكنْ) في قوله تعالى: **فأصَّدَّقَ وأكنْ من الصالحين**(١) والمعطوف على (أصَّدَّقَ) المنصوب على قول زهير بن أبي سلمى:

بدا لي أنّي لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولاسابقٍ شيئاً إذا كان جائيا(٢)

حيث عطف (سابقٍ) المجرور على (مدركَ) المنصوبة، وفي ذلك يقول سيبويه: ‹‹فإنما جرّوا هذا -أي سابقٍ- لأنّ الأول (مدركَ) قد يدخله الباء، فجاؤوا بالثاني، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا (أكنْ) لما كان الفعل الذي قبله (فأصَّدَّقَ) قد يكون جزماً، ولا فاء فيه تكلّموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهموا هذا››(٣) ويعلل ذلك بأن الفعل (أكنْ) جاء مجزوماً؛ لأنّ ماسبقه (فاصدّق)، قد يكون مجزوماً ولا فاء فيه، فتوهمه القارئ مجزوماً، وعطف عليه بالجزم. وقاسه على جر (سابقٍ) المعطوف على خبر ليس (مدرك) الذي يكثر مجيئه بالباء التي تجره، فتوهمه الشاعر مجروراً بالباء فعطف عليه بالجر. وغير ذلك من الأمثلة (٤)

٣- القياس التعليمي:

وهو افتراض أساليب لم يرد استعمالها عن العرب، ثم التماس حكم لها، قياساً على ماورد عنهم من أشباهه، الغرض منه تعليمي تطبيقي(٥) من ذلك أنّه أجاز صرف (مسلمين) إذا سُمِّي بها رجلٌ، وأجاز إعرابها بالحركات، فيقال: هذا مسلمينٌ ، ورأيت مسلميناً، ومررت بمسلمينٍ قياساً على قول بعض العرب الذين يعربون (سنين) بالحركات، وثبوت الياء رفعاً ونصباً وجراً (٦).

---

(١)- المنافقون ٦٣/١٠.

(٢)- البيت منسوب إلى زهير بن أبي سلمى، ونُسب إلى صرمة الأنصاري، واستدلّ به سيبويه على العطف على التوهّم. انظر الكتاب ١/١٦٥،٣٠٦، ٢/١٥٥، ٣/٢٩،٥١،١٠٠، ٤/١٦٠.

(٣)- المصدر السابق ٣/١٠١.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٢٠٦،٢٧٤، ٣/١٠٤-١٠٥.

(٥)- انظر مكانة الخليل بن أحمد لعبابنة ٨٠.

(٦)- انظر الكتاب ٣/٢٣٢،٢٣٣.

ومنه حديثه عن (فو) إذا كانت اسماً لرجل وجعلها في الإفراد (فمٌ) بإبدال الميم مكان الواو، لتكون على مثال الأسماء، وافترض أنه لو كانت العرب لم تنطق بـ (فم) لقال: (فوهٌ) لأنّ الاسم من الهاء بدليل قولهم: أفواه، كما قالوا: سوط وأسواط.(١).

*- ومن الواضح أن القياس التعليمي الذي يعتمد الافتراض في الوصول إلى الأحكام شبيهٌ بقياس الفقهاء الذين يفترضون ما لا يمكن وقوعه ليصلوا على أحكامهم، وهذه الافتراضات جعلت النحاة بعد سيبويه يبتعدون عن الهدف الأساسي الذي سعى إليه سيبويه في كتابه، ويتّجهون نحو إظهار المهارة النحوية، وما يتفرع عنها من تناولات تدلّ على تأثّرهم بالفقه والمنطق إلى حدّ بعيد.

*- ويبدو أن سيبويه قد تأثّر بشيخه الخليل تأثّرا بارزا، ففي كثير من أمثلة القياس عنده كان ينقل عن شيخه أجوبة على أسئلة يطرحها عليه، وهذا ما أعطى الأحكام قوة، واتّساعاً، وتنوعاً حيث نرى أركان القياس؛ الأصلَ، والفرعَ، والعلّة والحكم بارزةً من غير شطط، كما هو الحال عند غيرهما من نحاة الكوفة الذين أجازوا القياس على الشواذ، وعلى النادر، كما قاسوا على ما عدّه غيرهم ضرورة ففُتِحَ الباب واسعاً لدخول الجدل المنطقي مما اكسب القياس كثيراً من التعقيدات، وتفرّع عن ذلك تقسيماتٌ، ومسمّيات مستمَدّة من أصول الفقه، أبعدت القياس عن اللغة واستعمالاتها، وروحها، وخلقت صراعاً حول القياس بيْن مؤيّد ومعارض.(٢)

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٢٦٤.

(٢)- تعرّض النحاة القيّاسون للهجوم من أصحاب السماع، حتى خصّص ابن الأنباري كتابه(لمع الأدلة) دفاعاً عن القياس أمام خصومه، لكنّ الحملة ظلّت مستمرة ضدّ القياس على يد ابن مضاء القرطبي ٥٩٢ هـ الذي أراد أن يقوّض أركان القياس. انظر في تفصيل ذلك: لمع الأدلة لابن الأنباري ٩٣ وما بعدها، والردّ على النحاة لابن مضاء القرطبي ١٦٥، وما بعدها تح: شوقي ضيف مصر ١٩٤٧م وفي أصول النحو للأفغاني ١٠٨، وما بعدها، ومكانة الخليل بن أحمد لعبابنة ٨١، وما بعدها.

• العلّـة النحويـة *

حين شاع اللحن، وكثر على لسان بعض العرب، قام النحاة الأوائل بعملية استقراء لهذه اللغة بغية وضع الضوابط لها، وإرساء الأصول، فجمعوا الظواهر، وصنّفوها، وبيّنوا الفروق بين لهجات أصحابها، وأطلقوا المصطلحات على تشابه منها فكانت عناوين الأبحاث النحوية فيما بعد.

ولما كان العربي على احتكاك بالأمم الأخرى من خلال الفتوح، ونشر الدعوة الإسلامية؛ فقد كان من الطبيعي أن يُطوّر النحاةُ معارفهم، وهذا ما دفعهم للبحث عن علل يفسّرون بها الظواهر التي لاحظوها في استقرائهم للغة العرب، ممّا جعل العلّة النحوية تعود بالفائدة الكبيرة على النحو، فقد جعلت الفهم، والتوضيح سمة من سمات الدراسة النحوية.

*- ويكتسب كتاب سيبويه أهمية كبيرة في تاريخ العلة النحوية، ليس بما ذكره سيبويه من لمحات في العلّة فحسب، بل بما نقله لنا عمّن تقدمه من النحاة الأوائل، ناهيك عن الثقة التي يتمتّع بها بشهادة من روى عنهم(١) فكتابه سجلٌ حافل نستطيع أنْ نأخذ منه صورة عن التفكير النحوي الذي كان للنحاة الذين سبقوه، آخذين بعين الأهمية قلّة الذين روى عنهم(٢).

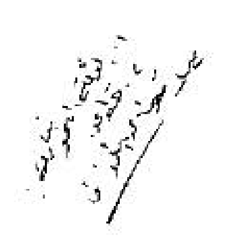
وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) أقدم من روى عنهم سيبويه في كتابه، وهو أول من بعج النحو، ومدّ القياس، والعلل(٣) وكان ممن روى عنهم سيبويه أبو عمرو بن العلاء، ولـــــه

---

(١)- انظر ماقاله يونس بن حبيب في سيبويه في: أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٤٨، وطبقات الزبيدي ٤٩.

(٢)- روى سيبويه في كتابه عن الخليل بن أحمد ٥٢٢ مرة، ويونس بن حبيب ٢٠٠ مرة، والأخفش ٤٧ مرة، وأبي عمرو بن العلاء ٤٤ مرة، وعيسى بن عمر ٢٢ مرة، وأبي زيد الأنصاري ٩ مرات، وهارون بن موسى ٥ مرات، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ٤ مرات؛ اعتمدنا في هذا على كتاب (سيبويه إمام النحاة) لناصف ص ١٠٢.

(٣)- انظر طبقات ابن سلام ٦، نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ٢٠، ٢٣، ٦٠.



إشارات واضحة في تعليل كلام العرب (١)، ثم يأتي الخليل بن أحمد الذي برع في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليله، (٢) بما وُهِبَ من ذهن ثاقب وقريحة صافية! قال الزجّاجي: <<ذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد رحمه الله، سُئل عن العلل التي يعتلّ بها في النحو، فقيل له: عن العرب أخذتَها، أم اخترعتَها من نفسك ؟ فقال: إن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللتُ أنا بما عندي أنه علّة لما عللتُه منه، فإن أكن أصبت فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علّة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنمّا فعل هذا هكذا لعلة كذا، وكذا، ولسبب كذا، وكذا سنحتْ له، وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلّة، إلاّ أنّ ذلك ممّا ذكره الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق بالمعلول فليأت بها>>(٣)

ولم تكن العلّة في بدايتها معقدة شائكة بل كانت تجنح إلى البساطة التي تهدف إلى فهم كلام العرب، لذلك دار معظمها حول المعنى، أو حول العامل، وهذه التعليلات هي قليلة إذا ما قورنت بما

---

(١)- انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ٣٧،٢٩.

(٢)- انظر المصدر السابق ٥٥.

(٣)- الإيضاح في علل النحو للزجّاجي ٦٦.

ذكره النحاة المتأخرون فيما بعد(١).

العلـّة في الكتاب:

ليس بمقدورنا أن نفصل من خلال الكتاب علل الخليل عن علل سيبويه، فالتشابه بينهما كامل إضافة إلى التشابه بينهما وبين علل النحاة الأوائل، ولعلهم جميعاً أولوا المعنى عناية خاصة بعللهم، واهتموا بقياس الشبيه بشبيهه، وحمل النظير على ما يناظره، منطلقين من أن العربي كان يميل إلى البساطة ويطلب الخفة في النطق، وينأى عن الثقل في لفظه. ومتابعة سيبويه لخطوات الخليل لاغرابة فيها؛ لأنه تلميذه، وعنه أخذ الروح النحوية التي تفرّعت منها أقسام النحو. لكنّ الذي يميز سيبويه من غيره أنه أعطى لما أخذه عن شيوخه بعداً عميقاً في التوسع، والكثرة ، والمحاكمة.

وظهرت العلل الثواني والثوالث في كتاب سيبويه، وفيها إشارة إلى يونس، والخليل، وقد شغلت حيـّزا في الكتاب، وعنها أخذ النحاة المتأخرون كثيرا من مبادئهم التي وضعوها مستمدين أصولها من

---

(١)- ازداد اهتمام النحاة بالعلة بعد سيبويه، وشغلت عقولهم حتى إنه لم يخلُ كتاب نحوي منها تقريبا، وأضحت الصلة قوية بين العلة من جهة، والمنطق، والفقه من جهة أخرى، فحاكتهما في التقسيم والتفريع، وترتيب المسائل وتسميتها، وصارت العلة آنذاك مقياسا لمهارة النحوي وحذقه، فابتعدت العلة عن هدفها الأصلي في فهم كلام العرب، الأمر الذي دفع بعض النحاة إلى التعريض بالعلة: كابن مضاء القرطبي الذي دعا إلى ترك العلل -ماعدا البسيطة منها، والتي تسهم في فهم كلام العرب- والاقتصار على عبارة (هكذا نطقت العرب). تفصيل ذلك انظره في: العلل في النحو لقطرب (٢٠٦هـ)، وعلل النحو، ونقض علل النحو للحسن بن عبد الله الأصبهاني الملقب بالغدة) (٢١٠هـ)، وكتاب علل النحو لأبي عثمان المازني (٢٤٩هـ) ، وعلل النحو لابن كيسان (٣٢٠هـ) والإيضاح في علل النحو للزجّاجي (٣٣٧هـ) ، والنحو المجموع في العلل لمبرمان (٣٤٥هـ)، وعلل النحو لابن الوراق (٣٨١هـ)، والحدود للرماني (٣٨٤هـ)، والخصائص لابن جني (٣٩٢هـ)، وأمالي السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله (٥٨١هـ)، والرد على النحاة لابن مضاء القرطبي أحمد بن عبد الرحمن (٥٩٢ هـ)، والاقتراح للسيوطي (٩١١هـ).

كتاب سيبويه(١)، من ذلك ما علّل به جرّ الممنوع من الصرف بالفتح نيابة عن الكسر وقال: <<واعلم أنّ ما ضارع الفعل المضارع من الأسماء في الكلام، ووافقه في البناء (أي في الصيغة والوزن) أُجري لفظُه مُجرى ما يستثقلون، ومنعوه ما يكون لِمَا يستخفّون، وذلك نحو أبيضَ، وأسودَ، وأحمرَ، وأصفرَ، فهذا بناءُ أذهبُ، وأعلم، فيكون في موضع الجرّ مفتوحا، استثقلوه حين قاربَ في الكلام ووافق في البناء.>>(٢) فالعلة الأولى هي المبنية على الظاهرة اللغوية بجر الاسم بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف، والعلة الثانية أن الممنوع من الصرف يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه شابه الفعلَ، والعلة الثالثة أن ماشابه الأفعال من الأسماء يمنع من الصرف لثقلِ الكسرةِ على الأفعال، وعلى الأسماء التي تُشابه الأفعال في وزنها. هذا التدرّج في التعليل دون ذكر التسميات ذكره سيبويه مرات عديدةً كتعليله لعدم تنوين الفعل(٣)، وتعليله لجعل المبتدأ معرفة، والخبر نكرة (٤)، وعدم جواز حذف الجار(٥)، ورفع المضارع (٦).

---

(١)- ظهرت الإشارة إلى العلل الثواني والثوالث في كتاب سيبويه من خلال التناولات النحوية، لكنها ظهرت فيما بعد بتقسيماتها، وتسمياتها المعروفة في كتب النحاة المتأخرين، كالزجاجي، ثم ابن مضاء القرطبي، ثم السيوطي، وغيرهم، مع الفروق بين التسميات التي أطلقوها؛ فالعلة الأولى هي علامة تلاحظها الدراسة الوصفية لظواهر اللغة، كتعليل رفع الفاعل بأنه فاعل، ونصب المفعول بأنه مفعول. والعلة الثانية: كأن يسأل: لماذا يُرفع الفاعل وينصب المفعول ؟، ثم يذهب إلى أن العلة في ذلك أن يماز الفاعل من المفعول. والعلة الثالثة: كأن يسأل: لماذا لم يحصل العكس ؟ فيقال له: الفتح أخف من الضم، والمفعول به أكثر استعمالاً في كلام العرب من الفاعل، فنصبوا الكثير، ورفعوا القليل ليكثر في كلامهم ما يستخفّون، ويقلّ ما يستثقلون. انظر الاحتجاج للحلواني ٣٨٠.

(٢)- الكتاب ١/ ٢١.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/ ٢٠.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/ ٤٧-٤٨.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/ ٢٥٤.

(٦)- انظر المصدر السابق ٣/ ٩-١٠.

مزج العلّة بالقياس :

* سعى سيبويه في تعليله لبعض الظواهر اللغوية نحو توضيح التركيب في الجملة العربية، فهو يدعم تعليلاته بالقياس نقلاً عن الخليل، ويونس اللذين روى عنهما كثيراً من تعليلاته؛ ففي حديثه عمّا لايجوز أن يُندب قاس النكرة التي لاتُندب على أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة إلاّ ماكانت صلته مشهورة. يقول سيبويه:<<وذلك قولك: وارَجُلاه، ويا رَجُلاه. وزعم الخليل رحمه الله ويونس أنّه قبيح، وأنّه لايقال. وقال الخليل رحمه الله: إنما قبح لأنّك أبهمتَ. ألاترى أنّك لوقلت: واهذاه، كان قبيحاً، لأنّك إذا ندبتَ فإنّما ينبغي أنْ تُفَجّعَ بأعرف الأسماء، وأن تخُصَّ، ولا تُبهِم؛ لأنّ الندبة على البيان، ولو جاز هذا لجاز يارجلاً ظريفاً، فكنتَ نادباً نكرةً. وإنّما كرهوا ذلك أنّه تفاحَشَ عندهم أن يَحْتَلِطوا، (١) وأن يتفجّعوا على غير معروف. فكذلك تفاحشَ عندهم في المبهَم لإبهامه؛ لأنّك إذا ندبتَ تُخبِر أنّك قد وقعت في عظيم، وأصابك جسيمٌ من الأمر، فلا ينبغي لك أن تُبهِم. وكذلك: وامَنْ في الداراه، في القبح>>(٢) وبعد أن فرغ سيبويه من نقل كلام الخليل قال:<<وزعم أنّه لايَستقبح وامَن حفر بئر زمزماه؛ لأنّ هذا معروف بعينه، وكأن التبيين في الندبة عُذرٌ للتفجّع. فعلى هذا جرت الندبة في كلام العرب>>(٣). والمزج بين العلة والقياس في كتابه نراه في أكثر من موضوع كتعليله لعدم دخول الألف واللام على المنادى المفرد النكرة، وقياسه على أسماء الإشارة(٤)، وتعليله لترك التنوين، أو النون في اسم لا النافية للجنس إذا كان بعده لام الجر، نحو: لا أبالَكَ، ولا مُسلِمَيْ لك، وقياسه على المنادى(٥).

---

(١)- اي يضجروا ويغضبوا.

(٢)- الكتاب ٢/٢٢٧-٢٢٨.

(٣)- المصدر السابق ٢/٢٢٨.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/١٩٧.

(٥)- انظر المصدر السابق ٢/٢٧٦-٢٧٨.

العلّـة والعوامـل:

*- ووجه سيبويه بعضاً من تعليلاته في الكتاب نحوَ العوامل، وأثرها؛ من ذلك أنّه علّل جزم المضارع بعد جواب الأمر، أو النهي، أو الاستفهام، أو التمني، أو العرض لأن هذه الحالات تتضمّن معنى إنْ الشرطية، فقال: <<فأما ما انجزم بالأمر فقولك: ائتِني آتِكَ. وأما ما انجزمَ بالنهي فقولكَ: لا تفعلْ يكنْ خيراً لكَ. وأما ما انجزم بالاستفهام فقولك: ألا تأتيني لأحدّثك ؟ وأين تكونُ أزرك ؟، وأما ما انجزم بالتمني فقولك: ألاماءَ أشربْه، وليته عندنا يحدّثْنا. وأما ماانجزم بالعَرْض فقولك: ألا تَنْزِلُ تُصِبْ خيراً. وإنما انجزم هذا الجواب كما انجزم جوابُ إن تأتِني، بإنْ تأتِني، لأنّهم جعلوه معلّقاً بالأول غيرَ مستغنٍ عنه إذا أرادوا الجزاء، كما أنَّ إنْ تأتِني غيرُ مستغنية عن آتِكَ >>(١) ثم ينقل إلينا عن الخليل قوله: <<إنّ هذه الأوائل كلّها فيها معنى إنْ، فلذلك انجزم الجواب؛ لأنه إذا قال : ائتني آتِكَ، فإنّ معنى كلامه إنْ يكن منك إتيانٌ آتِكَ، وإذا قال: أين بيتك أزُرْكَ، فكأنه قال: إن أعلمْ مكانَ بيتك أزرْكَ؛ لأن قوله: أين بيتك، يريد به: أعلِمْني. وإذا قال ليته عندنا يحدّثْنا، فإنّ معنى هذا الكلام إنْ يكن عندنا يحدّثنا، وهو يريد ههنا إذا تَمَنّى ما أراد في الأمر. وإذا قال لو نزلتَ فكأنه قال: انزلْ>>(٢) وتعرّضُ سيبويه للعوامل في تعليلاته نراه في أكثر من مكان، منها أنّ حروف الجر في القسم تصل فعل القسم المقدّر بالمقسم به، كما يصل الفعل اللازم إلى الاسم بحرف الجر(٣).

ولم يهدف سيبويه إلى إظهار العلة ذاتها في تناولاته النحوية بدليل أنه لم يذكرها صراحة في عناوين أبحاثه إلاّ مرة واحدة في <<باب علل ما تجعله من حروف الزوائد، وما تجعله من نفس الحرف>>(٤) ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ اهتمام سيبويه كان منصباً على النحو، وأنّ العلّة كانت

---

(١)- الكتاب ٣/٩٣-٩٤.

(٢)- المصدر السابق ٣/٩٤.

(٣)- انظر المصدر السابق ٣/٤٩٧، وانظر ٢/١٨٣، ٣/٦٠ وانظر مكانة الخليل لمبابنة ٩٢.

(٤)- الكتاب ٤/٣٠٧.

ترد كثيراً لخدمة الوظيفة النحوية، وتثبيت أركان قواعدها، في الوقت الذي لم يكن مهتماً بإظهار براعته في التعليل كما هو الحال عند من جاء بعده من النحاة(١)

ومن طبيعة سيبويه أنه لايركن إلى الأحكام ما لم يُخضِعها للمناقشة والحوار، يدفعه إلى ذلك حبّه للاستقصاء ومتابعة العلل، ويظهر ذلك من خلال إلحاحه على شيخه الخليل بالأسئلة الكثيرة المتلاحقة التي نراها منثورة في ثنايا الكتاب في أبحاث كثيرة؛ من ذلك ما جاء في <<باب النداء>>(٢) وهو يحاور شيخه: <<قلتُ: أرأيتَ قولهم يازيدُ الطويلَ علامَ نصبوا الطويلَ ؟

قال: نُصبَ لأنه صفة لمنصوب. وقال: وإن شئت كان نصباً على أعني.

فقلتُ : أرأيت الرفعَ على أيِّ شيء هو إذا قال يازيدُ الطويلُ ؟

قال: هو صفة لمرفوع.

قلتُ: ألستَ قد زعمتَ أنَّ هذا المرفوع في موضع نصبٍ، فَلِمَ لايكون كقوله: لقيتُه أمسِ الأحدثَ؟>>(٣) ويستمر الحوار بينهما في تعليلات متتالية مستمدة من الحوار الدائر.

ومنه ماجاء في باب تصغير المؤنّث وفيه قوله: <<اعلم أنَّ كل مؤنث كان على ثلاثة أحرف فتحقيره (أي: فتصغيره) بالهاء وذلك قولك في قَدَمٍ: قُدَيْمَةٌ، وفي يدٍ: يُدَيَّةٌ. وزعم الخليل أنّهم إنما أدخلوا الهاءَ ليفرقوا بين المؤنث والمذكر. قلتُ : فما بالُ عَناقٍ ؟ قال: استثقلوا الهاءَ حين كثُر العدد، فصارت القافُ بمنزلةِ الهاء، فصارت فُعَيْلَة في العدد والزنةِ فاستثقلوا الهاء. وكذلك جميع ما كان على أربعة أحرف فصاعدا. قلتُ: فما بالُ سَماءٍ، قالوا: سُمَيَّةٌ ؟ قال: من قِبَل انها تُحذَف في التحقير، فيصيرُ تحقيرُها كتحقير ما كان على ثلاثة أحرف، فلما خَفَّتْ صارت بمنزلة دلوٍ، كأنّك حقَّرتَ شيئاً على ثلاثة أحرف. فإن حقَّرتَ امرأةً اسمُها سَقَّاءُ قلت: سُقَيْقِيُّ، ولم تُدخِلها الهاءَ؛ لأن الاسم قد تمّ>>(٤).

---

(١)- انظر العلة النحوية للمبارك ٦٦.

(٢)- الكتاب ٢/١٨٢.

(٣)- المصدر السابق ٢/١٨٣.

(٤)- الكتاب ٣/٤٨١-٤٨٢.

ولم يأخذ سيبويه آراء شيخه دون استيعاب، وقناعة، فهو لا يتردّد في تضعيف رأي شيخه إذا كان له رأي آخر فيه، وهذا لايقلل من الاحترام الشديد له؛ قال سيبويه: «وزعم الخليل رحمه الله أنّه يجوز أن يقول الرجلُ: هذا رَجُلٌ أخو زيدٍ، إذا أردتَ أن تشبّهه بأخي زيدٍ. وهذا قبيح ضعيف لايجوز إلاّ في موضع الاضطرار، ولو جاز هذا لقلتَ: هذا قصيرٌ الطويلُ، تريد: مثل الطويل. فلم يجز هذا كما قبح أن تكون المعرفة حالاً للنكرة إلاّ في الشعر» (١) وهذا الردّ لرأي شيخه، ووصفُهُ له بالضعف، والقبح يخفي وراءه قناعة خاصة في بعض المسائل، لايقلل من شأنها التأثر الكبير به في جلّ الكتاب.

أقســام العلـــّة:

كثرت أقسام العلّة، وتشعّبت على أيدي النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه، كلٌّ يضيف إلى من جاء قبله علّةً جديدة متأثرا بالفقهاء غالبا، حتى تشعّبت أقسام العلّة التي وردت عند النحاة المتأخرين بشكل كبير(٢)، لذا سنتكلم على الأقسام التي وردت أمثلتها في كتاب سيبويه سواء ما كان منها لسيبويه نفسه، وما كان لغيره من النحاة الذين سبقوه:

آ-<u>التخفيف</u>: وهي أبرز العلل التي وردت في الكتاب، وتبيّن أن العربي يهرب من ثقل اللفظ إلى خفّته، وهذه نتيجة طبيعية لثقل اللفظ في لغات البشر، ولعلّ كثيراً من الألفاظ العاميّة الشائعة نُقلت من الفصحى بعد أنْ جُنِحَ بها نحو الخفّة؛ وفي الكتاب أمثلة كثيرة صرّح فيها سيبويه بعلّة التخفيف، منها أنّ التنوينَ يحذف من اسم الفاعل، ويضاف إلى ما بعده طلباً للخفّة، يقول سيبويه: «وليس يغيّر كفّ التنوين، إذا حذفته مستخفّاً، شيئاً من المعنى، ولايجعله معرفةً... وقال الخليل: هو كائنُ أخِيكَ، على الاستخفاف، والمعنى: هو كائنٌ أخاك»(٣)

---

(١)- الكتاب ٣٦١/١.

(٢)- أحصى الحسين بن موسى الدينوري العلّة في كتابه «ثمار الصناعة»، وعدد أقسامها فكانت أربعة وعشرين منها: السماع، والتشبيه، والاستغناء، والاستثقال، والفرق، والتوكيد، والتعويض، والنظير، والنقيض، والمعنى، والمشاكلة، والمعادلة، القرب والمجاورة، والوجوب، والجَواز، والتغليب، والاختصار، والتخفيف، ودلالة الحال، والأصل، والتحليل، والإشعار، والتضاد، والأولى انظر الاقتراح للسيوطي ٤٨.

(٣)- الكتاب ١٦٦/١.

ومنها أن العرب يضيفون الصفة المشبهة إلى معمولها للتخفيف من ثقل التنوين(١) ومنه أنهم يحذفون حرف الجر، وأل التعريف للتخفيف، قال سيبويه نقلاً عن الخليل: ‹‹أنّ قولهم: لاهِ أبوكَ، ولقيتُه أمسِ، إنما هو على: للّهِ أبوك، ولقيتُه بالأمسِ، ولكنهم حذفوا الجارّ والألفَ واللام تخفيفاً على اللسان››(٢).

ب- كثرة الاستعمال:

وهي علة ترتبط بعلّة التخفيف ارتباطاً وثيقاً، لأنّ كثرة استعمال اللفظ، أو التركيب يعرّضه للتغير طلباً للخفّة، والخفّة بدورها لاتأتي إلاّ من كثرة الاستعمال، من ذلك ما علّل به حذف حرف، أو أكثر في ترخيم المنادى لكثرته في كلامهم(٣). ومنه أنهم‹‹ حذفوا الفعلَ من إياكَ لكثرة استعمالهم إياه في الكلام››(٤). وقد جعل سيبويه من علّة كثرة الاستعمال عنواناً لباب من أبواب كتابه(٥) وعلّل فيه حذف الفعل العامل في (ديارَ ميّةَ) في قول ذي الرّمّة:

ديارَ ميّةَ إذْ ميٌّ مساعِفَةٌ ولايرى مثلَها عُجْمٌ ولا عَرَبُ (٦)

---

(١)- انظر الكتاب ١/١٩٥.

(٢)- المصدر السابق ٢/١٦٣.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٥٣.

(٤)- المصدر السابق ١/٢٧٤.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٢٨٠.

(٦)- مُساعِفَة: مواتية. ورخّم (ميّة) فقال (ميّ) في غير النداء ضرورة. وقيل كانت تُسمّى ميّاً وميّة. والشاهد فيه نصب (ديارَ) بفعل مقدّر تقديره: أذكر ديار ميّة وأصبيها، ولايذكر هذا الفعل لكثرته في كلامهم. انظر الكتاب ١/٢٨٠(حاشية)، وديوان ذي الرمّة ٣، وخزانة الأدب ١/٣٧٨.

بان الأصل: <<اذْكُرْ ديارَ ميّةَ. ولكنّه لايَذكر(أذكرْ) لكثرة ذلك في كلامهم، واستعمالهم إياه.>>(١) وفي الكتاب أمثلة أخرى (٢).

جـ- العلّة القياسيّة:

وهي ربط المتشابه بعضه ببعض، والكشف عن النظائر، وقد مرّ معنا تعليله لما لايجوز أن يُندَب، فقاس النكرة التي لا تُندب على أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، إلاّ ما كانت صلته مشهورة.(٣) وكذلك تعليله لعدم دخول الألف، واللام على المنادى المفرد النكرة، وقياسه على أسماء الإشارة (٤)، وتعليله لترك التنوين، أو النون في اسم لا النافية للجنس إذا كان بعده لام الجرّ: نحو: لاأبالَكَ، ولا مُسلِمَيْ لك،وقياسه على المنادى.(٥)

والعلة القياسية تظهر في عملية استقراء اللغة، فيُلاحظ الشبه بين الظواهر فتُعلّل ظاهرة قياساً على ظواهر أخرى كما رأينا.

---

(١)- الكتاب ١/ ٢٨٠.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/ ٢٧١،٢٩٢،٢٩٥؛ وأحاط سيبويه علّة كثرة الاستعمال بتوضيح هام قال فيه: <<وليس كلّ شيء يكثر في كلامهم يُغيّر عن الأصل، لأنه ليس بالقياس عندهم، فكرهوا ترك الأصل>> الكتاب ٢/ ٢١٣.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/ ٢٢٧-٢٢٨.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/ ١٩٧.

(٥)- انظر المصدر السابق ٢/ ٢٧٦-٢٧٨.

د- المعنـــى:

اعتمد النحاة كثيراً على المعنى في عللِهم، وأرجعوا إليه كثيراً من الظواهر النحوية، وراعاه سيبويه في منهجه؛ من ذلك قول الحارث بن نُهيكٍ:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخُصومةٍ ومُختبِطٌ مما تُطيحُ الطوائِحُ(١)

فقد علل سيبويه رفع (ضارع) بأنّ المعنى يدلّ على ذلك، فقوله (لِيُبْكَ يزيدُ) متضمّنٌ معنى لِيَبْكِ يزيدَ ضارع، أو ليبكِهِ ضارعٌ(٢) ومنه ما أورده في <<بابٌ منه يُضمِرون فيه الفعل لقبح الكلام إذا حُمِل آخرُه على أولّه.>>(٣) وقال: <<وأما ويلاً له وأخاه، ووَيْلَه وأباه، فانتصب على معنى الفعل الذي نصبَه، كأنّك قلت: ألزمَه الله وَيْلَه وأباه، فانتصب على معنى الفعل الذي نصبه، فلما كان كذلك -وإن كان لايَظهَرُ- حَمَلَه على المعنى>>(٤). وغير ذلك من الأمثلة(٥)

واعتماد سيبويه المعنى منهجاً في تعليله يفرضه تذوقه للغة العرب، ورغبته في كشف ما غمض من أسرارها.

---

(١)- يزيد هو يزيد بن نهشل الذي رثاه بهذا الشعر. والضارع: الذليل الخاضع. لخصومة، أي لأجل الخصومة، فهو ينصره ويزيده. والمختبط: طالب العرف. تطيح: تذهب وتهلك. والطوائح، أراد المطاوح، لأنه جمع مطيحة، فجمعه على حذف الزيادة، كقوله تعالى: (**لواقح**) وواحدتها ملقحة. والشاهد فيه رفع (ضارع) بإضمار فعل دليل عليه معنى ما قبله، تقديره: لِيَبْكِهِ يزيدَ ضارعٌ. انظر الكتاب (حاشية) ١/٢٨٨، وخزانة الأدب ١/١٤٧، شرح المفصل لابن يعيش ١/٨٠.

(٢)- انظر الكتاب ١/٢٨٨.

(٣)- المصدر السابق ١/٣٠٧.

(٤)- المصدر السابق ١/٣١٠.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٥٣، ١٧١، ٢٣٨، ٤٣٧، ٤٤٠.

هـ- الاستغناء:

وهي علّة كثيرة عند النحاة، وقد عبّر عنها سيبويه، ومثّل لها بقوله: <<اعلم أنّهم يحذفون الكَلِمَ، وإنْ كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوّضون، ويَستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً. وسترى ذلك إنْ شاء الله. فممّا حُذف، وأصله في الكلام غير ذلك. لم يَكُ، ولا أدْرِ، وأشباه ذلك. وأما استغناؤهم بالشيء عن الشيء فإنهم يقولون يَدَعُ، ولايقولون وَدَعَ، استغنوا عنها بِتَرَكَ. وأشباه ذلك كثير>>(١)

ومنه قوله في (أنّ): <<وتقول: لو أنه ذاهبٌ لكان خيراً له، فأنّ مبنيةٌ على (لو) كما كانت مبنيّة على لولا، كأنك قلت: لو ذاك، ثم جعلتَ أنَّ، وما بعدها في موضعه. فهذا تمثيل، وإنْ كانوا لايبنون على (لو) غير (أنَّ)، كما كان (تَسْلَمُ) في قولك بذي تَسْلَم في موضع اسم، ولكنهم لايستعملون الاسم لأنّهم ممّا يستغنون بالشيء عن الشيء حتى يكون المستغنى عنه مُسْقَطاً>>. (٢)

وسيبويه من خلال كشفه عن علّة الاستغناء (٣) يرصد أسلوباً من أساليب لغة العرب، وتبعه في ذلك من جاء بعده من النحاة. (٤)

---

(١)- الكتاب ٢٥/١.

(٢)- المصدر السابق ١٢١/٣.

(٣)- انظر في ذلك المصدر السابق ١٢٥/١-٢٧٥،١٢٦، ٣٦١/٢، ٣٦٦-٣٨٣،٣٦٧، ١٥٨/٣، ١٨٩-٥٩٩،١٩٠، ٩٩/٤.

(٤)- انظر الحجة في علل القراءات السبع للفارسي ٢٠٠/١، الخصائص لابن جنّي ٢٦٦/١.

و- التوهـــم:

كان سيبويه أول من أشار إلى التوهم نقلاً عن شيخه الخليل بن أحمد، ثم جاء النحاة وأخذوا هذه العلّة عنه فيما بعد، وصار بيت زهير بن أبي سلمى الذي علّله صاحب الكتاب شاهداً استدل به جميع النحاة في العطف على التوهم؛ وفي ذلك قال سيبويه: ‹‹وسألت الخليل عن قوله عزّ وجلّ: **فأصَّدَّقَ وأكُنْ من الصالحين** (١) فقال: هذا كقول زهير:

بدا ليَ أنّي لستُ مُدركَ ما مضى ۝ ولاسابقٍ شيئاً إذا كان جائيا (٢)

فإنما جرّوا هذا، لأنّ الأوّل قد يدخله الباء، فجاؤوا بالثاني، وكأنهم قد أثبتوا في الأوّل الباء، فكذلك هذا لمّا كان الفعلُ الذي قبله قد يكون جزماً، ولافاء فيه تكلّموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهّموا هذا.››(٣) ومنه قول الأعشى:

إنْ تركبوا فركوبُ الخيلِ عادتُنا ۝ أو تَنزلونَ فإنّا مَعْشَرٌ نُزُلُ (٤)

فقد رفع (تنزلون) على (إن تركبوا) على توهّم الرفع فيه.

وعلة التوهم التي نقلها سيبويه عن الخليل تخريج لطيف لما قلّ سماعه عن العرب، ولاقياس فيه، فاستُنبطت تلك العلّة بشكل قطع كلّ تناقض بين قواعد العربية في إتباع المعطوف للمعطوف عليه، وما نقله الرواة من لغة العرب.

---

(١)- المنافقون ٦٣/١٠.

(٢)- يقول: إن المرء لايملك لنفسه ضراً، ولانفعاً. انظر ديوان زهير ٢٨٧، خزانة الأدب ٣/٦٦٥، وانظر الكتاب ١/١٦٥، ٣٠٦، ٢/١٥٥، ٣/٢٩، ٥١، ١٠٠.

(٣)- الكتاب ٣/١٠٠-١٠١.

(٤)- نزَلٌ: جمع نازل. وكانوا ينزلون من الخيل عند ضيق المعركة فيقاتلون على أقدامهم. وفي ذلك الوقت يتداعون: نَزالِ. والشاهد فيه رفع (تنزلون) عطفاً على معنى (إنْ تركبوا) وهو المسمى عطف التوهم، لأن معناه أتركبون فذاك عادتنا، أو تنزلون في معظم الحرب فنحن معروفون بذلك. وهذا مذهب الخليل. وحمله يونس على القطع، والتقدير عنده: أو أنتم تنزلون. الكتاب (حاشية) ٣/٥١.

ز- العــوض:

وهي العلة التي نراها في كثير من المباحث النحوية، والصرفية في الكتاب، وقد علّل بها سيبويه جواز الفصل بين كم، وتمييزها بالخبر في قولنا: كم لك درهما؛ وأجاز ذلك لأنّ فيها تعويضاً من التمكّن في الكلام، فامتناعها من التأخر فاعلاً كانت أم مفعولاً، وبقاؤها مبتدأة في أول الكلام عُوّض عنه بجواز الفصل بينها وبين تمييزها.(١) ومنه أنّ العلّة من جواز الفصل بين (إنْ) المخفّفة، والفعل الذي يليها بـ (قد) أو التسويف، أو النفي، هو التعويض بالفاصل عمّا حُذف من (أنّه)، يقول سيبويه: <<واعلم أنّه ضعيفٌ في الكلام أن تقول: قد علمتُ أنْ تَفعلُ ذاك، ولا قد علمتُ أنْ فعل ذاك حتى تقول: سيَفْعَلُ، أو قد فَعَلَ، أو تنفي فتدخل لا؛ وذلك لأنهم جعلوا ذلك عِوَضاً ممّا حذفوا من (أنّه)، فكرهوا أنْ يَدَعوا السين، أو قَدْ، إذ قدرُوا على أن تكون عوضاً.>>(٢)

حـ- طول الكلام:

وهي علّة لم تظهر في الكتاب بالقدر الذي ظهرت به سابقاتها، من ذلك تعليل سيبويه لجواز حذف الضمير من صلة الموصول، كذلك حذف الياء من كلمة (اشهيباب)، بقوله: <<الذي رأيتُ فلانٌ، حيث لم يذكروا الهاء. وهو في هذا أحسن لأنّ (رأيتُ) تمامُ الاسمِ، به يتمّ، وليس بخبرٍ ولاصفةٍ، فكرهوا طولَه حيث كان بمنزلةِ اسم واحدٍ؛ كما كرهوا طول اشهيباب فقالوا: اشهباب>>(٣) ومنه جعلُ طولِ الكلام علّةً في حذف النون من اسم الفاعل المعرّف بأل في قول الشاعر:

الحافظو عَوْرَةَ العشيرةِ لا ... يأتِيْهِمُ من وَرائنا نَطَفُ (٤)

---

(١)- انظر الكتاب ٢/١٥٨.

(٢)- المصدر السابق ٣/١٦٧.

(٣)- المصدر السابق ١/٨٧.

(٤)- يقول: يحفظون عورة عشيرتهم إذا انهزموا، ويحمونها من عدوّهم، ولايخذلونهم فيكونوا نطفين في فعلهم. وأصل العورة المكان الذي يُخاف منه العدو. والعشيرة: القبيلة. والنطف: المتلطّخ بالعيب. وشاهده في إعمال (الحافظو) مع حذف نونها على نية إثباتها لأنها لا تعاقب الألف واللام. الكتاب (حاشية) ١/١٨٦.

ط- النيـــة:

وهي من العلل الطريفة التي وضعها سيبويه في كتابه نقلاً عن الخليل، من ذلك تعليله لدخول الألف واللام على الحال على نية إسقاطهما؛ وقوله: <<وهو قولك: مررت بهم الجَّماءَ الغفيرَ، والناس فيها الجمّاء الغفيرَ. فهذا ينتصب كانتصاب العِراك (١) وزعم الخليل رحمه الله أنّهم أدخلوا الألفَ واللام في هذا الحرف، وتكلّموا به على نيّة مالا تدخله الألِفُ واللام>> (٢)

وقد يكون العكس؛ أي تحذف الألف واللام على نيّة وجودهما؛ من ذلك وصف المعرفة بالنكرة على نية وجود (أل) في النكرة، وقوله: <<ومن الصفة قولك: ما يَحسن بالرجلِ مثلِك أنْ يفعلَ ذاك، وما يحسن بالرجلِ خيرٍ منك أن يفعل ذاك. (٣) وزعم الخليل رحمه الله أنّه إنما جرّ هذا على نيّة الألف واللام، ولكنّه موضعٌ لاتدخله الألفُ واللامُ كما كان (الجمّاءَ الغفيرَ) منصوباً على نية إلقاء الألفِ واللام، نحو طُرّاً، وقاطبةً، والمصادر التي تشبهها>>(٤)

---

(١)- يقصد قول لبيد بن ربيعة:

فأرسَلَها العِـراكَ ولم يَذُدْها ولم يُشْفِقْ على نَغَصِ الدِّخالِ

مشاهدة نصب (العراك) على الحال، وهو معرفة، لأنه مصدر، والفعل يعمل في المصدر معرفة ونكرة، فكأنه أظهر فعله ونصبه به، ووضع ذلك الفعل موضع الحال فقال: أرسلها تعترك الاعتراك. الكتاب (حاشية) ٣٧٢/١.

(٢)- المصدر السابق ٣٧٥/١.

(٣)- ذكر السيرافي أنّ (الرجل) معرفة، ومثلك وخير منك نكرة، وقد وصف بهما المعرفة لتقارب معناهما، لأنّ الرجل في هذين المثالين غير مقصود به إلى رجل بعينه وإن كان لفظه المعرفة، لأنه أريد به الجنس، ومثلك، وخير منك نكرتان غير مقصود بهما إلى شيئين بأعيانهم، فاجتمعا فحسن نعت أحدهما بالآخر. عن الكتاب (حاشية) ١٣/٢.

(٤)- الكتاب ١٣/٢.

وعلّة النية ليست قليلة في الكتاب (١) وقد ذكرها سيبويه تخريجاً لبعض المسموع عن العرب، وهو مخالفٌ لما وُضع من قواعد العربية آنذاك.

ي- المشـــابـــهة:

وهي من العلل التي بنى عليها كثيراً من أمثلته التي أوردناها في حديثنا عن القياس، ممّا يغنينا عن تكرارها.

*- وقد يعلل سيبويه بعللٍ بعيدة عمّا اعتدناه في كتابه، منها ما نقله عن الخليل من تعليله لدخول (أي) التي تكون وصلة لنداء ما فيه أل على بعض صور الاختصاص، كما في قولهم: اللهمّ، اغفر لنا أيّتها العِصابةُ ، بأن باب الاختصاص محمول على ما حُمِل عليه النداء، وهم في الأصل يدخلون عليه (يا)، كما في النداء، ولكنّهم، خزلوها وأسقطوها، وبقيت (أي) التي لاتستعمل إلاّ في النداء دليلاً على ذلك(٢)

*- لقد حاول سيبويه في دراسته لظواهر اللغة العربية أن يَستنبط عللاً من كلام العربي الذي يتداوله في محيطه، والعربيّ لم يكن يتكلّمُ بتكلّفٍ، بل كان كلامه ينبع من وعي للغةٍ عربيةٍ ساميةٍ سليمةٍ أُطلِقَ عليه فيما بعد (السليقة). فكانت العلّةُ من المهام التي تصدّى لها سيبويه لاستنباطها من لغتهم، مستعيناً بما عرفه من لغة العرب وأساليبهم، وبما وُهِب من عقلية فكرية، أضافَ إليها جهود من سبقه من النحاة.

واتّضحت جهود سيبويه في العلة من خلال استنباطه لعلل جديدة سواء أكانت من عنده، أم أخذها عن شيخه الخليل كعلّة التوهّم، وعلة النيّة، ومنها أيضاً تعليله للشاذ من كلام العرب وتأويله بإتقان، وهو ما نراه في حديثه عن قول العرب: هذا جُحْرُ ضبٍ خَربٍ، حين يقول: <<وممّا جرى نعتاً

---

(١)- انظر الكتاب ٣/٢٩، ٦٧، ٧٠، ٧٤، ٧٨، ١١٠، ٥٦٥، ٥٦٦.

(٢)- انظر المصدر السابق ٢/٢٣٥-٢٣٦، ومكانة الخليل لعبابنة ٩٨-٩٩.

على غير وجه الكلام: (هذا جُحْرُ ضبٍّ خَربٍ)، فالوجهُ الرفعُ، وهو كلامُ أكثر العرب وأفصحهم. وهو القياس، لأنّ الخربَ نعتُ الجُحْرِ، والجحرُ رفعٌ، ولكنّ بعض العرب يجرّه. وليس بنعتٍ للضبّ، ولكنّه نعتٌ للذي أُضيفَ إلى الضبّ فجرّوه لأنه نكرةٌ كالضبّ، ولأنه في موضع يقع فيه نعتُ الضبّ، ولأنه صار هو والضبّ بمنزلة اسمٍ واحدٍ. ألا ترى أنّك تقول: هذا حَبُّ رمّانٍ. فإذا كان لك قلت: هذا حبُّ رمّاني، فأضفتَ الرمانَ إليكَ، وليس لك الرمّانُ إنما لك الحَبُّ ... فكذلك يقع على جحر ضبٍّ ما يقعُ على حبِّ رمانٍ، تقول: هذا جُحرُ ضبّي، وليس لك الضبُّ، إنّما لك جحرُ ضبٍّ، فلم يَمنعكَ ذلك من أنْ قلتَ جحرُ ضبّي، والجحرُ والضبُّ بمنزلة اسم مفرد، فانجرّ الخَربُ على الضبّ كما أضفتَ الجحرَ إليك مع إضافة الضبِّ. ومع هذا أنهم أتبعوا الجرَّ الجرَّ كما أتبعوا الكسرَ الكسرَ، نحو قولهم: بِهِمْ وبدارِهِمْ، وما أشبه هذا>>(١) وهذا التعليل تأويل لما سمع من لغة العرب، وهي لغة خولِفَتْ فيها الأصول المعروفة في التوابع، فعالجها سيبويه كعادته في معالجة ما خرج على الأصل.

*- خلاصة القول أنّ سيبويه نظر في علل من سبقه من النحاة، وعلى رأسهم شيخه الخليل، فأفاد منها فائدة عظيمة، وأضاف إليها نظراته الخاصة بعد أن أدرك لغة العرب وأبعادها.

وقد أمعن سيبويه في توضيح كلام العرب، فمزج العلّة بالقياس، ووجه جزءاً من تعليلاته نحو العوامل، وأثرها بأسلوب يتّسم بالعرض حيناً، أو بالحوار مع شيخه أحياناً أخرى، وقد أكسب حوارُهما النحوَ فائدةً عظيمة، فتشعّبت أقسام العلّة، وتعدّدت أنواعها حتى غدت مادة هامة لمن خَلَفَهما من النحاة. وتفرّد الاثنان ببعض العلل، فكان لهما قصب السبق في علّة التوهم، وعلّة النيّة ورسما للنحو لمسة أخرى من طرق الاستدلال النحوي.

---

(١)- الكتاب ٤٣٦/١.

الفصل الأول

الاستدلال بالنصوص

- القرآن الكريم.
- الحديث الشريف.
- الشعر.
- الأمثال.
- كلام العرب (لغة التخاطب).

قيمة الكتاب وأثره

*- جمع سيبويه في كتابه جهود من سبقه من النحاة، وأضاف إليها الشيء الكثير من قواعد اللغة العربية حتى غدا الكتاب نهاية المطاف لرحلة تقعيد النحو، ووضع أصوله. ومهما كانت جهود سابقيه كبيرة، ومساهماتهم واعية ناضجة، فإن سيبويه يظل صاحب العقل المفكر الذي استوعب الثقافات العربية في شتى علومها، واستنبط منها علماً متكاملاً محكماً.

وعلى الرغم من نسبة الآراء النحوية إلى أصحابها، لكنها تبقى مختلطة لايمكن الفصل فيها بشكل جازم، لاسيما الحالات التي لم يشر فيها سيبويه إلى صاحب الرأي، ولو قُدّر لهذه الآراء ألاّ تختلط لوقفنا على دراسة دقيقة لتاريخ النحو قبل سيبويه؛ لذلك فإن أهمية الكتاب تظهر في جمعه لقواعد العربية، وجهود أصحابها الذين أسسوا أركانها، ثم جاء سيبويه ليكلّل هذه الجهود بجهوده الذاتية، وصنعته الشخصية.

ولم يقتصر جهد صاحب الكتاب على قواعد العربية النحوية، بل جاء شاملاً لعلوم اللغة آنذاك، وما يتفرّع عنها من علم الصرف، وعلم الأصوات بمخارجها، وصفاتها فصار موسوعة حضنت جهوداً كبيرة، ومصدراً للعلماء الذين جاؤوا بعد ذلك، ليبحثوا في النحو والصرف والبلاغة واللغة والأصوات.

وإذا كان سيبويه قد أخذ عن العلماء الذين سبقوه، وهم قلّة (١)، فإن الذين نهلوا من علمه، وأفادوا من كتابه لايمكن حصرهم، والكتب التي أُلّفَتْ بعده تغصّ بنقولها عنه، ونسجها على منواله.

---

(١)- أبرز شيوخه: حماد بن سلمه، والأخفش الأكبر أبو الخطاب، ويعقوب بن إسحاق، وعيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل بن احمد، وابو زيد سعيد بن أوس، وهارون بن موسى النحوي، وأبوعمرو بن العلاء، وعبد الله بن زيد والرؤاسي. انظر تفصيل ذلك في مقدمة الكتاب ٨-١٤.

*- والذين أخذوا عن سيبويه كُثُر؛ منهم من درس عليه مباشرة، ومنهم من أفاد من علمه بقراءته لكتابه. ونحن -وإن كنّا بعيدين عن الإسهاب والسرد- لابد لنا من الإشارة إلى أبرز الذين تأثروا به لنتمكن من الدخول إلى أثر سيبويه في تاريخ النحو.

١- الذين درسوا عليه مباشرة:

- **قطرب النحوي**، أبو علي محمد بن المستنير ت ٢٠٦ هـ، وقطرب لقب نعته به سيبويه. وكان حافظاً للّغة كثير النوادر والغريب. وقد لازم سيبويه، وأخذ عنه النحو(١)
- أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي، **الأخفش الأوسط** ت ٢١٥ هـ على خلافٍ في وفاته، وكان أسنّ من سيبويه، وهو الذي احتفظ بكتابه وشرَحَه وبيَّنه. حدّث السيرافي فقال: جاء الأخفش إلى سيبويه يناظره بعد أن برع، فقال له الأخفش: إنما ناظرتك لأستفيد، لا لغيره، فقال سيبويه: أتراني أشكّ في هذا. (٢)
- **الناشئ**، وكان ممّن أخذ عن سيبويه، ووضع كُتُباً في النحو، ومات قبل أن يكملها، وتؤخذ عنه. وذكر محمد بن يحيى قال: <<سمعت محمد بن يزيد يقول: لو خرج علم الناشئ إلى الناس لما تقدّمه أحدٌ.>>(٣)

---

(١)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب ٦٧، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٨، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ١٠٦، نزهة الألباء لابن الأنباري٦٠، مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زادة ١٣٣/١ ط١ حيدر أباد الدكن ١٣٢٨-١٣٥٦هـ

(٢)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٦٨، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٨، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٦٧، ٧٤-٧٦، نزهة الألباء لابن الأنباري٤١، الفهرست لابن النديم ٧٨، وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٢/٢، مفتاح السعادة لطاش كبري زادة ١٣٢/١.

(٣)- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٨٥. يرى عبد السلام هارون محقق الكتاب أنّ <<قلة هؤلاء التلاميذ ناجمة عمّا يذكرون من أنه كانت في لسانه حُبْسة. ويذكرون أنّ الفراء يقول في شأن سيبويه: فأتيته فإذا هو أعجم لايفصح، سمعته يقول لجارية له: هاتِ ذيك الماء من ذاك الجرة. فخرجتُ من عنده فلم أعد إليه. ... ولعل تلك الحُبسة، على مايبدو من مبالغة في تصويرها، هي التي دفعته إلى التأليف، ونحّت به عن مقام الأستاذية الواسعة إلى مقام التأليف البارع المقتدر، الذي يجانبه فضول القول، وفضول الفكر.>> انظر مقدمة الكتاب ١٦.

٢- الذين أخذوا عن سيبويه بشكل غير مباشر وتتلمذوا على كتابه بقراءته. هم كُثُر، أشهرهم:

- **الكسائي**، علي بن حمزة بن عبد الله ت ١٨٩ هـ على خلاف في وفاته. إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القراء السبعة المشهورين، لقي الخليل بن أحمد، وجلس في حلقته. وذكر أنه حمل إلى أبي الحسن الأخفش خمسين دينارا، وقرأ عليه كتاب سيبويه سرا(١)
- **الفراء**، أبو زكريا، يحيى بن زياد ت ٢٠٧ هـ، وكان أبرع الكوفيين في علمه. قال أبو الطيب اللغوي: ‹‹أخبرنا محمد بن عبد الواحد قال: أخبرنا ثعلب قال: مات الفراء، وتحت رأسه كتاب سيبويه››(٢)
- **الجرمي**، صالح بن إسحاق، من قبائل اليمن ت ٢٢٥هـ. درس كتاب سيبويه على الأخفش الأوسط، وتوهّم الجرمي، والمازني أنّ أبا الحسن الأخفش قد هَمَّ أنْ يدّعي كتاب سيبويه لنفسه، فقال أحدهما للآخر: كيف السبيل إلى إظهار الكتاب، ومنع الأخفش من ادّعائه؟ فقال له: أن نقرأه عليه، فإذا قرأناه عليه أظهرناه، وأشعنا أنّه لسيبويه فلا يمكنه أن يدّعيه. وكان أبو عمر الجرمي موسرا، وأبو عثمان معسراً، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش، وبذل له شيئاً من المال على أن يقرئه، وأبا عثمان الكتاب، فأجاب إلى ذلك، وشرعا في القراءة عليه، وأخذا الكتاب عنه، وأظهرا أنه لسيبويه، وأشاعا ذلك، فلم يمكّنا أبا الحسن أن يدّعي الكتاب، فكانا السبب في إظهار أنه لسيبويه(٣)
- **المازني**، أبو عثمان بكر بن محمد، ت ٢٤٩هـ على خلاف في وفاته. درس الكتاب على الأخفش الأوسط، وكان يقول: ‹‹من أراد أن يعمل كتاباً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي››(٤)

---

(١)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب ٧٤، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ١٤٣-١٤٩، ونزهة الألباء لابن الأنباري ٤٢-٤٣، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١٦/١٢٢.

(٢)- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب ٨٦-٨٧، طبقات النحويين واللغويين ١٤٣-١٤٦.

(٣)- انظر نزهة الألباء لابن الأنباري ١٨٤-١٨٥.

(٤)- الفهرست لابن النديم ٧٧، نزهة الألباء لابن الأنباري ٧٥.

ويحكى أن كتاب سيبويه تخرّق في كمّ المازني، وهذا دليل على طول مصاحبته للكتاب(١)

لم يقف الاهتمام بكتاب سيبويه عند العقود القليلة من الزمن بعد وفاة سيبويه(٢)، بل استمرّ اهتمام الدارسين، وطلاب العلم على اختلاف عصورهم، وبلادهم، حتى إنه لم يمرّ زمن غير أن يُدرس فيه الكتاب أو يُشرح، أو تُشرح شواهده.

وضع سيبويه كتابه للعلماء، ولم يضعه لعامة الناس، فجاءت عباراته موجزة، وفي بعض الأحيان كانت غامضة أو صعبة حتى قيل لمن قرأه : هل ركبت البحر ؟ استصعاباً له.

---

(١)- انظر نزهة الألباء لابن الأنباري ١٢٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥٦/١، بغية الوعاة للسيوطي ٢٠٣ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ٤١٢/١ مصر ١٩٤١م.

(٢)- أثنى العلماء القدماء على كتاب سيبويه وعرفوا فضله وقيمته، منهم: **يونس بن حبيب**: انظره في أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٤٨. وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٤٩. ومعجم الأدباء لياقوت ١١٧/١٦، **وأبو عبيدة، معمر بن المثنى**: انظره في مراتب النحويين لأبي الطيب ٧٦، **والأخفش سعيد بن مسعدة**: انظره في مراتب النحويين لأبي الطيب ٦٩، وإنباه الرواة للقفطي ٣٥٠/٢، **وأبوزيد الأنصاري**: انظره في مراتب النحويين لأبي الطيب ٤٢، وإنباه الرواة ٣٥٠/٢، **وابن سلام** : انظره في طبقات ابن سلام ١٨، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٩٦/١٢، ونزهة الألباء لابن الأنباري ٧٤، **والمازني**: انظره في الفهرست لابن النديم ٧٧، ونزهة الألباء لابن الأنباري ٧٥، **والجاحظ**: انظره في نزهة الألباء لابن الأنباري ٧٣، ومعجم الأدباء لياقوت ١٢٣/١٦، وإنباه الرواة للقفطي ١٩٦/٢، **وابن قتيبة**: انظره في المعارف لابن قتيبه ٢٣٧. المطبعة الإسلامية ١٣٥٣هـ، **وأبو موسى الحامض**: انظره في مراتب النحويين لأبي الطيب ٨٧ ، ونزهة الألباء لابن الأنباري ٧٧، **وأبو الطيب اللغوي** في كتابه مراتب النحويين ٦٥، **والسيرافي** في كتابه أخبار النحويين البصريين ٤٨، **والأزهري** في كتابه تهذيب اللغة، مقدمة الجزء الأول ص ٩ تح: هارون ١٩٦٤م، **وابن النديم** في الفهرست ٧٦، **وصاعد الجياني الأندلسي**: انظره في معجم الأدباء لياقوت ١١٧/١٦، **وابن الأنباري** في كتابه نزهة الألباء ٧٣. وغير هؤلاء كثير.

ومن الطبيعي أن يتسابق العلماء على شرحه لتوضيحه، وبيان قواعده ومناقشة تلك القواعد، والاستدلال بها أو لها، ومن هذا المنطلق كثرت الشروح والتعليقات عليها(١) وقد أوردت لنا كتب التراجم أسماء الكثيرين ممن اهتموا بالكتاب، سواء أكانوا بصريين، أم بغداديين، أم أندلسيين. ووصل إلينا منها كثير، وقد تكشف لنا الأيام كتباً أخرى أشار إليها الأقدمون ولم تزل حبيسة الضياع. لذلك فإنّ حديثنا عن النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه سيكون وقفاً على أبرز النحاة، وإن كان اختيار البارزين فيه مشقّة كبيرة، لأن لكل نحويّ اتجاهاً قد يختلف عن غيره من النحاة وإن كان الاختلاف بسيطاً.

---

(١)- **الذين شرحوا الكتاب هم**: الأخفش الأوسط ت ٢١٥هـ، والمازني ت ٢٤٩هـ، والأخفش الأصغر ت ٣١٥ هـ، وابن السراج ت ٣١٦هـ، والمبرمان ت ٣٤٥هـ، وابن درستويه ت ٣٤٧هـ، والسيرافي ت ٣٦٨هـ، وابن سيّد اللغوي ت ٣٨٢هـ، والرماني ت ٣٨٤هـ، والربعي ت٤٢٠هـ، والمعري ت ٤٤٩هـ، وابن الباذش ت ٥٢٨هـ، والزمخشري ت ٥٣٨هـ، وابن يسعون ت٥٤٠هـ تقريباً، والخشني ت ٥٤١ هـ، وابن خروف النحوي ت ٦٠٦هـ تقريباً، وابو البقاء العكبري ت ٦١٦هـ، والصفار ت٦٣٠هـ، والشلوبين ت ٦٤٥هـ، وابن الحاجب ت ٦٤٦هـ، وابن الحاج ت ٦٤٧هـ، والخفّاف ت ٦٥٧هـ، وابن الضائع ت٦٨٠هـ، وعبيد الله القرشي ت ٦٨٨هـ، وابن الزبير ت ٧٠٨هـ، وابن الفخار ت ٧٢٣هـ، وأبو حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ، والعناني ت ٧٧٦هـ، والباقلاني ٧٧٦هـ.
والذين شرحوا شواهد الكتاب هم: المبرد ت ٢٨٥هـ، والزجاج ت٣١٠هـ، والمراغي ت ٣٣٥هـ، تقريباً، وابن النحاس ت ٣٣٨هـ، ومبرمان ت ٣٤٥هـ، والسيرافي ت ٣٦٨هـ، والخطيب الإسكافي ت٣٨٠هـ، وابن جندل القرطبي ت٤٠١هـ، والأعلم الشنتمري ت ٤٧٦هـ، والزمخشري ت٥٣٨هـ، وابن هشام اللخمي ت ٥٦٠ هـ، والدقيقي ت ٦١٤ هـ، والعكبري ت ٦١٦هـ، وابن معطٍ ت ٦٢٨هـ، والشلوبين الصغير ت ٦٦٠هـ تقريباً، والكوفي ربيع بن محمد بن منصور ت ٦٨٢هـ، والعيني ت٨٥٥هـ.
وأصحاب النكت والتعليقات هم: الجرمي ت ٢٢٥هـ، والزيادي ت ٢٤٩هـ، والسجستاني ت ٢٥٥هـ، والمبرد ت٢٨٥هـ، وثعلب ت٢٩١هـ، والأخفش الأصغر ت٣١٥هـ، والسيرافي ت٣٦٨ هـ، والباهلي محمد بن أبي زرعة، أبو يعلى، المولود ٢٥٧هـ، والفارسي ت٣٧٧هـ، والرماني ت٣٨٤هـ، وابن شيث ت٤٠٥هـ، والمعري ت٤٤٩هـ، والأعلم الشنتري ت٤٧٦هـ، وابن الطراوة ت٥٢٨هـ، وابن الدهان ت٥٩٦هـ، وابن الناصف: إبراهيم بن عيسى ت٦٢٧هـ، وابن الزبير ت٦٢٧هـ، والشلوبين ت٦٤٥هـ، والجذامي ت٧٢٣هـ.
والذين ألفوا كتباً على الكتاب تحمل أسماء مختلفة نحو: لُباب الكتاب، وآلة الكتاب وتجريد الكتاب، هم الجرمي ت ٢٢٥هـ، والمازني ت ٢٤٩ هـ،واللخمي ت ٥٩٢ هـ، والعكبري ت ٦١٦هـ، وأبو حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ.
والذين ردوا على سيبويه أو استدركوا عليه هم: المبرد ت ٢٨٥ هـ، وابن ولّاد ت ٣٣٢هـ، والزبيدي ت ٣٧٩هـ، والجذامي ت ٧٢٣هـ، وابن جماعة ت ٧٦٧هـ، (اعتمدنا في معلوماتنا على كتاب «« كتاب سيبويه وشروحه»» لخديجة الحديثي.

الاستدلال بالنصوص

• القرآن الكريم •

لم يقتصر تأثير سيبويه على من عاصره، أو درس عليه من تلامذته، بل كان أثره واضحاً عند النحاة الذين جاؤوا بعده من بصريين، وغيرهم. وقد لايكون تأثيره لدى من ناصَرَه فحسب، بل عند من عارضه الرأي والموقف، فلولا سيبويه، وكتابه لما نشأت مواقف المعارضين لاسيما الكوفيون، ففكره، ونظراته، ومناظراته خلقت تطوراً فكرياً في النحو، والصرف، وغيرهما من العلوم العربية، لم يقف أثره -أي التطور- عند عصر معين بل جاوز ذلك إلى قرونٍ طويلة من الزمن.

*- واعتمد سيبويه القرآن الكريم مصدراً هاماً من مصادر الاستدلال إلى جانب الشعر، وإن كان إلى الشعر أكثر ميلاً، كما أخذ بالقراءات القرآنية جميعها، لأنها سنّة متّبعة، وكثيراً ما احتج بقراءة عدّها المتأخرون شاذة على الرغم من أنه في الغالب لايشير إلى اسم صاحب القراءة.

أمّا الفراء الكوفي الذي ثبّت أركان المذهب الكوفي، وظهر أثره فيمن جاء بعده من نحاة المدرسة الكوفية، فهو من أكثر النحاة استقراء للغة القرآن الكريم، وقراءاته آنذاك، ويضع لغة القرآن في المقام الأول في استدلاله، لأنها أكثر دقة ويعبّر عن ذلك صراحة بقوله: <<والكتاب أعرب وأقوى في الحجّة من الشعر>>(١) ومن خلال استدلاله بالقرآن الكريم يُعنى بالقراء، وقراءاتهم (٢) مستعيناً بعلم غزير وملكة كبيرة في علوم القرآن ومعانيه(٣)، ويستدل بما يتفق مع القياس النحوي، ويرفض ما عدا ذلك،

---

(١)- معاني القرآن للفراء ١/١٤.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/١٤، ٢٨، ٤١، ٤٢، ٧٠، ٧٣، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٩٦.

(٣)- ذكرت كتب التراجم والطبقات أنّ له كتباً غير معاني القرآن منها: المصادر في القرآن، والجمع والتثنية في القرآن، واختلاف أهل الكوفة، والبصرة، والشام في المصاحف. انظر الفهرست لابن النديم ١٠٠، ومعجم الأدباء للحموي ٢٠/١٣.

ولايُفرّقُ بين ما عُدّ فيما بعد شاذاً، وما عُدّ متواتراً، ولهذا فهو يستدلّ بالقراءات ويذكر أصحابها من ذلك أنه أجاز أن تكون (هُدىً) في قوله تعالى: **ذلكَ الكتابُ لاريبَ فيهِ هُدىً للمُتّقين**(١) في محل رفع على الاستئناف لتمام ما قبله، واستدل بقراءة ابن مسعود: **وهذا بعلي شيخٌ** ثم قال: وهي في قراءتنا: شيخا»(٢)، وقد يرد قراءات كثيرة عدّها المتأخرون شاذة(٣).

*- أما الأخفش فصلته بسيبويه كبيرة، قال الأخفش: «كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرضه عليّ، وهو يرى أنّي أعلم به منه، وكان أعلم منّي، وأنا اليوم أعلم منه.»(٤) ويرى بعض المحدثين أنّ الأخفش هو الذي فتح أبواب الخلاف على سيبويه، وساعد في نشوء مدرسة الكوفة ثم المدارس المتأخرة فيما بعد. فقد كان أبو الحسن عالماً بلغات العرب، ثاقبَ الذهن، حادّ الذكاء، خالف أستاذَه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون ومَضَوا يتّسعون فيه فتكوّنتْ مدرستهم(٥). والواقع أن الأخفش قد خالف سيبويه، وهذا صحيح، لكنها خلافات في بعض الفروع، لأن النحو، وأصوله تكوّنت على يد الخليل بن أحمد، وتلميذه سيبويه، لكنّ المنهج العام في الاستدلال بالقرآن الكريم عند الاثنين هو واحد، والقراءة القرآنية المتواترة عند الأخفش حجّة على أصل نحوي وهو يبني على لغة القرآن قواعد كثيرة، وإن لم يكن سيبويه قد ذكرها قبله؛ من ذلك أنه أضاف على مواضع زيادة (أنْ) موضعاً آخر لم يُذكر من قبل مستدلاً بقوله تعالى: **وما لنا ألاّ نتوكّلَ على الله** (٦)، وأضاف جواز تعدّي الفعل مرّ بحرف الجر (على) واستدل بقوله تعالى: **وإنّكم لتمرّونَ عليهم مُصْبِحِينَ**(٧)

---

(١)- البقرة ٢/٢.

(٢)- معاني القرآن للفراء ١/١١-١٢.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/١٨، ٢٢٣، ٢٤١، ٢٥٢، ٣١٤، ٣٥٧، ٣٨٩، ٢/٢٢، ٧٥، وانظر الاحتجاج للعلواني ٦٧.

(٤)- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ٩٨-٩٩.

(٥)- انظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ٩٥-٩٦.

(٦)- إبراهيم ١٤/١٢، وانظر مغني اللبيب ١/٣٢.

(٧)- الصافات ٣٧/١٣٧، وانظر مغني اللبيب ١/١٠٦.

والأخفش قد يقلّد سيبويه في أسلوبه أحياناً فهو ينعت القراءة ويضعّفها، وقد يقسو أكثر من سيبويه حيث ينعت القراءة بالرداءة في أكثر من وضع، أو ينعتها بالشذوذ، أو ينكر قراءة بشكل مطلق(١) على عكس سيبويه الذي اتصف أسلوبه في ردّ بعض القراءات باللطف واللين.

*- أما المبرّد فهو يتمسّك بالأصل النحوي، ويُخضع المسموع من الشعر لما استُقري من القواعد العربية، ويطعن في الشواهد إذا خالفت الأصول، ويردّ قراءة قرآنية عُدّتْ بعده من القراءات الصحيحة(٢)، وهذا لاينفي اهتمامه بالقرآن الكريم والاستدلال به أكثر ممّا رأيناه عند سيبويه في كتابه، ففي المقتضب استدلّ المبرد بأكثر من خمسمائة آية (٣) مع أنّ كتابه أقلّ من كتاب سيبويه حجماً.
والقراءة عند المبرّد سنّة، وقد عبر عن ذلك بقول: <<ومثل ذلك قوله عزّ وجلّ: **ماوورِيَ عنهما مِنْ سَوْآتِهما**(٤) ولو كان في غير القرآن لكان همز الواحد جائزاً.>>(٥)

ويسير المبرّد على هدي سيبويه بعرض الفكرة، ثم الاستدلال لها بالقرآن الكريم مؤكداً الأصل النحوي، أو ما يقبله القياس، وفي ذلك يقول المبرد: <<فاللام في الأمر للغائب، وكلُّ من كان غير مخاطب نحو قول القائل: قُمْ ولأَقُمْ معك. فاللام جازمة لفعل المتكلّم، ولو كانت للمخاطب لكان جيداً على الأصل، وإن كان في ذلك أكثر، لاستغنائهم بقولهم: افعلْ، عن: لِتَفْعلْ. وروي أنّ رسول الله قرأ: **فبذلك فلتفرحوا**(٦) بالتاء.>>(٧) فالأصل النحوي يكون بدخول لام الأمر على المضارع الغائب أو

---

(١)- انظر الاحتجاج للحلواني ٥٥.

(٢)- انظر المقتضب للمبرد ٤/١٠٥.

(٣)- انظر المصدر السابق (المقدمة) ١١٦.

(٤)- الأعراف ٧/٢٠.

(٥)- المقتضب للمبرد ١/٩٥.

(٦)- يونس ١٠/٥٨.

(٧)- المقتضب ٢/٤٤-٤٥.

المتكلم، والقياس النحوي يقبل دخولها على المضارع المخاطب، لأن الأصل في الأمر أن يكون للخطاب، ولذلك أورد المبرّد قراءة الرسول (ص) دليلاً على رأيه. والمنهج ذاته سلكه في أكثر من موضع (١)

ويخالف المبرّد سيبويه بأسلوبه الذي يعبّر به في ردّ القراءة التي لاتوافقه، وهوكالأخفش في عنفِ عبارته منها قوله: <<أما قراءة أهل المدينة : (**هؤلاءِ بناتي هُنَّ أطْهرَ لَكُمْ**) (٢) فهو لحنٌ فاحش، وإنّما هي قراءة ابن مروان، ولم يكن له علمٌ بالعربية>>(٣)، وقد يصف القراءة بأنها<<خطأ لايجوز مثله في العربية>>(٤) و <<لاتحلّ القراءة بها>>(٥) و <<لو أني صلّيت خلف إمام تقرأ بها لقطعت صلاتي>>(٦).

*- أما ثعلب فقد نسج على منوال الفرّاء ولم يقدّم شيئاً جديداً (٧). صحيح أنه قرأ كتاب سيبويه، وناظرَ فيه، وله كتاب (الفصيح)، و (مجالس ثعلب)، إلا أنهما لايكشفان عن منهج خاص به في الاستدلال، فقد صبّ اهتمامه بالنقل، والرواية، فأبدع فيهما، ولم يولِ الظواهر النحوية وتعليلها اهتماماً كبيراً.

لذلك فإنّ استدلاله بالقرآن الكريم للظواهر النحوية قليل إذا ما قيس باستدلاله به للأمور اللغوية، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يخفي رأيه في أنّ لغة القرآن، وقراءاته، لاشك في صوابها، كما نقل عنه قوله: <<إذا اختلف الإعرابان في القراءات لم أفضّل إعراباً على إعراب، فإذا خرجت إلى كلام الناس

---

(١)- انظر المقتضب ١٨١/١، ٧/٢، ٣٤، ٤٣، ٦٧، ١٣١، ١٨٥، ٢٦١/٣، ٢٦٣/٤، ٣٥٩.

(٢)- هود ٧٨/١١.

(٣)- المقتضب ١٠٥/٤.

(٤)- الكامل للمبرّد ٧٤٩ طبعة زكي المبارك.

(٥)- شرح المفصّل لابن يعيش ٧٨/٣.

(٦)- درة الغواص للحريري ٦٢ مصورة عن الطبعة الأوربية. نقلاً عن الاحتجاج للحلواني ٥٩.

(٧)- انظر مجالس العلماء للزجاجي ١٠٢ تح: هارون، الكويت ١٩٦٢، إنباه الرواة للقفطي ١٤٤/١.

فضلت الأقوى>>(١)

وفي استدلاله للظواهر النحوية نرى أنه يستدل بالقرآن الكريم لتاكيد أصل نحوي(٢)، وهو لايأخذ بالقراءة الشائعة فحسب بل يستدل بقراءات عدتها المتأخرون شاذة(٣) وقد يرد قراءة إذا لم توافق لغة العرب، فقد وصف قراءة الكسائي لقوله تعالى: **إئْتِ بقرآن**(٤) بالقبح، فقال:<<وهذا قبيح لأنّ العرب لاتجمع بين همزتين الثانية منها ساكنة.>>(٥)

من ذلك نلاحظ أن نحاة البصرة والكوفة قد استدلوا بالقرآن الكريم، لكن الكوفيين منهم كانوا أكثر استدلالاً، وأكثر تحديداً وأصحابها، ولعل السبب في ذلك <<لأنّ الكوفة سهبط الصحابة، ففيها نزل عدد كبير منهم، وهم أكثرهم عرب لايُتّهمون في فصاحتهم، وأصبحت الكوفة بهم موطن القراءات، وظهر فيها ثلاثة من أربعة قرّاء كانوا أئمة القراءة في العراق، وهم عاصم بن أبي النجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي>>(٦) لذلك فإنّ كثيراً من القواعد التي وضعها النحاة كانت مستمدة من لغة القرآن الكريم سواء أكان ذلك عند نحويّي البصرة أم الكوفة.(٧)

---

(١)- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٨٣/١ الطبعة الثالثة ١٩٥١م.

(٢)- انظر شرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر الأنباري ٥٥،٧٠-٧١،٣٥١،٤٥٩،٥٧٣، تح: هارون ١٩٦٣م.

(٣)- انظر المصدر السابق ١١،٣٩٤، وانظر الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٥٥٤ تح: محيي الدين رمضان دمشق ١٩٧٣م.

(٤)- يونس ١٠/١٥.

(٥)- الوقف والابتداء لابن الأنباري ١٦٦.

(٦)- مدرسة الكوفة لمهدي المخزومي ٣٤٥ القاهرة ١٩٥٨م.

(٧)- انظر معاني القرآن للفراء: ١٠٧/١، ٢٣٨، ٣٣٠، ٣٤٧، ٥٠/٢، ٥٥، ١٥٩، ٢١١، ٣٩٠، شرح القصائد السبع الطوال ٥٥، ٥٦٨، والوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٩٧١، والإنصاف لأبي البركات الأنباري: المسألة ٦١.

يأتي بعد ذلك النحاة المتأخرون حيث تطورت النظرة إلى القراءات في القرن الرابع الهجري وماتلاه على يد أبي بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) (١) فقد أصبحت للقراءات حدود واضحة بتصنيفاتها، واختياراتها، وتحددت أبعاد القراءات الصحيحة، والشاذة، وطبيعة إسنادها، وموافقتها لرسم المصحف. وبناء على ذلك فقد صار النحاة يملكون ثقافة كبيرة في القراءات تختلف عن أسلافهم وهذا ما يبرر أنّ بعض القراءات التي عدّها النحاة القدماء شاذة قد صحّحها المتأخرون، والعكس صحيح (٢).

فالزجاج (ت ٣١٠هـ) يقرّ بأن القراءة سنّة متبعة تُقرأ كما وردت، وإن كانت مخالفة للأصول النحوية، واضعاً رسم المصحف أساساً في تناولاته(٣)، وعلى الرغم من ذلك فهو يردّ بعض القراءات وينسبُها إلى اللحن (٤).

أما الزجّاجي (ت ٣٣٧هـ) فإننا نراه لايردّ القراءة، وإن كانت مردودة من النحاة الذين سبقوه من ذلك قوله:<< وقرأ بعضهم: **ولكنْ كانوا هُمُ الظالمونَ** (٥) فمن رفع جعل(هُمْ) ابتداءً، و(الظالمون)

---

(١)- أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد (٢٤٥-٣٢٤هـ) كبير العلماء بالقراءات في عصره. من أهل بغداد. وكان حسن الأدب، رقيق الخلق، فطنا جوادا. له كتاب القراءات الكبير، وكتاب قراءة ابن كثير، وكتاب قراءة أبي عمرو، وكتاب قراءة عاصم، وكتاب قراءة نافع، وكتاب قراءة حمزة، وكتاب قراءة الكسائي، وكتاب قراءة ابن عامر، وكتاب قراءة علي بن أبي طالب، وكتاب قراءة النبي(ص) وكتاب الياءات، وكتاب الهاءات، وكتاب انفرادات القراء السبعة وكتاب الشواذ في القراءات. انظر الفهرست لابن النديم ٣١/١، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١٣٩/١.

(٢)- انظر رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري ٢٠٢ تح: سليم الجندي، بيروت، بلاتاريخ.

(٣)- انظر أبوعلي الفارسي لعبد الفتاح شلبي ٢٨٢-٢٨٤، القاهرة ١٩٥٤م.

(٤)- انظر البحر المحيط لأبي حيان النحوي ٢٧١/٤، ٤١٩/٥، ٣٣٥/٦.

(٥)- الزخرف ٧٦/٤٣.

خبره، والجملة خبر (كان).››(١) حتى إنه ينسبُ القراءة المردودة إلى أصحابها من غير إشارة إلى رأيه فيها، من ذلك قوله في مجيء (مِنْ) حرف جر لابتداء الغاية الزمانية: ‹‹ولو استعملتَ (مِنْ) في هذا الباب مكان (منذُ) فقلتَ: ما رأيتُه من يومين، أو من شهرين، كان ذلك قبيحاً، وأهل البصرة لايجيزونه. وأما قول الله عزّ وجلّ: **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** (٢) فتقديره: من تأسيسِ أولِ يومٍ››(٣).

ثم يأتي أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) الذي اهتمّ بكتاب سيبويه وآرائه، ومع ذلك فقد استدل بآيات قرآنية لم يوردها سيبويه في كتابه (٤)، واستنبط منها القواعد الكثيرة، من ذلك استدلاله على أن (ما) الشرطية قد تأتي دالة على الزمان بدليل قوله تعالى: **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** (٥)، وأن الباء قد تأتي بمعنى التبعيض واستدل بقوله تعالى: **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ** (٦) وغير ذلك من الأمثلة (٧). ولم يكن أبو علي يقبل كل القراءات، بل كان يردّ بعضها، شأنه شأن سيبويه وغيره من النحاة، ذلك بأسلوب يشابه أسلوب سيبويه بعيدٍ عن القسوة كقوله: ‹‹وهذا قبيح قليل الاستعمال، ولو عُدِل عنها إلى غيرها كان أولى (٨)، و ‹‹وهذا ضعيف في القياس، وقليل في الاستعمال، وما كان

(١)- وردت في تفسير الطبري، وفي الكشاف بالنصب فقط. اما في الجامع للقرطبي فقد جاء فيه: (ويجوز): **وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ** بالرفع على الابتداء، والخبر، والجملة خبر كان. وذكر الأخفش أن الرفع بعد ضمير الفصل في هاتين الآيتين، وما يشبههما لغة بني تميم. انظر كتاب الجمل في النحو للزجاجي ١٤٣(حاشية) تح: علي توفيق الحمد ١٩٨٤م بيروت. وانظر الصفحة ٣٠،٧٦.

(٢)- التوبة ٩/١٠٨.

(٣)- الجمل في النحو للزجاجي ١٣٩.

(٤)- ابوعلي الفارسي لشلبي ٥٢٦.

(٥)- التوبة ٩/٧.

(٦)- المائدة ٥/٦.

(٧)- انظر مغني اللبيب ١/١١١،٢٧٨،٢٩٤،٣٣٥.

(٨)- أبو علي الفارسي لشلبي ٢٤٢.

كذلك نترك الأخذ به أحسن››(١) و‹‹ألا ترى أنّ من قال: **للملائكةُ اسجدوا** لم يكن مصيباً›› لأنها حركة إعراب. (٢)

وعند ابن جني (ت ٣٩٢هـ) نرى أنه يبرز القراءات القرآنية بشكل يعلّل فيه اعتماده القراءات بأنواعها(٣) بما فيها الشاذة لأنها مروية عن رسول الله (ص)، وعلى الرغم من ذلك فهو يؤكّد أنّ القراءة الصحيحة أقوى إعراباً، وأنهض قياساً، ولهذا يجد لنفسه العذر في ترك الاستدلال بالقراءة الشاذة لأنّ القراءة الصحيحة أقوى إعراباً منها(٤)، ثم نراه يستدلّ بها -أي بالقراءة الشاذة- ويبني عليها أصولاً فقد ذكر في قراءة ابن عباس: وشاورهم في بعض الأمر أنّ ‹‹في هذه القراءة دلالة على أنك إذا قلت: شربتُ ماءك، وإنما شربتَ بعضه، كنت صادقاً، وكذلك إذا قلت: أكلت طعامك، وإنما أكلت بعضه. ووجه الدلالة منه قراءة الباقين، وشاورهم في الأمر، والمعنى واحد في القراءتين››(٥)

وإذا تجاوزنا إلى نحاة القرن السادس فإننا نرى الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) يستثمر فهمه لأساليب القرآن ليستنبط منه القواعد، وينفرد ببعضها من دون النحاة؛ من ذلك قوله: إنّ (أنّما) تفيد الحصر كما تفيده (إنّما) المكسورة الهمزة، يقول ابن هشام: ‹‹ومن هنا صحّ للزمخشري أن يدّعي أنّ (أنّما) بالفتح تفيد الحصر كإنّما، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: **قُلْ إنّما يُوحَى إليّ أنّما إلهكُمْ إلهٌ واحدٌ**(٦)

---

(١)- أبو علي الفارسي لشلبي ٢٤٠.

(٢)- البقرة ٢/٣٤، وانظر الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ١/٤٩، وانظر ١/٢٣٣، والاحتجاج للحلواني ٧٥.

(٣)- انظر المحتسب لابن جنّي ١/٣٣.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/٣٣، وانظر ١/٢٩٦ وما بعدها.

(٥)- المصدر السابق ١/١٧٦، وانظر ١/١٠٨-١٠٩، ١٧٦، ١٨٥.

(٦)- الأنبياء ٢١/١٠٨.

فالأولى لقصر الصفة على الموصوف، والثاني بالعكس>>(١)، وكذلك تفرّد بجواز حذف ما عَطَفَتْ عليه (أم)، واستدلّ بقوله تعالى: **أم كنتمْ شُهداءَ** (٢)، وذكر أنه <<يجوز كون (أم) متصلة على أنّ الخطاب لليهود، وحذفُ معادلها، أي أتدّعونَ على الأنبياء اليهودية أم كنتم شهداء>>(٣) ومن ذلك أجازته أن تكون (عن) للتعليل واستدل بقوله تعالى: **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عنها** (٤) وقال: <<إن كان الضمير للشجرة فالمعنى حملهما على الزلّة بسببها>>(٥).

أمّا الرضي الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ) فهو يتابع منهج من سبقه، فقد استدل بالقراءات الصحيحة المتواترة، وبالقراءات الشاذّة. ومن استدلاله بالقراءات المتواترة: <<**إن هذان لساحران** (٦) قراءة السبعة عدا أبي عمرو>>(٧) وقوله تعالى : <<**هذا يومَ ينفعُ الصادقِيْنَ صِدقُهم** (٨) وهذه قراءة نافع من القرّاء السبعة>>(٩).

ومن استدلاله بالقراءات الشاذة قراءة قوله تعالى: **هؤلاء بناتي هُنّ أطهرَ لكم**(١٠)، وذكر أنها قراءة الحسن، وزيدِ بنِ عليّ، وعيسى بن عمر، وسعيد بن جُبَيْر، ومحمد بن مروان السُّدّي... ورويت هذه القراءة عن مروان بن الحكم، وخُرّجت على أن نصب (أطهرَ) على الحال(١١).

---

(١)- مغني اللبيب ١/٣٩.

(٢)- البقرة ٢/١٣٣.

(٣)- مغني اللبيب ١/٤٤.

(٤)- البقرة ٢/٣٦.

(٥)- مغني اللبيب ١/١٥٨، وانظر الاحتجاج للحلواني ٧٩.

(٦)- طـه ٢٠/٦٣.

(٧)- حجة القراءات لأبي زرعة ٤٥٤، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٢٤٢.

(٨)- المائدة ٥/١١٩.

(٩)- حجة القراءات لأبي زرعة ٢٤٢، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ١٣٦.

(١٠)- هود ١١/٧٨.

(١١)- انظر المحتسب لابن جنيّ ١/٣٢٥، والبحر المحيط لأبي حيان ٥/٢٤٧.

وقوله تعالى: **للهِ الأمرُ مِنْ قَبْلِ ومِنْ بَعْدِ**(١) وهي قراءة الجحدري، وأبي السَّمَّال، وعون العُقَيلي(٢).

والرضي لايتحرّج من نقد القراءات المتواترة، ويرميها بالشذوذ، قال: <<وأما يونس(٣)، والكوفيون فجوّزوا إلحاق النونِ الخفيفة بالمثنى، وجمع المؤنث، فبعد ذلك إمّا أن تبقى النون عندهم ساكنة، وهو المرويُّ عند يونُس؛ لأن الألف قبلها، كالحركة لمافيها من المدّة، كقراءة نافع (٤): **وَمَحْيَايْ**(٥) أو قراءة أبي عمرو: **واللايْ** (٦)، وقولهم: التقتْ حَلَقَتا البِطَانِ (٧)، ولاشكّ أنّ كلّ واحدٍ في مقام الشذوذ(٨)، فلايجوز القياس عليه (٩).

لقد تابع الرضي المنهج الذي سلكه النحاة الذين سبقوه في موقفهم من القراءات والطعن فيها؛ أمثال سيبويه، والمبرد، وابن جني. والصواب ألاّ نردّ القراءات التي تخالف أصولهم ومقاييسهم، بل يجب

---

(١)- الروم ٣٠/٤.

(٢)- انظر البحر المحيط لابن حيان ٧/١٦٢.

(٣)- الكتاب ٣/٥٢٧، والخصائص لابن جنّي ١/٩٢.

(٤)- انظر حجة القراءات لأبي زرعة ٢٧٩.

(٥)- الأنعام ٦/١٦٢، والآية بتمامها: **قل إنّ صلاتي ونُسكي ومَحْيايْ ومَماتي لله ربّ العالمين**.

(٦)- الطلاق ٦٥/٤ **واللائي يئِسْنَ من المحيض من نسائِكُم إنْ ارتبتمْ فعدّتُهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ واللائي لم يحِضْنَ ...**

(٧)- هذا مثل، وهو كناية عن ضيق الأمر واشتداده. انظر الخصائص ١/٩٣.

(٨)- الرضي لايتحرّج من نقد القراءات، فهو يعُدّ كلَّ ما تقدم من قبيل الشذوذ مع أننا علمنا أنّ قراءة (واللاي) المنسوبة إلى أبي عمرو، والبزّي، هي قراءةٌ سبعيّةٌ متواترة! سورة الطلاق الآية ٤، انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي ٤١٨ مصر بلا تاريخ، وانظر الأستراباذي، دراسة وتحقيق ليحيى مصري ١٥٢٨ (رسالة دكتوراه).

(٩)- انظر الكتاب ٣/٥٢٧، والخصائص ١/٩٢.

عليهم أن يخضعوا أسسهم ومقاييسهم لها؛ لأنّ المنطق أن تسير القواعد وراء النصوص الفصيحة، لا أمامها(١).

أمّا ابن هشام فهو يمثّل مذهب النحاة المتأخرين (ت ٧٦١هـ) فهو يُشبه مذهب ابن مالك، وأبي حيان في كثرة الاستدلال بالقرآن الكريم، بشكل متتالٍ نحو: <<والثاني ممّا تزاد فيه الباء، المفعول، نحو: **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكةِ** (٢) **وهزّي إليكِ بجزع النخلةِ** (٣)، **فليمددْ بسببٍ إلى السماء**(٤)، **ومَنْ يُرِدْ فيهِ بإلحَادٍ**(٥)، **فطفق مسحاً بالسوق**(٦) أي يمسحُ السوقَ مسحاً>>(٧). ويقبل القراءات جميعها، من دون أن ينظر إلى ردّ النحاة المتقدمين لهذه القراءات(٨)

ويختلف مذهب ابن هشام عن مذهب سيبويه، فهو ينهج نهج ابن مالك، وأبي حيان، ويستدل بالقراءة الشاذة، بل إنه يردّ على من أنكر بعض هذه القراءات؛ من ذلك أنه أجاز تسكين لام الأمر بعد (ثمّ)، واستدلّ بقراءة الكوفيين لقوله تعالى: **ثمّ لْيقْضُوا تَفَثَهمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُم** (٩)، وقال: <<وفي

---

(١)- انظر المقتضب للمبرد ٢١٢/١، ١٣٤/٢، والمحتسب لابن جني ١٠٣/١، والرضي الأستراباذي، لمصري ٨٩.

(٢)- البقرة ١٩٥/٢.

(٣)- مريم ٢٥/١٩.

(٤)- الحج ١٥/٢٢.

(٥)- الحج ٢٥/٢٢.

(٦)- سورة ص ٣٣/٣٨.

(٧)- مغني اللبيب ١١٥/١.

(٨)- انظر المصدر السابق ٢٠/١، ٢٨، ٣٤، ٤٠، ١٤٠، ١٧٠، ٢٢٩، ٢٦٩، ٢٩٤، ٣٠٥.

(٩)- الحج ٢٩/٢٢.

ذلك ردّ على مَنْ قال: إنّه خاصٌ بالشعر>>(١)، وقوله في قراءة أخرى: <<لاوجه لإنكار الفارسي هذه القراءة مع ثبوتها واتجاهها>>(٢)، إضافة إلى أنّه يتحرج في تضعيف القراءة(٣).

*- **ومما** تقدم نصل إلى أن أثر سيبويه قد شمل من عاصره، ومن جاء بعده، فقد تابع النحاةُ سيبويه في استدلالهم على ما وافق الأصول حيناً، وما خالفها أحياناً، فوقفوا عند القراءات التي خالفت الأصول، فمنهم من قبلها، ومنهم من ردّها. ولعل تناولاتهم للقراءات الشاذة هو نوع من اهتمامهم بما خالف الأصول؛ لأنه لولا مخالفة القراءات لهذه الأصول في رأي النحاة آنذاك لما أطلقوا عليها اسم القراءات الشاذة.

ومن جهة أخرى فقد اهتم النحاة جميعهم بالقرآن الكريم كطريق للاستدلال، وإن كان اهتمام المتأخرين من النحاة أكبر ممّا عند سيبويه الذي أولى الشعر عناية فائقة، وعوّل على إنشاد العرب الفصحاء، وقد استدل النحاة كذلك بالقراءات القرآنية على اختلاف تصنيفها، غير أنّ النحاة الأوائل لم يدركوا تصانيف القراءات التي وضعها ابن مجاهد، فصحّتْ قراءاتٌ صُنِّفَت فيما بعد بالشاذة، ورُدّت قراءات وضعها المتأخرون في مصافّ القراءات الصحيحة.

ويعد القرن الرابع حافظ بعض النحاة على نهج الأوائل في الاستدلال بالقراءات القرآنية، وردّ بعضها كالرضي الأستراباذي، وأخذ نحاة آخرون بالقراءات جميعها، وعدّوها صحيحة.

---

(١)- مغني اللبيب ١/٢٤٦.

(٢)- المصدر السابق ١/٢٤٥.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢/٦١٣، وانظر الاحتجاج للحلواني ٨٧.

• الحديث الشريف •

لقد كان طبيعياً لو استدل النحاة بالحديث الشريف في استنباطهم لقواعد اللغة العربية، شأنه شأن القرآن الكريم، لأنه أبلغ بياناً، وأروع تأثيراً من كلّ كلامٍ بعد القرآن الكريم. لكن ذلك لم يحدث بسبب تهافت العلماء على ما يزوّدهم به رواة الشعر تهافتاً أخذ جهدهم فابتدعوا الحجج، والعلل لعدم استدلالهم به (١)، وقد انقسم النحاة فريقين: الأول لم يستدل بالحديث الشريف ظنّاً منه أنّ الأحاديث مروية بالمعنى لا باللفظ، والثاني أجاز الاستدلال به ظناً منه أنها لفظه (ص).

لم يولِ سيبويه الحديث الشريف أهمية تذكر، بل إنه في استدلاله به -على قلته- لم يشر إلى أنها أحاديث، إضافة إلى أنّها ليست كلّها موافقة لما تذكره كتب الصحاح، أما تعليل قلّة استدلال سيبويه بالحديث فقد تعرضنا له بشكل يغنينا عن التكرار.

ونهج النحاةُ الأوائل نهج سيبويه سواء أكانوا بصريين أم كوفيين، فلم يستدلوا بالحديث الشريف إلاّ في مواضع قليلة لاتشكل مذهباً. فالفراء لم يستدل في كتابيه معاني القرآن، والمذكر والمؤنث إلا بثلاثة عشر حديثاً أربعة منها جاءت حجّة على ظواهر نحوية، والأخرى على ظواهر لغوية (٢)، وهو كسيبويه يسوق الحديث حيناً من دون أن يصرح بأنه حديث، بل يذكره ضمن كلام العرب (٣).

---

(١)- انظر في أصول النحو للافغاني ٤٦.

(٢)- انظر معاني القرآن للفراء ١/٥، ١٤٦، ٢٦٦، ٢٨٠، ٣٦٩، ٣٧٠، ٢/ ٥٩، ١٢٦، ٤٠٠، ٤٠٢، والمذكر والمؤنث للفراء ١٤، ٢١، تح: مصطفى الزرقا حلب ١٣٤٥هـ.

(٣)- انظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٦، والاحتجاج للحلواني ١٩٦.

أمّا الأخفش فإنه لم يستدل بالحديث الشريف في معاني القرآن قطّ على الرغم من أنه يتناول أحياناً بعض لغات العرب على غرار التي تناولها الرسول (ص) حيث إنّ لغة حِمْيَرَ ونفرٍ من طيّئ تبدل الميم من لام التعريف(١) فتقول في الرجل (امرَجُل) (٢). ومع ذلك فإن الأخفش لم يستدل بالحديث الشريف: <<ليس امبرُّ امصيامَ في امسَفَر>>(٣) يريد ليس البرّ الصيام في السفر على الرغم من تناوله للغة اليمن بقوله:<<وأمّا ما سمعناه من اليمن فيجعلون (أمْ) مكان الألف واللام الزائدتين>>(٤).

أما المبرد فإنه يبقى في دائرة منهج سيبويه بقلّة استدلاله بالحديث الشريف فقد استدل بأربعة أحاديث في تناولاته النحوية ومثلها تقريباً في اللغة. من ذلك ما ذكره في باب <<اشتقاقك للعدد اسمَ الفاعل كقولك هذا ثاني اثنين، وثالث ثلاثة، ورابع أربعة>>(٥)، بقوله: <<فإذا بلغت المائة قلت: كانوا تسعة وتسعين فأمأيْتُهم : إذاجعلتهم مائة، وكان تِسعمائة فآلَفْتُهم. إذا أردت: (فعلتهم)، وآلفْتُهم إذا

---

(١)- انظر الرضي الأستراباذي ليحيى مصري ٤٢٠/١.

(٢)- انظر مجالس ثعلب ٥٨/١، تح: هارون.

(٣)- مسند الإمام أحمد ٤٢٤/٥، عن كعب بن عاصم الأشعري عن النبي (ص)، ومن هذه اللغة قول بُجَيْر بن غنمة الطائي كما نسبه ابن بري :

ذاك خليلي، وذو يواصلني يرمي ورائي بامْسَهْمَ وامْسَلِمَة

يريد: بالسهم والسلمة. والسلمةُ واحدة السِّلام، وهي الحجارة. شرح عمدة الحافظ ٨ وانظر شرح الكافية الشافية ١٨١/١ نقلاً عن منهج الأخفش في إعراب القرآن (حاشية) لصفوة البرازي ١٣٣، رسالة ماجستير. معهد الدراسات الإسلامية. مصر.

(٤)- معاني القرآن للأخفش ٢٩/١، تح: فائز فارس ط٢ الكويت ١٩٨١م.

(٥)- المقتضب للمبرد ١٨١/٢.

أردت : (أفعلتهم). كلُّ ذلك يقال. وجاء في الحديث: أوّل حيٍّ آلفَ مع رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- جهينةُ، وقد آلفتْ معه بنو سُليم بعدُ..››(١)

والأحاديث الأربعة المستدل بها عند المبرد نجد أنّ أحدها قد استدلّ به سيبويه قبل ذلك، وهو قوله (ص): ‹‹**مامن أيام أحبّ إلى الله فيها الصوم منه في عشر ذي الحجة**››(٢). واستدلال المبرد بالحديث الشريف يبقى ضئيلاً إذا ما قورن باستدلاله بالقرآن الكريم، والشعر، وكلام العرب، على الرغم من أنه على علم غزير به بدليل أنه صنع كتاباً في غريب الحديث، ويظهر أنّ المبرّد كان يستدل بالحديث الشريف في معالجة القضايا النحوية من غير استرسال في الإكثار منه(٣)

وفي القرن الرابع الهجري نرى الزجّاجي يسير على نهج سابقيه، قلّة في الاستدلال بالحديث الشريف، لكنها عنده مصحوبةٌ بالإشارة إلى أنّ ذلك من قول رسول الله (ص) ففي كتابه «الجمل في النحو» يستدل بحديثين، وقراءةٍ فقط؛ ففي حديثه عن الأمر والنهي أجاز دخول لام الأمر على فعل المخاطب وقال: ‹‹وروي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قرأ: **فبذلك فَلْتَفْرَحُوا** (٤)، وقال في بعض المغازي **لِتأخُذوا مصافَّكُمْ**››(٥)، وكان الفراء قد استدل بهذا الحديث(٦)

---

(١)- المقتضب للمبرد ٢/١٨٤.، وانظر ٢/٢١٧، ٣/٢٥٠، ٤/٢٥٤.

(٢)- المصدر السابق ٣/٢٥٠، والكتاب ٢/٣٢.

(٣)- انظر: أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية لمحمد عبد الخالق عضيمه ٥٠ ط١ الرياض ١٤٠٥هـ.

(٤)- يونس ١٠/٥٨ وكان الكسائي قد عاب هذه القراءة لقلّتها، ووصفها الأخفش بأنها لغة رديئة. انظر معاني القرآن للفراء ١/٤٦٩-٤٧٠، والجمل في النحو للزجاجي(حاشية) ٢٠٨.

(٥)- المصدر السابق ٢٠٨.

(٦)- انظر معاني القرآن للفراء ١/٤٦٩.

ومنه أيضا قوله (ص): <<**البِكْرُ تُستَأمَرُ والثَّيِّبُ تُعرب عن نفسِها**.>>(١) وبقي أمر الاستدلال بالحديث الشريف على حاله عند ابن جني، فهو في كتابيه الخصائص، والمحتسب استدلّ بسبعة أحاديث من خلال تناولاته النحوية والصرفية، وجاء استدلاله بها متأخرا، وكأنه عنده نوع من الاستئناس، من ذلك أنّه تكلم على حذف الصفة إذا دلّت عليها الحال، وألمحَ إلى قول سيبويه: سِيرَ عليه ليلٌ، وهم يريدون: ليلٌ طويل(٢)، ثم يتابع سلسلة من الأمثلة كثيرة، حتى إذا استوى له **تقرير الأصل** قال: فعلى هذا، وما يجري مجراه تحذف الصفة، فأما إذا عريت من الدلالة عليها من اللفظ، أو من الحال فإنّ حذفها لايجوز>>(٣) ثم يقول: <<ومن ذلك ما يروى في الحديث: **لاصلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد**؛ أي لاصلاة كاملةً أو فاضلة، ونحو ذلك>>(٤). ومنه استدلاله بقوله (ص): **كفى بالسيف شا**؛ أي: شاهداً بحذف عين الكلمة، ولامها على قوله تعالى: **يس** (٥)، وذكر أنّ الأصل قد يكون: ياإنسان، لكنّه اكتُفِي بالسين من جميع الاسم فقال: ياسين (٦).

ويظهر تأثير ابن جني بسيبويه باستدلاله بالحديث الشريف في قوله(ص): <<**كل مولود يولد**

---

(١)- الجمل في النحو للزجاجي ٢٩١، وقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري ٧/٢٣، مطابع دار الشعب بالقاهرة. (بلفظ مخالف): عن أبي هريرة (رض) أنّ النبي (ص) قال: **لاتُنكَحُ الأيّم حتى تُستأمَر، ولا تُنكَحُ البِكْر حتى تُستأذن، قالوا**: يارسول الله، وكيف إذنها؟ قال: **أن تَسكت**. وانظر مسند ابن حنبل ٤/١٩٣ طبعة ١٩٤٨م، وسنن ابن ماجه ١/٦٠٢، ١٨٧٢م.

(٢)- انظر الكتاب ١/٢٢٦.

(٣)- الخصائص ٢/٣٧١.

(٤)- المصدر السابق ٢/٣٧٢.

(٥)- يس٣٦/١.

(٦)- انظر المحتسب لابن جني ٢/٢٠٤ تح: ناصف وشلبي القاهرة ١٣٨٦هـ، وانظر ١/١٠٠.

يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصترانه››. فقد خرّج الحديث كما خرّجه سيبويه(١).

وخطا الاستدلال بالحديث الشريف خطوة كبيرة على يد ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) في الأندلس، والرضي الأسترابادي (ت ٦٨٦) في المشرق على غير اتفاق، أو تأثر بينهما. فالرضي يرى صحة الاستدلال بالحديث مطلقاً، وقد استدلّ بواحد وثلاثين حديثاً شريفاً، كلها صحيحة، إلاّ حديثين اتفق المحدّثون على تضعيفهما، أحدهما قوله(ص): ‹‹**كما تكونون يُوَلّى عليكم**››فإنه حديث ضعيف مرسل(٢) . وثانيهما قوله (ص): ‹‹**ليس في الخضروات صدقة.**›› فإن هذا الحديث اتّفق المحدّثون على تضعيفه؛ لأن من رواته الحارثَ بن نبهان، وأمّا نص الحديث الصحيح فهو: ‹‹**ليس في الخضروات زكاة.**››(٣).

واستدل الرضي بأحاديث الرسول(ص) في موضوعات نحوية مختلفة؛ منها قوله (ص): ‹‹**الناس كإبل مئة لاتجد فيها راحلة واحدة** ››(٤)، وفي حديثه عن الصفة، والوصف بالمقادير. وقوله (ص): ‹‹**يتعاقبون فيكم ملائكة**›› في حديثه عن قولهم: أقائمون الزيدون، فذكر أن (قائمون) تحتمل أن تكون مبتدأ، وما بعدها فاعلها، وقاسها إلى الحديث الشريف(٥) وغير ذلك من الأحاديث

---

(١)- انظر الكتاب ٣٩٣/٢، والمحتسب لابن جني ٣٣/٢، و ٣٤٣،١٨٦،٨٨/١. ذكر سيبويه أن في الحديث ثلاثة أوجه: فالرفع وجهان، أولهما أن يكون المولود مضمراً في (يكون)، والأبوان مبتدأ، ومابعده مبني عليه، وثانيهما أن يكون (الأبوان) اسماً ليكون، و(هما) مبتدأ، وما بعده خبر له، والنصب على أن تجعل (هُما) فصلاً. انظر الكتاب ٣٩٣/٢-٣٩٤.

(٢)- انظر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي ٣٢٦ نشر مكتبة الخانجي، مصر ١٩٥٦؛ نقلاً عن الرضي الأسترابادي لمصري ٩٢.

(٣)- رواه الترمذي في صحيحه، كتاب الزكاة، والحديث برقم ٦٣٨.

(٤)- انظر شرح الكافية للرضي ٢٨٢/١، وهمع الهوامع للسيوطي ١٦٠/١.

(٥)- انظر أضواء على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ١٨/٢، والحاشية.

الشريفة(١)

من ذلك نلاحظ أنّ الرضي قد خطا بشكل مؤثّر في جعل لغة الحديث الشريف مادة للاستدلال في النحو العربي، بعد قرون عدة كان الاستدلال فيها يسير بخُطى بطيئة، إن لم يكن متوقفاً عند الحدود التي وقف عندها سيبويه.

ثم نصل إلى القرن الثامن الهجري فنرى ابن هشام (ت ٧٦١هـ) يستدل بالحديث الشريف بكثرة تصل إلى حدّ استدلال ابن مالك به؛ ففي مغني اللبيب استعان باثنين وستين حديثاً نبوياً استخدمها في سبعة وسبعين موضعاً، والفارق بين الرقمين مردّه إلى أنّه كرّر بعض الأحاديث في أكثر من مكان كقوله: (ص) <<**إنّ من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون**>>(٢) فقد استدلّ به على جواز رفع ما بعد (إنّ) ومجيء اسمها ضمير شأنٍ محذوفاً(٣). وقوله (ص): <<**نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوَرِّث**>> في حديثه عن الجملة المعترضة (٤). وغير ذلك من الأمثلة (٥).

أخذ ابن هشام منحىً متطوراً في استدلاله بالحديث الشريف متأثراً بالسهيلي (ت ٥٨١ هـ)، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) فهو يشير إلى مصدر الحديث في كتب الصحاح نحو قوله: <<نعم وقع في صحيح

---

(١)- انظر شرح الكافية للرضي ١/٣٥،٦٧،٨٦،١١٨،١٧٤،٣٠٨.

(٢)- الحديث في الصحاح دون كلمة(من)، وفي مسند أحمد ١/٤٢٦<<إن من أشد الناس... المصورين>> فلا أصل إذاً لرواية النحاة.

(٣)- انظر مغني اللبيب ١/٣٦،٣١٨،٣٦١.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٤٣٣،٦٠٧،٧٥٨.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/١٢٩،١٣٠، وانظر ١/٢٤٨،٢٥١، وانظر ١/١٣٤، ٢/٥٥١،٥٨٥، وانظر ٢/٤٤٩،٤٧٨ وانظر ٢/٤٤١،٤٩٧، وانظر ١/١١٥، ٢/٦٥٤، وانظر ٢/٧٣٢،٧٣٤، وانظر ٢/٦٦٩،٦٧٠، وانظر ١/١٤٣، ٢/٤١٣.

البخاري في تفسير **وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ**››(١) : ‹‹**فيذهب كيما فيعود ظهرُه طبقاً واحداً**››، أي: كيما يسجد، وهو غريب جداً لايحتمل القياس عليه››(٢)، وإشارة ابن هشام هذه لها مدلول هام يعني بها أنه يبتعد عن السماع في استدلاله، لينهل من الكتب التي انتشرت آنذاك(٣).

ويقرن ابن هشام استدلاله بالحديث الشريف مع استدلاله بالقرآن الكريم، أو الشعر على عادة أسلافه(٤)، لكنّه يفوقهم اهتماماً بالحديث الشريف، فهو يُكثر من الاستدلال به ويمزج استدلاله بتخريجه(٥)، أو يستعين بتخريج غيره أو يردّه (٦).

ونظـرة إلى ما تقدم تكشف لنا أنّ الاستدلال بالحديث الشريف يبقى كغيره من طرق الاستدلال يبحث عمّا خالف الأصول غالباً، وقد حاول النحاة الوصول إلى بعض القواعد لإضافتها إلى جهود السابقين، وهي على قلّتها قياسا إلى جهود نحاة القرنين الأول، والثاني تعدُّ جهداً محموداً سنقف عليه من خلال حديثنا عن الآراء التي تفرّد بها بعض النحاة بعد سيبويه.

---

(١)- القيامة ٧٥/٢٢. قال ابن حجر: الثابت في نسخ البخاري التصريح بـ (يسجد)، فلعلّ المؤلف وقعت له نسخة بحذف (يسجد) . عن حاشية الدسوقي نقلاً عن مغني اللبيب ٢٠٠/١.

(٢)- مغني اللبيب ٢٠٠/١.

(٣)- انظر الاحتجاج للحلواني ٢١٥.

(٤)- انظر مغني اللبيب ٢٢/١ ، ٢١٩-٢١٨،١٨٣،١٥٧،١٤٣،٨٠،٤٨.

(٥)- انظر المصدر السابق ١٢١،١٠٢/١.

(٦)- انظر المصدر السابق ٣٦/١.

• الشـــعر •

استدلّ سيبويه بالشعر ليضع للغة العرب القواعد، متابعاً مسيرة نحاة كبار بدؤوا قبله رحلة التقعيد، وقد سلك في سبيل ذلك طريقين واضحتين؛ الأولى أخذه عن شيوخه، ونقله عنهم وأبرزهم أبو عمرو، ويونس، والأخفش الأكبر، وعيسى بن عمر، والخليل بن أحمد الفراهيدي. والثانية سماعه الشعر من خلال نشأته في مدينة البصرة، وتردّد الأعراب عليها، وإنشادهم الشعر في سوق المِربَد، ولم نجد دليلاً يشير إلى رحلته وراء الأعراب في باديتهم، ذلك أنّ قوله: (سمعنا)، أو سمعته من العرب، أو غيرها من العبارات (١) لاتشكل دليلاً لرحلته، بل هي دليل على سماعه منهم، هذا السماع الذي حدث فيما أظنّ نتيجة رحلة الأعراب إلى الحاضرة، لا العكس.

هذان المصدران هما الأساس الذي اعتمده سيبويه في استدلاله لقواعد العربية سواء أكان ذلك لما خالف الأصول في الغالب، أم لما وافقها.

ليس لسيبويه أثرٌ في الفراء (ت ٢٠٧هـ) شيخ نحاة الكوفة، لكنّ النهج الذي انتهجه الفراء في الرواية يشابه نهج سيبويه إلى حدّ كبير، فقد نقل الفراءُ عن شيوخه، وكذلك شافهَ الأعرابَ أما نقله عن الشيوخ، فمن المؤكدّ أن شيوخه الذين أخذ عنهم غيرُ شيوخ سيبويه، ولايشترك الاثنان إلاّ في يونس بن حبيب(٢)، أما غير ذلك فقد نقل عن المفضّل الضبّي(٣)، والقاسم بنِ معن(٤)، والكسائي(٥). أما عن مشافهته الأعراب فهو كسيبويه يستنبط ممّا يسمعه القواعدَ، والأصولَ، غير أنّه

---

(١)- انظر الكتاب ١/٣٢٠،٤٢٣،٤٢٦، ٢/٩٢،١٥١-١٥٢،٣٤٥، ٣/٤٦،١٤٤،٣٠٠،٤٢٥،٥٠٣-٥٠٤، ٤/١٩٧.

(٢)- انظر معاني القرآن للفراء ١/١٢٧، ٢/٣٧، وانظر مجالس ثعلب ٤٥٦، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ٢٨ نقلاً عن يونس بن حبيب لحسين نصّار ٣٨.

(٣)- انظر معاني القرآن للفرّاء ١/٩١،١٣٠،١٣٣،١٨٥،٢٦٤،٢٨٣، ٢/١٦،٣٩.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/٦٨،١٣٦، ٢/٣٩.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/١٣٤،٢١٢،٢٣٣،٣٦٥،٤٠١،٤١٠.

أكثرُ بياناً من سيبويه لأنّه يحدّدُ مَن ينقل عنه (١)، أو يحدّدُ قبيلتَه إنْ نَقَلَ عن مجهولٍ (٢). وكان سيبويه يُكثر من نعت الأعرابي بالفصاحة والثقة.

وما من شكٍّ في أن طبيعة الفراء في استنباطه لقواعد النحو تختلف عمّا سلكه سيبويه، لأن الفرّاء في (معاني القرآن) ينطلق من آية من آيات القرآن الكريم ليدرس ظاهرة لغوية فيها، ثم يشرحها، ثم يقعّد ما استنبطه، ثم يدعم ماوصل إليه مستدلاً بالشعر والنثر. وقد زادت الشواهد الشعرية عند الفرّاء على ثمانمئة شاهد لم يُذكر منها في كتاب سيبويه إلاّ مئةُ شاهد أو يزيد قليلاً، وفي هذه الأبيات التي التقى فيها مع سيبويه خلاف في أمرين:

الأول: اختلافهما في رواية بعض الشواهد، ذلك أنّ سيبويه يذكر:

يا دارُ حَسَّرَها البِلى تَحْسِيرا وسَفَتْ عليها الريحُ بعدكَ مورا(٣)

ويرويه الفرّاء:

يا دارُ غيّرها البلى تغييرا (٤)

ويذكر سيبويه :

---

(١)- ذكر ابن النديم أنّ الفرّاء نقل عن أبي ثروان، وأبي الجراح، وأبي زياد، والكلابي، والحارثي، والفقعسي، والقناني، انظر الفهرست لابن النديم ٧١-٧٦، والاحتجاج للحلواني ٩٤.

(٢)- انظر معاني القرآن للفرّاء ١/٤٠، ٥٦، ٦١، ٦٧، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٦١، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ٢٦٢، ٣٦٩، ٣٨٨، ٤٢٧، ٤٦٠، ٤٦٨، ٢/١٣، ٢٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٧٤، ٧٥، ٣١١.

(٣)- حسّرها: غيّرها وأخفى آثارها، والبِلى: القِدَم، وسفَتْ: طيّرتْ، والمُور، بالضم: الغبار المتردّد. والشاهد فيه رفع (دار) لأنها لم توصف بما بعدها، بل ما بعدها استئناف وإخبار. الكتاب (حاشية) ٢/٢٠١.

(٤)- معاني القرآن للفراء ٢/٣٧٦.

فطافتْ ثلاثاً بينَ يومٍ وليلةٍ   يكونُ النكيرُ أنْ تُضِيْفَ وتَجْأَرا(١)

ويرويه الفراء:

أقامت° ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ   وكان النكير أنْ تضيفَ وتجْأرا(٢)

والأمثلة المشابهة لذلك كثيرة (٣).

الثاني: اختلافهما في موضع الشاهد، فقد ذكر سيبويه قول رؤبة:

أنا ابنُ سَعْدٍ أكرمَ السَّعْدِينا (٤)

واستدل به على نصب (أكرمَ) على المدح. وذكره الفراء:

أنا ابنُ سعدٍ سيِّدِ السَّعدينا (٥)

---

(١)- يذكر بقرة فقدتْ ولدها. فطافتْ ثلاث ليالٍ وأيامها تطلبه، وليس لديها من نكير -أي استنكار لما رزئت به في ولدها، إلاّ أنْ تضيفَ وتجار. والإضافة: الإشفاق والحذر، والجوار: الصياح. والشاهد فيه: تأكيد (الثلاث) بقوله: بينَ يومٍ وليلة، وقد علم أنّه أراد ثلاث ليالٍ، والليالي مشتملة على أيامها. والقاعدة المفصّلة التي أقرّها المتأخرون أنّ العدد المركّب إذا مُيّز بشيئين كانت الغلبة لمذكرهما إن كان عاقلاً، وإن كان غير عاقلٍ فللسابق بشرط الاتصال نحو: عندي خمسةَ عشرَ جملاً وناقةً، وخمس عشرةَ ناقة وجملاً، فإن فُقِد الاتصال كانت الغلبة للمؤنث نحو: عندي ستّ عشرة مابين ناقةٍ وجملٍ، أو ما بين جملٍ وناقةٍ. انظر الكتاب (حاشية) ٣/٥٦٣-٥٦٤.

(٢)- معاني القرآن للفراء ١/١٥١.

(٣)- انظر الكتاب ٣/٤٥، ٢/١٨٠، ١/٢٥٩، ٣/٥٢٠، ١/٧٥، ٣/٢٧، ١/٧١، وانظر معاني القرآن للفراء بالترتيب ١/٤٢٩، ١/٣٩٥، ٢/١٠٥، ٢/٩٠، ١/٤٥٨، ١/١٣٣، ١/١٩٢.

(٤)- رؤبة من بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم، وفيهم الشرف والعدد. وفي العرب سعود كثيرة، مثل سعد بن مالك في ربيعة، وسعد بن ذبيان في غطفان، وسعد بن بكر في هوازن، وسعد بن هذيم في قضاعة بل هم أكثر من أربعين. والشاهد فيه نصب (أكرمَ) على التفخيم والفخر. انظر الكتاب (حاشية) ٢/١٥٣، وفهارس جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٥٧٩-٥٨٠ تح: هارون، دار المعارف ١٣٨٢هـ.

(٥)- معاني القرآن للفراء ٢/٣٩٢.

واستدل به على تثنية (سعد) من باب التغليب.

وتشابه الشواهد بينهما، على قلّتها إذا ما قيست بما استدلّ به كلّ منهما تكشف أنّ بعض المصادر التي تزوّدا بها واحدةٌ، فقد أخذ الفرّاء عن يونس بن حبيب الذي أخذ عنه سيبويه، كما أخذ الفراء عن الكسائي الذي أخذ عن يونس والخليلِ وأخذ عن حلقات البصرة العلمية علماً جماً.

كما أنّ للرواة، والأعراب أثراً في نشر هذه الشواهد بكثرة، وكان الفرّاء على اتصال بهم، وهذا ما خلق بعض الفروقات في الرواية، ويبقى احتمال أخير وهو أنّ الفرّاء قد أخذ عن سيبويه شواهده كما رأى بعض المحدثين. (١) ومهما يكن من أمر فإنّ أخذَ الفرّاء من سيبويه لايقلّل من قيمة الأول، فقد تفرّد بأكثر من سبعمائة شاهدٍ لم يذكرها سيبويه، وما التقى فيه معه يختلف رواية وتقعيداً، وهذا يضعنا أمام مذهب خاص به جعله رأساً من رؤوس الكوفة.

*- أما الأخفش فقد مثّل استدلاله بالشعر ركناً هاماً من كتابه معاني القرآن، فقد بلغ مجموع الشواهد فيه واحداً وثمانين ومئتي شاهدٍ وهو عدد ضخم (٢)، ولم يكن يهتمّ بعَزْوِ شواهده، فقد بلغ عدد الشواهد التي نسبها إلى أصحابها ثلاثين بيتاً(٣).

---

(١)- انظر الاحتجاج للحلواني ١١١-١١٢، وفيه ردّ على ماذكره شوقي ضيف في المدارس النحوية ٢١٥، من أنّ الفرّاء تأثر بسيبويه، وأنه كان يضع كتابه نصب عينيه وبصره.

(٢)- انظر معاني القرآن للأخفش ١/٥٧، تح: عبد الأمير محمد أمين الورد ط١، بيروت ١٩٨٥م.

(٣)- أصحاب الشواهد المنسوبة: ابن أحمر، أبو حيّة النميري، أبو زيد، أبو النجم، الأخطل، الأسود (وليس في ديوان الأسود بن يعفر فلعله غيره)، امرؤ القيس، أمية بن أبي الصلت، أوس بن مغراء، البرجمي، جميل، الخنساء، رؤبة، زهير، طرفة، علقمة بن عبدة، عمرو بن شأس، الفرزدق، قيس بن الخطيم، لبيد، متمم بن نويرة، النابغة ، مع الإشارة إلى أنّ بعض الشعراء قد ذكر لهم أكثر من شاهد. انظر معاني القرآن للأخفش (عبد الأمير) ١/٥٧-٥٨.

وتأثر الأخفش بسيبويه كبير واضح، فهو الذي حمل كتاب سيبويه للناس بعد وفاة مؤلفه، وقد قرأه عليه أبو عثمان المازني، والجرمي. وكانت قصتهما مع الأخفش في الكتاب مثار شكٍّ في نزاهة الرجل، وطعنٍ في سلوكه العلمي(١). كما درس أبو حاتم السجستاني الكتاب على الأخفش مرتين(٢).

ومهما يكن من أمر هذه الأقوال فهي تفسّر لنا شدة تأثر الأخفش بسيبويه في كتاب (الكتاب)(٣). وتأثر الأخفش لايبرز من خلال الدرس القرآني في معاني القرآن، لأن اختلاف كتاب سيبويه بيّنٌ، وبعيدٌ عن هذا التوجّه، لكنّ الشبه بين الاثنين يبرز من خلال تناولهما لما خالف الأصول النحوية، كالوقوف على القراءات الشاذة التي لاتحاكي ما شاع على لسان العرب، وقد بلغتْ قوة التشابه حدّ التطابق في مواضع كثيرة؛ منها قول سيبويه: <<هذا باب ما يضاف إلى الأفعال من الأسماء: يضاف إليها أسماء الدهر. وذلك قولك: هذا يومُ يقومُ زيدٌ، وآتيك يومَ يقولُ ذاك. وقال الله عزّ وجلّ: **هذا يومُ لاينْطِقونَ** (٤) و **هذا يومُ ينْفَعُ الصادِقِينَ صِدْقُهمْ** (٥)..... ومنه أيضاً (آيةُ) قال الأعشى:

بآيةِ تُقْدمون الخيلَ شُعْثاً كأنّ على سَنابِكِها مُداماً(٦)

---

(١)- أنظر نزهة الألبا لابن الأنباري ٩٢، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١١/٢٢٥، أبنية الصرف لخديجة الحديثي ٥٨، بغداد ١٩٦٥م.

(٢)- انظر نزهة الألبا لابن الأنباري ١٣٠، إرشاد الأريب ١١/٢٦٤.

(٣)- انظر معاني القرآن للأخفش (عبد الأمير) ٩٠.

(٤)- المرسلات ٧٧/٣٥.

(٥)- المائدة ٥/١١٩.

(٦)- ويروى (يقدمون). أي أبلغهم عني كذا بعلامة إقدامهم الخيل للّقاء شعثاً متغبّرة، من السفر والجهد. وشبه ما يسيل من عرقها ممتزجاً بالدماء على سنابكها بالمدام، وهي الخمر. والسنابك: جمع سنبك، وهو مقدم الحافر. والشاهد فيه إضافة (آية) إلى الفعل، وكأنّ إضافتها على تأويل إقامتها مقام الوقت، فكأنه قال: بعلامة وقت تقدمون الخيلَ . الكتاب (حاشية) ٣/١١٨.

وقال يزيد بن عمرو بن الصَّعِق:

ألا مَنْ مُبلغٌ عنّي تميماً ... بآيةِ ما تُحِبُّون الطَّعاما(١)

فما لَغْو. وممّا يضاف إلى الفعل أيضاً قوله: لا أفعلُ بذي تَسْلَمُ، ولا أفعلُ بذي تَسْلَمان، ولا أفعل بذي تَسلمون. المعنى: لا أفعلُ بسَلامتك، و (ذو) مضافة إلى الفعل كإضافة ما قبله ، كأنه قال: لا أفعلُ بذي سلامتِك›› (٢)

وقول الأخفش: ‹‹وليس شيء من الأسماء يضاف إلى الفعل غير أسماء الزمان.... وهو في الكلام يكون مضافاً تقول: اذكر يومَ لاينفعك شيء، أي: يومَ لا منفعةَ. وذلك أنّ أسماء الحين قد تضاف إلى الفعل. قال: **هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ** (٣) أي: يومُ لانطقَ... إلاّ أنهم قد قالوا:

بآيةِ يُقدمون الخيلَ زوراً ... كأنَّ على سنابِكها مُداماً (٤)

وقالوا:

ألا مَنْ مُبْلغٌ عنّي تميماً ... بآيةِ ما تحبّونَ الطَّعاما (٥)

---

(١)- جعل ذلك آية يعرفون بها لما كان من أمرهم في تحريق عمرو بن هند لبني تميم، ووفود البرجمي عليه حين شمّ رائحة المحرقين منهم، وكانوا تسعة وتسعين، فظنه طعاماً يصنع، فعرّج عليه، فأمر به فقذف في النار ليكمل عدد المحرقين به مائة، كما كان أقسم عمرو بن هند. والشاهد فيه إضافة (آية) إلى (يحبّون) و (ما) زائدة للتوكيد. انظر الكتاب ٣/١١٨، والكامل للمبرد ٩٨، وخزانة الأدب ٣/١٣٨، وهمع الهوامع ٢/٥١.

(٢)- الكتاب ٣/١١٧-١١٨.

(٣)- المرسلات ٧٧/٣٥.

(٤)- لهذا البيت روايتان: انظر في ذلك الكتاب ٣/١١٨، ومعاني القرآن للأخفش (عبد الأمير) ١/٢٥٩. وهمع الهوامع للسيوطي ٢/٥١.

(٥)- للبيت رواية أخرى انظر. الكامل للمبرّد ١/١٤٧، ومغني اللبيب ٢/٤٢٠.

فأضاف (آية) إلى الفعل ... وقالوا: اذهب بذي تسلم، وبذي تسلمان؛ كأنه قال: اذهب بذي سلامتك. وليس يضاف إلى الفعل غير هذا»(١) فالتطابق كبير بين القولَيْنِ وهو يثبت تأثّر الأخفش بسيبويه، وأخذه عنه. والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة. (٢)

أمّا المبرّد فكان تأثره بكتاب سيبويه كبيراً، ويظهر ذلك في المقتضب فقد جرى ذكر الخليل وسيبويه، في مواضع تزيد على المائة. (٣) وظنّ بعض النحاة المتأخرين أنّ للمبرّد بعض الآراء النحوية التي كان له فيها قصب السبق إلى أن ثبت العكس، فكل ما نُسِب إلى المبرّد من آراء تفرّد بها مردود عليها بشكل جليّ. (٤) لكنّ ذلك لم يمنع مِنْ أن تكون للمبرّد شواهد غير معروفة قبل في كتب النحو، ولم يذكرها سيبويه، ولكنّها قد تكون مذكورة في كتب اللغة، أو تداولها الرواة؛ من ذلك ما استدل به على مجيء نعت المنادى المفرد منصوباً، بقول جرير:

فما كَعْبُ بنُ مامَةَ وابنُ سُعدَى ... بأجودَ منكَ ياعُمَرُ الجوادا (٥)

ومنه قول المهلهل الذي استدل به على نصب الاسم المنادى إذا لحقه التنوين اضطراراً في الشعر:

---

(١)- معاني القرآن للأخفش (عبد الأمير) ١/٢٥٨-٢٦٠.

(٢)- انظر الكتاب ١/٩٠،٢١٢،٣٢٤،٤٣٦، ٣/٢٨، ٤/١٩٧، وانظر معاني القرآن للأخفش بالترتيب ١/٢٥٠، ٢٠٦-٢٠٨،٢٢٠،٢٤٤،٢٢١-٢٢٢، ١٨٠-١٨١. وقد اتفقت آراء الأخفش وسيبويه فيما يقرب من مئتي موضع. انظر منهج الأخفش في إعراب القرآن لصفوة البرازي ٤٨٣.

(٣)- انظر مقدمة المقتضب لعضيمة ١/٨٨.

(٤)- من ذلك ما ذكره أبو علي الفارسي، وابن جني، وأبو حيّان ، وأبو حيان، وابن هشام؛ انظر مواضع ذلك في مقدمة المقتضب للمبرد ١١٩، وما بعدها.

(٥)- البيت من قصيدة جرير التي يمدح بها عمر بن عبد العزيز. الديوان ١٣٤-١٣٧، وانظر المقتضب للمبرّد ٤/٢٠٨.

رفَعَتْ رأسَها إليَّ وقالتْ ... ياعدِيّاً لقدْ وقتْكَ الأواقي (١)

ومنه استدلاله على أنّ لام المستغاث به إنْ عطفتَ بغير (يا) كسرت بقول الشاعر:

يبْكِيكَ نَاءٍ بعيدُ الدار مُغتربٌ ... يا لَلْكُهولِ ولِلشُبَّان لِلْعَجَبِ (٢)

ومنه استدلاله على جواز الإتيان بالفاعل بعد إضافة المصدر إلى المفعول، بقول الشاعر:

أَفْنَى تِلادِي وما جَمَّعْتُ من نَشَبٍ ... قرعُ القَواقِيزِ أفواهُ الأباريقِ (٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة. (٤)

---

(١)- يريد أنها متعجبة من حالي إلى هذا الغاية مع ما لقيتُ من الحروب، والأسر، والخروج عن الأهل. ومثل هذا كثير من فعل النساء، وهو الضرب على الصدر في حالة الدهشة والانزعاج، وعديّ هو اسم مهلهل، وهو عديّ بن ربيعة أخو كليب. والأواقي: جمع واقية، والأصل الرواقي فابدلت الواو الأولى همزة وجوباً. الواقية : الحافظة. انظر المقتضب للمبرد (حاشية) ٢١٤/٤، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٥٦، وخزانة الأدب للبغدادي ٣٠٠/١ برواية مختلفة.

(٢)- استشهد به على أنّ لام المستغاث به إن عُطِف بغير (يا) كُسِرت اللام، كما في قوله: وللشبان. أراد بالنائي بعيدَ النَّسَب. انظر المقتضب للمبرد ٢٥٦/٤ (حاشية).

(٣)- قال ابن هشام في مغني اللبيب ٥٩١/٢: «« الإتيان بالفاعل بعد إضافة المصدر إلى المفعول شاذٌ حيث قيل: إنه ضرورة كقوله: أفنى تلادي... فيمن رواه برفع (أفواه)، والحق جواز ذلك في النثر، إلاّ أنه قليل. ودليل الجواز هذا البيت، فإنه روي بالرفع مع التمكن من النصب، وهي الرواية الأخرى. وذلك على أنّ القواقيز الفاعل، والأفواه مفعول. وصح الوجهان، لأنّ كلاً منهما قارع ومقروع. والبيت للأقيشر الأسدي. والقواقيز: الكؤوس الصغيرة جمع قاقوزة، وقد قالوا فيها قازوزة. انظر المقتضب للمبرد (حاشية) ٢١/١، وخزانة الأدب للبغدادي ٢٨٢/٢.

(٤)- انظر المقتضب للمبرد وحاشيته ٤٤/١، ٤٧، ٥١/٢، ٥٩، ٢٠٨/٤، ٢٣٤، ٢٥٠.

استمر استدلال النحاة في القرن الثالث الهجري على ماكان عليه عند النحاة حتى القرن الثاني الهجري، ولم يأخذ المبرد من شعر البحتري شيئاً على الرغم من الصلة بين الاثنين، وكذلك الأمر بين ابن جني، والمتنبي، ولم يستدلا بشعريهما في أمور نحوية كاستدلالهما بشعراء العصر الجاهلي، والإسلامي، والأموي. وهكذا فإن نهج الاستدلال كان مرسوماً بعناية لايخرج عليه أحدٌ، وإن فعل ذلك فإنّه يذكر أنّه يحتجّ للمعاني، لا اللغة. (١)

وتَتَبُّعُ خطى الأوائل له ما يسوّغه، ذلك أنهم وضعوا الأصول، والأسس، وتركوا لمن جاء بعدهم الاجتهاد ضمن هذه الأصول، وحين يتناظرون لايجدون غير ما ذكره النحاة الأوائل، حتى إنه لم يبق لهم إلاّ الحديثُ عن الأقيسة، والعلل التي لم يصل إليها شيوخهم، فأضافوا بعض الشواهد في استدلالهم مع المحافظة على ما نقلوه عن أسلافهم.

وقد سيطر على النحاة في بداية القرن الخامس الجمع، والمقابلة، والجدل في كلّ ما وجدوه أمامهم من تراث نحوي، ولم يفرز لنا ذلك الزمن شخصيات عظيمة كالخليل، وسيبويه، والفراء وابن جنّي وغيرهم من الأوائل. ولم يكن للمتأخّرين كالزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، وابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ)، وأبي البركات الأنباري (ت٥٧٧ هـ)، وابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ)، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، والرضي (ت ٦٨٦هـ) شخصية مستقلة، ونستثني منهم ابن مالك الذي رسم لنفسه شخصية نحوية حين اعتمد على الحديث النبوي الشريف، وجعله أحد المصادر الهامة في استدلاله النحوي. (٢)

ولن نقف عند هذه الشخصيات النحوية كلّها، بل سنكتفي بالحديث عن الزمخشري والرضي الأسترابادي لأنهما يمثلان هذه المرحلة.

---

(١)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٢٤.

(٢)- انظر في أصول النحو للأفغاني ٤٦، وما بعدها.

*- أما الزمخشري فقد أخذ معظم شواهده وآرائه النحوية من الأوائل سواء أكانوا من البصريين أم الكوفيين، ويذكر أسماءهم في مناسبات كثيرة، وقليلاً مايستدل بشاهد جديد في مسألة نحوية.

وقد نال سيبويه مكانة كبيرة عند الزمخشري نلمسها من خلال تقديره له، ولآرائه، من ذلك أنه أخذ برأي سيبويه في إعراب (صِبْغَةَ اللهِ) من قوله تعالى: **صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** (١) حيث قال: <<وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذامِ>>(٢)، ومنه أنه في كل مسألة خلافية يرى الحق مع صاحب الكتاب. (٣)

وقد أخذ الزمخشري كثيرا من شواهد الكتاب، وعزا بعضها إلى صاحب الكتاب، ومنها قوله:

بني أسدٍ هل تَعلمون بلاءَنا ... إذا كان يوماً ذا كواكِبَ أشْنَعا (٤)

ومنها قوله: << وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي:

ويَأْوي إلى نِسْــوَةٍ عُطَّــلٍ ... وشعثاً مراضيع مثل السَّعالي >> (٥)

---

(١)- البقرة ٢/١٣٨، وصِبْغَة، بكسر الصاد مصدر هيئة من صبغ، والمراد بها هنا (الدين)، وسمي صبغة لظهور أثره على معتنقه. وهي منصوب مطلق لفعل محذوف. إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين الدرويش ١/١٩٦، دار الإرشاد بحمص ط١ ١٩٨٠.

(٢)- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ١/٣١٥-٣١٦.

(٣)- انظر الأحاجي النحوية للزمخشري ٤٨ تح: مصطفى الحدري، حماة، ١٩٦٩م.

(٤)- البيت لعمرو بن شاس. الكتاب ١/٤٧، والكشاف للزمخشري ١/٤٠٤.

(٥)- للبيت روايتان، بنصب (شعثا) ورفعها. والشاعر يصف صائدا يسعى لعياله فيعزب عن نسائه في طلب الوحش، ثم يأوي إليهن. والعطّل: جمع عاطل، وهي التي لاشيء لها، أو التي لاحلي لها، والشعث: جمع شعثاء وهي التي تغيّر شعرها وتلبّد لقلة تعهده بالدهن. والمراضيع: جمع مرضاع، وهي الكثيرة الإرضاع. والسعالي: جمع سعلاة وهي الغول ذلك أنه إذا كانت المرأة قبيحة الوجه سيئة الخلق شبهت بالسعلاة . والعرب يشبهون العجائز، والخيل، وفرسانها بالسعلاة. انظر الكتاب ١/٣٩٩، ٢/٦٦، والكشاف للزمخشري ١/٤١٧.

وغير ذلك من المواضع(١). كما أهمل في مواضع كثيرة أخرى عزوها إلى صاحب الكتاب(٢)

لم يحافظ الزمخشري على منهج النحاة الذين سبقوه بالاستدلال بالشعر وفق القيود الزمانية التي وضعت ضمن أصول، وأسس محددة، فقد خرج على منهج النحاة قبله باستدلاله ببيت أبي تمام:

هُمَا أظلما حاليَّ ثمّت أجْلَيا ⠀⠀⠀ ظلامَيْهما عن وَجْهِ أمْرَدَ أشْيَبِ (٣)

وعلل ذلك بقوله: ‹‹وهو وإن كان محدثاً لايستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه.››(٤) فهو يدرك مخالفته لأصول الاستدلال، وشروطه، ولكنه يدافع عن نفسه تجاه استدلاله بشعر أبي تمام.

ويستدل في مكان آخر بشطر من شعر أبي فراس الحمداني، هو:

تعالَيْ أقاسِمْكِ الهمومَ تعالِي

مشيراً إلى قول أهل مكّة تعالِي بكسر اللام للمرأة(٥)

---

(١)- انظر الكشاف للزمخشري ٢/٥٠٤ والمفصل (بشرح ابن يعيش) ١/٨٠، ٦/٩٥، ٢٠،٩٦، والأحاجي النحوية للزمخشري ٥٢.

(٢)- انظر الكشاف ١/٨٥،٨٧،٤٠٧،٥٥٥،٥٥٨، ٢/١٦٨،١٧٦،٣٠٤، ٤/١٠٠،٢٩٨، والمفصل ١/٤٦،١٠٣،١٣٥، ٢/٩٥، وانظر تلك الشواهد في فهرس الأشعار في الجزء الخامس من الكتاب.

(٣)- الكشاف للزمخشري ١/٢٢٠.

(٤)- المصدر السابق ١/٢٢٠-٢٢١.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/٥٣٦.

ولعلّه هو الذي فتح هذا الباب أمام النحاة بعده، لِما كان له من المنزلة العلمية في حياته والشهرة المدوية بعد مماته. (١)

*- أمّا الرضي الأستراباذي صاحب شرح الكافية والشافية لابن الحاجب فقد سار على سنن القدماء، كما فعل معاصروه، فاعتمد على كتب النحاة القدماء، وأكثر من ذكرهم، والإشارة إليهم، وهو على غرار المتأخرين من النحاة يستدلّ بشعر مَن لا يُستَدلّ بشعرهم كأبي الطيّب المتنبي، من مثل قوله:

كأنّ فَعْلَةَ لم تملأ مواكبُها ديارَ بكْرٍ ولم تخلَعْ ولم تَهَبِ (٢)

وقد جاء استدلاله بالشعر في شرح الكافية مثلاً في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، فقد استدلّ بستمائة، وأربعة أبيات، لم ينسب منها إلى أصحابها إلاّ ستةً وعشرين بيتاً منها بيت المتنبي. (٣)

*- وخلاصة القول أنّ النحاة الأئمة الذين عاشوا في القرنين الأول والثاني الهجريّين بحثوا عن الشواهد الفصيحة سواء أكان ذلك ممّا سمعوه مباشرة من الأعراب الذين لم يخالطهم فساد، أم سمعوه من شيوخهم الثقات، وكان سيبويه على رأس هؤلاء دقّة، وأمانة فكان كتابه سجلاً أميناً للمرحلة التي سبقته، وكان أثره واضحاً فيمن جاء بعده على مدى قرون طويلة.

وبعد ذلك تأتي المرحلة التي عاشها نحاة القرنين الثالث والرابع الذين اعتمدوا على جهود السابقين، لاسيما شواهد سيبويه، وأضافوا إليها شواهد قليلة، لكنّ كلّ ذلك لم يسعفهم في إضافة

---

(١)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٣١.

(٢)- ديوان المتنبي بشرح العكبري ٨٨/١، مكة المكرمة ١٣٩٧هـ، وانظر خزانة الأدب للبغدادي ٤٤٧/٦، والرضي الأستراباذي لمصري ٩٩/١.

(٣)- انظر المصدر السابق ٩٩/١.

أصول جديدة؛ لأن أسلافهم سدّوا كلّ ثغرة في بنيان النحو العربي.

وفي المرحلة التي تلت ذلك لم تُضفْ شواهد جديدة بشكل عام إلاّ ما ندر كاستدلالهم بشعر أبي تمام، وأبي فراس، ولم يقدّموا شيئاً جديداً باستثناء ابن مالك، وما أضافه من استدلال بالحديث النبوي الشريف.

• الأمثال •

اكتسبت لغة الأمثال أهمية خاصة عند النحاة وجاءت في مرتبة قُدّمت فيها على لغة الحديث الشريف. وكان سيبويه أوّل من سلط الضوء على الأمثال، لتكون مصدراً من مصادر الاستدلال لِما ضمّنه في كتابه منها. وقد أخذ الاستدلال بالأمثال مظاهر متعدّدة عنده من خلال أكثر من أربعين مثلاً جعلها شواهد في تناولاته النحوية؛ فهو يضع المثل بعد القرآن الكريم في بعض المواضع (١) وقد يفعل العكس حين يقدم المثل على غيره من طرق الاستدلال(٢) وغير ذلك من أساليبَ في تلوين الكلام على الأمثال.

وقد استخدم سيبويه هذه الأمثال في أغراض نحوية، منها ما يتعلق باستدلاله لما خالف الأصول، وهو الغالب ، ومنها لما وافق الأصول. وقد تابع هذا المنهج النحاةُ الذين جاؤوا بعده، فالفراء يجيز بعض الاستعمالات قياساً على الأمثال، ذلك لتماثلهما في التركيب كحديثه عن (عسى الغُوَيْرُ أبؤُساً) (٣).

---

(١)- انظر الكتاب ١/٢٦١، ٢٨٢، ٢/٣٩١.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/٥١، ٥٢، ٥٣، ٢٥٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٤٣، ٤/١١٤.

(٣)- انظر معاني القرآن للفراء ١/٤١٥، وانظر كذلك ٢/١٦٤، ١٧٤، ٤٠٢.

ولم يتقيد الفراء بالأمثال التي ذكرها سيبويه، بل أضاف أمثالاً أخرى نحو: (محسنةٌ فهيلي)(١) و (شرٌّ ما ألجاك إلى مُخَّةِ عرقوب) (٢) و (بعد إطلاع إيناس) (٣)، ولا دلالة لذلك إلاّ حرص الفراء على استنباط القواعد والأحكام من كلام العرب، والأمثال مرآة صادقة للسان العرب.

وفي القرن الثالث يتابع المبرد خطوات سيبويه، ويعول على الأمثال ويقيس عليها، ويعلل بعض التراكيب؛ منها قياسه تركيب (حبّ) و (ذا) وجعلهما اسماً واحداً للمذكر، والمؤنث، والمفرد والجمع على قولهم في الأمثال: (أَطِرِّي فإنّكِ ناعِلَة) (٤) و(الصيفَ ضيَّعتِ اللبَنَ)(٥) للمفرد والجمع والمذكر

---

(١)- في مناسبة المثل أنّه جاء ضيف إلى امرأة، ومعه جِرابٌ دقيق ، فاقبلت تأخذ من جرابه لنفسها، فلما أقبلَ أخذتْ من جِرابها إلى جرابِهِ. فقال: ماتصنعين ؟ قالت: أزيدك من دقيقي. قال: مُحْسِنةٌ فهيلي. أي ألقي. معاني القرآن للفراء ٤٠٢/٢، ولسان العرب (هيل)

(٢)- في لسان العرب عن الأصمعي: <<وذلك أنّ العرقوب لامخّ فيه، وإنما يحوج إليه من لايقدر على شيء>> معاني القرآن للفراء ١٦٤/٢.

(٣)- الاطلاع هنا: النظر . والإيناس الوجود واليقين . معاني القرآن للفراء ١٧٤/٢.

(٤)- في لسان العرب أنّ <<هذا مَثَلٌ يقال في جلادة الرجل، ومعناه أي اركب الأمرَ الشديد فإنك قويّ عليه، وأصل هذا أن رجلاً قاله لراعية له كانت ترعى في السهولة، وتترك الحزونة. فقال لها: أطِرِّي، أي: خذي في أطرار الوادي وهي نواحيه، فإنك ناعلةٌ. أي فإن عليكِ نعلَين >>، وأحسبه عنى بالنعلين غلظ جلد قدميها. معجم الأمثال للميداني ٤٣٠/١، وانظر لسان العرب (طرر).

(٥)- التاء من (ضيّعتِ) مكسورة في كل حال إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع، لأن المثل في الأصل خوطبت به امرأة، وهي دختنوس بنت لقيط بن زُرارة كانت تحت عمرو بن عمرو بن عُدَس، وكان شيخا كبيرا فَفَرِكَتْهُ (أي كرهته) فطلقها، ثم تزوّجها فتى جميلُ الوجه، وأجدبتْ فبعثتْ إلى عمرو تطلب منه حَلوبةً ، فقال عمرو (في الصيف ضيّعتِ اللبن) فلما رجع الرسول، وقال لها ما قال عمرو، ضربت يدها على منكب زوجها، وقالت: (هذا ومَذْقُهُ خيرٌ) تعني أنّ هذا الزوج مع عدم اللبن خيرٌ من عمرو، فذهبت كلمتاهما مثلاً. فالأول يضرب لمن يطلب شيئا قد فوّته على نفسه، والثاني يضرب لمن قنع باليسير إذا لم يجد الخطير. انظر مجمع الأمثال للميداني ٦٨/٢.

والمؤنث(١)، وتكلم على موضوعات نحوية متعددة، واستدل عليها بالأمثال المتداولة في لغة العرب(٢).

ويتابع ابن جني استدلاله بالأمثال على غرار أسلافه النحاة، فهو يكرر بعض الأمثال التي ذكرها سابقوه، نحو: (**شرٌّ أهرّ ذا ناب**) (٣)، و (**أمْتٌ في الحَجَر لا فِيكَ**) (٤)، و (**أطرقْ كرا**) (٥) و (**افتدِ مخنوقُ**) (٦)، و (**أصبحْ ليلُ**) (٧). ويضيف أمثالاً أخرى لم يوردها سيبويه في كتابه منها: (**سرعان ذي إهالةٍ**) (٨)، و (**أكذب من الأخِيْذِ الصَّبَحان**) (٩)، و (**أذلُّ من وَتِدٍ بقاعٍ**) (١٠)

---

(١)- انظر المقتضب للمبرد ٢/١٤٥.

(٢)- انظر المصدر السابق ٣/٢٥، ٧٠، ٧٤، ٧٧، ٢١٥، ٤/١٠٢، وانظر مجمع الأمثال للميداني ٢/١٥٨، ١٦٢.

(٣)- أهرّه: حمله على الهرير، وهو صوت دون النباح. وذو ناب: الكلب هنا. يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله. انظر الكتاب ١/٣٢٩، والخصائص لابن جني ١/٣١٨-٣١٩، وانظر مجمع الأمثال للميداني ١/٣٧٠، ولسان العرب (هرر).

(٤)- الأمْت: العوج. السيرافي: جعله سيبويه إخباراً محضاً. وقال المبرد: إنه خبر مراد به الدعاء، كأنهم قالوا: جعل الله في حجر أمتاً لافيك. الكتاب ١/٣٢٩، والخصائص لابن جني ١/٣١٧-٣١٩، وانظر لسان العرب (أمت).

(٥)- الكتاب ٢/٢٣١، ٣/٦١٧.

(٦)- المصدر السابق ٢/٢٣١.

(٧)- المصدر السابق ٢/٢٣١.

(٨)- (المعروف في المثال (سرعان ذا إهالة)، والإهالة: الشحم المذاب، وفي القاموس: <<فأصله أن رجلاً كانت له نعجة عجفاء، ورغامها يسيل من منخريها لهزالها، فقيل له: ما هذا؟ فقال: وَدَكها(أي دسمها) فقال السائل ذلك .... يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته>> انظر الخصائص لابن جني (حاشية) ٣/٣٩.

(٩)- المحتسب لابن جني ١/١٣٨، الأخيذ: المأخوذ، والصّبحان: المصطبح، وهو الذي شرب الصبوح، والمرأة صبْحى؛ وأصله أن رجلاً خرج من حيّه، وقد اصطبح، فلقيه جيش يريدون قومه، فأخذوه وسألوه عن الحي، فقال: إنما بتُّ في القفر، ولا عهد لي بقومي، فبينما هم يتنازعون إذ غلبه البول، فبال، فعلموا أنه قد اصطبح، ولولا ذلك لم يبل؛ فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحي. انظر مجمع الأمثال للميداني ٢/١٦٦.

(١٠)- لأنه يُدقّ أبداً. الخصائص ١/٨١، ومجمع الأمثال للميداني ١/٢٨٣.

وهكذا فقد تابع النحاة المتأخرون باستدلالهم ما كان عليه أسلافهم واضعين للأمثال أهمية دون الشعر، والقرآن. وقد لوحظ أن الأمثال تتكرر جيلاً بعد جيل مع إضافات جديدة، واختلاف في الرواية، فكُتُبُ النحو تأخذ برواية مثلٍ أخذت به كتب اللغة مع اختلاف روايته، ولهذا الخلاف سبب يعود إلى أن النحاة يأخذون بالرواية التي تخدم غرضهم النحوي دون ترجيح رواية على رواية أخرى، أما اهتمام اللغويين فينصب على الألفاظ ومعانيها. إضافة إلى ذلك، فإن النحاة يدركون أن المثل المرويّ عن عربي فصيح يجب الوثوق بدقته، وإن تعددت رواياته ما دام الرواة من العرب الفصحاء.

أما قلة الاستدلال بالأمثال قياساً على الشعر، والقرآن، فيعود إلى أن الشعر والقرآن أكثر ثباتاً وأقل عرضة للتبدل والتغيير. الأول لما يحويه من وزن، وقافية يحميانه إلى حد ما من التغيير، والثاني لما فيه من قدسية؛ قال تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (١)، أما المثل فهو لسان حال العربي ببساطة تركيبه، وجمال تعبيره، واختصار مفرداته، وصلاحه ليخدم المعنى في أكثر من مناسبة، وهو يدفع بالعربيّ لتبديل بعض مفرداته ليستخدمها في المقام الذي هو فيه، لايمنعه من تغيير مفرداته وزنٌ، ولا قافية، ولا يخشى فيه تبديلا.

---

(١)- الحجر ١٥/٩.

• لغة التخاطب •

يعد كتاب سيبويه نهاية مرحلة التأسيس في البناء النحوي، فقد ارتسمت فيه ملامح النحو وأصوله بما فيه من قواعد، وطرق استدلال على هذه القواعد، فكان أثره بالغاً جداً في النحاة الذين جاؤوا بعده على مرّ العصور.

ويأتي استدلال سيبويه بلغة التخاطب من مصدرين أولهما: من لقائه الأعراب في البصرة، وسماعه منهم. وثانيهما: من أخذه عن شيوخه. وهذا ما جعله يرسخ أصوله النحوية بشكل قوي، حتى أضحى اعتماده لغة التخاطب في الاستدلال يأتي في مرتبة هامة بعد لغة الشعر، والقرآن الكريم.

ولانستطيع أن نقول: إنّ الفراء قد تأثر بسيبويه في استدلاله بلغة التخاطب، لأنّ من البدهي أن يغرف النحوي كلّ نحويٍ مما حوله إذا اطمأنّ إلى صحته وسلامته، لذلك رأينا اهتمام الفراء بلغة أعراب البادية واضحاً في نحوه، فقد لازم الفصحاء، وعُني بكلامهم، واستنبط الأحكام منها، وقد اعتمد على أعرابٍ معيّنين كأبي ثروان العكلي، وأبي الجراح، وأبي زياد الكلابي، والفقعسي، وأبي الهيثم العقيلي، وكان اهتمامه بكلامهم كبيراً(١)، وفي مواضع كثيرة أيضاً استدلّ بكلام الأعراب من غير إشارة إلى أسمائهم. (٢)

وبلغ اهتمام الفراء بلغة البادية درجة تضاهي اهتمامه بالشعر والقرآن الكريم، وهو ما لمسناه عند سيبويه أيضاً، فمن خلال استدلالهما بلغة التخاطب كانا ينفذان إلى لغات القبائل فيسميانها

---

(١)- انظر معاني القرآن للفراء ١/٥٦،٢٠٩،٢١٢،٢٩٧-٢٩٨، ٢/٣٠،٣٤،١٣٩.

(٢)- انظر المصدر السابق: ١/٣٣،٥١،٨٣،١٥٢،١٥٣،٢١٥،٢٩٨.

وينعتانها بالفصاحة. (١)

فمنهج الفراء هو منهج سيبويه لكنه ليس من باب التأثر بلغة التخاطب ذاتها، لأنّ الفراء لم يستعن بأمثلة سيبويه بل كان يأخذ من الأعراب مباشرة، ممّن يعيشون حوله إضافة إلى رواية شيوخه، لاسيما الكسائي.

أما الأخفش فقد كانت عنايته بلغة التخاطب عند العرب كبيرة كعناية سيبويه، فقد اعتمد على مشافهته للأعراب، وعلى رواية شيوخه، فمن اعتماده على المشافهة نقل لنا كثيرا من اللهجات والوجوه التي سار عليها العرب في سليقتهم(٢)، ومن أخذه عن طريق شيوخه، وكبار الرواة نقلُه عن يونس، وأبي عبيدة، وغيرهما (٣) من الأعلام، حتى غدا كتابه مليئاً بالرواية عن العرب.

وقد أفاد الأخفش من لغات العرب كثيرا فرصد منها (الهمزة) ونُطْقَ العرب لها بين إثبات وقلب وتخفيف (٤)، وكذلك الأفعال المجردة، والأفعال المزيدة، واستعمالاتها عند العرب (٥) ومنها

---

(١)- ذكر الفراء لغاتٍ لقريش، وربيعة، وطيّئ، وأسد، وعامر، وقضاعة، وعقيل، ونمير، وسليم، وهوازن، وعليا قيس، وباهلة، وهذيل، وتميم، وكنانة، واليمن، غير انّ لغة أسد عنده البرّة مفضلة، فهو إلى جانب إكثاره منها نجده يطلق عليها نعت الفصاحة، كقوله عن بني دبير: ‹‹وهم من فصحاء بني اسد››. انظر معاني القرآن للفراء ٢/٣١١. وانظر الاحتجاج للحلواني ١٥٦.

(٢)- انظر معاني القرآن للأخفش ١/٧٦،٩٣،١٢٢-١٢٣،١٢٤،١٤٠.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/١٢٣-١٢٤، ٢ ١٥٢،١٨٦.

(٤)- كقولهم في إيّاكَ، و إيه، وأرقتُ، واسرائيل: هيّاك، وهيْه ، وهرَقتُ ، واسرائِل. وكذلك قولهم في جبرائيل، وتوضأ، وأرجأ، وأخطأ: جبرايل، وتوضّيْتُ، وارجيْتُ، وأخطيْتُ. وغير ذلك. انظر معاني القرآن للأخفش ١/٧،١٦،٧٣،١٤٠، ٢/٣٠٨.

(٥)- تكلم الأخفش على لغات العرب في يعرِش، ونبطِش، ويحشِرُ، ويعكِفُ، وينفِرُ، وحزَنْتُه وأحزَنْتُه واستطاع يستطيع، واسطاع يسطيع، واستاع، وأسطاع يُسطِيع. انظر معاني القرآن للأخفش ١/٩٠،٢٥٨، ٢/٣٠٩،٣٩٩.

تذكير بعض الألفاظ وتأنيثها عند العرب (١)

وفي مواضع أخرى نرى أنّ الأخفش لايشير إلى مصدره في نقل لغة العرب، وكلامُه في ذلك يوحي باطمئنانه إلى المروي من كلامهم؛ لكنّه يشير إلى قبائل العرب ولغاتهم، فقد ذكر بني تميم (٢)، وبلعنبر(٣)، وبني الحارث بن كعب (بلحارث) (٤) وبني أسد (٥)، وأزد السراة (٦)، وبكرَ بن وائل(٧)، وبني قشير(٨)، وقيساً(٩)، ولم يكتف الأخفش بذلك، بل نراه يشير إلى لغة منطقة من المناطق كلغة أهل الحجاز(١٠)، وأهل المدينة (١١)، وأهل البصرة، وأهل الكوفة (١٢)، واليمن(١٣). ولم تكن القبائل التي أشار إليها الأخفش في مستوى واحد من الفصاحة فهو كثيراً ما كان يشير إلى

---

(١)- تكلم الأخفش على التذكير والتأنيث في الصّوّاع، والإنجيل، والصراط، والطريق، والسبيل، والزقاق، والسوق، والكلأ، (المرنا). انظر معاني القرآن للأخفش ١/١٧، ١٨٠، ٢٥٩، ٢/ ٣٦٧.

(٢)- انظر المصدر السابق ١/١٦، ١٧، ٢٦، ٥٢، ٩٠، ١٢٠، ١٧٦، ٢/ ٢٧٦، ٢٧٩- ٢٨٠، ٢٩٨، ٣٢١، ٣٧٩، ٥٥١- ٥٥٢.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/ ١١٨، ١٢٢.

(٤)- انظر المصدر السابق ١/ ١١٣، ٤٠٨.

(٥)- انظر المصدر السابق ١/ ١٧.

(٦)- انظر المصدر السابق ١/ ٢٦، ٢٧.

(٧)- انظر المصدر السابق ١/ ٢٨.

(٨)- انظر المصدر السابق ١/ ١٨٠.

(٩)- انظر المصدر السابق ٢/ ٢٨٠، ٢٩٨، ٥٢٦.

(١٠)- انظر معاني القرآن للأخفش ١/ ١٧، ٣٩، ٥٢، ٧٢، ٩٠، ٩٨، ١٧١، ٢/ ٢٧٦، ٣٢٥، ٣٨١، ٤٥٦، ٥٣٢، ٥٥٢.

(١١)- انظر المصدر السابق ١/ ٤٤، ٢٥٨، ٢/ ٢٩٢.

(١٢)- انظر المصدر السابق ١/ ٤٤، ٢/ ٥٢٦.

(١٣)- انظر المصدر السابق ١/ ٢٩.

فصاحة لغة أو قبحها. (١) وهذا المنهج الذي اتبعه الأخفش يماثل منهج سيبويه، وغيره من النحاة الأوائل.

وكذلك المبرّد لم يكن بعيداً عن نهج سيبويه فقد اعتمد على مصدرين أولهما: اعتماده على الأعراب، والثاني اعتماده على رواية الشيوخ.

فقد أكثرَ المبرد من الاعتماد على أعرابي واحد تقريباً، وهو عمارة بن عقيل(٢)، فقد وثق بفصاحته، ونقل عنه، وبنى على ذلك بعض الأحكام؛ منها ما جاء في كتاب الكامل: <<قرأت على عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير:

مررتُمْ بالديارِ ولم تعوجوا

فذلك يدلّك على أن الرواية مغيّرة>> (٣)، فالمبرد يصحّح روايةَ شاهدٍ نحويّ معروف مستدلاً بقراءته على عمارة بن عقيل. وفي مكان آخر يصحّح ضبط كلمة من كلمات اللغة معتمداً على إنشاد عمارة بن عقيل له، يقول المبرّد: <<ولا حَلَلْتُ حُبْوتي إلى مايقوم إلى الناس، تَكْسُرُ الحاء، وتضمّها إذا أردت الاسم، وتفتحها إذا أردت المصدر، أنشدني عمارة بن عقيل لجرير:

قُتِلَ الزبيرُ وأنت قاعدُ حَبوة قبحاً لحُبوتِكَ التي لم تُحْلَلِ (٤)

وقد يجيز وجهاً معتمداً على ما سمعه من الأعراب، من ذلك قوله: <<سمعت عمارة بن عقيل يقرأ: **ولا الليلُ سابقُ النّهارَ، وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحون** (٥) فقلتُ : ما تريد، فقال: سابقٌ النهارَ >>(٦) فقد

---

(١)- انظر معاني القرآن للأخفش ١/٢٨، ١٨٠.

(٢)- انظر الاحتجاج للحلواني ١٥٩.

(٣)- الكامل للمبرد ٣٤، تح: شاكر والمبارك، القاهرة بلا تاريخ.

(٤)- المصدر السابق ١١٢، وانظر ١٩٠.

(٥)- يس ٣٦/ ٤٠.

(٦)- الكامل للمبرد ٢١٦، وانظر الخصائص لابن جني ١/ ١٢٥.

أشار إلى حذف التنوين قبل أداة التعريف، ولم يرفضه وفضّل عليه وجهاً آخر(١).

وقد اعتمد المبرّد على لغة الأعراب في ردّه على سيبويه، وإنكاره لبعض ما جاء في كتابه(٢). وقد اعتمد المبرّد كذلك على رواية الشيوخ، وما نقلوه عن الأصمعي؛ من ذلك قوله: <<وممّا يؤكّد ذلك السماع قولُ الأصمعيّ -فيما حدّث به علماؤنا-: إنّ أعرابياً سمع خلف الأحمر، فقال ياأحمرُ، إنّ عندك لأشاوى، فقلب الياء واواً (٣)، وأخرجه مُخْرَج صحراءَ وصحارى>>(٤) ومنه اعتماده على رواية أبي زيد في إنزال (ما) منزلة (مَنْ)، واستعمالها لِمَن يعقل. (٥)

والواضح ممّا مرّ أن المبرّد قد سار على هدي سيبويه، والفراء، والأخفش، ونهج نهجهم في اعتماده رواية البداة، وكذلك رواية الشيوخ، لكنّ المبرّد أضاف لمسةً خاصة لهذا النهج وهي اعتماده على رواية عمارة بن عقيل، ولغته بشكل كبير.

---

(١)- انظر توجيه النحاة للقرآت الشاذة للصغير ٨٦.

(٢)- من ذلك أن سيبويه يرى أن (فعّال) صيغة نسبة لاتحتاج إلى الياء، نحو: ثوّاب، وجمّال لصاحب الثياب والجمال، ثم قال: <<وليس في كل شيء من هذا قيل هذا، الا ترى انك لاتقول لصاحب البّر: برّار، ولا لصاحب الفاكهة: فكّاه>> الكتاب ٣/٣٨١-٣٨٢. ورد المبرّد على سيبويه بقوله: << وكل من رأيناه ممّن ترضى عربيّته يقول لصاحب البر برّار، حتى صار لكثرة استعماله لايحتاج فيه إلى حجّة من شعر، ولاغيره.>> انظر المقتضب للمبرّد (حاشية) ٣/١٦١-١٦٢ وفيه ردّ ابنِ ولّاد على المبرد وانتصاره لسيبويه.

(٣)- أشاوى هي أشياء وأصلها أشايي بثلاث ياءات؛ الياء الأولى عين الكلمة، والثانية بدل من الألف، والثالثة بدل من الهمزة، حذفت الياء الأولى المشدّدة للتخفيف، ثم قلبت الكسرة فتحة، والياء ألفاً فصار الجمع أشايا على وزن لفاعى، ثم قلبت الياء واواً شذوذاً فصار أشاوى. انظر الإنصاف المسألة ١١٨ص ٨١٦-٨١٧، وشرح المفصّل ٩/١١٧.

(٤)- المصدر السابق ١/٣١.

(٥)- انظر المصدر السابق ٤/١٨٥.

ومع نهاية القرن الرابع بدأ النحاة يشكّون في فصاحة الأعراب، وسلامة لسانهم بعدما اختلطوا، وفسدت سليقتهم، وقد عبّر ابن جني عن ذلك في حديثه عن زيادة النون في (عَنْبَر) بقوله: ‹‹فكذلك يجوز أن يرد دليل يقطع به على نون (عنبر) في الزيادة، وإن كان ذلك كالمتعذر الآن لعدم المسموع من الثقة، المأنوس بلغته وقوة طبيعته.››(١) فإذا تعذّر وجود الثقة في المسموع لكنّه ليس مستحيلاً فقد ظلّ بعض النحاة، واللغويّين على صلة وثيقة بالبادية، وأهلها، وعدّوا كلامهم مصدراً من مصادرهم في التأليف(٢) وفاخر بعضهم بفصاحته لأنّه وُلِدَ في البادية. (٣)

ومن هذا الدافع اعتمد ابن جني على لغة أعرابي من عقيل هو الشّجري محمد بن العستاف (٤) وبنى الأحكام، والقواعد على ماسمعه منه (٥) كما عوّل على رواية أهل النحو واللغة، كالأصمعي (ت ٢١٦هـ)، وقطرب (ت ٢٠٦هـ)، وأبي زيد (ت ٢١٥هـ). (٦)

---

(١)- الخصائص لابن جني ٦٦/٣، وقد عبر أبو علي الفارسي عن ذلك بقوله واصفاً الأعراب آنذاك: ‹‹ليست لهم أصول يراجعونها، ولاقوانين يعتصمون بها، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به، فربّما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد›› ٢٧٣/٣.

(٢)- منهم الأزهري (ت ٣٧٠هـ) صاحب كتاب تهذيب اللغة، الذي جعل الأعراب أرفع مكانة في فصاحتهم من بطون الكتب القديمة، ومنهم الهمذاني (ت ٣٣٤هـ) الذي جعل لغة الحجاز، ونجد السفلى ، فالى الشام، وديار مضر وربيعة فصيحة إلاّ لغة الذين عاشوا في المدن. انظر مقدمة تهذيب اللغة للأزهري ٦ تح: هارون القاهرة ١٩٦٤م، وانظر العربية لبوهان فك ١٥٩، ترجمة النجار، القاهرة ١٩٥١م.

(٣)- انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٢٤/٢، ١٢٨.

(٤)- هو أبو عبد الله محمدُ بن العستاف العُقَيليّ التميمي، وذكره ابن جني باسم أبي عبد الله الشجري، قال فيه: ‹‹وقلّما رايتُ بدويا أفصح منه››، ولا تعرف سنة وفاته. مقدمة الخصائص ١٥/١-١٦.

(٥)- انظر الخصائص لابن جني ٢٥٠/١، ٣٣٨، ٢٦٩/٢، ٢٨٠/٣.

(٦)- توفي ابن جني عام ٣٩٢هـ وعاش ٩٥ عاماً تقريبا أي أنه لم يدرك قطربا، وابازيد، والأصمعي، وبناء على ذلك فإن الرواية عنهم لم تكن شفاها، وقوله: أنشدنا الأصمعي يقصد به ، أنشدنا في كتابه، وكأنه خطاب لنا. انظر الخصائص ١٢٦/١، ١٣٧، والمحتسب لابن جني ٥٥/١، ٥٦.

نلحظ من ذلك أنه في هذه المرحلة؛ أي في القرن الرابع الهجري بدأ التصريح بضعف لغة الأعراب لاختلاطهم بالأعاجم إلاّ القليل منهم، على عكس ما عُرف عن نحاة القرنين الأول، والثاني الذين جعلوا لغة البادية أصلاً يبنون عليه من غير تردد أو شك.

وبعد ذلك تضاءل اعتماد النحاة على الأعراب تضاؤلاً كبيراً، لأن لغتهم خالطتها لغة الأعاجم، فلم يكن للنحاة آنذاك بدٌ من الاعتماد على القرآن، والشعر، لأنهما مدوّنان أمّا لغة التخاطب فلم تكن مدوّنة إلاّ ما سجّله النحاة الأوائل منها، لذلك فإن النحاة حافظوا على ما وصلهم من أسلافهم، وما دوّنوه من لغة التخاطب.

ومع القرنين الخامس والسادس تكون قد انتهت عصور المشافهة، ولم يذكر أحدٌ من نحاة تلك الفترة أنه نقل لغة عن أعرابي، أو بنى حكماً على حديثه إلاّ ما ندر، فالزمخشري مثلاً يذكر أنه سمع أعرابيةً، وقال في تفسيره لقوله تعالى: **وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ * إلى ربّها ناظرةٌ** (١): ‹‹وسمعتُ سَرَوِيّةً مستجدية بمكّة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقايلهم، تقول: عُيَيْنَتي نُوَيْظِرة إلى الله وإليكم.››(٢) كما أشار إلى أنّ بعض البدويات أنشدته :

عَرِيْضُ القَفا مِيزانُهُ في شِمَالِهِ قَد انحَصَّ من حسب القراريط شاربُهْ (٣)

وكان استدلاله في المثالين السابقين من كلام البادية، لكنّه لم يكن لأمر نحوي، أو لغوي كما كان الحال عند أسلافه بل كان لأمر يتعلق بالمعنى، وما فيه من مجاز.

---

(١)- القيامة ٧٥/٢٢-٢٣.

(٢)- الكشاف للزمخشري ٤/١٩٢.

(٣)- المصدر السابق ١/٣٣٩، وقد استدل بالبيت على معنى البلاهة والغفلة بقوله: **عريض القفا**.

هذه حال النحاة بصريين، وكوفيين، فقد اعتمدوا على لغة الأعراب الذين كانوا يشافهونهم، وعلى رواية الشيوخ، وقد رأينا ذلك عند سيبويه، والفراء، والأخفش، ورأينا اهتمامهم بذكر القبائل والأمصار.

وفي القرن الثالث تابع النحاة نهج أسلافهم، واعتمدوا على الأعراب، والشيوخ على حدّ سواء، واهتم المبرّد بأعرابي واحد وثق بفصاحته ونقل عنه، وبنى على كلامه أحكاماً.

وفي القرون التالية بدأ الشكّ في فصاحة الأعراب بعدما فشا الضعف في لسانهم، وقد عبّر عن ذلك نحاةُ تلك الفترة كابن جنيّ، ثم جاء الزمخشري حيث ندر أخذه عن الأعراب، وإن ظهرت إشارته للغة البادية، فهي لأمور بلاغية تتصل بالمعنى، ولا علاقة لها بالنحو واللغة.

الفصل الثاني

الاستدلال بغير النصوص

- السماع والقياس
- المدرسة البصرية وأتباعها
- المدرسة الكوفية وأتباعها

• السماع والقياس •

لم تكن مذاهبُ النحاة في الاعتماد على السماع، والقياس حتى وفاة سيبويه واحدةً، كما لايمكننا أنْ نصف أحد النحاة بأنه اعتمد على السماع، ولم يعتمد على القياس، أو اعتمد على القياس ولم يعتمد على السماع، لكننا نستطيع أن نقول في هذه الفترة: إنّ الحضرمي، وعيسى بن عمر، والخليل بن أحمد اعتمدوا على القياس، ولم يهملوا السماع، ولم يجافوه، وإنّ أبا عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب اعتمدا على السماع ولم يهملا القياس، ولم يجافياه. أما سيبويه فقد أفاد من السماع والقياس على حدٍ سواء وجمع بينهما بكلّ دقّة وعمق.

ومن جهة أخرى كان الكسائي (ت ١٨٩هـ) يرسم ملامح المذهب النحوي الكوفي الذي اعتمد على الاتساع في الرواية من أشعار، وأقوال، وقراءات شاذة، والاتساع في القياس بحيث يعتدّ في قواعد النحو بالشاذ، والقليل، والنادر(١).

لذلك تداخل السماع، والقياس في مناهج النحاة، لاسيما المتقدمون منهم، وكلما مرّت السنون نأى النحاة بأنفسهم عن السماع، وأخذوا بالقياس منهجا لهم، وهذا ما سيجعلنا نتتبّع المنهجين عند أبرز أنصارهما انطلاقا من دراسة كلّ مذهب على حدة، لأن نحاة البصرة، وإن اعتمدوا القياس بشكل عام فقد اهتمّوا بالسماع أيضا، وكذلك نحاة الكوفة فإنهم لم يهملوا القياس على الرغم من اهتمامهم بالسماع أكثر.

---

(١)- انظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ١٩٥.

وينبغي ان يستقرّ في الأذهان انّ المدرسة الكوفية لاتباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو، فقد بَنَت نحوها على ما أحكمته البصرة من تلك الأركان التي ظلّت إلى اليوم راسخة في النحو العربي، غير أنّها مع اعتمادها لتلك الأركان استطاعت أن تشقّ لنفسها مذهباً نحوياً جديداً، له طوابعه وله أسسه ومبادؤه(١)

• المدرسة البصرية وأتباعها •

نهج سيبويه شيخ المدرسة البصرية منهج الفطرة، والطبع الأصيل في تناولاته النحوية، ودرس الأمثلة المستمدة من القرآن الكريم، والشعر، وكلام العرب واستنبط ما فيها من أساليب الكلام؛ ليكشف أبعادها بمعايير الصحة والخطأ، أو الحسن والقبح، أو الكثرة والقلة، وهو بشكل عام يقدّم المادة النحوية الأولى بعناصرها الأوليّة، ولا ينقصها إلا استخلاص الضوابط، واستنباط الأصول، فيجمعها ويصنّفها، ثم يعرضها جملة أو آحادا، ويحلّل التراكيب فيها، ويؤوّل الألفاظ، ويقدّر المحذوف، ويستخلص المعنى المراد(٢).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يتطور السماع عند النحاة، بل توقف عند حدودٍ معيّنة أخذ فيها النحاة من الأعراب حاجتهم، وقعّدوا اللغة على ما سمعوه، وساعد على هذا التوقف قلّة الثقة بالأعراب بعدما اختلط بالأعاجم، ولم يعد يوثق بلغة الأعراب إلاّ قليلاً منهم.

وبالمقابل تقدّمَ القياسُ بشكل ملحوظ عند النحاة، لاسيما المتأخرون منهم، وعلى ذلك لم يبق أمام النحاة إلا الاعتماد على سماع من سبقهم، على تفاوت بينهم على مبدأ ما قيس على كلام العرب فهو

(١)- انظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ١٥٨.

(٢)- انظر سيبويه إمام النحاة لناصف ١٦٣-١٦٦.

كلام العرب (١).

لما مات سيبويه قُرئ كتابه على أبي الحسن الأخفش إذ لايُعلم أنّ أحداً قرأه على سيبويه، ولاقرأه سيبويه على أحد (٢)، ومن الطبيعي أن يتأثر الأخفش بالكتاب، ويفيد منه ويبرع في تفتيق موضوعات، ومسائل منه بما كان عليه من علمٍ بالكلام وحذْقٍ بالجدل؛ قال الأخفش: <<كان سيبويه إذ وضع شيئاً من كتابه عَرَضَهُ عليَّ وهو يرى أني أعلم به منه، وكان أعلمَ منّي، وأنا اليومَ أعلمُ منه.>>(٣)

وصحيح أن **الأخفش** تأثر بسيبويه، لكنّ ذلك لايعني أنّه أخذ بآرائه كلّها من دون مناقشة، بل شرح الكتاب، وخالف سيبويه في كثير من الآراء النحوية؛ قال الكسائي : <<لم يكن في القوم -يعني البصريين- أعلم من الأخفش، نبّههُمْ على عُوار الكتاب وتركهم>>(٣). وهو الذي فتح أبواب الخلاف عل سيبويه، وساعد في نشوء مدرسة الكوفة النحوية بعد أن حملوا مخالفات الأخفش لسيبويه ومضوا يتّسعون فيها.

والواقع أنه إذا كان الأخفش قد ساعد في نشوء مدرسة الكوفة -كما قال الكسائي، وتابعه بعض المحدثين- فإن في ذلك بعض المبالغة؛ لأنّ الخلاف بينهما خلاف قد يحصل بين كثير من النحاة في كل عصر، ثم إنّ هذه الخلافات كانت في أمور النحو الفرعية، لا الأصلية ذلك أنّ قواعد النحو وأصوله الأساسية تمّت على يد سيبويه التي أخذها عن شيخه الخليل، أي قبل وفاة الأخفش بأكثر من ربع قرن.

---

(١)- القول لأبي عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ) انظر الخصائص لابن جنّي ١/٣٥٧، ٢/٢٥.

(٢)- انظر أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٦٦ تح: محمد إبراهيم البنّا ط١ ١٩٨٥م.

(٣)- مراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي ٦٨،٦٩.

ولاشك أنّ الأخفش لم يخرج كليّاً على مدرسة البصرة، ولم يشذّ عن القواعد الأساسية التي أقامها سيبويه، ومِن قبلِه الخليلُ سوى تفسيرات، واجتهادات بسيطة دفَعَتْهُ إليها طبيعة هذا العلم الذي وضعه أناس يقبلون المناقشة، والأخذ والردّ، والأخفش من أكابر علماء النحو في عصره، وهو يرفض التقليد، والمتابعة، بل يدرس، ويمحّص حتى يقتنع، وإلاّ فله اجتهاد آخر. (١)

وإذا كان الأخفش قد خالف مدرسته في بعض الأراء فإنّ معظم آراءه وافقت مدرسته البصرية وزعيمها سيبويه؛ من ذلك ما قاله سيبويه: <<ممّا جرى نعتاً على غير وجه الكلام (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، فالوجه الرفع، وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم. وهو القياس لأنّ الخربَ نعت الجحر، والجحر رفع، ولكن بعض العرب يجرّه وليس بنعتٍ للضب، ولكنه نعتٌ للذي أضيف إلى الضب، فجرّوه لأنه نكرة كالضب، ولأنه في موضعٍ يقع فيه نعتُ الضب، ولأنه صار هو والضبّ، بمنزلة اسم واحد. ألا ترى أنّك تقول: (هذا حَبُّ رمّانٍ، فإذا كان لك قلتَ: هذا حبُّ رمّاني، فأضفتَ الرمّان إليك، وليس لك الرمّانُ إنما لك الحَبُّ>>(٢) وما قاله الأخفش جاء موافقاً فيه سيبويه: <<ويقولون: هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، والخربُ هو الجُحْرُ. ويقولون: هذا حَبُّ رمّانيّ، فيضيف الرمّان إليه، وإنما له الحبُّ وهذا في الكلام كثير.>>(٣)، والأمثلة كثيرة متنوعة(٤)

---

(١)- انظر منهج الأخفش في إعراب القرآن لصفوة البرازي ٤٧١.

(٢)- الكتاب ٤٣٦/١.

(٣)- معاني القرآن للأخفش ٧٥/١.

(٤)- انظر الكتاب ٩٠/١، ١٤٣/١، ١٨٠/١-١٨١، ٢١٢/١، ٢٨٢/١-٢٨٣، ٣٨٦/١، ١٢٧/٢، ١٤٠/٢، ٢٨/٣، ٣٩/٣-٤٠، ١١٧/٣-١١٩، وانظر بالترتيب معاني القرآن للأخفش ٨٠/١، ٣٧٤/٢، ٢٤٨/١، ٤٧/١-٤٨، ٢٤٩/١، ٨٨/١، ٩/١، ٣٥٩/٢، ٥٨/١-٥٩، ٦٦/١، ٨٨/١-٨٩.

أما ما خالف الأخفشُ فيه سيبويه فلم يكن بقدر ما وافقه فيه سواء أكان ذلك من جهة الكثرة، أم الأهمية. من ذلك رأيهما في (لعلّ) قال المرادي: (للتعليل)، هذا معنى أثبته الكسائي، والأخفش، وحملاً على ذلك ما في القرآن من نحو: **لعلّكُمْ تَشْكُرون** (١) **ولعلّكُمْ تَهْتَدُون** (٢) أي: لِتَشكروا ولِتَهتدوا(٣). وقال الأخفش: **لعلّه يتذكّر**(٤)، ونحو قول الرجل لصاحبه: افرغ لعلّنا نتغدّى؛ والمعنى لنتغدّى، وحتى نتغدّى، ويقول الرجل: اعمل عملَك لعلّك تأخذ أجرك، أي لتأخذه (٥). وذكر سيبويه أنّ (لعلّ) طمع وإشفاق (٦). وغير ذلك من الأمثلة (٧).

لقد كان لآراء الأخفش، وابتعاده عن سيبويه حيناً وأخذه بآرائه أحياناً أخرى أثرٌ في الصورة التي كوّنها حوله النقاد، فجعلوه بعيداً عن مدرسته البصرية، ومؤسساً لمدرسة الكوفة، أو بالأحرى مساعداً في بنائها. (٨) لكنّنا نرى أن الصواب لايتعدّى وجهة نظر محدّدة يملكها الأخفش، وهي مخالِفة لما عند سيبويه، وهي ليست في أمور جوهرية متعلّقة ببنية القواعد النحوية بل في فروع،

---

(١)- البقرة ٢/٥٢، وغيرها من المواضع. انظر المعجم المفهرس لعبد الباقي (تشكرون).

(٢)- البقرة ٢/٥٣، ١٥٠، وغيرها من المواضع.

(٣)- انظر الجنى الداني في حروف المعاني لابن أم قاسم المرادي ٥٢٧-٥٢٨ تح: طه محسن، العراق ١٩٧٦.

(٤)- طه ٢٠/٤٤.

(٥)- انظر معاني القرآن للأخفش ٢/٤٠٧.

(٦)- انظر الكتاب ٤/٢٣٣.

(٧)- انظر في ذلك الكتاب ٢/٤١، ٣/١٠٣، ٤/٢٢٥، وانظر بالترتيب معاني القرآن للأخفش ٢/٤١٠، ١/١٢٥، ١/٩٨-٩٩.

(٨)- ذكر محمد خير الحلواني صاحب (الاحتجاج) أنّ الأخفش «أحياناً يبني الأصول على غير مسموع، ولكنّه يحكّم القياس وحده، وهذا مخالف لما رأينا من آرائه الأولى.» وفي هذا القول ما يدل على أنه غير مقيد بمنهج محدّد . انظر ص ٢٩٦.

وتلاميذهم لمتابعة بعضهم بعضاً، فكان أن تسقّط بعضُ علماء الكوفة الذين درسوا في البصرة آنذاك بعضَ الخلافات بين علماء البصرة أنفسهم، وأخذوا يبنون عليها أحكاماً فاقت الخلافات الأصلية بكثير من المبالغة التي ساعدت على تأجيج الخلاف.

ثم يأتي **المازني أبو عثمان** (ت ٢٤٩هـ) الذي لم يكن خارج حدود بصريته، فقد كان مهتماً بالقياس كما هو الحال عند البصريين ، ولكن ذلك لايمنعه من الأخذ بالسماع إذا تعارضا؛ من ذلك أنه سمع قول الشاعر:

وأنا الذي قَتَّلْتُ بَكْراً في الوَغَى ... وتركْتُ تَغْلِبَ غيرَ ذاتِ سَنَامِ

ورأى فيه العائد من الصلة يعود إلى (أنا)، لا إلى (الذي)، وهو مخالف للشائع المعروف، فأجازه، وقال: <<لو لم أسمعه لم أجِزهُ>>(١)، وفي مكان آخر يقول في (استحوذ، وأغيلت) <<فإنّا لم نسمعهما معتلَّتَيْن في اللغة، وربّ حرف هكذا، فاحفظ ماجاء من هذا، ولا تُقِسْه>>(٢)

أمّا **المبرّد** فقد تمسك بالقياس تمسكاً شديداً، فاق فيه الحضرمي، والخليل، وطالب بعدم الالتفات إلى الشواذ، والنوادر، فقال: <<القياس المطرد لاتعترض عليه الرواية الضعيفة>>(٣)، وقال أيضاً : <<إذا جعلت النوادر والشواذّ غَرضَك، واعتمدت عليها في مقاييسك كثُرت زلاّتك>>(٤) فهو يخطّئ العرب، وينكر روايات لسيبويه سُمعت من الفصحاء كقول النمر بن تولب:

---

(١)- شرح اللمع لابن جني لابن الدهّان، اللوحة ١٩٨، نسخة مصورة من نسخة دار الكتب في جامعة بغداد، نقلاً عن الاحتجاج للحلواني ٣٠٠.

(٢)- المنصف في شرح التصريف لابن جني ١/٢٧٦.

(٣)- الكامل للمبرد ١/١٨٥.

(٤)- الأشباه والنظائر للسيوطي ٣/٤٩، حيدر آباد الطبعة الثانية.

فَيَـوْمٌ عَلَيْنَا ويَـومٌ لنا   ويَـومٌ نُسَـاءُ ويومٌ نُسَـرّْ (١)

وقول أبي النجم العِجْليّ:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعي   عليَّ ذَنْباً كلُّه لم أَصْنَعِ (٢)

برفع (كلُّه) (٣).

لكن المبرّد يردّ ما نُقِل عن الفصحاء في البيتين السابقين اللذين أوردهما سيبويه عنهم، فيقول: ‹‹أخبرنا أبو عمر الجرمي بهذا كلّه منصوباً، وسمعنا بعض ذلك منصوباً من الرواة››(٤).

وقد كانت للمبرّد رغبةٌ مُلحّة في أن تجري المسائل على نظام مستقيم. وقياس مطّرد، فدفعه ذلك إلى أن ينكر بعض الروايات التي تخالف القياس العام، وهذا النهج الذي انتجه المبرد عرّضه لردود قاسية من بعض المتأخرين. (٥)

---

(١)- يريدون : نُساءُ فيه، ونُسَرّ فيه.

(٢)- وجه الاستشهاد رفع (كلُّه). انظره في الكتاب ١/٨٥ ومغني اللبيب ١/٢٢٠.

(٣)- الكتاب ١/٨٥،٨٦.

(٤)- انظر مقدمة المقتضب للمبرد ١/١٠٩.

(٥)- قال ابن جني بصدد ردّ المبرد روايات أوردها سيبويه في كتابه: ‹‹وأما اعتراض أبي العباس هنا على الكتاب، فإنما هو على العرب، لا على صاحب الكتاب: لأنه حكاه كما سمع، ولايمكن في الوزن أيضاً غيره... فكأنّه قال لسيبويه: كذبتَ على العرب، ولم تسمع ما حكيته، وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ من السرف فقد سقطت كُلْفة القول معه›› انظره في خزانة الأدب للبغدادي ٢/٢٧٩، ٣/٥٣٠. وانظر الخصائص ١/٧٥، ٢/٣٤١، ٣/٩٦، وقال ابن ولّاد عن المبرد في (الانتصار): ‹‹فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً، وكلام العرب فرعاً، فاستجاز أن يخطّئها إذا تكلّمت بفرع يخالف أصله›› مقدمة المقتضب ١/١٠٩.

والأمثلة على اتباع المبرّد للقياس، وردّه لما أورده سيبويه في كتابه مسموعاً عن الفصحاء كثيرة(١)؛ لأنه كان يتبع الكثرة من كلام العرب، ويقيس عليه؛ من ذلك قوله: <<واعلم أنّ القياس، وأكثرَ كلام العرب أنْ تقولَ : هذه أربعةَ عَشَـرَك، وخمسةَ عشَرَك، فتدَعُهُ مفتوحاً على قولك: هذه أربعةَ عشرَ، وخمسةَ عشرَ. وقوم من العرب يقولون: هذه أربعةَ عشرُك، ومررتُ بأربعةَ عشرِك، وهم قليل، وله وُجَيْهٌ من القياس: وهو أن تردّه بالإضافة إلى الإعراب... وإنما كان القياس المذهب الأوّل>>(٢) ويقول في موضع آخر : << أمّا الأقيس، والأكثر في لغات جميع العرب فأن تقول... >>(٣)

ويتابع البصريون منهجهم القياسي؛ فابن السرّاج (ت ٣١٦هـ) يأبى القياس على الشاذ، وعلى ما لا نظير له، وإذا تعارض السماع والقياس فهو يأخذ بالسماع، (٤) أما الزجّاجي (ت ٣٣٧هـ) فإنه يردّ الشواهد القليلة التي أوردها الكوفيون حول التعجب من الألوان، ولأنها تحمل ظواهر نحوية لا يقاس عليها، ويردّ الشواهد إلى الشذوذ(٥) . وكذلك السيرافي (ت ٣٦٨هـ) الذي تابع نهج سيبويه، والبصريين بشكل عام، وقاس على ما شاع عند العرب، وسمع عنهم، وردّ القياس على ما شذّ من لغتهم بقوله: <<ولا يلزم القياس على الشاذ في كل شيء>>(٦)، وقال في مثل ذلك:

---

(١)- أنظر ذلك كله في مقدمة المقتضب للمبرّد ١٠٨/١ وما بعدها.

(٢)- المصدر السابق ١٧٩/٢.

(٣)- المصدر السابق ١٩٣/٢، وانظر ١٧٥/٢.

(٤)- انظر الاحتجاج للحلواني ٣٠٣.

(٥)- انظر الجمل في النحو للزجاجي ١٠٢ تح: علي توفيق الحمد بيروت طبعة أولى ١٩٨٤م.

(٦)- شرح السيرافي على الكتاب ١٧٢/٣، وانظر ١٥٩/٣ من الرماني النحوي لمازن مبارك ١٥٥، دمشق ١٩٦٣، وانظر ١٥٦.

‹‹ لو أن هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتها تقوله لم يُلتفَتْ إليه››(١) فهو يقبل بكلام العرب على اختلاف لغاتهم، ولهجاتهم، إذا كان محصوراً بالتتبّع، والرواية، والسماع، ويردّ القياس، إذا لم يكن على الأصل المعروف من غير تحريف (٢).

ثم يأتي **الرمّاني** (ت ٣٨٤هـ) الذي مزج النحو بعلم الكلام، وسار على منهج سيبويه بشكل عام حيث يرى أن السماع هو مصدر القياس ففي حديثه عن (الخازباز) (٣) يعرض ستة أوجه فيها، ويقيس كلَّ وجه على نظيره من كلام العرب، ويقول: ‹‹فقد بان علل كلّ وجه من هذه الأوجه، وصحت بالرواية عن العرب والقياس الصحيح›› (٤) وبالمقابل فإنه يضعّف القياس إذا لم يقوّه سماع، واستعمال في كلام العرب (٥) لذلك فهو لايقيس إلاّ على الكثير، وينكر القياس على القليل، أو النادر، ويصرّح بذلك بقوله: ‹‹وإنّما لم يجز القياس على النادر، وإن كانت له علّة صحيحة؛ لأن علّته نادرة، وحكمته أن تكون علّته لهذه الصفة؛ لأنّها تجري في خروجها عن الأصل المطّرد مجرى الاستعارة››(٦) فمنهج الرمّاني هو منهج الخليل، وسيبويه في اعتماده على الكثير الشائع والقياس عليه.

---

(١)- شرح السيرافي على الكتاب ١٦٢/٢، عن الرماني ١٥٧، ولذلك ردّ على المبرد اسقاطه الاحتجاج بقول يزيد بن الحكم:

وكَمْ مَوْطِنٍ لولايَ طحت كما هَوَى ... بأجرامِهِ مِنْ قِلّةِ النّيْقِ مُنْهَوِي

بقوله: ‹‹وما كان لأبي العباس أن يسقط الاستشهاد بشعر رجل من العرب قد روى قصيدته النحويون، وغيرهم، واستشهدوا بهذا البيت، وغيره من القصيدة، ولا أن ينكر ما اجمع الجماعة على روايته عن العرب›› انظر شرح السيرافي ١٥٢/٣، والرماني ١٥٧.

(٢)- انظر رواية اللغة لعبد الحميد الشلقاني ٢٨٦، مصر ١٩٧١ عن الاحتجاج للحلواني ٣٠٤.

(٣)- انظر الكتاب ٣٠١/٣ والخازباز: نبت، أو هو ذباب يطير في الربيع يدل على خصب السنة.

(٤)- الرماني لمبارك ٢٥٩.

(٥)- انظر المصدرالسابق ٢٦٠.

(٦)- انظر المصدر السابق ٢٦٦.

أما ابن جني (ت ٣٩٢هـ) فقد طوّر السماع، والقياس تطويراً نظرياً واضحاً عندما قسّم كلام العرب أربعة أقسام: المطّرد في القياس والاستعمال، والمطّرد في القياس الشاذ في الاستعمال، والمطّرد في الاستعمال الشاذ في القياس، والشاذ في القياس والاستعمال(١). وقد عدّ (المطرد في القياس والاستعمال) أنّه <<الغاية المطلوبة، والمثابة المنوبة، وذلك نحو: قام زيد، وضربت عمراً، ومررت بسعيد>>(٢) أما الذي اطّرد في الاستعمال، وشذّ في القياس، <<فلا بدّ من اتّباع السمع الوارد به فيه نفسه لكنّه لا يُتخذ أصلاً يقاس عليه>>(٣) فهو يوصي فيه أن يستعمل ما استعملته العرب على شذوذه.

ويرجّح السماعَ على القياس متأثراً برأي أستاذه أبي علي الفارسي(ت ٣٧٧هـ) فيقول: <<إن الاستعمال إذا ورد بشيء أُخذ به، وتُرك القياس، لأنّ السماع يُبطل القياس، قال أبو علي: لأنّ الغرض فيما ندوّنه من هذه الدواوين، ونثبته من هذه القوانين، إنّما ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها، ويستوي من ليس بفصيح، ومن هو فصيح، فإذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب، وعُدِل عن القياس إلى السماع >>(٤)

أمّا إذا خالف كلامٌ السماعَ، والقياسَ فيجب ردّه؛ لأنّه <<لم يبق له عِصمة تُضيفه، ولا مُسْكة تجمع شعاعه>>(٥)

---

(١)- انظر الخصائص لابن جني ١/٩٧،٩٨.

(٢)- المصدر السابق ١/٩٧، وفي ذلك يقول ايضا: <<الا تعلم انّ القياس، إذا اجاز شيئا، وسُمع ذلك الشيء عينه، فقد ثبت قدمُه، وأخذ من الصحة والقوة مأخذه>> المصدر السابق ١/١٣٦.

(٣)- المصدر السابق ١/٩٩.

(٤)- المنصف في شرح التصريف لابن جني ١/٢٧٨، وانظر كذلك الخصائص ١/١١٧،١٢٤،١٢٥.

(٥)- المصدر السابق ١/٣٨٧.

وعلى هذا النحو نرى ابن جني يتبع نهج سيبويه في الأخذ بما شاع، وأستعمل من كلام العرب متأثراً بشيخه الفارسي واضعاً هذا الفكر ضمن أصول نظرية واضحة.

وفي القرن السادس الهجري لم يطرأ على المذهب الذي اختطّه سيبويه جديد، إلاّ ما أضافه النحاة من حديث نظري، وضعوا فيه أصولاً وقواعد. آخذين بعين الاعتبار الجمعَ بين القياس والسماع، إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وتفضيلَ السماع إذا تعارض مع القياس، وطرحَ القياس جانباً إذا كان مبنياً على القليل والنادر.

فأبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) يحافظ على أصول القدماء لكنّه يطورها ويضفي عليها تفصيلات تكشف صلته العميقة بعلم الحديث وطرقه، وبالفقه وأصوله. (١) ففي كتابه الإغراب في جدل الإعراب يتكلّم على صناعة النحو، ويجعل أدلتها ثلاثة، هي النقل، والقياس، واستصحاب الحال، ثم يضع حدوداً لها فيقول: ‹‹فأما النقل فالكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح، الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة، وأما القياس فهو حمل غير المنقول على المنقول، إذا كان في معناه، كرفع الفاعل، ونصب المفعول في كل مكان، وإن لم يكن كل ذلك منقولاً عنهم، وإنّما لمّا كان غير المنقول عنهم من ذلك في معنى المنقول كان محمولاً عليه، وكذلك كلُّ مقيس في صناعة الإعراب.››(٢) فالسماع عنده، أو النقل ما اتصف بالكثرة، والنقل الصحيح المتواتر، ووضَعَ شروطاً للتواتر والآحاد، ورفَضَ المرسلَ والمجهولَ (٣).

---

(١)- انظر على سبيل المثال حديثه عن الاستدلال، والاعتراض على الاستدلال بالنقل. الإغراب في جدل الإعراب لأبي البركات الأنباري ٤٥-٤٦، تح: الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية دمشق ١٩٥٧م

(٢)- الإغراب لأبي البركات الأنباري ٤٥-٤٦.

(٣)- في ذلك يقول: ‹‹وكلّ واحد من المرسل والمجهول غير مقبول، لأن العدالة شرط في قبول النقل، والجهل بالناقل، وانقطاع سند الناقل يوجبان الجهل بالعدالة، فإنّ مَن لم يُذكر اسمه، أو ذُكر اسمه، ولم يعرف، لم تُعرف عدالته، فلا يُقبل نقله.›› لمع الأدلة لأبي البركات الأنباري ٩٠-٩١.

ويبني الأنباري أحكامه، وأصوله على الكثير المسموع فقد أجاز في ضرورة الشعر منع صرف ما ينصرف في ضرورة الشعر (١) مؤيداً في ذلك الكوفيين معلّلاً ذلك بقوله: <<والذي أذهب إليه في هذه المسألة مذهبُ الكوفيين؛ لكثرة النقل الذي خرج عن حكم الشذوذ، لالقوته في القياس.>>(٢)

ويتابع **ابن مضاء القرطبي** (ت ٥٩٢هـ) تغليبَ السماع على القياس على نهج مدرسة البصرة وعلمائها، وعلى رأسهم سيبويه، لكنه لم يلغ القياس إلغاءً كاملاً. (٣)

تلك هي مدرسة البصرة وهؤلاء هم أبرز الذين ساروا على نهجها في المشرق والمغرب، وهنا لابدّ لنا من الإشارة إلى الاختلافات الفردية بين نحوي وآخر ضمن المدرسة الواحدة، بين متشدد في أصوله أو متساهل، وبين متعصب في حدوده أو متسامح، فالنحاة لم يسلكوا خطّاً مرسوماً لهم جميعاً بل كان كلّ نحوي يخضع لمؤثرات خاصة تجعله يحافظ على ما أخذه عن أسلافه أو يضيف إليه شيئاً من علوم

---

(١)- الشواهد التي استدل بها في كتابه الإنصاف كثيرة منها:

- طَلَبَ الأزارقَ بالكتائب إذْ هَوَتْ — بشبيبَ غائِلَةُ الثغور غدورُ
- نَصَروا نبيَّهُمُ وشدّوا أَزْرَهُ — بحُنَيْنَ يومَ تواكُلِ الأبطالِ
- إذا قالَ غَاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصِيدةً — بها جَرَبٌ عُدّتْ عليَّ بِزَوْبَرَا

(٢)- الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري المسألة ٧٠، ٢/٥١٤.

(٣)- أخذ القرطبي كتابَ سيبويه عن ابن الرماك ، وأخذُهُ بالسماع كان لتأثره بالمذهب الظاهري الذي <<يرفض القياس، وما يتصل به من علل، ويكتفي بالظاهر من القرآن والحديث، وقد استلهم ابن مضاء هذه الثورة لافي حملةٍ على الفقه والفقهاء، وإنّما في حملة على النحو والنحاة من حوله، إذ وجد مادةَ العربية تتضخم بتقديراتٍ، وتأويلات وتعليلات وأقيسة، وشُعَبٍ وفروع وآراء، لاحصر لها ولا غناء حقيقي في تتبّعها أو على الأقل في تتبع الكثير منها، فمضى يهاجمها في ثلاثة كتب، هي (المشرق في النحو) و (تنزيه القرآن عمّا لايليق بالبيان) و كتاب (الردّ على النحاة) وهو -وحده- الذي بقي من آثاره>> المدارس النحوية لشوقي ضيف ٣٠٥.

العصر آنذاك من حديث شريف وفقه.

• المدرسة الكوفية وأتباعها •

امتازت مدرسة الكوفة بتوسعها في رواية الأشعار، وكلام العرب، ولغاتهم على جميع العرب سواء أكانوا ممّن استقر في الحواضر، أم تنقّل في البوادي، في الوقت الذي كانت فيه مدرسة البصرة تتشدد في الأخذ عن العرب فلم تستدل في استنباط القواعد إلاّ بما قاله العرب الفصحاء، وتداولوه في باديتهم، وفي قبائل محدّدة كقيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين. (١)

وهذا لايقلّل من أئمة مدرسة الكوفة؛ فقد كانوا يرحلون أيضا إلى البادية كإمامهم الكسائي(٢)، الذي توسّع في الرواية وأخذ اللغة حتى<<إنه كان يسمع الشاذ الذي لايجوز، من الخطأ واللحن، وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات، فيجعل ذلك أصلاً، ويقيس عليه حتى أفسد النحو>>(٣) ومن هذا المنطلق كان الخلاف بين المدرستين؛ فالبصرة تتشدد في فصاحة العربي الذي تأخذ عنه اللغة والشعر، والكوفة تتساهل، فتأخذ عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق وخالطوا الفرس، والهنود(٤).

---

(١)- انظر المزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/٢١١.

(٢)- انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ٢/٢٥٨.

(٣)- معجم الأدباء للحموي ١٣/١٨٣.

(٤)- انظر المزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/٢١٢، والمدارس النحوية لضيف ١٦٠.

ولم يقتصر الخلاف على هذا الحدّ بل تجاوزه إلى الاتساع في القياس عند الكوفيين الذين اعتدّوا بأقوال المتحضّرين من العرب وأشعارهم، وبنوا أحكامهم على الأشعار، والأقوال الشاذة التي سمعوها على ألسنة الفصحاء، وهي ممّا عدّه البصريون خطأ، وغلطاً، وقد لخّص السيوطي مذهبهم بقوله: <<الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً، فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه بخلاف البصريين>>(١) وقال: <<عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظاً في شعر، أو نادر كلامٍ جعلوه باباً، أو فصلاً>>(٢)

وفي حديثنا عن أثر سيبويه في تاريخ النحو نرى أنه من واجبنا أن نتعرض لأشهر نحاة مدرسة الكوفة النحوية، وأتباعها لنُظهر الفرقَ بين المدرستين، لا لندرسَ تاريخ النحو العربي، وذلك لتكتمل صورة سيبويه، ونرسم ملامح منهجه النحوي السليم.

وإذا أردنا البداية في مدرسة الكوفة نجد أنّ **الكسائي** (ت ١٨٩هـ) زعيمها، ومؤسسها يأخذ بكلام عرب (الحُطَمَة) المتحضرين في مناظرته لسيبويه، ويفحِمه في المسألة الزنبورية، وإفحامُ الكسائي لسيبويه معتمداً على عربٍ متحضرين أرسى أصلاً من أصول المدرسة الكوفية، وهو الأخذ باللغات الشاذة المخالفة للأقيسة البصرية من جهة،وللشائع المتداول على أفواه العرب جميعهم من جهة ثانية(٣)

وأخذ الكسائي بالتزوّد من كتاب سيبويه وعلماء البصرة بعد وفاة صاحب الكتاب، وبعد أنْ علم أن الأخفش الأوسط قد حمل الكتاب، وانتهى إليه علم البصرة بالنحو، وكان الأخفش يكثر من مخالفة سيبويه والخليل مستمِداً قوته من معرفته بلغات العرب، فاستغلّ الكسائي هذه المخالفة وبدأ بتوسيعها معتمداً على الاتساع في الرواية والقياس.

(١)- الاقتراح للسيوطي ٨٤.

(٢)- همع الهوامع للسيوطي ١/٤٥.

(٣)- انظر المدارس النحوية لضيف ١٧٤، وانظر المسألة الزنبورية في الإنصاف: المسألة ٩٩، ٢/٧٠٢.

لم يقف الكسائي عن المستعمل الشائع عن العرب ولا عند أعراب البدو، بل مدّ ذلك ليشمل ما يتكلم به المتحضّرون الذين فشا اللحن على ألسنتهم؛ وما تأليفه لكتاب (لحن العوام) إلا دليل على انتشار اللحن، وزاد في ذلك أنه أخذ بالشاذ النادر من لغات العرب ممّا لم يكن سيبويه، والخليل يهتمّان به. ولعلّ تأثّر الكسائي بالقراءات القرآنية وأنه كان من القرّاء قد أدى إلى اهتمامه بالشاذ والنادر من لغات العرب على غرار الاهتمام الذي أولاه للقراءة الشاذة وحتى لايظنّ بهذه الحروف أنها غير جائزة وأنها لاتجري على العربية السليمة. وما من شكّ في أن البصريين وعلى رأسهم سيبويه عُنوا بهذه الشواذ وتسجيلها، لكنها عناية من باب آخر؛ فقد أرادوا أن يوضّحوا الهُجنة في استخدامها وأن يحصّنوا قواعدهم وألسنة الناس منها. وبذلك تعاون الطرفان المتعارضان على إثباتها، مع اختلاف الغاية. (١)

ومن الأمثلة التي أخذ فيها الكسائي بالشاذ والنادر أنّ البصريين منعوا تقديم المستثنى في أوّل الكلام سواء أكان مثبتاً أم منفياً، فلم يُجيزوا قولهم: إلاّ زيداً قام القوم، ولا: إلاّ زيداً ما أكل أحد طعاماً، ولا: ما -إلا زيداً- قام القوم؛ لكنّ الكسائي سمع قول الأعشى:

خَلا اللهَ لا أَرْجُو سِوَاكَ وإنّما أعدُّ عِيالي شُعبةً مِن عِيالِكا (٢)

وقاس هذا الاستثناء بـ(خلا) على الاستثناء بإلاّ بحجة ان (إلاّ) هي الأصل، و(خلا) فرعٌ لها، والأصل أولى بما يجوز في الفرع، ولم يلتفت إلى أنّ البيت المستدلّ به هو ضرورة شعرية قادت الشاعر إلى ترتيب الكلام بشكل مخالف لما شاع عند العرب، وبذلك وضع الكسائي قاعدة هي جواز تقديم المستثنى في أول الكلام سواء أكان ذلك مثبتاً أم منفياً، ومنه أنه أجاز إضافة (حيث) إلى المفرد على خلاف ما قاله

---

(١)- انظر المدارس النحوية لضيف ١٧٥-١٧٧.

(٢)- انظر الإنصاف للأنباري (حاشية) المسألة ٣٩، ١/٢٧٤، وشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك الذي أخذ برواية (خلا اللهِ) وعدّ (خلا) حرفَ جرّ، وانظر المدارس النحوية ١٨٠.

سيبويه والبصريون من أنّ (حيث) تلزم الإضافة إلى جملة اسمية أو فعلية، واستدل الكسائي والكوفيون ببيتين عدّهما البصريون من النادر؛ وهما قول الفرزدق:

ونَطْعَنُهُمْ تَحْتَ الحبا بعدَ ضَرْبِهِمْ   بِبِيْضِ المَوَاضي حيثُ ليِّ العَمَائِمِ (١)

وقول آخر:

أما تَـرَى حيثُ سُـهَيْـلٍ طالِعاً   نَجْماً يُضِيْءُ كالشّـهابِ لامِعـــاً (٢)

ويزيد الكسائي على ذلك أنه قد يبني رأيا لاتسنده الشواهد من كلام العرب، كإجازته الفصل بين فعل الشرط، وأداته بمعموله نحو: مَنْ زيداً يكرمْ أكرمه، والفصل أيضاً بعطفٍ وتوكيد، وقد منع الفراء ذلك لعدم ورودِهِ في السماع (٣)، وإجازته تقديم معمول فعل الشرط والجواب على الأداة مثل: خيراً إنْ تفعلْ تُكرم، وخيراً إنْ أتيتني تُصِب، ومنع الفراء ذلك لأنه لاشيء يؤيّده ممّا سمع عن العرب. (٤)

هذا هو مذهب الكسائي إمام مدرسة الكوفة، وتلك هي أبرز أصوله، وهي الأسس التي تعتمد على الاتساع في الرواية، والقياس سواء أكانت قواعدُهُ مدعومة بالشواهد، أم غيرَ مدعومة بها.

يأتي بعد ذلك **الفرّاء** (ت ٢٠٧هـ) تلميذ الكسائي الذي تابع نهج أستاذه في نقله عن الأعراب جميعهم بداة ومتحضرين، وهو على الرغم من اعتماده على بعض الفصحاء(٥) الذين تعرّضنا لذكرهم سابقاً، وتتبعه لهم في الجزيرة العربية فإنه توسّع بالسماع، والرواية عن الأعراب الذين نزلوا بغداد واختلطوا بأهل الحضر.

---

(١)- تحت الحبا: في أوساطهم، انظر مغني اللبيب لابن هشام ١/١٤١.

(٢)- سهيل: اسم نجم، انظر المصدر السابق ١/١٤١، وانظر همع الهوامع ١/٢١٢.

(٣)- انظر همع الهوامع للسيوطي ٢/٥٩.

(٤)- انظر المصدر السابق ٢/٦١، والمدارس النحوية لضيف ١٨٣.

(٥)- منهم أبوا الجراح، وأبو ثروان، انظر المدارس النحوية لضيف ٢١٤.

ومامن شكّ أنّ الفرّاء عُني بكتاب سيبويه عناية فائقة إذ وجد أستاذه الكسائي يطلب الكتاب، ويمليه عليه الأخفش، وكان له من ذلك دافع قوي ليقرأ الكتاب، ويقرأ كذلك ما كتبه الأخفش في النحو حتى مات، وتحت رأسه كتاب سيبويه. (١)

واتّفق الفرّاء مع نحاة المدرستين البصرية والكوفية آنذاك في عدم استدلاله بالحديث النبوي الشريف في كتابه (معاني القرآن) على غرار ما رأيناه عند سيبويه، وما جاء منه (٢) لم يكن إلا في مرتبة متأخرة عن القرآن الكريم، والشعر، والأمثال ولغة التخاطب.

كما ظهر تأثر الفراء بسيبويه فيما أنشده من أشعار وغيرها؛ فكثير ممّا استدلّ به من شعر، وقرآن كريم كان سيبويه قد أورده (٣)، وهذا التأثر لايعدّ تأثراً منهجياً بقدر ما هو سرد لروايات وقراءات متداولة في حلقات العلم، ومدونة في كتب العلماء أخذها علماء المدرستين ونقلوها لمن جاء بعدهم.

وقد توسّع الفرّاء في السماع من العرب، والتمس منه القياس، لاسيما إذا اتّفق هذا السماع مع قراءة قرآنية محدّدة؛ من ذلك جواز وقوع (الواو) زائدة في جواب (إذا)، فقد استدلّ بقوله تعالى: **حتّى إذا فشلتُمْ وتنازَعْتُمْ في الأمْرِ** (٤) وقوله: **حتّى إذا جاؤوها وفُتِحَتْ أبوابُها** (٥) ثم استدل بقول

---

(١)- إنباه الرواة للقفطي ٢/٣٥١.

(٢)- انظر معاني القرآن للفراء ١/٢٦٦، ٤٦٩.

(٣)- انظر المصدر السابق ١/٣٤، ٦٧، ١٢١، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٦٢، ١٨٦، ١٨٧، وانظر الكتاب بالترتيب ٣/٤٢، ٣/٤٦، ٢/٢٩٢، ٢/٤٦، ٢/٤٥، ١/٧٢، ١/٨٥، ٣/٥١٥، ١/٤٧، ١/٥٢.

(٤)- آل عمران ٣/١٥٢.

(٥)- الزمر ٣٩/٧٣.

بعض الشعراء:

حتى إذا قَمِلَتْ بطونُكم ... ورأيتُمْ أبناءَكُمْ شَبُّوا

وقَلبتُمْ ظَهْرَ المِجَنِّ لنا ... إنّ اللئيمَ العاجِزُ الخَبُّ (١)

وإلى جانب ذلك كان الفراء يخطئ أحياناً بعض كلام العرب، وينصّ على أنهم يغلطون من غير أن يبني على هذه اللغة القليلة قاعدة؛ من ذلك قوله في قراءة الحسن البصري لقوله تعالى: **قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عليكُمْ ولا أدْراكُمْ بِهِ** (٢): ‹‹وقد ذُكِر عن الحسن أنه قال: (ولا أدرأتكم به) فإن يكن فيها لغة سوى دريت وأدريت فلعلَّ الحسنَ ذهب إليها. وأما أن تصلح من دريت، أو أدريت فلا؛ لأنّ الياء والواو إذا انفتح ما قبلهما وسكنتا صحّتا، ولم تنقلبا إلى ألف؛ مثل قضيت ودعوتُ. ولعلّ الحسن ذهب إلى طبيعته، وفصاحته فهمزها؛ لأنها تضارع درأت الحدّ وشبهه. وربما غلِطت العرب في الحرف، إذا ضارعه آخر من الهمز فيهمزون غيرَ المهموز؛ سمعت امرأة من طيّئ تقول: رثأت زوجي بأبيات، ويقولون لبّأت بالحج وحَلّأتُ السويق فيغلطون››(٣)

نقف بعد ذلك عن ثعلب (ت ٢٩١هـ) الذي عكف على قراءة كتاب سيبويه بنفسه ولم يقرأه على العلماء فحذق في النحو الكوفي والبصري معاً، وزاد من مكانته في النحو ما أتقنه من المعرفة بالغريب ورواية الشعر حتى أصبح إمام هذا النحو وعلَمَه المفرد في عصره (٤).

---

(١)- قملت بطونكم: كثرت قبائلكم. قلب ظهر المجنّ -والمجنّ الترس-: المنابذة بالعداء، والخبّ اللئيم الماكر. انظر معاني القرآن للفراء ١/٢٣٨، والإنصاف ٢/٤٥٨، وخزانة الأدب للبغدادي ٤/٤١٤، ولسان العرب (قمل) من غير عزو.

(٢)- يونس ١٠/١٦.

(٣)- معاني القرآن للفراء ١/٤٥٩.

(٤)- انظر المدارس النحوية لضيف ٢٢٥.

تابع ثعلبٌ الكسائيَّ والفرّاء في منهجهما النحوي وما اتبعاه من أصول مبنية على السماع عن العرب، والتوسع في الرواية، وبناء الأحكام على ذلك حتى غدا مرجع أهل الكوفة في رواية أقوال الكسائي، والفرّاء، وحفظ للناس أكثر أعمالهما، وأملى أقوالهما، وآراءهما في مجالسه، ودوّن لهم ذلك فيما ألّف من كتب كثيرة على الرغم من أنه لم يلقهما، بل أخذ آراءهما عن تلاميذهما كسَلَمَةَ بن عاصم تلميذ الفرّاء، ومحمد بن زياد الأعرابي تلميذ الكسائي، وقراءته لكتب الفرّاء بكل مافيها من أثر للكسائي(١)

وفي بغداد كان لقاؤه مع المبرّد زعيم البصريين آنذاك حيث تحلّق حول كلّ منهما أتباع من الدارسين تنافسوا جميعاً في الدفاع عن مذهبهم وردّ آراء المذهب الآخر(٢)، فنشأت طبقة عَرفَتْ المنهجَين، وأفادت منهما وتأثرت بهما فكانت منهم -على ما قيل- مدرسة بغداد. (٣)

كان ثعلب راوية حافظاً للغة، والأدب، والقراءة والنحو، يُملي دروسه في مجالسات فإذا سُئل في النحو أملى ممّا حفظه عن الكسائي، والفرّاء، وما أفاده منهما، ولولا حفظه لكتبهما ووقوفه على آرائهما في النحو، لكان واحداً من الحَفَظَة، لا شأن له بصناعة النحو، لكنّ إفادته منهما وبعض آرائه الخاصة جعلته في زمرة الأئمة من نحاة الكوفة، ولهذا قيل: <<لم يكن مستخرجاً للقياس، ولا طالباً له، وكان يقول: قال الفرّاء، وقال الكسائي، فإذا سُئل عن الحجّة، والحقيقة لم يأتِ بشيء>>(٤)، وعند ثعلب يظهر الفرق بين مدرسة البصرة ممثّلة بالمبرد، ومدرسة الكوفة ممثلة به فقد سألهما محمد بن عبد الله بن طاهر عن قوله عزّ وجلّ: **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**(٥)

(١)- انظر مدرسة الكوفة لمهدي المخزومي ١٤٥.

(٢)- ألّف ابن درستويه، والزجّاج في الردّ على ثعلب، وأحمد بن فارس، وأبو بكر بن الأنباري في الانتصار له، انظر الفهرست لابن النديم ٩٤، ومعجم الأدباء للحموي ١١٥/٥، وبغية الوعاة للسيوطي ١٥٣، ومقدمة المقتضب للمبرّد ٢٧/١-٢٨.

(٣)- انظر مدرسة الكوفة للمخزومي ١٤٨.

(٤)- إنباء الرواة للقفطي ١٤٤/١، نقلاً عن المدارس النحوي لضيف ١٥٠،١٥٣.

(٥)- الممتحنة ٦٠/٤.

كم لغةً في (برآء) ؟ قال المبرد: قلتُ برآء على مثال كُرَماء، وبِراء على مثال كِرام. فقال ثعلب: بُراء (بضم الباء) أيُّهاالأمير. <<فقال: ما تقول يا محمد ؟ فقلتُ (والقائل المبرّد): أيها الأمير، سَلْه مِن أين ؟ قال: قال من أين قلتَ ؟ قال (والقائل ثعلب): حدثني سَلَمة عن الفراء، أنه سمع أعرابية تقول:

ألا في السَّوْة انْتُنَّهْ

تريد: ألا في السوءة انتنّة. فطَرَحت الهمزةَ >>(١)

أما المبرّد فقد انتهزها سانحة للفوز في هذا المجلس، فأخذ يأتي بالحجّة، وبالدليل بعد الدليل؛ وكان آخر ما قال: <<لايُترك كتابُ الله، وإجماع العرب، لقولة أعرابية رعناء>> (١)

فالمبرّد لايأخذ بالقليل النادر، بل إنه يعيب على ثعلبٍ الأخذَ عن أعرابية تاركاً كتاب الله وما سُمع عن العرب.

وإذا كان تأثير سيبويه في ثعلب غير مباشر في المتابعة النحوية ومسائلِها، فإنّ ذلك لم يمنع أن يخالِفَ ثعلبٌ الكوفيين بل إنه في بعض المسائل يأخذ برأي البصريين على غرار ما جاء في الإنصاف؛ يقول أبو البركات الأنباري في <<القول في تقديم معمول الفعل المقصور عليه>>: <<ذهب الكوفيون إلى أنّه لايجوز (ما طعامَكَ أكلَ إلا زيدٌ)، وذهب البصريون إلى أنّه يجوز، وإليه ذهب أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب من الكوفيين>> (٢) وغيرها من المسائل. (٣)

---

(١)- انظر ذلك وغيره من المسائل المثارة بينهما في مجالس العلماء، للزجاجي ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٥، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، تح: هارون، الكويت ١٩٦٢م. وانظر مثل ذلك في مقدمة المقتضب للمبرد ١/ ٢٦، وما بعدها، والمدارس النحوية لضيف ٢٣٢، ومدرسة الكوفة لمخزومي ١٥٥ وما بعدها.

(٢)- الإنصاف لأبي البركات الأنباري المسألة ٢١، ١/ ١٧٣.

(٣)- انظر المصدر السابق ٢٠، ١/ ١٧٢.

كان لمدرسة البصرة السبقُ في الدراسة النحوية، فقد شهدت البصرةُ أوائلَ النحاة وشيوخَهم يضعون اللبناتِ الأولى لهذا الصرح، ثم جاءت مدرسة الكوفة التي بناها كوفيّون طلبوا العلم على يد البصريين، ثم عادوا إلى مدينتهم الكوفة لنشر ما أخذوه، وما لاحظوه، ومنهم أبو جعفر الرؤاسيّ الذي أخذ عن عيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ)، وعلي بن حمزة الكسائي الذي أخذ عن الخليل بن أحمد أستاذِ البصريين ومعلّم سيبويه. وبهذا تكون الكوفة مدينةً للبصرة بنشأتها، والنشأة شيء والتطور شيء آخر، فالكوفيون لم ينقلوا عن البصرة نقلاً بل غيّروا، وعدّلوا، وزادوا وأعادوا النظر فكانت لهم نظرتهم النحوية الخاصة التي اتفقت مع البصريين حيناً و خالفتهم أحياناً أخرى.

وإذا كان سيبويه قد أخذ عن الأعراب لغتهم وعدّها مصدراً هاماً من مصادره، فإنّ كلا المدرستين كان لهما هذا المبدأ فقد ابتدأ البصريون الأوائل، واستدلوا بلغة قيس، وتميم، وأسد، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم بشكل عام، ضمن أصل وهو ألاّ يؤخذ عن حضريّ قطّ، ولا عن سكان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم من حولهم(١).

وإذا كان الكوفيون قد تابعوا سيبويه والبصريين بالاستدلال بلغة الأعراب الذين سبق ذكرهم، فإنهم توسّعوا في الأخذ عن هؤلاء الأعراب كأعراب سواد الكوفة، وعرب الأرياف المحيطة بالمدن، وأعراب سواد بغداد، ومنهم أعراب الحطمة الذين استعان بهم الكسائي في مناظرته لسيبويه(٢) وإذا كان البصريون قد ضعّفوا لغة هؤلاء، فإن الكوفيين رأوا أنّ لغتهم تمثل فصيحاً من اللغات لايصحّ إغفاله بعد أن وجدوها متمثّلةً في قراءات القرآن السبع.

---

(١)- انظر الاقتراح للسيوطي ١٩.

(٢)- انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٣/١٨٢.

والمصدر الأساسي الذي اعتمده الكوفيون هو النحو البصريّ ذاته، فالكسائي أخذ عن سيبويه لمّا درس الكتاب، على الأخفش، والفراء بدوره اطّلع عليه واحتفظ بنسخة منه، وثعلب كان متبحّراً في مذهب البصريين. فأئمة الكوفة في النحو خرجوا من بوابة البصرة إن مشافهةً وإن مناقلةً حتى استوى لهم منهجهم الجديد.

(١)- مدرسة الكوفة للمخزومي ٣٣٠-٣٣٢.

* خلاصة البحث ونتائجه *

*- مهما كانت نتائج هذا البحث كبيرة، وكذلك غيره من الأبحاث فإنها تبقى قاصرة، لاتستطيع الإحاطة بكل ماتستحقّه لغتنا العربية من سبر وتمتق، لاسيمّا كتاب سيبويه الذي لم تكشف كلّ جوانبه.

*- وقد حاولت في هذا البحث أن أضع لبنةً جديدة تساهم في فهم الكتاب؛ لأنّ سيبويه هو صاحب القِدْح المعلّى، وهو الذي أقام صَرْح النحو، وهو الذي أشاد قواعده وأركانه بحيث لم يعد فيها أيُّ أمْتٍ أو عوجٍ أو انحراف.

*- فقد نظرت إلى الكتاب نظرة جديدة هدفتُ منها أن أظهر موقف سيبويه من الأصول النحوية، فهو في غالب الأحيان يستدل لما خالف الأصول وابتعد عنها؛ لأنّ الأصول لاتحتاج إلى دليل.

*- ونثرت الكتاب، وأعدتُ جمعه بطريقة جديدة فجمعت المتشابه في الفكرة الواحدة، هذه الفكرة التي تحوم حول موافقة سيبويه للأصول النحوية في استدلاله، أو عدم موافقته.

*- وكثيراً ماكنت أضع المسألة النحوية الواحدة في أكثر من موضع، وأنظرُ إليها بأكثر من منظار إذا كانت تحتمل ذلك، وتتبعت النحاة في ذلك، وبيّنت موقفهم مما جاء في الكتاب سواء أكانوا قد وافقوا سيبويه في الاستدلال لما خالف الأصول، أم خالفوه، فنسبت الآراء إلى أصحابها مرتبةً بحسب موضوعاتها، وأظهرتُ مدى التأثير والتأثير بين سيبويه ومن عاصره أو من جاء قبله وبعده؛ كلّ ذلك حرصت على أن يكون مرتباً ترتيباً تاريخياً.

*- وقد حرصت في هذا البحث على عدم التفريق منهجيا بين سيبويه، وأساتذه الخليل لأسباب متعددة، منها صعوبة الفصل، لا استحالته، وخشيتي من الخلط بين آرائهما لاسيما أن سيبويه لم يكن يشير إلى شيخه إشارة واضحة في كل آرائه، ورغبتي في أن يكون التفريق بين آرائهما في الكتاب بحثاً قائماً بذاته ينصف الرجلين، وإدراكي أن التمازج والتلاقح بين التلميذ وأستاذه مشروعٌ، ووارد، فما قولنا إذا وصل إلى حدّ الانصهار.

*- واتبعت جهدي في تتبع سيبويه، وغيره من النحاة من خلال الكتاب، وغيره من المصادر والمراجع بعمل إحصائي دقيقٍ قدر جهدي لتصح الموازنة بين استدلال سيبويه لما خالف الأصول وغير ذلك.

*- وقدّمت آراء النحاة بحسب ماجاءت في كتبهم، وكتب من أخذوا عنهم، وقارنتها بآراء سيبويه من خلال ما جاء في كتابه، وأظهرتُ بعض ما أضافوه من آراء.

*- وبيّنت أن أصول المنهج الذي اعتمده سيبويه، ووصل إليه لم تتغيّر عند من جاء بعده، وإنّما كان التغيير الذي لمسناه عند النحاة فيما بعد توسيعاً لهذه الأصول أو تضييقاً لها بحسب اتجاهات كلّ نحوي من هؤلاء النحاة.

*- وكان عملي فرصةً للتكلّم على القبائل التي استدلّ سيبويه بشعر شعرائها، بل هدفا رأيت أنه يمكنني من معرفة اللهجات في الكتاب وكذلك القراءات القرآنية.

*- ووقفت على تأثير سيبويه في طرق استدلاله بطرق استدلال الفقهاء فقط، ولم أصل إلى أدلة واضحة تثبت أثر المناطقة، والمتكلمين في سيبويه.

*- وتحدثتُ عن أثر **البيئات العلمية** في البصرة في أواخر القرن الأول، وأوائل القرن الثاني حيث شهدت دراساتٍ لغويةً، ونحويةً ناضجةً بعض النضج حتى جاء سيبويه متأثراً بالخليل وحمل عبء هذا العمل فسار بتقعيد النحو وترتيبه، وتبويبه خطواتٍ واسعةً إلى التنظيم. أمّا الكوفة فلم يُكتب لها أن تعيش الظروف التي عاشتها البصرة، فقد انصرفت الكوفة بما عندها من الصحابة، والتابعين، والفقهاء، والقرّاء، والمحدّثين إلى استخراج الأحكام من نصوص الكتاب والسنّة، وإلى إعمال الرأي في القضايا التي لم يرد نص لها في القرآن الكريم والأحاديث. لذلك رأيناهم يتناولون القضايا النحوية بمنهج لغوي باعتمادهم الرواية، والإمعان في التتبع اللغوي مما انعكس على اتجاهاتهم النحوية.

ولم يكن الهدف أن نسهب في حديثنا عن ضروب الاستدلال عند غير النحاة، لذلك فقد أوجزنا الحديث عن الفقهاء وعلماء الكلام والمناطقة ليبقى في الحدود التي تخدم البحث وتنير الطريق في وصولنا إلى استدلال النحاة.

*- تكلمنا على مصادر الاستدلال الأصلية عند الفقهاء: القرآن الكريم، والسنة، والإجماع، والقياس، وعند المتكلمين: البرهان الكلامي، والتأويل، والتفويض، وعند المناطقة: القياس، والاستقراء، والتمثيل. ولاأدّعي بأنّني أحطتُ بضروب الاستدلال عندهم، بل أخذت من شاطئ هذا البحر العظيم مارأيت أنه يوضح جوانب البحث فقط.

أمّا كلامي على الاستدلال عند النحاة فقد قسمته قسمين: الأول تكلمت فيه على من جاء قبل سيبويه، والثاني تكلمت فيه على سيبويه، وتركت الخليل بن أحمد الفراهيدي مشمولاً بحديثي عن سيبويه لأني وجدت أنّ الفصل بينهما ليس سهلاً في بحث يهدف غير ذلك، وآثرت عدم الفصل كي أتجنّب الوقوع في مغالطات، فأنسب رأياً لغير صاحبه.

*- وعرضت لطرائق الاستدلال عند النحاة: السماع، والقياس، والعلّة، وقد اعتُمِد السماع عن الأعراب بكل أساسي، وقد أولوه العناية الكبيرة، وجعلوه ركناً أصيلاً من أركان الاستدلال، وشمل السماعُ القرآن الكريم بقراءاته المتعددة، وأخذ به النحاة الأوائل دون استثناء، على العكس من الحديث النبوي الشريف الذي وقفوا منه موقفاً مغايراً لاعتبارات تتعلّق بالمعنى والرواية، أمّا كلام العرب فقد غطّى مساحةً كبيرة من الاستدلال، لاسيّما الشعر، وحَرِص النحاة على الأخذ بكلام العرب لما يمثله من دقّة كبيرة لما يتكلمون به آخذين بعين الاعتبار التفاوت بين القبائل تبعاً لمعايير مكانية.

وتكلمتُ على القياس الذي ظهر عند الحضرمي، ثم عيسى بن عمر، ثم أبي عمرو بن العلاء، والتطور الذي حصل في هذا المذهب بما أضافة النحاة من نظرات دفعت بهذا المذهب أشواطاً بعيدة في توطيد أركانه. أمّا العلّة فقد بقيتْ بسيطة آنذاك تهدف إلى فهم المعنى، والإحاطةِ بكلام العرب، وما يرمون إليه، وهي تعليلات قليلة إذا قيستْ بتعليلات الخليل، ومَنْ جاء بعده من النحاة.

*- وتحدثنا عن مصادر الاستدلال: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب من شعر ونثر؛ أمّا القرآن الكريم فقد وضعه النحاة في المرتبة الأولى من الاهتمام؛ لأنّ تقعيد اللغة وجمعها، وضبطها كان الهدفُ منه خدمة الدين الإسلامي، والمساعدة على نشره في البلاد المفتوحة، وكان للقراءات القرآنية أثرٌ كبير في المعالجات النحوية؛ لأنها أخفت وراءها لهجاتٍ عربيةً أصيلة سمحت للنحاة برصدها، والإفادة منها، أمّا الحديث الشريف فإن النحاة لم يثقوا بأنّ ماجاء هو بلفظ االرسول (ص) لأنّ اغلبها مرويٌّ بالمعنى، وقد تداولها الأعاجم والمولّدون قبل تدوينها، فرووها بما أدت إليه عبارتهم فزادوا، ونقصوا، لهذا ترى وجوهاً شتّى، وعباراتٍ مختلفةً للحديث الواحد، إضافة إلى أنّ دخول الأعاجم في رواية الحديث يجعله عرضةً للّحن، أمّا الشعر فقد اعتمد النحاة عليه في المرحلة التي سبقت سيبويه، وكان مصدرُهم في ذلك أعرابَ البادية والشعراء، سواء أكان أخذهم مشافهة في الحواضر، أم نتيجة رحلتهم إلى البادية، وسواء أكان نقلهم عن الشعراء مباشرة أم عن

شيوخهم الثقات.

وتكلمنا على لغة التخاطب، فقد اهتمّ النحاة باللغة التي قاومت التطور، وحافظت على أصالتها على مرّ العصور، وهي لغة البداة، فقد أخذوا منها القواعد، واستنبطوا الأصول.

وفي جوّ كان الصراع فيه بين الثقافات محتدما، لم يكن للنحو من بدّ إلاّ أن يتأثّر بغيره، وكان تأثره بالفقه كبيرا منذ بدايات نشأته، لأن نظرة النحاة إلى الفقه كانت نظرة متميّزة، فقد وجدوا فيه تجسيداً لعلم أصيل في الحياة الإسلامية، وعدّوا النحو علماً تابعاً للفقه، يخدمه، ويوسّع دائرته، وهذا مادفعهم إلى الاهتمام به، وقد ظهر تأثر النحاة باستدلال الفقهاء قبل سيبويه أكثر ماظهر في القياس والعلّة.

*- وكان لقواعد الاستدلال عند النحاة أهمية كبير آنذاك لأنها تصل بصاحبها إلى مايريده من صحة ودقّة. وإن كانت تتفاوت هذه القواعد فيما بينها؛ من ذلك القواعد الزمانية التي لاتتسم بالدقّة المنشودة لأنّ الزمان ليس لحظة واحدة يقاس عليها الشعر، بل قد يمتدّ الزمان في حياة شاعر مدّة تقارب القرن إلاّ قليلاً كابن هرمة (٩٠-١٧٦هـ) فإذا كانت حدود الاستدلال الزمانية تقف عند حدود (١٥٠هـ) معنى ذلك أنا سنستدلّ بجزء من شعر ابن هرمة، ونردّ جزءاً آخر من شعره بدعوى عدم فصاحته، وهذا مالايقبله عقل ولامنطق، وهذا الوضع خلق غموضاً في التقسيم الزماني، وتداخلاً دفع النحاة ليعيروا التقسيم المكاني أهمية أكبر، فقد تمسّك النحاة بالحدود المكانية، وهو مايُفسّر استدلالهم بلغة شاعر وردّهم لغة آخر على الرغم من أنهما عاشا في عصر واحد، لكنّ الفارق بينهما أنّ من استدلوا بشعره عاش في البادية يرعى الإبل، ويبحث عن مواطن الكلأ، ومَن ردّوا شعره عاش في الحواضر، واختلط بغير العرب.

ولم يهمل النحاة الإنسان العربي الذي أخذوا عنه، فقد وضعوا له شروطاً كالفصاحة التي يكتسبها في بطن الجزيرة العربية، واستمرار هذه الفصاحة. وكثيراً ماكانوا يخضعونه لامتحان

ليصلوا إلى قناعة كاملة بفصاحته ودوامها.

كما وضعوا شروطاً لما يؤخذ به كشيوعه، وتعدد مصادره، وكثيراً مارجّحوا وجهاً على وجه إذا كانت المادة المستدلّ بها تستند إلى ماكثر استعماله عند العرب.

* جاء بعد ذلك حديثنا عن سيبويه الذي كان كتابه نهاية مرحلة هامة في تاريخ النحو، فقد اتضحت صورة النحو فيه، وبانت ملامحه، فنهل منه كلّ مَنْ جاء بعده، كلٌّ بحسب طريقته ونظرته.

وقد قسمنا الاستدلال عنده قسمين؛ أولهما: الاستدلال بالنصوص، وثانيهما الاستدلال بغير النصوص. وشمل استدلاله بالنصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب من شعر وأمثال، ولغة تخاطب.

* أمّا **القرآن الكريم**، فقد استعان سيبويه بعلمه به، وبقراءاته، وقرائه، ووظّف إحاطته بكلّ ذلك لخدمة هدفه في تقعيد النحو، فاستدلّ للغة القرآن وقراءاته، كما استدلّ بها؛ فمن استدلاله لها أنه إذا كانت لغة القراءة القرآنية مخالفة للشائع من لغة العرب بعيدةً عن قياس النحاة قام ليستدلّ لها بإيجاد النظائر في لغة العرب، ليبيّن أنّ القراءة ليست مجافية لأصول النحو، وأنها مقبولة، أمّا استدلاله بها فتكون فيه هذه اللغة الضابطَ للأصول، والمصحّحة للكلام، والمعيار الدقيق لصحة الاستنباط والقياس، والهدف في كلا الحالتين تثبيت القاعدة النحوية، ورسم أصولٍ واضحة لها.

وقد حدّدنا موقف سيبويه من القراءات على اختلاف أنواعها، وطرق تناولها، وبيّنا أنّ مواقف سيبويه في غالبيتها هي مواقف شيخه الخليل بدليل أنّه لايخالفه في أيّ من التناولات النحوية التي ينطلق فيها من القراءات القرآنية.

وصحّحنا بعض مانُسب إلى **الخليل** من تهجّم على القرآن الكريم، وقراءاته معتمدين في ذلك على أكثر من مصدر، لكنّ أبرزَها كتاب سيبويه نفسه؛ لأنّه المصدر الوحيد الذي رأينا فيه موقف الاثنين من القراءات القرآنية.

ووصلنا إلى أنّ سيبويه كان يحرص في كتابه على الاستدلال بالقرآن الكريم لما خالف الأصول بشكل عام، لأنّ الأصل الشائع لايحتاج إلى دليل، وخروجه على الأصل لايعني أنّه لم يعر الأصول الأهمية التي تستحقّها، فقد رأيناه في مواضع كثيرة يتحدث عن القواعد الأصلية البسيطة، ويستدلّ لها بآيات من القرآن الكريم، وهذا يدلّ على أنّ سيبويه أولى القواعد المستنبطة الأهمية كلّها سواء أكانت هذه القواعد ممّا يطابق الأصول، أم ممّا يخرج عليها، وإن كان في الثانية أكثر وضوحاً، وأغزر مادّة.

ووصلنا إلى أنّ الاستدلال **بالقرآن الكريم** عند سيبويه أخذ اتجاهاتٍ متعدّدةً، منها مايتعلق بأمر يخصّ المعنى، أو بأسلوب فنّي. ومنها مايرصد موقعه من حيث الكثرة أو القلّة، وتداول ذلك على لسان العرب، ومقارنته من حيث الأسلوب بما ورد في القرآن الكريم، ومنها مايحاول من خلاله أنّ ينقل لنا لغةً استخدمها بعض العرب، أو لهجة من اللهجات، أو اتّساعاً في استخدام بعض الأساليب، ومنها ماكان يشير إليه إشارة غير صريحة، ومنها ما يحاول أن يخرّجه بما يناسب لغة العرب، وهذا الأمر هو الذي دفعه مع شيخه إلى إبراز فكرة التوهّم في النحو العربي قبل غيرهما من أئمة النحو.

وبيّنا **طريقة** سيبويه في تتبع القاعدة بجزئياتها محاولاً الاستدلال لها قدر المستطاع بآيات القرآن الكريم ماتوفرّ له ذلك مقارناً بين المستدلّ، وما سمع عن العرب متتبعاً خطوات شيخه الخليل حيناً، ومضينا إليه بعض التوجيهات في المسائل النحوية حيناً آخر.

وذكرنا أنّ **القرآن الكريم** قد حظي بأهمية خاصة عند سيبويه، حتّى إنّه في بعض المواضع لم يستدلّ بغير القرآن الكريم، وقراءاته، واصفاً اللغة التي لايدعمها قول من القرآن الكريم بأنها ضعيفة قبيحة.

وكان سيبويه يستدلّ للجيد من لغة العرب، مبرزاً مقاييس الجودة في لغتهم، لكنه كان يستدل أحياناً بقراءة للغة ضعيفة ليجمعَ أطراف البحث، ويحيط بكلّ جوانبه، وهو مادفعه إلى ذكر أكثر من وجه للقاعدة الواحدة.

وقد رسمنا لكل المسائل النحوية في استدلال سيبويه بالقرآن الكريم بيانين توضيحيَن آثرنا فيهما إضافة إلى رصد المعالجات النحوية كافّة إحصاءً دقيقاً لها جميعاً مشيرين إلى أنّ بعض الآيات الكريمة قد استدل بها أكثر من مرّة، وفي أكثر من قاعدة، أو أنّه استدلّ في القاعدة الواحدة بأكثر من آية واحدة، أو أنّه استدلّ للقاعدة الواحدة بآيات متتالية مرتبط بعضها ببعض في موضع واحد، بالإضافة إلى أنّ بعض الآيات تتكرّر بقراءات مختلفة تناسب القاعدة النحوية.

وبيّنّا أنّ القواعد النحوية البسيطة لم تكن تحتاج إلى استدلال، أو أنّ القرآن الكريم لم يَحْوِ ما يستدلّ به على بعض القواعد، أو أنّ طبيعة بعض القواعد الصرفية، واللغويّة والأوزان تحتاج إلى كلام العرب، ونطقهم لتكون دليلاً يُستدلّ به سيبويه على مايريد.

*- أمّا استدلال سيبويه **بالحديث الشريف**، فقد وصلنا إلى أنّ الأحاديث التي وردت في كتابه لم تكن موافقة في الرواية لما روي في كتب السنن في المعنى ذاته، كما أنّ صاحب الكتاب لم يستدلّ بها على أنها أحاديثُ شريفةٌ، بل استخدم عباراتٍ توهِمُ بأنها كلام صادر عن العرب، إضافة إلى أنه استدلّ في مؤخرة العرض النحوي المسهب الذي اشتمل على كلام العرب، ولغاتهم، وشعرهم، وكثيرٍ من آيات القرآن الكريم، إضافة إلى أنّ بعض الأحاديث كان للاستدلال، وبعضها الآخر كان توجيهاً للحديث.

ولم يكن إغفال سيبويه للأحاديث الشريفة عائداً إلى الجهل بها، بل هو نهج انتهجه في أماكن كثيرة من كتابه، وكذلك اختلاف رواية الحديث عنده لايعدو أن يكون رواية نُقِلَتْ إليه، أو أخَذَها

عن شيخ من شيوخ الحديث.

*- أمّا استدلال سيبويه بالشعر، فقد كان له النصيب الأكبر من الكتاب، وقد استقى مادته تلك من مشافهته للأعراب، ونقله عنهم بأساليب متعددة، أو أخذه برواية شيوخه كالخليل، ويونس، والأخفش الأكبر، وعيسى بن عمر، والأصمعي.

*- وقد بيّنا من خلال البحث الشعرَ المستدلّ به، وأعدناه إلى أصوله الجاهلية، والإسلامية، والأموية، والعباسيّة، وراعينا تقسيم أصحابه إلى عدنانيين وقحطانيين. ورتّبنا كلّ ذلك وفق الأكثر فالأقلّ، وظهر لنا أنّه عُني بالشعر الأمويّ، ومايليه من العصر العباسي عناية تفوق استدلاله بالشعر الجاهلي على الرغم من التداخل الواضح بين عصر وآخر، فكثير من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام، ولم يُسلموا، كان معظم شعرهم قبل الإسلام، وهذا مادفعنا إلى وضعهم ضمن شعراء العصر الجاهلي كأمية بن أبي الصلت، أو اعتنقوا الإسلام، وقلّ شعرُهم فيه كلبيد بن ربيعة العامري.

*- وهناك طائفة من الشعراء أدركت العصر الأموي بسنوات عديدة، لكنّنا أبقيناها في تصنيفنا مع الشعراء المخضرمين؛ لأن جلّ شعرها كان في الجاهليةِ والإسلام العصرِ الراشدي منه كالنابغة الجعدي، وحسّان بن ثابت، والحطيئة.

هناك فئة أخرى من الشعراء الذين عاشوا في العصر الأموي، وأدركوا العصر العباسي إلاّ أنّ أغلب شعرهم كان قبل ١٣٢هـ، فقد أبقيناهم في عداد الشعراء الأمويّين كرؤبة بن العجاج، وصنفنا من شعراء العصر العباسي كلّ من عاش في ذلك العصر، وظهر في شعره مدحه لبني العباس وإن كان متقدما كأبي نخيلة المتوفّى سنة ١٤٥هـ.

*- وتفحصّنا استدلال سيبويه بشعراء مطعون عليهم، و بأبيات مصنوعة، أو مجهولة القائل، وهذا التفحص، وإن كان لاينال من الكتاب وصاحبه إلاّ أنني وجدت من الواجب عرضه وتوضيحه، وبيان مراميه. وفرّقنا بين نوعين من الاستدلال؛ الأول منهما الاستدلال لعلم النحو، والثاني الاستدلال لعلم اللغة؛ فعلم النحو يُعنى بتركيب الكلام، وعلاقة عناصر الجملة مع بعضها، وهو علم قليل الاستجابة للتطوّر والتغيير، أمّا علم اللغة فهو يُعنى باللفظة الواحدة، وتطوّرِ مدلولها عند العرب، وهو علم سريع الاستجابة لما يعتري اللغة من تطور وتغيير في مدلولها المعنوي مع محافظتها على سلامة تركيبها ونظمها، وبقاء أصولها ثابتة لا يطالها التغيير، لذلك نرى أنّ سيبويه لم يجد حرجاً في الاستدلال بشعر مَن ضعّفهم اللغويّون، لأنّ مايبحث عنه ليس عرضة للتغيير بشكل سريع، فالأعرابي مثلاً، وهو صاحب السليقة العربية إذا زار الحواضر، أو تخوم بلاد فارس فإنه قد يستخدم لفظة غير عربية أحياناً لكنّه لايغيرّ قواعد تركيب الجملة التي فُطِرَ عليها، يضاف إلى ذلك أنّ معظم ماذكره سيبويه من شعر كان نقلاً لما كان العلماء يتداولونه في مجالسهم، ويردّدونه دائماً على مسامع طلابهم، أو نقلاً لما كان يتناشده الرواة الثقات، أو عن الأعراب الفصحاء الذين يستدلّ بإنشادهم.

*- أمّا **القبائل** التي أخذ سيبويه عن شعرائها، فقد وصلنا إلى أنّه استدلّ بشعر أغلب القبائل العربية التي يشملها ماأطلق عليه النحاة (عصر الاحتجاج)، وبيّنّا أنّ سبب استبعاده لبعض القبائل في الاستدلال يعود إلى أنّها لم تنجب شاعرا معروفا ذائع الصيت آنذاك.

*- ولم يهتم سيبويه أحياناً بنسبة الأبيات التي يستدلّ بها، بل انصبّ اهتمامه بقبول الراوي الفصيح لها، لأن قبوله لها دليلٌ على فصاحتها، ودقّتها، وعلى الرغم من ذلك فإن سيبويه يشير أحياناً إلى أنّ هذا البيت أوذاك مصنوع، وقد بيّنا أنّ ما أشير إليه بأنه مصنوع قد يكون من زيادات بعض قرّاء الكتاب؛ لأنّه لايمكن أنْ يستدلّ بأبيات مصنوعة، لاسيّما أنّه يأخذ شواهد عن شيوخه، وعن

الرواة الذين لا يرقى إليهم شكّ في الأمانة والفصاحة، ثم ذكرنا أنّ الضرورة عند سيبويه جائزة في الشعر، فإذا كانت في النثر فهي قبح.

*- ووصلنا إلى أنّ استدلاله **بالشعر** كان كاستدلاله بالقرآن الكريم، فقد وجّهه في الغالب لما خالف الأصول من خلال تناولاته النحوية من غير إهمال لهذه الأصول، فهو يتكلّم على ما خالف الأصول لأمر معنوي، أو للضرورة، أو لأسلوب فنّي، أو لبُنية الكلمة أو للحذف، أو لبيان القليل والنادر، أو لبيان القبيح، أو للقطع، أو للاستخفاف، أو للنيّة أو للاتّساع، او لأمر لفظي، أو لمخالفة السماع، أو لنزع الخافض، أو للجوار، أو لعدم اللبس أو للتوهم، أو لصرف الممنوع من الصرف، أو للإلغاء، أو للمشابهة، أو للفصل، أو لنيابة اللفظ، أو لاختلاف اللفظين. ويتكلّم كذلك على الأصول كعمل المصدر، ومبالغة اسم الفاعل والاشتغال، إضافة إلى ملامح متعدّدة في استدلاله بالشعر كاستدلاله لأكثر من وجه، أو لبيان اللهجات، أو كاستدلاله للجيّد، أو للقليل، أو للضعيف من لغة العرب، أو كتأكيد السماع، أو كتتبعه للقاعدة والاستدلال لها، وغير ذلك من الطرق المتنوعة في استدلاله.

*- ورصدنا المواضع النحوية التي لم يستدل لها **بالشعر** وهي قليلة نسبياً، واقتصرت على جزء من المباحث النحوية البسيطة كالابتداء، والنداء، والندبة، وأسماء الأفعال؛ لأنها من الأصول التي لاتحتاج إلى دليل بحسب المنهج الذي اتّبعه سيبويه في كتابه.

وقد عزّزنا ماذهبنا إليه ببيانين توضيحيّين قصدنا فيهما إحصاء الأبيات الشعرية التي استدلّ بها سيبويه في كتابه مشيرين إلى أنّ بعض هذه الأبيات استُدلّ به أكثر من مرّة، ولأكثر من قاعدة، وبأكثر من رواية، إذا كانت الرواية المعنية تخدم هدفه النحوي.

*- أمّا **الأمثال** فقد بيّنا أن سيبويه قد سبق غيره بالاهتمام بها في الأغراض النحويّة لكنّه لم يجعلها ركناً هاماً من أركان استدلاله، بل جعلها متمّمة لغيرها من طرق الاستدلال من القرآن الكريم، والشعر قاصداً الإحاطة بكل مادّة تصوّر واقع لغة العرب التي رسم ملامحها من خلال القواعد الشاملة المذكورة في كتابه.

*- أمّا استدلاله **بلغة التخاطب** فقد تبع سنّة مَن سبقه من النحاة، فأولى لغة البدو عناية تشبه عنايته بالشعر، والقرآن الكريم في الاستدلال على ماخالف الأصول، وقد استقى مادته من مصدرين؛ أوّلهما النقل عن شيوخه، وثانيهما مشافهته للأعراب، ولاحظنا من خلال عبارات سيبويه أنّه لم يخرج إلى البادية قط، بل كان يلقاهم في البصرة مؤكداً فصاحةَ من يلقاهم،ويأخذ عنهم، أو ضعفَ لغتهم إنْ شكّ فيها، وهذا النهج الذي اختطّه لنفسه متأثراً بشيوخه يجعلنا نأمن للأحكام التي يصل إليها؛ لأن القواعد التي وصلت إلينا من لغة العرب مرّت عبر مجموعة من النحاة أمثال الخليل، وسيبويه، ومن سبقهما من أئمّة النحو.

*- أمّا الأمثلة التي صنعها سيبويه فقد كانت **محاكاة** لكلام العرب، وكان أثرها كبيراً فيمن جاء بعده من النحاة حتى إنّنا نراهم يأخذون أمثلته بلا تبديل في الغالب، والسبب في ذلك ثقتهم الكبيرة فيما وصل إليه شيخهم، وقد حاول أن تكون مطابقة للمقاييس النحوية التي استنبطها، وهذه المقاييس مطابقة في الأصل لما سمعه من العرب، أو نُقِل إليه عنهم.

*- وشمل استدلاله بغير النصوص، السماع، والقياس، والعلّة؛ أمّا **السماع** فقد بيّنا أنّ سيبويه قد جمع بينه، وبين القياس جمعاً دقيقاً بارعاً، فيه أمانة السماع، وفنّ القياس، وهو بذلك يظهر تأثره الواضح بأستاذه الخليل، وعلى الرغم من الجمع بينهما، فقد كان أكثرَ اهتماماً بالسماع، وأولاه الأهميّة الأولى إن وُجدَ، ويقدّمه على القياس مصرّحاً بأنّ الكثير المسموع أولى بان يقاس عليه لأنه

الأصل، وأنّ الرأي النحويّ أولى بالردّ إنْ لم يكن له نظير من كلام العرب. وإذا استدلّ بالسماع لما خالف الأصول، وخرج عليها، فإنه يحاول أن يتأوله ليتفق مع الكثير الشائع، لأنّ النحاة الذين سبقوه بنوا على الأكثر، وجعلوا القليل لغة، وهذا مادفعه لتعليل الظواهر القليلة المسموعة، وتأويلها لتناسب الأصل المستقرى من الكثير.

*- ومن جهة أخرى فقد وصلنا إلى أنّ اهتمامه بالسماع أكثرَ من اهتمامه بالقياس لم يمنعه من ترجيح القياس في بعض المواضع على السماع، والدافع إلى ذلك أنّه لم ترد عن العرب كلُّ صورِ التراكيب، والصيغ، والجمل التي تعبّر عن المعاني المختلفة، وهو بذلك يشابه إلى حدٍّ بعيدٍ القياسَ عند الفقهاء حيث إنّ نصوص الكتاب، والسنّة، لم تقف عند الأحكام الشرعيّة جميعها؛ لما حدث في الماضي، ولما يمكن أن يحدث في المستقبل، وبناء على ذلك فقد وضحتْ ضرورة القياس لتواكب هذا التطور وتسدّ تلك الفجوة.

ونحن لاندّعي أنّ نشأة القياس عند النحاة والفقهاء كانت واحدة، بل نرجّح أنّ النشأة كانت منفصلة، أملتها الحاجة والضرورة عند كليهما، لأنّه لو اقتصرت الأحكام النحوية، واالفقهيّة على ماورد في النقل لوقفنا عاجزين أمام كثير من المسائل التي لم يرد النقل فيها، لذلك وجد النحاة والفقهاء أنفسهم مضطرين لقياس مالم يرد النقل فيه على ماورد، وفي هذه الخطوة من غير شكّ تحقّق الكثير من ضبط الأحكام، وتقعيد الأصول في كلا العِلْمَيْن.

*- أمّا العلّة النحويّة فقد وجدنا أنّ سيبويه نظر في علل من سبقه من النحاة، وعلى رأسهم شيخه الخليل فأفاد منها فائدة عظيمة، وأضاف إليها نظراته الخاصة بعد أن أدرك لغة العرب، وأبعادها، وقد أمعن سيبويه في توضيح كلام العرب، فمزج العلّة بالقياس، ووجّه جزءاً من تعليلاته نحو العوامل، وأثرها بأسلوب يتّسم بالعرض حيناً، وبالحوار مع شيخه أحياناً أخرى، وقد أكسب حوارهما

النحوَ فائدة عظيمة، فتشعبت أقسام العلّة، وتعددت أنواعها حتّى غدتْ مادّة هامّة لمن خَلَفهما من النحاة، وتفرّد الاثنان ببعض العلل فكان لهما قصب السبق في علّة التوهم، وعلّة النيّة، ورسما للنحو لمسةً أخرى من طرق الاستدلال النحوي.

*- ثم استعرضنا أثر استدلال سيبويه في تاريخ النحو، وقسمنا ذلك قسمين: الاستدلال بالنصوص، والاستدلال بغير النصوص بشكل مباشر، أوغير مباشر.

*- ففي **الأوّل** اخترنا بعض أشهر النحاة الذين تأثّروا بسيبويه مدركين صعوبة الاختيار، وعلى الرغم من ذلك فقد راعينا في اختيار النحاة تنوّعَ المدارس، والأقاليم، وعرضنا تأثّرهم بسيبويه، أو مخالفتهم له في مواضع قليلة من خلال استدلالهم بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والأمثال، ولغة التخاطب.

*- في **القرآن الكريم** وصلنا إلى أنّ أثر سيبويه قد شمل من عاصره، ومن جاء بعده، فقد تابعه النحاة في استدلالهم على ماوافق الأصول حيناً، وماخالفها أحياناً، فوقفوا عند القراءات التي خالفت الأصول فمنهم مَنْ قَبِلَها، ومنهم من ردّها. ولعل تناولاتهم للقراءات الشاذة هي نوع من اهتمامهم بما خالف الأصول؛ لأنّه لولا مخالفة القراءات لهذه الأصول في رأي النحاة آنذاك لما أطلقوا عليها اسم القراءات الشاذة.

ومن جهة أخرى فقد اهتمّ النحاة جميعهم **بالقرآن الكريم** كطريق للاستدلال، وإن كان اهتمام المتأخرين من النحاة أكبر مما عند سيبويه الذي أولى الشعر عناية فائقة، وعوّل على إنشاد العرب الفصحاء، وقد استدلّ النحاة كذلك بالقراءات القرآنية على اختلاف تصنيفها، غير أنّ النحاة الأوائل لم يدركوا تصانيف القراءات التي وضعها ابن مجاهد فصحّت قراءات صُنِّفَتْ فيما بعد بالشاذة، وزلّت قراءات وضعها المتأخرون في مصافّ القراءات الصحيحة.

بعد القرن الرابع حافظ بعض النحاة على نهج الأوائل في الاستدلال بالقراءات القرآنية، وردّ بعضها كالرضي الأستراباذي، وأخذ نحاة آخرون بالقراءات جميعها، وعدّوها صحيحة.

*- وفي الاستدلال **بالحديث الشريف**، فقد نهج المتقدّمون نهج سيبويه سواء أكانوا بصريّين أم كوفيّين، فلم يستدلّوا بالحديث الشريف إلاّ في مواضع قليلة لاتشكّل مذهباً، ثم عرضنا لمذهب ابن هشام (ت٧٦١ هـ) الذي استدل به بكثرة متأثرا بالسهيلي (ت٥٨١ هـ)، وابن مالك (ت٦٧٢ هـ). وذكرنا أنّ جهود النحاة آنذاك بقيت موجّهة نحو الاستدلال لما خالف الأصول في الغالب.

*- وفي **الشعر** تكلّمنا على النحاة الأئمة الذين عاشوا في القرنين الأول والثاني الهجريّين الذين بحثوا عن الشواهد الفصيحة سواء أكان ذلك مما سمعوه مباشرة أم من الأعراب الذين لم يخالطهم فساد أم سمعوه من شيوخهم الثقات، وكان سيبويه على رأس هؤلاء دقة وأمانة، فكان كتابه سجلاً أميناً للمرحلة التي سبقته، وكان أثره واضحاً فيمن جاء بعده على مدى قرون طويلة.

بعد ذلك تكلّمنا على المرحلة التي عاشها نحاة القرنين الثالث والرابع الذين اعتمدوا على جهود السابقين، لاسيما شواهد سيبويه، وأضافوا إليها شواهد قليلة، لكنّ ذلك لم يسعفهم في إضافة أصول جديدة؛ لأن أسلافهم سدّوا كلّ ثغرة في بنيان النحو العربي، وفي المرحلة التي تلت ذلك، لم تُضَف شواهد جديدة بشكل عام إلاّ مانَدر كاستدلالهم بشعر أبي تمام، وأبي فراس، ولم يقدّموا شيئاً جديداً.

* وفي **الأمثال** وجدنا أنّ النحاة المتأخرين قد تابعوا ماكان عليه أسلافهم، فتكرّرت الأمثال جيلاً بعد جيل مع بعض الإضافات الجديدة، واختلاف في الروايات سببها أنّ النحاة يأخذون بالرواية التي تخدم غرضهم النحوي دون ترجيح رواية على رواية أخرى. وماقلّة الاستدلال بالأمثال قياساً على

الشعر، والقرآن الكريم إلاّ لأنهما أكثر ثباتاً، وأقلّ عرضة للتبدّل والتغيير؛ الأوّل لما يحويه من وزن وقافية يحميانه إلى حدّ ما من التغيير، والثاني لما فيه من قدسية؛ أمّا المثل فهو لسان حال العربي ببساطة تركيبه، وجمال تعبيره، واختصار مفرداته، وصلاحه ليخدم المعنى في أكثر من مناسبة، وهو مايدفع بالعربي لتبديل بعض مفرداته ليستخدمها في المقام الذي هو فيه، لايمنعه من تغيير مفرداته وزنٌ، ولاقافية، ولايخشى فيه تبديلا.

*- وفي **لغة التخاطب** وجدنا أنّ النحاة نهجوا نهج سيبويه بالأخذ عن الشيوخ، ومشافهة الأعراب مباشرة، حتّى إنّ بعض النحاة كالمبرّد مثلاً استدلوا بلغة الأعراب في ردّهم على سيبويه، وإنكارهم لبعض ماجاء في كتابه.

وفي نهاية القرن الرابع بدأ النحاة يشكّون في فصاحة الأعراب، وسلامة لسانهم بعدما اختلطوا، وفسدت سليقتهم، ووجدنا كذلك أنّه مع القرنين الخامس والسادس الهجريّين تكون قد انتهت عصور المشافهة، ولم يذكر أحدٌ من نحاة تلك الفترة أنّه نقل لغة أعرابي، أو بنى على حديثه إلاّ ماندر.

- وفي **الثاني**؛ أي الاستدلال بغير النصوص تكلّمنا على السماع والقياس بعد سيبويه، وأثر سيبويه في ذلك، وانتهينا إلى أنّه قد تداخل السماع والقياس في مناهج النحاة، لاسيما المتقدمون منهم، وكلّما مرّت السنون نأى النحاة بأنفسهم عن السماع، وأخذوا بالقياس منهجاً لهم، وهذا جعلنا نتتبّع المنهجين من خلال المدرسة البصريّة، والمدرسة الكوفيّة، ومن تبعهما من غير أهل البصرة، والكوفة، فكان تقسيمنا بحسب الأفكار، لا الأمصار. وقلنا إنّ المدرسة الكوفية لاتباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو، فقد بَنَتْ نموّها على ما أحكمته البصرة من تلك الأركان التي ظلت إلى اليوم راسخة في النحو العربي، غير أنّها مع اعتمادها على تلك الأركان استطاعَتْ أنْ تشقّ لنفسها مذهباً

نحوياً جديداً له طابعه، وله أسسه ومبادؤه.

وقد كان لمدرسة **البصرة** السبقُ في الدراسة النحوية، حيث وضع نحاة البصرة دعائم النحو العربي، ولبناته الأولى، ثم جاءت مدرسة الكوفة التي رفع لواءها نحاة كوفيّون أخذوا النحو على يد نحاة البصرة، وعادوا إلى مدينتهم الكوفة؛ لينشروا ماأخذوه، وهم مدينون للبصرة بنشأة مذهبهم.

والكوفيّون لم ينقلوا من البصرة نقلاً بعيداً عن الوعي والدراية والتمحيص، بل أعادوا النظر فيما أخذوه، فعدّلوا، وغيّروا، وبدّلوا، ورسموا شخصيّتهم النحوية التي اتفقتْ مع البصريين حيناً، وخالفتهم أحياناً كثيرة. وإذا كان نحاة الكوفة قد أخذوا عن سيبويه والبصريين استدلالهم بلغة الأعراب فقد توسّعوا في أخذهم عن هؤلاء الأعراب كأعراب سواد الكوفة، وعرب الأرياف المحيطة بالمدن.

وإذا كان الكوفيون كذلك قد اعتمدوا على الكسائي، فإنّ الكسائيّ أخذ عن سيبويه حين درسَ الكتابَ على الأخفش، والفراءَ بدوره اطلع عليه، واحتفظ بنسخة منه، وتعلباً كان متبحّراً في مذهب البصريين.

وكما ذكرت فإنّ أئمة الكوفة في النحو خرجوا من بوابة البصرة، إنْ مشافهة وإن مناقلةً حتّى استوى لهم منهجهم الجديد.

فهارس البحث

-

فهرس القرآن الكريم

فهرس القراءات القرآنية وأصحابها

صاحب القراءة القرآنية	السورة والآيـة	الصفحة
- أبو جعفر	الجاثية ٤٥/١٤	٦٤
- الجمهور	النحل ١٦/٢٤	١٧٥
- الحسن البصري	الأنعام ٦/١٥٤	١٤٣، ١٤٩
		١٥٨، ١٦٥
	الأعراف ٧/٨٢	١٣٨-١٣٩
	يونـس ١٠/١٦	٤٧٢
	هـود ١١/٧٨	١٤٣، ١٥٠
		٤١٩
	الأنبياء ٢١/٩٢	١٤٣
	الجاثيـة ٤٥/٢٥	١٣٨-١٣٩
	الكوثـر ١٠٨/١	٩٧
- حماد بن سلمة	الأعراف ٧/٨٢	١٣٨-١٣٩
	الجاثية ٤٥/٢٥	١٣٨-١٣٩
- حمزة الزيات	البقرة ٢/٢٨٢	١٤٠
	النساء ٤/١	١٤٧
	المؤمنون ٢٣/٥٢	١٦٩
- الخليل بن أحمد	الأنعام ٦/١٠٩	١٢١، ١٤١
- أبو زيد	الزخرف ٤٣/٦٧	١٢٣
- زيد بن علي	الفاتحة ١/٢	١٣٨
	الأنعام ٦/١٣٩	١٤٠

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث الشريف	الصفحة
* - صلّوا كما رأيتموني أصلّي.	١٠
* - قَبِها ونِعْمَتْ.	١٨٥
* - فوالذي نفسي بيده، لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً كأساً.	١٨٧
* - كفى بالسيف شا.	٤٢٦
* - كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه، وينصّرانه.	١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ٤٢٧
* - كما تكونون يُوَلّى عليكم.	٤٢٧
* - لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن.	٥٤
* - لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد.	٤٢٦
* - ليس امبرُّ امصيامَ في امسفَر.	٤٢٤
* - ليس في الخضروات زكاة.	٤٢٧
* - ليس في الخضروات صدقة.	٤٢٧
* - ما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسنٌ.	١٦
* - ما من أيام أحبّ إلى الله عزّ وجلّ فيها الصوم منه في عشر ذي الحجّة.	١٨٣، ١٨٦، ١٨٨، ٤٢٥
* - الناس كإبلٍ مئةٍ، لاتجد فيها راحلة واحدة.	٤٢٧
* - نحن معاشرَ الأنبياء لا نورّث	٤٢٨
* - ونخلع، ونترك من يفجرك.	١٨٦

الحديث الشريف	الصفحة
*- يتعاقبون فيكم ملائكة.	٤٢٧
*- يوشك رجل متكئ على أريكته، يحدث عني، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإنَّ ما حرّم رسول الله مثل الذي حرّم الله.	١٣

فهرس الأمثـال

فهرس الأشعار

باب الباء

فصل الباء المفتوحة:

فصل الباء المضمومة:

فصل الباء المكسورة:

فصل الباء الساكنة:

باب التـاء

فصل التاء المضمومة:

شمالات	مديد	جذيمة الأبرش	٢٢٠

باب الجيـم

فصل الجيم المضمومة:

دحاريج	طويل	النابغة الجعدي	١٣١
مريج	وافر	-	٧٥
تعوجوا	وافر	-	٤٤٩

فصل الجيم المكسورة:

الفراريج	بسيط	ذو الرمّة	٢٦٨

باب الحـاء

فصل الحاء المفتوحة:

طليحة	وافر	أبو ذويب الهذلي	٢٤٤
السريحا	وافر	مضرّس بن ربعي	٢٩١

فصل الحاء المضمومة:

الطوائح	طويل	الحارث بن نهيك	١٤٥، ٣٩٧
نابح	طويل	-	١٩٧
تصيح	طويل	أبو ذويب الهذلي	٣١٢
والمراح	مجزوء الكامل	الحارث بن عباد	٣١٤
الوقاح	مجزوء الكامل	الحارث بن عباد	٣١٤

باب الراء

فصل الراء الساكنة:

فصل الراء المفتوحة:

باب الزاي

صل الزاي المضمومة:

باب السين

صل السين المضمومة:

صل السين المكسورة:

باب الصاد

باب الضاد

باب الطاء

باب العين

باب القاف

باب الكاف

باب الـلام

باب الميم

باب النــون

باب اليـاء

باب الألف اللينة

فهرس الأرجاز

البـاء

التـاء

الدال

الـراء

الكـاف

الـلام

الميـم

النـون

اليـاء

فهرس الأعلام (١)

الهمزة:

(١)- أسقطنا من فهرس الأعلام الخليل، وسيبويه لكثرة ورودهما كثرةً مفرطةً، وأسقطنا من الأعلام لفظ ابن، وابنة، وبنت، وأبو، وأم، وذو، وآل)

الحاء :

الخاء :

الدال :

الراء :

الزاي:

السين :

الشين:

الصاد:

الضاد:

الطاء :

العين :

الغين :

الفاء :

القاف:

الكاف:

اللام:

الميم:

النون:

الهاء:

الواو:

الياء:

* الفهرس الثامن *

فهرس الأعـلام
الذين تُرجم لهم في الحواشي

الهمزة:

الخاء :

الدال :

الراء :

الزاي :

السين :

الفاء :

القاف :

الكاف :

اللام :

الميم :

الياء :

* الفهرس التاسع *

فهرس القبائل[1]

والأقوام والجماعات

---

(١)- أسقطنا لفظ (قبيلة، وبنو) في ترتيبنا

النون :

الهاء :

الواو:

* الفهرس العاشر *

فهرس المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم:**

الآمدي : أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، ت ٣٧٠هـ.

٢- **الإحكام في أصول الأحكام .**

مطبعة المعارف ١٣٣٢هـ.

٣- **المؤتلف والمختلف.**

تح: عبد الستار فراج، القاهرة ١٩٦١م

إبراهيم حسن: حسن إبراهيم حسن

٤- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.**

الطبعة السابعة، مصر ١٩٦٤م.

ابن الأثير: المبارك بن محمد بن الجزري ت ٦٠٦ هـ.

٥- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**

مصر ١٢٨٠ هـ.

٦- **جامع الأصول في أحاديث الرسول.**

دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨٣ م.

٧- **النهاية في غريب الحديث .**

تح: الزاوي والطناحي، القاهرة ١٣٨٣ هـ.

الأخطل : أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت التغلبي، ت ٩٠ هـ.

٨- ديوان الأخطل

تح: أنطون صالحاني، بيروت ١٨٩١ م.

الأخفش الأوسط: أبو الحسن سعيد بن مسعدة، ت ٢١٥هـ.

٩- معاني القرآن

تح: فائز فارس، الطبعة الثانية، الكويت ١٩٨١ م.

ونسخة أخرى تح: عبد الأمير محمد أمين الورد، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٥ م . وقد أشرنا إليها في الحاشية.

أرسطو:

١٠- منطق أرسطو

تح: عبد الرحمن بدوي، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨ م.

الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر، ت ٣٧٠ هـ.

١١- تهذيب اللغة

تح: عبد السلام هارون ١٩٦٤ م.

الأسد : ناصر الدين

١٢- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية.

مصر ١٩٦٢ م.

الأصبهاني: أبو نعيم، عبيد الله بن الحسن بن أحمد ت ٥١٧ هـ.

١٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.

مصر ١٣٥١ هـ.

الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦ هـ.

١٤- كتاب الأغاني

مصور عن طبعة دار الكتب، مصر بلا تاريخ

وطبعة الساسي، وقد أشرنا إليها في الحاشية.

١٥- مقاتل الطالبيين.

مصر ١٩٤٩ م.

الأعشى : أبو بصير، ميمون بن قيس بن جندل ت ٧ هـ.

١٦- ديوان الأعشى

تح: رودولف جاير، فينا ١٩٢٧ م.

الأفغاني : سعيد

١٧- في أصول النحو

مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤ م.

الألوسي : أبو الفضل، شهاب الدين محمود.

١٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

دار إحياء التراث العربي، بيروت بلا تاريخ.

١٩- الضرائر

المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ.

امرؤ القيس: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ت ٨٠ ق.هـ.

٢٠- ديوان امرئ القيس

تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ١٩٥٨ م.

الأنباري : أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، كمال الدين ت ٥٧٧ هـ.

٢١- الإغراب في جدل الإعراب.

تح: سعيد الأفغاني، الجامعة السورية ١٩٥٧ م.

٢٢- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، البصريين والكوفيين.

تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة مصر ١٩٦١ م.

٢٣- لمع الأدلة

تح: سعيد الأفغاني، الجامعة السورية ١٩٥٧ م.

٢٤- نزهة الألباء في طبقات الأدباء.

تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٧ م.

الأنباري : أبو بكر، محمد بن القاسم ت ٣٢٨ هـ.

٢٥- إيضاح الوقف والابتداء.

تح: محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧١ م.

٢٦- شرح القصائد السبع الطوال.

تح: عبد السلام هارون ١٩٦٣ م.

أنيس: إبراهيم ورفاقه.

٢٧- المعجم الوسيط.

دار إحياء التراث العربي الطبعة الثانية، مصر ١٩٧٣ م.

الباجي : أبو الوليد، سليمان بن خلف ت ٤٧٤ هـ.

٢٨- كتاب الحدود في الأصول.

تح: نزيه حماد، بيروت ١٩٧٣ م.

الباقلاني : أبو بكر، محمد بن الطيب القاضي الباقلاني ت ٤٠٣هـ.

٢٩- الإنصاف فيما يجب اعتقاده، ولا يجوز الجهل به.

مطبعة السنة المحمدية، القاهرة بلا تاريخ.

البخاري : أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ.

٣٠- أحاديث الجامع الصحيح.

طبع عثمان خليفة.

وطبعة بولاق التي أشرنا إليها في الحاشية.

٣١- صحيح البخاري.

مطابع دار الشعب، القاهرة .

البرازي: صفوة بشير ت ١٩٩١م.

٣٢- منهج الأخفش في إعراب القرآن.

رسالة ماجستير، معهد الداسات الإسلامية، مصر.

بروكلمان : كارل

٣٣- تاريخ الأدب العربي.

ترجمة عبد الحليم النجار، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر.

البغدادي: أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب ت ٤٦٣ هـ.

٣٤- تاريخ بغداد

مصر ١٣٤٩ هـ.

البغدادي: عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣ هـ.

٣٥- خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب.

بولاق ١٢٩٩ هـ.

البكري: أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧ هـ.

٣٦- اللآلي في شرح أمالي القالي.

مصر ١٩٣٦م.

الترمزي: أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن ت بعد ٣١٨ هـ.

٣٧- صحيح الترمذي.

شرح ابن العربي المالكي. الطبعة الأولى، مصر ١٩٣٤ م.

ابن تغري بردي : أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ.

٣٨- النجوم الزاهرة.

دار الكتب المصرية ١٣٤٨ - ١٣٧٥ هـ.

التلمساني : أبو عبد الله، الشريف التلمساني المالكي ت ٨٤٧ هـ.

٣٩- مفتاح الوصول في ابتناء الفروع على الأصول.

دار الكتاب العربي، مصر ١٩٦٢ م.

ابن ثابت: حسان ت ٥٤ هـ.

٤٠- ديوان حسان بن ثابت.

تح: وليد عرفات ١٩٧٤ م.

ثعلب : أبو العباس، أحمد بن يحيى ت ٢٩١ هـ.

٤١- مجالس ثعلب.

تح: عبد السلام هارون، مصر الطبعة الثانية ١٩٥٦ م.

الجاحظ: أبو عثمان، عمر بن بحر بن محبوب الكناني ت ٢٥٥هـ.

٤٢- البيان والتبيين.

تح: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٩ م.

٤٣- الحيوان.

تح: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية.

جرير: أبو حَزْرة، جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ت ١١٠ هـ.

٤٤- ديوان جرير

الصاوي ١٣٥٣ هـ.

ابن الجزري : محمد بن محمد ت ٨٣٣ هـ.

٤٥- غاية النهاية في طبقات القراء.

تح: ج . برجستراسر، مصر ١٩٣٢ م.

٤٦- النشر في القراءات العشر.

تصحيح: علي محمد الضباع، مصر بلا تاريخ.

جطـــل : مصطفى صالح

٤٧- نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة.

جامعة حلب ١٩٧٨-١٩٧٩ م.

جمعـــة: خالد عبد الكريم .

٤٨- شواهد الشعر في كتاب سيبويه.

الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م.

جميل بثينـة: جميل بن عبد الله بن معمر العذري ت ٨٢ هـ.

٤٩- ديوان جميل

جمع وتحقيق: حسين نصار، دار مصر للطباعة ١٣٨٢ هـ.

ابن جني : أبو الفتح، عثمان بن جني ت ٣٩٢ هـ.

٥٠- الخصائص.

تح: محمد علي النجار، الطبعة الثانية بيروت بلا تاريخ.

٥١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، والإيضاح عنها.

الجزء الأول: تح: النجدي ناصف، والنجار، وشلبي، القاهرة ١٣٨٦ هـ.

الجزء الثاني: تح: النجدي ناصف، وشلبي، القاهرة ١٣٨٩ هـ.

٥٢- المنصف في شرح التصريف.

تح: إبراهيم مصطفى ١٣٧٩ هـ.

ابن الجوزي: أبو الفرج، جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٩٧ هـ.

٥٣- صفوة الصفوة.

حيدر آباد ١٣٥٥ هـ.

أبو جيب: سعدي

٥٤- القاموس الفقهي، لغة واصطلاحاً.

دار الفكر، الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٢ م.

الحديثي: خديجة

٥٥- أبنية الصرف في كتاب سيبويه.

بغداد ١٩٦٥م.

٥٦- كتاب سيبويه وشروحه.

الطبعة الأولى بغداد ١٩٦٧ م.

ابن حزم: أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ت ٤٥٦ هـ.

٥٧- جمهرة أنساب العرب.

مصر ١٩٤٨ م.

حسن: عباس

٥٨- اللغة والنحو بين القديم والحديث.

دار المعارف، مصر ١٩٦٦ م.

٥٩- النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة، والحياة اللغوية المتجددة.

دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة .

حسين : محمد الخضر

٦٠- القياس في اللغة العربية .

الطبعة الثانية، مصر ١٩٨٣ م.

الحلواني : محمد خير

٦١- الاحتجاج وأصوله في النحو العربي.

رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر ١٩٧٤ م.

٦٢- سحيم عبد بني الحسحاس، شاعر الغزل والصبوة.

حلب ١٩٧٣ م.

٦٣- المفصل في تاريخ النحو.

الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٩ م.

ابن حنبل: أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ.

٦٤- مسند ابن حنبل.

بهامشه منتخب كنز العمال للمتقي الهندي،

دار المعارف بمصر بلاتاريخ .

وطبعة ١٩٤٨ م. التي أشرنا إليها في الحاشية.

أبو حيان: الأندلسي، محمد بن يوسف، ت ٧٤٥ هـ.

٦٥- البحر المحيط.

مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ.

أبو حيان: التوحيدي، علي بن محمد بن العباس ت ٣٨٠ هـ.

٦٦- البصائر والذخائر.

القاهرة ١٣٧٣ هـ.

ابن خالويه: الحسين بن أحمد ت ٣٧٠ هـ.

٦٧- **المختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع.**

عُني بنشره: ج برجستراسر، المطبعة الرحمانية، مصر ١٩٣٤ م.

خلاّف : عبد الوهاب ت ١٩٥٥ م.

٦٨- **أصول الفقه.**

بلا تاريخ.

ابن خلدون: أبو زيد، ولي الدين، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ت ٨٠٨ هـ.

٦٩- **مقدمة كتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.**

القاهرة، بلا تاريخ.

ابن خلكان: أبو العباس، شمس الدين، أحمد بن محمد بن إبراهيم ت ٦٨١ هـ.

٧٠- **وفيات الأعيان.**

مصر ١٣١٠ هـ.

خليفة : حاجي، مصطفى بن عبد الله المشهور بـ (كاتب چلبي) ت ١٠٦٧هـ.

٧١- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.**

مصر ١٩٤١ م.

الداني : أبو عمرو، عثمان بن سعيد ت ٤٤٤ هـ.

٧٢- **التيسير في القراءات السبعة.**

استانبول، ١٩٣٠ م.

أبو داود: سليمان بن أشعث السجستاني ت ٢٧٥ هـ.

٧٣- سنن أبي داود.

راجعه: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

درويش: محيي الدين

٧٤- إعراب القرآن الكريم، وبيانه.

دار الإرشاد، حمص الطبعة الأولى ١٩٨٠ م.

ابن دريد: أبو بكر، محمد بن الحسين بن دريد ت ٣٢١ هـ.

٧٥- الاشتقاق.

تح: عبد السلام هارون ١٩٥٨ م.

٧٦- جمهرة اللغة.

حيدر آباد ١٣٤٤ - ١٣٥١ هـ.

٧٧- وصف المطر والسحاب.

تح: عز الدين التنوخي، دمشق ١٩٦٣ م.

الدمياطي: شهاب الدين، أحمد بن محمد الدمياطي النقشبندي البنّا ت ١١١٧ هـ.

٧٨- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر.

مطبعة حنفي، مصر ١٣٥٩ هـ.

الدؤلي : أبو الأسود، ظالم بن عمرو الكناني ت ٦٩ هـ.

٧٩- ديوان أبي الأسود الدؤلي.

تح: محمد حسن آل ياسين، بغداد ١٣٨٤ هـ.

دي بور:

٨٠- تاريخ الفلسفة في الإسلام.

ترجمة محمد عبد الهادي، الطبعة الرابعة ١٣٧٤ هـ.

الذهبي: أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ.

٨١- تذكرة الحفّاظ.

حيدر آباد ١٣٣٣ هـ.

٨٢- سير النبلاء (سير أعلام النبلاء).

مصر بلا تاريخ.

٨٣- ميزان الاعتدال في نقد الرجال.

مصر ١٣٢٥ هـ.

الرافعي: مصطفى صادق

٨٤- تاريخ آداب العرب.

الطبعة الثانية مصر ١٩٤٠ م.

ابن رشد: أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي ت ٥٩٥ هـ.

٨٥- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.

القاهرة بلا تاريخ.

ابن رشيق: أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني ت ٤٦٣ هـ.

٨٦- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.

تح: محيي الدين عبد الحميد، بيروت.

ذو الرمة: غيلان بن عقبة ت ١١٧ هـ.

٨٧- ديوان ذي الرمة.

تح: كارليل هنري هيس. كمبردج ١٩١٩ م.

أبو ريّان: محمد علي

٨٨- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام.

دار النهضة العربية، ١٩٧٦ م.

الزبيدي : أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف اليمني ت ٨٩٣ هـ.

٨٩- التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح .

تصوير دار الإرشاد.

الزبيدي : أبو بكر، محمد بن الحسن بن عبيد الله ت ٣٧٩ هـ.

٩٠- طبقات النحويين واللغويين.

تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٤ م.

و طبعة ١٩٧٣ م. وقد أشرنا إليها في الحاشية .

الزبيري: أبو عبد الله، مصعب بن عبد الله بن مصعب ت ٢٣٦ هـ.

٩١- نسب قريش .

مصر ١٩٥٣ م.

الزجاجي: أبو القاسم، عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٣٧ هـ.

٩٢- أمالي الزجاجي .

تح: عبد السلام هارون ١٩٥٠م.

٩٣- الإيضاح في علل النحو.

تح: مازن المبارك، القاهرة ١٣٧٨ هـ.

٩٤- كتاب الجمل في النحو.

تح: علي توفيق الحمد، بيروت ١٩٨٤ م.

٩٥- مجالس العلماء.

تح: عبد السلام هارون، الكويت ١٩٦٢ م.

أبو زرعة: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ت بعد ٤٠٣ هـ.

٩٦- حجة القراءات.

تح:سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

الزركلي : أبو الغيث، خير بن محمد ت ١٩٧٦ م.

٩٧- الأعلام.

دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة بيروت ١٩٨٠ م.

الزمخشري: أبو القاسم، جار الله، محمود بن عمر الخوارزمي ت ٥٣٨ هـ.

٩٨- الأحاجي النحوية.

تح: مصطفى الحدري ، حماة ١٩٦٩ م.

٩٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

دار المعرفة، بيروت.

أبو زهرة : محمد ت ١٩٧٤ م.

١٠٠- أصول الفقه.

دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨ م.

١٠١- الحديث والمحدثون.

القاهرة ١٩٥٨م.

زهير: زهير بن أبي سلمى المزني ت ١٣ ق.هـ.

١٠٢- ديوان زهير بن أبي سلمى.

دار الكتب ١٣٦٣ هـ.

السخاوي: أبو الخير، شمس الدين، محمد بن عبد الرحمن بن محمد ت ٩٠٢ هـ.

١٠٣- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة.

نشر مكتبة الخانجي، مصر ١٩٥٦ م.

ابن سعد: أبو عبد الله، محمد بن سعد بن منيع ت ٢٠٣ هـ.

١٠٤- الطبقات الكبير.

ليدن ١٣٢١ هـ.

السكاكي: أبو يعقوب، سراج الدين، يوسف بن أبي بكر بن محمد ت ٦٢٦ هـ.

١٠٥- مفتاح العلوم.

القاهرة ١٣١٧ هـ.

ابن سلاّم: أبو عبد الله، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي ت ٢٣٢هـ.

١٠٦- طبقات فحول الشعراء.

تح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، بلا تاريخ .

وطبعة القاهرة ١٩٧٤ م. وقد أشرنا إليها في الحاشية.

سلقيني : إبراهيم

١٠٧- أصول الفقه الإسلامي.

جامعة دمشق ١٩٨٤-١٩٨٥ م.

سيبويه : أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر ت ١٨٠ هـ.

١٠٨- الكتاب .

تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، بلا تاريخ.

وطبعة بولاق التي أشرنا إليها في الحاشية.

ابن سيدة: الأندلسي، علي بن إسماعيل ت ٤٥٨ هـ.

١٠٩- المخصص.

المطبعة الأميرية ١٣١٦- ١٣٢٦ هـ.

السيرافي: أبو سعيد، الحسن بن عبد الله بن المرزبان ت ٣٦٨ هـ.

١١٠- أخبار النحويين البصريين.

كرنكو، بيروت ١٩٣٩ م.

تح: محمد إبراهيم البنا، الطبعة الأولى ١٩٨٥م. وقد أشرنا إليها في الحاشية.

وطبعة الجزائر ١٩٣٦م. وقد أشرنا إليها في الحاشية.

١١١- شرح أبيات سيبويه.

تح: محمد علي الريح هاشم، القاهرة ١٩٧٤ م.

ابن سينا: الشيخ الرئيس، أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن ت ٤٢٨هـ.

١١٢- منطق الإشارات.

بلا تاريخ.

السيوطي: جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ.

١١٣- الإتقان في علوم القرآن.

الطبعة الثالثة ١٩٥١ م.

١١٤- الأشباه والنظائر في النحو.

تح: إبراهيم محمد عبد الله، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٦ م.

والطبعة الثانية، حيدر آباد، وقد أشرنا إليها في الحاشية.

١١٥- كتاب الاقتراح.

نشر دار المعارف لصاحبها (أبو الحسنات) حلب.

١١٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.

مصر ١٣٢٦ هـ.

١١٧- الجامع الكبير.

بلا تاريخ

١١٨- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام.

تح: النشار الطبعة الأولى بلا تاريخ.

١١٩- شرح شواهد المغني.

مصر ١٣٢٢ هـ.

وطبعة أخرى بتصحيح الشنقيطي، ببيروت بلا تاريخ وقد أشرنا إليها في الحاشية.

١٢٠- المزهر .

تح: جاد المولى وصاحبيه، القاهرة بلا تاريخ.

١٢١- همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية.

بيروت بلا تاريخ.

الشاطبي: أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى ت ٧٩٠ هـ.

١٢٢- الموافقات في أصول الأحكام.

مطبعة المكتبة التجارية.

ابن الشجري: أبو السعادات، هبة الله بن علي بن محمد ت ٥٤٢ هـ.

١٢٣- أمالي ابن الشجري.

حيدر آباد ١٣٤٩ هـ.

الشريشي: محمد بن أحمد بن محمد ت ٦٨٥ هـ.

١٢٤- شرح المقامات الحريرية.

تح: عبد المنعم خفاجي، القاهرة ١٩٥٢ م.

شلبي : عبد الفتاح.

١٢٥- أبو علي الفارسي.

القاهرة ١٩٥٤م.

الشماخ: معقل بن ضرار ت ٢٢ هـ.

١٢٦- ديوان الشماخ بن ضرار.

مطبعة السعادة ١٣٢٧ هـ.

الشنتمري : الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى ت ٤٧٦ هـ.

١٢٧- شعر زهير بن أبي سلمى.

تح: فخر الدين قباوة، حلب ١٩٧٠م.

الشوكاني: أبو عبد الله، محمد بن علي، الإمام الشوكاني ت ١٢٥٥ هـ.

١٢٨- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول.

الطبعة الأولى بلا تاريخ.

الصالح: محمد أديب

١٢٩- لمحات في أصول الحديث والبلاغة النبوية.

دمشق ١٣٨٨ هـ.

الصدر: محمد باقر

١٣٠- الأسس المنطقية للاستقراء.

الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٢م.

الصغير: محمود

١٣١- توجيه النحاة للقراءات الشاذة.

رسالة ماجستير، جامعة حلب ١٩٨٥م.

ضيف: شوقي

١٣٢- المدارس النحوية.

القاهرة ١٩٦٨م.

طاشكبري زاده: أبو الخير، أحمد بن مصطفى ت ٩٦٨ هـ.

١٣٣- مفتاح السعادة ومصباح السيادة.

الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن ١٣٢٨-١٣٥٦هـ.

الطباخ: محمد راغب بن محمود ت ١٣٧٠ هـ.

١٣٤- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.

حلب ١٣٤٢ هـ.

الطبري: أبو جعفر، محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ.

١٣٥- تاريخ الأمم والملوك.

مصر ١٣٢٦ هـ.

١٣٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

تح: محمود محمد شاكر، مصر ١٩٦٩م.

طرفة: طرفة بن العبد بن سفيان ت نحو ٦٠ ق هـ.

١٣٧- ديوان طرفة بن العبد.

بشرح أحمد بن الأمين الشنقيطي، قازان ١٩٠٩م.

الطرماح: الطرماح بن حكيم ت نحو ١٢٥هـ.

١٣٨- ديوان الطرماح بن حكيم.

تح: فريتس كرنكو، لندن ١٩٢٧م.

طفيل الغنوي: طفيل بن عوف الغنوي ت نحو ١٣ ق هـ.

١٣٩- ديوان طفيل الغنوي.

تح: فريتس كرنكو، لندن ١٩٢٧م.

أبو الطيب اللغوي: عبد الواحد بن علي العسكري ت ٣٥١ هـ.

١٤٠- **مراتب النحويين.**

مصر ١٣٧٥ هـ.

عبابنة : جعفر نايف

١٤١- **مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي.**

عمان ١٩٨٤م.

أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي ت ٢١٠هـ.

١٤٢- **مجاز القرآن.**

تح: محمد فؤاد سزكين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

عبد الباقي: محمد فؤاد

١٤٣- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.**

دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

العجاج: أبو الشعثاء، عبد الله بن رؤبة ت نحو ٩٠ هـ.

١٤٤- **ديوان العجاج.**

تح: عزة محمد حسن، بيروت ١٩٧١م.

عدي: عدي بن زيد العبادي ت ٣٥ ق.هـ.

١٤٥- **ديوان عدي بن زيد.**

تح: محمد جبار المعيبد، بغداد ١٩٦٥م.

العسقلاني: ابن حجر، أبو الفضل ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢هـ.

١٤٦- **تهذيب التهذيب.**

حيد آباد الدكن ١٣٢٥-١٣٢٧ هـ.

١٤٧- **الإصابة في تمييز الصحابة.**

مصر ١٣٥٨ هـ.

عضيمة : محمد عبد الخالق

١٤٨- أبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية.

الطبعة الأولى ، الرياض ١٤٠٥ هـ.

١٤٩- فهارس كتاب سيبويه.

الطبعة الأولى، مصر ١٩٧٥م.

ابن عقيل: بهاء الدين، عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ت ٧٦٩ هـ.

١٥٠- أضواء على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك.

السعودية ١٩٧٢م.

علقمة الفحل: علقمة بن عبدة ت نحو ٢٠ ق‌هـ.

١٥١- ديوان علقمة الفحل.

من مجموع خمسة دواوين، الوهبية ١٢٩٣ هـ.

عياد: شكري

١٥٢- اللغة والإبداع.

الطبعة الأولى، مصر ١٩٨٨م.

العيني : أبو الثناء، بدر الدين، محمود بن أحمد ت ٨٥٥هـ.

١٥٣- المقاصد النحوية.

مصر ١٢٩٩هـ.

الغزالي : حجة الإسلام، الإمام أبو حامد، محمد بن محمد بن أحمد ت ٥٠٥ هـ.

١٥٤- المستصفى.

الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٢٢هـ.

١٥٥- المنقذ من الضلال.

تح: عبد الحليم محمود، مكتبة الأنجلو ١٩٥٥م.

الفارابي : أبو نصر، محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ت ٣٣٩ هـ.

١٥٦- كتاب الحروف.

تح: محسن مهدي، بيروت ١٩٦٩م.

الفارسي: أبو علي، الحسن بن أحمد، ت ٣٧٧هـ.

١٥٧- الحجة في علل القراءات السبع.

تح: ناصف ورفيقيه، القاهرة ١٩٦٥م.

أبو الفداء : الملك المؤيد، إسماعيل أبي الفداء

١٥٨- المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء).

المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ.

الفراء: أبو زكريا، يحيى بن زياد ت ٢٠٧ هـ.

١٥٩- معاني القرآن.

بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

١٦٠- المذكر والمؤنث.

تح: مصطفى الزرقا، حلب ١٣٤٥ هـ.

الفرزدق: همام بن غالب ت ١١٠ هـ.

١٦١- ديوان الفرزدق.

نشر الصاوي ١٣٥٤ هـ.

الفضلي : عبد الهادي

١٦٢- القراءات القرآنية.

دار القلم ١٩٨٠م.

فـــك: يوهان

١٦٣- العربية.

ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة ١٩٥١م.

الفيروز آبادي: مجد الدين، محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ.

١٦٤- القاموس المحيط.

مكتبة النوري، دمشق.

القاضي: عبد الفتاح

١٦٥- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرّي.

الطبعة الأولى ١٩٨١م.

القالي: أبو علي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون ت ٣٥٦هـ.

١٦٦- الأمالي .

دار الكتب ١٣٤٤هـ.

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦هـ.

١٦٧- الشعر والشعراء.

تح: احمد محمد شاكر، مصر ١٩٦٦م.

وطبعة أخرى ١٩٣٢م. أشرنا إليها في الحاشية.

١٦٨- المعارف .

المطبعة الإسلامية ١٣٥٣هـ.

ابن قدامة: المقدسي، أبو محمد، موفق الدين، عبد الله بن أحمد ت ٦٢٠هـ.

١٦٩- روضة الناظر.

المطبعة السلفية ١٣٨٧ هـ.

القرطبي: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر ت ٦٧١ هـ.

١٧٠- الجامع لأحكام القرآن.

دار الكتب المصرية، بلا تاريخ.

القرشي: أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب ت ١٧٠ هـ.

١٧١- جمهرة أشعار العرب.

بولاق ١٣٠٨ هـ.

القفطي : علي بن يوسف ت ٦٤٦ هـ.

١٧٢- إنباه الرواة على أنباه النحاة.

دار الكتب، مصر ١٣٦٩-١٣٧٤ هـ.

القيرواني: القزاز

١٧٣- ما يجوز للشاعر في الضرورة.

تح: المنجي الكعبي، تونس ١٩٧١م.

القيسي: مكي بن أبي طالب ت ٤٣٧ هـ.

١٧٤- مشكل إعراب القرآن.

تح: ياسين محمد السواس، دار المأمون، الطبعة الثانية، دمشق بلا تاريخ

ابن قيم: الجوزية ، أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر ت ٧٥١هـ.

١٧٥- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

تح: محمد جميل غازي، جدة ١٩٨٥م.

الكافيجي: أبو عبد الله، محيي الدين محمد، بن سليمان الرومي ت ٨٧٩ هـ.

١٧٦- شرح قواعد الإعراب.

تح: فخر الدين قباوة، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٧م.

الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد

١٧٧- فوات الوفيات.

مصر ١٢٩٩ هـ.

ابن كثير: أبو الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ.

١٧٨- البداية والنهاية في التاريخ.

مصر ١٣٥١-١٣٥٨ هـ.

١٧٩- تفسير القرآن العظيم.

دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩م.

كحالة: رضا

١٨٠- معجم قبائل العرب.

بيروت ١٩٦٨م.

الكفوي : أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني ت ١٠٩٤ هـ.

١٨١- الكلّيّات .

دمشق ١٩٨١م.

لبيـد: أبو عقيل، لبيد بن ربيعة العامري ت نحو ٤١ هـ.

١٨٢- ديوان لبيد.

تح: إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢م.

ابن ماجـة : القزويني، محمد بن يزيد ت ٢٧٣ هـ.

١٨٣- سنن المصطفى .

الطبعة الأولى، المطبعة التازية، مصر

ابن مالك: أبو محمد، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد الأنصاري المصري ت ٧٦١ هـ.

١٨٤- أوضح المسالك لألفية ابن مالك.

ومعه كتاب هداية السالك إلى تحقيق أوضح المسالك لمحمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، مصر ١٩٥٦م.

المبارك: مازن

١٨٥- النحو العربي : العلّة النحوية، نشأتها وتطورها.

المكتبة الحديثة ١٩٦٥م.

١٨٦- الرماني النحوي.

دمشق ١٩٦٣م.

المبرد: أبو العباس، محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ.

١٨٧- الفاضل.

تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب، مصر ١٣٧٥هـ.

١٨٨- الكامل في اللغة والأدب.

تح: شاكر والمبارك. القاهرة بلا تاريخ.

ونسخة أخرى بتحقيق أبي الفضل وقد أشرنا إليها في الحاشية.

١٨٩- المقتضب.

تح: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت بلا تاريخ.

المتنبي: أبو الطيب، أحمد بن الحسين ت ٣٥٤ هـ.

١٩٠- ديوان المتنبي بشرح العكبري .

مكة المكرمة ١٣٩٧هـ.

ابن مجاهد: أبو بكر، أحمد بن موسى ت ٣٢٤هـ.

١٩١- السبعة في القراءات.

تح: شوقي ضيف، القاهرة ١٩٧٢م.

المخزومي: مهدي

١٩٢- مدرسة الكوفة.

القاهرة ١٩٥٨م.

مدكور: إبراهيم

١٩٣- في اللغة والأدب.

سلسلة اقرأ، مصر

المرادي: أبو محمد، الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي ت ٧٤٩هـ.

١٩٤- الجنى الداني في حروف المعاني.

تح: طه محسن ، العراق ١٩٧٦م.

المرتضى: الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى ت ٤٣٦هـ.

١٩٥- أمالي المرتضى .

مصر ١٣٢٥ هـ.

المرزباني: أبو عبيد الله، محمد بن عمران بن موسى ت ٣٨٤هـ.

١٩٦- معجم الشعراء.

تح: عبد الستار فراج، مكتبة النوري، دمشق بلا تاريخ.

مسعود: فوزي

١٩٧- سيبويه جامع النحو العربي.

مصر، ١٩٨٦م.

المسعودي: أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٥هـ.

١٩٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر.

مصر ١٢٨٣هـ.

مسلم: مسلم بن حجاج القشيري ت ٢٦١ هـ.

١٩٩- صحيح الإمام مسلم.

القاهرة ١٣٤٩ هـ.

مصري : يحيى

٢٠٠- الرضي الأستراباذي، دراسة وتحقيق.

رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.

ابن مضاء: القرطبي، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ت ٥٩٢ هـ.

٢٠١- الرد على النحاة.

تح: شوقي ضيف، مصر ١٩٤٧م.

ابن المعتز: أبو العباس، عبد الله بن المعتز بالله ت ٢٩٦ هـ.

٢٠٢- طبقات الشعراء.

تح: عبد الستار فراج، مطبعة دار المعارف ١٩٦٨م.

المعري: أبو العلاء، أحمد بن عبد الله بن سليمان ت ٤٤٩ هـ.

٢٠٣- رسالة الغفران .

تح: بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، الطبعة الثانية، مصر بلا تاريخ.

والطبعة الرابعة في مصر، وقد أشرنا إليها في الحاشية.

٢٠٤- رسالة الملائكة.

تح: سليم الجندي، بيروت، بلا تاريخ.

المفضل الضبي: أبو العباس، المفضل بن محمد بن يعلى ت ١٦٨هـ.

٢٠٥- المفضليات.

تح: أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ١٣٧١هـ.

الملوي : ٢٠٦- شرح الملوي على السلّم.

المطبعة الأزهرية المصرية.

المناوي: محمد عبد الرؤوف ت ١٠٣١ هـ.

٢٠٧- فيض القدير.

طبعة مصطفى محمد، مصر، بلا تاريخ.

ابن منظور: الافريقي، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ.

٢٠٨- لسان العرب.

بيروت ، بلا تاريخ.

الميداني: أبو الفضل النيسابوري، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ت ٥١٨هـ.

٢٠٩- مجمع الأمثال.

تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النصر، دمشق وبيروت

بلا تاريخ.

النابغة: زياد بن معاوية الذبياني، ت نحو ١٨ ق.هـ.

٢١٠- ديوان النابغة.

من مجموع خمسة دواوين، الوهبية ١٢٩٣ هـ.

النابغة : قيس بن عبد الله، الجعدي ت ٥٠ هـ.

٢١١- ديوان النابغة الجعدي.

تح: عبد العزيز رباح، دمشق ١٣٨٤هـ.

ناصف: علي النجدي

٢١٢- **سيبويه إمام النحاة.**

عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

النحاس: أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٣٣٨هـ.

٢١٣- **إعراب القرآن.**

تح: زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٠م.

ابن النديم: محمد بن إسحاق ت ٤٣٨هـ.

٢١٤- **الفهرست.**

مطبعة الإستقامة بلا تاريخ.

وطبعة طهران بلا تاريخ، وقد أشرنا إليها في الحاشية.

النسائي : أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي ت ٣٠٣هـ.

٢١٥- **المجتبى في مختصر السنن الكبرى.**

المطبعة المصرية، ١٣١٢هـ.

النسفي: أبو البركات ، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ت ٧٠١هـ.

٢١٦- **تفسير القرآن الجليل؛ المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل.**

دار الكتاب العربي، بيروت بلا تاريخ.

٢١٧- **كشف الأسرار على شرح المنار.**

المطبعة الأميرية بلا تاريخ.

النشار: علي سامي

٢١٨- **مناهج البحث عند مفكري الإسلام.**

دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

نصار: حسين

٢١٩- يونس بن حبيب.

سلسلة أعلام العرب، القاهرة ١٩٦٨م.

النفاخ: أحمد راتب

٢٢٠- فهرس شواهد سيبويه.

بيروت ١٩٧٠م.

الهذليون : **٢٢١- ديوان الهذليين.**

دار الكتب ١٣٦٩ هـ.

الهروي : أبو عبيدة، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن ت ٤٠١ هـ.

٢٢٢- غريب الحديث.

بلا تاريخ.

ابن هشام: أبو محمد، جمال الدين، عبد الله بن يوسف ت ٧٦١ هـ.

٢٢٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.

تح: مازن المبارك ، محمد علي حمد الله. دمشق ١٣٨٤هـ.

ولفنسون : إسرائيل

٢٢٤- تاريخ اللغات السامية.

القاهرة ١٩٢٩م.

ياقوت الحموي: أبو عبد الله، شهاب الدين، ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ.

٢٢٥- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب).

طبعة الرفاعي، القاهرة، بلا تاريخ.

وطبعة دار المأمون، وقد أشرنا إليها في الحاشية.

٢٢٦- معجم البلدان.

مصر ١٣٢٣-١٣٢٥ هـ.

ابن يعيش: موفق الدين، يعيش بن علي بن يعيش، ت ٦٤٣ هـ.

٢٢٧- شرح المفصّل.

عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة بلا تاريخ.

المجلات : **٢٢٨-مجلة مجمع اللغة العربية.**

المجلد ١٨ الجزء العاشر.

٢٢٩- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

المجلد ١٤ لعام ١٩٢٨م.

****

****

****

***

**

*